

الجاحظ

# رسائل الجاحظ

الرسائل السياسية

قدّم لها وبيّنها وشرحها  
الدكتور علي أبو ملحم

منشورات

دار ومكتبة الهلال

بيروت

سَنَاءُ الْجَاهِلِ

جميع الحقوق محفوظة للناشر  
الطبعة الأخيرة

م 2002

مركز تحقيقات الكمبيوتر علوم إرسودي

تطلب منشوراتنا من :

دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر

بنر الصية - شارع مكربل - بناهية برج الغامبية - ملكة حار ومكتبة الهلال

تلفون: ٨٣٦٨٨١ / ٨٢٠٦٧٧ - فاكس: ٦٠٢٢٨٦ (٩١١) - ص.ب. ١٤ / ٥٠٠٣١ - بيروت لبنان

٦١٦ / ٦٠١٠٢ / ٦٠١٠٢ - ٨٣٢٩٦٠٧ - قسم ٦١٦





## مقدمة عامة

هذه عشر رسائل انتهت إلنا من مؤلفات الجاحظ السياسية العديدة . وقد ضاعت سائر الكتب التي عالجت موضوع السياسة ولا يعرف سوى عناوينها الواردة في لائحة كتبه . ( انظر « كشاف آثار الجاحظ » الذي نشرناه ) .

وتدور الرسائل حول سبب مسائل أساسية . المسألة الأولى هي مفهوم السياسة وأصولها وطريقة إقامة الرئيس . لقد فهم الجاحظ السياسة بمعنى التدبير ، تدبير شؤون الناس ومعاشهم . وكثيراً ما يستعمل لفظة السياسة مقترنة بلفظة التدبير . وترجع السياسة إلى أصلين هما الترغيب والترهيب . وفي ذلك تتفق السياسة الدنيوية مع السياسة الدينية : فكما رغب الله عباده بالجنة وخوفهم من النار ، هكذا ينبغي أن يفعل الحاكم مع الرعية لكسب طاعتهم ، عليه أن يرغبهم بما يحبونه ، ويوفره لهم ، كما عليه أن يحذرهم مما يكرهونه وينفذ ما حذر منه . وهذان الأصلان يقابلان أحد مبادئ المعتزلة الخمسة وهو الوعد والوعيد . وقد أوضح الجاحظ مفهوم السياسة وأصولها في رسالة المعاش والمعاد التي وجهها إلى أحد أولي الأمر ، وهو قاضي القضاة محمد بن أحمد بن أبي دؤاد الذي يشرف على الولاية والقضاة في الدولة العباسية .

ويصدد إقامة الرئيس ، رئيس الدولة ، جاء الجاحظ بنظرية جديدة تقول

ان العامة لا تصلح لاختيار الامام لجهلها وغلبة الاهواء عليها . وهذه المهمة ملقاة على عاتق الخاصة التي بوسعها معرفة من يستحق الامامة دون سواء . والامام يفرض نفسه على الناس بسيرته واعماله ومواقفه واقواله ، بحيث يدفعهم للاقرار بفضله وتقديمه على نحو ما قدم عمرو بن عبيد عند المعتزلة ، ومرداس بن ادية عند الخوارج . وقد وردت هذه الآراء مفصلة في رسالة العثمانية ورسالة الحكمين .

المسألة الثانية هي الوطنية . وهي تعني تعلق الانسان بالارض التي يعيش عليها ، بحيث يفضلها على غيرها من البلدان ، ويتعصب لها ويدافع عنها ضد الاعداء او المعتصين . عالج ابو عثمان هذه المسألة في رسالة الاوطان والبلدان ، وعاد الى الحديث عليها في رسالة الترك وعامة جند الخلافة . ويمكن اعتبار الجاحظ رائداً في هذه القضية التي اكتسبت أهمية عظيمة في العصر الحديث .

والمسألة الثالثة هي الصراع الحزبي الذي شغل ثلاث رسائل : العثمانية ، والحكمين ، والعباسية . كان يوجد ثلاثة احزاب هامة تصطرع على السلطة هي : الشيعة والعباسية والعثمانية . وقد شرح الجاحظ نظرية الشيعة في الامامة في رسالة استحقاق الامامة التي نشرناها ضمن رسائل الجاحظ الكلامية لانه يعالجها هناك من منطلق كلامي . وعاد الى معالجة النظرية من منطلق سياسي في رسالة الحكمين ورسالة العثمانية . وشرح نظرية العباسية او حزب بني العباس في رسالة العباسية ، كما شرح نظرية العثمانية او حزب ابي بكر وعمر وعثمان واتباعهم في رسالة العثمانية ورسالة العباسية . وهناك فئة من العثمانية سماهم الجاحظ بالسفيلية والغيلانية والمروانية والناطقة ايدوا خلافة معاوية ، سرد آراءهم في رسالة الحكمين ورسالة الناطقة التي نشرناها ضمن رسائل الجاحظ الكلامية لأنها تنطوي على قضايا تخص علم الكلام .

والمسألة الرابعة هي الصراع القبلي المتمثل بالمنافسة القديمة التي ترقى الى العصر الجاهلي بين بطنين من بطون قريش على الحكم هما عبد شمس وهاشم .

وقد عرض الجاحظ صورة عن هذا الصراع في رسالة فضل هاشم على عبد شمس .

والمسألة الخامسة هي الشعبية . ويبدو أنها استفحلت في عصر الجاحظ فحاول أن يكبح جماحها فخصص لها رسالة مناقب الترك ، ورسالة فخر السودان على البيضان . كما تطرق إليها في كتاب البيان والتبيين . ونجد في هذه الكتب عرضاً مفصلاً لدعاوى الشعوب الاعجمية في تفوقهم على العرب والاشادة بماضيهم وخصالهم وافعالمهم .

والمسألة السادسة والاخيرة تعتبر ملحقه بالسياسة لانها تدور حول عمل الموظفين الذين يساعدون الخليفة في ادارة الدولة وهم الحجاب والكتاب . ولا نجد للجاحظ آراء اصيلة حول هذه المسألة .

لم نحقق الرسائل السياسية ، اذ سبقنا الى أداء هذا العمل العديد من الباحثين ( انظر كتابنا كشاف آثار الجاحظ ، الذي يتحدث على الطبقات المختلفة واصولها ) . ولكننا قمنا بكتابة مقدمات لها تحللها وتلقي الضوء على فكر الجاحظ المتشعب المرامي والانحاء . كما وضعنا عناوين لفقريها تسهل القاء نظرة شاملة عليها وتبرز مطالبها ، وشرحنا افكار الجاحظ وعلقنا عليها وربطناها فيما بينها ، وغايتنا هي اماطة اللثام عن الجاحظ المتفلسف والمتكلم المتبحر ، وهي الناحية التي اهملها الباحثون المحدثون .

وقد اعتمدنا في رسائل المعاش والمعاد ، والاطوان والبلدان ، ومناقب الترك ، وفخر السودان على البيضان ، والحجاب ، وذم اخلاق الكتاب ، على طبعة عبد السلام هارون الصادرة في القاهرة عن مكتبة الخانجي سنة ١٩٦٤ و ١٩٧٩ م ، في اربعة اجزاء ، بعنوان « رسائل الجاحظ » ، وقد اعتمد بدوره على مخطوطة مكتبة داماد ابراهيم بتركيا ، رقم ٩٤٩ ، وعلى مخطوطة المتحف البريطاني رقم ١١٢٩ ، وعلى مخطوطة المكتبة التيمورية المودعة بدار الكتب المصرية رقم ١٩ .

وفي رسالة العثمانية اعتمدنا على طبعة عبد السلام هارون الصادرة في

القاهرة عن مطابع دار الكتاب العربي سنة ١٩٥٥ م ، وقد عول فيها على مخطوطة  
كويريلي بتركيا ، رقم ٨١٥ .

وفي رسالة الحكمين عدنا الى طبعة المستشرق الفرنسي شارل بلا المنشورة  
في مجلة المشرق ، عدد تموز - تشرين الاول ، سنة ١٩٥٨ . وقد عاد فيها الى  
مخطوطة ميلان رقم ١٢٩ . H .

اما في رسالة فضل هاشم على عبد شمس ورسالة العباسية فقد اعتمدنا  
على طبعة حسن السندوبى الصادرة عن المطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٩٣٣ م .



مركز تحقيقات كالمبيوتر علوم اسلامي

## ١ - مقدمة رسالة المعاش والمعاد

الرسالة موجهة الى محمد بن احمد بن ابي دؤاد قاضي بغداد بعد والده احمد بين سنتي ٢٣٣ و ٢٣٧ هـ . ولي وعزل من قبل المتوكل . وقد توثقت صلة الجاحظ بابيه وبه . وقد حاول الجاحظ أن يرشده ويوجهه نظراً لحداثة سنه فكتب اليه عدة رسائل منها رسالة المعاش والمعاد .

يستهل الرسالة بمقدمة اضافية يتدحج بها رجاجة عقل القاضي وكرم خلقه ويتزلف اليه قائلاً « وخرجت نسيج وحدك أوحدياً في عصرك ، حكمت وكيل الله عندك - وهو عقلك - على هواك - . . . » . ويشكره على النعمة : « وكان من تمام شكري لربي ولي كل نعمة ، والمبتدئ بكل احسان الشكر لك والقيام بمكافأتك بما امكن من قول او فعل » . ويهديه كتاباً في الأدب جامعاً لعلم كثير من المعاد والمعاش وعلل الاشياء .

ثم يحدد موضوع الكتاب بانه وصف للطبائع التي ركب عليها الخلق واسباب شهواتهم وكيف تُستَمَالُ قلوبهم ، وكيف يصرفون الطبائع المدمومة الى الشيم المحمودة .

ويعلن قاعدة عامة ينبغي مراعاتها هي الوحدة بين آداب الدين والدنيا لأن الآداب آلات تصلح ان تستعمل في الدين كما تصلح ان تستعمل في الدنيا . فما

صح من اصول التدبير في الدين صح في الدنيا وما فسد هنا فسد هناك » وانما الفرق بين الدين والدنيا اختلاف الدارين من الدنيا والآخرة فقط ، والحكم ها هنا الحكم هناك ، ولولا ذلك ما قامت مملكة ولا ثبتت دولة ولا استقامت سياسة .

والآداب وضعت على اساس الطبائع ، واهم الطبائع اثنان هما حب المنافع وكره المضار . ويدخل في حب المنافع حب الراحة والدعة والازدياد والعلو والعز والغلبة وما تستلذ الحواس من المناظر والروائح والطعوم والاصوات والملامس . ويدخل في المكاره اضداد هذه .

وإذا ترك الناس وطبائعهم انساقوا مع الهوى وابتعدوا عن الفضائل نظراً للانانية المستولية عليهم ، فكان لا بد من وازع او رادع ، ومن تربية وتأديب . والتأديب يقوم على اصلين هما الترغيب والترهيب . وهذا الاصلان يصلحان في الدين والدنيا لأنهما اصلا كل تدبير وعليهما مدار كل سياسة كما يقول الجاحظ « فإذا كانوا لم يصلحوا لخالقهم ولم ينقادوا لأمره الا بما وصفت لك من الرغبة ( بالجنة ) والرغبة ( من النار ) ، فاعجز الناس رأياً وأخطأهم تدبيراً ، واجهلهم بمراد الأمور ومصاويرها ، من أمل أو ظن أو رجا ان احداً من الخلق - فوقه او دونه او من نظرائه - يصلح له ضميره ، او يصح له بخلاف ما دبرهم الله عليه ، فيما بينه وبينهم ، فالرغبة والرغبة اصلا كل تدبير وعليهما مدار كل سياسة عظمت او صغرت » .

بيد ان الرهبة والرغبة لا تصلحان الا اذا قرنتا بالعدل . فالعدل هو الاصل الثالث للسياسة . وهو يعني الانصاف والمساواة .

يضاف الى العدل الوعد والوعيد وهو الاصل الرابع في السياسة . وهذا يعني التنفيذ والاثابة على العمل الصالح والعقوبة على العمل الطالح « ليعمل كل عامل على ثقة مما وعده واعده » وتعلق قلوب العباد بالرغبة والرهبة ، ويطرد التدبير وتستقيم السياسة لموافقتها ما في الفطرة ، وأخذها بما يجامح المصلحة . ولهذا نرى الجاحظ القاضي بالتزام العدل في معاملة الناس . كما يوصيه بالحدود مع

تثمير المال وتجنب الفقر « لأن تثمير المال آلة للمكارم وعون على الدين والدنيا  
ومتألف للاخوان ، ولأن من فقد المال قلت الرغبة منه ومن لم يكن بموضع رغبة  
اورهبة استهان الناس بقدره » .

اما في معاملة العدو فينصح ابو عثمان بثلاث خلال : ان يتدبىء عدوه  
بالحسنى عله يحول له عن عداوته لأن كثرة الاعداء كرهية . وأن يكتم اسراره عنه  
ولا يطلعه على تدبيره ، وان يستعد لمواجهة .

وفي معاملة الصديق ينصحه كما نصح ابن المقفع قبله بالاكثار من  
الاصدقاء لانهم جند معدون له وعون في الشدائد . ثم ان يحافظ عليهم .

ويحذره من ثلاث خلال هي الكذب الذي هو جماع كل شر ، ثم الغضب  
لانه لؤم وسوء مقدره ، ثم الجزع عند المصيبة التي لا ارتجاع لها .

كما يحذره من المفاخرة بالانساب لانها تثير العداوة بين الاخوان . ومن  
العتاب لانه سبب للقطيعة ، ومن المزاح لأن الافراط فيه يذهب بالبهاء . ثم  
الاعتداد بالنفس لان نشر المحاسن من صاحبها لا يليق به ولا يقبل . ثم حذره من ان  
يولي اموره الجسيمة امراً لا يكون صلاحه متعلقاً بصلاح الحاكم .

وفي النهاية يحث الجاحظ القاضي على استعمال الأدب والنصح في معاملة  
السلطان العادل ، وعلى استعمال الخيلة والرفق في معاملة السلطان الاخرق .



١٣١٩٤

## { ٢ - مقدمة الاوطان والبلدان (١) }

يزعم الجاحظ في مقدمة الكتاب انه وضعه نزولاً عند رغبة شخص سأله ان يكتب له كتاباً في تفاضل البلدان وقناعة النفس بالاطوان ، وأثر ملازمتها في الفشل والنقص ، وأثر مبارحتها في التجارب والعقل .

ولكن الجاحظ يرى ان تأثير البلدان لا يقتصر على الفقر والغنى والمكاسب واغناء العلم بالتجارب ، بل يتعداه الى الاخلاق والآداب واللغات والهيئات والصور لانه يعتقد ان للبيئة دوراً هاماً في الانسان بمختلف قواه الجسمية والعاطفية والعقلية ، وقد أوضح ذلك في اماكن عديدة من كتبه لانه كان فيلسوفاً طبيعياً . (١)

ان حب الاوطان طبيعة فطرها الله في الانسان ليعمر البلدان ، فلولاها لما سكن الناس الفيافي والادغال وقلل الجبال والقفار الموحشة والبلدان المجذبة القاحلة ، والاصمق الباردة او الحارة . ولطلبوا جميعاً السكن في البلاد المعتدلة المناخ ، الخصبة التربة .

(١) انظر حول هذا الموضوع كتابنا « المناسخ الفلسفية عند الجاحظ » المنسى الطيبي ، ص

ولو راموا جميعاً « اختيار ما هو ارفع ورفض ما هو اوضع من اسم او كنية  
وفي تجارة وصناعة ، ومن شهوة وهمة ، لذهبت المعاملات وبطل التمييز ، ولوقع  
التجاذب والتغالب ، ثم التحارب ، ولصاروا عرضاً للفتان واكله للبور » .

فالجاحظ يربط حب الاوطان مهما كانت خصائصها من الرفعة او الضعة  
ومن الجمال او القبح ومن الصلاح او الطلاح بمبدأ عام يرجع الى حكمة الله في  
خلقه ، هو الطبائع التي فطر عليها الناس . وفي هذا الرأي يعبر عن فلسفة  
الطبيعة احسن تعبير .

وحب الاوطان هو الذي يحفز الناس على الذود عنها والقتال في سبيل  
استرجاعها اذا اغتصبت . والى ذلك اشارت الآية الكريمة ﴿ وما لنا ألا نقاتل في  
سبيل الله وقد اخرجنا من ديارنا وابنائنا ﴾ ( البقرة ٢٤٦ ) .

وبما ان حب الاوطان فطرة طبيعية لذا يستوي فيها الانسان والحيوان .  
ويلاحظ الجاحظ ان صاحب المنزل اذا هجر منزله واختار غيره لم يتبعه فرس ولا  
بغل ولا حمار ولا ديك ولا دجاجة ولا حمامة ولا هر ولا شاة ولا عصفور .

ويخصص الجاحظ قسماً كبيراً من الرسالة للحديث عن مكة ولكنه يستطرد  
من ذكر مكة الى الكلام عن خصال قريش فخصال هاشم وهو يعترف بهذا  
لاستطراد المخل بالتأليف - والاستطراد سمة من سمات أسلوب الجاحظ في جميع  
كتبه - ويقول : « ولم يكن قصدنا في اول هذا الكتاب الى ذكر هاشم ، وقد كان  
صدنا الاخبار عن مكة بما قد كتبناه في صدر هذا الكتاب ، ولكن خصال مكة  
هر ذكر خصال قريش ، وذكر خصال قريش جر ذكر خصال هاشم » . كما  
يقول انه عالج هذا الموضوع اي خصال هاشم في كتاب آخر ، ذلك الكتاب هو  
على الأرجح « فضل هاشم على عبد شمس » .

ان الخصال التي امتازت بها قريش عن سائر العرب هي رغبة جميع القبائل  
لانتساب اليها في حين لا نجد قرشياً انتسب الى قبيلة من قبائل العرب .

ومن صفات قريش انها اعز العرب واقواها لذلك لا نجد سبية من قريش ، ولم تنهزم قريش في المعارك التي خاضتها مثل معركة الفجار وذات كهف .

ومن صفات قريش انهم تركوا الغزو وعملوا بالتجارة ومع ذلك لم يعترهم البخل الذي عرف به التجار لأن البخل خلقه في الطباع . وفي هذا القول يطبق الجاحظ فلسفة الطبيعة القائلة بان الاخلاق طباع .

من صفات قريش سمو الخلق ورجاحة العقل والحلم والوداعة والبعد عن الجفاء والغلظة ، وطيب المآكل .

ومن صفاتها ايضاً جمعها بين التدين والفروسية على عكس ما نرى في الروم والترك ، فان هؤلاء عندما اعتنقوا النصرانية التي تنهى عن القتل والقتال والشار صارت حالهم الى الجبن والقعود عن القتال . اما قريش فقد ظلوا رغم تشددهم في التدين وعزوفهم عن الغزو واشتغالهم بالتجارة على بسالتهم وفروسيتهم .

ويحاول الجاحظ أن يستخرج قانوناً يحكم العلاقة بين التدين والبسالة ويطبقه على الخوارج الذين اشتهروا ببسالتهم في القتال فيقول ان سبب ذلك هو عقيدتهم الدينية التي تدعو الى الجهاد ويذل الروح للتخلص من الحاكم الظالم . وهذا ما يفسر لنا استواءهم في النجدة والفروسية رغم اختلاف بلدانهم واعراقهم

ولم يتوقف الجاحظ طويلاً عند خصال هاشم لانه افاض بها في كتاب فضل هاشم على عبد 'مس . وهو يختصر هنا ما اسهب به هناك . ان اهم خصال هاشم « النبوة التي هي جماع خصال الخير واعلاها وافضلها واجلها واسناها » .

ومن خصالهم الملك ، وملكهم من مغرس النبوة لأن العباسيين استمدوا ملكهم من جدهم العباس ، والعباس هو عم النبي ، والعم وارث كالأب .

ومن خصال هاشم طول سني ملكهم الذي يناهز ، عدا حكم علي بن ابي

طالب حتى ايام الجاحظ ، مائة وست عشرة سنة .

ومن خصال هاشم ان الأذكار فيهم غالب ، مع كثرة الولد وقد احصي آل ابي طالب فكانوا نحو الفين وثلاثماية . أما في سائر البلدان عدا خرمان فلا نجد الا مثناتاً . ولذا كان عدد الاناث اكثر من عدد الذكور ولهذا السبب احل الله للرجل ان يتزوج اربع حرائر وما ملكت يمينه من الاماء لكي لا تبقى امرأة دون زوج .

ومن خصال هاشم الشجاعة ومنازلة الاقران والتقى . فكان علي بن ابي طالب اشجع الناس واكثرهم فتكا بالرؤساء والسادة والقادة . وكان اسبقهم الى الاسلام وازهدهم في الاموال .

اما مكة فهي المدينة المقدسة ، وفيها بيت الله الحرام الذي يضم الحجر الاسود . وفيها ايضاً بئر زمزم الذي يشرب منها البدو والحضر .

وبسبب قدسيته لم يظأها عبدو ظالم الا قهره الله . فصاحب الحبشة رام تدنيسها فارسل الله على جيشه جماعات الطير ترميهم بالحجارة . ولذا عاش اهلها احراراً لم يخضعوا لطاغية او غاز ولا يؤذون الاثارة لأحد .

واذا دخلها ملك فلاجل تأدية فريضة الحج او التبرك والتعظيم كما فعل تبع ملك اليمن وبعض ملوك غسان ولخم .

ان الجاحظ يكتب صفحة من تاريخ مكة يحاول ان يظهر فيها ان تلك المدينة المحرمة لم تقهر ولم تغلب ولم تدسها اقدام الطغاة منذ القدم . وأن اهلها من قريش اعز الناس وأفضلهم أخلاقاً .

بعد مكة يتحدث ابو عثمان عن المدينة ، فيلاحظ انها تختص بخاصة فريدة هي طيب تربتها وهوائها . فان من يمر بها يشم رائحة زكية تفوح من حيطانها وارضها لا تشبهها رائحة في الدنيا . ولذا صنعوا الخرز والعقود من بلحها وارجها تحملها الصبيان والنساء في اعناقها . ولذا سُميت طيبة .

وثمة ميزة اخرى للمدينة هي خلوها من الطاعون والجذام وهذا راجع الى طيب هربها .

والميزة الثالثة التي نقع عليها في المدينة هي شهرتها في الفقه حتى قال عبد الملك بن مروان يمدح روح بن زنباع : « جمع ابو زرعة فقه الحجاز ، ودهاء العراق ، وطاعة اهل الشام » .

والبلد الثالث الذي تكلم عليه ابو عثمان هو مصر التي ورد ذكرها في القرآن . . وكان ملكها القديم يدعى فرعوناً . وتشتهر مصر بمنف او قصر الرعون المصنوع من الحجر الصلد . كما تشتهر بمهارة اهلها في السحر . ويشير الجاحظ الى خراجها الضخم الذي يدل على خصبها والبالغ اربعة آلاف دينار .

وبعد مصر تحدث ابو عثمان على الكوفة والبصرة في العراق . واورد قول زياد الجامع في صفاتها: « الكوفة جارية جميلة لا مال لها ، فهي تخطب لجمالها ، والبصرة عجوز شوهاء ذات مال فهي تخطب لمالها » . والبصرة خير من الكوفة لأنها اوسع ارضاً واكثر عدداً وادق الى البحر وانقى هواء واخصب تربة واكثر عمراناً .

مركز تحقيق كويت علوم اسلامي

وماء البصرة عذب صاف عندما يبيت في القلى . والاجر الذي تصنع منه البيوت اصفر ، وبين الاجر يوضع الجص الابيض فتبدو المنازل اقرب الى الفضة بين تضاعيف الذهب .

وماء الكوفة أسرع الى الجفاف . ومعظم الكوفة خراب يباب تشبه قرية من القرى يسمع قريبا ضباح الثعالب واصوات السباع .

ونخيل البصرة اكثف واجمل ولا تجدد نخلة في الكوفة الا واعوجت كالمنجل .

واسواق الكوفة تدل على فقر اهلها ، وهم يكرهون اهل البصرة اكثر مما يكرههم هؤلاء . واهل البصرة احسن جواراً واقل بذخاً واقل فخراً .

ويتحدث الجاحظ على الأوضاع الاقتصادية في البصرة والكوفة ويقارنها بأوضاع الشام ومصر وبغداد وغيرها . فيجد الأموال غزيرة في الشامات والأشياء رخيصة لبعث المنقل وقلة عدد السكان ، ولأن ما تنتجه أرضهم يفضل عن حاجتهم أما الأهواز وبغداد والعسكر فكثيرة الدراهم والمبيع لكثرة عدد السكان . وأما في البصرة فالأثمان مقبولة ويكلف بناء الدور نصف ما يكلف بناء مثلها في بغداد . ويدخل ميناءها كل يوم نحو ألفي سفينة . ويوجز خصائص البصرة بقوله : « ولم نربلدة قط تكون أسعارها ممكنة مع كثرة الجماجم بها إلا البصرة : طعامهم أجود الطعام ، وسعرهم أرخص الأسعار ، وتمرهم أكثر التمور ، وريع دبسهم أكثر ، وعلى طول الزمان أصبر ، يبقى تمرهم الشهرين عشرين سنة . » .

وفي آخر الرسالة شيء عن الحررة في العراق ، وهي لا تحظى برضا الجاحظ ، إنها بيضاء اللون ، وتربثها غبراء مشربة سواداً ، وهي باردة الطقس شتاء ، حارة صيفاً . ولا يرى فيها داراً تذكر سوى دار عون النصراني العبادي .

وللجاحظ رسالة أخرى عنتوانها « الحنين إلى الأوطان » . وقد شك السنديوني في نسبتها إلى الجاحظ بينما أكد عبد السلام هارون تلك النسبة ولم يقطع بروكلمان في الأمر . ويبدو لي أنها منحولة لأن موضوعها أي تعلق الإنسان بوطنه قد طرقه الجاحظ في كتاب : الأوطان والبلدان ، وتناوله في القسم الأول منه . وليس من الحكمة في شيء إعادة معالجته مجدداً . وهذه الرسالة اعني الحنين إلى الأوطان تخلو من الأصالة الفكرية التي نلناها في كتاب « الأوطان والبلدان » حيث نجد الجاحظ ينم عن عمق في التفكير وحرص على ربط الظواهر بأسبابها . أما في الرسالة فلا شيء سوى جمع أقوال وأشعار وأحاديث تتعلق بحب الإنسان ووطنه .

وفي الرسالة نكرة شعوبية ، والجاحظ كان خصماً عنيداً للشعوبية . وهذه النكرة تبدو من قول منسوب إلى اعرابي موجه للجاحظ ظاهر الاضطراب

والتناقض . فهو يقول للجاحظ : « لعن الله ارضا ليس بها عرب » ثم يقول : « ان هذه العريب في جميع الناس كمقدار القرحة في جلد الفرس ، فلولا ان الله رق عليهم فجعلهم في حشاة لطمست هذه العجم آثارهم . أتري الاعيار اذا رأت العتاق لا ترى لها فضلاً والله ما امر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بقتلهم ، اذ لا يدينون بدين ، الا لظنه بهم ، ولا ترك قبول الجزية منهم الا تنزيهاً لهم » . وهو يتهمهم بالضعف : ولولا الفلاة التي تحميهم لقضى عليهم العجم ، كما يتهمهم بالكفر . ولو كان الكتاب للجاحظ لرد على هذا الاعرابي . او اعترض على مزاعمه .

وتبدو الشعوبية في ناحية أخرى من الرسالة هي تمجيد الفرس واليهود وذكر مآثرهم واخبارهم وحبهم لاوطانهم رغم استيلائهم على بلدان كثيرة غريبة .

وثمة دليل آخر على نحل الكتاب هو كلف صاحبه بالالفاظ الغريبة المتكلفة التي يكرها الجاحظ ويدعو الى الفصاحة في اللفظ ، والابتعاد عن الاغراب والوحشية والتكلف البياني ، مثل الجناس والطباق . وهذا التكلف يبدو في كلام الاعرابي « اني والله غاوي إعجاب ، لاصق القلب بالحجاب ، مالي عهد بمضاع الاشلو يربوع وجد معمعة مني ، فانسلت ، فاخذت منه بنافقائه وقاصعائه ودامائه وراهطائه . . . » .



### ٣ - مقدمة العثمانية

وضع الجاحظ هذه الرسالة الطويلة لتبيان حجج العثمانية في تأييد خلافة أبي بكر الصديق . وهذا التأييد يقوم على تفضيل أبي بكر على علي بن أبي طالب فمن ثبت انه افضل من علي كان احق منه بالخلافة . والعثمانية فرقة من الفرق الاسلامية نشطت في عصر الجاحظ وكانت تقف في وجه الحركة الشيعية التي اشتد ساعدها في ذلك العصر ايضاً وراحت تبث دعواتها وتروج لمبادئها التي تدور حول الامامة واحقية علي وابنائه فيها . فكان لا بد للحركة المناوئة لها التي اتخذت اسم العثمانية - أي أتباع عثمان - أن تنهض للرد على الشيعة والوقوف في وجههم ودحض حججهم المؤيدة لعلي وابنائه بالخلافة بعد النبي .

ان افضلية أبي بكر على علي ترتكز الى الحجج التالية :

١ - انه افضل الناس اسلاماً بشهادة النبي وعلي وابن عباس . واذا كان علي قد اسلم قبل أبي بكر كما يقول شيعة فأنما اسلم وهو ابن سبع سنين عندما كان حدثاً غريباً ، واسلامه لا يلحق باسلام البالغين ، بل كان اسلام تقليد لا اسلام تمييز ومعرفة . ولو سلمنا انه اسلم وهو بالغ في الرابعة عشرة او الخامسة عشرة كما يدعي الشيعة فان اسلامه يظل ادنى من اسلام أبي بكر وزيد بن حارثة ونجيب بن الأرت لأن اسلام هؤلاء لم يكن عن عادة ومحاكاة مثل

اسلام علي . واسلام هؤلاء يفضل اسلام علي من وجه آخر ، وهو ان علياً اسلم وهو يعلم ان له ظهراً يقيه كأي طالب وبني هاشم ، بينما اسلم هؤلاء وهم ضعفاء لا نصير لهم .

٢ - كان ابو بكر قبل إسلامه عريض الجاه غنياً سيداً ، فلما اسلم فقد جابه وثروته وتعرض للاهانة والضرب والتكيل . اما علي فلم يكن صاحب ثراء يخشى عليه ، ولم يتعرض للعت والاذى من المشركين .

٣ - كان أبو بكر صاحب النبي الاوحد عندما هاجر من مكة الى المدينة فراراً من اذى المشركين الذين قرروا قتله . وقد ذكر له القرآن هذه المكرمة . ولا يضارع هذه المكرمة نوم علي في فراش النبي في تلك الليلة لأن النبي قال له : نم فلن يخلص اليك شيء تكرمه .

٤ - بذل أبو بكر في سبيل الاسلام اكثر مما بذل علي . لقد بنى مسجداً قرب بيته يصلي فيه ويدعو الناس الى الاسلام بصوته الرقيق المؤثر ويقرأ القرآن ويكي فيتوقف المارة يصغون اليه . وقد اسلم على يديه عدد غفير من الناس منهم طلحة والزبير وسعد وعثمان وعبد الرحمن ، خمسة من اهل الشورى . وقد انفق ماله البالغ أربعين الف درهم في سبيل نصره الاسلام .

٥ - ان حجة الشيعة في تفضيل علي شجاعته وفروسيته وفتكه بالأعداء أثناء المعارك . ولكن كثرة القتل ليست فضيلة بالضرورة ، لأن النبي لم يشتهر بالفروسية ولم يقتل سوى رجل واحد . وقد بيعت على الاقدام الفرارة والهوج والحمية والشهرة . وقد بالغ الشيعة في التحدث عن قوة من فتك بهم علي امثال عمرو بن ود يوم الخندق والوليد بن عتبة بن ربيعة يوم بدر . فلم يكن هؤلاء اشجع من غيرهم . أضف الى ذلك ان ابا بكر ثبت يوم احد الى جانب النبي كما ثبت علي فلا فخر لاحدهما على الآخر في الشجاعة .

وقد الف ابو جعفر الاسكافي ( ٨٥٥ م ) المعتزلي رسالة ينقض فيها العثمانية وينتصر لعلي سماها : نقض كتاب العثمانية . وهو يعرض لآراء

العثمانية واحداً تلو الآخر وينقضها . وبين في مقدمة رسالته الحملات التي شنت على علي من قبل جميع الفرق من خارجي مارق ، وناصي حتى ، وفابني مستبهم ، وناشيء معاند ، ومنافق مكذب ، وعثماني حسود يعترض فيها ويطعن ، ومعتزلي قد نظر في الكلام وابصر علم الاختلاف وعرف الشبه ومواضع الطعن وضروب التأويل ، قد التمس الحيل في ابطال مناقبه وتأويل مشهور فضائله . . . .

ان حجة العثمانية التي تقول ان ابا بكر اقدم الناس اسلاماً باطلة ، ولو كانت صحيحة لاحتج بها ابو بكر يوم السقيفة . ورواية ابن عباس ان ابا بكر اولهم اسلاماً تنقضها رواية صادرة عنه ايضاً . وقد روي عن النبي انه قال لابنته فاطمة : لقد زوجتك اقدم الأمة اسلاماً . رواه ابن عباس وغيره .

وقد كثرت الروايات في السن التي اسلم فيها علي وتراوحت بين تسع سنين وخمس عشرة سنة . والصحيح انه اسلم وهو بالغ قد ناهز الرابعة عشرة او الخامسة عشرة . وفي هذه السن يكون قد اكمل عقله وقدرته على التمييز بين الحق والباطل والخير والشر . ويسقط قول العثمانية بانه اسلم عن تلقين وتقليد . ولم يسبقه احد الى الاسلام اذ استنبيء النبي يوم الاثنين واسلم علي يوم الثلاثاء . وقد قال في ذلك : صليت قبل الناس سبع سنين .

اما حجة العثمانية بان ابا بكر احتمل من الأذى في سبيل الدين اكثر مما احتمل علي لان علياً كان ذا ظهر يحميه من بني قومه فغير صحيح ايضاً . لان قوم علي كانوا اكثر الناس عداً للنبي وعلي وسائر المسلمين أمثال عمه ابي لهب وامراته ، وعقبة بن ابي معيط ابن عمه الخ . ولم يكن لابي بكر قرابة تؤذي به ، مثل علي ، ولا نعلم انه تعرض للأذى الشديد ، لان العذاب كان ينصب على عبد او عسيف او علي من لا عشيرة تمنعه .

واما حجة العثمانية في صحبة ابي بكر للنبي ليلة الهجرة وانها افضل من نوم علي في فراش الرسول في تلك الليلة لانها مذكورة في القرآن فباطلة ايضاً ،

لان القرآن أشار اليها ﴿ واذ يكر بك الذين كفروا ليثبتوك او يقتلوك او يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ والحديث الذي نسبته العثمانية الى النبي يأمر علياً بالاصطجاج محرف . والآية التي استشهد بها العثمانية على فضل ابي بكر ﴿ اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا ﴾ هي ضدهم لانها تفيد ان ابا بكر خاف وحزن ، وهما صفتان خسيستان .

أما حجبتهم في فضل ابي بكر على الاسلام من حيث دعوة الناس اليه واسلامهم على يديه فغير صحيحة لأنه عجز عن اقناع ابنه عبد الرحمن الذي ظل على كفره حتى يوم الفتح . وكذلك امراته . ومن عجز عن ابنه وامراته فهو عن غيرهما أعجز . وقل الشيء ذاته في انفاق ماله على نوابي الاسلام وهو الذي باع من رسول الله بعيرين عند خروجه الى يثرب واخذ منه الثمن .

واخيراً احتج العثمانية بان شجاعة علي لا تعد فضيلة لأن الشجاعة ليست فضيلة ولأن النبي لم يكن فارساً شجاعاً ولم يشترك في المعارك . وهذه قرينة عظيمة على النبي وعلي ، لأن النبي أشجع البشر وقد خاض الحروب وثبت في المعارك . وكيف لا تكون الشجاعة فضيلة وقد نهضت عمدة الاسلام على القتال والاقدام . والفرسان الذين قتلهم علي اشهر من ان يعرفوا ، وقد حفلت كتب السير باخبارهم . فابن اسحق يروي القصائد الطوال التي انشئت في اقدام عمرو بن ود العامري وشجاعته . وكذا القول في الوليد البطل الشجاع . وادعاء العثمانية بان ابا بكر ثبت مع النبي كعلي يوم أحد فباطل لأنه لم يبق معه سوى علي وطلحة والزبير وابودجانة .

وابو جعفر الاسكافي عندما يقدم هذا الدفاع الجدلي عن علي بن ابي طالب يحدد موقفه بقوله : « اننا لا ننكر فضل الصحابة وسوابقهم ، ولسنا كالامامية الذين يحملهم الهوى على جحد الامور المعلومه ، ولكننا ننكر تفضيل احد من الصحابة على علي ابن ابي طالب ؛ ولسنا ننكر غير ذلك ، وننكر تعصب الجاحظ للعثمانية وقصده الى فضائل هذا الرجل ومناقبه بالرد والابطال » .

فالاسكافي اذاً ليس من الشيعة الامامية الذين يتحدثون فضائل أبي بكر وعمر وعثمان ، وإنما هو معتزلي زيدي المذهب يعترف بفضائل الخلفاء الراشدين المذكورين مع تفضيل علي عليهم ويقول مثل الزيدية بجواز خلافة المفضول مع وجود الافضل .

بعد الاسكافي بثلاثة قرون نهض أحمد بن موسى بن جعفر بن طاووس احد فقهاء الشيعة الامامية ومحدثيهم لنقض رسالة الجاحظ برسالة اسماها « بناء المقالة الفاطمية في نقض الرسالة العثمانية » (١) وفيها يرد على الجاحظ بكلام مقلد ، فيرميه بالنصب والكذب والجهل والفسق الخ . . . ويقول مثلاً « انك اذا تأملت تقرير قواعد كتاب الجاحظ رأيت مبنياً على الباطل ، اذ سمى فرقة بالعثمانية ، ثم جعل ينطق بغير الصواب عنها ملقحاً الفتن بينها وبين الفرقة الامامية ، متعدياً قواعد الحرورية » (٢) . .

وهو يرفض ما جاء في رسالة العثمانية للجاحظ من ان اسلام ابي بكر افضل من اسلام علي لانه اسلم وهو صغير ، ويقول هذا غير صحيح ، لانه اسلم وهو عاقل يميز ناهز الخامسة عشرة من عمره او السادسة عشرة (٣) .

ولا يرى في توضيحات أبي بكر في سبيل الاسلام من انفاق المال وتحمل الأذى والضرب والتهجير ما يجعل اسلام ابي بكر افضل من اسلام علي « لأن هذا شيء لا تعلق له بتقدم الاسلام ، ولا يشرف اسلام هذا من اسلام ذاك ، اذ الذي يدعي وقوعه من الضرب كان بعد الاسلام لا معه » (٤) . ثم ان ما بذله أبو بكر من ماله وما اعتقه من المعذيين « فمما لا يثبت برهانه » (٥) . اذ لم

(١) حققها ونشرها الدكتور ابراهيم السامرائي ( دار الفكر للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، ١٩٨٥ ) .

(٢) المصدر ذاته ، ص ٢٦ .

(٣) المصدر عينه ، ص ٢٧ .

(٤) المصدر عينه ، ص ٣٦ .

(٥) المصدر عينه ، ص ٣٨ - ٣٩ ، ٤٤ .

ينفق درهماً واحداً .

أما صحبة أبي بكر للنبي واللجوء إلى الغار فليست فضيلة له لأنه كان خائفاً جباناً . ومجرد الصحبة لا يقارنها مدح ولا ذم . وميت علي في فراش النبي دليل على الشجاعة والتضحية بالنفس في سبيل الدين . وينكر ما روي عن النبي من أنه قال لعلي : ليس يصل إليك شيء تكرهه (١) .

ويؤكد ابن طاووس أن الشجاعة والاقدام في الحرب فضيلة لا بد منها للرئيس . ويرفض ادعاء العثمانية أنها ليست فضيلة وحجتهم أن النبي لم يشتهر بها ولم يقتل سوى واحد (٢) . ويذكر في هذا الصدد حديثاً عن أبي جعفر محمد بن علي يقول : « نادى مناد من السماء يوم بدر يقال له رضوان : لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي » (٣) .

وحجة ابن طاووس في تقديم علي على أبي بكر وسائر الصحابة تعتمد على حديث رواه عن النبي أبو اسحق الثعلبي عن الحسن بن محمد وهذا نصه : « لما نزلت الآية ﴿ وانذر عشيرتک الأقربين ﴾ ، انذرهم رسول الله فقال : يا بني عبد المطلب ، انا النذير اليكم من الله ، والبشير لما يجيء به أحد ، جنتكم بالدنيا والآخرة ، فاسلموا واطيعوا تهتدوا . ومن يؤاخيني ويؤازرني يكن وليي ووصيي بعدي ، وخليفتي في أهلي ، فسكت القوم ، واعد ذلك ثلاث مرات ، وفي كل ذلك يسكت القوم ويقول علي انا ، فقال : انت » (٤)

لقد اتهم كل من أبي جعفر الاسكافي وابن طاووس الجاحظ بالنصب والتعصب للعثمانية وابطال فضائل علي . وقد اشار الجاحظ في مقدمة كتاب

(١) المصدر ذاته ، ص ٤٨ - ٤٩ .

(٢) المصدر ذاته ، ص ٥٠ - ٥١ .

(٣) المصدر ذاته ، ص ٥٤ .

(٤) المصدر ذاته ، ص ٥٦ - ٥٧ .

الحيوان الى هذه التهمة التي رمي بها لأنه قرأ دون شك رسالة الاسكافي التي تنقض العثمانية ، ونفاها بقوله انه عرض اقوال العثمانية وردودهم على الشيعة ، وهذا العرض لا يجعله عثمانياً ، كما لا يجعله زيدياً عرضه لآراء الزيدية ، وخارجياً عرضه لاقوال الخوارج الخ . .

والحق ما قاله الجاحظ لا ما قاله الاسكافي وابن طاووس . فهو ليس عثمانياً وإنما هو معتزلي . وقد ظهر موقفه المحايد ، في رسالة العثمانية ، من المفاضلة بين ابي بكر وعلي ، في قوله : « فان كان ما رويتم ( الضمير عائد على الشيعة ) في فضيلة علي حقاً ، وما رووا ( العثمانية ) في فضيلة ابي بكر حقاً ، فابو بكر خير من علي ، وعلي خير من ابي بكر ، وهذا هو التناقض ، والحق لا يتناقض » . فهو يشك في اقوال العثمانية والشيعة ، لأنها اذا كانت جميعها صحيحة وقعنا في التناقض والحق لا يتناقض . وضرب امثلة على الاحاديث المتناقضة لدى الفريقين .



وبما ان موضوع الخلاف بين الشيعة والعثمانية هو الامامة ومن هو الشخص الذي يصلح لها ومن يقيم الامام فقد اوضح الجاحظ نظريته الاصلية في الامامة في آخر الرسالة ، بعد ان فرغ من سرد حجج الشيعة والعثمانية بصددتها . وملخصها أنه يجب على الناس ان يقيموا اماماً لأنه لا بد من وجود الامام ليحق الحق ويفصل بين الناس ويرشدهم . وان العامة لا تصلح لاقامة الامام لانها لا تعرف معنى الامامة وتأويل الخلافة وضرورتها وسبيلها ، ولأنها تنقاد لاهوائها ولا تميز بين من يصلح لها ومن لا يصلح . وان الخاصة مكلفة باقامة الامام اذا لم يمنعها مانع من ذلك كبغي المتغلب ، وغموض امر المستحق ، واختلافهم فيما بينهم . وان المستحق للامامة لا بد أن يعرف لأنه اكمل الناس واكمل الناس لا يخفى علمه وفضله كما بان عمرو بن عبيد عند المعتزلة ، ومرداس بن ادية عند الخوارج الخ . . وهذا الوجه في اقامة الامام يختلف عن الوجه الذي تمت فيه اقامة الناس لابي بكر ، والوجه الذي تمت فيه الشورى

لاقامة عثمان . وكذلك يخلف عن اقامة الامام بالوصية والقراة كما يذهب  
الشيعة . وقد التقى الجاحظ مع العثمانية في القول بعدم اقامة الامامة على  
القراة .



مركز تحقيقات كالمبيوتر علوم ارسودي

## ٤ - مقدمة رسالة الحكمين وتصويب أمير المؤمنين

### علي بن ابي طالب في حكمه .

موضوع الرسالة سياسي ، وهو الخلاف الذي نشب بين الامام علي بن ابي طالب ومعاوية بن ابي سفيان حول الخلافة بعد مقتل عثمان بن عفان الخليفة الثالث ، والذي بلغ ذروته في معركة صفين وما آلت اليه من التحكيم الفاشل .

ويسارع الجاحظ الى التأكيد على انه لا يريد ان يبخص معاوية خصاله من العقل والحلم والدهاء والفهم والجزم والبيان وكتابة الوحي وتولية عمر اياه ارباع الشام وتثبيت عثمان ذلك له وتزكيته في حسن تدبيره الأمور . ولكن هذه الخصال لا تكفي لاستحقاق الامامة . فالامامة لا تستوجب الا بالتقدم في الفضل والسوابق ، على ان يكون ذلك الفضل ظاهراً ومشهوراً عند الناس ، او بالشورى ، او بالميراث ، او بالوصية ، او باجتماع القرابة وحرمة العترة بالاضافة الى الخصال الكريمة . هذه الوجوه الخمسة لاقامة الامام عندها الجاحظ لانها تمثل آراء اهم الفرق في عصره . فالمعتزلة قالوا بالوجه الأول وقد عرضه الجاحظ في رسالة العثمانية ، والعباسيون قالوا بالوجه الثالث وقد بسطه الجاحظ في رسالة العباسية ، والشيعة الامامية قالوا بالوجه الرابع ، والزيدية قالوا بالوجه الخامس . اما الوجه الثاني او الشورى فقد نادى به اهل السنة والجماعة .

ومعاوية لا ينطبق عليه وجه من هذه الوجوه الخمسة ، فهو لم يتقدم في الاسلام وليس من اصحاب السوابق وانما هو رجل من عرض المسلمين ومن الطلقاء ، واذا كتب الوحي فقد شاركه فيه وسبقه اليه العديدون امثال ابن ابي سرح وزيد بن ثابت وحنظلة الأسدي وعلي ابن ابي طالب ولم يدع احدهم الامامة بسبب الكتابة . وليس من اهل الشورى ولا الميراث ولم يوص له بها .

وقد ادعى معاوية الخلافة زاعماً انه اولى الناس بالمطالبة بدم عثمان ومر يطالب بدم الخليفة أحق الناس بالخلافة . وليس هذا سبباً كافياً للامامة . وقد اعتمد معاوية على القوة والبطش للوصول الى الخلافة ، كما استند الى موقف سعد بن ابي وقاص وعبد الله بن عمر بن الخطاب . واستغل للوصول الى غايته انتشار جند علي وعدم تماسك جنده ؛ ولجأ الى الترغيب بالمال والمناصب ليستميل الناس اليه . واحتال برفع المصاحف على رؤوس الرماح ليخدع جند علي ويشق صفوفهم ، واستفاد من دهاء عمرو بن العاص ومواقف ابي موسى الأشعري في التحكيم او انقلابه على علي .

ويتوقف الجاحظ عند دور ابي موسى في التحكيم ، ويرى كما رأى النظام قبله ان ابا موسى لم يكن غيباً كما يقول الشيعة بل كان عاقلاً صحيح التدبير شديد الكيد متفهماً في الدين عالماً بالقياس والحجج مشهوراً بالحلم وكان والياً ناجحاً للخلفاء السابقين وقائداً للفتوح . كما يرى انه خلع علياً في التحكيم لانه انقلب عليه ومال الى موقف سعد بن ابي وقاص وعبد الله بن عمر وزيد بن ثابت ومحمد بن مسلمة وصهيب بن سنان وأسامة بن زيد من النهي عن القتال وتحريمه ، واسر ان تصير الخلافة الى عبد الله بن عمر بن الخطاب . وفضل قحطان على عدنان .

واذا كان ابو موسى على هذه الحال فلم اختاره علي ليمثله في التحكيم ؟ . وهنا يرفض الجاحظ كما رفض النظام استاذة دعوى الشيعة بانه حمل على القبول به حملاً لا خيار له فيه نزولاً عند رغبة اليمانية المؤيدين لابي موسى ، لان ابا موسى لم يكن له أنصار اقوياء يفرضونه فرضاً على الخليفة ، ولم يكن علي ضعيف

الرأي ليقبل ان يمثله في التحكيم عدو مرصد . وانما قبل علي بالتحكيم تلافياً للشقاق يدب في صفوف عسكره بسبب رفع المصاحف ويوم نادى منادي معاوية : « اخرجوا الينا قتلة عثمان » ، فابتلي علي « بعقد لا سبيل الى حله ويقفل لا حيلة في فتحه » فلو سلمهم قتلة عثمان لامتنعوا بعشائريهم الذين قالوا « كلنا قتال عثمان » ولتواثب بعض عسكره على بعض ، ولانقض عليهم معاوية وفتك بهم . ولو قال كذبوا لم يكن ذلك تدييراً لأن السواد الأعظم ومنهم اصحاب الحديث والقضاة والنواب استنكروا قتل عثمان وطالبوا بالاقتصاص من قتله . وان قال صدقوا خلعه من يرى الوقوف في عثمان وعلي ، ومن يرى تبرئة علي ويدعي ان قتل عثمان من طاعات الله وهم أشد أنصاره . فكان قبول التحكيم هو المخرج الوحيد المفتوح امامه .

والمسألة الثانية بعد التحكيم التي وقف عندها الجاحظ هي ترك علي للقتال . وقد اتهمه خصومه بانه ترك القتال اما جبناً واما طمعاً في توبة معاوية وعمرو واما ندماً على ما اراق من دماء . وكل هذا من سوء التدبير والعجز .

بيد ان الجاحظ يرد جميع هذه التهم لأن علياً « أشد الناس قلباً واشراً واكثرهم للاقران قتلاً » . ولأنه كان يدرك خدعة معاوية وعمرو وقد حذر اتباعه في خطبه منها ودعاهم الى مواصلة القتال . ويرى ان عليا ترك القتال عندما تحقق من تفكك عسكره ومللهم الحرب ، وسأمهم مقارعة الشر ، وبعدهم عن اوطانهم وعبائهم ، بعدما قال كبراًؤهم : « لا نعود حتى نشمر الكراع ونحد السلاح ونجبي المال » .

والمسألة الثالثة التي عاجلها الجاحظ هي « كتاب القضية » وهو الاتفاق الذي زعم خصوم علي انه تم بين علي ومعاوية على تحكيم عمرو بن العاص وابي موسى الاشعري في ما شجر بينهما . وقد أثبت الجاحظ هذا النص وحلله فوجد انه مدخول وغير صحيح . فالفاظه تخلو من الفصاحة والبلاغة ويشيع فيها اللحن مما يدل على انها من كلام المولدين . والشهود مشكوك في نسبهم ومختلف في

إسمائهم ، والسنة التي ارادوا الرجوع اليها لم يردنا ان الحكمين تذاكرا فيها  
أبدأ.

والمسألة الرابعة التي توسع فيها الجاحظ هي احتجاجات السفينانية ، اتباع  
معاوية ، لحقه بالخلافة . لقد ذهبوا الى ان الخلافة شورى كما ارتأى عمر بن  
الخطاب عندما اختار ستة رجال وامرهم باختيار الخليفة بعده ، منهم . ولم يبق  
منهم سوى اربعة وكلهم لا يصلحون للخلافة . فسمعت بن ابي وقاص لا  
يستحقها لأنه « جليس لا يرى ان يدفع ضيماً ولا يمنع حريماً » . وطلحة والزبير  
لا يصلحان لها لأنها بايعا علياً ثم نكثا البيعة . واما علي بن ابي طالب فقد سقط  
حقه فيها لاشتراكه بدم عثمان وحميته قتله ولأنه لم يعمل بالشورى ولم تجمع عليه .  
الناس .

ومعاوية برأي اتباعه اولى بالخلافة من بقية الشورى لأنه ابراهم ساحة من  
العيوب التي رموا بها ولأنه اولى من انتدب لحسم الخلاف وتسلم مقاليد الملك  
وتفريج الكرب عن الناس ، ولأن عمر ولاء وعثمان زكاه ، ولأنه اولى الناس  
بالمطالبة بدم عثمان الخ . *مركز تحقيقات كويتيون برسوي*

وقد رد الجاحظ على هذه الحجج بقوله ان معاوية لم يدل بهذه الحجج التي  
تلهج بها السفينانية . ولو احتج بها معاوية لرواها اصحاب الاخبار والسير امثال  
الزهري ومحمد بن اسحق وقتادة وغيرهم . ويرى ان هذه الاحتجاجات من عمل  
المتكلمين المتأخرين .

ثم ان حجة السفينانية بان خلافة علي باطلة بسبب عدم توافر الاجماع عليها  
لا قيمة لها . لأن الاصل في القضية هو توافر الفضيلة ، فاذا وجدت فعل الناس  
الاجماع على صاحبها ، فان اختلفوا فالحق لا يزول وعلى صاحبه الصبر . وقد  
كان فضل علي ظاهراً ، واذا كانوا اختلفوا فيه فقد أصاب الموافق واخطأ المخالف  
ولم يضم ذلك علياً .

وكذلك حجة السفينانية بان خلافة علي باطلة لانها لم تنل بالشورى لأن

علياً لم يجمع بقية الشورى ليختاروه ، ساقطة ايضاً ، لأن تلك الشورى ارتأها عمر  
وليس علي ملزماً بالعمل بها .

وإما حجة السفينانية بان حق علي بالخلافة قد سقط لاشتراكه بدم عثمان  
فتجن مطلق ، لأن علياً لم يشترك بدم عثمان ولم يمرض علي قتله ولم يعن عليه .

بقي الاعتراف بحق علي بالخلافة للقدم في الاسلام والفضائل التي انماز بها  
من زهد وفقه وشجاعة وتضحية في سبيل الدين اصف الى ذلك الرواية  
والقراءة .

وإذا كان السفينانية قد ضلوا السبيل في موقعهم من علي ومناصبتهم إياه ،  
فإن الشيعة والخوارج قد غفلوا بدورهم عن تدبيره . فالشيعة اخطأوا في تأويلهم  
لتدبيره في قضية الحكمين وحرب صفين كما مر معنا ، والخوارج جهلوا بتدبيره  
ايضاً مرتين الاولى عندما دعاهم الى مواصلة القتال إثر رفع المصاحف فاحجموا  
وقالوا لنحكم كتاب الله بيتنا ، والثانية عندما دعوه بعد التحكيم الى استئناف  
القتال فرفض لتشتت جيشه ، فكفروه وحاربوه .

أما موقف الجاحظ الخاص فقد تحلده بقوله انه ينطلق من مبدأ المعتزلة في  
المنزلة بين المنزلتين ، أي التوسط في الاحكام بين الافراط والتضييق ، وبين الايمان  
والكفر في حق مرتكب الكبيرة . فالمعتزلة لا يغفلون كالخوارج فيكفرون علياً ، ولا  
يقصرون كالمرجئة فيعلقون الحكم ويتركون الامر لله . وإنما يقتصدون ويتوسطون  
« وهذا الاشتقاق ، وهو التوسط والاقتصاد هو الاعتزال لغلو من غلا وتقصير من  
قصر ؛ والاصل الذي نبي عليه امرنا فيمن ليس عندنا كعلي وسابقتها وأرومته  
وكامل خصاله بل في ادنى رجل من اوليائنا ، انا متى وجدنا له عملاً يحتمل الخطأ  
والصواب لم يكن لنا ان نجعل عمله خطأ حتى يعيننا فيه وجه الصواب ، وليس  
لنا بعد ان قضينا بانه خطأ ان نقضي بانه خطيئة حتى يعيننا القدر بانه سليم من  
طريق المآثم ، فان قضينا بانه اثم فليس لنا ان نقضي بانه ضلال ونحن نجد  
لصرف الدفع عنه انه ضلال الى الاثم متحماً ، وان قضينا بانه ضلال فليس لنا

ان نقضي بانه كفر الا بعد ان نجد من ذلك بدأ فيكون الحق احق ما قضي به  
وصبر عليه . فمن كانت - حفظك الله - هذه سيرته وطريقته في ادق اولياته ،  
فكيف تظنه في ارفع اولياته ؟ فهذا ما لا يحل لي ان اظنه بعلي بن ابي طالب ،  
فان كان عندك برهان واضح ودليل بين يكشف لنا عن الحال حتى يتبين به ان  
كان سبياً في اراقة دمه ، فعلينا السمع واليقين والاقرار ، وعليك البيان والافهام  
بالدليل والحرص .

لقد اوضح الجاحظ في هذا المقطع طريقة المعتزلة في الحكم على الناس بمن  
فيهم علي . وهي طريقة تتسم بالاعتدال وتتجنب الغلو والتقصير ، وتضع  
درجات في سلم الأعمال تتوسط بين الكفر والايان وهذه الدرجات هي الصواب  
والخطأ والخطيئة والاثم والضلال . ثم تلتزم بعدم اصدار الحكم الا بعد توافر  
الادلة التي تفضي الى اليقين .

وبناء على هذه القاعدة لا يجد الجاحظ دليلاً كافياً يتبين منه ان علياً كان  
سبياً في اراقة دم عثمان ، فيصدر عليه حكماً بالكفر . اما معاوية فلا يستحق  
الامامة لعدم توافر اسبابها فيه ، وقد اغتصبها بالقوة والخديعة ومختلف الوسائل  
التي توافق الكتاب والسنة وتخالفهما على عكس علي الذي كان يلتزم الكتاب  
والسنة ولا يلجأ الى المكائد . واذا كان الجاحظ لم يجهر باكفار معاوية في رسالة  
الحكمين فانه كفره صراحة في رسالة النابتة . لقد فسق وضل لاغتصابه الخلافة  
وكفر حين جحد حكم الرسول في ولد الفرائس وادعى ان زياد بن سمية أخوه  
( انظر رسالة النابتة ، ضمن رسائل الجاحظ الكلامية ، التي نشرناها ) .

والجاحظ يؤكد انه يلزم الحياد بين العلويين والعثمانيين وانه ليس ممن « يميل  
في شق عن شق ، ويتعصب لبعض على بعض ، ومن يبغض حق الدون ،  
فكأنك به قد تبغض حق من فوقه حتى تصير الى أئمتهم المهتدين وخلفائهم  
الراشدين ، لست عمرياً دون ان اكون علويّاً ، ولا علويّاً دون ان اكون  
عثمانيّاً ، اللهم الا بما اخص به العثرة بسبب القرابة ، واما في غير ذلك فليس

شأنى الا محبة الجميع والتوفير على الكل ودفع الظلامه عن الكبير والضعيف على قدر ما شاهدنا عليه من الحالات . . . » .

وهو يعلن ان كتابه هذا ليس من كتب اصحاب الاهواء او المتكسبين او المتقربين ، او من كتب المنافقين والمموهين للباطل . وان غايته هي تبيان الحق والدعوة اليه .



مركز تحقيقات كبيوتر علوم سعودي



## ٥ و ٦ - مقدمة رسالة فضل هاشم على عبد شمس

### ورسالة العباسية

في هاتين الرسالتين يصور الجاحظ الصراع المستحكم بين فخذين من افخاذ قريش. على الخلافة . هذان الفخذان هما بنو هاشم وبنو عبد شمس . ويسلو الخلاف بينها واضحاً منذ العصر الجاهلي في تنافسها على مقاليد السلطة في مكة الممثلة باللواء والندوة والسقاية والرفادة وزمزم والحجابه . . وحسم هذا الخلاف لصالح بني هاشم عندما ظهر النبي محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي بحمل رسالة الاسلام ويشر بها وينشرها . ويانتصاره على المشركين الذين كان يتزعمهم ابو سفيان بن حرب بن امية بن عبد شمس القرشي . والذي توج بفتح مكة وتسلم النبي محمد مفتاحها . بيد أن الامويين سكتوا على مضض حتى اذا خلف عثمان بن عفان قبضوا على مقاليد السلطة وتوزعوها فيما بينهم لأن عثمان ولي اقرباه الامويين على الامصار واعتمد عليهم في الحكم . وعندما قتل عثمان على ايدي الثوار وسويح علي أعلن معاوية بن أبي سفيان الأموي العصيان وتمرد على سلطة الخليفة الهاشمي ، وبعد حروب طويلة استتب الأمر لمعاوية على اثر مصرع علي على يد عبد الرحمن بن ملجم الخارجي . ولم يياس بنو هاشم وراحو ييثون دعوتهم سراً سحابة حكم بني أمية الذي دام زهاء قرن من الزمان

واستطاعوا أخيراً ان يعلنوا الثورة على الامويين ويقوضوا الحكمهم سنة ٧٥٠ م ويطشوا ببني امية بطشاً شديداً . وقد انقسم الهاشميون فرعين : ابناء علي بن ابي طالب ، وابناء العباس عم النبي وكل منهما كان يدعوا لنفسه ويدعي انه احق بالخلافة من الآخر . وقد اطلق على ابناء علي اسم العلويين وسمى انصارهم بالشيعة . واطلق على ابناء العباس اسم العباسيين . وقد استطاع العباسيون الاستئثار بالسلطة دون العلويين وتأسيس دولتهم الشاخنة القوية التي عاشت نحو خمسة قرون من الزمان وانتهت على يد المغول سنة ١٢٥٦ م .

وابان الحكم العباسي لم يكف انصار الامويين عن النضال في سبيل السلطة والقضاء على الدولة العباسية . وكان هذا النضال يتخذ شكل الدعاية الفكرية السرية ، او شكل الثورات العلنية الدموية . ويبدو من رسائل الجاحظ أن انصار الامويين نشطوا في القرن التاسع الذي عاش فيه الجاحظ فكان يطلق عليهم اسم النابتة او العثمانية او العمرية او البكرية . فبادر العباسيون للرد عليهم ونقض حججهم ، ولا سيما المأمون والمعتمد وتطوع الجاحظ للاضطلاع بمهمة الرد . فكتب عدة رسائل حول هذا الموضوع ، منها رسالة النابتة ، ومنها رسالة العباسية ، ومنها رسالة فضل هاشم على عبد شمس . وقد فعل ذلك تقرباً من العباسيين اصحاب السلطان .

وقد تكلمنا على رسالة النابتة في مقدمة رسائل الجاحظ الكلامية وقلنا ان النابتة ينتصرون لبني امية ويحنون الى دولتهم ، ويزينون أعمالهم ويدعون لهم . فرد عليهم الجاحظ مبينا سيئاتهم وتهافت حجج انصارهم النابتة .

اما رسالة العباسية فقد وضعها الجاحظ ليبين ان العباسيين احق بالخلافة من سواهم . وبما أنهم أسندوا هذا الحق الى الوراثية ، لذا يركز الجاحظ على هذا المبدأ ليوضح صحته . لقد اعتبر العباسيون الخلافة ارثاً تحدر اليهم عن النبي ، وهم احق بذلك الارث من ابناء فاطمة بنت النبي لان البنات لا يرثن الآباء ، بينما الاعمام واولاد الاعمام يرثون .

وقد أنكر العثمانية او البكرية مبدأ الارث في الخلافة وقالوا إنها شورى ،  
وان النبي لا يورث . واعتمدوا على موقف ابي بكر من فاطمة عندما منعها  
الأرث إثر موت والدها وقال لها عندما المحت بالطلب واحتجت وتظلمت إنه سمع  
رسول الله يقول « انا معاشر الانبياء لا نورث ما تركناه ، فهو صدقة » .

وهم يرون موقف ابي بكر من الأرث صحيحاً والدليل على صحته ان  
الصحابة لم يستنكروه . فتجيب العباسية انه اذا كان ترك النكير دليلاً على صدق  
دعوى ابي بكر وعمر ، فان ترك النكير على المتظلمين والمحتجين والمطالبين دليل  
على صحة دعواهم او استحقاقها . وقد طالبت فاطمة ابا بكر بميراث والدها  
فمنعها إياه ، فاحتجت والمحت وشكت ووجدت ودعت على ابي بكر فلم يردعها  
احد من الصحابة ولم يصرفها عن الخطأ اذا كانت على خطأ .

وثمة دليل آخر على ان ترك النكير ليس حجة على صدق الدعوى ، موقف  
عمر من المتعة وحصر الخلافة في قريش . لقد قال عمر من على المنبر : متعتان  
كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، متعة النساء ومتعة الحج ، انا  
انهى عنهما ، واعاقب عليهما . فلم ينكر عليه أحد قوله ولا خطاه . وقال يوم  
السقيفة ان الخلافة في قريش لأن النبي قال : « الائمة في قريش » . ولكنه خالف  
هذا المبدأ عندما قال شاكياً من الستة الذين حصر فيهم الشورى بعده « لو كان  
سالم حياً ما تخالفتني فيه شك » وسالم ليس قرشياً ، بل هو عبد لامرأة من  
الانصار . ومع ذلك لم ينكر عليه أحد موقفه او دعواه .

وثمة دليل على صدق دعوى ابي بكر بمنع الأرث عن فاطمة أورده البكرية  
خصوم العباسيين هو احجام الصحابة عن خلعهم والشورة عليه . ولو كان على  
خطأ لفعلوا به كما فعلوا بعثمان عندما وثبوا عليه وقتلوه .

هذا الدليل باطل ينظر العباسيين لأن ابا بكر عندما منع الارث عن فاطمة  
لم يحدد التنزيل ولكنه ادعى حديثاً نسبه الى النبي ليس محالاً في العقل ولم يثر به  
الناس لأنهم صدقوه في حديثه لحسن ظنهم به . وقد ثاروا على عثمان ولم يشوروا

على ابي بكر لأن العامة والسفلة لم تهب عثمان كما هابت ابا بكر وعمر ، ولم يستأثر ابو بكر وعمر بالفيء كما استأثر عثمان .

هذه حفنة من الآراء التي أدلى بها كل من العباسية والبكرية أو العثمانية حول أحقية الخلافة . ولم يصلنا من رسالة العباسية سوى بضعة صفحات ، ولكنها كافية لاعطائنا فكرة عن الرسالة كلها . إنها تدور حول موضوع واحد هو حق العباسيين في الخلافة دون سواهم ، وان سيالها واحد هو الجدل وقرع الحججة بالحجة بين خصمين هما العباسيون من جهة وخصومهم العثمانية من جهة ثانية .

اما رسالة فضل هاشم على عبد شمس فمناظرة بين الهاشميين والامويين ، كل منهم يفتخر بالرجال الذين انجبههم ويعد مآثرهم . فهاشم هو الجد المشترك للعلويين والعباسيين . وكان اسمه عمراً وهاشم (لقب كريم لقب به لأنه كان يحشم الشريد لقومه في السنين العجاف .

وابنه عبد المطلب سيد الوادي واجمل الناس واجودهم ، وصاحب الفيل وزمزم وساقى الحجيج ، وقد ظهرت على يديه كرامات ككرامات الانبياء . فقد دعا الله ان ينصره على الاحباش الذين غزوا مكة فارسل الله عليهم طيراً ابايل ترميهم بحجارة من سجيل واستجاب الله لدعائه .

وانجبت هاشم محمداً النبي المصطفى . والنبوة اعظم هبة واقدسها . ولا يضارعها شيء . كما انجبت عبد الله بن عباس وعلياً ابن ابي طالب ، والمنصور والرشيد والمأمون والمعتصم وغيرهم من الخلفاء العظام .

واذا افتخر بنو أمية بانه خرج منهم ملوك كبار امثال معاوية ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان ويزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز . اجاب بنو هاشم بأن سني ملكهم اطول لأن دولة امية لم تعمر سوى اربع وتسعين سنة . وان اساس ملكهم امتن لانهم بنوه على الميراث وحق العصبة والعمومة ، وبناه الامويون على النسب القرشي .

ويلخص الجاحظ أسباب الخلافة التي نادى بها طلابها في عصره :  
فالمملوكيون جعلوا الوصية والقربة والسابقة سبباً في الخلافة ، والعباسيون جعلوا  
الوراثة سبباً في الخلافة ، والخوارج جعلوا السوابق والاعمال والجهاد سبباً في  
الخلافة .

وفي جميع هذه الاحوال ليس للامويين فيها نصيب اذ ليس لهم قدم مذكور  
ولا يوم مشهور .

اضف الى ذلك أن ملوك بني امية اتوا من الشرور والآثام والظلم الشيء  
الكثير . لقد حاربوا علياً وسموا الحسن وقتلوا الحسين وحملوا النساء على الجمال  
حواسر وكشفوا عن عورة علي بن الحسين وضربوا علي بن عبد الله بن عباس  
بالسياط الخ . وهدموا الكعبة وحولوها وغيروا اوقات الصلاة .

وبسبب ما ارتكب بنو امية من مخاز وفجور دالت دولتهم بسرعة وانتزع  
العباسيون الملك من ايديهم بالبطش والحيلة .

اما المفخر التي يفتخر بها بنو هاشم فهي كثيرة العدد فان عدد اولاد علي بن  
عبد الله بن العباس يناهز عدد جميع ابناء امية وكذلك عدد ابناء الحسين بن علي  
ابن ابي طالب .

ويفخر بنو هاشم ايضاً بالرأي السديد والعلم والفقه والتأويل والخطابة وقد  
نبغ منهم في ذلك كثيرون امثال عبد الله بن عباس وعلي بن ابي طالب .

ويفخرون بالفروسية والشجاعة وقد اطلعوا امثال حمزة بن عبد المطلب  
وعلي بن ابي طالب .

ويفخرون بالكرم والسماح وقد اشتهر منهم فيهما امثال عبد الله بن جعفر  
ابن ابي طالب ، وعبيد الله بن العباس بن عبد المطلب .

ولم يكف الجاحظ بايراد مفاخر الهاشميين بل اورد ايضاً مفاخر الامويين  
المقابلة ؛ لقد افتخر هؤلاء بانهم انجبوا نواذر الرجال في العقل والدهاء امثال

معاوية بن ابي سفيان وزبياد ابن ابيه . وعبد الملك بن مروان .

وفخر الامويون برجال أجواد كانوا مضرب المثل امثال سعيد ابن العاص  
وعبد الله بن عامر .

وفخر الامويون بالفتوح التي تمت في دولتهم والحروب التي خاضوها في  
ارمنية وافريقيا والسند والهند .

كما افتخروا بنبوغهم في الشعر واهتمامهم بالعلوم . فكان يزيد بن معاوية  
شاعراً ، والوليد بن يزيد شاعراً ، ومروان بن الحكم وعبد الرحمن بن الحكم  
شاعرين . اما خالد بن يزيد بن معاوية فكان حكيماً وهو اول من أجاز التراجمة  
والفلاسة ليرجموا له الطب والكيمياء والآلات .

وفاخرا الامويون بخطبائهم أمثال معاوية بن ابي سفيان وعبد الملك بن  
مروان وزبياد ابن ابيه وسليمان بن عبد الملك والوليد بن يزيد بن عبد الملك بن  
معاوية ، وعمر بن عبد العزيز .

وافتخر الامويون بالملك ولا سيما بمعاوية الذي حكم اربعين سنة منها  
عشرون واليا وعشرون خليفة . وعبد الملك بن مروان الذي انجب اربعة خلفاء  
هم الوليد وسليمان ويزيد وهشام .

وفاخرا الامويون بالحسن الذي عرف به عبد الله بن عمرو بن عثمان الذي  
لقب بالمطرف لجمانه . والمؤمل بن العباس بن الوليد بن عبد الملك .

لم يقتصر الهاشميون على تعداد مفاخرهم بل عمدوا الى تسفيه مفاخر  
خصومهم الامويين . فالدهاء الذي عرف به بنو أمية هو من اساء فجار  
العقلاء . والذين عدوهم من الدهاة ابعد الناس عن التقى . ولم تكن حيل  
معاوية لتخفى على بن ابي طالب « ولكن الرجل الذي يجارب ولا يستعمل  
الا ما يحل له اقل مذاهب في وجوه الحيل والتدبير من الرجل الذي يستعمل ما  
يحل وما لا يحل » .

وإذا ذكر الأمويون في الجود سعيد بن العاص وعبد الله بن عامر فابن  
جودهما من جود عبد الله بن جعفر وعبيد الله بن العباس والحسن بن علي وجود  
خلفاء بني العباس كالمهدي والرشيدي والمأمون .

وفي الخطابة لم ينبغ أحد من اولاد أمية بن عبد شمس ولا يضارع أحد  
فيها علي بن أبي طالب وعبد الله بن العباس .

وفي الورع لا أحد يضاهي علي بن أبي طالب في زهده ودينه . وفي النسك  
ليس من شبيه لزين العابدين علي بن الحسين .

وفي الفقه والتفسير والتأويل ليس لأحد فيه أن ينافس علي بن أبي طالب  
وعبد الله بن عباس وجعفر الصادق .

وفي الشجاعة ليس من ند لعلي بن أبي طالب وحمزة ابن عبد المطلب ،  
والحسين بن علي وزيد بن علي بن الحسين بن أبي طالب والمعتصم وعبد الله بن  
علي عم المنصور .

وفي الحسن لم يكن أحد أجمل من العباس بن عبد المطلب من بسطة جسمه  
وتمام قوامه .

وإذا فاخرت أمية بعاتكة بنت يزيد بن معاوية ، فاخرت هاشم بفاطمة  
بنت رسول الله سيدة نساء العالمين وبامها خديجة .

ويبدو ان الأمويين ارادوا إظهار الاعتدال فدعوا الى التسوية وقالوا ليس من  
أحد أفضل من الآخر ، ونحن لا ننكر فضل هاشم في الاسلام ، ولا فرق بيننا  
في الجاهلية فنحن وهاشم أبناء أب واحد وام واحدة . . ان عبد مناف هو جدنا  
المشترك ، ولم يفرق الرسول بين هاشم وعبد شمس .

ولكن هاشم أبت التسوية وقالت ان أمية ليسوا اكفاءنا من كل وجه وان  
جمعنا جد واحد . وقد ميز الرسول بين هاشم عشيرته وسائر العشائر وقال الله في  
ذلك ﴿ وانذر عشيرتك الاقربين ﴾ .



## ٧ - مقدمة مناقب الترك وعامة جند الخلافة

وضع الجاحظ قسماً من هذا الكتاب في خلافة المعتصم ووضع القسم الثاني في خلافة المتوكل . والقسم الاول وجهه الى المعتصم فلم يصل اليه لاسباب لم يفصح عنها الجاحظ . اما القسم الثاني فوجهه الى وزير المتوكل الفتح بن خاقان التركي الاصل والذي عرف باده وشاعريته ، وذكرت له بعض الكتب مثل كتاب اخلاق الملوك ، وكتاب الروضة والزهر وكتاب الصيد والجراح . وقد قتل مع المتوكل سنة ٢٤٧ هـ . ويصفه الجاحظ في مقدمة الرسالة بحسن اطاعته الخليفة ، والدراية بالتدبير ، والحرص من الوقوع في الهفوات التي يعاب بها .

والغرض الذي رمى اليه الجاحظ من الكتاب هو (الألفة بين قلوب ابناء الشعوب التي تشكل الدولة العباسية . كانت تلك الدولة المترامية الاطراف تضم عدة شعوب مختلفة الاصل واللغة والاخلاق ولم يستطع الاسلام الذي اجتمعت عليه أن يصهرها صهراً كاملاً في بوتقته ، فظل كل شعب منها متعلقاً بتراثه وماضيه ولغته وطباعه ، ونشأت الخصومات بينهم على الصعيدين الفكري والعسكري .

واهم تلك الشعوب التي كونت الدولة العباسية العرب والفرس والأتراك والسودان اضيف الى ذلك شعبين مولدين هما الموالي (والأبناء . وكل من تلك

الشعوب يعترّ بخصائصه ويتمسك بها ويدل فيها على الشعوب الأخرى . وقد تمثل ذلك في الجيش الذي كان يضم الخراساني والتركي والمولى والعربي والبنوي .

ويمكن ان نقسم الكتاب قسمين : قسماً يتناول مفاخر كل شعب من هذه الشعوب ، وقسماً يحدد السياسة التي ينبغي ان تتبع للتقريب بينهم وتوحيد كلمتهم .

وفي القسم الاول نجد الخراسانيين يفخرون بانهم اصحاب الدعوة العباسية لأنها انطلقت من خراسان وقضت على دولة الامويين . فهم شيعة العباسيين وجنودهم وحملة راياتهم السوداء . كما يفخرون بعظم اجسامهم وطول سواعدهم وكثرة نسلهم وعددهم . ويعتزون بشجاعتهم وبلائهم في الحروب وانتصاراتهم وقدرتهم على قلب الدول . ولا ينسون براعتهم في الصناعات والعلوم والحكمة والأدب والحساب والهندسة والموسيقى والفقه والرواية .

اما العرب فيفخرون بانهم اهل الدولة واقدم الشعوب اسلاماً . وهم اقدر الناس على نظم الشعر الموزون المقفى الذي لا يفنى ويخلد المآثر والاحبار ، واحفظهم للانساب ، واخطبهم على منبر بلسان امضى من السنان وارهف من السيف .

ويفتخرون ايضاً بانهم قواد الدعوة العباسية لانهم قدموا النقباء « وهل اكثر النقباء الا من صميم العرب ومن صلبية هذا النسب » ولم يقض على عمال الامويين وخليفتهم الأخير مروان بن محمد الا عرب الدعوة . ولم يفتح الهند الا موسى بن كعب ، ولم يفتح افريقية الا محمد بن الأشعث وكلهم عرب أقحاح . وبدا تسقط دعوى الفرس بانهم اصحاب الدعوة .

فاذا استمعنا الى الموالي نراهم يمتدحون انفسهم بالنصيحة والاخلاص في الخدمة وعدم افشاء السر والطاعة . وبانهم اطلعوا العديد من النقباء امثال ابي منصور مولى خزاعة . ولا يعابون من جهة النسب لأن الولاء لحمة كلحمة

النسب وبذا جمعوا بين النسب العربي والاصل الاعجمي .

اما الأبناء فيقولون أن أصلهم خراسان وفرعهم بغداد . وخراسان هي منبع الدعوة وبغداد مستقر الخلافة . ولذا فهم اعرق من الموالي والعرب . وهم قوام السلطة القائمة في بغداد وقد اجتمع لهم الاقدام في الحروب ، الاحتجاج والعقل والصبر على الزمان . ويبدو من كلام الجاحظ ان الابناء كانوا يسيطرون على بغداد وكان الخليفة يعتمد عليهم في فرض سلطته ونسمة يقول « ولنا بغداد باسرها ، تسكن ما سكننا ، وتتحرك ما تحركنا ، والدنيا كلها معلقة بها . . . ونحن بعد تربية الخلفاء وجيران الوزراء ، ولدنا في افنية ملوكنا ، ونحن اجنحة خلفائنا . . . » . والابناء مولدون من آباء فرس وامهات عربيات .

ونتهي اخيراً الى الاتراك الذين ذكر خصالهم في القسم الأخير من الكتاب واطال الحديث عنهم . والصفة الرئيسة التي يفتخرون بها هي البسالة في الحروب والبلاء في المعارك وهم يتفوقون بها على الخوارج الاعراب وعلى جميع الأمم . واذا عرف الخارجي بصدق الشدة عند الهجوم ، والصبر على السير ، وادراك ما يطلب ، وقلة الامتعة فان التركي احمد شدة ، واسرع حركة ، واصعب مراماً . واذا كان الخوارج يقاتلون عن عقيدة دينية فان الاتراك لا يقاتلون على دين او تأويل او ملك او خراج او عصبية او وطن . بل يقاتلون على السلب .

ويعرف التركي بحب وطنه والحنين اليه . وهذا طبع في جميع الناس ولكنه في الترك اغلب .

وبعد عرض مفاخر الشعوب المختلفة يبدي الجاحظ رأيه الشخصي . إن سبب اختلاف الأمم في الخصال عائد الى طباع خصهم الله بها دون غيرهم . وهذا ما يفسر لنا خلق اهل الصين في الصناعة ، واليونانيين في الحكمة والعلم ، والعرب في الأدب ، والفرس بالملك ، والاتراك في الحروب . فاليونانيون لم يكونوا تجاراً ولا صناعاً ولا فلاحين ، فصرفوا همهم الى التفكير والتأمل فتوصلوا الى الطب والحساب والهندسة والموسيقى وآلات الحرب والساعات الخ كما انتجوا

اما سكان الصين فقد مهروا بالسبك والصياغة والأصباغ العجيبة .

وكذلك العرب لم يكونوا تجاراً ولا صناعاً ولا اطباء ولا حساباً ولا اصحاب  
فلاحة وزرع لخوفهم من صغار الجزية ، وانما اتجهوا نحو قرص الشعر وبلاغة  
القول ، كما اهتموا بقيافة الأثر وحفظ النسب والبصر بالخيال فبلغوا شأواً عظيماً .  
والترك مثل العرب سكان فياف وقفار لذا دعوا باعراب المعجم فلم يهتموا  
بصناعة او تجارة او هندسة او بنيان او زراعة ، وصرفوا همهم الى ركوب الخيل  
ومقارعة الاعداء وطلب الغنائم فاشتهروا بالفروسية والحرب .

ان لكل امة حظاً من الكمال ومقداراً من النقص ، ولا تخلو امة من  
النقص فتبلغ الكمال كله ، « وانما يتفاضل الناس بكثرة المحاسن وقلة  
المساوىء » .

ثم ان السياسة تقضي بالامتناع عن التفاضل والتناهد لان الاسراف فيها يؤدي  
الى التناحر والتباغض بين جند الخلافة وبين ابناء مختلف الشعوب التي تتكون منها  
الخلافة .

ويرى الجاحظ أن الناس - وان تباينت اعراقهم وصورهم - متفقون في  
حقيقتهم . فالمولى الاعجمي يصبح عربياً بالولاء وليس هذا بمجيب لانهم جعلوا  
الحال والبدأ « والحليف من الصميم » كما جعلوا « ابن الاخت من القوم »  
واسماعيل الاعجمي الوالدين عربياً .

ثم ان الجميع من خلق الله ، فله « ان يجعل من عباده من شاء عربياً ومن  
شاء عجمياً ومن شاء قرشياً ومن شاء زنجياً ، كما له ان يجعل من شاء ذكراً ومن  
شاء انثى ومن شاء خنثى .

وقد قسم الله الطبائع والخصال والصفات والقدرات بين الناس كما قسم  
طينة الأرض فجعل بعضها حجراً وبعضها ياقوتاً وبعضها ذهباً وبعضها نحاساً  
الخ . .

ويتهي الجاحظ الى التسوية والتوحيد بين الخراساني والبنوي والمولى والعربي  
قائلاً : « واذا كان الأمر على ما وصفنا فالبنوي خراساني ، واذا كان الخراساني  
مولى ، والمولى عربي ، فقد صار الخراساني والبنوي والمولى والعربي واحداً » .

وعلى هذا الاساس تصبح اسباب القرى والوفاق بين هذه الشعوب اكثر من  
اسباب الخلاف . « بل هم في معظم الأمر وفي كبر الشأن وعمود النسب  
متفقون . والاتراك خراسانية ، وموالي الخلفاء قصرة ، فقد صار التركي الى  
الجميع راجعاً ، وصار شرفه الى شرفهم زائداً » .

ويترتب على ذلك انتفاء الخلاف ، وغلبة التسامح ، وازالة الأضغان .



مركز تحقيقات كميپوز علوم اسلامی



## ٨ - مقدمة فخر السودان على البيضان

هذا الكتاب يشبه كتاب مناقب الترك وعمامة جند الخلافة في الموضوع والنوع . فهو يعدد مفاخر العرق الاسود كما عدد كتاب مناقب الترك وعمامة جند الخلافة مفاخر البيضان من خراسانيين وعرب واتراك وابناء وموال . وهو ينطوي مع كتاب مناقب الترك في الغاية التي يرمي اليها الجاحظ وهي التسوية بين العرب وسائر الشعوب التي تشمل عليها الدولة العباسية والتقريب بينها واستئصال الاحقاد من قلوب ابنائها ، لتستطيع العيش بوثام وسلام . وهذه هي القاعدة التي تقوم عليها سياسة بني العباس والتي يؤيدها الجاحظ .

غير ان رسالة فخر السودان على البيضان كرسالة الترك تصور لنا الحركة الشعبية تصوراً واضحاً . ان هذه الشعوب تحاول ان تثبت وجودها وتمايزها وفضائلها ومآثرها وتفوقها على العرب .

ويوجه الجاحظ الكلام في مقدمة الرسالة الى شخص لم يذكر اسمه سأل ان يكتب كتاباً في مفاخر السودان فيلبي الجاحظ طلبه ويؤلف هذه الرسالة التي يبدي فيها عطفاً ظاهراً على السودان لانه كان اسود اللون يمت اليهم بصلة القرابة .

وهو يعدد اولاً الرجال العظام الذين انجبهم السودان ، منهم لقمان الحكيم ، وسعيد بن جبير المحدث الذي عاش في العصر الاموي وقتله الحجاج

في السنة التي مات بها . ومنهم بلال الحبشي مؤذن الرسول ، ومنهم المقداد الذي عاش في عصر الرسول ، ووحشي الذي قتل مسيلمة الكذاب . ومنهم مكحول الفقيه المتوفي سنة ١١٢ هـ . ومنهم الحيقطان الشاعر والخطيب الذي عاش في العصر الاموي . ومنهم جليبيب الفارس الذي عاش في عصر الرسول ، ومنهم عكيم الحبشي الشاعر .

ويذكر اسماء السودان الذين اشتهروا بالفروسية امثال خفاف بن ندبة ، وعباس بن مرداس ، وعنترة بن شداد ، وسيلك بن السلكة ، وعمير بن الحباب والحجاف بن حكيم وعامر بن فهيرة ، والفداف ومريح الاشرم والمغلول وافلح الخ .

ثم يذكر ثانياً خصال السودان واهمها السخاء الذي يغلب عليهم ولا تنافسهم فيها امة اخرى .

ومن خصالهم الرقص الموقع الموزون ، فهم اطبع الناس على الايقاع والضرب بالطبل .

ومن خصالهم خفة لغتهم وذرابة السنتهم وخلوهم من الفأفة والعي . وهم اخطب الشعوب ، يقف الخطيب طوال النهار يتكلم دون تعب .

ومن خصال السودان قوة الابدان حتى ليستطيع الواحد منهم رفع الاثقال التي يعجز عنها جماعة الاعراب .

ومن خصالهم دماثة الخلق وطيب النفس وحسن الظن والنأي عن الأذى . واجادة الطبخ ، والامانة في الاعمال المصرفية .

وقد اعترض قوم على سخائهم فقالوا انه نتيجة ضعف عقولهم . فرد السودان قائلين لو كان الأمر كذلك لكان الصبيان والنساء اكرم من الرجال لانهم اضعف منهم عقولاً . والعكس هو الصحيح .

ويرى الزنج وهم عرق من السودان انهم كانوا اكفاء العرب في الجاهلية

ولذا اكثروا من التزوج منهم ، وفي الاسلام انكر العرب فضل السودان عليهم على الرغم من ضرب الامثال بملوك السودان وتقدمهم على ملوك العرب امثال ابرهة و ابي يكسوم .

ثم انتقل الجاحظ الى الحديث عن اللون الاسود وقيمته ومنشئه وجماله ، وأق باراء اجتماعية ونفسية طريفة . فهو يرى ان اللون الأسود اشد مهابة من اللون الابيض . والحيوانات والاشياء السوداء تتصف بالقوة والبهاء ، فالخيل الدهم ابيه واقوى ، والبقر السود احسن وجلودها اتمن وابقى وادسم لبناً . وكل حجر اسود يكون اصلب ، واشهى التمور واحلاها الاسود . واعلى العيدان واسلمها الأبنوس الاسود . واجمل الشعر الاسود ، وحادقة العين السوداء احسن ما في العين ، والكحل الذي يكتحل به للترزيب اسود اللون ، وسويداء القلب اعز ما فيه ، واطيب ما في المرأة شفتاها السوداءوان . وقد قال الرسول : « بعثت الى الاحمر والاسود » ومعنى ذلك انه بعث الى السودان . والحجر الاسود اشرف ما في الكعبة . وام اسماعيل قبطية سوداء .

وعالج الجاحظ ناحية أخرى اجتماعية هي كثرة عدد السودان واتساع بلادهم في افريقيا وما وراء بلاد الحبشة . ويعزو الجاحظ ذلك الى قوة (خصوبتهم وكثرة تناسلهم . « فالزنجية تلد نحواً من خمسين بطناً في نحو من خمسين عاماً ، في كل بطن اثنان فيكون ذلك اكثر من تسعين » .

ويلاحظ الجاحظ قلة الاقبال على الزواج من الزنجيات في المجتمع العباسي لان الزنجية لا تكاد تنشط لغير الزنجي ولأن الابيض لا ينشط للزنجية . ويعلل الجاحظ هذه الظاهرة بالعادة والتقليد . ولذا نرى اهل البصرة يحبون من النساء الهنديات ، واهل اليمن يحبون منهن الحبشيات ، واهل الشام يؤثرون الروميات . فكل قوم يشتهون جلبهم وسبيهم .

وثمة سبب آخر لكثرة السودان هو ترامي اصقاعهم . فاذا كان البيضان يسكنون بلاد فارس وخراسان والروم وفرنجة ، فالسودان يملأون بلاد الزنج

والحبشة وفزان وبربر والقبط والنوبة والسند والهند والصين . ثم ان العرب يعدون من السودان لأن لوتهم اقرب اليهم من البيضان .

ويبحث الجاحظ اخيراً مسألة فلسفية خطيرة هي علة اختلاف الناس في الوانهم . ويذهب الى ان الله لم يجعل السودان سوداً والبيضان بيضاً وانما البيثة الطبيعية التي يعيشون فيها هي التي تحمّل الوانهم او تصبغ جلودهم بالسوان مختلفة . ويقول على لسان السودان « ان الله تعالى لم يجعلنا سوداً تشويهاً بخلقنا ، ولكن البلد فعل ذلك بنا . والحجة في ذلك ان في العرب قبائل سوداً كبنو سليم ابن منصور . وكل من نزل الحرة من غير بني سليم كلهم سود » . وقد يأتي بنو سليم برعاة من الروم البيض فلا يمضي ثلاثة أجيال حتى يصبحون سوداً ، ثم ان جميع الحيوانات التي تعيش في الحرة من نعام وهوام وذباب وثعالب وشاء وحمير ونخيل وطير ، سود . وثمة دليل آخر على اثر البيثة في تشكيل الالوان هو اننا نرى جراد البقل وديدانه خضراً ، كما نرى قمل الرأس الاسود سوداء ، وقمل الرأس الاشيب بيضاء . وينتهي الجاحظ الى القول : « والسواد والبياض انما هما من قبل اخلافة البلد وما طبع الله عليه الماء والتربة ، ومن قبل قرب الشمس وبعدها وشدة حرها وليتها ، وليس ذلك من قبل مسخ او عقوبة ، ولا تشويه ولا تقصير » .

## ٩ - مقدمة كتاب الحجاب

يستهل الجاحظ الكتاب بمقدمة تقليدية يدعو فيها لمن يوجه اليه الكلام - وهو شخص لا يسميه - بطول البقاء والسعادة والهداية . ويحدد موضوع الكتاب وهو جمع « ما جاء في الحجاب من خير وشرر ومعاتبة وعذر وتصريح وتعريض . . . » . والغاية التي يرمي اليها الارشاد والتبیه الى مساویء الحجاب .

الكتاب إذن عبارة عن مجموعة اخبار وأشعار حول الحجاب ، ولا ينطوي على افكار أصيلة ذات شأن ادى اليها تفكير الجاحظ . ولكنه يطلعنا على نظرة العرب الى هذا الموضوع السياسي . فنحن نستشف من خلال الاخبار والاقوال والأشعار التي ساقها الجاحظ كره العرب للحواجز التي توضع بين الحاكم والشعب - ومنها الحجاب - ورغبتهم في تمكين الصلة بينهما ، وفي ذلك دلالة واضحة على الروح الديمقراطية التي يصدرون عنها . تلك الروح التي تتجلى في اعتبار الحاكم ذا سلطة مستمدة من الشعب بموجب البيعة التي هي ضرب من الاقتراع . وقد عبر هانئ بن قبيصة عن هذه الروح في قوله ليزيد بن معاوية الذي احتجب عنه اياماً ثم لقيه وهو راكب للصيد: « يا يزيد ، ان الخليفة ليس بالمحتجب المتخفي ، ولا المتسرف المتعني ، ولا الذي ينزل على الغدران والفلوات ، ويخلو للذات والشهوات . وقد وليت امرنا فتاتم بين اظهرنا ، وسهل

اذننا ، واعمل بكتاب الله فينا ، فان كنت قد عجزت عما هنا فاردد بيعتنا نبايع  
من يعمل فينا ويقيمنا لنا ثم عليك بخلوأتك وصيدك وكلابك »

فالخليفة واحد من ابناء الشعب بايعة الناس ليدبر امورهم فاذا عجز عن  
ذلك او احجم او انصرف الى اللهو والملذات او ابتعد عنهم واحتجب دونهم ،  
وجب خلعه واقامة آخر مكانه .

وقد لخص النبي واجبات الحاكم بقوله « ثلاث من كن فيه من الولاة  
اضطلع بامانته وامره : اذا عدل في حكمه ، ولم يحتجب دون غيره ، واقام كتاب  
الله في القريب والبعيد » .

فعل الحاكم ان يعدل ويقيم احكام القرآن ولا يستكبر على الناس .

وشدد عمر بن الخطاب على ضرورة بقاء الحاكم قريباً من الشعب ، بعيداً  
عن الابهة والبدخ قائلًا لعماله : ايناكم والاحتجاب وركوب البرفون واتخاذ  
الحاجب ولبس الكتان واكل الدرهم .

وقد راعى خلفاء الامويين والعباسيين هذا الامر ولم يتشبهوا فيه بملوك الروم  
والفرس الذين احاطوا الملك بمظاهر الابهة والعظمة . فقال الخليفة العباسي موسى  
المهادي لحاجبه : « لا تحجب الناس عني فان ذلك يزيل التزكية . . . ويهلك  
المملكة » .

وتحدث الجاحظ على واجبات الحاجب ، فقال انه العين الذي ينظر فيها  
الحاكم ، فعليه بالنظر الى الناس وابلاغهم عن الحاكم وابلاغ الحاكم عنهم ، اي  
يكون صلة الوصل بين الحاكم والشعب .

ومن واجبات الحاجب احترام الناس ومعرفة اقدارهم وعدم احتقار احد  
لرئاسة ثوبه او دمامة وجهه .

وعليه ان يقابل الناس بوجه بشوش ولسان طلق ولا يميز بين الناس فيأذن  
لبعضهم ويمنع البعض الآخر ، لأن المنوع ينكسر خاطره ويضم الحقد .

ثم تكلم على شروط الحاجب وقد لخصها المنصور في خطاب وجهه الى المهدي: ولا ينبغي ان يكون الحاجب جهولاً ، ولا غيباً ، ولا عيباً ، ولا ذهولاً ، ولا متشافلاً ، ولا خاملاً ، ولا محتقراً ، ولا جهماً ولا عبوساً . . .

والى هذا المعنى ذهب عبد الملك بن مروان عندما قال لآخيه عبد العزيز « انظر من تجعل حاجبك ، ولا تجعله الا عاقلاً فهماً مفهياً ، صدوقاً لا يورد عليك كذباً ، يحسن الاداء اليك والاداء عنك . ومرة الا يقف بينك أحد من الاحرار الا اخبرك حتى تكون انت الأذن له او المانع ، فانه ان لم يفعل كان هو الأمير وانت الحاجب . واذا خرجت الى اصحابك فسلم عليهم يأنسوا بك . واذا هممت بعقوبة فتان بها فانك على استدراكها قبل فوتها اقلر منك على انتزاعها بعد فوتها . »

ويخصص الجاحظ القسم الأخير من كتابه لسرد اخبار واشعار كثيرة في العتاب والهجاء والمديح بسبب الحجاب . منها عنده قصائد للشاعر والكاتب العباسي ابي علي البصير ، الفضل بن جعفر النخعي الذي عاش في عهد المتوكل وادرك المعز . ومنها ابيات للبحثري ، ودعبل واي تمام واي العتاهية وحماة عجر وغيرهم من الشعراء المغمورين .



## ١٠ - مقدمة كتاب ذم اخلاق الكتاب

لم يذكر الجاحظ اسم صاحب الرسالة التي الف كتابه الذي نحن بصدده اي « ذم اخلاق الكتاب » للرد عليها . ولكنه يذكر انه قرأ تلك الرسالة في مدح اخلاق الكتاب وفعالهم واخبارهم ، فلم يعجبه تقريظ الكتاب والاطناب بمدحهم لما ينطوي عليه من زلل في الاحتجاج وغلط في الاعتلال وبمد عن الحقيقة . فعزم على تبيان « رداءة مذاهب الكتاب وفعالهم ، ولؤم طبائعهم واخلاقهم » . وهذا هو غرض كتاب الجاحظ وموضوعه .

ولكن ثمة باعثاً آخر حمل الجاحظ على وضع هذا الكتاب هو بغضه إياهم - اي الكتاب - والذين ترجموا له بخبروتنا أن المأمون جعله كاتباً في ديوانه وهو في سن الشباب ، فمكث في عمله ثلاثة أيام وامتنعنى لأنه لم يطق ذلك العمل .

ويمكن ان نضيف عاملاً آخر يفسر حملة الجاحظ على الكتاب هو تأثيره بالمعتزلة . فقد ذكر لنا في الكتاب عدداً من رؤسائهم الذين يشاطرونه موقفه من الكتاب امثال ثمامة بن اشرس ، وابي بكر الاصم وبشر بن المعتز ، وابي الهذيل العلاف .

ويقدم في مطلع الرسالة نماذج من الكتاب منهم عبد الله بن سعد بن ابي سرح كاتب رسول الله ، وكان نول مرتد في الاسلام و« خالف في كتابه املاءه »

فانزل الله آيات تنهي عن استكتابه . ومنهم معاوية بن ابي سفيان الذي استكتبه رسول الله ايضاً فكان « اول من غدر في الاسلام بامامه ، وحاول نقض عري الايمان بأثامه » . ومنهم زياد ابن ابيه الذي كتب لعمر بن الخطاب فكان شر ناشيء في الاسلام لانه نقض السنة . ومنهم مروان بن الحكم الذي كتب لعثمان ابن عفان فخانه في خاتمه واهاج الرعية عليه .

والدليل على ان الكتابة ليست فضيلة هو عدم معرفة رسول الله بها ، ولذا منع الله رسوله عنها « وجعل الحظ فيه دنياه » .

ويرى الجاحظ ان الكتاب في معظمهم من التابعين او الخدم : « ولم نر عظيماً قط تولى كفاية نفسه ، او شارك كاتبه في عمله » .

ثم ينتقل ابو عثمان الى الحديث على اخلاق الكتاب فينتهم بالصلف والتهيه والاعتداد بالنفس حتى ليظن الواحد منهم انه عمر بن الخطاب في حسن السياسة والتدبير ، وابن عباس في العلم والتأويل ، وعلي بن ابي طالب في القضاء والاحكام ، وابو الهذيل العلاف في علم الكلام ، والاصمعي في اللغة والانساب

وهذا الغرور في التحصيل والعلم يدفع هؤلاء الكتاب الى انتقاد كل ذي علم ومعرفة ، واحتقاره ، حتى انهم يطعنون على القرآن ويدعون تناقضه ، ويكذبون الاخبار والاحاديث ، ويحتقرون شريفاً القاضي وابن جبير الفقيه العابد الخ ..

وثمة رذيلة اخرى في الكتاب هي جهلهم بالقرآن وتفسيره ، وعدم المامهم بالفقه في الدين ، وعدم اقبالهم على حفظ السنة والآثار .

ويذكر الجاحظ عيباً اخر في الكتاب هو قلة تعاطفهم فيما بينهم وزهدهم في المواصلة مما لا نعهده في جميع المهن وكانهم في تباضهم « اولاد علات وضرائر امهات » في عداوة بعضهم البعض وحقن بعضهم على بعض .

وتشدد حملة الجاحظ على الكتاب حتى يرميهم بالشؤم : فهذا عبد الحميد  
الكاتب الذي كتب لبني امية فانتفضت خراسان عليهم وزال ملكهم ، وكتب  
عبد الله بن المقفع لبني العباس فاغرى بهم عبد الله بن علي فقتل وهدم البيت  
على صاحبه ، وكتب زيد بن ايوب للمأمون وعمل في ديوان الجند اربعين سنة  
ثم « صار في آخر عمره قواداً ليحيى بن ابيهم القاضي » .



مركز تحقيقات كميوتير علوم رسدي







[ ١ - تقریظ محمد بن ابی ذؤاد ]

حَفِظَكَ اللهُ وَامْتَعَ بِكَ .

أما بعدُ فإنَّ جماعاتِ أهلِ الحكمة قالوا : واجبٌ على كلِّ حكيمٍ أن يُحسِّنَ الارتياذَ لموضعِ البُغيةِ ، وأن يبيِّنَ أسبابَ الأمورِ ويُهَيِّدَ لعواقبِها . فلئنما جُمِدَتِ العلماءُ بحسنِ التثبُّتِ في أوائلِ الأمورِ ، واستشفايهم بعُقوبتهم ما نجيء به العواقبُ ، فيعلمون عند استنبالها ما تُؤوِّلُ به الحالاتُ في استدبارها . وبقدر تفاوتهم في ذلك تستبين فضائلهم . فأما معرفةُ الأمورِ عند تكشُّفها وما يظهر من خفيَّاتها فذاك أمرٌ يعتدل فيه الفاضل والمفضول ، والعالمون والجاهلون .

وإني عرَفْتُكَ - أكرمَكَ اللهُ - في أيامِ الحدائِةِ ، وحيث سُلطانُ اللُّهُوِ المُخلِقِ للأعراضِ أغلبٌ على نظرائك ، وسُكرُ الشبابِ والجِدَّةِ المُتَحَيِّقِينَ لِلذُّبِينِ والمُرُوءَةِ مستولٍ على لِدَاتِكَ فاخْتَبِرْتَ أنتَ وهم [ ففقتهم ] بِنِسْطَةِ المَقْدِرَةِ وَحَمِيَا الحدائِةِ ، وطَوَّلِ الجِدَّةِ ، مع ما تقدَّمَتهم فيه من الوسامةِ في الصُّورَةِ ، والجمالِ في الهيئَةِ . وهذه كُلُّهَا أسبابٌ [ تكاد أن ] توجب الانقيادَ للهوى ، ولجُحُجٍ من المهالكِ لا يَسْلُمُ منها إلاَّ المنقطعُ القرينِ في صِحَّةِ الفِطْرَةِ ، وكمالِ العَقْلِ . فاستعبدتُمُ الشَّهَوَاتِ حتَّى أعطوها أزمَةَ أديانهم ، وسلطوها على مُرُوءاتهم وأباحوها أعراضهم ، قالت بأكثرهم الحالُ إلى ذُلِّ العُدْمِ وفقد عِزِّ الغنى في العاجلِ ،

والندامة الطويلة والحسرة في الأجل .

وخرجت نسيجَ وحديك ، أوحدياً في عصرك ، حكمت وكيل الله عندك - وهو عقلك - على هواك ، وألقيت إليه أزمّة أمرك ، فسلك بك طريق السلامة ، وأسلمك إلى العاقبة المحمودة ، وبلغ بك من نيل اللذات أكثر مما بلغوا ، ونال بك من الشهوات أكثر مما نالوا ، وصرفك من صنوف النعم أكثر مما تصرفوا ، وربط عليك من نعم الله التي حولك ما أطلقه من أيديهم إشاراً للهو وتسليطهم الهوى [ على أنفسهم ] ، فخاص بهم سبيل تلك اللجج ، واستنقذك من تلك المعاطب ، فأخرجك سليم الدين ، وافر المروءة ، نقي العرض ، كثير الثراء ، بين الجدة . وذلك سبيل من كان ميله إلى الله تعالى أكثر من ميله إلى هواه .

فلم أزل [ أبقاك الله ] في أحوالك تلك كلها بفضيلتك عارفاً ، ولك بنعم الله عندك غابطاً ، أرى ظواهر أمورك المحمودة فتدعوني إلى الانقطاع إليك ، وأسأل عن بواطن أحوالك فتزيدني رغبة في الاتصال بك ، ارتياداً مني لموضع الخير في الأخوة ، والتماساً لإصابة الاصطفاء في المودة ، وتخيراً لمستودع الرجاء في النائة .

فلما محضتكم الخبرة ، وكشفتكم الابتلاء عن المحمودة ، وقضت لك التجارب بالتقدمة ، وشهدت لك قلوب العامة بالقبول والمحبة ، وقطع الله عذر كل من كان يطلب الاتصال بك ، طلبت الوسيلة إليك والاتصال بحبلك ، ومئت بحرمه الأدب وذيما كرمك . وكان من نعمة الله عندي أن جعل أبا عبد الله - حفظه الله - وسيلتي إليك ، فوجدت المطلب سهلاً والمراد محموداً ، وأفضيت إلى ما يجوز الأمانة ويفوت الأمل ، فوصلت إحصائي بمودتك ، وخلطتني بنفسك ، وأسمتني في مراعي ذوي الخاصة بك ، تفضلاً لا مجازاة ، وتطوُّلاً لا مكافأة ، فأمنت الخطوب ، واعتليت على الزمان ، واتخذتكم للأحداث عُدَّة ، ومن نواب الدهر حصناً منيعاً .

فلما حُزَّتْ المُؤانسة ، وتقلَّبتْ من فضلك في صنُوف النُّعمة ، وزاد بصري  
من مَواهبك في السُّرور والحسرة ، أردتُ خِبرة المشاهدة ، فبلوتُ أخلاقك ،  
وامتحننتُ شيمتك ، وعجمت مَذاهبك على حينِ غَفلاتك ، وفي الأوقات التي يقلُّ  
فيها تحمُّقك ، أراعي حركاتك ، وأراقب مَخرج أمرِك ونهيك ، فأرى [ من ]  
استصغارِك لعظيم النُّعم التي تُنعم بها ، واستكثارِك لقليل الشُّكر من شاكرِك ،  
ما أعرف به [ و ] بما قد بلوت من غيرك ، وما قد شهدت لي به التجارب ، أن  
ذلك منك طبعٌ غير تكلف .

هيهات ! ما يكاد ذو التكلف أن ينجى على أهل الغباوة ، فكيف على مثلي  
من المتصفحين . فزادتنى المؤانسة فيك رغبةً ، وطول العشرة لك محبةً ، وامتحاني  
أفاعيلك لك تفضيلاً ، ويطاعتك دينونةً .

وكان من تمام شكري لربي ولي كلِّ نعمة ، والمبتدئ بكلِّ إحسان ، الشكر لك  
والقيام بمكافأتك بما أمكن من قولٍ وفعلٍ ، لأنَّ الله تبارك وتعالى نظم الشُّكر له بالشُّكر  
لبي النُّعمة من خلقه ، وأبى أن يقبلها إلا معاً ، لأنَّ أحدهما دليل على الآخر ،  
وموصول به . فمن ضيع شُكر ذي نعمة من الخلق فأمر الله ضيع ، وبشاهدته  
استخفت .

ولقد جاء بذلك الخبرُ عن الطاهر الصادق صلى الله عليه وسلم ، فقال  
صلى الله عليه وسلم « من لم يشكر للناس لم يشكر الله » .

ولعمري إنَّ ذلك لموجودٌ في الفطرة ، قائم في العقل : أن من كفر نِعَم  
الخلق كان لنعم الله أكفر ، لأنَّ الخلق يُعطى بعضهم بعضاً بالكلفة والمشقة ،  
وثقل العطيَّة على القلوب ، والله يعطي بلا كلفة . ولهذا العلة جمع بين الشُّكر له  
والشُّكر لذوي النُّعم من خلقه .

فلما وجبت عليَّ الحجَّة بشُكرِك ، ! وقُطع عُذري في مكافأتك ، اعترفتُ  
بالتقصير عن تفصي ذلك ، إلا أني بسطتُ لساني بتقريظك ونشر محاسنك .  
موصول ذلك مني عند السامعين بالاعتراف بالعجز عن إحصائها .

وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أودع عُرفاً فليشكره ، فإن لم يمكنه فليشره ، فإذا نشره فقد شكره ، وإن كتبه فقد كفره » .

ثم رأيت أن قد بقي عليّ أمرٌ من الأمور يمكنني فيه برك ، وهو عندي عتيد ، وأنت عنه غير مستغنٍ ، والمنفعة لك فيه عظيمة عاجلة وآجلة إن شاء الله .

ولم أزل أبقاك الله بالموضع الذي قد عرفت ، من جمع الكتب ودراسيتها والنظر فيها ، ومعلومٌ أن طول دراستها إنما هو تصفُّح عقول العالمين ، والعلمُ بأخلاق النبيين ، وذوي الحكمة من الماضين والباقيين من جميع الأمم ، وكتب أهل الملل .

فرايتُ أن أجمع لك كتاباً من الأدب ، جامعاً لعلمٍ كثيرٍ من المعاد والمعاش ، أصفُّ لك فيه عللَ الأشياء ، وأخبرك بأسبابها وما اتفقت اليه محاسنُ الأمم .

وعلمتُ أن ذلك من أعظم ما أبرك به ، وأرجح ما أتقربُ به إليك . وكان الذي حداني على ذلك ما رأيتُ الله قسم لك من الفهم والعقل ، وركب فيك من الطبع الكريم .

وقد أجمعت الحكماء أن العقل المطبوع والكرم الغريزي لا يبلغان غاية الكمال إلا بمعاونة العفل المكتسب . ومثلوا ذلك بالنار والخطب ، والمصباح والدُّهن . وذلك أن العقل الغريزي آلة والمكتسب مادة ، وإنما الأدب عقلٌ غيرك تزيده في عقلك .

ورأيتُ كثيراً من واضعي الآداب قبلي قد عهدوا إلى الغابرين بمذمهم في الآداب عُهوداً قاربوا فيها الحق ، وأحسنوا فيها الدلالة ، إلا أنني رأيتُ أكثر ما رَسَموا من ذلك فروعاً لم يبينوا عللها ، وصفاتٍ حسنة لم يكشفوا أسبابها ، وأموراً محمودة لم يدلُّوا على أصولها .

فإن كان ما فعلوا من ذلك [ رواياتٍ رَوَوْها عن أسلافهم ، و [ وراثاتٍ ورثوها عن أكابرهم ، فقد قاموا بأداء الأمانة ، ولم يبلغوا فضيلةً من استنبط . وإن كانوا تركوا الدلالة على عِلل الأمور التي بمعرفة عللها يُوصل إلى مباشرة اليقين فيها ، وبتَّهى إلى غاية الاستبصار منها ، فلم يَعُدوا في ذلك منزلة الظن بها . ولن تجدوا وصايا انبياء الله أبداً إلا مبيّنة الأسباب ، مكشوفة العِلل ، مضروبةً معها الأمثال .

### [ ٢ موضوع الكتاب ]

فألفت لك كتابي هذا إليك ، وأنا واصفٌ لك فيه الطباع التي رُكب عليها الخلق ، وفطرت عليها البرايا كلهم ، فهم فيها مستوون ، وإلى وجودها في أنفسهم مضطرون ، وفي المعرفة بما يتولد عنها متفقون .

ثم مبيّن لك كيف تفترق بهم الحالات ، وتفاوت بهم المنازل ، وما العِلل التي يُوجب بعضها بعضاً ، وما الشيء الذي يكون سبباً لغيره ، متى كان الأول كان أما بعده ، وما السبب الذي لا يكون الثاني فيه إلا بالأول ، وربما كان الأول ولم يكن الثاني . وفرق ما بين الطبع الأول وبين الاكتساب والمادة التي تصير طبعاً ثانياً . ولم اختلف ذلك ؟ وكيف دواعي قلوب الناس ، وما منها يمتنعون عنه ، وما منها لا يمتنعون منه . وحتى تؤنس بعد الوحشة ، وتسكن بعد النُفار ؟ وكيف يتأتى لِنَقْض ما فيهم من الطباع المذمومة حتى تُصرف إلى الشيم المحمودة ؟ ورأسم لك في ذلك أصولاً ، ومبينٌ لك مع كل أصل منها علته وصيه .

وقد علمت أن في كثيرٍ من الحقِّ مشبهات لا تُستبان إلا بعد النظر ، وهناك يجتبل الشيطان أهل الغفلة ، وذاك أنه لا يجد سبيلاً إلى اختداعهم عن الأمور الظاهرة .

فلم أدع من تلك المواضع الخفية موضعاً إلا أقمت لك بازاء كل شبهة منه

دليلاً ، ومع كل خفي من الحق حجة ظاهرة ، تستنبط لها غوامض البرهان وتستبين بها دقايق الصواب ، وتستثيف بها سرار القلوب ، فتأتي ما تأتي عن بيّنة ، وتدع ما تدع عن خبرة ، ولا يكون بك وحشة إلى معرفة كثير مما يغيب عنك ، إذا عرفت العلل والأسباب ، حتى كأنك مشاهدٌ لضمير كل أمرٍ لمعرفتك بطبعه وما ركّب عليه ، وعوارض الأمور الداخلة عليه ثم ، غير راضٍ لك بالأصول حتى أتقصي لك ما بلغه علمي من الفروع . ثم لا أرسم لك من ذلك [ إلا ] الأمر المعقول في كل طبيعة ، والموجود في فطر البرايا كلها . فإن أحسنت [ رعاية ] ذلك وأقمته على حدوده ، ونزلته منازل ، كان عمرك - وإن قصرت أيامه - طويلاً ، وفارقت ما لا بدُّ لك من فراقه محموداً ، إن شاء الله .

### [ ٣ - آداب الدين والدنيا واحدة ]

واعلم أن الآداب إنما هي آلات تصلح أن تستعمل في الدين وتُستعمل في الدنيا ، وإنما وضعت الآداب على أصول الطباع . وإنما أصول أمور التدبير في الدين والدنيا واحدة ، فما فسدت فيه المعاملة في الدين فسدت فيه المعاملة في الدنيا ، وكلُّ أمرٍ لم يصح في معاملات الدنيا لم يصح في الدين . وإنما الفرق بين الدين والدنيا اختلاف الدارين من الدنيا والآخرة فقط ، والحكم ها هنا الحكم هناك ، ولولا ذلك ما قامت مملكة ، ولا ثبتت دولة ، ولا استقامت سياسة . ولذلك قال الله عز وجل : ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هُنَا أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ ، قال ابن عباس في تفسيرها : من كان ليس له من العقل ما يعرف به كيف دُبّرت أمور الدنيا ، فكذلك هو إذا انتقل إلى الدين ، فإنما يتقل بذلك العقل . فبقدر جهله بالدنيا يكون جهله بالآخرة أكثر ، لأن هذه شاهدةٌ وتلك غيب ، فإذا جهل ما شاهد فهو بما غاب عنه أجهل .

فلو ما أوصيك به ونفسي تقوى الله ، فإنها جِماعُ كل خير ، وسببُ كل نجاة ، ولقاحُ كل رشد . هي أحرزُ حرز ، وأقوى معين ، وأمنع جنة . هي

الجسامعة محبة قلوب العباد ، والمستقبلة بسك محبة قلوب من لا تجري عليهم  
نعمك . فاجعلها عدتكم وسلاحك ، واجعل أمر الله ونهيه نصب عينيك .

وأحذرک ونفسی الله والاعتزاز به ، والإدهان في أمره ، والاستهانة بعزاه ،  
والأمن لكرهه ، فقد رأيت آثاره في أهل ولايته وعداوته ، كيف جعلهم للماضين  
عبرة ، وللغابرين مثلاً .

واعلم أن خلقه كلهم بريته ، ولا وُصلة بينه وبين أحد منهم إلا بالطاعة ،  
فأولاهم به أكثرهم تزيُّداً في طاعته ، وما خالف هذا فإنه أمانى وغرور .

وقد مكن الله لك من أسباب المقدرة ، ومهد لك في تمكين الغنى والبسطة  
ما لم تتخله بحيلة ، ولا بلغت بقرّة ، لولا فضله وطوُّه . ولكنّه مكنك ليلو  
خُبرك ، ويختبر شُكرك ، ويحصي سعيك ، ويكتب أثرك ، ثم يوقيك أجرک ،  
ويأخذك بما اجتاحت يدك أو يعفو ، فأهل العفو هو .

والله ابتلاء ان في خلقه - والابتلاء هو الاختبار - ابتلاء بنعمة ، وابتلاء بمصيبة .  
ويقدر عظمها يجب التكليف من الله عليها ، فيقدر ما خولك من النعمة يستأديك  
الشُكر .

ولو تقصى الله على خلقه لعذبهم ، ولذلك قال : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ  
بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ . ولكنه قبل التوبة ، وأقال العثرة ،  
وجعل بالحسنة أضعافها .

واعلم أن الحكم في الآخرة هو الحكم في الدنيا : ميزان قسط ، وحكم  
عدل . وقد قال الله تعالى : ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ  
خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ .

وهذا مثل ضربته الله ، لأن الناس يعلمون أن لو وضع في إحدى كفتي  
الميزان شيء ولم يك في الأخرى قليل ولا كثير ، لم يكن للوزن معنى يعقل . وذلك  
أن أحداً من الخلق لا يخلو من هفوة زلة أو غفلة ، فأخبر أن من كان حسنة

الراجعة على سيئاته، مع النَّدَم على السيِّئات ، كان على سبيل النجاة ، وطريق الفوز بالإفلاح . ومن مالت سيئاته بحسناته كان العطبُ والعذاب أولى به .

وكذلك حكمه في الدنيا ، لأنه قد تولى أولياء من خلقه وشهد لهم بالعدالة ، وقد عاتبهم في بعض الأمور لغلبة الصُّلاح [ في أفعالهم وإن هفوا ، وتبرأ من آخرين وعاداهم لغلبة الجور ] على أفاعيلهم ، وإن أحسنوا في بعض الأمور .

وكذلك جرت معاملات الخلق بينهم ، يُعدّلون العادل بالغالب من فعله وربما أساء ، ويفسِّقون الفاسق وربما أحسن . وإنما الأمور بعواقبها ، وإنما يُقضى على كلِّ امرٍ بما شاكل أحواله .

فهذه الأمور قائمة في العقول ، جرت عليها المعاملة ، واستقامت بها السياسة ، لا اختلاف بين الأمة فيها . فلا تُغَبَّنُ حَظُّكَ من دينك ، وإن استطعت أن تبلغ من الطَّاعة غاياتها فلنفسك تُمهِّد ، وإلا فاجهد أن يكون أغلب أفعالك عليك الطَّاعة ، مع الندامة عند الإساءة ويكون ميراثك عند الإساءة ، إلى الله أكثر . والله يوفقك .

#### [ ٤ - طبع الناس على حب المنفعة ودفع الضرر ]

اعلم أن الله جل ثناؤه خلق خلقه ، ثم طبعهم على حبِّ اجترار المنافع ، ودفع المضار ، وبغض ما كان بخلاف ذلك . هذا فيهم طبع مركب ، وجبلة مفسطورة ، لا خلاف بين الخلق فيه ، موجود في الإنس والحيوان ، لم يدع غيره مدع من الأولين والآخرين . وبقدر زيادة ذلك ونقصانه تزيد المحبة والبغضاء ، [ فنقصانه ] كزيادته تميل الطبيعة معها كميل كفتي الميزان ، قل ذلك أو أكثر .

وهاتان جملتان داخل فيهما جميع محابِّ العباد ومكارمهم . والنفس في طبعها حبُّ الرِّاحة والدُّعة ، والازدياد والعلو ، والعز والغلبة ، والاستطراف والتشوق

وجميع ما تستلذ الحواس من المناظر الحسنة ، والروائح العبقة ، والطعوم الطيبة ، والأصوات المونقة ، والملابس اللذيذة . وما كراهيته في طباعهم أضداد ما وصفت لك وخلافه .

فهذه الخلال التي تجمعها خلتان غراز في الفطر ، وكوامن في الطبع ، جبلة ثابتة ، وشيمة مخلوقة . على أنها في بعض أكثر منها في بعض ، ولا يعلم قدر القلة فيه والكثرة إلا الذي دبرهم .

فلما كانت هذه طباعهم ، أنشأ لهم من الأرض أرزاقهم ، وجعل في ذلك ملاً لجميع حواسهم ، فتعلقت به قلوبهم ، وتطلعت إليه أنفسهم . فلو تركهم وأصل الطبيعة ، مع ما مكن لهم من الأرزاق المشتهة في طباعهم ، صاروا إلى طاعة الهوى ، وذهب التعاطف والتبار . وإذا ذهب كان ذلك سبباً للفساد ، وانقطاع التنازل ، وفناء الدنيا وأهلها ، لأن طبع النفس لا يسلس بعطية قليل ولا كثير مما حوته ، حتى تعوض أكثر مما تعطي ، إما عاجلاً وإما أجلاً مما تستلذه حواسها .

مركز تحقيقات الكمبيوتر علوم إسلامي

[ ٥ - الرغبة والرغبة اساس السياسة ]

فعلم الله أنهم لا يتعاطفون ولا يتواصلون ولا ينقادون إلا بالتأديب ، وأن التأديب ليس إلا بالأمر والنهي ، [ وأن الأمر والنهي ] غير ناجعين فيهم إلا بالترغيب والترهيب اللذين في طباعهم . فدعاهم بالترغيب إلى جنته ، وجعلها عوضاً عما تركوا في جنب طاعته ، وزجرهم بالترهيب بالنار عن معصيته ، وخوفهم بعقابها على ترك أمره . ولو تركهم جل ثناؤه والطباع الأول تجروا على سنن الفطرة ، وعادة الشيمة .

ثم أقام الرغبة والرغبة على حدود العدل ، وموازين النصفة ، وعدّهم تعديلاً متفقاً ، فقال : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ .

ثم أخبر الله تبارك وتعالى أنه غير داخلٍ في تدبيره الخلل ، ولا جائزٌ عنده المحاباة ، ليعملَ كلُّ عاملٍ على ثقةٍ بما وعدّه وأوعده ، فتعلقت قلوبُ العباد بالرغبة والرّهبة ، فاطردَ التدبير ، واستقامت السّياسة ، لموافقتها ما في الفطرة ، وأخذها بمجامع المصلحة .

ثم جعل أكثر طاعته فيما تستثقل النفوس ، وأكثر معصيته فيما تُلذّ . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « حُفَّت الجنة بالمكاره ، والنارُ بالشهوات » . [ يخبر أن الطريق إلى الجنّة احتمال المكاره ، والطريق إلى النار اتباع الشهوات ] .

فإذا كانوا لم يصلحوا لخالقهم ولم ينقادوا لأمره إلا بما وصفت لك من الرّغبة والرّهبة ، فاعجزُ الناسِ رأياً وأخطوهم تدبيراً ، وأجهلهم بموارد الأمور ومصادرها ، من أمّل أو ظنّ أو رجح أن أحداً من الخلق - فوقه أو دونه أو من نظرائه - يصلح له ضميره ، أو يصحُّ له بخلاف ما دبرهم الله عليه ، فيما بينه وبينهم .

فالرّغبة والرّهبة أصلاً كلُّ تدبيرٍ ، وعليها مدار كلِّ سياسة ، عظمت أو صغرت . فاجعلها مثالك الذي تحتذي عليه ، وركنك الذي تستند إليه . واعلم أنك إن أهملت ما وصفت لك عرضت تدبيرك للاختلاط وإن آثرت الهوينا واتكلت على الكفاية في الأمر الذي لا يجوز فيه إلا نظرك ، وزجيت أمورك على رأي مدخول ، وأصل غير محكم ، رجعت ذلك عليك بما لو حُكّم فيك عدوك كان ذلك غاية أمنيته ، وشفاء غيظه .

[ ٦ - العدل اساس السياسة ]

واعلم أن اجراءك الأمور مجارياً واستعمالك الأشياء على وجوها ، يجمع لك ألفة القلوب ، فيعاملك كلُّ من عاملك بمودةٍ ، أو أخذ أو إعطاء ، وهو على ثقةٍ من بصرك بمواضع الإنصاف ، وعلمك بموارد الأمور .

واعلم أن أثرتك على غير النصيحة والشفقة ، والحُرمة والكفاية ، يوجب [ لك ] المباعدة وقلة الثقة من أثرته أو أثرت عليه .

فاعرف لأهل البلاء - ممن جرت بينك وبينه مودة أو حرمة ، ممن فوقك أو دونك أو نظرائك - أقدارهم ومنازلهم . ثم لتكن أمورهم معهم على قدر البلاء والاستحقاق ، ولا تؤثر في ذلك أحداً لهوى ، فإن الأثرة على الهوى توجب السخط ، وتوجب استصغار عظيم النعمة ، ويُحق بها الإفضال ، وتفسد عليها الطائفتان : من أثرت ومن أثرت عليه .

أما من أثرت فإنه يعلم أنك لم تؤثره باستحقاق بل لهوى ، فهو مترقب أن ينتقل هواك إلى غيره ، فتحول أثرتك حيث مال هواك . فهو مدخول القلب في مودتك ، غير أمين لتغيرك .

وأما من أثرت عليه بعد الاستحقاق منه فقد جعلت له السبيل إلى الطعن عليك ، وأعطيت الحجة على نفسك . فكل من يعمل على غير ثقة عاد ما أراد به النفع ضرراً والإصلاح [ فيه ] فساداً .

وربما أثر الرجل المرء من إخوانه بالعطية السيئة على بلاء أبلاه ، فيعظم قدرها عنده حتى لعله تطيب نفسه ببذل ماله ودمه دونه . فإن أعطى من أبي كبلاته وكانت له مثل دالته ، أكثر مما أعطاه ، انتقل كل محمودٍ من ذلك مذموماً ، وكل مستحسنٍ مستقبحاً . وكذلك الأمر في العقوبة ، يجريان مجرى واحداً .

فاجعل العدل والنصفة في الثواب والعقاب حاكماً بينك وبين إخوانك ، فمن قدمت منهم فقدّمته على الاستحقاق ، وبصحة النية في مودته ، وخلوص نهيته لك مما قد بلوت من أخلاقه وشيمه ، وعلمت بتجربتك له ، أنه يعلم أن صلاحه موصول بصلاحك ، وعطبه كائن مع عطبك ، ففوض الأمر إليه ، وأشركه في خواص أمورك وخفي أسرارك ، ثم أعرف قدره في مجلسك ومحاورتك ومعاملتك ، في كل حالاتك ومزاوماتك في خلواتك معه ، وبحضرة جلسائك ، فإن ذلك زيادة في نيته ، وداعية لمن دونه إلى التقرب إليك بمثل نهيته .

فإن ابتليت في بعض الأوقات بمن يضرب بحرمة ويمت بدالة ، يطلب  
المكافأة بأكثر مما يستوجب ، فدعك الكرم والحيا إلى تفضيله على من [ هو ] أحق  
منه ، إما تخوفاً من لسانه ، أو مداراةً لغيره ، فلا تدع الاعتذار إلى من فوقه من  
أهل البلاء والنصيحة وإظهار ما أردت من ذلك لهم ، فإن أهل خاصتك والمؤمنين  
على أسرارك ، هم شركاؤك في العيش ، فلا تستهين بشيء من أمورهم ، فإن  
الرجل قد يترك الشيء من ذلك اتكالا على حسن رأي أخيه ، فلا يزال ذلك  
يجرح في القلب وينمو ، حتى يولد ضغناً ويحول عداوة .

فتحفظ من هذا الباب ، واحمل إخوانك عليه بجهدك .

وستجد في من يتصل بك من يغلبه إفراط الحرص وحميا الشره ، ولين  
جانبك له ، على أن ينقم العافية ، ويطلب اللئيم بمنزلة من ليس هو مثله ،  
ولا له مثل دأته ، فتلقاه لما تصنع به مستقبلاً ، ولمعروفك مستصغراً . وصالح من  
كانت هذه حاله بخلاف ما فسد عليه أمره . فاعرف طرائقهم وشيمهم ، وداو  
كل من لا بد لك من معاشرته بالدواء الذي هو أنجع فيه ، إن ليناً فليناً ، وإن  
شدة فشدة ، فقد قيل في المثل *نزلت كقطير طوم سوي*

من لا يؤدبه الجميل . . . ل ففني عقوبته صلاحه  
وقد قال بعض الحكماء :

« ليس بحكيم من لم يعاشر من لا يجد من معاشرته بدأ ، بالعدل  
والنصفه ، حتى يجعل الله له من أمره قرجا ومخرجا . »

[ ٧ - لائحة الاسباب والمواقب ]

فاحفظ هذه الأبواب التي يوجب بعضها بعضاً ، وقد ضمنت لك أوائلها  
كون أوآخرها . فاعرفها واقتبسها ، واعلم أنه متى كان الأول منها وجب ما بعده  
لا بد منه . فاحذر المقدمات اللاتي يعقبها المكروه ، واحرص على توطيد الأمور

التي على أثرها السلامة ، وألقيح في الهدى الأمور التي نتائجها العافية .

فمن الأمور التي يُوجب بعضها بعضاً : المنفعة تُوجب المحبة ، والمضرة تُوجب البغضاء ، والمضادة تُوجب العداوة ، وخلاف الهوى يُوجب الاستئصال ، ومتابعته تُوجب اللفة ، والصدق يُوجب الثقة ، والكذب يُورث التهمة ، والأمانة تُوجب الطمأنينة ، والعدل يُوجب اجتماع القلوب ، والجور يُوجب الفرقة ، وحسن الخلق يُوجب المودة ، وسوء الخلق يُوجب المباعدة ، والانبساط يُوجب المؤانسة ، والانقباض يُوجب الوحشة ، والتكبر يُوجب المقت ، والتواضع يُوجب المقة ، والجود بالقصد يُوجب الحمد ، والبخل يُوجب المذمة ، والتواني يُوجب التضييع ، والجِدُّ يُوجب رخاء الأعمال ، والهون يُورث الخسرة ، والحزم يُورث السرور ، والتغريب يُوجب الندامة ، والحذر يُوجب العُذر ، [ وإصابة التدبير تُوجب بقاء النعمة ] والاستهانة تُوجب التباهي ، والتباهي مقدمة الشرِّ وسبب البوار .

ولكل شيء من هذا إفراط وتقصير ، وإنما تصحُّ نتائجها إذا أُقيمت على حدودها ، ويقدر ما يدخل من الخلل فيها يدخل فيما يتولد منها ، لا بد منه ولا مَرَحَلٌ عنه ، عليه عادة الخلق ، وبه جرت طباعهم ، وتمام المنفعة بها إصابة مواضعها :

فالإفراط في الجود يُوجب التبذير ، والإفراط في التواضع يُوجب المذلة ، والإفراط في الكبر يدعو إلى مقت الخاصة ، والإفراط في المؤانسة يدعو لخلطاء السوء ، والإفراط في الانقباض يوحش ذا النصيحة . وآفة الأمانة ائتمان الخانة ، وآفة الصدق تصديق الكذبة ، والإفراط في الحذر يدعو إلى الأوثق بأحد ، وذلك ما لا سبيل إليه . [ والإفراط في المضرة مبعثة على حربك ] ، والإفراط في جرُّ المنفعة غناء لمن أفرطت في نفعه عنك .

واحذر كل الحذر أن يخذعك الشيطان عن الحزم فيمثل لك التواني في صورة التوكل ، ويسلبك الحذر ، ويورثك الهوناً بإحالتك على الأقدار ، فإن الله

إنما أمر بالتوكل عند انقطاع الحيل ، والتسليم للقضاء بعد الإعذار ، بذلك أنزل كتابه ، ، وأمضى سنته فقال : ﴿ خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ ، ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ . وقول النبي صلى الله عليه وسلم : « اعْقَلْهَا وَتَوَكَّلْ » . وسئل ما الحزم ؟ فقال : الحذر .

فتحفظ من هذا الباب وأحكم معرفته إن شاء الله تعالى .  
واعلم أن أكثر الأمور إنما هو على العادة وما تضرى عليه النفوس ، ولذلك قالت الحكماء : « العادة أمك بالأدب » .  
فرض نفسك على كل أمر محمود العاقبة ، وضرها بكل ما لا يندم من الأخلاق يصير ذلك طباعا ، وينسب إليك منه أكثر مما أنت عليه .

#### [ ٨ - الجود والبخل ]

واعلم أن الذي يُوجب لك اسم الجود القيام بواجب الحقوق عند النوائب ، مع بعض التفضل على الراغبين . وإذا أوجب لك اسم الجود زال عنك اسم البخل .

واعلم أن تدمير المال آلة للمكارم ، وعاون على الدين ، ومُتَأَلَّفٌ لِلإِخْوَانِ ، وأن من قد فقد المال قلت الرغبة إليه ، والرغبة منه ، ومن لم يكن بموضع رغبة ولا رهبة استهان الناس بقدره .

فاجهد الجهد كله ألا تزال القلوب معلقة منك برغبة أو رهبة ، في دين أو دنيا .

واعلم أن السرف لا بقاء معه لكثير ، ولا تدمير معه لإقليل ، ولا تصلح عليه دنيا ولا دين . وتأدب بما أدب الله تعالى به نبيه فقال : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴾ .

وقالت الحكماء : « القصد أبقى للجَمَامِ » .

فداومْ حالَكَ وبقَاء النُّعمَة عليك ، بتقديرِكَ أمورَكَ على قَدْر الزمان ، ويقدر  
الإمكان ، فقد قال الشاعر :

مَنْ سَابَقَ الدَّهْرَ كَبَا كَبْوَةً      لَمْ يَسْتَقِلْهَا مِنْ خُطَى الدَّهْرِ  
فَاخْطُ مَعَ الدَّهْرِ عَلَى مَا خَطَا      وَاجِرٍ مَعَ الدَّهْرِ كَمَا يَجْرِي

#### [ ٩ - الصمت والمنطق ]

واعلم أَنَّ الصمت في موضعه رُبَّمَا كَانَ أَنْفَعَ مِنَ الإِبْلَاحِ بِالْمَنْطِقِ فِي  
مَوْضِعِهِ ، وَعِنْدَ إِصَابَةِ فِرْصَتِهِ . وَذَلِكَ صَمْتُكَ عِنْدَ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّكَ لَمْ تَصْمِتْ عَنْهُ  
عِيًّا وَلَا رَهْبَةً . فَلْيَزِدْكَ فِي الصُّمْتِ رَغْبَةً مَا تَرَى مِنْ كَثْرَةِ فَضَائِحِ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي غَيْرِ  
الْفُرْصِ ، وَهَذِيرٍ مَنْ أَطْلَقَ لِسَانَهُ بِغَيْرِ حَاجَةٍ .

#### [ ١٠ - الشجاعة ]

واعلمْ أَنَّ الجُبْنَ جِنَانٌ ، وَالشُّجَاعَةَ شَجَاعَتَانِ ، وَلَيْسَتْ تَكُونُ الشُّجَاعَةَ  
إِلَّا فِي كُلِّ أَمْرٍ لَا يُدْرَى مَا عَاقِبَتُهُ ، يُخَاطِرُ فِيهِ بِالْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ . فَلِذَا أُرِدْتُ  
الْحَزْمَ فِي ذَلِكَ فَلَا تُشْجِعُنْ نَفْسَكَ عَلَى أَمْرٍ أَبَدًا إِلَّا وَالَّذِي تَرْجُو مِنْ نَفْعِهِ فِي  
الْعَاقِبَةِ أَعْظَمُ مِمَّا تَبْذُلُ فِيهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، ثُمَّ يَكُونُ الرَّجَاءُ فِي ذَلِكَ أَغْلَبَ عَلَيْكَ  
مِنَ الْخَوْفِ .

وَمَا هُنَا مَوْضِعٌ يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَى النَّظَرِ : فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ أَمْرًا وَاجِبًا فِي الدِّينِ ،  
أَوْ خَوْفًا لِعَارٍ سَبَّ بِهِ الْأَعْقَابُ فَانْتَ مَعْدُورٌ بِالْمَخَاطِرَةِ فِيهِ بِنَفْسِكَ وَمَالِكَ . وَإِنْ  
كَانَ أَمْرًا تَعْظُمُ مَنَفَعَتُهُ فِي الدُّنْيَا إِلَّا أَنَّكَ لَا تَنَالُهُ إِلَّا بِالْمَخَاطِرِ بِمَهْجَةِ نَفْسِكَ أَوْ  
بِتَعْرِيفِ كُلِّ مَالِكٍ لِلتَّلْفِ ، فَالْإِقْدَامُ عَلَى مِثْلِ هَذَا لَيْسَ بِشَجَاعَةٍ ، وَلَكِنْ حَاقَةً  
بَيْنَهُ عِنْدَ الْحُكَمَاءِ .

وقد قالت علماء أوائل الناس :

• لا يرسل السَّاقُ إِلَّا مُمْسِكًا سَاقًا •

وقالوا : « لا تُخرج الأمر كله من يدك ونخذ بأحد جانبيه » . ثم الشجاعة  
والجبن في ذلك بقدر الحالات والأوقات .

[ ١١ - معاملة العدو ]

واعلم أن أصل ما أنت مستظهر به على عدوك ثلاثٌ خلال :

أشرفها : أن تأخذ عليه بالفضل وتبتدئه بالحسنى ، فتكون عليه رحمةً  
ولنفسك ناظراً ؛ فإن كثرة الأعداء تنغيص للسُرور ، وقد قال الله تبارك وتعالى :  
﴿ ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ .

فإن كان عدوك مما لا يصلح على ذلك فحصن عنه أسرارك ، وعم عليه  
أثار تدبيرك ، ولا يطلعن على شيء من مكائيدتك له بقولٍ ولا فعل ، فياخذ  
جذره ، ويعرف مواضع عوارك ، فإن تحصين الأسرار أخذ بأزمة التدبير ،  
والإكثار من الوعيد للأعداء فشل . ولكن داج عدوك ما داجك ، وأحص  
معاينه ما لاحاك .

مركز تحقيقات الكمبيوتر علوم رسدي

وقال الشاعر :

كلُّ يداجي على البغضاء صاحبه      زُكِنْتُ منهم على مثل الذي زُكِنُوا

واعلم أن أعظم أعوانك عليه الحُجج [ ثم الفرصة ] ، ثم لا تظهرن عليه  
حُجَّةٌ ، ولا تهتبل منه غرّةٌ ، ولا تطلبن له عشرة ، ولا تهتكن له سترًا [ إلا ] عند  
الفرصة في ذلك كله ، وفي المواضع التي يجب لك فيها العُدْر ويعظم فيها  
ضرره ، إن كان العفوعه شرًّا له .

وإن كان ممن يُظهر لك العداوة ويكشف لك قناع المحاربة ، وكان ممن  
أعيانك استصلاحه بالحلم والأناة ، فلتكن في أمره بين حالين : استيطان الحذر  
منه ، والاستعداد له وإظهار الاستهانة [ به ] . ولست مستظهِراً عليه نفسك  
من الأذناس ، وبراءتك من المعايب .

فلتكن هذه سيرتك في أعدائك .

واعلم أن إشاعة الأسرار فسادٌ في كل وجهٍ من الوجوه ، من العدو والصديق . وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « استعينوا على الحوائج بسئرها ؛ فإن كل ذي نعمة محسود » .

وإذا أفشيت سرك فجاءت الأمور على غير ما تقدّر كان ذلك منك فضلاً من قولك على فعلك . وقد قيل في الأمثال : « من أفشى سرّاً كثّر المتأمرون عليه » . فلا تضحّ سرك إلا عند من يضره نشره كما يضرُّك ، وينفعه ستره بحسب ما ينفعك .

#### [ ١٢ - أجناس الناس ]

واعلم أنك ستصحب من الناس أجناساً متفرقةً حالاتهم ، متفاوتةً منازلهم ، وكلهم بك إليه حاجة ، وكل طائفة تسدُّ عنك كثيراً من المنافع لا يقوم به من فوقها ، ولعلهم مجتمعون على نصيحتك والشفقة عليك . فمنهم من تريد منه الرأي والمشورة ، [ ومنهم من تريده للحفظ والأمانة ] ، ومنهم من تريده للشدة والغلظة ، ومنهم من تريده للبهنة . وكل يسدُّ مسدّه على حياله . وقد قيل في الحكمة : « إن الخلال تنفع حيث لا ينفع السيف » .

ولا تخلين أحداً منهم - عظم قدره أو صغرت منزلته - من عنايتك وتعهدك بالجزاء على الحسنة ، والمعاتبة عند العثرة ؛ ليعلموا أنهم منك بمرأى ومسمع . ثم لا تجوزن بأحدٍ منهم خده ، ولا تدخله فيما لا يصلح له ، تستقم لك حاله ، ويتيقن لك أمره .

واعلم أنه سيمرُّ بك في معاملات الناس حالاتٌ تحتاج فيها إلى مداراة أصناف الناس وطبقاتهم ، يبلِّغ بك غاية الفضيلة فيها ، وكمال العقل والأدب منها ، أن تسالم أهلها وتملك نفسك عن هواها ، وتكف من جاحها ، بالأمر

الذي لا يُخرجك في دينك ولا عرضك ولا بدنك ، بل يُفيدك عزّ الحلم ، وهيبة الوقار . وهي أمور مختلفة ، تجمعها حال واحدة .

منها : أن تأتي محفلاً فيه جمع من الناس ، فتجلس منه دون الموضع الذي تستحقه حتى يكون أهله [ الدين ] يرفعونك ، فتظهر جلالتك وعظمتك قدرك .

ومنها : أن يُفيض القوم في حديث ، عندك منه مثل ما عندهم أو أفضل ، فيتنافسون في إظهار ما عندهم ، فإن نافستهم كنت واحداً منهم ، وإن أمسكت اقتضوك ذلك ، فصرت كأنك ممتن عليهم بحديثك ، وأنصتوا لك ما لم ينصتوا لغيرك .

ومنها : أن يتمارى جلسائك - والمراء ينتاج اللجاجة وثمرة أصلها الحمية - فإن ضببت نفسك كان تحاكمهم إليك ، ومعولهم عليك .

واعلم أن طبع النفوس - إذ كان على حسب العلو والغلبة - أن في تركيبها بغض من استطال عليها . فاستدع بحبة العائمة بالتواضع ، ومودة الأجلء بالموانسة والاستشارة ، والثقة والطمأنينة .

واعلم أن الذي تعامل به صديقك هو ضد ما تعامل به عدوك . فالصديق وجه معاملته المسالمة ، والعدو وجه معاملته المداراة والموازبة ، هما ضدان يتنافيان ، يُفسد هذا ما أصلح هذا ، وكلما نقصت من أحد البابين زاد في صاحبه ، إن قليل فقليل ، وإن كثير فكثير . فلا تسلّم بالمواربة صداقة ، ولا تظفر بالعدو مع الاستسلام إليه . فضع الثقة موضعها ، وأقم الخنز مقامه ، وأسرع إلى التفهم بالثقة ، ولا تبادر إلى التصديق ، ولا سيما بالمحال من الأمور .

[ ١٣ - معرفة الأمور الغائبة ]

واعلم أن كل علم بغائب ، كائن ما كان ، إنما يُصاب من وجوه ثلاثة لا

رابع لها ، ولا سبيل لك ولا لغيرك إلى غاية الإحاطات ؛ لاستئثار الله بها . ولن  
تنهنا بعيش مع شدة التحرز ، ولن يتسوق لك أمر مع التضييع . فاعرف أقدار  
ذلك .

فما غاب عنك مما قد رآه غيرك مما يُدرك بالعيان ، فسييل العلم به الأخبار  
المتواترة ، التي يحملها الولي والعدو ، والصالح والطالح ، المستفيضة في الناس ،  
فتلك لا كلفة على سامعها من العلم بتصديقها . فهذا الوجه يستوي فيه العالم  
والجاهل .

وقد يجيء خبرٌ أخص من هذا إلا أنه لا يُعرف إلا بالسؤال عنه ، والمفاجأة  
لأهله ، كقوم نقلوا خبراً ، ومثلك يحيط علمه أن مثلهم في تفاوت أحوالهم ،  
وتباغدهم من التعارف ، لا يمكن في مثله التواطؤ وإن جهل ذلك أكثر الناس .  
وفي مثل هذا الخبر يمتنع الكذب ، ولا يتهيأ الاتفاق فيه على الباطل .

وقد يجيء خبرٌ أخص من هذا ، يحمله الرجل والرجلان ممن يجوز أن  
يصدق ويجوز أن يكذب ، فصدق هذا الخبر في قلبك إنما هو بحسن الظن  
بالمخبر ، والثقة بعداته . ولن يقوم هذا [ الخبر ] من قلبك ولا قلب غيرك مقام  
الخبرين الأولين [ أبدأ ] . ولو كان ذلك كذلك بطل التصنع بالدين واستوى  
الظاهر والباطن من العالمين .

ولما أن كان موجوداً في العقول أنه قد يفتش بعض الأمناء عن خيانة ،  
وبعض الصادقين عن كذب ، وأن مثل الخبرين الأولين لم يتعقب الناس في مثلها  
كذباً قط ، علم أن الخبر إذا جاء من مثلها جاء مجيء اليقين ، وأن ما علم من  
خير الواحد فلأنما هو بحسن الظن والائتمان .

فهذه الأخبار عن الأمور التي تدركها الأبصار .

فإنما العلم بما غاب مما لا يدركه أحد بعيان ، مثل سرائر القلوب وما  
أشبهها ، فلأنما يدرك علمها بآثار أفعالها وبالغالب من أمورها ، على غير إحاطة  
كإحاطة الله بها .

وأول العلم بكل غائب الظنون ، والمظنون إنما تقع في القلوب بالدلائل ،  
فكلما زاد الدليل قوياً الظن حتى ينتهي إلى غاية تزول معها الشكوك عن  
القلوب ؛ وذلك لكثرة الدلائل ، [ ولترادفها ] .

فهذا غاية علم العبادة بالأمور الغائبة (١) .

فمن عرف ما طبع عليه الخلق وجرت به عاداتهم ، وعرف أسباب اتصالهم  
واتصاله بهم ، وتقصى علل ذلك ، كان خليقاً - إن لم يحط بعلم ما في قلوبهم -  
أن يقع من الإحاطة قريباً .

واعلم أن المقادير ربما جرت بخلاف ما تقدر الحكماء ، فنال [ بها ] الجاهل  
في نفسه ، المختلط في تدبيره ، ما لا ينال الحازم الأريب الحذير . فلا يدعونك ما  
ترى من ذلك إلى التضييع والأتكال على مثل تلك الحال ؛ فإن الحكماء قد  
أجمعت أن من أخذ بالحزم وقدم الحذر ، فجاءت المقادير بخلاف ما قدر ، كان  
عندهم أحمد رأياً وأوجب عذراً ، ممن عمل بالتفريط وإن انفقت له الأمور على ما  
أراد .

مركز تحقيقات كويت علوم إسلامية

[ ١٤ - الصداقة ]

ولعمري ما يكاد ذلك يجيء إلا في أقل الأمور ، [ وما كثر مجيء السُّلَامَاتِ  
إلا لمن أتى الأمور ] من وجوهها وإنما الأشياء بعوامها . فلا تكونن لشيء مما في  
يدك أشد ضناً ، ولا عليه أشد حذراً ، منك بالأخ الذي قد بلوته في السُّرَاءِ  
والضُّرَاءِ ، [ فعرفت مذاهبه ] وخبرت شيمه ، وصح لك غيبه ، وسلمت لك  
ناحيته ؛ فإنما هو شقيق روحك وباب الروح إلى حياتك ، ومستمد رأيك وتوأم  
عقلك . ولست متفعلاً بعيش مع الوحدة . ولا بسد من المؤانسة ، وكثرة  
الاستبدال تهجم بصاحبه على المكروه . فإذا صفا لك أخ فكن به أشد ضناً منك  
بنفائس أموالك ، ثم لا يزهدنك فيه أن ترى منه خلقاً أو خلقين تكرههما ؛ فإن  
نفسك التي هي أخص النفوس بك لا تعطيك المقادة في كل ما تريد ، فكيف

بِنَفْسٍ غَيْرِكَ ۱

وَبِحَسَبِكَ أَنْ يَكُونَ لَكَ مِنْ أُنْحَيْكَ أَكْثَرُهُ ، وَقَدْ قَالَتِ الْحِكْمَاءُ : « مَنْ لَكَ بِأُنْحَيْكَ كُلَّهُ » ، وَ « أَيُّ الرُّجَالِ الْمَهْدَبِ » .

ثُمَّ لَا يَمْنَعُكَ ذَلِكَ مِنَ الْاسْتِكْثَارِ مِنَ الْأَصْدِقَاءِ فَإِنَّهُمْ جُنْدٌ مُعْتَدُونَ [ لَكَ ] يَنْشُرُونَ مَحَاسِنَكَ ، وَيَحَاجُّونَ عَنكَ . وَلَا يَحْمِلُنَّكَ اسْتِطْرَافُ صَدِيقٍ ثَانٍ عَلَى مَلَالَةٍ لِلصَّدِيقِ الْأَوَّلِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ سَبِيلُ أَهْلِ الْجَهَالَةِ ، مَعَ مَا فِيهَا مِنَ الدَّنَاءَةِ وَسُوءِ التَّدْبِيرِ ، وَزَهْدِ الْأَصْدِقَاءِ جَمِيعاً فِي إِخَانِكَ . وَاللَّهُ يُوَفِّقُكَ .

وَسَتَجِدُ فِي النَّاسِ مَنْ قَدْ جَرَّبْتَهُ الرُّجَالُ قَبْلَكَ ، وَمَحَّضَهُ اخْتِبَارُهُمْ لَكَ . فَمَنْ كَانَ مَعْرُوفاً بِالْوَفَاءِ فِي أَوْقَاتِ الشَّدَةِ وَحَالَاتِ الضَّرُورَةِ ، فَنَافِسٌ فِيهِ وَاسْبِقُ إِلَيْهِ ؛ فَإِنَّ اعْتِقَادَهُ أَنْفُسَ الْعُقَدِ . وَمَنْ بَلَاهُ غَيْرَكَ فَكَشَفَ عَن كُفْرِ النُّعْمَةِ وَالْعَدْرِ؛ لَا يَفِي لِأَحَدٍ ، وَإِنَّمَا يَمِيلُ مَعَ الرَّجْحَانِ : يَذُلُّ عِنْدَ الْحَاجَةِ وَيَشْمَخُ مَعَ الْاسْتِغْنَاءِ .



مركز تحقيقات كميوتير علوم إسلامي

[ ١٥ - الخلال المذمومة ]

فَاحْذَرِ ذَلِكَ أَشَدَّ الْحَذَرِ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْحِكْمَاءَ لَمْ تَذَمَّ شَيْئاً ذَمُّهَا أَرْبَعٌ خِلَالَ : الْكَذِبُ فَإِنَّهُ جَمَاعٌ كُلُّ شَرٍّ . وَقَدْ قَالُوا : لَمْ يَكْذِبْ أَحَدٌ قَطُّ إِلَّا لَصَغِيرٍ قَدَرِ نَفْسِهِ عِنْدَهُ .

وَالغَضَبُ فَإِنَّهُ لَوْمٌ وَسُوءٌ مَقْدِيرَةٌ ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الغَضَبَ ثَمَرَةٌ لِخِلَافِ مَا يَهْوَى النَّفْسَ ، فَإِنَّ جَاءَ الْإِنْسَانَ خِلَافَ مَا يَهْوَى مِمَّنْ فَوْقَهُ أَغْضَى وَسَمِيَ ذَلِكَ حُزْناً ، وَإِنْ جَاءَهُ ذَلِكَ مِمَّنْ دُونَهُ لَوْمٌ النَّفْسِ وَسُوءُ الطَّبَاعِ عَلَى الْاسْتِطَالَةِ بِالغَضَبِ ، وَالْمَقْدَرَةِ وَالْبَسْطَةِ عَلَى الْبَطْشِ .

وَالجَزَعُ عِنْدَ الْمَصِيبَةِ الَّتِي لَا ارْتِمَاجَ لَهَا ؛ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَجْعَلُوا لِصَاحِبِ الْجَزَعِ فِي مِثْلِ هَذَا عُذْراً ، لَمَّا يَتَعَجَّلُ مِنْ غَمِّ الْجَزَعِ مَعَ عِلْمِهِ بِقُوتِ الْمَجْزُوعِ عَلَيْهِ .

وزعموا أن ذلك من إفراط الشره ، وأن أصل الشره والحسد واحد وإن افترق فرعاهما .

وذموا الحسد كذمهم الجزع ، لما يتعجل صاحبه من ثقل الاغتمام ، وكلفة مقاساة الاهتمام ، من غير أن يجدي عليه شيئاً . فالحسد اغتمام ، والغدر لؤم . وقال بعض الحكماء : « الحسد خلق دنيء ، ومن دناءته أنه يبدأ بالأقرب فالأقرب » . وزعموا أنه لم يغير غادر قط إلا لصغر همته عن الوفاء ، وخمول قدره عن احتمال المكاره في جنب نيل المكارم .

وبقدر ما ذمَّت الحكماء هذه الأخلاق الأربعة ، فكذلك حمّدت أصدادها من الأخلاق ، فأكثرت في تفضيلها الأقاويل ، وضربت فيها الأمثال ، وزعمت أنها أصل لكل كرم ، وجماع لكل خير ، وأن بها تنال جسام الأمور في الدنيا والدين .

فاجعل هذه الأخلاق إماماً لك ، ومثلاً بين عينيك ، ورُضاً عليها نفسك ، وحكماً في أمرك ، تنفّز بالراحة في العاجل ، والكرامة في الأجل .

والصبر صبران : فأعلامهما أن تصبر على ما ترجو فيه العنم في العاقبة . والحلم حلمان : فأشرفهما حلمك عمّن هو دونك . والصدق صدقان : أعظمهما صدقك فيما يضرّك . والوفاء وفاءان : أسناهما وفاؤك لمن لا ترجوه ولا تخافه . فإن من عرف بالصدق صار الناس له أتباعاً ، ومن نسيب إلى الحلم ألبس ثوب الوقار والهيبة وأبهة الجلالة ، ومن عرف بالوفاء استنامت بالثقة به الجماعات ومن استعز بالصبر نال جسيمات الأمور .

ولعمري ما غلّطت الحكماء حين سمّتها أركان الدين والدنيا .

فالصدق والوفاء توأمان ، والصبر والحلم توأمان ، فهنّ تمام كل دين ، وصلاح كل دنيا . وأصدادهنّ سبب كل فرقة ، وأصل كل فساد .

واحدز خصلة رأيت الناس قد استهانوا بها ، وضيعوا النظر فيها ، مع

اشتمالها على الفساد ، وقذحها البغضاء في القلوب ، والعداوة بين الأوداء :  
المفاخرة بالأنساب ؛ فإنه لم يغلط فيها عاقل قط ، ا مع اجتماع الإنس جميعاً على  
الصورة وإقرارهم جميعاً بتفرق الأمور المحمودة والمذمومة من الجمال والذمامة ،  
واللؤم والكرم ، والجبن والشجاعة ، في كل حين ، وانتقالها من أمة إلى أمة ،  
ووجود كل محمود ومذموم في أهل كل جنس من الأدميين . وهذا غير مدفوع  
عند الجميع .

فلا تجعلن له من عقلك نصيباً ، ولا من لسانك حظاً ، تسلم بذلك على  
الناس أجمعين ، مع السلامة في الدين .

واعلم أنك موسومٌ بسيما من قارنت ، ومنسوبٌ إليك أفاعيلٌ من  
صاحبت . فتحرّز من دخلاء السوء ، ومجالسة أهل الرّيب ، وقد جرت لك في  
ذلك الأمثال ، وسطرت لك فيه الأقاويل ، فقالوا : « المرء حيث يجعل نفسه » ،  
وقالوا : « يُظنُّ بالمرء ما ظنُّ بقربنه » ، وقالوا : « امرءٌ بشكليه ، والمرء بأليفه » .

ولن تقدر على التحرز من جماعة الناس ، ولكن أقلّ المؤانسة إلا بأهل  
البراءة من كل دنس . واعلم أن المرء بقدر ما يسبق إليه يعرف ، وبالمستفيض  
من أفعاله يوصف ، وإن كان بين ذلك كثيرٌ من أفعاله الغاه الناس وحكموا عليه  
بالغالب من أمره .

فاجهد أن يكون أغلب الأشياء على أفاعيلك كل ما تحمده العوام ولا تنمّه  
الجماعات ، فإن ذلك يعفي على كل خلل إن كان .

فباير السنة الناس فاشغلها بحاسنك ، فإنهم إلى كل سيء يسراع ،  
واستظهر على من دونك بالتفضل ، [ وعلى نظرائك ] بالإنصاف ، وعلى من  
فوقك بالإجلال . تأخذ بوثائق الأمور ، وأزمة التدبير .

واعلم أن كثرة العتاب سببٌ للقسيمة ، وأطراحه كله دليلٌ على قلّة  
الاكترات لأمر الصديق . فكن فيه بين أمرين : عاتبة فيها تشركان في نفعه وضرره

وذلك في الهيئات ، ونجاف له عن بعض غفلاته تسلّم لك ناحيته . وبحسب ذلك فكن في زيارته ، فإن الإلحاح في الزيارة يذهب بالبهاء ، وربما أورت الملالة ؛ وطول الهجران يعقب الجفوة ، ويحل عقدة الإخاء ، ويجعل صاحبه مدرجة للقطيعة وقد قال الشاعر :

إذا ما شئت أن تسلي حبيباً      فأكثر دونه عدد الليالي  
فما يسلي حبيبك مثل ناي      ولا يسلي جديك كابتدال  
[ وزر غيباً إذا أحببت خلاً      فتحظى بالوداد مع اتصال ]

واقصد في مزاحك ؛ فإن الإفراط فيه يذهب بالبهاء ، ويجريء عليك أهل الذنائة . وإن التقصير فيه يقبض عنك المؤانسين . فإن مزحت فلا تمزح بالذي يسوء معاشرتك .

وأنا أوصيك بخلق قلب من وأنته يتخلق به ، وذاك أن تحمله شديد ، ومرتقاه صعب ، وبسبب ذلك سورت الشرف وحميد الذكر : ألا يحدث لك انحطاط من خطب الدنيا من إخوانك استهانة به ، ولا لحقه إضاعة ، ولما كنت تعلم من قدره استصغاراً ؛ بل إن زرته قليلاً كان أشرف لك ، وأعطت للقلوب عليك . ولا يحدث لك ارتفاع من رفعت الدنيا منهم تذلاً وإشاراً له على نظرائه في الحفظ والإكرام ؛ بل لو انقبضت عنه كان مادحك أكثر من ذامك ، وكان هو أولى بالتعطف عليك ، إلا أن يكون مسلطاً تخاف شذاه ومعرته ، وترجو عنده جرّ منفعة لصديق ، أو دفع مضرّة عنه ، أو كبتاً لعدوّ وإنزال هوان به ؛ فإن السلطان وخيلاءه وزهوه يحتمل فيه ما لا يجوز في غيره ، ويُعذر فيه ما لا يُعذر في سواه .

[ ١٦ - امتداح الذات ]

واعلم أن نشر محاسنك لا يليق بك ، ولا يقبل منك إلا إذا كان القول لها على ألسن أهل المروءات ، وذوي الصدق والوفاء ، ومن ينجع قوله في القلوب

مَنْ يُسْتَنَامَ إِلَى قَوْلِهِ ، وَيُصَدَّقُ خَبْرُهُ ، وَمَنْ إِنْ قَالَ صَدَقَ ، أَوْ مَدَّحَ اقْتَصَدَ ،  
يُثْنِي بِقَدْرِ الْبَلَاءِ ، فَإِنْ إِشْرَافُ<sup>(٣)</sup> الثَّنَاءِ عَلَى قَدْرِ النُّعْمَةِ يُولِّدُ فِي الْقُلُوبِ التَّكْذِيبَ ،  
وَيَدُلُّ عَلَى طَلَبِ الْمَزَايِدِ .

فَأَمَّا ثَنَاءُ الْمَادِحِينَ لَكَ فِي وَجْهِكَ ، فَإِنَّمَا تِلْكَ أَسْوَاقُ أَقَامُوهَا لِلْأَرْبَاحِ ،  
وَسَاءَ هَلُوكَ فِي الْمُبَايَعَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ كُفْلَةٌ ، لِكِسَادِ أَقَابِيلِهِمْ عِنْدَ  
النَّاسِ . أَوْلَيْكَ الصَّادُونَ عَنْ طَرُقِ الْمَكَارِمِ ، وَالْمُثَبِّطُونَ عَنِ ابْتِنَاءِ الْمَعَالِي .

فَارْتَدِّ لِنِعْمِكَ مَغْرِسًا تَنْمُو فِيهِ فُرُوعُهَا ، وَتَزْكُو ثَمَرَتُهَا ، لَا تَذْهَبُ نَفَقَتُكَ  
ضَيَاعًا ، إِمَّا لِعَاجِلٍ تَقَدَّمَهُ ، أَوْ لِأَجَلٍ ثَنَاءٍ تَنْتَفِعُ بِهِ .

وَلَنْ تَعْدَمَ أَنْ يَفْجَأَكَ فِي بَعْضِ أَحْوَالِكَ حَقُوقٌ تَبْهُظُكَ ، وَأَحْوَالٌ  
تَفْدَحُكَ ، وَأُمُورٌ كُلُّهَا تَنْقَسِمُ عِنَايَتِكَ ، وَفِي التَّثَبُّتِ فِي مِثْلِهَا تُعْرِفُ فَضِيلَتِكَ ،  
فَلَا تَسْتَقْبِلُهَا بِالتَّضَجُّعِ وَتَفْتِيرِ الرَّأْيِ ، وَابْتِدَاءِ مِنْهَا بِأَعْظَمِهَا مَنَفَعَةً ، وَأَشَدِّهَا خَوْفَ  
ضُرَرٍ . وَكُلُّ مَا أَعْجَزَكَ إِلَى الْكُفَاةِ ، وَاعْتَدِرَ مِنْ تَقْصِيرٍ إِنْ كَانَ ؛ فَإِنَّ الْإِعْتِذَارَ  
يَكْسِرُ حُمِيًّا اللَّائِمَةَ ، وَيُرَدِّعُ شِدَاةَ الشُّرَّةِ .

ثُمَّ تَلَاَفَ بَعْدَ انْكِشَافِ ذَلِكَ عِنْدَكَ مَا قَاتَكَ ، وَاجْهَدِ الْجَهْدَ كُلَّهُ أَنْ تَكُونَ  
مَخَارِجَ الْحَقُوقِ اللَّازِمَةَ لَكَ مِنْ عِنْدِكَ سَهْلَةً ، مَوْصُولَةً لِأَصْحَابِهَا بِبَشْرِكَ وَطَلَاةَ  
وَجْهِكَ ؛ فَقَدْ زَعِمَتِ الْحِكْمَاءُ أَنَّ الْقَلِيلَ مَعَ طَلَاةِ الْوَجْهِ أَوْقِعَ بِقُلُوبِ ذَوِي  
الْمُرُوءَاتِ مِنَ الْكَثِيرِ مَعَ الْعُبُوسِ وَالْإِنْقِبَاضِ .

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْحِكْمَاءِ : « غَايَةُ الْأَحْرَارِ أَنْ يَلْقَوْا مَا يُحِبُّونَ وَيُحْرَمُوا ، أَحَبُّ  
إِلَيْهِمْ مِنْ أَنْ يَلْقَوْا مَا يَكْرَهُونَ وَيُعْطَوُا » .

[ وَمَا أَبْعَدُوا عَنِ الْحَقِّ ] .

وَلَا يَدْعُونَكَ كَفْرًا كَافِرًا لِبَعْضِ نِعْمِكَ مِمَّنْ آثَرَ هَوَاهُ عَلَى دِينِهِ وَمُرُوءَتِهِ ، أَوْ  
عُدْرَةَ غَادِرٍ تَصْنَعُ لَكَ وَخَتَلَكَ عَنْ مَالِكَ ، أَنْ تَزْهَدَ فِي الْإِنْعَامِ ، وَتَسِيءَ بِثِقَاتِكَ  
الظُّنُونِ ، فَإِنَّ هَذَا مَوْضِعَ يَجِدُ الشَّيْطَانَ فِي مِثْلِهِ الدَّرِيعَ إِلَى اسْتِفْسَادِ الصَّنَائِعِ ،

وتعطيل المكارم .

واعلم أن استصغارك نَعْمَكَ يَكْبُرُهَا عند ذوي العقول ، وسترك لها نشرٌ لها عندهم ، فانشرها بسترها ، وكبرها باستصغارها .

واعلم أن من الفعل أفاعيل وإن عظمت منافعها . ومنافع أصدادها فلا يثارها فضيلة على كل حال . فاجعل صمتك أكثر من كلامك ؛ فإنه أدل على حكمتك . واجعل غفوك أكثر من عقوبتك ، فإن ذلك أدل على كرمك . ولا تفرطن فيه كل الإفراط حتى تطرح الكلام في موضعه ، والتأديب في أوانه .

واعلم أن لكل امرئ سيءاً من عمله ، قد ساهلته فيه نفسه وسلس له فيه هواه ، فتحفظ ذلك من نفسك ، وتقاصها الزيادة فيه ، ورضها على تشميره والمواظبة عليه .

واحذر الحذر كله الاغترار بأمور ثلاثة ؛ فإن من عطب بها كثير ، وتلافيتها صعبٌ شديد .

أحدها : ألا تولي جِئِمَ تَصْرُفُكَ وتقلد مهم أمورك ووثائق تدبيرك إلا امرأ صلاحه موصولٌ بصلاحك ، وبقاء النعمة عليك هو بقاء النعمة عليه .

أو أن نأس أو تفتربن تعلم أن بصلاحك فساده ، وبارتفاعك انحطاطه ، وبسلامتك عطبه ؛ فإن من كان هكذا فانت ملك موتة . فحسب ذلك فليكن عندك .

أو أن تجعل مالك كله في عقدة واحدة ، أو حيز واحد ، [ أو وجه منفرد ] ، إن اجتاحتها جائحة أو نابتة نابتة بقيت حسيراً . وقد قال بعض الحكماء : « فرقوا المنية » ، و « اطلبوا الأرباح بكل شعب » .

واعلم أنه ليس من الأخلاق التي ذمها الحكماء خلق إلا وقيد ينفع في بعض الحالات ، ويرد به شكله ، ويقام بإزاء مثله ، ويدافع به نظيره .

إنك ستُمنَى بِصُحبة السُلطان الحازم العادل ، وبصحبة السُلطان الأخرق  
الجهول الغشوم . فالحازم العادل يَسُوسه لك الأدبُ والنُصح ، والأخرق تسوسه  
لك الحيلة والرُفق . العادل يَعُضدك منه ثلاث ، وتَصبرِ نفسُه لك على ثلاث :

فاللواتي يعُضدنك : تسليط العدل وإنفاذ الحكومة - وفي ذلك صلاح  
الرعية - وإثابة المحسنين الذين إثابتهم تحصيلُ البِيضةِ والسُّبيل ، والعفو ما يُبلغ به  
الإستصلاح ، واكتفي به من البسَط . واللواتي تصبرِ نفسُه لك عليهن : الهوى  
إلى ما وافق الرأي ، وأمضى الرأي الأبعد التثبت حتى تعاونه عليه النصحاء .

ولكني أوصيك برياضة نفسك حتى تذلُّها على الأمور المحمودة ؛ فإن كلَّ  
أمرٍ ممدوحٍ هو ممَّا تستثقل النفوس . [ ومما تسرُّ به وتنقلب إليه الأخلاق  
المذمومة ] . فإن أهملتها وإياها غلبت عليك ، لأنها فيها طبيعة [ مركبة ] ، وجيلة  
مفطورة .

فلتكن المساهلة في أخلاقك أغلب عليك من المعاصرة ، والحلم أولى بك  
من العجلة ، والصبرُ الحاكم عليك دون الجزع ، والعفو أسبق إليك من المجازاة  
بالذنوب ، والمكافأة بالسوء .

[ وكذلك سائر الأخلاق المحمودة والمذمومة ، فتكن محموداتها غالبية على  
أفعالك ، محكِّمة في أمورك ] . فإنك إن ضبِطت [ ذلك ، وقومت عليه ]  
نفسك ، عشت رخي البال ، قليل الموم ، كثير الصديق قليل العدو ، [ سليم  
الدين ، نقي العرض ، محمود الفِعال ] ، جميل الأحداث في حياتك وبعد  
وفاتك ، وكنت بموضع الرجاء أن يصل الله لك السلامة الأجلَّة بالنعمة العاجلة  
[ إن شاء الله عز وجل ] .

أسأل الله المبتدئ بكلِّ نعمة ، والمتوَّي لكلِّ إحسان ، أن يصلي على محمد  
خيرته من خلقه ، وصفوته من بريته ، وأن يتمَّ عليك نعمته ، ويشفع لك ما

نَحْوِكَ مِنْ نِعْمَتِهِ بِالنُّعْمَةِ الَّتِي يُؤْمَنُ مَعَهَا الزُّوَالُ ، فِي جَوَارِهِ وَمُرَافِقَةِ أَنْبِيَائِهِ .  
وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ .

\* \* \*

تَمَّتِ الرِّسَالَةُ فِي الْأَخْلَاقِ الْمَحْمُودَةِ وَالْمَذْمُومَةِ بِعَوْنِ اللَّهِ وَمَنْعِهِ . وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ  
لِلصَّوَابِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَوْلَى وَأَخْرَأُ ، وَصَلَوَاتُهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ  
وَسَلَامُهُ .

يَتْلُو هَذِهِ الرِّسَالَةَ :

كِتَابُ كِتْمَانِ السِّرِّ وَحِفْظِ اللِّسَانِ مِنْ كَلَامِ أَبِي عَثْمَانَ عَمْرٍو بْنِ بَحْسَرِ  
الْجَاهِظِ أَيْضاً . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى ذَلِكَ بِرَحْمَتِهِ .



مركز تحقيقات كميوتير علوم رسولي

## هامش رسالة المعاش والمعاد

- (١) على الحكيم تبيان اسباب الامور وعواقبها . بهذا المعنى يقترب الجاحظ من ارسطو الذي حدد الحكيم بانه الذي يعرف علل الاشياء .
- العقل هو الذي يكبح الهوى ويسير بالانسان في الطريق المستقيم . فالجاحظ كبير الثقة بالعقل كالمعتزلة .
- ظواهر الامور وبواطنها . هذا التمييز الذي بدأه الجاحظ بلغ ذروته عند كانط وهيوم .
- ابو عبد الله ، هو على الأرجح احمد بن ابي داود والدة القاضي محمد الذي بوجه اليه الجاحظ الكلام . وقد كانت صلة الجاحظ به وطيدة قبل ان يضاب بالفالج ويحل ابنه مكانه في القضاء .
- ان ذلك طبع غير تكلف : فالطبع هنا معناه عدم التكلف او التصنع . يعني ما هو تلقائي أو مباشر .
- يشير الجاحظ هنا الى شغفه بالكتب مجتمعا وينظر فيها لأن نصفها يطلعنا على عقول العالمين . وقد عبر عن هذا الميل عنده في مقدمة كتاب الحيوان حيث كتب أجهل وصف للكتاب .
- يميز الجاحظ هنا بين نوعين من العقل : العقل المطبوع والعقل المكتسب . على نحو ما ميز ارسطو والفلاسفة العرب امثال الكندي والفارابي وابن سينا بين العقل الهولاني او بالقوة ، والعقل بالملكة او المستفاد او بالفعل . وقد اعترف الجاحظ بأن الحكماء هم الذين ذهبوا الى هذا التفريق بين انواع العقل ، مما يدل على تأثره

- استنبط تعني استخراج علل الاشياء ولم يقتصر على وصفها او عرضها .  
والجاحظ يذهب الى ان معرفة الاسباب تفضي الى اليقين . أما مجرد العرض  
والوصف فيقف بصاحبه عند الظن . ويقول ايضاً ان احكام الدين مينة الاسباب  
مكتشفة العلل . وبذلك يكون قد وحد بين الفلسفة والدين . وهذا ما اعتقده  
فعلاً وصرح به في تعريفه لعلم الكلام .

(٢) الطبائع جمع طبيعة وهي ما ركب عليه الخلق وفطرت عليه البرايا كلهم ، فهم  
فيها مستوون والى وجودها في انفسهم مضطرون ، وفي المعرفة بما يتولد عنها  
متفقون . بهذا يلخص الجاحظ مذهب الطبيعي . فهو يؤمن بوجود طبائع فطرية  
في الخلق سواء كانوا بشراً او حيوانات او جمادات . وهم مضطرون للخضوع الى  
هذه الطبائع وليسوا احراراً في مخالفتها . والقول في الطبائع يؤدي الى القول بالتولد  
أي صدور افعال عن الطبائع لا دخل لله فيها .

(٣) يحدد الآداب بانها آلات او وسائل تستعمل لتدبير امور الانسان في الدنيا والآخرة وفي  
الدين والدنيا . هذه الآداب وضعت على اساس الطبائع .

- الفرق بين الدين والدنيا هو اختلاف الدارين فقط والآداب واحدة والحكم  
واحد . وبهذا وحد الجاحظ بين الدين والسياسة وخلط بينها خلطاً قوياً .

- التكليف مرتبط بالابتلاء او الاختيار وهو مبدأ قال به معظم المعتزلة ومنهم الجاحظ .

(٤) من طباع الناس الامامية حيب المنافع ودفع المضار ويؤكد الجاحظ على انها فطرة في  
الانسان والحيوان .

- النفس طبعت على ميول اهمها حب الراحة ، والعلو والغلبة والاستطراف ،  
واللذة الحسية المتنوعة .

(٥) السياسة تقوم على الترغيب والترهيب وهما غريزتان فطريتان في الانسان سبقت  
الاشارة اليهما (رقم ٤) . وقد لجأ إليها الدين عندما ذكر الجنة والنار ، الجنة  
لترغيب والنار للترهيب .

- وارفق الترغيب والترهيب بمبدأ ثالث هو العدل .

- يقابل الترغيب والترهيب بمبدأ رابع هو الوعد والوعيد .

- السياسة تعني التدبير أي تدبير شؤون الناس . هذا ما يفهم من كلامه « فالرغبة  
والرهبة اصلا كل تدبير وعليها مدار كل سياسة ، عظمت او صغرت » .

(٦) يحدد معنى العدل في الدنيا او في السياسة : وهو يعني الاثابة او الجزاء حسب  
الاستحقاق .

(٧) لكل شيء افراط وتفصير ، والفضيلة في ملازمة الحدود او في التوسط . وهذا مبدأ

من مبادئ المعتزلة عبر عنه بالمتزلة بين المتزنتين .  
وفي هذا النص تطبيق صريح لمبدأ السببية الذي آمن به الجاحظ . وفي السببية  
والتولد والتوسط يلتقي الجاحظ مع ارسطو .  
- التوكل لا يعني التواني والاعتماد على قوة أخرى ولا يعني الإحالة على الاقدار .  
لقد امر الله بالتوكل عند انقطاع الحبل وسذل ما في الوسع . وبهذا يخالف الجاحظ  
الاشاعرة والمتصوفة .

(٨) يحدد الجاحظ معنى الجود بأنه مساعدة المحتاجين عند النوائب ، والتفضل على  
الراغبين مع تجنب السرف . وينصح بشمير المال لأن المال « آلة المكارم ومتألف  
للاخوان وعون على الدين » . وهو يردد ما سبق اليه ابن المقفع في الأدب الكبير  
والأدب الصغير وفي كليلة ودمنة .

(٩) المنطق استعمل هنا بمعنى النطق وهو ضد الصمت . ولم يستعمل بمعنى العلم الذي  
ابتدعه ارسطو . والجاحظ ينصح بالاعتدال في الكلام والصمت اخذاً بمذهبه  
الاعتزالي : التوسط .

(١٠) الشجاعة تعني المخاطرة في النفس والمال في كل أمر تجهل عاقبته . ولا تحمد الا  
إذا وجبت في الدين أو في سبيل دره العار . ولا تحمد اذا كانت في سبيل منفعة في  
الدنيا لأنها تكون ضرباً من الحماسة .

(١١) في معاملة العدو يضع قواعد من الخير ويقارنها بقواعد او نصائح ابن المقفع . من  
مداراة ، وحفظ سر الخ .

(١٢) يجعل الناس من حيث الخدمات التي يؤدونها للحاكم ثلاثة اجناس : اصحاب  
الرأي والمشورة ، اهل الشدة والغلظة ، اصحاب المهن المختلفة . وينبغي على  
الحاكم العناية بهم جميعاً وتعهدهم بالثواب والجزاء .

(١٣) العلم بما غاب نحصل عليه بطرق ثلاث : « الاخبار المتواترة التي يحملها السوي  
والعدو والصالح والطالح . اي جميع الناس تقريباً .

٢) الاخبار المتواطئة : التي يتفق عليها العدد الكبير من الناس وان جهلها  
معظمهم . وينبغي السؤال عن هذه الاخبار وتوجيهه الى عدة اقوام نقلوها . فاذا  
تواطوا عليها على الرغم من تفاوت احوالهم اعتبرت صحيحة . وقد اعتمد  
الجاحظ هذه الطريقة في اثبات حجج النبوة ( راجع رسالة حجج النبوة ) .

٣) الخبر المفرد الذي يحمي به الرجل او الرجلان ، لا يصح تصديقه الا اذا كان  
المخبر عدلاً وثقة .

هذا مما يدرك بالعيان . الغائب الذي لا يدرك بالعيان مثل سرائر القلب وما

اشبه فيدرك بوسيلة اخرى غير الخبر هي آثار افاعيلها الغالبة .  
درجات العلم ثلاثة هي الشك فالظن فالعلم . اول العلم بالامور الشك فاذا  
ظهرت بعض الادلة زال الشك وحل مكانه الظن ، فاذا قويت الادلة زال الظن  
وحل العلم اليقيني . وقد ردد الجاحظ هذه المراتب في عدة اماكن من كتبه مثل  
الحيوان وبعض الرسائل .

(١٤) الصداقة ضرورية للانسان لان الصديق أخ ثان ، « وشقيق الروح وتوأم العقل »  
وانيس العيش . وينبغي الحرص عليه والاكثار منه . وتجدر مقارنة اقوال الجاحظ  
حول الصداقة باقوال الامام علي بن ابي طالب ، وابن المقفع .

(١٥) يمقت الجاحظ المفاخرة بالانساب التي اعتد بها العرب . وعلى هذا الاساس يمكن  
معرفة الغرض الذي رمى اليه الجاحظ في رسالة « فضل هاشم على عبد شمس »  
ومثيلاتها من رسائل التفاخر بالانساب .

(١٦) يمقت المداحين ، وبالتالي الشعراء والكتاب الذين اكثروا من المدح . انه موقف  
خلقي وسياسي وفني يسجل للجاحظ « تلك اسواق اقاموها للارباح » .

(١٧) كيف تعامل السلطان العادل والسلطان الجاهل : نصائح قيمة يسديها للقاضي .



مركز تحقيقات كبيوتر علوم رسدي





[ ١ - موضوع الكتاب : تفاضل البلدان وحب الاوطان ]

فصل : زَيْنَكَ اللَّهُ بِالتَّقْوَى ، وَكَفَاكَ الْمَهْمُ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ، وَأَنْلِجَ صَدْرَكَ بِالْيَقِينِ ، وَأَعَزُّكَ بِالقِنَاعَةِ ، وَخَتَمَ لَكَ بِالسَّعَادَةِ ، وَجَعَلَكَ مِنَ الشَّاكِرِينَ .

سألت - أبقاك الله - أن أكتب لك كتاباً في تفاضل البلدان ، وكيف قناعة النفس بالأوطان ، وما في لزومها من الفضل والنقص ، وما في الطلب من علم التجارب والعقل .

وذكرت أن طول المقام من أسباب الفقر ، كما أن الحركة من أسباب اليسر ، وذكرت قول القائل : « الناس بأزمانهم أشبه منهم بأبائهم » .

ونسيت - أبقاك الله - عمل البلدان ، وتصرف الأزمان ، وآثارها في الصور والأخلاق ، وفي الشمائل والآداب ، وفي اللغات والشهوات ، وفي الهمم والهيئات ، وفي المكاسب والصناعات ، على ما ذُبرَ اللهُ تعالى من ذلك بالحكمة اللطيفة ، والتدابير العجيبة .

فسبحان من جعل بعض الاختلاف سبباً للائتلاف ، وجعل الشك داعية إلى اليقين ، وسبحان من عرفنا ما في الحيرة من الدلة ، وما في الشك من الوخشة ، وما في اليقين من العز ، وما في الإخلاص من الأنا .

وقلت : ابدأ لي بالشام ومصر ، وفضل ما بينهما ، وتحصيل جماعتهما ،  
وذكرت أن ذلك سيجر العراق والحجاز ، والنجود والأغوار ، وذكر القرى  
والأمصار ، والبراري والبحار .

واعلم - أبقاك الله - أنا متى قدمنا ذكر المؤخر وأخرنا ذكر المقدم ، فسَدَّ  
النظام وذهبت المراتب . ولست أرى أن أقدم شيئاً من ذكر القرى على ذكر أم  
جميع القرى . وأولى الأمور بنا ذكر خصال مكة ، ثم خصال المدينة .

ولولا ما يجب من تقديم ما قدم الله وتأخير ما أخر ، لكان الغالب على  
النفوس ذكر الأوطان وموقعها من قلب الإنسان .

#### [ ٢ - حب الوطن طبع في الناس ]

وقد قال الأول : « عَمَرَ اللَّهُ الْبِلْدَانَ بِحُبِّ الْأَوْطَانِ » ، وقال ابن الزبير :  
« ليس الناس بشيء من أقسامهم أفنع منهم بأوطانهم » .

[و] لولا ما من الله به على كل جليل منهم من الترغيب في كل ما تحت  
أيديهم ، وتزيين كل ما اشتملت عليه قدرتهم ، وكان ذلك مفوضاً إلى العقول ،  
وإلى اختيارات النفوس - ما سكن أهل الغياض والأدغال في الغمق والثق ، ولما  
سكنوا مع البعوض والهمج ، ولما سكن سُكَّانُ الْقِلَاعِ فِي قُللِ الْجِبَالِ ، ولما أقام  
أصحاب البراري مع الذئب والأفاعي وحيث من عز بَزْ ، ولا أقام أهل  
الأطراف في المخاوف والتغريير ، ولما رضي أهل الغيران وبطون الأودية بتلك  
المساكن ، ولالتمس الجميع السكنى في الواسطة ، وفي بيضة العرب ، وفي  
دار الأمن والمنعة . وكذلك كانت تكون أحوالهم في اختيار المكاسب والصناعات  
وفي اختيار الأسماء والشهوات . ولاختاروا الخطير على الحقير ، والكبير على  
الصغير .

ألا تراهم قد اختاروا ما هو أقبح على ما هو أحسن من الأسماء والصناعات ،

ومن المنازلِ والدياراتِ ، من غير أن يكونوا خُدِعوا أو استُكِرَّها .

ولو اجتمعوا على اختيارِ ما هو أرفع ، ورَفُضَ ما هو أوضَعُ من اسمٍ أو كُنْيَةٍ ، وفي تجارةِ وصناعةِ ، ومن شهوةِ وهمةِ ، لذهبتِ المعاملاتُ ، وبَطَلُ التمييزِ ، ولوقعَ التجاذبُ والتغالبُ ، ثم التحاربُ ، ولصاروا غرضاً للتفاني ، وأكلة للبورِ .

فالحمد لله أكثرُ الحمدِ وأطيبه على نعمه ، ما ظهرَ منها وما بطنَ ، وما جهلَ منها وما علمَ !

ذكر الله تعالى الديارَ فخبرَ عن موقعها من قلوب عباده ، فقال : ﴿ولو أنا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ﴾ . فسوى بين موقعِ قتلِ أنفسهم وبين الخروجِ من ديارهم . وقال : ﴿وَمَا لَنَا الْأُنْقَابُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَانِنَا ﴾ . فسوى بين موقعِ الخروجِ من ديارهم وبين موقعِ هلاكِ أبنائهم .

فصل منه : - فقسم الله تعالى المصالحَ بين المُقَامِ والظَّنِّ ، وبين الغربةِ والحبِّ الوطنِ ، وبين ما هو أرفعُ وأرفعُ ، حين جعلَ مجاري الأرزاقِ مع الحركةِ والطلبِ . وأكثرُ ذلك ما كان مع طولِ الاغترابِ ، والبُعدِ في المسافةِ ، ليقيدك الأمورُ ، فيمكن الاختبارَ ويحسن الاختيارَ .

والعقل المولود متناهي الحدودِ ، وعقل التجارب لا يُوقِفُ منه على حدٍّ . ألا ترى أن الله لم يجعل إلف الوطنِ عليهم مفترضاً ، وقيداً مُضْمَئاً ، ولم يجعل كفاياتهم مقصورةً عليهم ، محتسبة لهم في أوطانهم ؟ ألا تراه يقول : ﴿فأقرءوا مَا نَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ ، عَلِيمٌ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضِيٌّ وَأخْرُونَ يُظْهِرُونَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأخْرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ . فقسم الحاجاتِ فجعل أكثرها في البُعدِ . وقال عز ذكره : ﴿فإذا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ فأخرج الكلامَ والإطلاقَ على تخرج العمومِ ، فلم يخص أرضاً دون أرضٍ ، ولا قرباً دون بُعدٍ .

فصل منه : - ونحن ، وإن أطيننا في ذكر جملة القول في الوطن ، وما يعمل في الطبائع ، فإننا لم نذكر خصال بلدة بعينها ، فنكون قد خالفنا إلى تقديم المؤخر وتأخير المقدم .

قالوا : ولم نجعل ولم نتكر أن نفس الإلف يكون من صلاح الطبيعة ، حتى إن أصحاب الكلاب يجعلون هذا من مفاخرها على جميع ما يُعاشِر الناس في دورهم من أصناف الطير وذوات الأربع : وذلك أن صاحب المنزل إذا هجر منزله واختار غيره ، لم يتبعه فرس ولا بغل ولا جمار ، ولا ديك ولا دجاجة ، ولا حمامة ولا حمام ، ولا هر ولا هرة ، ولا شاة ، ولا عُصفور ؛ فإن العصافير تألف دور الناس ، ولا تكاد تقيم فيها إذا خرجوا منها . والخطاطيف تقطع إليهم لتقيم فيها إلى أوان حاجتها إلى الرجوع إلى أوطانها ، وليس شيء من هذه الأنواع مما تبول في الدور باجتلابهم لها ، ولا ما تبول في دورهم مما ينزع إليهم أحن من الكلب ، فإنه يؤثره على وطنه ، ويحميه من يغشاه .

فذكروا الكلب بهذا الخلق الذي تفرّد به دون جميع الحيوان .

وقالوا في وجه آخر : أكرم الصغايا أشدها ونمأ إلى اولادها ، وأكرم الإبل أحنها إلى أعطانها . وأكرم الأفلاء أشدها ملازمة لأمتها ، وخير الناس ألفهم للناس .

[ ٣ - خصال قريش ]

فصل منه : وقتلتم : خبرونا عن الخصال التي بانّت بها قريش عن جميع الناس . وأنا أعلم أنك لم ترد هذا . وإنما أردت الخصال التي بانّت بها قريش من سائر العرب ، كما ذكرنا في الكتاب الأول الخصال التي بانّت بها العرب عن المعجم ؛ لأن قريشاً والعرب قد يستشؤون في مناقب كثيرة . قد يُلْفَى في العرب الجواد المبرّ وكذلك الحليم والشجاع ، حتى يأتي على خصال حميدة ؛ ولكننا نريد الخصائص التي في قريش دون العرب .

فمن ذلك أنا لم نر قريشياً انتسب إلى قبيلة من قبائل العرب ، وقد رأينا في قبائل

العرب الأشراف رجالاً - إلى الساعة - يتسبون في قريش ، كنعو الذي وجدنا في بني مُرة بن عوف ، والذي وجدنا من ذلك في بني سليم ، وفي خزاعة ، وفي قبائل شريفة .

ومما بانّت قريش أنها لم تلد في الجاهلية ولداً قطّ [ لغيرها ] ولقد أخذ ذلك منهم سُكّان الطائف ، لقرب الجوار وبعض المصاهرة ، ولأنهم كانوا حمساً ، وقريش حمستهم .

ومما بانّت به قريش من سائر العرب أن الله تعالى جاء بالإسلام وليس في أيدي جميع العرب سبيّة من جميع نساء قريش ، ولا وجدوا في جميع أيدي العرب ولداً من امرأة من قريش .

ومما بانّت به قريش من سائر العرب أنها لم تكن تزوج أحداً من أشراف العرب إلا على أن يتحمس ، وكانوا يُزوّجون من غير أن يُشترط عليهم ، وهي عامر بن صعصعة ، وثقيف . وخزاعة ، والحارث ابن كعب ، وكانوا ديانين ، ولذلك تركوا الغزو لما فيه من الغضب والقشم ، واستحلال الأموال والفروج .

ومن العجب أنهم مع تركهم الغزو كانوا أعز وأمثل ؛ مثل أيام الفجار وذات كهف .

ألا ترى أنهم عند بنيان الكعبة قال رؤسائهم : لا تُخرجوا في نفقاتكم على هذا البيت إلا من صدقات نسائكم ، وموارث آبائكم ا أرادوا مالاً لم يكسبوه ولا يشكّون أنه لم يدخله من الحرام شيء .

ومن العجب أن كسبهم لما قلّ من قبل تركهم الغزو . ومالوا إلى الإيلاف والجهاد ، لم يفتريهم من بخل التجار قليل ولا كثير ، والبخل خِلقة في الطباع ، فأعطوا الشعراء كما يعطي الملوك ، وقرّوا الأضياف ، ووصلوا الأرحام قاموا بنوائب زوار البيت ، فكان أحدهم يحمس الحية في الأنطاع فيأكل منها القائم والقاعد ، والراجل والراكب وأطعموا بدل الحيس الفالودج . ألا ترى أمية بن أبي

الصلت يقول ، ويذكرُ عبدَ الله بن (جدعان) :  
له داعٍ بِمَكَّةَ مَشْمَعْلٌ      وحفصٌ فوق دارتهِ ينادي  
إلى رُوحٍ من الشُّيزى مِلاءِ      لبابِ البُرِّ يُلبكُ بالشَّهادِ

فلَبَابِ البُرِّ هو هذا النُّشا ، والشَّهادِ يعني به العسل .

ألا ترى أن عمر بن الخطاب يقول : « أتروني لا أعرف طيب الطعام ؟  
لباب البُرِّ بصغارِ المعزى » ، يعني خبزَ الحُواري بصغارِ الجداء .

ولقد مدحتهم الشعراءُ كما يمدح الملوك ، ومدحتهم الفرسانُ والأشرافُ  
وأخذوا جوائزهم ؛ منهم : دريد بن الصُّمَّة ، وأمِّية بن أبي الصُّلت .

ومن خصالهم أنهم لم يُشاركوا العربَ والأعرابَ في شيءٍ من جفائهم ،  
وغلظِ شهواتهم ؛ وكانوا لا يأكلون الضُّباب ، ولا شيئاً من الحشرات ، ألا ترى  
أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أتوا جِوانهُ بضَبِّ فقال : « ليس من طعامِ  
قومي » ، لأنهم لم يكونوا يجرشون الضُّباب ، ويصيدون اليرابيع ، ويملئون  
القنفاذ ، أصحابُ الخمرِ والخمرِ ، وخبزِ التناير .

وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أنا أفصحُ العربِ بيدِ أيٍّ من

قريشٍ ، ونشأتُ في بني سعد بن بكر » .

وذلك أن جميع قبائل العرب إنما كانت القبيلة لا تكاد ترى وتسمع إلا من  
قبيلتها ورجالها ، فليس عندهم ، إلا عند قبيل واحد ، من البيان والأدب والرأي  
والأخلاق ، والشمائيل ، والحلم والنجدة والمعرفة ، إلا في الفُرط .

وكانت العرب قاطبة تزد مَكَّةَ في أيام الموسم ، وترد أسواق عكاظٍ وذا  
المجاز ؛ وتقيم هناك الأيام الطوال ، فتعرَّف قريشٌ ، لاجتماع الأخلاق لهم [ و ]  
الشمائيل والألفاظ ، والعقول والأحلام ، وهي وادعة وذلك قائم لها ، راهنٌ  
عندها في كل عام ، تتملك عليهم فيقتسمونهم ، فتكون غطفان للميرة ، وبنو  
عامرٍ لكذا ، وتميم لكذا ، تغلبها المناسك وتقوم بجميع شأنها .

فصل منه : وفتح مكة يسمى فتح الفتوح ؛ وفيها بيتُ الله ، وأهله وحُجَّاجُه زوار الله ؛ وهو البيت العتيق والبيت الحرام ؛ وفيه الحجر ، والحجر الأسود .

وله زمزم ، وهي هزيمة جبريل - صلوات الله عليه - ومقام ابراهيم ، وماء زمزم لما شرب له ، العاكف فيه والباقي سواء .

وبسبب كرامته أرسل الله طير الأبايل وحجارة السَّجِيل . وأهله خمس ولقاح لا يؤدُّون إتاوة ، ولهم السَّقَايَةُ ، ودار الندوة ، والرَّفَادَةُ ، والسَّدَانَةُ .

قال : وأقسم الله تعالى بها ، قال : ﴿ لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ . وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ . وقوله جل ذكره : ﴿ لَا أَقْسِمُ ﴾ . أي : أقسم ، وإنما قوله « لا » في هذا الموضع صلة ، ليس على معنى « لا » الذي هو خلاف « نعم » .

وقالوا : ولو كان قوله : ﴿ وَلَيَطُوفُنَّ بِهِ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ يراد به تقادم البنیان ، وما تعاوره من كُرُورِ الزَّمَانِ ، لم يكن فضله على سائر البلدان ، لأن الدنيا لم تُخْلُ من بيتٍ ودار ، وسُكَّانٍ وَبَنِيَانٍ . وقد مرَّت الأيام على مصر ، وحرَّان ، والحيرة ، والسُّوسِ الْأَقْصَى ، وأشباه ذلك ، فجعل البيت العتيق صفة له ، ولو كان ذهب إلى ما يعنون ، كان من قَبْلِ أَنْ يَتَعَقَّ وتمرَّ عليه الأزمنة ليس بعتيق . وهذا الاسم قد أُطْلِقَ له إطلاقاً ، فاسمه البيت العتيق ، كما أن اسمه بيتُ الله .

ومن زعم أن الله تعالى حرمه يوم خلق السموات والأرض ، فقولنا هذا مصداق له .

ومن زعم أنه إنما صار حراماً منذ حرمه إبراهيم ، كان قد زعم أنه قد كان ولا يقال له عتيق ولا حرام .

قالوا : ومما يصدِّق تأويلنا أنه لم يُعْرَفْ إلا وهو لِقَاح ، ولا أدنى أهله إتاوة

قُط ، ولا وِطْتَهُ المَلُوكُ بِالتَّمْلِيكِ : أنْ سَابورَ ذَا الأَكْتافِ ، وَبُخْتَ نَصْرَ وَأبَا  
يَكْسومَ وَغَيْرَهُمْ ، قَدْ أَرَادُوهُ فَحَالُ اللهِ تَعَالَى دُونَهُ ، فَتِلْكَ عَادَةٌ فِيهِ ، وَسُنَّةٌ جَارِيَةٌ  
لَهُ .

وَلَوْلَا أَنْ تُبِعَ أَنَاهُ حَاجِبًا ، عَلَى جِهَةِ التَّعْظِيمِ وَالتَّيْدِينِ بِالسُّطُوفِ ، فَحَجَّه  
وَطَافَ بِهِ ، وَكَسَاهَ الوَصَائِلَ ، لِأَخْرَجَهُ اللهُ مِنْهُ .

وَحَجَّه بَعْضُ مُلُوكِ عَسَانَ وَخَمِ ، وَهُمْ نَصَارَى ، تَعْظِيمًا لَهُ ، وَلَمَّا جَعَلَ  
اللَّهُ لَهُ فِي القُلُوبِ .

وَالعَتِيقُ يَكُونُ مِنْ رِقِّ العِبُودِيَّةِ ، كَالعَبْدِ يَعْتَقُهُ مَوْلَاهُ . وَيَكُونُ عَتِيقًا مِنْ  
النَّارِ ، كَالثَّابِتِ مِنَ الكِبَائِرِ ، وَكَالرَّجُلِ يَدْعُو إِلَى الإِيمَانِ فَيُسْتَجَابُ لَهُ ، وَيَتَعَلَّمُ  
نَاسٌ عَلَى يَدِهِ ، فَهُمْ أَيْضًا عَتِيقَاءُ .

وَيَكُونُ الرَّجُلُ عَتِيقًا مِنْ عِتْقِ الوَجْهِ .  
وَرُبَّمَا كَانَ عَتِيقًا كَمَا يُقَالُ لِلْفَرَسِ عَتِيقٌ وَليسَ بِهِجِينَ وَلَا مُقْرِفٌ . وَقَدْ  
سُمِّيَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي قُحَاقَةَ - رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِ - عَتِيقًا ، مِنْ طَرِيقِ عِتْقِ الوَجْهِ ،  
وَمِنْ طَرِيقِ أَنَّهُمْ طَلَبُوا المِثَالِبَ وَالعَيُوبَ الَّتِي كَانَتْ تَكُونُ فِي الأَمْهَاتِ وَالأَبَاءِ فَلَمْ  
يَجِدُوهَا ، قَالُوا : مَا هَذَا إِلاَّ عَتِيقٌ .

#### [ ٥ - خِصَالُ هَاشِمٍ ]

فَصَلِّ مِنْهُ : - قَدْ قَلْنَا فِي الخِصَالِ الَّتِي بَانَتْ بِهَا قَرِيشَ دُونَ العَرَبِ ، وَنَحْنُ  
ذَاكِرُونَ - وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ - الخِصَالُ الَّتِي بَانَتْ بِهَا بَنُو هَاشِمٍ دُونَ قَرِيشَ .

فَأَوَّلُ ذَلِكَ النُّبُوَّةُ ، الَّتِي هِيَ جَمَاعُ خِصَالِ الخَيْرِ ، وَأَعْلَاهَا وَأَفْضَلُهَا ،  
وَأَجْلُهَا وَأَسْنَاهَا .

ثُمَّ وَجَدْنَا فِيهِمْ ثَلَاثَةَ رِجَالٍ بَنِي أَعْمَامٍ فِي زَمَانٍ وَاحِدٍ ، كُلُّهُمْ يُسَمَّى  
عَلِيًّا ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الثَّلَاثَةِ سَيِّدٌ فِقْهِ ، عَالِمٌ عَابِدٌ ، يَصْلُحُ لِلرِّيَاسَةِ وَالإِمَامَةِ ،

مثل علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم ، وعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم ، وعلي ابن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم .

ثم وجدنا ثلاثة رجال بني أعمام ، في زمان واحد ، كلهم يسمى محمداً ، وكلهم سيد وفقية عابد ، يصلح للرياسة والإمامة ، مثل محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم ، ومحمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم ، ومثل محمد بن عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم .

وهذا من أغرب ما يتهيا في العالم ، ويتفق في الأزمنة ، وهذه لا يشركهم فيها أحد ، ولا يستطيع أن يدعي مثلها أحد .

ولبني هاشم واحد رزة ، وثانية نادرة ، يتقدمون بها على جميع الناس . وذلك أنا لا نعرف في جميع مملكة العرب ، وفي جميع مملكة المعجم ، وفي جميع الأقاليم السبعة ، ملكاً واحداً ملكه من نصاب واحد ، وفي مفرس رسالة ، إلا من بني هاشم ، فإن ملكهم العباس بن عبد المطلب ، عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، والعم وارث ، والعم أب ، ولا نعلم أمة تدعي مثل هذا لملكها .

وهذا شيء سمعته من أبي عبيدة ، ومنه استملت هذا المعنى .

ولبني هاشم - مئذ ملكوا هذه الدفعة - دون أيام علي بن أبي طالب والحسين ابن علي إلى يومنا هذا مائة وست عشرة سنة ، كان أول بركتهم أن الله - تعالى - رفع الطواعين والموتان الجارف ، فإنهم كانوا يحصدون حصداً بعد حصد .

ثم الذي تهباً واتفق ، وخص به آل أبي طالب من الغرائب والمعائب والفضائل ، ما لم نجده في أحد سواهم : وذلك أن أول هاشمي هاشمي الأبوين كان في الدنيا ولد لأبي طالب ، لأن أباهم عبد مناف . وهو أبو طالب ابن شيبه - وهو عبد المطلب - بن هاشم - وهو عمرو - وهو أبو شيبه . وشيبه هو عبد المطلب . وهو أبو الحارث وسيد الوادي غير مدافع ، بن عمرو ، وهو هاشم

ابن المغيرة ، وهو عبد مناف .

ثم الذي تهباً لبني أبي طالب الأربعة : أن أربعة إخوة كان بين كل واحد منهم وبين أخيه في الميلاد عشر سنين سواء ، وهذا عجب .

ومن الغرائب التي خُصوا بها ، أعني ولد أبي طالب ، أنا لا نعلم الإذكار في بلد من البلدان ، وفي جيل من الأجيال ، [ إلا ] أهل خراسان فمن دونهم ، فإن الإذكار فيهم فاش ؛ كما أنك لا تجد من وراء بلاد مصر إلا مثناً ، ثم لا ترى فيهن مفذاً ، بل لا ترى إلا الثؤام ومن البنات .

فتهباً في آل أبي طالب من الإذكار ما لم نعرفه في قديم الدهر وحديثه ، ولا فيما قرب من البلدان ولا فيما بعد .

وذلك أن آل أبي طالب أخصوا منذ أعوام وحصلوا ، فكانوا قريباً من ألفين وثلاثمائة ، ثم لا يزيد عدد نسائهم على رجالهم إلا دون العشر . وهذا عجب .

وإن كنت تريد أن تتعرف فضل البنات على البنين ، وفضل إناث الحيوانات على ذكورها ، فابدأ فخذ أربعين ذراعاً عن يمينك ، وأربعين ذراعاً عن يسارك ، وأربعين خلفك ، وأربعين أمامك ، ثم عد الرجال والنساء حتى تعرف ما قلنا ، فتعلم أن الله تعالى لم يجعل للرجل الواحد من النساء أربعاً ، ثم أربعاً ، متى وقع بهن موت أو طلاق ، ثم كذلك للواحد ما بين الواحدة من الإماء إلى ما يشاء من العدد ، مجموعات ومفترقات ، لكلا يتقين إلا ذوات أزواج .

ثم انظر في شأن ذوات البيض وذوات الأولاد فإنك ستري في دار خمسين دجاجة وديكاً واحداً ، ومن الإبل الهجمة وفحلاً واحداً ، ومن الحمير العانة وعميراً واحداً . فلما حصلوا كل مثنا وكل مذكور ، فوجدوا آل أبي طالب قد برعوا على الناس وفضلوهم ، عرف الناس موضع الفضيلة له والخصوصية .

وفي ولد أبي طالب - أيضاً - أعجوبة أخرى ، وذلك أنه لم يوجد قط في

أطفالهم طفلٌ يجبو ، بل يزحف زحفاً لثلاً ينكشف منه عن شيءٍ يسوءه . ليكون أوفر لبهائه ، وأدّل على ما خُصوا به .

ولهم من الأعاجيب خصلةٌ أخرى : وذلك أن عبيد الله بن زياد قتل الحسين في يوم عاشوراء ، وقتله الله يوم عاشوراء في السنة الأخرى .

وقالوا : لا نعلم موضع رجلٍ من شجعان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان له من عدد القتلى ما كان لعليّ رضوان الله عليه ، ولا كان لأحدٍ مع ذلك من قتل الرؤساء والسادة ، والمتبوعين والقادة ، ما كان لعليّ بن أبي طالب . وقتل رئيس واحد ، وإن كان دون بعض الفرسان في الشدة ، أشدّ؛ فإن قتل الرئيس أزد على المسلمين وأقوى لهم من قتل الفارس الذي هو أشدّ من ذلك السيد .

وأيضاً - أنه قد جمع بين قتل الرؤساء وبين قتل الشجعان .

وله أعجوبةٌ أخرى ؛ وذلك أنه مع كثرة ما قتل وما بارز ، وما مشى بالسيف إلى السيف ، لم يجرح قط ولا جرح إنساناً إلا قتله ، ولا نعلم في الأرض متى ذُكر السبق في الإسلام والتقدم فيه ، ومتى ذُكر الفقه في الدين ، ومتى ذُكر الزهد في الأموال التي تشاجر الناس عليها ، ومتى ذُكر الإعطاء في الماعون ، كان مذكوراً في هذه الحالات كلها - إلا عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه .

قالوا : وكان الحسن يقول : قد يكون الرجل عالماً وليس بعابد ، وعابداً وليس بعالم ، وعابداً وليس بعاقل ، وعاقلاً وليس بعابد . وسليمان ابن يسار عالم عاقل عابد ، فانظر أين تقع خصال سليمان من خصال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه .

ولم يكن قصدنا في أول هذا الكتاب إلى ذكر هاشم ، وقد كان قصدنا الإخبار عن مكة بما قد كتبناه في صدر هذا الكتاب ، ولكن ذكر خصال مكة جرّ

ذكر خصال قريش ، وذكر خصال قريش جر ذكر خصال بني هاشم .

فإن أحييت أن تعرف جملة القول في خصال بني هاشم فانظر في كتابي هذا الذي فرقت فيه بين خصال بني عبد مناف وبين بني مخزوم ، وفرقت ما بين عبد شمس ؛ فإنه هنالك أوفر وأجمع ، إن شاء الله تعالى .

### [ ٦ - عودة الى خصال قريش ]

فصل منه : قالوا : وقد تعجب الناس من ثبات قريش ، وجزالة عطاياهم ، واحتمالهم المؤن الغلاظ في دوام كسبهم من التجارة ، وقد علموا أن البخل والبصر في الطفيف مقرون في التجارة ؛ وذلك خلق من أخلاقهم . وعلى ذلك شاهد أهل الترفيع والتكسب والتدينق .

فكان في ثبات جودهم العالي على جود الأجواد ، وهم قوم لا كسب لهم إلا من التجارة ، عجب من العجب .

ثم جاء ما هو أعجب من هذا وأطم ، وذلك أنا قد علمنا أن الروم قبل التدين بالنصرانية ، كانت تتصف من ملوك فارس ، وكانت الحروب بينهم سجالاً ، فلما صارت لا تدين بالقتل والقتال ، والقود والقصاص . اعتراهم مثل ما يعترى الجبناء حتى صاروا يتكلفون القتال تكلفاً . ولما خامرت طبائعهم تلك الديانة ، وسرت في لحومهم ودمائهم فصارت تلك الديانة تعترض عليهم . خرجوا من حدود الغالبية إلى أن صاروا مغلوبين .

وإلى مثل ذلك صارت حال الغزغز من الترك . بعد أن كانوا أنجادهم ومقاتلهم ، وكانوا يتقدمون الخرجية ، وإن كانوا في العدى أضعافهم ، فلما دانوا بالزندقة - ودين الزندقة في الكف والسلم أسوأ من دين النصارى - نقصت تلك الشجاعة ، وذهبت تلك الشهامة .

وقريش من بين جميع العرب دانوا بالتحمس . وتشددوا في الدين ، فتركوا

الغزوة ولم تبق مكسبة سوى التجارة ، فضربوا في البلاد إلى قيصر بالروم ، وإلى النجاشي بالحبشة . وإلى المقوقس بمصر ، وصاروا يجمعهم تجاراً خلطاء . وبنوا بالديانة والتحمس ، فحمسوا بني عامر ابن صعصعة . وهموا الحارث بن كعب ، فكانوا - وإن كانوا حمساً - لا يتركون الغزوة والسبي ووطء النساء ، وأخذ الأموال ، فكانت نجدتهم - وإن كان أنقص - فإنها على حال النجدة ، ولهم في ذلك بقية .

وتركت قريش الغزوة . فكانوا - مع طول ترك الغزوة - إذا غزوا كالأسود على برائتها ، مع الرأي الأصيل ، والبصيرة النافذة .

أفليس من العجب أن تبقى نجدتهم ، وثبتت بسالتهم ، ثم يعلن الأنجاد والأجواد ، ويفرعون الشجعان ؟ وهاتان الأعجوبتان بيتان .

وقد عليم أن سبب استفاضة النجدة في جميع أصناف الخوارج وتقدمهم في ذلك ، إنما هو بسبب الديانة ! لأنها نجد عبيدهم ومواليهم ونساءهم ، يقاتلون مثل قتالهم ، ونجد السجستاني وهو عجمي ، ونجد اليمامي والبحراني والخوزي [ وهم غير ] عرب ، ونجد إباضية عمان وهي بلاد عرب ، وإباضية تاهرت وهي بلاد عجم ، كلهم في القتال والنجدة ، وثبات العزيمة ، والشدة في البأس سواء . فاستوت حالاتهم في النجدة مع اختلاف أنسابهم وبلدانهم . أفما في هذا دليل على أن الذي سوى بينهم التدين بالقتال ، وضروب كثيرة من هذا الفن ؟

وذلك كله موصور في كتبي ، والحمد لله .

وقد تجردون عموم السخف والجهل والكذب في المواعيد ، والغش في الصناعة ، في الحاكاة ، فدل استواء حالاتهم في ذلك على استواء عملهم . ليست هناك علة إلا الصناعة ؛ لأن الحاكاة في كل بلد شيء واحد . وكذلك النحاس وصاحب الخلقان ، وياع السمك . وكذلك الملاحون وأصحاب السماد ، أولهم كآخرهم ، وكهولهم كشبانهم ، ولكن قل في استواء الحجامين في حث النبيذ !

فصل منه : - وأمر المدينة عَجَب وفي تربها وترابها وهوائها دليل وشاهد وبرهان على قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنَّمَا طَيِّبَةٌ تَنْفِي خَبِيثَهَا وَتَنْصَعُ طَيِّبَهَا » لَأَنَّ مِنْ دَخَلَهَا أَوْ أَقَامَ فِيهَا ، كَانَتْ مِنْ النَّاسِ ، فَإِنَّهُ يَجِدُ مِنْ تُرْبَتِهَا وَحَيْطَانِهَا رَائِحَةً طَيِّبَةً ، لَيْسَ لَهَا اسْمٌ فِي الْأَرَابِيحِ ، وَبِذَلِكَ السَّبَبِ طَابَ طَيِّبُهَا وَالْمَعْجُونَاتُ مِنَ الطُّيْبِ فِيهَا . وَكَذَلِكَ الْعُودُ وَجَمِيعُ الْبَهْخُورِ ، يَضَاعَفُ طَيِّبُهَا فِي تِلْكَ الْبَلَدَةِ عَلَى كُلِّ بَلَدٍ اسْتَعْمَلَ ذَلِكَ الطُّيْبَ بَعِيْنَهُ فِيهَا .

وَكَذَلِكَ صَيَّاحُهَا وَالْبَلْعُ وَالْأَتْرُجُ وَالسَّفَرَجَلُ ، أَعْنِي الْمَجْعُولُ مِنْهَا سُخْبًا لِلصُّبْيَانِ وَالنِّسَاءِ .

فَإِنْ ذَكَرُوا طَيِّبَ سَابُورٍ فَلِئَمَّا طَيَّبَ سَابُورٌ بِطَيِّبِ أَرْيَاحِ الرِّيَّاحِينَ ، وَذَلِكَ مِنْ رِيحِ رِيَّاحِيْنِهَا وَبِسَاتِيْنِهَا وَأَنْوَارِهَا ، وَلِذَلِكَ يَقْوَى فِي زَمَانٍ ، وَيَضْعُفُ فِي زَمَانٍ .

وَنَحْنُ قَدْ نَدْخُلُ دِجْلَةَ فِي نَهْرِ الْأَبْلَةِ بِالْأَسْحَارِ ، فَتَجِدُ مِنْ تِلْكَ الْحَدَائِقِ ، وَنَحْنُ فِي وَسَطِ النَّهْرِ ، مِثْلَ مَا يَجِدُ أَهْلُ سَابُورَ مِنْ تِلْكَ الرَّائِحَةِ .

وَطَيِّبَةُ الَّتِي يَسْمُونَهَا الْمَدِينَةَ ، هَذَا الطُّيْبُ خِلْقَةٌ فِيهَا ، وَجَوْهَرِيَّةٌ مِنْهَا ، وَمَوْجُودٌ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهَا . وَإِنَّ الطُّيْبَ وَالْمَعْجُونَاتِ لَتُحْمَلُ إِلَيْهَا فَتَزْدَادُ فِيهَا طَيِّبًا ، وَهُوَ ضِدُّ قَصْبَةِ الْأَهْوَازِ وَأَنْطَاكِيَّةِ ، فَإِنَّ الْغَوَالِيَّ تَسْتَحِيلُ الْاسْتِحَالَةَ الشَّدِيدَةَ .

وَلَسْنَا نَشْكُ أَنْ نَاسًا يَتَسَابَوْنَ الْمَوَاضِعَ الَّتِي يَبَاعُ فِيهَا النَّوَى الْمُنْتَقَعُ ، فَيَسْتَنْشِقُونَ تِلْكَ الرَّائِحَةَ ، يُعْجَبُونَ بِهَا وَيَلْتَمِسُونَهَا ، بِقَدْرِ فِرَارِنَا نَحْنُ مِنْ مَوَاقِعِ النَّوَى عِنْدَنَا بِالْعِرَاقِ ، وَلَوْ كَانَ مِنَ النَّوَى الْمَعْجُومِ وَمِنْ نَوَى الْأَفْوَاهِ .

وَنَحْنُ لَا نَشْكُ أَنْ الرَّجُلَ الَّذِي يَأْكُلُ بِالْعِرَاقِ أَرْبَعَ جَرَادِقَ فِي مَقْعَدٍ وَاحِدٍ مِنَ الْمَيْسَانِيِّ وَالْمَوْصَلِيِّ ، أَنَّهُ لَا يَأْكُلُ مِنْ أَقْرَاصِ الْمَدِينَةِ قُرْصِينَ ؛ وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ

لغلفظ فيه أو لفسادِ كان في حبه وطحيته لظهر ذلك في التخم وسوء الاستمراء ،  
ولتولد على طول الأيام من ذلك أوجاع وفساد كثير .

ولم يكن بها طاعون قط ولا جدام .

وليس لبلدة من البلدان من الشهرة في الفقه ما لهم ولرجالهم ، وذكر عبد الملك  
ابن مروان رُوح بن زنباع فمدحه فقال : جمع أبو زرعة فقه الحجاز ، ودهاء  
العراق ، وطاعة أهل الشام .

### [ ٨ - مصر ]

فصل منه : قال أبو الخطاب : لم يذكر الله جل وعز شيئاً من البلدان باسمه  
في القرآن كما ذكر مصر ، حيث يقول : ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِمَرْأَتِهِ  
أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ . وقال : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن  
شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ وقال : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا  
وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ وقال تعالى : ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ فِيهَا مَا سَأَلْتُمْ ﴾ وقال  
في آية : ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾ .

وذكر مصر في القرآن بالكناية عن خاصة اسمها ، فمن ذلك : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي  
الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ قالوا : هي مدينة منف ، وهو  
موضع منزل فرعون .

وأخبرني شيخ من آل أبي طالب من ولد علي صحيح الخبر : منف دار  
فرعون ، ودُرَّت في مجاليه ومثاويه وغرفه وصفافه ، فإذا كلُّه حجرٌ واحدٌ منقور ؛  
فإن كانوا هتدموه وأحكموا بناءه حتى صار في الملاسة واحداً لا يُستبان فيه تجمع  
حجرين ، ولا مُلتقى صخرتين فهذا عَجَبٌ . ولئن كان جبلاً واحداً ، وقكأ  
واحداً ، فنقرته الرجال بالمنافير حتى خرقت فيه تلك المخاريق ، إن هذا  
لأعجب .

وفي القرآن : ﴿ قُلْنَا أَسْرَحِ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْتِيَ فِيهَا جَنُودٌ لِّمَنْ هِيَ وَأُولَئِكَ عَرَفُوا أَيُّ الْيَوْمِ الْأَكْبَرِ ﴾ .  
خير الحاكمين ﴿ .

قال : والأرضُ ها هنا مصر . وفي هذا الموضع كلامٌ حسنٌ . ولكننا ندعُه مخافةً أن نخرج إلى غير الباب الذي ألقنا له هذا الكتاب .

قالوا : وسمي الله تعالى ملك مصر « العزيز » ، وهو صاحب يوسف ، وسمي صاحب موسى « فرعون » .

قالوا : وكان أصلُ عُتُو فرعونَ مُلكه العظيم ، ومملكته التي لا تُشبهها مملكة .

قالوا : ومنهم مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « سَيِّدَةُ نِسَاءِ الْعَالَمِ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ، وفاطمة بنت محمد ، ومريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم » .

قال : ولما هم فرعون يقتل موسى قالت آسية : ﴿ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ وقالت : وكيف تقتله ، والله ما يعرف الجمر من التمرة .

ومنهم السحرة الذين كانوا قد أبروا على أهل الأرض ، فلما أبصروا بالأعلام ، وأيقنوا بالبرهان ، استبصروا وتابوا توبة ما تابها ماعز بن مالك ، ولا أحد من العالمين ، حتى قالوا لفرعون : ﴿ اقض ما أنت قاضٍ ، إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ﴾ .

وجاء في الحديث : « من أحرب خزائن الله فعليه لعنة الله » . قالوا : خزائن الله هي مصر ، أما سمعتم قول يوسف : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ﴾ ؟ .

وقال عبد الله بن عمرو : « البركة عشرُ بركات : تسع بمصر والواحدة في جميع الأرض » .

فصل منه : وقال أهل العراق : سألنا بطريق خَرَشْنَةَ عن خُراج الرُّوم ، فذكر مقداراً من المال ، وقال . هو كذا وكذا قِنْطَاراً . فنظر بعضُ الوزراءِ فإذا خراجُ مصرَ وَحَدَه يُضْعِفُ على خراجِ بلادِ الرومِ إذا جُمعتِ أبوابُ المالِ من البلادِ جميعاً .

فصل منه : ولا أعلمُ الفُرقةَ في المغربِ إلا أكثرَ من الفُرقةِ في المشرقِ ، إلا أنَّ أهلَ المغربِ إذا خرجوا لم يزيدوا على البِدعةِ والضَّلالةِ ، والخارجيُّ في المشرقِ لا يرضى بذلكَ حتَّى يهجره إلى الكفرِ ، مثلُ المقتنعِ وشيخانِ والإصبهنيِّ وبابك ، وهذا الضُّربُ .

فصل منه : وقد علمنا لجماعةِ بني هاشمٍ طابعاً في وجوههم يستبين به كرمُ العتقِ وَكَرَمُ النُّجارِ ، وليس ذلكَ لغيرهم .

ولقد كادت الأهوازُ تُفسدُ هذا المعنى على هاشمِيَّةِ الأهوازِ ، ولولا أنَّ اللهَ غالبٌ على أمره لقد كادت طمست على ذلكِ العتقِ ومَحَّتْ فتربتُها خلافُ تربيةِ الرسولِ صلى الله عليه وسلم : وذلكَ أنَّ كلُّ من تخرَّقَ طُرُقَ المدينةِ وجدَّ رائحةً طيبةً ليست من الأرابيحِ المعروفةِ الأسماءِ .

#### [ ٩ - الكوفة والبصرة ]

فصل منه : قال زياد : الكوفةُ جاريةٌ جميلةٌ لا مأل لها ، فهي تُحْطَبُ لجمالها ، والبصرةُ عَجوزٌ شوهاءٌ ذاتُ مالٍ فهي تُحْطَبُ لمالها .

فصل منه : والفراتُ خيرٌ من ماءِ النَّيْلِ . وأما دجلةُ فإنَّ ماءها يقطعُ شهوةَ الرُّجالِ . ويذهبُ بصهيلِ الخيلِ ، ولا يذهبُ بصهيلها إلا مع ذهابِ نشاطها ، ونقصانِ قواها ؛ وإن لم يتنَّسَمِ النازلونَ عليها أصابهم قحورٌ في عظامهم ، وبسٌ في جلودهم .

وجميعُ العَرَبِ النَّازلينَ على شاطئِ دجلةٍ من بغدادِ إلى بلدٍ لا يرعونُ الخيلَ

في الصيف على أواربها على شاطئ دجلة ، ولا يسقونها من مائها ، لما يخاف عليها من الصُدام ، وغير ذلك من الآفات .

وأصحاب الخيل من العتاق والبراذين إنما يسقونها بسر من رأى ، مما احتضروها من كرابهم ، ولا يسقونها من ماء دجلة ؛ وذلك أن ماء دجلة مختلط . وليس هو ماء واحداً ، ينصب فيها من الزابين والنهروانات وماء الفرات ، وغير ذلك من المياه .

واختلاف الطعام إذا دخل جوف الانسان من ألوان الطبخ والإدام غير ضار ، وإن دخل جوف الإنسان من شراب مختلف كخمر الخمر والسكر ونبذ التمر والداذي كان ضاراً . وكذلك الماء ، لأنه متى أراد أن يتجرع جرعا من الماء الحار لصدره أو لغير ذلك ، فإن أعجله أمر فبرده بماء بارد ثم حساه ضره ذلك ، وإن تركه حتى يفترببرد الهواء لم يضره . وسبيل المشروب غير سبيل المأكول .

فإن كان هذا فضيلة ماثنا على ماء دجلة فما ظنك بفضله على ماء البصرة ، وهو ماء مختلط من ماء البحر ومن الماء المستقيم في أصول القصب والبردي ؟ قال الله تعالى : ﴿ هَذَا عَذْبٌ فَرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾

والفرات أعذبها عذوبةً ، وإنما اشتق الفرات لكل ماء عذب ، من فرات الكوفة .

فصل منه : كان يقال : الدنيا البصرة .

وقال الأحنف لأهل الكوفة : « نحن أغذى منكم بريئة ، وأكثر منكم بحرية ، وأبعد منكم سرية ، وأكثر منكم ذرية » .

وقال الخليل بن أحمد في وصف القصر المذكور بالبصرة :

رُزُّ وادي القصر نعم القصر والوادي لا بد من زورة عن غير ميعاد  
تري بها السفن والظلمان واقفة والضب والنون والمسالخ والحادي

ومن أتى هذا القصر وأتى قصر أنس رأى أرضاً كالكاפור، وتربة ثرية، ورأى  
ضباباً يُحترش ، وغزلاً يُقتنص ، وسمكاً يُصاد ، ما بين صاحب شيص وصاحب  
شبكة ، ويسمع غناء ملاح على سُكايه ، وحداء جمالٍ على بعيره .

قالوا : وفي أعلى جبانة البصرة موضع يقال له الحزيز يذكر الناس أنهم لم  
يرَوْا قطُّ هواءَ أعدل ، ولا نسيماً أرق ، ولا ماءً أطيب منها في ذلك الموضع .

وقال جعفر بن سليمان : « العراق عين الدنيا ، والبصرة عين العراق ،  
والمريد عين البصرة ، وذاري عين المرید » .

وقال أبو الحسن وأبو عبيدة : « بُصرت البصرة سنة أربع عشرة ، وكُوِّفت  
الكوفة سنة سبع عشرة » .

فصل منه : زعم أهل الكوفة أن البصرة أسرع الأرض خراباً ، وأخبثها  
تُراباً ، وأبعدها من السماء وأسرعها غرقاً ، وتفيض مائها البحر ، ثم يخرج ذلك  
إلى البحر الأعظم .

وكيف تغرق ، وهم لا يستطيعون أن يوصلوا ماء الفيض إلى جياضهم إلا  
بعد أن يرتفع ذلك الماء في الهواء ثلاثين ذراعاً ، في كل سقاية بعينها ، لا  
لحوض بعينه .

وهذه أرض بغداد في كل زيادة ماء ينبع الماء في أجواف قصورهم الشارعة  
بعد إحكام المستنبات التي لا يقوى عليها إلا الملوك ، ثم يهدمون الدار التي على  
دجلة فيكسّون بها تلك السكك ، ويتوقعون الغرق في كل ساعة .

قال : وهم يعيبون ماء البصرة ، وماء البصرة رقيق قد ذهب عنه الطين والرمل  
المشوب بماء بغداد والكوفة ، لطول مقامه بالبطححة ، وقد لآن وصفا ورق .

وإن قلت : إن الماء الجاري أمراً من الساكن ، فكيف يكون ساكناً مع  
تلك الأمواج العظام والرياح العواصف ، والماء المنقلب من العلو إلى السفلى ؟  
ومع هذا إنه إذا سار من تخرجه إلى ناحية المذار ونهر أبي الأسد وصائر الأتهار ،

وإذا بُعِدَ من مدخله إلى البصرة من الشَّقِّ القصير ، جَرَى منقُضاً إلى الصُّخُور  
والحجارة ، فراسخ و فراسخ ، حتى ينتهي إلينا .

ويدلُّ على صلاح مائهم كثرة ثورهم ، وطولُ أعمارهم ، وحُسْنُ  
عقولهم ، ورفقُ أكفهم ، وخذقهم لجميع الصناعات ، وتقدُّمهم في ذلك لجميع  
الناس .

ويُستدلُّ على كرم طينهم ببياض كيزانهم وعذوبة الماء البائت في قلاهم ، وفي لون  
أجرهم ، كأنما شُبِّكَ من مَحِّ بيض . وإذا رأيت بناءهم وبياض الجص الأبيض  
بين الأجر والأصفر لم تجد لذلك شبيهاً أقرب من الفضة بين تضاعيف الذهب .

فإذا كان زمان غلبي ماء البحر فإن مُستقاهم من العذب الزلال الصافي ،  
النمير في الأبدان ، على أقل من فرسخ ، وربما كان أقل من ميل .

ونهر الكوفة الذي يسمونه إنما هو شعبة من أنهار الفرات ، وربما جفَّ حتى  
لا يكون لهم مستقى إلا على رأس فرسخ ، وأكثر من ذلك ، حتى يحضروا الأبار  
في بطون نهرهم ، وحتى يضر ذلك يحضروهم وأشجارهم . فليَنظُرُوا أيما أضره  
وأيما أعيب .

وليس نهر من الأنهار التي تصبُّ في دجلة إلا هو أعظم وأكبر وأعرض من  
موضع الجسر من نهر الكوفة ، وإنما جسره سبع سفائن ، لا تمرُّ عليه دابةً لأنها  
جذوعٌ مقيدةٌ بلا طين ، وما يمشي عليه الماشي إلا بالجهد ، فما ظنك بالحوافر  
والخفاف والأظلاف ؟ !

وعامة الكوفة خرابٌ يباب ، ومن بات فيها علم أنه في قرية من القرى .  
ورُستاق من الرُستاق ، بما يسمُّ من صياح بنات آوى ، وضباح الثعالب ،  
وأصوات السباع . وإنما الفرات دما إلى ما اتصل به إلى بلاد الرقة ، وفوق  
ذلك .

فإنما نهرهم فالنيل أكبر منه ، وأكثر ماء ، وأدوم جرية

وقد تعلمون كثرة عديد أنهار البصرة ، وغلبة الماء ، وتطفع الأنهار .  
وتبقى النخلة عشرين ومائة سنة وكأنتها قدح . وليس يُرى من قُرب القرية  
التي يقال لها « النيل » إلى أقصى أنهار الكوفة نخلة طالت شيئاً إلا وهي معوجة  
كالمنجل . ثم لم نر غارس نخيل قط في أطراف الأرض يرغب في فسيل كوفي ،  
لعلمه بخبث مغرسه ، وسوء نشوه ، وفساد تربته ، ولؤم طبعه .

وليس للبيالي شهر رمضان في مسجدهم غصارة ولا بهاء ، وليس منار مساجدهم  
على صور منار البصرة ، ولكن على صور منار الملكانية واليعقوبية .

ورأينا بها مسجداً خراباً تأويه الكلاب والسباع ، وهو يضاف إلى علي بن  
أبي طالب ، رضوان الله عليه .

ولو كان بالبصرة بيت دخله علي بن أبي طالب ماراً لتمسحوا به وعمروه  
بأنفسهم وأموالهم .

وخبرني من بات أنه لم ير كواكبها زاهرة قط ، وأنه لم يرها إلا ودونها  
هبوة ، وكأن في مائهم مزاج دهن . وأسواقهم تشهد على أهلها بالفقر . وهم  
أشد بغضاً لأهل البصرة من أهل البصرة لهم ، وأهل البصرة هم أحسن جواراً ،  
وأقل بذخاً ، وأقل فخراً .

ثم العجب من أهل بغداد وميلهم معهم . وعيهم إيانا في استعمال  
السماد في أرضنا ولنخلنا ، ونحن نراهم يُسمدون بقوهم بالعذرة اليابسة صرفاً ،  
فإذا طلع وصار له ورق ذروا عليه من تلك العذرة اليابسة حتى يسكن في خلال  
ذلك الورق .

ويسريد أحدهم أن يبني داراً فيجيء إلى مزبلة ، فيضرب منها لبناً ، فإن  
كانت داره مطيئة ذات قعر حشا من تلك المزبلة التي لو وجدها أصحاب السماد  
عندنا لباعوها بالأموال النفيسة .

ثم يسجرون تنانيرهم بالكساحات التي فيها من كل شيء ، وبالأبعار

والأختاء ، وكذلك مواقد الكيران .

وتمتلىء ركايا دورهم علبرة فلا يصيبون لها مكاناً ، فيحضرون لذلك في بيوتهم آباراً ، حتى ربما حفر أحدهم في مجلسه ، وفي أنبل موضع من داره . فليس ينبغي لمن كان كذلك أن يعيب البصريين بالتسميد .

فصل منه : وليس في الأرض بلدة أرفق بأهلها من بلدة لا يعز بها النقد ، وكل مبيع بها يمكن .

فالشامات وأشباهها الدينار والدرهم بها عزيزان ، والأشياء بها رخيصة لبعده النقل ، وقلة عدد من يتتاع . ففي ما يخرج من أرضهم أبداً فضل عن حاجاتهم .

والأهواز، وبغداد ، والعسكر ، يكثر فيها الدراهم ويعز فيها المبيع لكثرة عدد الناس وعدد الدراهم .

وبالبصرة الأثمان ممكنة والمتمنات ممكنة ، وكذلك الصناعات ، وأجور أصحاب الصناعات . وما ظنك ببلدة يدخلها في البادي من أيام الصرام إلى بعد ذلك بأشهر ، ما بين ألفي سفينة تمر أو أكثر في كل يوم ، لا بيت فيها سفينة واحدة ، فإن باتت فإنما صاحبها هو الذي يبيتها . لأنه لو كان حط في كل ألف رطل قيراطاً لانتسفت انتسافاً .

ولو أن رجلاً ابني داراً يتممها ويكملها ببغداد ، أو بالكوفة ، أو بالأهواز ، وفي موضع من هذه المواضع ، فبلغت نفقتها مائة ألف درهم ، فإن البصري إذا بنى مثلها بالبصرة لم ينفق خمسين ألفاً ، لأن الدار إنما يتم بناؤها بالطين واللبن ، وبالآجر والجص ، والأجذاع والساج والخشب ، والحديد والصناعات ، وكل هذا يمكن بالبصرة على الشطر مما يمكن في غيرها . وهذا معروف .

ولم نر بلدة قط تكون أسعارها ممكنة مع كثرة الجماعم بها إلا البصرة :

طعامهم أجود الطعام ، وسعرهم أرخص الأسعار ، وتمرهم أكثر التمور ، وزرع  
ديبهم أكثر ، وعلى طول الزمان أضبر ، يبقى تمرهم الشهرين عشرين سنة ، ثم  
بعد ذلك يخلط بغيره فيجيء له الدهس الكثير ، والعذب الحلو ، والخائر  
القوي .

ومن يطعم من جميع أهل النخل أن يبيع فسيلة بسبعين ديناراً ، أو بثوثة  
بمائة دينار ، أو جريباً بألف دينار غير أهل البصرة ؟

فصل منه : ولأهل البصرة المد والجزر على حساب منازل القمر لا يغادران من  
ذلك شيئاً . يأتيهم الماء حتى يقف على أبوابهم ، فإن شاقوا أذنوا ، وإن شاقوا  
حجبه .

ومن العجب لقوم يميون البصرة لقرب البحر والبطيحة ولو اجتهد أعلم  
الناس وأنطق الناس أن يجمع في كتاب واحد منافع هذه البطيحة ، وهذه  
الأجعة ، لما قدر عليها .

قال زياد : قصبة خير من نخلة .

ويحق أقول : لقد جهدت جهدي أن أجمع منافع القصب ومرافقه  
وأجناسه ، وجميع تصرفه وما يجيء منه ، فما قدرت عليه حتى قطعتة وأنا معترف  
بالعجز ، مستسلم له .

فأما بحرنا هذا فقد طم على كل بحر وأوفى عليه ، لأن كل بحر في  
الأرض لم يجعل الله فيه من الخيرات شيئاً . إلا بحرنا هذا . الموصول ببحر الهند  
إلى ما لا تذكر .

وأنت تسمع بملوحة ماء البحر ، وتستقطه وتزري عليه . والبحر هو  
الذي يخلق الله تعالى منه الدر الذي بيعت الواحدة منه بخمسين ألف دينار ،  
ويخلق في جوفه العنبر ، وقد تعرفون قدر العنبر . فشيء يولد هذين الجوهريين  
كيف يحقر ؟ .

ولو أننا أخذنا خصال هذه الأجمة وما عظمنا من شأنها . فقدفنا بها في زاوية  
من زوايا بحرنا هذا لفضلت حتى لا نجد لها جساً ، وهما لنا خالصان دونكم .  
وليس يصل إليكم منها شيء إلا بسبينا وبعد أن فضل عنا .

وقال بعض خطبائنا : نحن أكرم بلاداً ، وأوسع سواداً ، وأكثر مساجاً  
وعاجاً وديباجاً ، وأكثر خراجاً .

لأن خراج العراق مائة ألف ألف واثنا عشر ألف ألف ، وخراج البصرة  
من ذلك ستون ألف ألف ، وخراج الكوفة خمسون ألف ألف .

#### [ ١٠ - الحيرة ]

فصل منه : ورأيت الحيرة البيضاء وما جعلها الله بيضاء ، وما رأيت فيها  
داراً يُذكر إلا دار عون النصرائي العباداني .

ورأيت التربة التي بينها وبين قصبة الكوفة ، ورأيت لون الأرض فإذا هو  
أكهب كثير الحصى ، خشن المسن تقيت كميتر علوم رسولي

والحيرة أرض باردة في الشتاء ، وفي الصيف ينزعون ستور بيوتهم مخافة  
إحراق السمائم لها .

## هامش كتاب الاوطان والبلدان

(١) لاحظ اهتمام الجاحظ بتأثير البيئة على خلق الناس واخلاقهم ولفاتهم وعواطفهم وصناعاتهم . وهذا الاهتمام برره في اماكن عديدة من كتبه ورسائله ، مما يبين لنا منحاه الطبيعي في فلسفته .

- ام القرى هي مكة المكرمة . وقد اوضح معناها في الجملة التالية .

(٢) قال الاول : من الافضل قرامتها الاوائل . وقد ابدله في رسالة مناقب الترك بالعبدى حيث ورد : العبدى يقول وعمر الله البلدان بحب الاوطان . . . وابدله في رسالة الحنين الى الاوطان بعمر بن الخطاب .

- الغمق واللتق : الندى الذي يؤدي الى فساد الريح والايوثة .

- لاحظ كيف يفسر الجاحظ الحكمة من اختلاف الناس في ميولهم واعمالهم : لو اجمعوا كلهم على اختيار الشيء الواحد لوقع التغالب والتحارب بينهم . وقد اورد هذه الفكرة في اماكن أخرى من كتبه مثل حجج النبوة .

- العقل المولود وعقل التجارب اي العقل الغريزي الفطري الذي سماه الفلاسفة العقل الهولاني او بالقوة ؛ والعقل بالفعل المكتسب بالتجارب .

- ان حب الاوطان لا يقتصر بنظر الجاحظ على الانسان بل يتعداه الى الحيوانات ، فهي تألف المكان الذي تقيم به اكثر من الانسان .

(٣) الديانيين : القضاة الذين يحاسبون أنفسهم ، ولهذا انصرفوا عن الغزوا لما فيه من ظلم واغتصاب اموال وفروج . وقد فسرت خطأ في نسخة عبد السلام هارون اذ جعلت الديانيين نسبة الى الديانة .

- الفجار : موقعة جرت بين قريش وكنانة وهوازن قبيل البعثة . ذات الكهف :

معركة أخرى بين قريش وبعض القبائل قبل البعثة أيضاً .  
 - البخيل طبع في بعض الناس لا يكتسب اكتساباً . وقد حاول اثبات هذه الفكرة  
 في كتاب البخلاء ، عملاً بمذهبه الطبيعي القائل ان الاخلاق طبع .  
 - يحبس الحيسة بالانطاع : يعجن التمر والسمن في الجلود .  
 - دريد بن الصمة (٦٣٠م) وامية بن ابي الصلت (٦٢٦م) : شاعران جاهليان  
 ادركا الاسلام ولم يسلمها ، كان دريد فارساً وكان امية تقياً اكثر من ذكر الأخرة .  
 - عكاظ وذو المجاز سوقان كانا يقامان في الجاهلية فيقصدهما الناس من الانحاء  
 للتجارة وانشاد الشعر .

- تعرف قريش : تسود اي تكون سيدة على العرب .  
 (٤) الصواب ان نقرأ : وفتح مكة يسمى فتح الفتوح ، وفيها بيت الله . الخ لا كما  
 ورد في طبعة عبد السلام هارون : وهو بيت الله .  
 - هزيمة جبريل : اي ضربة رجل جبريل التي ادت الى شق الارض وتفجر الماء ،  
 ماء زمزم في مكة .

- الطير الابابيل : كما ورد في القرآن ، التي تأتي جماعات .  
 - اهله حمس ولقاح : أي اشداء لم يخضعوا للملوك .  
 - لاحظ التفسير الطريف الذي اعطاه الجاحظ لكلمة عتيق من الآية ﴿ وليطوفوا  
 بالبيت العتيق ﴾ .

(٥) قوله : « وهذا الشيء سمعته من ابي عبيدة ومنه استملت هذا المعنى » . دليل على  
 ان الجاحظ أخذ عن ابي عبيدة الاخبار واللغة مباشرة . و ابو عبيدة معمر بن المثنى  
 التيمي بالولاء ( ١١٠ - ٢١٠ هـ ) عالم باخبار العرب وأيامها ولغتها .  
 - لاحظ اعجاب الجاحظ بعلي بن ابي طالب وذكر مآثره في الشجاعة والفقه والزهد  
 والكرم .

- وكان الحسن يقول : يعني علي الارجح الحسن البصري .  
 - سليمان بن يسار من المدينة ، مولى ميمونة ، وكتب لام سلمة ، كان عابداً زاهداً  
 ثقة في الحديث والفقہ ، توفي سنة ١٠٧ هـ .  
 - اشارة الى كتابه « فضل هاشم على عبد شمس » .

(٦) الخوارج : فرقة من المسلمين خرجوا على علي بن ابي طالب بعد ان كانوا من شيعته  
 فدعوا بهذا الاسم . وكفروه لأنه قبل بالتحكيم . وقاصوا بثورات عديدة في عهد  
 علي وفي عهد الدولة الاموية وبعدها . وانقسموا فرقاً عديدة . وقد تحدث عنهم  
 الجاحظ في اماكن عديدة من كتبه ، وعرفوا بشدتهم في الحروب وجوئهم الى العنف

على مدى تاريخهم .

- « وذلك كله مصور في كتيبي ، والحمد لله » . يشير الجاحظ الى كلامه على فروسية الخوارج وسيبها الذي هو العقيدة الدينية في كتبه ولا سيما في رسالة « مناقب الترك » .

(٧) المدينة تدعى ايضاً طيبة لطيب هوائها وروائحها .

(٨) ابو الخطاب : هو قتادة بن دعامة السدوسي البصري الاعشى ( ٦١ - ١١٧ هـ ) كان نساباً وعالماً بالحديث والفقه .

- مسعر بن مالك : احد الصحابة ، زنى فاقر على نفسه لرسول الله وطلب حده فامر الرسول برجمه حتى مات .

- يشير الجاحظ الى انتشار البدع والفرق كما في المشرق ولكنهم في المغرب لا يلجأون الى العنف والثورة كما يفعلون في المشرق ويذكر امثلة على الذين يلجأون الى الثورات كالخوارج ، والمقنع الخراساني الذي ثار ايام المهدي واستمرت ثورته ١٤ عاماً حتى قتل سنة ١٦٣ هـ . وقد ذكره الجاحظ في كتاب البيان والتبين وغيره .

- وشيبان الخارجي الشكري الذي خرج ايام مروان بن محمد في عمان حتى قتل سنة ١٢٩ هـ .

- والاصهبذ الخراساني .

- بابك الخرمي ، ثار ايام المعتصم فخاربه وقبض عليه وصلبه سنة ٢٢٣ هـ .

(٩) الخليل بن احمد الفراهيدي عالم باللغة والموسيقى وهو الذي وضع علم العروض

وعلم الموسيقى ، وعلم المعاجم . وهو يصف قصر اوس بن ثعلبة بن زفر بن ربيعة والي خراسان من قبل الامويين .

- الملكانية : فرقة نصرانية ظهرت اثر مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ هـ . وسموا بذلك لانهم تبعوا مذهب ملك الروم وقالوا بطبيعة المسيح البشرية او الناسوت .

- اليعقوبية : فرقة نصرانية ثانية نسبوا الى رئيسهم مار يعقوب راهب القسطنطينية الذي قال بطبيعة المسيح الالهية . (انظر الشهرستاني ، الملل والنحل ، الجزء الثاني ، ص ٢٧ - ٣٣) .

(١٠) الخيرة : الخيرة موطن عون النصراني العبادي . اشارة الى تنصر العديد من اهلها .







[ ١ - مقدمة ]

ثم إنا نُخبرون عن مقالة العُثمانية ، وبالله نستهدي وإياه نستعين ، وعليه نتوكل ، وما توفيقنا إلا به .

[ ٢ - اسلام أبي بكر أفضل من اسلام علي لأنه أتى عن تكليف

وامتحان ]

قالت العثمانية أن أفضل هذه الأمة وأولها بالإمامة أبو بكر بن أبي قحافة ، وكان أول ما دهم عند أنفسهم على فضيلته وخاصة منزلته وشيئته استحقاقه ، إسلامه على الوجه الذي لم يسلم عليه أحد من عائله وفي عصره . وذلك أن الناس اختلفوا في أول الناس إسلاماً ، فقال قوم : أبو بكر بن أبي قحافة ، وقال آخرون : زيد بن حارثة ، وقال نفرٌ : خباب بن الارت .

على أنه إذا تفقدنا أخبارهم ، وأحصينا أحاديثهم وعدد رجالهم ، وانظرنا في صحّة أسانيدهم ، كان الخبر في تقديم أبي بكرٍ أعمّ ، ورجاله أكثر ، وإسناده أصحّ ، وهم بذلك أشهر ، واللفظ به أظهر ، مع الأشعار الصحيحة والأخبار المستفيضة في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد وفاته . وليس بين الأشعار وبين الأخبار فرقٌ إذا امتنع في جيئها وأصل مخرجها التباعد والانفلاق والتواطؤ ، ولكننا ندع هذا المذهب [ جانباً ] ، ونضرب عنه صفحاً ، اقتداراً على

الحجة ، وثقة بالفلج والقوة ، ونقتصر على أدق منازل أبي بكر ، وننزل على حكم الخصم مع سرفه وميطة فنقول :

لما وجدنا من يزعم أن خباباً وزيداً أسلما قبله فأوسط الأمور وأعدتها وأقربها من حجة الجميع ورضا المجادل أن نجعل إسلامهم كان معاً ، إذ ادَّعوا أن الأخبار في ذلك متكافئة ، والآثار متدافعة ، [ وليس في الأشعار دلالة ، ولا في الأمثال حجة ] ، ولم يجدوا إحدى القضيتين أولى في حجة العقل من الأخرى .

[ ٣ - اسلام علي أتى عن تربية وتأديب لأنه أسلم وهو صغير ]

فصل : وقالوا : فإن قال قائل : فما بالكم لم تذكروا علياً في هذه الطبقة وقد تعلمون كثرة مقدميه والرواية فيه ؟

قلنا : لأننا قد علمنا بالوجه الصحيح ؛ والشهادة القائمة أنه أسلم وهو حدثٌ غرير ، وغلام صغير ، فلم نكذب الناقلين ، ولم نستطع أن ننزل أن إسلامه كان لاحقاً بإسلام البالغين ؛ لأن المقلل زعم أنه أسلم وهو ابن خمس سنين ، والمكثّر زعم أنه أسلم وهو ابن تسع سنين ، والقياس أن يؤخذ بأوسط الروايتين ، وبالأمر بين الأمرين ، وإنما تعرف [ حق ] ذلك من باطله بأن تُحصي سنيته التي ولي فيها ، وسني عثمان ، وسني عمر وسني أبي بكر ، وسني الهجرة ، ومقام النبي صلى الله عليه بمكة بعد أن دعا إلى الله وإلى رسالته إلى أن هاجر إلى المدينة ، ثم تنظر في أقاويل الناس في عمره ، وفي قول المقلل والمكثّر ، فتأخذ أوسطها وهو أعدلها ، وتطرح قول المقصر والغالي ، ثم تطرح ما حصل في يديك من أوسط ما روى من عمره [ و ] سنيته ، وسني عثمان وسني عمر وسني أبي بكر ، والهجرة ومقام النبي صلى الله عليه وسلم بمكة إلى وقت إسلامه ، فإذا فعلت ذلك وجدت الأمر على ما قلنا وعلى ما فسرنا .

وهذه التواريخ والأعمار معروفة لا يستطيع أحد جهلها والخلاف عليها ؛ لأن الذين نقلوا التاريخ لم يعتمدوا تفضيل بعض على بعض ، وليس يمكن ذلك

مع اختلاف عللهم وأسبابهم ، فإذا ثبت عندك بالذي أوضحنا وشرحنَا أنه كان يومئذ ابن سبع سنين أقل سنة أو أكثر سنة ، علمت بذلك أنه لو كان ايهاً ابن أكثر من ذلك بستين وثلاث وأربع لا يكون إسلامه إسلام المكلف العارف بفضيلة ما دخل فيه ، ونقصان ما خرج منه .

والتاريخُ المجتمع عليه أن علياً قُتِلَ سنة أربعين في شهر رمضان .

وقالوا : فإن قالوا فلعله وهو ابن سبع سنين وثمان سنين قد بلغ من فطنته وذكائه وصحة لُبِّه وصدق حسِّه وانكشاف العواقب له وإن لم يكن جربَ الأمور ، ولا فاتح الرجال ، ولا نازع الخصوم ، ما يعرف جميع ما يجب على البالغ معرفته والإقرار به .

#### [ ٤ - حكم الطباع هو الصحيح ]

قلنا : إنما نتكلم على ظاهر الأحكام وما شاهدنا عليه طباع الأطفال . وجدنا حكم ابن سبع سنين ، وثمان سنين وتسع سنين ، حيث قرأناه وبلغنا خبره - ما لم يُعلم مغيب أمره ، وخاصةً طباعه - حكم الأطفال ، وليس لنا أن نُزيلَ ظاهر حكمه والذي نعرف من شكله بلعل وعسى ؛ لأننا كنا لا ندري لعله قد كان ذا فضيلة في الفطنة ، فلعله أن يكون ذا نقص فيها . أجاب منهم بهذا الجواب من يجوز أن يكون عليٌّ في المغيب قد أسلم إسلام البالغ المختار ، غير أن الحكم فيه عنده على تجرئ أمثاله وأشكاله الذين إذا أسلموا وهم في مثل سنه كان إسلامهم على تربية الحاضن ، وتلقين القيم ، ورياضة السائس .

[ • - لو عرف علي هذا التمييز لكان آية من آيات الله كعيسى وذكربا ]

لصل : فأما علماء (العثمانية) ومتكلموهم ، وأهل القديم والرياسة منهم ، فإنهم قالوا : إن علياً لو كان وهو ابن ست سنين وسبع سنين ، وثمان سنين وتسع

سنين ، يعرف فضل ما بين الأنبياء والكهنة ، وفَرَّق ما بين الرسل والسحرة وفرق ما بين خبير المنجم والنبي ، وحتى يعرف الحجة من الخيلة ، وقهر الغلبة من قهر المعرفة ، ويعرف كيد المريب وبعث غور المتنبئ ، وكيف يلبس على العقلاء ، ويستميل عقول الذمماء ، ويعرف الممكن في الطبائع من الممتنع فيها ، وما يحدث بالاتفاق وما يحدث بالأسباب ، ويعرف أقدار القوي في مبلغ الخيلة ومُنتهى البطش ، وما لا يحتمل إحداؤه إلا الخالق ، وما يجوز على الله مما لا يجوز في توحيدِه وعدله ، وكيف التحفظ من الهوى ، وكيف الاحتراس من تقدم الخادع في الخيلة - كان كونه بهذه الحال وعلى هذه الصفة مع فرط الصبا والحدائث ، وقلة التجارب والممارسة ، خروجاً من نشوء العادة ، والمعروف مما عليه تركيب الأمة . ولو كان على هذه الصفة ومعه هذه الخاصية ، كان حجة على العامة ، وآية تدل على المبانيئة . ولم يكن الله ليخصه بمثل هذه الآية ويمثل هذه الأعجوبة إلا وهو يريد أن يجتج بها له ، ويخبر بها عنه ، ويجعلها قاطعة لعذر الشاهد ، وحجة على الغائب ، ولا يضيعها هدرًا ، ولا يكتُمها باطلاً .

[ ٦ - لو عرف علي التميز المبكر لاحتج هو بهذه الآية ولذكرها القرآن

والأخبار ]

ولو أراد الاحتجاج بها شهر أمرها وكشف قناعها ، وحمل النفوس على معرفتها ، وسخر اللسنة لنقلها ، والأسماع لإدراكها ، لثلاً يكون لغواً ساقطاً ، ونسياً منسياً ، لأن الله لا يبتدع أعجوبة ولا يخترع آية ولا ينقض العادة إلا للتعريف والإعذار ، والمصلحة والاستبصار . ولولا ذلك لم يكن لفعالها معنى ، ولا لرسالته حجة . والله يتعالى أن يترك الأمور سُدى ، والتدبير نَشراً . ولا يصل أحد إلى معرفة صدق نبي وكذب متنبئ حتى تجتمع له هذه المعارف التي ذكرنا ، وهذه الأسباب التي فصلنا .

ولولا أن الله سبحانه خبير عن يحيى بن زكريا أنه آتاه الحكم صبياً ، وأنه أنطق عيسى في المهدي رضيعاً ، ما كانا في الحكم ولا في الغيب إلا كسائر الرسل ،

وما عليه طبع البشر

فإذ لم ينطق لعليّ بذلك قرآن ، ولا جاء الخبر به عجيء الحجّة القاطعة ، والشهادة الصادقة ، فالمعلوم عندنا في الحكم وفي المغيّب جميعاً أن طباعه كطباع عمّيه حمزة والعباس وهما أمس بمعدن جماع الخير منه ، وكطباع جعفر وعقيل أخويه ، وكطباع أبويه ورجال عصره وسادة رهطه . ولو أن إنساناً ادّعى مثل ذلك لأخيه جعفر أو لعمة حمزة أو لعمة العباس - وهو حلیم قريش - ما كان عندنا في أمره إلاّ بمثل ما عندنا فيه .

فصل : ولو لم تعرف الروافض ومن ذهب مذهبها في هذا باطل هذه الدعوى ، وفساد هذا المعنى إذا صدقت أنفسها ولم تقلد رجالها ، وتحفظت من الهوى وآثرت التقوى ، [ إلاّ بترك ] عليّ ذكر ذلك لنفسه والاحتجاج به على خصمه وأهل دهره ، منذ نازع الرجال ، وخاصم الأكفاء ، وجامع أهل الشورى ووليّ ووليّ عليه ، والناس بين معانيد يحتاج إلى التقرّيع ، ومُرَادٌ يحتاج إلى الإرشاد ، ووليّ يحتاج إلى المسادة ، وغفل يحتاج إلى أن يُكثّر له من الحجّة ، ويُتابع له بين الأمارات والدلالات مع حاجة القرن الثاني إلى معرفة الحق ومعدن الأمر ، لأنّ الحجّة إذا لم تصحّ لعليّ في نفسه ، ولم يتقو على أهل دهره ، فهي عن ولده أعجز ، وعنهم أضعف .

ثم لم ينقل ناقل واحد أن علياً احتجّ بذلك في موقف ، ولا ذكره في مجلس ، ولا قام به خطيباً ، ولا أدلى به واثقاً ، ولا همس به إلى موافق ، ولا احتجّ به على مخالف .

فصل : وقد ذكر فضائله وفخر بقرابته وسابقته ، وكأثر بحاسنه ومواقفه ، منذ جامع الشورى وناضلهم ، إلى أن ابتلي بمساورة معاوية له ، وطمعه فيه ، وجلس أكثر أصحاب رسول الله عن عونه ، والشّد على عضده ، كما قال عامر الشعبي : لقد وقعت الفتنة وبالمدينة عشرون ألفاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما خفّ فيها منهم عشرون . ومن زعم أنه شهد الجمل من

شهد بدماء أكثر من أربعة فقد كذب . كان علي وعُمارة في شِقِّ ، وطلحة والزبير في شِقِّ .

وكيف يجوز عليه ترك الاحتجاج على المخالف وتشجيع الموافق وقد نصب نفسه للخاصة والعمامة ، وللمخاذل والعمادي ، ومن لا يحل له في دينه ترك الإعداء إليهم ، إذ اكان يرى أن قتلهم كان واجباً ، وقد نصبه الرسول مَفزَعاً ومَعْلَمًا ، ونص عليه قائماً ، وجعله للناس إماماً ، وأوجب طاعته ، وجعله حجة في الناس يقوم مقامه .

فصل : وأعجب من ذلك أنه لم يدع هذا له أحد في دهره كما لم يدعه لنفسه ، مع عظيم ما قالوا فيه في عسكره وبعد وفاته ، حتى يقول إنسان واحد إن الدليل على إمامته أن النبي صلى الله عليه وسلم دعاه إلى الإسلام ، فكلف التصديق قبل بلوغه وإدراكه ، ليكون ذلك آية له في عصره ، وحجة له ولولده على من بعده . وقد كان علي أعلم بالأمور من أن يدع ذكر أكبر حججه والذي بان به من شكله ، ويذكر أصغر حججه والذي يشاركه فيه غيره ، وقد كان في عسكره من لا يألو في الإفراط ، ومن يحسب أن الإفراط زيادة في القدر .

والعجب له ، إن كان الأمر كما ذكرتم ، كيف لم يقف يوم الجمل ويوم صفين أو يوم النهروان في موقف يكون من عدوه بمرأى ومسمع فيقول : « تبا لكم وتغساً ، كيف تقاتلونني وتجاهدون فضلي وقد خصصتُ بآية حتى كنتُ كبحي بن زكريا وعيسى بن مريم ، ولا يمتنع الناس من أن يقولوا ويموجوا ؛ فإذا ماجوا تكلموا على أقدارِ عملهم ، وعملهم مختلفة ، ولا ينسب أمرهم أن يعود إلى فرقة ، فمن ذاكر قد كان ناسياً ، ومن نازع قد كان مُصبراً ، وكم مترنح قد كان غالطاً ، مع ما كان يشيع من الحجة في الأفاق ، ويستفيض في الأطراف ، ويمتله الركبان ويُتهادى في المجالس .

فهذا كان أشد على طلحة والزبير ، وعائشة ومعاوية ، وعبد الله بن وهب ، من مائة ألف سنانٍ طرير ، وسيف مشهور .

فصل : ومعلوم عند ذوي التجربة والعارفين بطبائع الأتباع ، وعمل الأجناد ، أن  
المساكر تنتفض مرائرهما ويتشر أمرها ، وتنقلب على قاداتها بأيسر من هذه  
الحجة ، وأخفى من هذه الشهادة .

فصل : وقد علمتم ما صنعت المصاحف في طبائع أصحاب علي ، حين  
رفعها عمرو بن العاص أشد ما كان أصحاب علي استبصاراً في قتالهم ، ثم لم  
يتنفض على علي من أصحابه إلا أهل الجِدِّ والنَّجْدَةِ ، وأصحاب البرانس  
والبصيرة .

وكما علمتم من تحول شطر عسكر عبد الله بن وهب حين اعتزلوا مع فروة بن  
نوفل ، لكلمة سمعوها من عبد الله بن وهب كانت تدلُّ عندهم على ضعف  
الاستبصار والوهن في اليقين .

وهذا الباب أكثر من أن يحتاج مع ظهوره ومعرفة الناس به إلى أن نحسّوه  
كتابنا .

فصل : فأما إسلامه وهو حديث غريب وغلّام صغير ، فهذا ما لا ندفعه ،  
غير أنه إسلام تلقين وتأديب وتربية . وبين إسلام التكليف والامتحان وبين  
التلقين والتربية فرق عظيم ، وعمجة واضحة .

وقالت ( العثمانية ) : إن قالت الشيع : إن الأمور ليس كما حكيتم ، ولا  
كما هيأتموه لأنفسكم ، بل نزع أنه قد كانت هناك في أيام صباه وحدثته فضيلة  
فطنة ، ومزية ذكاء ، ولم يبلغ الأمر قدر الأعجوبة والآية .

قلنا : إن الذي ذهبتم إليه أيضاً لا بد فيه من أحد وجهين :

إما أن يكون قد كان لا يزال يُوجد في الصبيان مثله في الفطنة والذكاء وإن  
كان ذلك عزيزاً قليلاً ، أو كان وجود ذلك ممتنعاً ، ومن العادة خارجاً . فإذا كان  
قد كان يُوجد مثله على عزته وقلته فما كان إلا كبعض من نرى اليوم ممن يُتعجب  
من حسه وفطنته ، وحفظه وحكايته وسُرعة قبوله على صغر سنه وقلة تجريبه .

وإن كانت حاله هذه الحال ، وطبيعته على هذا المثال ، فإننا لم نجد صبيياً قط وإن أفرط كَيْسِه وحسنت فطنته وأعجب [ به ] أهله يحتمل ولاية الله سبحانه وعبادته ، والتَّمييز بين الأمور التي ذكرنا . مع أنه ما جاءنا ولا صحح عند أحد منا بخبر صادق ، ولا كتاب ناطق ، أنه كان لعلّ خاصةً دون قریش عامةً في صباه من إتقان الأمور وصحة المعارف وجودة المخارج ، ما لم يكن لأحد من إخوته وأعمامه وآبائه .

وإن كان القدر الذي كان عليه عليّ من الذكاء والمعرفة القدر الذي لم نجد له [ فيه ] مثلاً ، ولا رأينا له شِكْلاً - وهذا هو البديع الذي به يُحتج على المنكرين ، ويُفلج على المعارضين ، ويُبَيِّن للمسترشدين - فهذا باب قد فرغنا منه مرّة .

فصل : ولو كان الأمر في عليّ ما يقولون لكأن في ذلك حُجّة للرسول في رسالته ، ولعليّ في إمامته . والآية إذا كانت للرسول وخليفة الرسول كان أشهر لها ؛ لأن وضوح أمر الرسول يزيد على ما للإمام ويزيده إشراقاً واستنارة وبياناً . ولا يجوز أن يكون الله قد عرف أهل عصرهما ذلك ، وهم الشهداء على من بعدهم من القرون ثم يسقط حجته ؛ فلا تخلو تلك الحجة وتلك الشهادة من ضربين : إما أن تكون ضاعت وضلت ، وإما أن تكون قد قامت وظهرت .

فإن كانت قد ضاعت فلعلّ كثيراً من حُجج الرسول صلى الله عليه وسلم قد ضاع معها ، وما جعل الباقي منها أولى بالتّمام من السّاقط ، والساقط من شكل الثّابت . على أن مع الساقط خاصةً ليست مع الثّابت ، لأنّه حجة على شيئين ، والثّابت حجة على شيء . ولا يخلو أمر السّاقط من ضربين : إما أن يكون الله لم يُردّ تمامه ، أو يكون قد أَرادَه .

وأبيّ ذبّ [ كان ] ففساده واضح عند قارىء الكتاب .

وإن كانت الآية قد نمت إذ كانت الشهادة قد قامت علينا بها كما كانت شهادة العيان قائمة عليهم [ فيها ] فليس في الأرض عثمانياً إلا وهو يكابر عدّه

ولعمري إننا لنجد في الصبيان من لو لقتته وسدته أو كتبت له أغمض المعاني والطفها ، وأغوص الحجج وأبعدها ، وأكثرها لفظاً والطفها ، وأطولها ، ثم أخذته بدرسه وجفظه لحفظه جنفاً عجيباً ، ولهذه هذا ذليلاً . فأما معرفته صحيحة من سقيمه ، وحقه من باطله ، وفصل ما بين المقرب والدليل ، والاحتراس من حيث يؤق المخدوعون ، والتحفظ من مكر الخادعين ، وتأتى المجرب ، ورفق الساحر ، وخلاصة التنبيه ، وزجر الكاهن ، وإخبار المنجمين ، وفرق ما بين نظم القرآن وتأليفه ونظم سائر الكلام وتأليفه - فليس يعرف فروق النظر واختلاف البحث ، إلا من عرف القصيدة من الراجز ، والمخمس من الأسجاع ، والمزاج من المشور ، والخطب من الرسائل ، وحتى يعرف العجز العارض الذي يجوز ارتفاعه من العجز الذي هو صفة في الذات .

فإذا عرف صنوف التأليف عرف مبادئ نظم القرآن لسائر الكلام ، ثم لم يكتب بذلك حتى يعرف عجزه وعجز أمثاله عن مثله ، وأن حكم البشر حكم واحد في العجز الطبيعي وإن تفاوتوا في العجز العارض . وهذا ما لا يوجد عند صبي ابن سبع سنين وثمان سنين وتسع سنين أبداً ، عرف ذلك عارف أو جهله جاهل . ولا يجوز أن يعرف عارف معنى الرسالة إلا بعد الفراغ من هذه الوجوه ، إلا أن يجعل جاعل التقليد والنشر والإلف لما عليه الأباء وتعظيم الكبراء ، معرفةً وقيناً . وليس يفتن ما اضطرب ودخله الخلاج عند ورود معاني لعل وعسى ، وما لا يمكن في العقول إلا بحجة تُخرج القلب إلى اليقين عن التجويز .

ولقد أعيانا أن نجد هذه المعرفة إلا في الخاص من الرجال وأهل الكمال في الأدب ، فكيف بالطفل الصغير والحديث الغرير ؟ ! مع أنك لو أدت معاني بعض ما وصفت لك على أذكي صبي في الأرض وأسرعه قبولاً وأحسبه حكايةً وبياناً ، وقد سويته [ له ] ودلته ، وقربته [ منه ] وكففته مؤونة الرؤية ووحشة

الفكرة ، لم يعرف قدره ولا فصل بين حقه وبساطله ، ولا فرق بين الدلالة وشيبه الدلالة ، فكيف له بأن يكون هو المتوحي لتجربته وحل عقده ، وتخليص متشابهه ، واستنارته من معدنه ؟

وكل كلام خرج من التعارف فهو رجيح بهرج ، ولغو ساقط .

فصل : وقد نجد الصبي الذكي يعرف من العروض وجهاً ، ومن النحو صدرأ ، ومن الفرائض أبواباً ، ومن الغناء أصواتاً ، فأما العلم بأصول الأديان ومخارج الملل ، وتأويل الدين ، والتحفظ من البدع ، وقبول ذلك الكلام في حجاج العقول ، والتعديل والتجويز ، والعلم بالأخبار وتقدير الأشكال فليس هذا موجوداً إلا عند العلماء . فأما الحشوة والطفام فلنما هم أداة للقادة ، وجوارح للسادة . وإنما يعرف شدة الكلام في أصول الأديان من قد صلي به وعجمه ، وسلك في مضايقه ، وجائى الأضداد ، ونازع الأتقاء .

[ ٧ - أدلة الشيعة على قدم اسلام علي وفضله ورد العثمانية عليهم ]

فإن قالت ( الشيع ) : الدليل على أن إسلام علي كان اختياراً ولم يكن تلقيناً ، أن علياً أسلم بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم له ، وفي ذكر الدعاء والإقرار به دليل على أن الإجابة اختيار ، لأن المسلم بالدعاء مجيب للدعاء . ولا نعلم الدعاء يكون من حكيم مدعو ولا يختار ولا تحتل فطرته تميز الأمور وفصل ما بين ما دعا إليه وبين ما دعا إليه غيره . وليس بين قول القائل : دعا النبي صلى الله عليه فلاناً إلى الإسلام وبين قوله : كلف النبي صلى الله عليه وسلم فلاناً الإسلام فرق . وقول المسلمين : دعا النبي صلى الله عليه وسلم علياً كقولهم : دعا جميع العرب فيمن مجيب طائع كعلي ، ومن ممنع عاص كفلان وفلان .

قالت ( العثمانية ) عند ذلك : قد عرفنا أن بعضهم قد نقل أن علياً كان أول من أسلم ، وقد نقلوا بأجمعهم أنه كان أول من أسلم . وبين قول القائل أسلم

فلان أول الناس وبين أن يقول أسلم في أوائل الناس فرق . فأما أن يكون واحداً من جميع الصنفين من البعض والجميع فسر مع روايته وتخرج خبره كيف كان إسلامه ، أعلى وجه الدعاء والتكليف أم على وجه التلقين والتربية ، فلم نر أحداً منهم ميز ذلك ولا فرقه في تخرج الخبر . ونحن لم ندع أن إسلامه كان إسلام تلقين من قبل تفسير الناقلين وتمييز المحدثين ، ولكننا نظرنا في التاريخ فعرفنا عمره وابن كم كان يوم توفى ، وعرفنا موضع اختلافهم واجتماعهم ، فأخذنا أوسطه إذ كان أعدل ما فيه ، وأسقطنا قول من كثر وقل ، ثم ألقينا منه سببه إلى عام إسلامه فوجدنا ذلك يوجب أنه كان ابن سبع . ولو أخذنا أيضاً بقول المكثّر فجعلناه ابن تسع ، وتركتنا قول من قل وقول المقتصد ، علمنا بذلك أيضاً أن إسلامه كان إسلام تربية وتاديب وتلقين ، كما أخذ الله على المسلمين أن يأخذوا به أولادهم .

وقالت ( العثمانية ) للعلوية : إنما لم ندرع أنه أسلم وهو ابن سبع وجدنا ذلك قائماً في خبرهم مقلراً في شهادتهم ، ولكنه علم مستنبط من أخبارهم ، ومستخرج من آثارهم عند المقابلة والموازنة . ومثل ذلك لو أن رجلاً قال لرجل : أخذ عشرة في عشرة ، كان ذلك في المعنى كقوله : « أخذ مائة » ، وإن لم يكن سماها له ولا ذكرها بلسانه .

وقالوا : ولولا أن من شأننا الأخذ بالقسط ، والحكم بالعدل لأخذنا الشيع بقولهم في عمره ويقول ولده ، فإن أحدهما يزعم أن علياً توفى وهو ابن سبع وخمسين . وقال الآخرون : بل توفى وهو ابن ثمان وخمسين . ولو كان كما تقول الرافضة وولده ما كان أسلم إلا وهو ابن خمس أو ابن ست ، وهم لا يألون ، ما نقصوا من عمره وصغروا من سنه لكي يجعلوا إسلامه آية له وحجة على إمامته .

ولعمري لو كان الذين نقلوا أنه كان أول من أسلم نقلوا مع خبرهم أنه أسلم بالدعاء والتكليف ، لقد كان ما ذهبتم إليه مذهباً ، وما اعتصمتم به

متعلقاً ، ولكن ما في الأرض كلها حامل خبر ولا صاحب أثر كان في خبره أنه أسلم بدعاء ، ولا أنه أسلم بتلقين ، وإنما هذا مستخرج من الأخبار .

فإن قالت ( الروافض ) : بل الدليل على أن إسلامه كان طاعة ولم يكن تلقيناً قول جميع الأمة إن علياً كان من أول من أسلم ، فنفس قولهم أسلم هو كقولهم أطاع واختار ، وكذلك قولهم إذا قالوا : كفر فلان ، فهو كقولهم : عصا واختار ، وإن لم يفسروا . وليس بين قولهم أسلم فلان وكفر فلان فرق ، لأن المخبر الصادق إذا قال كفر فلان فحكمه عند السامع العداوة والبراءة . ولو قال أسلم فلان كان حكمه المحبة والولاية : فإذا كانوا كلهم قد قالوا : أسلم علي ، وحكم « أسلم » يثبت الاختيار وإجابة الولاية ، قبل أن يجمعوا على أنه كان على التلقين والتربية ، فعلياً على هذا القياس مطيع في إسلامه ، مختار له على غيره . وكذلك لو قالوا : كفر فلان ، كان حكمه حكم العاصي المختار حتى يجمعوا أن كفره كان عن إكراه أو غلط أو هيج بيرة ، أو هجر النائم ، أو تلقين المؤذب . فلما كان هذا قياساً موجباً صحيحاً ، لم يكن لأحد أن يجعل إسلام علي إسلام تلقين إلا بمثل الحجة التي جعلته بها مسلماً ، لأنهم قد أطبقوا بأجمعهم على إسلامه واختلفوا في السنة . فيجب ألا نزيل حكم « أسلم » إلا بإجماع منهم أنه كان عن تلقين وتربية .

قلنا لهم : لعمرى لو لم يكن ها هنا إجماع يُخبر أن إسلامه كان إسلام تلقين ونشو ، كان حكم قولهم أسلم علي على ما قلتم ، لا يُجحدون حكمه ولا تُظلمون معناكم فيه ، ولكن الذين قالوا إنه توفي وهو ابن كذا وكذا فأخذنا بأوسطها نقصوا من سنه فإذا هو قد أسلم وهو ابن سبع سنين . ولو أخذنا بقول المكثرب بخسنا القياس حظه كان أيضاً إسلامه وهو ابن تسع سنين إسلام تلقين . فيهم عرفنا تقدمه في الإسلام ، وبهم عرفنا صغر سنه وحدائته ، إذ كان الصبي إذا كان ابن خمس سنين إلى عشر سنين لا يُستتاب إن كفر ، ولا يُلام إن جهل ، ولا يعذب إن ضيع . فإذا كانوا بأجمعهم قد قالوا إنه أسلم وهو ابن

خمسٍ أو ستٍ أو ثمانٍ أو سبعٍ ، فقد قالوا بأجمعهم إنه أسلمَ إسلام تلقين وإن لم يقولوا بأفواههم ، كما قلتُم إن قول القائل كفر فلانٌ وأسلم فلان - وإن لم يذكره - [ حكمٌ ] بالطاعة والمعصية .

قلنا : فكذلك إذا قال رجلٌ أسلم فلانٌ وهو ابن سبع سنين أو ثمانٍ أو تسع ، فقد قال إن إسلامه كان إسلام تلقين وإن لم يذكره ولم يتفوه به كما قلتُم ، حَدُّو القُدَّةَ بالقُدَّةِ ، والنَّعلِ بالنَّعلِ . فإذا ثبت أن إسلامَ عليٍّ إسلامُ تلقين في ذلك الدهر فإسلام زيدٍ وخبَّابٍ أفضلٌ من إسلامه . ولو أن علياً كان أيضاً بالغاً كان إسلامُ زيدٍ وخبَّابٍ أفضلٌ من إسلامه ، لأن إسلامَ المقتضِبِ الذي لم يُغذَّ به ولم يُعوِّده ولم يُمرَّنْ عليه ، أفضلٌ من إسلامِ الناشئ الذي قد رَبَّى فيه ونشأ عليه وخبَّبَ إليه ؛ لأنَّ خبَّاباً وزيداً يعانيان من الفكر ويتخلَّصان إلى أمور ، وصاحب التَّربية يبلغ حين يبلغ وقد أسقطَ إلفه عنه مؤونة الرويَّةِ ، والخِطَّارَ بالجهالةِ ، وقد أورثه الإلفُ السُّكونَ ، وكفاهُ اختلاجُ الشُّكِّ ، واضطرابُ النَّفسِ وجَوْلانُ القلبِ .

فصل : ولو كان عليٌّ أيضاً بالغاً وكان مقتضِباً كزيدٍ وخبَّابٍ لم يكن إسلامه ليبلغ قدر إسلامهما ، لأنَّ إسلام التَّربية يكفي مؤونتين : إحداهما الخِطَّار والتَّغْيِيرُ ، والأخرى شِدَّةُ فراقِ الإلفِ ومكابدة العادة ، ونزاع الطَّبِيعَةِ ، مع أن من كان بِحَضْرَةِ الأعلامِ وفي منزلِ الوحي ، وفي رحالِ الرُّسُلِ فالأعلامُ له أشدُّ انكشافاً ، والخواطرُ على قلبه أقلُّ اعتلاجاً . وعلى قَدْرِ الكُلْفَةِ في دَفْعِ الشُّبْهَةِ والإقرارِ بخلافِ الإلفِ والعادةِ ، والمخاطرةِ باعتقادِ الجهالةِ ، يعظُمُ الفُضْلُ ، ويكثُرُ الأجرُ .

[ ٨ - أسلم علي وهو يعلم أن له ظهراً بحميه ]

ولو كان أيضاً عليٌّ أسلمَ بالغاً مدبركاً ، وكان مع إدراكه وبلوغه كهلاً ، وكان مع كهولته مُقتَضِباً كان إسلامُ زيدٍ وخبَّابٍ أفضلٌ من إسلامه ، لأنَّ مَنْ

أسلم وهو يعلم أن له ظهراً كابي طالب ، وردة كابي هاشم ، وموضِعاً في بني عبد المطّاب ، ليس كالحليف ولا المولى ، والنزِيل والتابع والعسيف ، وكالرجل من عُرْطُض قريش وقاطِني مكة . [ أ ] وما علمت أن قريشاً خاصّة وأهل مكة عامّة لم يقدرُوا على أدّى النبي صلى الله عليه ما كان أبو طالب حياً قائماً ؟ ! ولقد منع أبو طالب أبا سلمة بن عبد الأسد المخزوميّ لأنه كان ابن أخيه ، فما قدّرت بنو مخزومٍ مع خيلائها وعُرامِ شبابها ، ومع عِزّها وشدة عداوتها أن تُخصّص منه شعرة ولا تُسمعه كلمة حتى مشت إليه بأجمعها ، للذّي ترى له في أنفسها ، فكان من قولهم له : هذا ابنُ أخيك قد فرّق جماعتنا وسفّه أحلامنا وشمّ أهتنا وقد منعتنا منا ، فما بال صاحبنا ؟ قال : من لم يمنع ابن أخته لم يمنع ابن أخيه !

فإذا كانت قريش وأهل مكة لا يقدرُون على ابن أخيه وابن أخته معه فهم عن ابنه أعجز ، وعنه أقعد ، وله أعمى ، وهو لا يينه أحضرٌ نصراً وأشدُّ غضباً ، وأحمى أنفاً ، وليس الممنوع كالمخدول ، ولا الضعيف كالقويّ ، ولا الأيمن كالحائف . فإذا كان إسلام زيد وخبّاب أفضل من إسلامه في ذلك الدهر كما عدّدنا من الطبّقات ، ورتبنا من المنازل ، ونزلنا من الحالات ، فإسلام أبي بكر أفضل من إسلامها ، فقد سقطت المنازعة ، وارتفعت الخصومة عند من فهم كتابنا ولم يمنع نفسه الحظّ بصحبتنا ، لفرط التباين وعظم الفرق .

[ ٩ - كان أبو بكر ذا ثراء وجاه فلم يخش عليها بينما لم يكن عليّ ذا مال فيخشي عليه ]

فصل : والدليل على أن إسلام أبي بكر كان أفضل من إسلام زيد وخبّاب أن زيدا كان رجلاً غير مذکور بعلم ، ولا مُزَنّ بمال ، ولا مغشيّ المجلس ، ولا مَرُور الرُّحْل ، وكذلك كان خبّاب . وكان أبو بكر رضي الله عنه أعلم العرب بالعرب كلّهم ، وأرواها لمناقبها ومثالبها ، وأعرفها بخيرها وشرّها ، ولذلك قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لحسان مع بنّ حسانٍ وعلمه وتحاكم الشعراء إليه ،

حيث أمره النبي عليه السلام أن يهجو أبا سفيان بن الحارث ، وحيث قال له :  
« أَمْجُهُمْ وَمَعَكَ رُوحُ الْقُدْسِ » . وحيث قال له : هَيْجُ الْفَطَارِيفِ عَلَى بَنِي عَبْدِ  
مَنَافٍ - فِي قَتْلِ أَبِي أَرْيَيْرٍ - وَالْقَى أَبَا بَكْرٍ فَإِنَّهُ أَعْلَمُ النَّاسَ بِهِمْ .

فصل : ولذلك كان جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ أَعْلَمَ قُرَيْشٍ بِالْعَرَبِ بَعْدَ أَبِي بَكْرٍ ،  
لأنه كان المتولي لتأديبه وتثقيفه ، وقد كان أبو بكر قد سُمِّيَ عَائِشَةً ، للذي رأى  
من حُسْنِ أثره عليه .

وكان أبو بكر ، مع علمه بالناس وحسن معرفته ، ذا مالٍ كثير ووجه  
عريض ، وتجارة واسعة ، وكان جميلاً عتيقاً ، ومزوراً مغشياً ، ومحياً اديباً ،  
صاحب ضيافات ، ويُعِينُ فِي الْحَمَالَاتِ ، ويجتمع إلى مجلسه كبراء أهل مكة ، لما  
يُجِدُونَ عنده من طريف الحديث وغريب الشعر ، حتى كان مثلُ عُنْبَةَ وَمُشَيْبَةَ  
يُجْلِسَانِ إِلَيْهِ ، وَيُعْجَبَانِ بِحَدِيثِهِ ، ثم يتخذ لهم ما يتحدثون عليه ويطول مجلسهم  
به ، من شراب العسل والزبيب واللبن ، فكانت قريش بعد إسلام أبي بكر  
وكثرة مستجبيه بمكة تريد تنفير عتبة بن ربيعة من مجلسه وإيجاشه منه ، مخافة أن  
يستميله بحسن دعائه ، وتأثيره ورقيقته ، ورقيقة دموعه وشدة خشوعه فتقول له : أما  
إنك ما تأتي ابنَ أبي قحافة إلا لطيب عسله وإلا لمدقته ، وإنما نفره بهذا وشبهه  
لأنه كان ذا عيالٍ ثَمَلِقاً ثَقِيلَ الْمُؤُونَةِ ، خفيف ذات اليد ، مع بسنه وسؤدده وجليله  
ورأيه .

ولا سواء إسلام ذِي الْبِرِّ وَالْمَالِ الدُّنْثَرِ ، المنفقِ حَرِيرَةَ كَسْبِهِ وَعَقِيلَةَ  
بُلْكَهِ ، والمفرقِ عنه جمعُه والموجش منه أنيسه ، الخارج من عز الغنى وكثرة  
الصديق ، إلى ذل القلة وعجز الفاقة ، وإسلام مَنْ لَا حَرَكَاتَ بِهِ وَلَا جَدَا عِنْدَهُ ،  
تابع غير متبوع ، ومستجد غير مجيد ؛ لأن من أشد ما يُبْتَلَى بِهِ الْكَرِيمُ السُّبُّ بَعْدَ  
التَّحِيَّةِ ، والضرب بعد الهية ، والعز بعد البر .

ولا سواء إسلام العالم الأديب الأريب ، ذِي الرَّأْيِ السَّدِيدِ ، وإسلام

غيره .

ثم كَانَ دَاعِيَةً من دَعَاةِ الرَّسُولِ مَقْبُولِ الْقَوْلِ ، مَتَّبِعِ الرَّأْيِ . وَمَنْ كَانَ فِي صِفَةِ أَبِي بَكْرٍ فَالْخَوْفُ عَلَيْهِ أَشَدَّ ، وَالْمَكْرَهُهُ إِلَيْهِ أَسْرَعُ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَلَى ظَهْرِهَا عَدُوًّا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا وَأَبُو بَكْرٍ يَتْلُوهُ عِنْدَهُ فِي الْعِدَاوَةِ .

وَلَا سِوَاةَ إِسْلَامٍ مِنْ أَسْلَمَ عَلَى أَنْ يَمُوتَ وَيَكْلَفَ ، وَإِسْلَامٌ مِنْ كَانَ يُمَانُ قَبْلَ إِسْلَامِهِ وَيَكْلَفُ بَعْدَ إِسْلَامِهِ .

وَلَا سِوَاةَ إِسْلَامِ الْكَهْلِ النَّبِيهِ الَّذِي يَحْسُنُ عِنْدَ قَرِيشٍ مَطَالِبَتَهُ ، وَلَا يَسْتَحْيُ مِنْ طَلَبِ الشَّارِ عِنْدَهُ ، وَإِسْلَامٌ الْحَدِيثِ الَّذِي لَا يَبْقَى بَعْدَاوَةَ الْجِلَّةِ ، وَلَا تَسْتَجِيزَ مَجَازَاتِهِ الْعَلِيَّةِ .

#### [ ١٠ - أَبُو بَكْرٍ تَحْمَلُ التَّنْكِيلَ فِي سَبِيلِ الْإِسْلَامِ بَيْنَمَا عَلِيٌّ وَادِعُ الْبَالِ ]

ثُمَّ كَانَ الَّذِي يَلْقَى أَبُو بَكْرٍ فِي اللَّهِ وَرَسُولَهُ بِيَسْطَنَ مَكَّةَ ، وَعَلِيٌّ حَلِيَّ الرَّوْعِ ، آمِنَ السَّرْبِ رِخِيَّ الْبَالِ ، كَمَا لَقِيَ يَوْمَ دَعَا طَلْحَةَ إِلَى الْإِسْلَامِ فَأَسْلَمَ وَمَضَى بِهِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَخَذَلَهَا تَيْمًا ، وَأَخَذَهَا نَوْفَلُ بْنُ خُوَيْلِدِ بْنِ أَسَدٍ - فَأَمَّا ابْنُ إِسْحَاقَ فَرَزَعَمَ أَنَّهُ كَانَ مِنْ شَيَاطِينِ قَرِيشٍ . وَأَمَّا الْوَاقِدِيُّ وَغَيْرُهُ فَرَزَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ يَلْقَبُ أَسَدَ قَرِيشٍ ، وَهُوَ الَّذِي يَقَالُ لَهُ ابْنُ الْعَدْوِيَّةِ - فَقَرَنُهَا فِي حَبْلِ ، وَفَتَنُهَا عَنْ دِينِهَا وَعَدُّبُهَا ، فَلِذَلِكَ سَمِيَ أَبُو بَكْرٍ وَطَلْحَةَ « الْقَرِينَيْنِ » .

وَأَبُو بَكْرٍ الَّذِي قَامَ دُونَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ وَقَدْ اعْتَوَرَهُ الْمُشْرِكُونَ حِينَ قَالَ : « أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالذُّبْحِ ! ! » قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَيَلَكُمْ ، أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ! فَصَدَعُوا فُودِي رَأْسِهِ .

ثُمَّ الَّذِي لَقِيَ فِي مَسْجِدِهِ الَّذِي كَانَ بِنَاءَهُ عَلَى بَابِهِ فِي بَنِي جَمَحٍ ، وَحَيْثُ رَدُّ الْجَوَارِ وَقَالَ : لَا أُرِيدُ جَارًا سِوَى اللَّهِ . وَقَدْ كَانَ بَنَى مَسْجِدًا يَصَلِّي فِيهِ وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَلَهُ صَوْتُ رَقِيقٍ وَوَجْهٌ عَتِيقٌ ، فَكَانَ إِذَا قَرَأَ

وبكى ، وقعت عليه المارة والنساء والصبيان والمبيد ، فلما أُوذِيَ في الله حتى بلغ  
جُهدِه استأذَن النبي صلى الله عليه في الهجرة ، فأذن له ، فأقبل يريده المدينة  
فتلقاه الكِنَانِيُّ سَيِّدَ الأحابيش ، فعقد له جواراً وقال : والله لا أدع مثلك يخرج  
من بين أخشبي مكة . فرجع وقد عقد له الكِنَانِيُّ جواراً ، كل ذلك رغبة في  
قُرب النبي صلى الله عليه ، فلما رجع إلى مكة عاد إلى مسجده وصنيعه ، فمشت  
قريش إلى جاره وعظّموا الأمرَ عنده وأجلبوا عليه فقالوا : قد أفسد أحداثنا ،  
وعبيدنا وإماءنا ونساءنا ، في منازلنا ! فمضى إليه الكِنَانِيُّ وقال : ليس على هذا  
أعطيتك الجوار ، ادخل بيتك واصنع فيه ما بدا لك ا قال له أبو بكر : أو أريدُ  
عليك جوارك وأرضي بجوار الله ؟ فلما قطع الجوار وتراذوا العهد وتباريا لقي أبو  
بكر رضي الله عنه من الأذى والذُّلَّ والضرب والاستخفاف ما بلفك ، وهو أمرٌ  
موجود في جميع السَّير . وليس المفتون كالوادع ، قال الله سبحانه : ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ  
مِنَ الْقَتْلِ ﴾ . وذلك أن المشركين كانوا قد صاروا إلى أن يفتنوا النَّاسَ عن دينهم  
بالتَّعذيب ، والمسلمون نفرُّ يسير ، قد خذلهم عشائرتهم ، وأسلمتهم أهلهم ،  
فألقوا حُبَاباً على الرُّضف حتى ذهب ماء منته . وكان أبو ذرٍّ حليفاً مستضعفاً  
فكان يدخل بالنهار في خلال أشجار الكهبة ويخرج بالليل مستخفياً ، وكانت بنو  
مخزومٍ تعذب عمّاراً وأباه وأمه برمضاء مكة ، فيمرُّ بهم النبي صلى الله عليه  
وسلم فيقول : « صبراً آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة . » فذكر عمّار عند ذلك  
جياذ أبي بكر لبلال حين اعتقه من العذاب فيمن أعتق ، فقال :

جَزَى اللَّهُ خَيْراً عَنِ بِلَالٍ وَدِينِهِ . عَتِيقاً وَأَخْرَجِي فَاجِهاً وَأَبَا جَهْلٍ

وقال سعيد بن جبير: قلت لعبد الله بن عباس: أكان المشركون يبلغون من  
أصحاب رسول الله صلى الله عليه من العذاب ما يُعذرون به في ترك دينهم ؟  
قال : والله إن كانوا ليضربون أحدهم ويُعطشونه حتى لا يقدر أن يستوي جالساً  
من الجهد ، حتى إن كان أحدهم ليعطيهم الذي سألوه ، من الفتنة ، وحتى يقال  
له : اللات والعزى إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم . وحتى إن جعل ليمرُّ

بهم فيقال له : هذا إهلك ؟ فيقول : نعم .

فلو كان عليُّ بن أبي طالبٍ قد ساوى أبا بكرٍ في الإسلام لقد كان فضله أبو بكرٍ بأن أعتق من المفدّين المفتونين بمكّة ، وحقّ [ و ] لم يكن غير ذلك لكان لحاقه عسيراً ، ولو كان ذلك يوماً واحداً لكان عظيماً ، فكيف وكان بين ظهور النبي عليه السلام ودعائه إلى أن هاجر إلى المدينة ثلاث عشرة سنة ، في كل ذلك أبو بكرٍ وخبّابٌ وأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يتجرعون المرارَ وعليٌّ وادعُ رافه ، غير طالبٍ ولا مطلوبٍ وليس أنه لم يكن في طباعه النجدة والشهامة ، وفي غريزته الدفّع والحماية ، ومن أكرم عنصرٍ وأطيب مغرّس ، ولكن لم تكن ثمت له أداته ، ولم تستجمع له قواه ولم تتكامل آدابه ، لأنّ العقل وإن اشتدّ مغرزه وثبت أواخيه وجاد نحته فإنه لا يبلغ بنفسه ذرّك الغاية ، دون كثرة السماع والتجربة ، ولأنّ رجال الطلّب وأصحاب الشار وأهل السنّ والقدر يغمطون ذا الخدائنة ، ويؤزرون علي [ ذي ] الصبّا والغرارة إلى أن يلحق بالرجال ويصير من الأكفاء . حقّ كان آخر ما لقي هو وأهله في أمر النار ، وقد طلبته قريشٌ وجعلت فيه مائة بعير كما جعلت في النبي صلى الله عليه وسلم ، فلقي أبو جهل أسماء بنت أبي بكر - وهي ذات النطاقين - منصرّفاً من الغار ، فسألها فكتمه فلطمها ، فقالت أسماء : لقد لطمني لطمَةً أنذرَ منها قرطاً كان في أذني .

[ ١١ - أبو بكر يدعو الناس إلى الإسلام فيستجاب له ويعتق العبيد ]

فصل : ثم الذي كان من دعائه إلى الإسلام وحسن احتجابه حتى أسلم على يديه طلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن وعثمان ، لأنه ساعة ما أسلم دعا إلى الله ورسوله ، وكان مألُفاً ، لأدبه وعلمه ورُحّب عَطنه .

وقالت أسماء : وما عرفتُ أبي إلا وهو يدين بالدين ، ولقد رجع إلينا يوم أسلم فدعانا إلى الإسلام فما رمنا حتى أسلمنا وأسلم أكثر جلسائه ، ولذلك قالوا : لئن أسلم بدعاء أبي بكرٍ أكثرُ ممن أسلم بالسيف . ولم يذهبوا من قولهم إلى العدد

بل عنوا الكثرة في القدر ، لأن من أسلم على يده خمسة من الشورى ، كلهم يفي بالخلافة ، وهم أكفاء علي ومنازعوه الرياسة والإمامة ، فقد أسلم على يده أكثر من أسلم بالسيف ، لأن هؤلاء أكثر من جميع الناس .

فصل : وممن أسلم على يده بلال ، وهو الذي يقول فيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « بلال سيدنا ومولى سيدنا » . ورووا أنه قال : « أبو بكر سيدنا واعتق سيدنا » وقال النبي صلى الله عليه وسلم : بلال سابق الحبش ، وبلال « مولى أبي بكر » ثلاث مرات . أسلم على يده فأعتقه من رق الكفر ، وأعتقه من رق العذاب حيث كان يفتن في الله ورسوله ، وأعتقه من رق العبودية .

وكان من قصة بلال أنه كان عبداً لبني جُمح وكانت دار أبي بكر ومسجده في حي جُمح ، ولم يكن يبطن مكة مسجداً سواه ، فلما سمع دعوة أبي بكر أسلم وحده فلما سمع أمية بن خلف فكان يخرجهم إذا حيت الظهيرة فيطرخه على ظهره ببطحاء مكة ، ثم يضع صخرة على صدره ، ثم يحلف بالله لا ينزعها عن صدره أو يكفر بمحمد والله ويؤمن بالثلاث والعزى ! وبلال يابى وهو يقول : أحد أحد ! وكان يمر به ورقة بن نوفل فيقول : نعم يا بلال ، أحد أحد ! فمر به أبو بكر وهو يريد داره في بني جُمح ، فرأى أمية وما يصنع ببلال ، فقال : ألا تتقي الله ؟ إلى متى تعذب هذا المسكين ؟ ! قال : أنت أفسدته ! يعني أنت دعوته حتى أسلم - فأنقذه ! قال أبو بكر : عندي غلام أسود جلد ، على دينك ، أعطيكه وأخذه . فأعتقه . فهو عتيقه ثلاث مرات .

ثم أعتق بعد ذلك من المعتدين في الله ست رقاب ، منهم عامر بن فهيرة ، شهد بدرًا وهاجر مع رسول الله عليه السلام وأبي بكر ، لأنه كان في موضع الثقة ، حيث خرجا إلى الغار هاربين من المشركين متوجهين إلى المدينة . واستشهد يوم بدر معونة .

وأعتق زبيرة ثلاث مرات ، فلما اشتراها وأعتقها ذهب بصرها ، وكانت

تُعَذَّبُ فِي اللَّهِ فَيَمْنُ يُعَذَّبُ بِمَكَّةَ ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ : مَا أَذْهَبَ بَصَرَهَا إِلَّا اللَّاتُ  
وَالْعُزَّىٰ ! قَالَتْ : كَذَبُوا مَا يُضْرَانِ وَلَا يَنْفَعَانِ ! فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهَا بَصَرَهَا . فَرَزَعُمُ  
الزُّهْرِيُّ أَنَّ مَوْلَيْنِ لَابْنِ الْغَيْطَلَةِ أَسْلَمَا حِينَ رَدَّ اللَّهُ عَلَيْهَا بَصَرَهَا . وَقَالَا : هَذَا  
بَلَاءُ شَلِّكَ مِنْ إِلَهٍ مُحَمَّدٍ وَابْنِ أَبِي قُحَافَةَ !

ثم أعتق النهدية وابتنتها وقد كانتا تعذبان في الله ، وكانتا لامرأة من بني  
عبد الدار ، ومرَّ بهما أبو بكر وقد بعثت العبدية معها بطحين وهي تقول : والله  
لا أعتقكما أبداً . قال أبو بكر : جلاً يا أم فلانٍ ؟ قالت : جلاً ! أنت أفسدتها  
فأعتقها . قال : فبكأين هما يا أم فلانٍ ؟ قالت : بكذا وكذا . قال : فقد  
أخذتها ، وهما حرتان ، أرجعا إليها طحينها . قالت : أو تُفْرِغُ مِنْهُ يَا أبا بكرٍ ؟  
قال : وذلك إن شئتيا .

ومرَّ بجارية بني مؤمل - حيٍّ من بني عدي بن كعب - وعمرُ بن الخطاب  
يعذبها لترك الإسلام ، وهو يضربها فإذا ملَّ قال : اعتذر إليك إنِّي لم أتركك إلا  
ملاة ! فابتاعها فأعتقها .

وأعتق أم عبيس .

فقال له أبو قحافة : أي بُنيُّ ، أراك تعيق رقاباً ضعافاً ، فلو أنك إذ فعلت  
أعتقت رجلاً جُلداً منموك وقاموا دونك ؟ قال : يا أبتِ إنما أعتق المعدبين !  
فأنزل الله : ﴿ أَمَا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى . وَصَلَّى بِالْحُسْنَى ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَا  
لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى . إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى . وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ .  
فتفهَّم معنى قوله : ﴿ وَمَا لَأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى . إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ  
الْأَعْلَى ﴾ وتفهم معنى قوله : ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ .

[ ١٢ - أبو بكر أنفق ماله في سبيل الإسلام بينما لم يكن لعل مأل فينفقه ]

وقد سمعت قول الله سبحانه حيث خاطب جماعة المسلمين وذكر الأموال  
وعظم قدرها في عُيونهم ، وشدة إخراجها عليهم ، وأنه لو كلفهم ذلك لأخرجهم

يُثَقِّلُ التَّكْلِيفَ إِلَى غَايَةِ الْبُخْلِ بِهَا وَالشُّعْ عَلَيْهِمَا ، وَالْإِيثَارَ لِحِسْبِهَا فَقَالَ : ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَذَعُوا إِلَى السُّلْمِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتْرُكَكُمْ أَعْمَالَكُمْ . إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهْوُ ، وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ ﴾ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ . إِنْ يَسْأَلْكُمْ فِيهَا فَبِحِفْظِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴾ . فَتَفَهُمُ مَعْنَى هَذَا الْكَلَامِ وَأَنَّ اللَّهَ لَمْ يُنْزِلْهُ عَبَثًا . ثُمَّ قَالَ : ﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتَتَّقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَيْنَكُمْ مَنْ يَتَّخِلُ وَمَنْ يَبْخُلُ فَلِئِمَّا يَبْخُلَ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾ . أَلَا تَرَاهُ خَاطَبَ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ : ﴿ وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ إِنْ يَسْأَلْكُمْ فِيهَا فَبِحِفْظِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴾ .

ثُمَّ قَدْ عَلِمْتُمْ مَا قَدْ صَنَعَ أَبُو بَكْرٍ بِمَالِهِ ، وَكَانَ الْمَالُ أَرْبَعِينَ أَلْفًا فَأَنْفَقَهُ عَلَى نَوَائِبِ الْإِسْلَامِ وَحَقُوقِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ مَالُهُ مِيرَاثًا لَمْ يَكُدْ فِيهِ فَهُوَ غَزِيرٌ لَا يَشْعُرُ بِعُسْرِ اجْتِمَاعِهِ وَامْتِنَاعِ رَجُوعِهِ ، وَلَا كَانَ هِبَةً مِلْكٍ فَيَكُونُ أَسْمَحَ لَطِيعَتِهِ وَأَخْرَقَ فِي إِنْفَاقِهِ ، بَلْ كَانَ ثَمَرَةً كَدَّهُ وَكَسَبَ جَوْلَاتِهِ وَتَعَرَّضَهُ . ثُمَّ لَمْ يَكُنْ خَفِيفَ الظُّهْرِ قَلِيلَ النُّسْلِ قَلِيلَ الْعِيَالِ ، فَيَكُونُ قَدْ جَمَعَ الْيَسَارِينَ ؛ [ لِأَنَّ الْمَثَلَ الصَّحِيحَ السَّائِرُ : قَلَّةُ الْعِيَالِ أَحَدُ الْيَسَارِينَ ] بَلْ كَانَ ذَلِ بْنِ وَبَنَاتٍ وَزَوْجَةٍ وَخَدَمٍ وَأَحْشَامٍ ، يَعُولُ مَعَ ذَلِكَ أَبَوَيْهِ وَمَا وَلَدًا ، وَلَمْ يَكُنْ فَتَى حَدَثًا فَتَهْرَهُ أَرْبَعِيَّةَ الشُّبَابِ وَغَرَارَةَ الْحَدَاثَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ بِحَدَاثِ إِنْفَاقِهِ طَمَعٌ يَدْعُوهُ ، وَلَا رَغْبَةٌ تَحْدُوهُ ، وَلَمْ يَكُنْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ ذَلِكَ عِنْدَهُ يَدٌ مَشْهُورَةٌ فَيَخَافُ الْعَارَ فِي تَرْكِ مَوَاسَاتِهِ وَإِنْفَاقِهِ عَلَيْهِ ، وَلَا كَانَ مِنْ رَهْطِهِ ذُنْبًا فَيَسِبُّ بِتَرْكِ مَكَانَفَتِهِ وَمَعَاوَنَتِهِ وَإِرْفَاقِهِ . فَكَانَ [ إِنْفَاقُهُ ] عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي لَا نَجْدَ أَيْلَافَ فِي غَايَةِ الْفَضْلِ مِنْهُ ، وَلَا أَدْلُ عَلَى غَايَةِ الصُّدُقِ وَالْبَصِيرَةِ مِنْهُ .

وَقَدْ تَعْلَمُونَ مَا كَانَ يَلْقَى أَصْحَابُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَيْطُنَ مَكَّةَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وَقَدْ تَعْلَمُونَ حُسْنَ صَنِيعِ كَثِيرٍ مِنْهُمْ ، كَصَنِيعِ حَمْزَةَ حِينَ ضَرَبَ أَبَا جَهْلٍ بِقَوْسِهِ ، فَبَلَغَ فِي هَامَتِهِ ، فِي نَصْرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَبُو جَهْلٍ يَوْمَئِذٍ أَمْنَعُ الْبَطْحَاءِ ، وَهُوَ رَأْسُ الْكُفْرِ .

ثم صنيع عمر حيث يقول يوم أسلم : « والله لا يُعبَد الله سراً بعد اليوم ! » حتى قال بعد موته عبدُ الله بن مسعود : « ما صلينا ظاهرين حتى أسلم عمر » .

ثم كان الذي لقي في ذلك اليوم بعينه من المشركين ، ثم مضيه من فوره حتى يقرع على أبي جهل الباب ، فلما حَسَّ به أبو جهل خرج إليه وهو يقول : مرحباً بابن أختنا - وكانت أمه خنثمة بنت هاشم ذي الرُحَين ابن المغيرة - قال : أتدري ما صرتُ بعدك يا أبا الحكم ! قال : خير ، فليكن . قال : إنه خير ، إنِّي آمنت بالله وبرسوله وخلعت الأنداد ، وجعلت اللات والعزى ، وصدقت محمداً . قال : فلا قُرب الله قرابتك !!

الأ ترى إلى قوة شهامته وجلده ، وصدق نيته في كشف القناع ، والمبادأة لرأس الكفر وسيد البطحاء عند نفسه ورهطه .

وقوله بعد ذلك لجميع المشركين : أما والله لو قد صرنا مائة لتركتموها لنا أو تركناها لكم - يعني مكة .

ثم صنيع [ الزبير ] في سلته السيف شاداً به مستقبل المشركين ، يريد خبط من لقيه منهم ، فتلقاء النبي صلى الله عليه مقبلاً فقال : مالك يا زبير ؟ ! قال : بآبي أنت وأمي ، سمعت قائلاً يقول : قد أخذ محمدٌ وأوذني ! فكان أول من شَهَرَ سيفاً في الإسلام .

ثم صنيع سعدٍ وضربه عظيماً من عظماتهم على أمِّ ربيعة بلحى بعير ، فكان أول من أراق دماً في الإسلام . وهو الذي يقول لرُسلِ عليٍّ حين أتوه يدعونه إلى بيعته : ثكلتني أمي ، لئن كنت مع رسول الله صلى الله عليه سادس ستة ما لنا طعامٌ إلا ورق البشام ، ثم جاءني أعراب الأوس تعلمني دين الله ؟ !

والنما ذكرت لك هذا لتعلم أقدار القوم والذي لُقوا من الجهد والخوف . والذل والتطراد والضرب . ولم نسمع لعليٍّ في جميع ذلك ذكراً .

ولم يكن ذلك المكروه سنة ولا ستين ، ولكن ثلاث عشرة سنة ، وهذا أمر لا يُلحق ولا يُدرِك الفاتت منه ، كما قال الله : ﴿ لا يَسْتَوِي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاً وعدَّ الله الحسنى ﴾ .

فإذا كان من أنفق وقاتل قبل الفتح أعظم درجة ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا هجرة بعد الفتح » ، فما ظنك بمن قاتل وأنفق قبل الهجرة . ومن لدن مبعث النبي صلى الله عليه إلى الهجرة أعظم من القيام بأمر الإسلام بعد الهجرة ، [ و ] أفضل من القيام بأمر الإسلام بعد الفتح .

[ ١٣ - قتال علي في سبيل الإسلام لا يضارع احتمال أبي بكر ]

فإن قالوا : قد عرفنا أن أبا بكر قد أنفق قبل الهجرة ولا نعرفه قاتل قبل الهجرة ، فقتال علي بعد الهجرة أفضل من إنفاق أبي بكر قبل الهجرة . قلنا : إن أبا بكر وإن لم يقاتل قبل الهجرة فقد قتل مراراً وإن لم يميت قبل الهجرة ، ولأنه لو جمع جميع المكروه الذي لقي أبو بكر ثلاث عشرة سنة لكان أكثر من عشرين قتلة .

ولو كان في ذلك الزمان القتال ممكناً والثوب مطيعاً لقاتل أبو بكر ونهض كما نهض في الردة . وإنما قاتل علي في الزمان الذي [ قد ] أقرن [ فيه ] أهل الإسلام لأهل الشرك ، فطمعوا أن تكون الحرب سجالاً ، وقد أعلمهم الله أن العاقبة للمتقين ، وأبو بكر مفتون مفرد [ ومطرود مشرد ، ومضروب معذب ] ، في الزمان الذي ليس بالإسلام وأهله نهوض ولا حركة . ولذلك قال أبو بكر بعد أن استفاض الإسلام وضرب بجرانه وظهر أمره : « طوبى لمن مات في نأناة الإسلام » ، يقول : في أيام ضعفه وقلته ، حيث كانت الطاعة أعظم ، لفرط الاحتمال ، والبلاء أغلظ ، لشدة الجهد ، لأن الاحتمال كلما كان أشد وأدوم

كانت الطاعة أفضل ، والعمل فيه أقوى .

ولا سواء مفتونٌ مشردٌ لا حيلةٌ عنده ، ومضروبٌ معذبٌ لا انتصارَ به ولا دفعٌ عنده ، ومباطشٌ مقرنٌ [ يشفي غيظه ويروي غليله ، وله مقدم يكتفه ويشجعه .

ولا سواءٌ مقهورٌ لا يُغاث ، ولم ينزل القرآنُ بعدُ بظفره ، وقد هتك اليأسُ لطلول ما لقيَ حجابَ قلبه ، ونقضَ قوى طمعه حتى بقي وليس معه إلا احتسابه ، ومقاتلٌ في عسكرٍ معه عزُّ الرجاء وقوةُ الطمع ، وطيبٌ نفس الأمل .

فليس لعلِّي موقفٌ من المواقف إلا ولاي بكرٍ أفضلُ منه إما في ذلك الموقف وإما في غيره . ولاي بكرٍ مواقفٌ لا يشركه فيها عليٌ ولا غيره .

وإنما محص عليٌ وامتحن من لدن يوم بدر إلى آخر غزوات النبي صلى الله عليه وسلم وبين المحنة في الدهر الذي كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيه مقرنين لاهل مكة ومشركي العرب ومعهم اهل يثرب أصحاب النخيل والأطام ، والإرب والإقدام ، والصبر والمواساة ، والإيثار والمحاماة ، والعدد الدثر والفعل الجزل ، وبين الدهر الذي كانوا فيه بمكة يفتنون ويشتمون ويضربون ويشردون ، ويجموعون ويعطشون ، مقهورين لا حراكَ بهم ، وإذلاء لا دفعٌ عندهم ، وفقراء لا مال لهم ، ومغيظين لا يمكنهم السفهاء ، ومستخفين لا يمكنهم اللقاء - فرقٌ بين .

ولقد كانوا في حالٍ أخرجت لوطاً - وهو نبيٌ ، والنبيُّ خيرٌ من جميع الناس - إلى أن قال لقومه حين لقي منهم ما لقي : **ذلو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركنٍ شديد** . [ وقال النبي صلى الله عليه وآله : **عجبت من أخي لوط كيف قال : أو آوي إلى ركنٍ شديد** ] وهو آوي إلى الله سبحانه !

ثم لم يكن ذلك يوماً ولا يومين ، ولا شهراً ولا شهرين ، ولا عاماً ولا عامين ، ولكن السنين بعد السنين .

وكان أغلظ القوم بحجة وأشدهم احتمالاً بعد رسول الله صلى الله عليه أبو بكر الصديق ، لأنه أقام ما أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجة ، وذلك ثلاث عشرة سنة . وإنما قلنا ذلك من أجل أن الناس اختلفوا في مقدار مبعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى هجرته ، فقال قائل : خمس عشرة سنة ، وقال آخرون : ثلاث عشرة سنة ، وقال قوم : عشر سنين ، فكان أعدل الأمور وأقسطها طرح الطرفين ، والأخذ بأوسط الروايات ، كما صنعنا في عمر علي بن أبي طالب ، حيث وجدنا ولده جعفر بن عميد [ و ] هو دونه ، يخبر أن علياً استشهد وهو ابن سبع وخمسين . وقالت ( علماء الرافضة ) : نحن أعلم به من ولده إلا الأئمة منهم . ولم يقل هذا القول إمام منهم قط ، ولكن علياً استشهد وهو ابن ثمان وخمسين سنة ، ثم روى الناس بعد أنه استشهد وهو ابن ثمان وخمسين سنة ، ثم روى الناس بعد أنه استشهد وهو ابن ستين وابن ثلاث وستين وابن أربع وستين ، أخذنا بأوسط ما قالوا فطرحنا سنيه وسني عمر وعثمان وأبي بكر والهجرة ومقام النبي صلى الله عليه وسلم بحجة ؛ فحصل العدد الذي أثبتناه في صدر ذكرنا القضية .

مركز تحقيقات كويت علوم إسلامي

#### [ ١٤ - صحبة أبي بكر في الغار ونوم علي في الفراش ]

فإن قالوا: قد صنع علي بن أبي طالب رضي الله عنه بحجة أفضل من جميع ما ذكرتم ، ولقى أشد مما لقي أفضلهم ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم آتاه في مضجعه وعلى فراشه والمشركون يرصدونه ، وقد سقط إليهم أن النبي صلى الله عليه وسلم يريد المدينة ، فقد تحزموا واجتمعوا وقلبوا الرأي فرأوا أن يبيتوه على فراشه إن لم يظهر لهم . فقال لعلي : « تم على فراشي وتغش ببرد الحضرمي ، فإنهم إن رأوا حجتك فوق الفراش ودون البرد لم يستريبوا ، وخفي لهم أمري ، ولم يتبعوا أثري » . فنام علي على فراشه ينتظر وقع السيف ، ويتوقع رضخ الحجارة ، باذلاً نفسه مصطبراً . وليس فوق بذل النفس درجة يلتمسها

صابر ، ولا يبلغها طالب .

وإن كان أبو بكر قد أحسن في خروجه وهجرته وصحبته ، وهربه مع النبي صلى الله عليه وسلم ، واستخفائه في الغار ، فإن ذلك لن يبلغ من الاحتمال والخطار والخوف ، قَدْرَ ما كان فيه علي رضي الله عنه ، لأن طمع النُّجاة في أحدهما أقوى ، والنفس له أرجى .

قيل لهم : لو كان الأمر كما تقولون في هذين الخوفين لم يَقُمْ صَرْفُ ما بينهما بقدرِ عشر ما لقي أبو بكر من جميع ما وصَفْنَا وما صنع أبو بكر في ثلاثِ عشرة سنة ، من كثرة الإنفاق ، وإيثار الفقر على الغنى ، والوحدة على الأنسة ، والهوان بعد الكرامة ، والخوف بعد الأمن ، والضرب والافتتان بعد الإكرام والتعظيم ، مع عتق المعتذبين وكثرة المستجيبين ، ومع صرف وزن ما بين الطاعنين ؛ لأن طاعة الشاب الغرير أو الحدث الصغير ، الذي في عِزِّ صاحبه عزه ، ليس كطاعة الحكيم المحتك الأريب ، الذي لا يرجع تسويله لمن سوَّده [ و ] إلى رهطه .

وفرق آخر : أن أمر الغار وقصة أبي بكر وصحبته مع النبي صلى الله عليه وسلم وكونه معه فيه ، نطق [ به ] القرآن وضيح به الإجماع ، كالصلوات الخمس ، والزكاة المفروضة ، والغسل من الجنابة ، حتى إن من أنكر ذلك عند الأمة مجنون أو كافر . وأمر علي ونومه على الفراش إنما جاء مجيء الحديث ، وكما تجميء روايات السير وأشعارها . وهذا لا يوازن ذا ولا يكايله .

وأول مراتب العالم أن يعرف المعارضة والمقابلة ، والمنقوص والمتساوي .

ولو أن رجلاً من أوساط الناس أظهر شكاً في قصة علي ومبيته ، وقال : قد سمعت ذلك ولعلّه ، ولكنني مشفقٌ للذي أعرف من أكاذيب الشيع ، وتوليدهم لعلّ السير ، لم يكن عليه بأس من الإمام .

ولو قال رجلٌ لك ، وهو رجلٌ من أوسط الناس : والله ما أدري والله ، لعلّ الله إنما عني بقوله : « ثاني اثنين إذ هما في الغار » علي بن أبي طالب ، لوجد

عند الإمام غاية النكير .

و فرق آخر : أنه لو كان مبيت عليّ على فراش النبي صلى الله عليه وسلم جاء مجيء كوني أبي بكر في الغار مع النبي ، لم يكن في ذلك كبير طاعة ، فضلاً عن أن يساوي أبا بكر أو يبرز عليه ، لأن الذين نقلوا - كاذبين كانوا أو صادقين - أن النبي صلى الله عليه وسلم أبات علياً على فراشه ، هم الذين نقلوا أن النبي عليه السلام قال : « تَغشُّ بُردي ، ونم في مضجعي ، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه » ، وهكذا لفظ هذا الحديث ، لا يشك في ذلك أحد . ولم يُنقل إلينا أن النبي صلى الله عليه قال لأبي بكر : أنفق واحتمل ، ولن تعطب ولن يصل إليك مكروه .

[ ١٥ - فروسية علي ليست أفضل من رباطة جأش أبي بكر وحزمه في مواجهة المعضلات ]

فإن قالوا : إن علياً وإن كان حدثاً - كما تزعمون - أيام مكة فإنه قد لحق السابق له ثم برز عليه بصنيعه يوم بدرٍ وأحد والخندق ، ويوم خيبر ، وفي حروب النبي صلى الله عليه وسلم ، إلى أن قبضه الله سبحانه إلى جنبه ، فجمع أمرين : كثرة التعرض للمنايا ، وعظم الغناء بقتل الأقران والفرسان ، والقادة والسادة ، لأن من له من قتل الأنجاد والأمجاد ما ليس لغيره ، فله من التعرض والاحتمال والصبر والاحتساب ما ليس لغيره .

قلنا : إن كثرة القتل وكثرة المشي بالسيف لو كان أشد المحن وأعظم الغناء ، وأدل على الرياسة ، كان ينبغي أن يكون لعليّ والزبير ، وأبي دجاجة ، ومحمد بن مسلمة ، وابن عقرء ، والبراء بن مالك من عظم الغناء واحتمال المكروه بالقدر العظيم ما ليس للنبي صلى الله عليه وسلم ، لأن النبي لم يقتل بيده إلا رجلاً واحداً ، وقد علمنا أنه لس أحد أشد احتمالاً ولا أعظم غناء ، ولا أظهر فضلاً منه صلى الله عليه .

وقد نجد الرجل يقتل الأقران والفرسان وهو لا يستطيع أن يرفع طرفه في ذلك العسكر إلى رجلٍ آخر ليس فيه من قتل الأقران قليل ولا كثير، لمعانٍ هي عندهم أكثر من مشي ذلك المقاتل بسيفه، وقتله لقرنه .

وإذا ثبت أن رئيس العسكر وأشباهه قد نبتت لهم الرياسة واستحقوا التقديم بغير التقدم والمباشرة، ثبت أن قتل الأقران ليس بدليل على الفضيلة والرياسة . أو ما تعلم أن مع الرئيس من الاكتراث والاهتمام وشغل البال، والعناية والتفقد، ما ليس لغيره، لأنه المخصوص بالمطالبة، وعليه مدار الأمر، وبه يستنصر المقاتل وباسمه ينهزم العدو، وبتبعيته ورايته ومعرفته يُقل الحُد، ولأن اختيار الحكيم دليل على احتمال طبيعته واستقلال نفسه، ولأن فرته أو هودته أعظم في المائم والعار من عودة غيره وفرة غيره . [ و ] لو لم يكن من بليته وشدة ما محص به إلا أن القوم لو ضيعوا جميعاً وحفظ ما أضيفت الهزيمة إلا إليه، ولا كان المطلوب غيره، ولا كان الدليل المهان غيره . ولهذا وأشباهه يكون الرئيس أعظم عناء، وأشد احتمالاً، لأنك [ لو ] قذفت فضل صبر المقاتل الواحد في حصاله لم تجد له أثراً ولم تحس له حدكماً .

واعلم أن المشي إلى القرن بالسيف ليس هو على ما يتوهمه الغمر من الشدة والفضل وإن كان شديداً فاضلاً . ولو كان كما يظنون ويتوهمون ما انقادت النفس ولا استصحبت للقتال، لأن النفس المستطيمة المختارة التي قتالها طاعة وفرارها معصية قد عدلت كالميزان في استقامة لسانه وكفتيه، فإذا لم يكن بحذاء سيفه إلى السيف ومكروه ما يأتي به، ما يُعادله ويُوازنه لم يمكن النفس أن تختار الإقدام على الكف، ولكن معاً في وقت مشيه إلى القرن أمور تنفحه مشجعة، وإن لم يُبصرها الناس وقصوا على ظاهر ما أبصروا من إقدام . والسبب المشجع ربما كان الغضب، وربما كان الشراب، وربما كان الفرارة والحداثة، وربما كان الإحراج، وربما كان الغيرة، وربما كان الحمديّة وحُب الأحدوثة، وربما كان طباعاً كطباع القاسي والرحيم، والسخي والبخيل، والجزوع من وقع السوط

والصُّبور ، وربما كان السَّببُ الدِّين ، ولكن لا يُبلغُ الرَّجُلُ بِقُوَّةِ الدِّينِ في قلبه ما لم يشيِّعه بعضُ ما ذكرناه أن يمضي إلى السَّيفِ ؛ لأنَّ الدِّينَ مكتسبٌ محتَلَبٌ ، وليس بأصليٍّ ولا طبعيٍّ ، ولأنَّ ثوابه مؤجَّلٌ ، والخصال التي ذكرناها طبعيةٌ أصليَّةٌ ، وثوابها معجَّلٌ .

وقد يكون مع الإنسان أسبابٌ محدِّرةٌ مجبئةٌ ، فيكون رُكُونُهُ وجُلُوسُهُ طبعاً لا يمتنع منه . وربما كانت الأسبابُ من المشجِّعات والمجبناتِ سواءً ، فيكون جلُوسُهُ عن الحرب وقتالهِ فيها اختياراً . وربما فضلتُ قُوَّةُ مشجِّعاته حتَّى يكون إقدامه أشراً ومرحاً ، واهتزازاً وطبعاً ، ولا يكون ذلك طاعةً وإن كان في الحكم طاعةً . وكذلك الجبن إذا أفرط على صاحبه حتَّى يكون فراره طبعاً لا يكون معصيةً وإن كان في الحكم معصيةً .

ولم نردُ بهذا الكلام تنقُصَ عليَّ رحمه الله ولا إخراجهُ من الغناء واحتمال المكروه ، كما لم نردُ تنقُصَ الزُّبيرَ وأبي ذُجَّانةَ وابنَ عَفراءَ ومحمدَ بنَ مسلمة ، ولكن هكذا صفةُ المستطيعِ المكلفِ ، والمطيعِ والعاصي .

وإذا كان مع صاحب الإقدام من الأمور المشجِّعة أمورٌ فاضلةٌ على أسبابِ جُبْنِهِ وجُلُوسِهِ ، كان عند الله غيرَ مأجورٍ وإن كان في الحكم الظاهرِ مأجوراً .

وإن كانت الأسبابُ المشجِّعة في وزن الأسبابِ المَجْبئةِ كان مطيعاً ولم يكن حيثُ وضعه القومُ ، لأنهم توهموا مع مشيِّه بالسَّيفِ إلى القرنِ احتمالَ المكروهِ كُلِّهِ ، ورَفَعُوا من أوهامهم الأسبابَ التي لولاها لم يمكنه المشيُّ إلى القرنِ بالسَّيفِ .

121  
ووجه آخر : أن علياً لو كان كما يقول شيعته ، ما كان له بكثرة المشيِّ إلى القرنِ بالسَّيفِ وبقتلِهِ له كثيرٌ طاعةً ، ولا احتمالَ مشقةً ؛ لأنَّ الشَّيعةَ [ تزعم ] أن رسولَ الله صلى الله عليه قال لعليٍّ : « إنك ستقاتل من بعدي الناكثين والقاسطين والمارقين » . والناكثون : طلحة والزُّبيرُ وأصحابهما ، والقاسطون معاوية وأصحابه ، والمارقون : عبد الله بن وهب وأصحابه .

فإن كانوا قد [ صدقوا وما ] كذبوا فما عسى أن يبلغ من احتمال من هو من البقاء والسلامة على ثقة . فالزبير وطلحة وأبو دجانة لأنهم يقدمون والمنايا شائعة وهم يرجون ويخافون ، وعليّ على ثقة من أمره ، ويقين من بقاءه وسلامته . إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقل هذا القول إلا قبيل وفاته . ولا سبيل لهم إلى علم ذلك . فيقال لهم : فكذلك خصومكم يمكنهم أن يقولوا لكم : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال هذه الكلمة بغير إسلامه ، وإذا لم يكن في قولكم إن النبي صلى الله عليه وسلم قالها له قبيل وفاته دليل ، ولا في قول خصومكم إن النبي صلى الله عليه وسلم قالها بغير إسلامه دليل ، فأعدل الأمور وأنصفها بينكم وبينهم أن تجعلوا الخبر في النصف مما بين إسلامه إلى وفاة النبي صلى الله عليه . فإذا كان ذلك كذلك فقد صار الزبير وطلحة وأبو دجانة ومحمد بن مسلمة وابن عفرأ أفضل منه ، لأن الفضل في احتمال المكروه .

وقد لزمكم أن تزعموا أن النبي صلى الله عليه قال هذا الكلام لعليّ قبل وقعة بدر ، وأنتم إنما تفخرون بوقعة بدر وقتاله بعد ذلك ، فما عسى يبلغ من قتال رجل قد وثق بالسلامة والبقاء إلى أن يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بدهر .

فإذا كان رئيس الجيش أعظم غناء وأشدّ احتمالاً ، للذي وصفنا ، فأشبهه القوم حالاً به أعظم غناء وأشدّهم احتمالاً ، على قياس في الرئيس والكثير المشي بالسيف ولا أحد أشبهه بالرئيس ممن اختاره الرئيس وزيراً وصاحباً ، ومكانياً ومعيّناً ، لأن الرجل إذا كان في رأي العين صاحب أمر الرئيس والمتوليّ على الخاصّة والقربة منه في ظنّه ومقامه ، وخلواته ، وهربه واستخفائه ، وكان هو المبتدئ بالكلام عنده ، والمفرغ في الحوائج بعده والثاني في الدعاء إلى الله ودينه ، ولا نعلم هذه الخصال اجتمعت في غير أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، لأنه صاحب في كتاب الله سبحانه ، قال الله عز وجل : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ ؛ فسمّاه الله صاحبياً في كتابه ثم سمّاه النبي صلى الله عليه صديقاً

من بين خلق الله ، حتى غلب على اسمه واسم أبيه ولقبه ونسبه ، حتى كان الناس أيام رسول الله وبعد وفاته يقولون : قال عليُّ وفعل عليُّ ، وقال عثمانُ وفعل عثمان ، وقال عمرُ وفعل عمر ، وقال طلحةُ وفعل طلحة ، وقال الزبيرُ وفعل ، وجميع العشرة الذين هم في الجنة ، حتى إذا صاروا إليه قالوا : قال الصديق وقال أبو بكر الصديق ، وفعل أبو بكر الصديق . ثم قول النبي صلى الله عليه وسلم فيه ، وهو القول الذي كان يُعيده في كل دارٍ ومنزل : « ما أحدٌ آمنٌ علينا بصحبته وماله من أبي بكر ، معانٍ كثيرة ، فهمه الناس أم ذهبوا عنه . فهذا هذا .

ثم كان النبي عليه السلام بمكة ثلاث عشرة سنة ، في كل يوم ذرُّ شارقه يأتي منزل أبي بكر إما صباحاً وإما مساءً ، حتى كان اليوم الذي أذن الله سبحانه له في الهجرة . وإنه أتاه مهجراً فقال له أبو بكر : بأبي أنت وأمي ، كيف جئت اليوم في هذا الوقت ؟ ! ونزل عن سريره وجلس النبي صلى الله عليه وسلم وجلس أبو بكر بين يديه ، قال النبي : هل عندك أحد ؟ قال : لا ، يا رسول الله ، إلا أسماء وعائشة . قال : فإن ربي قد أذن لي في الهجرة . فسانَّ صحبتته من خلق الله غيره . ثم لم يعلم بخروجه غير ابنته أسماء وعائشة ، وغير ابنه عبد الله ابن أبي بكر قتيل يوم الطائف ، وكان هو الذي يتجسس لها الأخبار ويأتي بها إليهما في الغار ، لأنها استخفيا في الغار ثلاثاً ولم يُطليعا على أمرهما غير عامر بن فهيرة مولى أبي بكر ، بدرتي استشهد يوم بدر معونة ، فإنه كان يؤنسهما ويحدثهما ويخدمهما في تلك السفرة كلها . وكانت أسماء هي التي تأتيهم بأقواتهم في الغار ، فكان صاحبه في الغار ، وبمكة في طريقه إلى المدينة ، وعلى ظهره ركب النبي صلى الله عليه وسلم ، والنقائي أجيره ، وعامر بن فهيرة خادم النبي صلى الله عليه وسلم ومؤنسه عتيقه ثلاث مرات ومولاه ، والظهر ظهرة ، والمؤونة مؤونته ، وصحبة النبي صلى الله عليه وسلم مقصورة عليه ، محبوسة له ، مصونة عن سواه ، يُطلبان معاً ، وتجعل فيهما قريش شيئاً سواً .

وقالت الأنصار : لما سمعنا بمخرج النبي صلى الله عليه وسلم وقُدومه كنا نخرج

إلى ظاهر حَرَّتْنَا ننتظره ، حتى إذا لم نجد ظلاً دخلنا ، وذلك في أيام حارة ، حتى إذا كان في اليوم الذي قدم فيه النبي صلى الله عليه وسلم فعزلنا ذلك ثم دخلنا منازلنا ، فكان أول من أبصره رجل من يهود ، فصاح : يا بني قيلة !! فخرجنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو في ظل نخلة ، ومعه أبو بكر ، في مثل سِنَّة وهَيْئته ، وأكثرنا لم يكن رآه ، وركبته الناس وما نعرفه من أبي بكر حتى زال الظل عن النبي عليه السلام ، فقام أبو بكر فأظله بردائه ، فعرفناه عند ذلك . فهذا هذا .

ثم لما كان بعد ذلك في يوم بدر . وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما عزم على محاربة قريش قال له سعد : يا نبي الله ، لتبين لك عريشاً فتكون فيه ونقاتل بين يديك . فأذن لهم فبنوه له ، فعَدَل إليه بعد أن عبأهم وأقامهم على مصافهم وعلى مراتبهم ، فدخله وأدخل معه أبا بكر وحده ، فلما استقر في العريش قال له أبو بكر : بعض مناسدتك يا رسول الله فإن الله منجز لك ما وعدك . فحَفَق النبي صلى الله عليه عليه خَفَقَةً في العريش فانتبه وهو يقول : أبشيراً يا أبا بكر ، أتاك نصر الله ، هذا جبريل أخذ بعنان فرسه يقوده ، على ثناياه النقع ا

فكان النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر من بين يديه خَلَقَ اللهُ في العريش ، والناس موقوفون على مراتبهم ، فكانت هذه مرتبة أبي بكر . ورتب لسعد بن معاذ بعد أن كان قائماً على رايه على باب العريش متوشحاً بالسيف في نفر من الأنصار يحرسون العريش ومن فيه مخافة كُرِّ العدو والجولة .

فإذا كان النبي صلى الله عليه عليه في ذلك اليوم في العريش ، وغير ماشٍ إلى السيف ومعه صاحبه وصديقه ، وسيد الأنصار وأفضلهم على باب العريش ، عَرِفَ أَنْ عِظَمَ العَنَاءِ وشِدَّةَ الاحتمال والسبب الدال على الرياسة غير الذي خصه القوم وجعلوه دليلاً . فمن أولى أن يكون أشبههم برسول الله صلى الله عليه وسلم في عِظَمِ العَنَاءِ واحتمال المكروه ، والحال الرفيعة ، ممن كان ثاني اثنين في التقدّم في الإسلام ، وثاني اثنين في الدُعاء إلى الله ورسوله ، وثاني اثنين في كثرة

المستجيبين والأتباع ، وثاني اثنين في الغار ، وثاني اثنين في الهجرة ، وثاني اثنين في العريش ، وفي أشباه لهذا كثيرة .

وأما ما ذكرتم من يوم بدر وقتل علي الأقران وفضله على من سواه بذلك ، فقد قلنا في ذلك بما قد سمعتم .

ونحن ذاكرون وجهاً آخر ليزيد في الحجّة وتكثيف من الدلالة . نزع من أنه لم يشهد بدرأ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم [ من له ] مثل غناء أبي بكر ونبأته وكرم موضعه ، لأن من شهد بدرأ مثل الزبير ، وطلحة ، وسعد ، وعبد الرحمن ، وعثمان ، وبلال ، ومسطح ابن أثانة ، وعامر بن فهيرة ، وكان في العريش ، فلا أحد يعدّله في النبأته ، ولا في الغناء والرّفعة ، والاحتمال لقدّر الخلافة ؛ لأن الذين عدّدنا على ثلاثة أصناف : رجل أسلم على يده وبدعائه وشرّحه فهو سبب حضوره وحسن بلائه ، ورجل أسلم على يده واعتقه بعد ذلك من رِقّ العذاب ورقّ العبودية وشهد بدرأ وقيل ذلك بمؤنّته وكلفته ، وأما ربيب ونسيب وابن خالة كمسطح بن أثانة ، فقد كان ربيّه وابن خالته وعلى يده أسلم ، وبه استبصر ، ولم يزل في مؤنّته قبل بدر وبعد ذلك وفي أيامه ، إلا ما كان من يمينه أيام حلف ألا يقربه ولا ينفق عليه ولا يبطأ رحله ، للذي كان كبير على عائشة مع حسان بن ثابت ، حتى أنزل الله سبحانه على رسوله براءة عائشة ، وأمر أبا بكر بالانفاق على مسطح وعياله ، وبالعفو عنه ، وأن يعيده إلى رحله وتحت جناحه ، فأنزل الله في محكم كتابه على نبيّه يريد أبا بكر - وبين أن يفرد الله الآي ويخصّه بمخاطبته وبين أن يريدّه في الجمهور فرقاً عظيماً ، كما أثنى على جملة المهاجرين والأنصار - فقال الله وهو يريد أبا بكر : ﴿ ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليتفقوا وليصنفحوا إلا لجئون أن يغفر الله لكم ﴾ . قال أبو بكر : بلى يا رب . فردّه إلى رحله وعفا عنه كما أمره الله ، وأجرى عليه وعلى عياله مثل الذي كان يجريه .

وإنما ذكر الله في هذه الآية القُرْبَى لأنه كان ابن خالته ، وجعل أهله وعياله  
مساكين أبي بكر ، وهو أحد بني المطلب بن عبد مناف ، وشأنه عظيم .

وكان أول من حث على قتال المشركين ببدر وتكلم فيه عند رسول الله صلى  
الله عليه وسلم أبو بكر .

فإذا شهد بنفسه ورأيه وماله ومستجيبه وأتباعه الذين هم أكفأ ضده  
عندكم ، مع أن بعضهم قد اختير عليه وهو عثمان ، والباقيون لم يخايرهم  
ويواز [نهم] فيعرف موضع أفضلهم ، وقد فخر عليه سعد فلم يعارضه ، فأين  
مبلغ ما ذكرتم مما ذكرنا ، إذا كان مثل سعد من مستجيبه - وهو المستجاب  
الدعوة ، وأول من أراق دماً في الإسلام ، وأول من رمى بسهم يوم بدر ، وله  
يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « ارم فداك أبي وأمي » ، فجمع له أبويه ولم  
يجمعهما لأحد قبله . وفيه يقول النبي صلى الله عليه : « هذا خالي أباهي فيه  
فليات كل امرئ بخاله » . وهو أزال كسرى عن قصره ومملكه وعن  
مستقره - ومثل حوارى رسول الله صلى الله عليه وابن عمته ، مع فروسيته وشدة  
باسه والذي عظم الله من شأنه ببدر حين نزلت الملائكة في زيّه ، عليها عمائم  
صفر .

ثم الذي كان منه ببدر حين أتى الخبر النبي صلى الله عليه عن قريش  
بمسيرهم ، فاستشار النبي صلى الله عليه ، فكان أول من قام أبو بكر ، فتكلم  
وحث على الجهاد والنصرة ، ثم قام عمر ، ثم قام المقداد فقال : يا رسول الله ،  
امض لما أراك الله ، فوالله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ اذهب  
أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ﴾ ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا  
معكم مقاتلون . فوالذي بعثك بالحق أن لو سرت بنا إلى برك ذات العِمَاد  
لجالدنا من دونه حتى نبلغه .

فإن قالوا : إن أبا بكر لم يشهد [ له ] احتمال احتمال علي ، لأن علياً  
كان يمضي إلى السيف وأبو بكر وادع رافه في العريش ، ودونه الحرس سعد بن

مُعَاذُ وَأَصْحَابُهُ ، وَالرُّكَّابُ لَهُ مُنَاحَةٌ .

قلنا : قد طعتم على النبي صلى الله عليه ، لأنَّ الشُّانَ لو كان كما تقولون  
لكان النبي صلى الله عليه وادعاً وكان عليّ محتجلاً صابراً . وهذا كلامٌ قد فرغنا  
منه مرّة .

أو ما علمت أن صاحب اللّواء وإن كان لا يُبارز ولا يمشي بالسيف أنه  
يحتاج من المعرفة بالحرب وعورتها ، وإقبال أمرها وإدباره ، ويحتاج مع اجتماع  
القلب واليقظة وقلة الخيرة ، والثبات عند الجولة ، والعلم بموضع الشدّة  
والانحياز إلى أكثرهما يحتاج إليه المبارز ، لأنَّ حفظ الجميع أشدُّ من حفظ  
الواحد ، ولأنَّ كلَّ العدو يطالبه ويريد ختله ، وكلُّ ذلك يعلمه وعينه ؛ لأنَّ  
خطأه وضعفه أقرب إلى هلكة الجميع من ضعف المبارز وخطئه .

ولو كان الأمر كما تقولون ما كان أحدٌ أسقط في الحرب ولا أصغر خطأ ولا  
أقلَّ أجراً ومكاناً من الإمام الأكبر والزَّبير الأعظم لبعدهما بين بلاد عدوّه من  
بلادهم ، ولكان عامله أفضل منه .

مع أنكم تزيدون في كثرة القتل وتعظمون شأنهم لتعظموا به من شأن  
عليّ ، كصنيعكم في أمر عليّ ومرحّب ، حيث فحتموه بالأشعار ونفختموه  
بالبلاغات ، وسكتم عن قتل الزُّبير في ذلك اليوم . ومرحّب وياسر أخوان شهدا  
الوقعة ، والنباهة لياسر . فقصدتم إلى الأهل فرفعتهم وشهزتموه إذ كان قتيلاً  
عليّ ، وقصدتم إلى الأرفع فأخلمتموه وأخفيتهموه ، إذ كان قتيلاً الزُّبير . أو ما  
علمت أن الزُّبير وياسراً التقياً فاضطربا بأسياقهما فلم يُغنيا شيئاً مراراً ، حتى  
لجبا في موضعٍ واعترضت بينهما شجرة ، فجذباها ضرباً وخبطاً ، ثم جمع الزُّبير  
نفسه ومكّن سيفه فضرب رأس ياسر ضربةً قد منها البيضة ومرّ السيف حتى  
عصر ثيبيته ، فقيل له : يا أبا عبد الله ، ما أجود سيفك ! فغضب .

وقصدتم إلى عمرو بن عبد ودّ ، فتركتموه أشدّ من عامر بن الطفيل ،  
وعُتبية بن الحارث ، وبسطام بن قيس .

وقد سمعنا بأحداث حروب الفجار ، والذي كان بين المطيئين والأحلاف ، وما كان بين قريش ودوس وأمر خزاعة وحلف الفضول ، وجميع أمر قريش من خيرٍ وشرٍ ، فما سمعنا لعمر بن عبد ود في شيء من ذلك ذكراً .

وكذا قتل عليّ الوليد بن عتبة يوم بدر ، وما علمنا الوليد حضر حرباً قط قبلها ولا بعدها ، ولا ذكر فيها بطائل .

فلو ذهبتم إلى أن علياً قد بارز وقتل ، وأبلى واحتمل ، كان ذلك جميلاً ، وكان قصداً مقبولاً ، ولكنكم اخرجتموه من حد الشجاعة ، وظننتم أن السرف أمثل وأجل .

وزعمتم أن الذي منع العرب وقريشاً أن تجعله الخليفة بعد النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان قتل أبناءها وإخوتها وأعمامها ، وما يُعلم موضع رجل واحد يوم توفي النبي صلى الله عليه وسلم تسمع له الخاصة والعامة وترى له طاعة ، قتل عليّ أباه أو ابنه أو أخاه ، غير أبي سفيان بن حرب ، فقد كان عليّ قتل ابنه حنظلة وما كان أحد من عليّة قريش والعرب أقرب إلى أن يُخالفه في الحق والباطل في ذلك الدهر من أبي سفيان ، وقد كان أكره الناس لأبي بكر حين قال لبني هاشم وبني أمية : « رضيتم معشر بني عبد مناف أن يلبى أموركم رجل من بني تيم » . فإذا كان الذي قتل عليّ ابنه هو الذي أظهر كراهية أبي بكر من بين الناس فكيف حولتم القضية وقلبت المعنى ؟ !

فإن ذكروا أبا حذيفة بن عتبة لأن علياً قتل أخاه ، قيل : أيكون أبو حذيفة ممن أن علياً بهذه العلة ، وأبو حذيفة شهد بدرًا فقاتل أباه وأخاه وعمه ، واحتملت نفسه وعزمه وصحة إسلامه هذا الصنيع ثم يجرع من أقل منه بعد الزيادة في الاستبصار ، وبعد طول الدهر وموت الأحقاد ؟ ! وهذا ما لا يُشبه ولا يجوز . وكيف يجوز ذلك عليه وهو من المهاجرين الأولين ، والسابقين الأولين ، وشهد بدرًا والمشاهد كلها ، وقبض النبي صلى الله عليه وسلم وهو عنه راضٍ ، واستشهد يوم اليمامة ولواء المهاجرين في يده .

وكيف يُظنُّ هذا بأبي حذيفة ولم يُرو عنه في كراهية عليٍّ حرفاً قطُّ ، ولا قبضَ لذلك وجهاً ولا أظهرَ تعجباً ؟ ١٩

وكيف يُظنُّ هذا بالبدريين والمهاجرين الأولين ومنع عليٍّ القيامَ بأمر الناس على هذا الوجه وعلى هذا المعنى كُفِّرَ بالله ورسوله . وكيف يَضْطَغِنُ امرؤُ على عليٍّ ويُسلمَ قلبه لرسول الله صلى الله عليه ؟ لأنه إن كان يعتدُّ صنيعَ عليٍّ ذنباً حتى يولد له حقداً والذي تفرد عليٌّ بذلك أعظم ذنباً وأجدر أن يولد حقداً . وهذا أفحشُ قبحاً ، وأبينُ خطأً من أن يُهجِّنا إلى كشفه وتبيينه .

وكيف يجوز هذا على أبي حذيفة ولا نعلم رجلاً في الأرض أبعدَ من حمية الجاهلية منه ، ولا أسمحَ نفساً بما وافق كتابَ الله منه . ولقد بلغ من إخلاصه ورسوخ الإسلام في قلبه ، وحبِّه عليه وبغضته فيه أن طرح كلَّ ما سواه ، وأخرجه ذلك إلى أن زوَّجَ اخته فاطمة بنتَ عتبة بن عبد شمس ، من سالم مولى أبي حذيفة ، وقال له : والله إنِّي لأزوجهما وأعلم أنك خيرٌ منها !! فعاتبه على ذلك بعضُ من نكَّره ذكره فقال : أفي سالمٍ تعاتبني وقد سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : من أراد أن ينظر إلى رجلٍ يحبُّ الله بكلِّ قلبه فلينظر إلى سالم .

مع أن لأبي بكرٍ من حُسن الأثر في حروب النبي صلى الله عليه وسلم ومن احتمال المكاره وتجرُّع المرار ما ليس لأحدٍ .

ومن ذلك أن أبا بكرٍ خرجَ إلى ابنه عبد الرحمن بن أبي بكرٍ ليبارزه يوم أحد ، لأنَّ عبد الرحمن طلعَ يومَ أحدٍ على فرسٍ وهو مُكفِّرٌ في السُّلاح لا يُرى منه إلا عيناه وهو يقول : [ هل ] من مبارز !! ثلاثاً ، كلُّ ذلك يقولُ : أنا عبد الرحمن بن عتيق . فنهض أبو بكرٍ يسعَى إليه بسيفه ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم حين رأى غضبه وجِدته ، وعرف الذي عليه من الشدَّة في قتل ابنه : « شِمَّ سيفك وارجع إلى مكانك ومتعنا بنفسك » .

وإنما يمكن أبا بكرٍ بذلَّ الجهد ، فإذا فعل ذلك فلا حال أفضل من حاله .

فاجتمع له في ذلك أمران : أحدهما الثواب على شدة الاحتمال ، والثاني  
صيانة النبي صلى الله عليه وإشفاقه عليه .

وقوله « ارجع إلى مكانك ومتعنا بنفسك » ، فليس في الأرض معنى شريف  
فاضل من معاني الدين والدنيا إلا وهو في هذه الكلمة .

وأبو بكر الذي لما رُمِيَ النبي صلى الله عليه وسلم في يوم أحد أقبل  
يسعى وإذا إنسان قبَّل المشرق يطير طيراناً ، فلما رآه أبو بكر قال : اللهم اجعله  
طلحة ! فلما توافياً عند النبي صلى الله عليه وسلم إذا هو أبو عبيدة بن الجراح ،  
فبدره أبو عبيدة وقال : أسألك بالله يا أبا بكر إلا تركتني فوليتني نزعها - يعني  
حدائد الزرد اللواتي تشين في وجهه [ و ] جبينه من المغفر - فقال النبي صلى الله  
عليه وسلم : عليكم صاحبكم ! يعني طلحة .

وثرم أبو عبيدة يومئذ من نزع حلقة امتنعت عليه .

ولصنيع طلحة وأبي بكر وموقفهما قالوا : « يوم أحد لبني تيم ! » لأن  
الذين صبروا مع النبي صلى الله عليه من المهاجرين والأنصار سبعة : أبو بكر  
وظلحة من تيم ، وعبد الرحمن بن عوف من بني زهرة ، وعلي من بني هاشم ،  
والزبير من بني أسد ، وأبو عبيدة من بني عامر . وإنما قالوا « يوم أحد لبني تيم »  
لأنه لم يكن من كل قبيلة إلا رجل واحد من المهاجرين ، وكان فيه رجلان من  
بني تيم كما ذكرنا .

وكان من الأنصار سبعة : الحباب بن المنذر بن الجموح ، وأبو دجانة ،  
وعاصم بن ثابت بن أبي الأفلح ، والحارث بن الصمة ، وسهل بن حنيف وأسيد  
إبن حضير ، وسعد بن معاذ .

وأبو بكر أول من تكلم يوم بدر وحث الناس على الجهاد .

وأبو بكر الذي لما قال النبي صلى الله عليه يوم الحديبية : « كيف ترون يا  
معشر المسلمين في هؤلاء الذين قد [ حشدوا ] إلينا من أطاعهم ليصدونا عن المسجد

الحرام ، قام أول الناس فقال : نرى - والله ورسوله أعلم - أن غضي لوجهنا ،  
فمن صدنا عن البيت الحرام قتلناه .

وأبو بكر الذي لما أتى بُذَيْل بن ورقاء الخزاعي يوم الحديبية في نفر من  
أصحابه ، فأقبل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد ، لقد اغتررت  
بقتال قومك وإن قريشاً ستقاتلكم عن ذرارهم وأموالهم ، قد استنفروا الأحابيش  
وخرجوا إلى بلذح ، معهم العوذ المطافيل ، والله ما أرى معك أحداً له وجه ،  
مع أبي أراكم قوماً لا سلاح لكم ، ولو قد غص هؤلاء الحديد لقد أسلموكم .  
قال أبو بكر : عضضت يبظر اللات ، أنحن نسلمه ؟ ! قال له بُذَيْل : أما والله  
لولا يدك عندي لأجبتك ، والله إنى وقومي لنحب أن يظهر محمد !

وأقبل عروة بن مسعود في نفر من قومه حتى أناخ راحلته عند النبي صلى  
الله عليه وسلم وقال : إنى تركت كعباً وعامراً على أعداد الحديبية معهم العوذ  
المطافيل ، وما أرى معك أحداً أعرف وجهه ونسبه ، وإنهم لخلقاء أن  
يخذلوك - والقوم سُكوت - فغضب أبو بكر وقال : امض يبظر اللات ، أنحن  
نخذله ؟ ! قال عروة : أما والله لولا يدك عندي لأجبتك ! وكان عروة قد  
استعان في حمالة ، فكان الرجل يعينه بالفريضتين والثلاث ، فمشى إلى أبي بكر  
فأعطاه عشر فرائض .

ألا ترى كثرة أياديه ونبله [ومنه] ، وحده وشهامته ورياسته ؟ ! فهذا  
وأشباهه يعرف قدر الرجل بمكة وفي قومه ، وعند النبي صلى الله عليه وسلم  
وجاعة أصحابه .

ولو لم يعلم من شدة قلبه وصواب رأيه وقوة عزمه وقلة وحشيتة وثمن برئته  
إلا أن كبار المهاجرين دخلوا عليه ، منهم عمر وعثمان وأبو عبيدة ، وسعد بن  
أبي وقاص ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل في جمع كثيف من المهاجرين ،  
فقالوا بأجمعهم : يا خليفة رسول الله ، إن العرب قد انتقضت عليك ، وإنك لن  
تصنع بتفريق هذا الجيش المنتشر شيئاً ، اجعلهم عُدَّة لاهل الردة ترمي بهم

نُحَوِّزُهُمْ ، وَأُخْرَى أَنَا لَا نَأْمَنُ عَلَى الْمَدِينَةِ أَنْ يُغَارَ عَلَيْهَا وَفِيهَا الدُّرَارِيُّ وَالنِّسَاءُ ،  
فَلَوْ اسْتَأْنَيْتَ بَغْزِو الرُّومَ حَتَّى يَضْرِبَ الْإِسْلَامُ بِجِرَانِهِ وَيَعُودَ أَهْلُ الرُّدَّةِ إِلَى مَا  
خَرَجُوا مِنْهُ [ أ ] وَيُفْنِيَهُمُ السَّيْفُ ، ثُمَّ تَبِعَتْ أُسَامَةُ حَيْتَبُ ، فَتَكُونُ قَدْ أَنْفَذْتَ  
الْجَيْشَ كَمَا أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ دَفَعْتَ بِهِمْ أَهْلَ الرُّدَّةِ ، وَلَنَا  
نَخَافُ الرُّومَ أَنْ تَزْحَفَ إِلَيْنَا يَوْمَنَا هَذَا .

فلما استوعب أبو بكرٍ كلامهم قال : هل منكم أحدٌ يريد أن يقول شيئاً ؟  
قالوا : قد سمعتُ مقاتلتنا . قال : والذي نفسي بيده لو ظننتُ أن السُّباعَ تأكلني  
لأنفذتُ هذا البعثَ ، ولا بدأتُ بأولى منه ، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم ينزلُ  
عليه الوحيُّ من السماء وهو يقول : أنفذوا جيشَ أسامة .

فلما رأى إبطاءهم عن ذلك وتلكؤهم خرجَ وحده مغضباً نحو أهلِ الرُّدَّةِ حتى  
لحقه المهاجرون والأنصارُ في المسلمين ، فقالوا : تكفى يا خليفة رسولِ الله ،  
وننفذُ لأمرِكَ ، والصوابُ ما رأيتُ .

فلو لم تعلم من شدة قلبه واجتماعِ رايه وقلةِ وحشته إلا هذا كان كافياً .  
وأبو بكرٍ الذي ولَّاه النبيُّ صلى الله عليه وسلم يومَ حُنَيْنٍ مِيمْتَهُ ، وولَّى عُمَرَ  
مِيسِرَتَهُ . فلم يكن النبيُّ صلى الله عليه وسلم ليستكفيهما أهمَّ المواضعِ إليه وهما لا  
يكفيانه .

ولقد انكشفَ الناسُ وثبتا في مواضعهما ، وكان أقربَ القومِ إلى النبيِّ صلى  
الله عليه وسلم يومئذٍ - إذ كان لا بدَّ لصاحبِ الميمنةِ والميسرةِ من أن يكونَ أبعدَ  
عَنْ يَكُونُ فِي الْقَلْبِ - أَبُو سَفِيَّانَ بْنِ الْحَارِثِ ، وَالْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمَسْطَلْبِ ،  
وَالْفَضْلُ بْنُ عَبَّاسٍ ، وَرَبِيعَةُ بْنُ الْحَارِثِ ، وَأَيُّمُنُ بْنُ عَبِيدِ أَخُو أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ  
لَأَمَّهُ . وَصَبَّرَ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ هَؤُلَاءِ مِائَةً وَثَلَاثَةَ وَثَلَاثُونَ مِنَ  
الْمُهَاجِرِينَ ، وَسَبْعَةً وَسِتُّونَ مِنَ الْأَنْصَارِ .

ومما نعرف به شلَّةُ شكيمته وصدقُ وصرامةِ رايه قولُه للمسلمين يومَ توفِّي

النبي صلى الله عليه وسلم حيث قام خطيباً وبالمدينة منافقون لا يألونهم خيالاً  
يَعْضُونَ عَلَيْهِمُ الْأَنْامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ، وقد انتقض ما حول المدينة ، فكان مما قال  
في خطبته :

مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ ، فليعبده . وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا  
أَوْ يَرَاهُ إلهًا فَقَدْ هَلَكَ إلهه . فَاتَّقُوا اللَّهَ أَيُّهَا النَّاسُ ، واعتصموا بدينكم ، وتوكلوا  
على ربكم ، فَإِنَّ دِينَ اللَّهِ قَائِمٌ ، وكلمة الله قائمة ، والله ناصِرٌ مَنْ نَصَرَهُ ، ومعزُّ  
دينه . وَإِنَّ كِتَابَ اللَّهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ ، وهو النور والشفاء ، وبه هَدَى اللَّهُ مُحَمَّدًا ،  
وفيه حلال الله وحرامه .

ثم قال : وَاللَّهِ مَا نُبَالِي مَنْ أَجَلَبَ عَلَيْنَا مِنْ خَلْقِ اللَّهِ . إِنَّ سَيْفَ اللَّهِ  
الْمَسْلُوكَةَ مَا وَضَعْنَاهَا عَنْ عَوَاتِقِنَا ، وَلُنْجَاهِدَنَّ مَنْ خَالَفَنَا ، فقد جاهدنا مع  
رسول الله صلى الله عليه ؛ فلا يُبَيِّنُ مُبْتِئًا إِلَّا عَلَى نَفْسِهِ .

وإنما قال : « مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا أَوْ يَرَاهُ إلهًا فَقَدْ هَلَكَ إلهه » ، لأنه كان  
سَمِعَ مِنْ عَثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ وَعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِي ذَلِكَ كَلِمًا قَبِيحًا حَقٌّ مَا جَاحَ  
النَّاسُ فِي ذَلِكَ وَقَالُوا : وَاللَّهِ مَا مَاتَ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ رَفَعَهُ كَمَا رَفَعَ عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ ،  
فِي كَلَامٍ سَنَذْكُرُهُ بَعْدَ هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وعما يدلُّ على خاصَّةِ مكانه وتقديم النَّاسِ له ، ومعرفةِ الجميع لفضله ،  
الذي كان مِنْ صَنِيعِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمِنْ صَنِيعِ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ ،  
وَمِنْ صَنِيعِ كُفَّارِ قَرِيشٍ بِهِ ، حَيْثُ فَرِزَعَتْ إِلَيْهِ فِي أَمْرِ أُسَارَى بَدْرٍ دُونَ غَيْرِهِ ،  
لأنهم لما حُجِسُوا بِبَدْرٍ واقترع المسلمون عليهم طمعوا في الحياة ؛ فقالوا بأجمعهم :  
لو بعثنا إلى أبي بكر فإنه أوصل قريش لأرحامنا ، ولا نعلم أحداً أتر عند محمدٍ  
منه ! فبعثوا إلى أبي بكر فاتاهم فقالوا : يا أبا بكر ، إن فينا الآباء والأبناء ،  
والإخوان والعمومة ، وبنِي العَمِّ ، وأبعثنا قريب ، فكلم صاحبك بمن علينا أو  
يفادينا . قال : نَعَمْ لَا أَلُوكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ خَيْرًا ! ثم انصرف إلى النبي صلى الله  
عليه . فقالوا : ولو بعثنا إلى عمر ، فإننا لا نأمن أن يُفسد علينا ، فلعله أن

يُكْفُ عَنَا شَرَّهُ ! فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ فَجَاءَهُمْ ، فَقَالُوا مِثْلَ قَوْلِهِمْ لِأَبِي بَكْرٍ ، فَقَالَ : لَا  
أَلُوكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ شَرًّا ! ثُمَّ انصَرَفَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَإِذَا النَّاسُ حَوْلَ  
النَّبِيِّ ، وَأَبُو بَكْرٍ يَفْتُوهُ وَيَلِينُهُ وَهُوَ يَقُولُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ،  
قَوْمُكَ فِيهِمُ الْأَبَاءُ وَالْأَبْنَاؤُ ، وَالْعَمُومَةُ وَالْإِخْوَانُ وَبَنُو الْعَمِّ ، وَأَبْعَدُهُمْ مِنْكَ  
قَرِيبٌ ، فَاْمَنْنُ عَلَيْهِمْ مَنْ اللَّهُ عَلَيْكَ ، أَوْ فَادِهِمْ يَسْتَنْقِذُهُمُ اللَّهُ بِكَ مِنَ النَّارِ ،  
فَمَا أَخَذْتَ مِنْهُمْ فَهُوَ قُوَّةٌ لِلْمُسْلِمِينَ ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُقْبَلَ بِقُلُوبِهِمْ !! ثُمَّ قَامَ  
فَتَنَحَّى نَاحِيَةً وَسَكَتَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَجَاءَ عَمْرُ فَجَلَسَ مَجْلِسَ أَبِي بَكْرٍ  
فَقَالَ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، هُمْ أَعْدَاءُ اللَّهِ كَذَّبُوكَ وَقَاتَلُوكَ وَأَخْرَجُوكَ ، أَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ  
فِيهِمْ رُؤُوسَ الْكُفْرِ ، وَأَنْمَةَ الضَّلَالَةِ ، يَعْزُ اللَّهُ بِذَلِكَ الْإِسْلَامَ وَيَذَلُّ الشُّرْكَ !!  
فَسَكَتَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَمَادُ أَبُو بَكْرٍ إِلَى مَجْلِسِهِ وَإِلَى مِثْلِ ذَلِكَ  
الْكَلَامِ ، ثُمَّ تَنَحَّى وَقَامَ عَمْرُ فَجَلَسَ مَجْلِسَهُ وَأَعَادَ مِثْلَ الْكَلَامِ الْأَوَّلِ ، ثُمَّ تَنَحَّى  
عَمْرُ وَجَلَسَ أَبُو بَكْرٍ ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ . فَسَكَتَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ثُمَّ قَامَ فَدَخَلَ  
قُبَّتِهِ فَمَكَثَ سَاعَةً وَخَرَجَ وَالنَّاسُ مَجْهُوسُونَ ، يَقُولُ بَعْضُهُمْ : الْقَوْلُ مَا قَالَ أَبُو  
بَكْرٍ ، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ : الْقَوْلُ مَا قَالَ عَمْرُ . فَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
فَقَالَ : مَا تَقُولُونَ فِي صَاحِبَيْكُمْ ؟ دَعُوهُمَا فَإِنَّ لِهَآ مِثْلًا : مِثْلُ أَبِي بَكْرٍ فِي الْمَلَائِكَةِ  
مِثْلُ مِيكَائِيلَ يَنْزِلُ بِالرَّضَا وَالْعَفْوِ ، وَمِثْلُهُ فِي الْأَنْبِيَاءِ مِثْلُ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أَلَيْنَ عَلَى  
قَوْمِهِ مِنَ الْعَسَلِ ، أَوْ قَدْ لَهُ قَوْمُهُ النَّارَ فَطَرَحُوهُ فِيهَا ، فَمَا زَادَ عَلَى أَنْ قَالَ : ﴿ أَفْ  
لَكُمْ وَلَمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ . وَقَالَ : ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي  
وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . وَمِثْلُهُ كَمِثْلِ عِيسَى إِذْ يَقُولُ : ﴿ إِنْ تَعَذَّبْتُمْ  
فَأِنَّهُمْ عِبَادُكُمْ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ . وَمِثْلُ عَمْرٍ فِي الْمَلَائِكَةِ  
مِثْلُ جِبْرِيلَ يَنْزِلُ بِالسُّخْطِ مِنَ اللَّهِ وَالنَّقْمَةِ . وَمِثْلُهُ فِي الْأَنْبِيَاءِ مِثْلُ نُوحٍ كَانَ أَشَدُّ  
عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ إِذْ يَقُولُ : ﴿ رَبُّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ  
دِيَارًا ﴾ . فَذَعَا عَلَيْهِمْ دَعْوَةً أَغْرَقَ اللَّهُ بِهَا الْأَرْضَ جَمِيعًا . وَمِثْلُهُ مِثْلُ مُوسَى إِذْ  
يَقُولُ : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ وَاشدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَسْرُوا  
الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ . فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ الْمَقْرَعُ وَالشَّفِيعُ ، وَالْخَاصَّةُ وَالثَّقَّةُ  
رَسُوْنَحَ الْفَضِيلَةَ .

وقبل ذلك لما قص النبي صلى الله عليه وسلم على أهل مكة كيف أمرني به ، قالت قريش على التكذيب له صلى الله عليه : والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام ثم يكون إقبالها شهراً ، وزعم محمد أنه مضى إلى بيت المقدس ورجع من ليلته ! فأتوا بأجمعهم أبا بكر ليحتجوا بذلك عليه وليعرفوه خطأه في أتباعه عند أنفسهم ، وظنوا أن الجواب في ذلك يمتنع إذ كان قد امتنع عليهم . فأتوا أبا بكر فقالوا : هلك صاحبك ! - ألا ترى أنه المذكور بالصحبة ، وموضع الحاجة ، وأنه المبتدأ والمفزع - زعم أنه أتى بيت المقدس في ليلة وغدا علينا ! قال أبو بكر : إنكم تكذبون عليه ، ولئن كان قاله لقد صدق ، فما تعجبون من ذلك ؟ ! فوالله إنه ليخبرنا أن الخبر يأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه . فهذا أبعد من مصر . ثم نهض أبو بكر إلى النبي صلى الله عليه ليسأله عن القضية ، فاقبل النبي صلى الله عليه وسلم يصف له وهو يقول : صدقت صدقت ! أشهد أنك رسول الله ! قال النبي صلى الله عليه وسلم : وأنت الصديق ! وقد كان أبو بكر الصديق أتى الشام وعرف طرقها وأمورها ، وقلبها وعرف جميع ما فيها .

ثم الذي كان من تقديم النبي صلى الله عليه له والمسلمين في قضية الحديبية . وذلك أنهم كتبوا كتاباً .

هذا ما اصطليح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو . اصطليحا على وضع الحرب عشر حجج يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض . على أنه لا إسلال ولا إغلال ، وعلى أن من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده فعل ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدها فعل ، وعلى أنه من أتى منهم محمداً بغير إذن رده ، ومن أتى قريشاً من أصحاب محمد لم ترده ، وعلى أن محمداً يرجع عامة هذا بأصحابه ، ويدخل عليهم قابلاً في أصحابه فيقيم ثلاثاً ، لا يدخل علينا السلاح إلا سلاح المسافر ، السيف في القرب . شهد أبو بكر بن أبي قحافة ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وأبو عبيدة بن الجراح ، ومحمد بن مسلمة . وشهد حويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص بن الأخيف .

ألا ترى أنه كان أول شاهدٍ من المسلمين في صدر الكتاب ، والناس كلهم بعده .

ونَحَرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم الجَمَل عن سَبْعَةٍ . فأول خلق الله سُمِّي أبو بكر ، ثم عمر ، ثم فلان ثم فلان . فهذا هذا .

ثم لما تَحَاجَزَ النَّاسُ يومَ أُحُدٍ وأراد أبو سفيان الانصرافَ أقبلَ يسيرَ على فرسٍ له أنشَى قد أشرفَ على أصحابِ النبيِّ صلى الله عليه في عَرْضِ الجبلِ يُنَادِي بأعلى صوتِه : أينَ ابنُ أبي كبشة ؟ يعني النبيَّ صلى الله عليه وسلم . أينَ ابنُ أبي قحافة ؟ أينَ ابنُ الخطَّابِ ؟ يومَ بيومِ بدر . ألا إنَّ الأيامَ دَوَلٌ والحربُ سِجَالٌ ، وحنظلةٌ بحنظلةٍ !! قال عمر : ألا أجيئه يا رسول الله ؟ قال : بلى . قال أبو سفيان : أعلِّ هُبَلٍ ! قال عمر : الله أعلى وأجلُّ . قال أبو سفيان : لنا عُزَى ولا عُزَى لكم ! قال عمر : الله مولانا ولا مولَى لكم .

فلو لم يكن أبو بكرٍ أفضلَ منَ شهيدِ أُحُدٍ وأنبه ، ، أو أغيظَ لأبي سفيانَ والمُشركينَ ، ما جعله أبو سفيانَ - وهو رئيسُ القومِ - ثانياً ، والذي يتلو النبيَّ صلى الله عليه في النداءِ والمخاطبةِ ، حينَ يقولُ : أينَ ابنُ أبي كبشة ؟ ثم يقولُ : أينَ ابنُ أبي قحافة . فهذا هذا .

وفي نزولِ أبي بكرٍ قبرِ حمزةَ قبلَ كلِّ نازلٍ بأمرِ رسولِ الله صلى الله عليه ، دليلٌ على الفضيلةِ والنِّبَاهَةِ ، والقَدْرِ والوزارةِ .

ولما دخلَ أبو سفيانُ المدينةَ أتى النبيَّ صلى الله عليه وقال : يا محمد ، إني كنتُ غائباً في صلحِ الحديبيةِ فاشدَّدَ العَهْدَ وزِدْنَا في المَدَّةِ ، قال . أو لذلك قدمتُ يا أبا سفيان ؟ قال : نعم . قال : فهل كان فيكم من حَدَثٍ ؟ قال : معاذَ الله . قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : فنحن على مُدَّتِنَا وصُلْحِنَا ، لا نبدلُ ولا نُغَيِّرُ . فلما خرجَ من عنده بدأ بأبي بكرٍ فقال له : هل لك إلى أن تُجِيرَ بينَ النَّاسِ ؟ قال أبو بكرٍ : جوارِي في جوارِ رسولِ الله . ثم خرجَ مِن عنده فسأى عُمَرَ فكلَّمه بمثلِ ذلك ، قال عمر : إني لو وجدتُ الذُّرَّ تُقَاتِلُكم لأغثتها عليكم !

قال أبو سفيان : جُزيتَ مِن فَي رَحِمِ شِراً ! ثم أتى عثمان ، ثم أتى فاطمة ،  
ثم أتى علياً .

الآن ترى كيف جعلوه المقصد والمعتمد قبل الناس وبعد رسول الله صلى الله عليه . ولو لم يكن حال عند أبي سفيان من النبي صلى الله عليه فرق كل حال ما بدأ به قبل جميع من نزع إليه . فهذا هذا .

ثم الذي كان من تقرب النبي عليه السلام ، وإكرامه له يوم فتح مكة ، وهي الدار التي خرجا منها هارين معاً ثم رجعا إليها آمنين معاً ، يتسايران ويتحدثان ، حيث طلع النبي صلى الله عليه وسلم على العباس وأبي سفيان ، والنبي عليه السلام بين أبي بكر وأسمد بن حضير ، أبو بكر عن يمينه . وقبل ذلك في الطريق كان بين أبي بكر وعمر ، أبو بكر عن يمينه وعمر عن يساره . فلما صارت الخيل بذى طوى بين الخندمة إلى الحجون ، مر النبي صلى الله عليه وأبو بكر يساره وحده ، وإذا بنات أبي أحيحة قد نشرن شعورهن يلعطن وجوه الخيل بالخمير ، فنظر النبي صلى الله عليه إلى أبي بكر وتبسم وقال : كيف كان قول حسان :

يَلَطُّهُنَّ بِالْخُمُرِ النِّسَاءُ

قال أبو بكر :

تَظَلُّ جِيادُنَا مَتَمَطِّراتِ

فهذه حاله وخاصته ومكانه وارتفاع قدره . إلا تراهما خرجا من مكة هارين مستخفين مصطحبين ، ثم رجعا آمنين ظافرين مُعلنين مصطحبين .

وصعد أبو قحافة الجبل بصغرى بناته وهو يومئذ مكفوف ، فبكت بنته فقال لها : لا تخافي فإن أهلك عتيقاً أكبر الناس عنده ! فلما دخلوا مكة أقبل أبو بكر بأبيه وهو يومئذ شيخ مكفوف له غديرتان ، كأن رأسه ثغامة حتى هجم به على النبي صلى الله عليه وقال : أتيتك بأبي يا رسول الله ليسلم . قال النبي صلى

الله عليه : هلاً تركت الشيخ في رحله حتى آتته . فمسح النبي صلى الله عليه يده  
على صدره ، ودعاه إلى الإسلام فأسلم .

وهذا كله يدل على تقديم النبي صلى الله عليه له .

كما نقل الفقهاء أن النبي صلى الله عليه أبي بعمس من لبن وهو في  
أصحابه ، وأبو بكر عن يساره ورجل من الأعراب عن يمينه ، وأصحابه قد أحبوا  
سوره ، فشرب النبي وأهوى بالقدح - نحو الأعرابي . قال عمر : أبو بكر يا  
رسول الله ! قال النبي صلى الله عليه : الأيمن فالأيمن .

ولم ينقلوا هذا الحديث ليخبروا عن فضيلة أبي بكر ولا عن قرب مقعده ولا  
عن تقديم عمر له ، ولا أن عادة النبي صلى الله عليه وسلم كانت التقديم له ،  
ولا قال عمر ذلك على التذكير له ، وإنما أرادوا أن يخبروا عن سنة النبي صلى الله  
عليه وسلم في الشرب ، وعن فضيلة اليمين على اليسار ، وعن التعريف لحرمة  
المجلس .

ولو كان هذا الخبر في علي وعثمان ما كان الأمر إلا كما أخبروا أنهم لم  
يقصدوا في الحديث إلا تفضيل اليمين على اليسار .

[ ١٦ - حكمة أبي بكر افضل من فقه علي ]

فإن قالوا : فإن علياً كان أفقه من أبي بكر وأعلم بالحرام والحلال منه . والدليل  
على ذلك أن كثرة ما نقلوا إلينا من اختياراته وأقواله في الحوادث ، من الحلال  
والحرام ، وأبواب الفقه والفتيا والتأويل ، مع كثرة الرواية المسندة ، وكان يسأل  
ولا يسأل ، ولم يرجع عن شيء قط وليس أحد من أصحاب النبي صلى الله  
عليه وسلم إلا وله رجعة وأكثر من ذلك ، ولم يسمع لأبي بكر بفتيا كثير ولا كثير  
رواية ، ورأس الدين الفقه فيه والعلم به . فلما كان أبو بكر وعلي بن أبي طالب  
على ما وصفنا وذكرنا ، علمنا أن أفقهما أفضل فضلاً وأولى بالإمامة ، لأن عمل

الفقهاء أفضل من غيره ، لأن أولى الناس بالمسلمين أعلمهم بدينهم ، لأن من علم الدين لم يجهل أمر الدنيا ، لأن أمور الدنيا مياسرة أو شبيهة يعلم المياسرة ، وعلم الدين مستنبط ، وتأويله غامض .

قالت ( العثمانية ) عند ذلك : أما العدل والقسط فإن ننظر يوم توفي النبي صلى عليه وسلم ، وأبو بكر وعلي حيان ظاهر أمرهما ، معروف قدرهما واحتمالهما للعلم والعمل . فلعمري لئن كان لعلي من طول الصحبة وكثرة السماع ومفاوضة الرسول الأ [ مر ] ، والمعرفة ، وكثرة الإرشاد للأمة وصحة الرأي وكثرة الصواب ، وكان الناس إليه أشد فزعا ، [ و ] ظهر من روايته وحاجة الناس إلى فقهه في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأيام وفاته وأيام أبي بكر ، أكثر مما ظهر من أبي بكر في ذلك الدهر ، إنه لأفقه منه في الدين وأعلم بأبواب الدنيا .

[ و ] لئن كان إنما كثر مما نقل الناس عنه لأنه عاش والحادثات تحدث ، وبقي حتى كان يستفتى ويفتي ويسأل ويحيب ، ويروي عنه في الزمان الذي كان يستفتى فيه مثل أبي هريرة ، وأنس بن مالك ، وابن عمر ، وابن الزبير ، وعبد الله بن عمرو ، فكان ذلك منه أيام أبي بكر وهي ستان ، وأيام عمر وهي عشر سنين ، وأيام عثمان وهي اثنتا عشرة سنة ، وأيام نفسه وهي خمس سنين ، فليس في ذلك حجة ولا دليل ؛ لأنك تُحصي ما يقول الرجل في الدهر الطويل مع كثرة الحادثات ، وما يقول الرجل في الدهر القصير مع قلة الحادثات ؛ وإنما ينبغي أن ننظر يوم توفي النبي صلى الله عليه من كان أفضل المسلمين وأفقه في الدين ، وأعرف بالأمور ، وأصوب رأياً وأشد احتمالاً ، في ذلك الوقت الذي اختير فيه للخلافة . ونحن نعلم أن علياً لو عاش إلى دهر الحسن وابن سيرين لكان قد ازداد فقهاً وعلماً وتجربة على قدره يوم استشهد رضي الله عنه .

ولا يجوز أن نقدر الرجل بقدر طول الزمان وكثرة الحادثات ، وبقدر قصر الزمان وقلة الحادثات . فليكن صبح عندنا وعندكم أن أموراً حدثت ، وبلايا نزلت في زمن أبي بكر وأيام وفاة النبي صلى الله عليه ، من حلالٍ وحرامٍ أو سياسةٍ

جندٍ أو سدَّ ثغراً أو تدبير حرب ، أو استصلاح عوام ، أو ترتيب خواص ، فظهر فيه من رأي علي وصوابه وحسن نظره وإرشاده ما لم يظهر من أبي بكر - فقد أفلح من زعم أن علياً كان أفقه منه فقهاً ، وأصوب رأياً ، وأشدُّ للأمور احتمالاً ! مع أنا قد نجد عنده من دقائق الفتيا وغامضه وعويصه ما لم يتل به أحد ولا يتلى به أحد أبداً . ولعل ذلك لا يُصاب عند الإمام إلا في جملة الأمور وأصولها ، ثم لو دهم الناس عدو ، أو حزبه أمر ، أو أعصل بهم مالم من فاتي يختطب الملك بتأويل قد زخرقه ، ومن انتشار جند أو اضطراب عوام ، أو بدعة شاملة ، لم يكن عنده من الغناء والاحتمال والمعرفة بعلاج أدوائها والتأني لاستصلاحها قليل وكثير . وإنما مدار الأمور على أصالة الرأي ، واتساع الصدر ، وقوة العزم .

#### [ ١٧ - حكمة أبي بكر يوم صلح الحديبية ]

فإن كنا لم نجد لعلي ما ذكرنا شيئاً يفضل به أبا بكر في ذلك الدهر فإننا نستدل على صواب رأيه واتساع صدره ، وأنه كان المقزع والمرشد بعد رسول الله في المعضلات وعند الشبهات والحادثات ، والناس في ذلك الدهر بين مستمع مرشد وبين مستمع مسلم ، وبين مطرقي واجم وبين خائف قد رنحه الحادثات ، واستبهم عليه وجه الصواب ، كالذي كان من المسلمين لما اصطلحوا على القضية يوم الحديبية ، لأنهم لما صاروا إلى الكتاب وتراضى النبي صلى الله عليه وسلم وسهيل بن عمرو على أن يكتب في الكتاب : « وعلى [ أن ] من أن قريشاً ممن كان على دين محمد بغير إذن لم تردّه إليه » ، فبلغ من أمر الناس والذي دخل عليهم أن اضطربت قلوبهم ، حتى إن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه بعد انصراف سهيل بن عمرو : « قوموا فأنحروا وأجلوا واحلقوا » ، يقولها ثلاثاً ، كل ذلك ينظرون في وجهه ويسمعون قوله ولا يُطيعون أمره ، حتى غضب النبي صلى الله عليه وسلم فدخل على أم سلمة فأخبرها بذلك متعجباً ، وكانت معه في تلك السفرة ، قالت أم سلمة : « انطلق أنت يا رسول الله إلى الهدي فأنحروه ، فإنهم

سَيَقْتَدُونَ بِكَ . فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ وَثَبَ عِنْدَ الْكِتَابِ عُمَرُ وَهُوَ يَقُولُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَلَسْنَا بِالمُسْلِمِينَ ؟ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ : بَلَى . قَالَ : فَعَلَامَ نُعْطِي الدُّنْيَةَ فِي دِينِنَا ؟ قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ، وَلَنْ أَخَالَفَ أَمْرَهُ . فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى عَمْرٍ فَقَالَ : يَا عُمَرُ ، الزَّمْ غَرَزَهُ فَإِنِّي أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ، وَأَنَّ الْحَقُّ مَا أَمَرَ [ به ] ، وَلَنْ يَضِيعَهُ اللَّهُ !

ثُمَّ إِنَّ عَمْرَ بْنَ الْخَطَّابِ عَادَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَسَأَلَهُ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : سَلِمَ اللَّهُ وَلِرَسُولِهِ وَاتَّبِعْتُمْ رَأْيَكُمْ .

وقال أبو عبيدة : لا نُعْطِي الدُّنْيَةَ أَبَدًا ! فقال أبو بكر ، يا عمُّ إنما ليست بدنية ، ولو كانت دنية ما أعطأها النبي صلى عليه وتابأها أنت ، وما كان الله ليرضى بذلك .

أوما علمت أنه لم يكن في الجميع أشدُّ في ذلك من علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب ؟ ! وذلك أن علياً هو كان كاتب كتاب القضية ، فلما كتب : « هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله » قال المشركون : لو نعلم أنك رسول الله ما حاربناك ، ولكن اكتب : « محمد بن عبد الله » ، فقال النبي لعلي : اتَّهَمَ يَا عَلِي . فقال علي : والله لا نعوئها أبداً ! قال النبي صلى الله عليه وسلم : أَرِنِي مَكَانَهَا . فأراها فمحاها وكتب « محمد بن عبد الله » . قال أبو بكر : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، إن هذا كله حدب على الإسلام وغضب له ، ولكنهم لم يطلعوا من الأمور ما تطلعه الرسل . فهذا موقف لأبي بكر مشهور .

وإِذَا عَظُمَتِ الْفِتْنَةُ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ لَأَنَّهُمْ خَرَجُوا لَا يَشْكُونَ فِي الْفَتْحِ ، لَرُؤْيَا النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ أَنَّهُ حَلَقَ رَأْسَهُ وَدَخَلَ الْبَيْتَ وَأَخَذَ مِفْتَاحَ الْكَعْبَةِ وَعَرَّفَ مَعَ الْمَعْرُوفِينَ ، ثُمَّ تَجَهَّزَ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ وَهُوَ يَرِيدُ مَكَّةَ عِنْدَهُمْ وَقَدْ كَانَ تَلَا عَلَيْهِمْ : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمَنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ ﴾ الْآيَةَ . فَلَمَّا رَأَوْا الصُّلْحَ وَالشَّرْطَ ، وَعَايَنُوا الرَّجُوعَ اضْطَرَبُوا لِذَلِكَ ، مَعَ الَّذِي كَانَ فِي نَفْسِهِمْ مِنْ قَوْلِهِ : « إِنْ أَتَى قَرِيشاً أَحَدٌ مِنْ كَانَ عَلَى دِينِ مُحَمَّدٍ لَمْ تَرُدَّهُ ،

وَمَنْ أُنِيَ مُحَمَّدًا مِنْ هُوَ عَلَى دِينِ قُرَيْشٍ رَدَّهُ . فَأَخْرَجَهُمْ مَا ذَكَرْتُ لَكَ إِلَى مَا ذَكَرْتُ قَبْلَ .

وأقبل عمر على أبي بكر فقال : يا أبا بكر ، أليس قد أخبرنا النبي صلى الله عليه عن الله وتلا علينا القرآن : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ ؟ قال أبو بكر : نعم . قال عمر : فما بأله رجعت بنا ولم ندخلها ؟ قال له أبو بكر : وهل قال لك متى ؟ إنما قال : لتدخلن ، وأنتم داخلوها لا تحالة . وإنما كان لك مقالاً لو ضرب لك أجلاً فرأيت خلافه . واعلم أن الحق ما قال وصنع .

فلم يبق في قلب مخلص جهلاً بموضع الحجبة في ذلك ، ولا في قلب مستريب دخله الشك شيئاً إلا أصلحه . فهذا وشبهه نعرف إخلاص الرجل وقدره ، وسعة صدره ، وكثرة علمه .



[ ١٨ - حكمة أبي بكر عند موت النبي ]

ثم أخرى ، أنقذ الله به من الضلالة ، والناس بين ساكت لا غناء عنده ، أو خائف مستريب يحتاج إلى التعريف ، أو موقن يحتاج إلى المائدة وتلقين الحجبة .

من ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما توفى اقتحم الناس عليه في منزل عائشة ، فلما نظروا إليه مسجى دخلهم أمر عظيم أذهلهم وحير عاينهم ، حتى قالوا : لم يموت ، وكيف يموت وهو شهيد علينا ونحن شهداء على الناس ؟ وكيف يموت وقد قال الله : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ ولم يظهر بعد ؟ !

وكان عثمان بن عفان وعمر بن الخطاب يرددان هذه الآيات ، وتوعدا أصحاب النبي صلى الله عليه : من قال إنه مات . وثاروا في حجرة عائشة وعلى الباب : لم يموت !

وكان أول من رآه مسجياً فانكسر موته عثمان ، وقال : إنه والله ما مات ، ولكن الله رفعه إليه كما رفع عيسى بن مريم ! والله لا نسمع أحداً يقول مات إلا قطعنا لسانه !

واضطرب الناس وماجوا وقام عمر في الناس خطيباً فقال :  
لا اسمعن أحداً يقول إن محمداً مات ! وإن محمداً لم يموت ، ولكن الله رفعه . أرسل إليه كما أرسل إلى موسى عليه السلام فلبث عند قومه أربعين ليلة . وإني لأرجو أن يقطع الله أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أن محمداً مات !

فبينما الناس هكذا إذ أقبل أبو بكر ، على فرس له ، من الشح فسمع مقالة عمر وما يقوله الناس وما خاضوا فيه ، فبدأ بالنبي صلى الله عليه وسلم فدخل عليه وهو مسجى ، فكشفت عن وجهه فقبله ، ثم أقبل نحو المنبر وقال : أيها الخالف على رسلك ! فلما رآه عمر قعد ، وقام أبو بكر خطيباً ثم قال : أيها الناس اجلسوا وأنصتوا ، ثم حمد الله وأثنى عليه وصل على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :

أيها الناس ، إن الله قد نعى نبيكم إلى نفسه وهو حي بين أظهركم ونعاكم إلى أنفسكم ، فهو الموت حتى لا يبقى أحد . ألم تعلموا أن الله قال ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ .

قال عمر : بأبي أنت وأمي ! فسكت الناس وأظهروا التسليم ، وعرفوا الحق وبكروا ، كأنهم لم يكونوا سمعوا بهذه الآية قط .

ثم تلا : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾ ثم تلا : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ ثم تلا : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ ، ثم مر في خطبته المشهورة المعروفة . فهذا هذا .

ثم أقبل على عمر وعثمان فقال : قال الله : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ ، يقول : إنكم

شهداء على مَنْ تَلَقَّوْنَ مِنْ لَمْ يَلِقِ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ ، كما كمان النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه عليكم شهداء . وقال الله : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ ، وإنما أراد دينه ، واللهُ مُتِمُّ نُورِهِ ومُظْهِرُ دِينِهِ . فإذا أظهر دينه فقد أظهره .

فهذا علمه وقدره وفهمه وحاجة الناس إليه .

### [ ١٩ - حكمة أبي بكر في الزكاة ]

ثم الذي كان من مشي المهاجرين والأنصار إليه وكلامهم له ، ليقبل الصلاة من العرب ويترك الزكاة ، وقالوا : إنهم لو قد صلُّوا لقد زكُّوا ، قال : والله لو منعوني عقالاً مما أعطوه النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه لجاهدتهم عليه ! فقال له المهاجرون والأنصار : أو ليس قد قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه السلام : « أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، فَإِذَا قَالُوا حَبَّوْا بِهَا دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ » . قال أبو بكر : إن فيها « إلا بحقها » . قالوا : صدقت . ألا ترى إلى أنه قد علم الجميع ما لم يعلموا ، أو صيرهم إلى رأيه بقدر المخالفة له .

ونقلوا إلينا أن الأنصار قالت : يا خليفة رسول الله ، أليس قد قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه : « أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، فَإِذَا قَالُوا حَبَّوْا بِهَا دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحَسَابِهِمْ عَلَى اللهِ » قال أبو بكر : فهذا من حقها ، والله لو كنت وحدي لجاهدتهم حتى أقتل أو يُظْهِرَ اللهُ الْحَقَّ وَيُزْهِقَ الْبَاطِلَ ، إن الباطل كان زهوقاً .

ثم مضى نحو أهل الردة يريددهم مُغْضَباً حَتَّى لَحِقَهُ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ ، فَمَنْعُوهُ وَكَفُّوهُ وَتَقَدَّمُوا أَمَامَهُ .

وهذا خبر نقله أصحاب الأخبار مُرَجِّحِيهِمْ وَشَيْعِيهِمْ إِلَّا الرَّوَافِضَ ، فإنهم لا يطاقون ؛ لأن من يمجِّد المستفيض الشائع بالأسانيد المختلفة في الدهر المتفاوت ، ويوجب على خصمه له تصديق الشاذ الذي لا يُعرف ولا يدعيه إلا

أهل الغلو من الروافض ، ممتنع الجانب ، عسير المطلب ، لا يُطاق ولا يُجَارَى .

ثم رأينا علياً يروي عنه ، ويزكّيه ويفضّله ، ولم نسمعه روى عن عليٍّ شيئاً ولا زكاه ولا فضّله . على أن علياً قد كان عنده فاضلاً عالياً ، علماً وجيهاً .

ثم الذي كان من قول عثمان بن عفان له . وذلك أن عثمان حزنَ على النبي صلى الله عليه حزناً لم يحزنه أحدٌ ، فأقبل أبو بكرٍ يُعزّيه للنبي يرى به من عظيم ما قدحَه وغمّره ، فقال عثمان : ما آسى على شيء ، إنما آسى على أنني لم أسأل النبي صلى الله عليه عما فيه نجاة هذه الأمة ! قال أبو بكر : قد سألت النبي صلى الله عليه عن ذلك : فقال : « مَنْ قِيلَ الكَلِمَةُ الَّتِي عَرَضْتُهَا عَلَى عَمِّي فَأَبَاهَا » .

ألا ترى إلى حاجة الجميع إليه واستغنائه عنهم .

ولو لم يُعلّم من سعة علمه إلا قوله للمهاجرين والأنصار حين أشاروا عليه بأن يقبل الصلاة وقالوا إنهم لو قد أقاموا الصلاة لآتوا الزكاة . قال أبو بكر : إن تميماً إن أذن لها من الإسلام في نقض عُرْوَةٍ لم تُرضَ بمثله بكر بن وائل ، ولو أعطيت كنانة وألفافها وأحابيشها أمراً لم ترض قيس حتى تزداد ، ولئن سمعت قولكم لانقضن الإسلام عُرْوَةَ عُرْوَةٍ .

[ ٢٠ - حكمة أبي بكر في انفاذ جيش أسامة ]

وفي مشيهم إليه في تأخير جيش أسامة يشيرون عليه ويقولون ما كتبنا في صدر الكتاب ، وفي قوله : « لو بقيت وحدي حتى تأكلني الكلاب ما أخرت جيشاً أمر رسول الله صلى الله عليه بإنفاذه والوحي ينزل عليه » ، فلئن كان ما وصفنا لا يدل على جودة الرأي وصحة العزم وكثرة العلم ، وعلى الشهامة والصرامة ، واليمن والبركة ، فما في الأرض دليل على فضيلة رجلٍ ونقصه .

[ ٢١ - حكمة أبي بكر في مكان قبر النبي ]

ومما يدل على سعة علمه وأنه كان المَفْرَعُ دون غيره أن المهاجرين عامة وبني هاشم خاصة اختلفوا في موضع دَفْنِ رسول الله صلى الله عليه ، فقال قائل : خير المدافن البقيع ، لأنه كان كثيراً ما يستغفر لأهله . وقال آخرون : خير المواضع موضع مصلاه . وقال آخرون : عند المنبر . قال لهم أبو بكر : إن عندي فيما تختلفون فيه علماً . قالوا : فقل يا أبا بكر . قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه يقول : « ما مات نبي قط إلا دُفِنَ حيث يُقْبَضُ » . فخطبوا حول فراشه ثم حولوا رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفراش في ناحية البيت . فلم نجد الناس احتاجوا مع خبره إلى شاهد ، ولم يختلف عليه في ذلك رجلان ، ولا أظهر الشك في خبره إنسان واجد قريب ولا بعيد . هذا والمنزل منزل ابنته ، وهو في موضع جر منفعة وكما تكون المنفعة ، وهي المأثرة العظمى والشرف الأعلى .

فمن لم يُتَّهم في خبره على هذه الحال ومع هذه العلة حتى قبلت شهادته وخذته ، لجدير ألا يتقدمه أحد في القدر والعلم ، والأمانة والصدق .

[ ٢٢ - شهادة علي في أبي بكر ]

ومما يدل على أنه كان ثابتاً عندهم قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه وروايته عنه ، وذلك أن علياً قال : كنت إذا سمعت من النبي عليه السلام حديثاً يتفني الله بما شاء منه ، فإذا حدثني غيره استحلقتة ، فإني حلفت لي صدقته ، وإن أبا بكر حدثني - وصدق أبو بكر - أن النبي صلى الله عليه قال : « ما من رجل يذنب ذنباً فيتوضأ فيحسن الوضوء ثم يصلي كعتين ويستغفر الله إلا غفر له » .

وهذا حديث ما سمعت له براد إلا أهل الغلو من الروافض . وقد قال

قوم منهم : إنما كان هذا من عليّ التقيّة للعوام ، لطاعة العوام لأبي بكر وعمر . وما في هذا من التقيّة ؟ أن يصلّق رجلاً على خبره وأن يكذب غيره أو يؤمن غيره . وإنّ هذا من أخلاق الناس لموجود : أن يزكّي بعض بعضاً ويفضل . فنرى عليّاً يحمل عنه ويروي عنه ويزكّيه ويفضله ، ولم نره صنع بعليّ من ذلك شيئاً .

ولقد بلغ من تبطنه لأمر النبي صلى الله عليه أن النبي صلى الله عليه لما حاصر أهل الطائف قال عمر لأبي محجن : إنما أنت ثعلب في جحر يوشك أن يخرج ! قال أبو محجن : هل هو إلا أن قطعتم حبال عنب ، وفي الماء والتراب ما يعيده . قال عمر : لا تقدر أن تخرج إلى ماء وتراب ، ولا تبرح باب جحرك حتى تموت جوعاً . قال أبو بكر : يا عمر لا تقل هذا فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يؤذن له في فتح الطائف . فسأل عمر النبي صلى الله عليه فقال : نعم لم يؤذن لي .

قالوا : ولم يكن علم ذلك من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم غير أبي بكر . ولو علمه أحد غيره لكان عمر كعقير طير سودي

قالوا : في خطبة النبي صلى الله عليه في شكاته التي توفي فيها والمسلمون شهود ، وفي معرفته بالذي أراد النبي صلى الله عليه وسلم بكلامه دون جميع الناس ، دليل على أنه المخصوص بحسن المعرفة ، وفضيلة الدراية .

وذلك أن أول ما تكلم به النبي صلى الله عليه على المنبر أن قال : « والذي نفسي بيده ، إني لقائم على الحوض الساعة » . ثم تشهد فلما قضى شهادته كان أول ما تكلم به أن استغفر للشهداء الذين قتلوا بأحد ، ثم قال « إن عبداً من عباد الله خير بين الدنيا والآخرة فاختار ما عند الله » . فبكى أبو بكر . قالوا : فتعجبنا من بكائه . وقال : بأبي أنت وأمي وبآبائنا وأمّهاتنا وأنفسنا وأموالنا . قالوا : فتعجب الناس من كلام أبي بكر وبكائه وقالوا : أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن رجل !

قالوا : وكان أبو بكر أعلمنا برسول الله .

ولو لم يكن من صواب رأيه وصحة فراسته ، وتوفيق الله إياه إلا توليته خالد بن الوليد حرب مسيلمة وطليحة وأهل الردة ، وقد عوتب فيه من كل جانب - وعمر تناوله - وهو يقول : لا أشيم سيفاً سله الله على أعدائه .

ثم اختياره عمر وفراسته فيه ، حيث جعل له الأمر من بعده ، وعوتب فيه ونوزع في أمره .

وكذلك قال عبد الله بن مسعود ، الذي قال فيه النبي صلى الله عليه « رَضِيتْ لَأُمِّي مَا رَضِي لَهَا ابْنُ أُمِّ عَبْدِ » ، قال : أفرس الناس ثلاثة : المرأة التي جاءت على استحياء حين قالت لأبيها في موسى : ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ وامرأة العزيز ، وأبو بكر في عمر .

فهل رأيت ضام قوماً قط وجامعهم فكان لهم الرأي دونه ، وهل عوتب في شيء قط إلا والصواب ما عمل به دون رأي المعاتب له . وهل أشير عليه برأي قط إلا وهو المصيب دون المشيرين عليه؟! *عبد الرحمن بن عبد الوهاب*

فأي فقه وأي علم أصح وأي مذهب أحمد مما عددنا وكثرتنا .

ثم أنتم لا تستطيعون أن تُخبروا عن علي بن أبي طالب بموقف واحد من هذه الآراء ، وكلمة واحدة من هذا الكلام ومن الصواب الذي حكينا عن أبي بكر في حياة النبي صلى الله عليه ، وعند وفاته ، وفي أيام خلافته ، حتى كأن علياً ورجلاً من غرض المسلمين في ذلك الدهر سواء .

وما يُحِيلُ إلينا إلا أن الذي قطعته عن كثير من ذلك حدائثه سنه ، وتقديمه للمشيخة على نفسه .

فإن قالوا : إن علياً قد أشار على عمر بكذا ، وقال له يوم كذا وكذا :

كذا .

قلنا : إنا لم نكن في عُمر وعلي ، ولو قد صرنا إلى الإخبار عنها تقدّمنا  
بالذي يُعرفكم فضيلة عمر ، كما حكينا ووصفنا وتقدّمنا في الإخبار عن فضيلة  
أبي بكر .

ولقد بلغ من صحّة فكره وصدق ظنه وقوّة جسّه أنه كان يظنّ الأمر فيقع  
به أو قريباً منه . ولذلك قال عمر : إنك لن تنتفع بعقل المرء حتى تنتفع بظنه .

[ ٢٣ - صدق ظن أبي بكر ]

فمما يدلّ على صدق ظنّ أبي بكر وجسّ نفسه أن عائشة لما دخلت عليه في  
شكاته التي قبضه الله إليه فيها ، أنشدت عنده شعراً تذكر فيه ما رأته في أبيها .  
قال أبو بكر : لا تقولي هذا يا بنية ، ولكن قولي : ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق  
ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ ، أي بنية إنّي كنت نحلّتك جِدادَ عشرين وسقاً من مالي  
بالعالية ، وإنك لم تحوزيه ولم تقبضيه ، وإنما هو مال الوارث ، وإنما هما أخواك  
وأختاك . قالت عائشة : إنما هي أسماء ! قال : إنه ألقيني في روعي أن ذا بطن  
بنتِ خارجة [ جارية ] . فوضعت جارية فسُميت أم كلثوم .

وله مما كان يقع في خَلده ويصدق فيه ظنه وتصحّ فيه فراسته أمورٌ عجيبة .

[ ٢٤ - فقهاء الاسلام . عودة الى فقه علي ]

ولو قالوا : إن علياً كان من فقهاء أصحاب النبي صلى الله عليه لقد كان ذلك  
عدلاً وقصداً ، وحسناً جميلاً ، كما قال إبراهيم والشعبي : الفقه من أصحاب  
النبي صلى الله عليه في ستة : في عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ،  
وعبد الله بن مسعود ، وأبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت .

وقد زاد قومُ أبا الدرداء ، وأبا موسى . وقد قال مسروق : انتهى علمُ  
أصحاب رسول الله إلى هؤلاء الستة : عمر ، وعلي ، وعبد الله ، وأبي ، ومعاذ ،

وزيد .

وقال الشعبي : كانت القضاة أربعة : عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعري .

فلو أنهم كانوا يرضون بقول الفقهاء وراي التابعين ، ولم يُسرفوا وقصدوا ، كان ذلك قسداً . ولقد تعدوا فيه الحق حتى قالوا : لم يقل قط قولاً يمكن أحسن منه ، ولا قال قولاً قط فرجع عنه . وقد علمنا أن له غير رجعة ، لا اثنتين ولا ثلاثاً ، وأقارب لا يجوزها أصحاب الفتيا . وما كان إلا كبعض فقهاءهم الذين يكثر صوابهم ويقل خطأؤهم . ولم تكن لتجمع جميع هفوات إنسان وأخطائه حتى تقرأه مجموعاً إلا ظننت به العجز . وليس ذلك كذلك ، لأنك لو قذفت بجميع ذلك في محاسنه لخبني عليك موضعه ، ولصغر خطره وقدره .

وإنما حكينا هذا لأنهم جمعوا العسر وعثمان أموراً أرادوا بها عيبتهم ونقصهم ، ولعمري إن الخطأ خطأ حيث وقع ، ولكن ربما كان خطأ لا يخرج صاحبه من الحكمة . والخطأ أمر لكل بني آدم فيه حظ ونصيب ، وهو أمر لم يسلم منه نبي ولا صديق ولا شهيد ولا أحد من العالمين .

ومما تقرّروهم به مما رواه جمال الآثار من رجوعه وما لا يجوز من فتياه ، قوله : أجمع رأيي ورأي عمر على عتق أمهات الأولاد ، ثم رأيت أن أربهن .

ونقلوا جميعاً أن عمر وعلياً اختلفوا في الجحد ، فقال علي بقول ، وقال عمر بقول ، ثم رجع عمر إلى قول علي ورجع علي إلى قول عمر .

ونقلوا جميعاً أن زيد بن ثابت قال لعلي وهو يحاجه في المكاتب : أرايت إن زنى أنت راجحه ، قال : لا . قال : أرايت إن شهد أتقبل شهادته ؟ قال : لا . قال زيد : فهو إذا عبد ما بقي عليه درهم . فسكت علي .

وزعم أصحاب داود بن أبي هند ، عن داود عن الشعبي ، أن علياً رجع

عن قوله : « في الحرام ثلاث » .

وكلم عليّ عثمان أن يحجز عليّ عبد الله بن جعفر في شيء كان اشتراه ،  
وقد كان الزبير قال لعبد الله : خذهُ فأنا شريكك . فقال له عثمان : كيف أحجز  
عليّ إنسانٍ شريكه الزبير ! فسكت عليّ .

وقال في المكاتب ، إذا أدى من ثمنه شيئاً ، إنه يُسْتَرْقُ بِحَسَابٍ وَيُعْتَقُ  
بِحَسَابٍ .

وقال في النصرانية تُسَلِّمُ وهي تحت النصرانية قال : هو أحقُّ بها ما لم  
يُخْرِجْهَا من دار الهجرة .

وقال في رجلٍ قال لامرأته : « اختاري » واختارته ، ثم قال : « اختاري »  
فاختارته ، ثم قال الثالثة : « اختاري » فاختارته ؟ قال : أفرق بينهما ، فإن أنا  
فعلت كذا وكذا .

وقال في أعورٍ فقأ عين صحيح ، فأراد الصحيح أن يفقأ عين الأعور الذي  
فقأ ؟ قال : لا يفقؤها إلا أن يؤدي نصف الدية .

وقال في الجَدِّ : إنه سادس سنة ، وسابع سبعة . وكتب إلى عبد الله  
بذلك ، وقال : قَطَعَ الْكِتَابَ وَاجْعَلْهُ سَابِعاً .

وقال في جارية وثبت عليها امرأة رجلٍ غائب فافتضت عُذْرَتَهَا بِإصْبَعِهَا ،  
ثم قذفتها لتسقطها من عين بعلمها ، وكانت خافت أن يتزوجها ، فرُفِعَ ذَلِكَ إِلَيْهِ  
فقال لبعض بنيه : قل في هذه المسألة . قال : عليها صَدَاقٌ مِثْلُهَا . قال : لو  
كلفنا الإبل الطحن طحنت ! فاشتدَّ تعجب أصحاب عبد الله من هذه المقالة .

وكان يرى حكَّ أصابع الصبيان إذا سرقوا .

وكان إذا قَطَعَ الرَّجُلُ قَطَعَ الْقَدَمَ وَتَرَكَ الْعَقِبَ لِيَمْشِيَ عَلَيْهِ الْمَقْطُوعُ ،  
وليَعْتَمِدَ بِهِ . وكان يَقَطَعُ الْيَدَ مِنْ أَصُولِ الْأَصَابِعِ وَيَدْعُ الْكَفَّ .

وزعم عبد الله بن سلمة وغيره ، عن الأعمش ، عن الشعبي أو عن غيره ، أنه سُئل عن رجل قال لامرأته : أنت طالق ألف تطلقه ، وله أربع نسوة ؟ قال : تَبِينُ بثلاثٍ وتُقَسِّمُ الباقية على نساته .

ويقال لهم : هل تعلمون أن الله ذَكَرَ آدَمَ وهو أولُ النبيين فقال : ﴿ فَتَسِيَّ ولم نَجِدْ له عَزْماً ﴾ .

وذكر موسى وقتله النفس . وذكر يونس بن متى فقال : ﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه ﴾ . فالمدليل على أن يونس قد كان ضيغ وأساء قوله : ﴿ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ وقول الله : ﴿ فَالتَقَمَهُ الحُوتُ وهو مُلِيمٌ ﴾ .

وذكروا داود وسليمان في قضية واحدة ذهب عنها داود وأصابها سليمان ، حيث يقول الله : ﴿ وَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ فلم يكن ذهاب داود بمُخْرِجِهِ من قول الله : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ وَفَضَّلْنَا الحِطَابَ ﴾ . وقد كان منه ما قد علمت ، حتى أنزل الله عليه الملكين يَكْتَبِيَانِ عن قِصَّتِهِ ، وَيَزِيدَانِ وَعِظَهُ فِي قِصَّةِ : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الحِطْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا المِحْرَابَ ﴾ .

وقد عاتب الله جل ثناؤه نبيه في غير موضع فقال : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ وقال : ﴿ لَقَدْ كَذَبْتَ تَرَكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ﴾ وقال : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ .

وعاتبه في الأسرى وأخبره أنه قد تقدم أمره في إطلاقهم حتى قال : ﴿ لولا كتابٌ من الله سبقَ لمسُكْمُ فيما أخذتم عذابٌ عظيمٌ ﴾ .

وقال الله وهو يريد جمع المأمورين والمنهين : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناسَ بما كَسَبُوا ما تَرَكَ على ظَهْرِها مِن دَابَّةٍ ﴾ .

فإذا كان الله قد أخبر بما ترى عن المعصومين فلم يتبع قوم على عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان خطاياهم وهفواتهم ، وللمعمرية، والعثمانية أن

يعودوا عليهم بمثل ذلك وأكثر منه ؟

وَمَنْ أَجْهَلُ مِنْ رَجُلٍ زَعَمَ أَنْ عَلِيًّا لَمْ يُحْطَىءَ قَطُّ وَلَمْ يَعْصِرَ قَطُّ ، وَلَمْ يَضِيْعَ شَيْئًا قَطُّ ، وَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ بِحِكْمِي أَمْوَرَ أَنْبِيَائِهِ ، وَيَذْكَرُ أَحْوَالَ رُسُلِهِ ؟ !  
ولسنا نحتاج في هذا الباب إلى أكثر من هذا .

[ ٢٥ - علي ليس أفقه الناس ]

وكيف يقولون : عليُّ فوق الناس كلهم في صواب السراي ، والفقه في الدين ، ولا يكون كالرجل من عظام السلف لضرب يخصه فيهما ، ونحن إذا سألنا الفقهاء وأصحاب الآثار والعلماء ، عن أصحاب القرآن الذين كانوا مخصوصين بحفظه على عهد رسول الله صلى الله عليه ، قالوا : زيد بن ثابت وأبو زيد ، وفلان وفلان . ولم يذكروه في باب المخصوصين بحفظ القرآن أيام حياة رسول الله صلى الله عليه .



فإن سألناهم عن أصحاب الحروف والقراءات والوجوه ، الذين بقراءتهم يقرأ الناس ، وبقدر اختلافهم اختلف الناس ، قالوا : زيد بن ثابت ، وأبي بن كعب ، وعبد الله بن مسعود . ولم يُذكر منهم ، لأننا شاهدنا الناس يقولون : هذا في قراءة عبد الله بن مسعود ، وهكذا هو في مصحف عبد الله . وهذا في قراءة أبي ، وهكذا هو في مصحف أبي . وهذا في قراءة زيد ، وهكذا هو في مصحف زيد . ولم نرهم يقولون : هذا في قراءة علي ، وهكذا هو في مصحف علي .

وإن سألناهم عن أصحاب التأويل والتفسير قالوا : عبد الله بن عباس ، والحسن ، وفلان وفلان ، ولم يذكروه في هذا الباب .

وإن سألناهم عن أصحاب الرواية ، والمشهورين بكثرة الإسناد عن رسول الله صلى الله عليه قالوا : ابن عمر ، وعبد الله بن عمرو ، وجابر بن

عبد الله ، وعائشة ، وأبو هريرة . ولم يُذكر معهم في هذا الباب .

وإن كان الدليل على فقه المتبوع فقه أتباعه فعبدُ الله بن مسعود وعائشة أفقه منه ، لأن أصحاب عبد الله وعائشة أفقه من أصحابه ، فكيف صار أفقه خلق الله كلهم والقصة على ما أنبأناكم ووصفنا لكم .

على أنه كان فقيهاً عالماً ، قد أخذ من كل بابٍ بنصيب ، ولا نقول فيه - إذ كنا عثمانيةً وعمريّةً - قولكم في عمر وعثمان . أو ما تعلم أن الخبير مستفيض بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أقرؤكم أبي » ١٩ فتري أيّاً . كان أقرأ منه . وقال : « أفرضكم زيد » فتري زيدا كان أفرض منه . وقال : « وأعلمكم بالحلال والحرام معاذ » فتري معاذاً كان عند النبي صلى الله عليه أعلم منه . وقال : « وأفضاكم عليّ » فينبغي أن يكون عليّ أفضى منهم . وأنتم لا ترضون أن يكون زيد أفرض منه ، ولا أبي أقرأ منه ، مع أن « أفضاكم عليّ » ليس هو في حديث البصريين ، فإن كان كما رواه البصريون فهو لاء النفر أعلم منه . وإن كان كما رواه غيرهم فكل واحد أفقه من الآخرين فيما ذكرته ، فهذا هذا .

مركز تحقيقات كويتيون علوم إسلامية

[ ٢٦ - تصور علي في التدبير والياسة ]

فإن صرت إلى أن تسأل الناس عن الاختيار، وجودة الرأي ، والقوة في السلطان ، والضبط للمدد والعموم قالوا : أبو بكر وعمر .

وإن سألت عن الفتوح قالوا : أبو بكر وعمر وعثمان ، لأن أبا بكر رد الإسلام في نصابه برد أهل الردة ، وهو الفتح الأكبر ، وقتل مسيلمة ، وأسر طليحة ، وغزا العدو ومنع الحوزة .

ولأن عمر دون الدواوين ، وفرّض الاعطية وجند الأجناد ، ومصر الأمصار ، وجبى الفياء ، وبلغت خيله إفريقية ، وأوطأ خيله خراسان وأقصى كرمان ، وأزال ملك بني ساسان .

ولأن عثمان هو الذي افتتح الثغور كلها : افتتح إربينية ، افتتحها حبيب  
ابن مسلمة الفهري وافتتح أذربيجان ، افتتحها المفيرة بن شعبة ، وقد كان  
الاشعث معه فيها . وافتتح إفريقية ، افتتحها له عبد الله بن سعد بن أبي سرح .  
وافتح سجستان ، افتتحها له عبد الله بن سمره .

فهذا باب المخصوصين بالفتح .

وإن سألت عن الذهاة وأصحاب الإزب والمكايد قالوا : عمرو بن  
العاص ، والمغيرة بن شعبة ، ومعاوية بن أبي سفيان . ولم نذكر فيهم زياداً لأن  
زياداً لا صحبة له . فهذا باب الذهاة .

وروى الناس عن قبيصة بن جابر الاسدي وكان علامة داهية حكماً ، أنه  
قال : « ما رأيت رجلاً قط أخوف لله من أبي بكر ، ولا أقوى في دين الله من  
عمر ، ولا أصدق حياة من عثمان ، ولا أواصل لرحم ولا أعطى من تلاد مال  
من طلحة ، ولا أكثر مخارج في الأمور من معاوية ولا أخضر جواباً ، ولا أكثر  
صواباً من عمرو . » ولم نره ذكره .

ثم الذي كان من أسماء بنت عميس ، ومن قولها - وعلي بن أبي طالب  
شاهد ، لما تفاخر عندها بنوها من جعفر وأبي بكر وعلي ، قال لها علي : اقضي  
بينهم - قالت : ما رأيت شاباً أظهر من جعفر ، ولا رأيت شيخاً أفضل من أبي  
بكر ، وإن ثلاثة أنت أحسهم لفضلاء .

فهذه قضيتها ؛ ولم يرو عن علي في ذلك إنكار .

فإن قلتم : إن قولها ليس بحجة . قلنا : قد صدقتم لو كان ليس بحجة  
إلا قولها فقط ، ولكن الأمور إذا جاءت من ها هنا وها هنا كان اجتماعها دليلاً  
على أنه لم يكن عندها مع فضلها وصلاحيته وسابقته وقرابته ذا رأي .

ولقد بلغه ذلك عن قريش حتى قام خطيباً معتذراً فقال في خطبته : « حتى قالت  
قريش : ابن أبي طالب شجاع ولكن لا علم له بالحرب ، لله أبوهم أهل منهم

أحد أشدّ مراساً لها ولا أطولُ نَجْرية مني . لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين ،  
فها أنا الآن قد ذرّفت على السّتين ، ولكنه لا رأي لمن لا يُطاع .

وقال الأحنف بن قيس لما قديم عبيد الله بن عليّ بن أبي طالب - وهو قتيل  
المختار بن أبي عبيد في أيام فتنة ابن عُمرية العبدي : ما هذا الذي أنتم فيه ؟  
قالوا : قديم عبيد الله بن عليّ يدعو الناس . قال : إن كان لا بُدّ فجنّبوها حسناً  
وأبا حسن ، فإننا لم نجد عندهم علماً بالحرب ، ولا إنالة للمال .

وقيل لأبي بَرزّة الأسلمي : لم آثرت صاحب الشام على صاحب العراق ؟  
قال : وجدته أطوى لسره ، وأملك لعنان جيشه ، وأنظر لما في نفسه .

وفي قول العباس بن عبد المطلب ، وهو حلیم قريش - وإذا كان حلیم  
قريش فهو حلیم العرب ، والحلم اسم جامع للعلم والخزم - وذلك أنه لما قبض  
عمر وصلّى صهيّب بالناس دعا العباس عليّاً فقال : هل أحدثتم شيئاً ؟ فقال :  
فاحفظ عني ، فإنني لم أقدمك في شيء إلا رأيتك مستأخراً . من ذلك أني قلت  
لك ورسول الله صلى الله عليه وسلم تقبل : ادخل عليه فسأله ، فإن يكن هذا  
الامر فينا أعلمه الناس ، وإن يكن في غيرنا أوصني بنا . فتركت ذلك وقد منيت  
بدهاة قريش ، وقد جيل دوني ، فلا يُعرضن عليك شيء إلا قلت : لا لا ، ولا  
يا أبتى ، تقصر عينيك وتحك قفاك ، بعد فوت الأمر .

ففيما ذكرنا دليل أنه كان لا يساوي أبا بكر ولا يجاربه ، ولا يدانيه ولا  
يقاربه ، وأنه في طبقة أمثاله طلحة والزبير ، وعبد الرحمن وسعد .

[ ٢٧ - أبو بكر ازهد من علي ]

فإن قالوا : فإن عليّاً كان ازهد فيما تتأخر الناس عليه ، ولأن ازهد الناس  
في الدنيا أرغبهم في الآخرة ، ولأن أرغبهم في الآخرة أعلمهم بأحوال الآخرة .

قلنا : قد صدقتم في صفة الزهد ، ولكن أبا بكر كان ازهد منه .

وسندلکم علی ذلك .

فمن ذلك أن أبا بكر كان ذا مال كثير، ووجه عريض، وتجارة واسعة، فأنفق ذلك في سبيل الخير وعلى أهله، إشاراً لله ولرسوله، وطلب ما عنده، حتى لقي [ الله ]، وما كانت تركته يوم مات غير بعير ناضح، وعبيد صيقل، مع الخلافية وكثرة الفتوح والغنائم والخروج والصدقة .

وكان علي بن أبي طالب مقلداً مخفياً يعال ولا يعول، فاستفاد الرباع والمزارع، والعيون والنخيل، ومات ذا مال وأوقاف، وما يحسب ماله ووقفه يتبع إلا مثل كل شيء ملكه أبو بكر منذ كان في الدنيا إلى أن فارقتها

[ ٢٨ - اهلي مزواج علی خلاف ابي بكر ]

وتزوج [ علي ] فآثر، وطلق فآثر، حتى عابه بذلك معاوية، وجعله طريقاً إلى تنقصه، وسبيلاً إلى الطعن عليه، فقال وهو يكتفي عن ذكره ويُرَبِّدُه ؛ لِيَكُونَ أَسَدٌ لِسَهْمِهِ ، وَأَوْقِعَ فِي قَلْبِ مَنْ سَمِعَهُ : « إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَنَا بِنُكْحَةٍ وَلَا طَلْقَةٍ » .  
وَالْأَثَارُ أَنَّ عَلِيًّا رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ، اسْتَشْهَدَ وَعِنْدَهُ تِسْعَ عَشْرَةَ سُرِّيَّةً مَطْهُمَةً وَأَرْبَعَ نِسْوَةٍ عَقَائِلَ .

ولا سواة من كان ذا مال فأنفقه، ومن كان مقلداً فكسبه .  
ولم يتزوج أبو بكر في خلافته امرأة ولا اتخذ سُرِّيَّةً ، ولا تفكه بشيء، ولا آثر لذة إن كان له طلقاً مباحاً .

[ ٢٩ - تقاضى علي عمالته من الخزينة على عكس أبي بكر ]

ثم الذي كان من أبي بكر في عمالته : أنه كلف بني تميم ومن عنده أياديه وميته أن يردوا ما أخذ من بيت المال فيه، لكي يجعل عمالته لله . وعلى ذلك

احتلدى عمر . وقد كان عليُّ يأخذ عمالته ، ولم يُخبرنا أصحاب الأثار أنه ردها في بيت المال ، ولا كلف ذلك بني هاشم في وصية . وهذا ما لا يختلف فيه رجلا من أصحاب الأثار ، ومحال الأخبار .

وقد كان أخذاً لقوحاً وحبشية لرضاع بعض ولده فرد ذلك في بيت المال .

ولما بايع الناس أبا بكر غدا على سؤقه كما كان يفعل ، فقالوا : فلا بد أن نجعل لخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً يقيمه . قالوا : برديته إذا أخلقها وضخمها وأخذ مكانها ، وظهره إذا سافر ، ونفقته على أهله كما كان يُنفق قبل خلافته . قال : رضيت . فجمع ذلك كله وحفظه ، ثم أمر بني تميم فردوه في بيت المال . فخرج من الدنيا خفيف الظهر ، خميص البطن . فلما فعل ذلك قال عمر : رحم الله أبا بكر ، لقد شق على من بعده !

فإن قالوا : أوليس قد كان عليُّ يتضح بيت المال في كل جمعة ويصلي فيه ركعتين ؟

قلنا : إننا لم نكن في ذكر الأمانة والحيانة ، لأن أبا بكر وعلياً يرتفعان عن هذا الضرب من المديح ، وعن هذا الضرب من النشأ ، وإنما كنا في ذكر الزهد في المباح ، وفي الإيثار والرفض للفضول ، لأن بين الرجل يعطى ماله وعليه ، وبين من يعطى ما عليه ولا يعطى ما له فرق .

[ ٣٠ - أنزلت الآي في أبي بكر تكريماً له ]

ومما يدل على فضله أن الله أنزل فيه من القرآن ما لم يُنزل في أحد من المهاجرين والأنصار . كل ذلك يخبر عن فضله ، ويدل فيه على مكانه منه ، ويثنى عليه ويزكّيه ويعظمه . وليس من أفرد الله فيه الآي ، وأفرده بالذكر كمن ذكره في جملة المؤمنين ، وجمهور الأنصار والمهاجرين .

ولا سبيل إلى المعرفة بأن الله عفى بآية كذا وآية كذا فلاناً دون غيره إلا

بضريين : إما أن يكون اسمه وخاصةً نسبة ونعته مسطوراً في الآية ، كما ذكر فرعونَ وأبا لهب ، وفلاناً وفلاناً ، وكما ذكر آدمَ ونوحاً وإبراهيمَ وموسى وعيسى ومحمداً صلى الله عليه وعليهم .

أو يكون المراد بالآية وإن لم يذكر اسمه ، كما ذكر لقمان ، وزيدٌ . [ زيدٌ ] مشهور النسب معروف القصة أنه المراد بالآية ، وبشهرة القصة والنسبة حتى لا يكون بين أهل ذلك الدهر في ذلك تنازع ، ولا بين أصحاب التأويل والأخبار في دهرنا هذا ، فيكون كأنه مسمى وإن لم يُسم .

وقد كانت تحدث بين الناس أمورٌ فينزل القرآنُ عقب ذلك ، فيعلم المهاجرون والأنصار من المراد بهذا التنزيل . كالذي كان من شأن عائشة وما قُرفت به ، حتى أنزل الله لذلك السبب آياً كثيراً ، وإن لم يكن الله سُمى عائشة ولا من قرفها . وكالذي نزل من القرآن في قصة الغار وهجرة النبي صلى الله عليه وأبي بكر ، وهربهما من قريش ، ونصرة الله لهما .



مركز تحقيقات كويتيون علوم إسلامية

[ ٣١ - آية الغار ]

فكان مما أنزل الله في أبي بكر من تفضيله وتزكيته وإن لم يُسمه قوله لجميع المؤمنين : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

فلا يخلو قوله : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ ﴾ من أحد وجوه : إما أن يكون مخاطب به المشركين عامةً ، أو خصص به الخاذلين العادين والباغين ، أو يكون مخاطب به المؤمنين .

ولا يجوز أن يكون عنى به المشركين ، لأنه لا يجوز في الحكمة وفي المعروف

من البيان أن يقول الرجل الحكيمُ المبين ، للعدوِّ المكاشِفِ بعداوتَه ، المظهرِ لِضغْنِهِ ، الباذلِ لرأيه وماله ، المعاندِ في فعله : إلاً تنصُرني فقد نصُرني فلان ! لأنَّ النصرَ لا يُلْتَمَسُ من العدوِّ المكاشِفِ ، وإنما يُلْتَمَسُ من الوليِّ أو من الخاذلِ .

وكيف يقول هذا وإنما غايته الانتصارُ منه بغيره .

وفي قول الله عز وجل : ﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ دليلٌ أنَّ المخاطَبَ بالكلامِ غيرُ الذين كفروا به وجَحَدوه وأخرجوه . ولا يجوز أن يكون عنى الخاذلين له من قريشٍ ومُشركي مَكَّةَ إلاً والخاذلون قد كانوا هناك معروفين ، بائنين من العادين المتوثبين المبادين بالعداوة ، المظهرين للمحاربة . ولا نعلمهم كانوا يبطنُ مَكَّةَ صنفين متمايزين ، [ و ] فريقين متباينين ، حتى يكون كلُّ حزبٍ مشهوراً بالذي هو عليه من الخِذْلانِ والعداوة . وليس بطنٌ من بطون قريشٍ إلا وقد لقي النبي صلى الله عليه وسلم منه أعظمَ المكروه وإن كانوا في ذلك على طبقات : من مجتهدٍ لا يُبقي ، ولا يفترو ولا يسام ، ومن رجلٍ مائلٍ معهم بضلعه مُبِدٍ معهم لضره وإن كان لا يبلغ غلوِّ الآخر وتصميمه وقلةِ إغفاله .

ولقد كانت خُزاعةٌ وثقيفةٌ على بعدِ أنسابها وأرحامها أحسنَ تقيَّةً من قريشٍ في إظهارِ العداوة ، والإرصادِ بالمكروه ، والثباتِ على البقي ، كالذي بلغك عن الأحنس بن شريقٍ وحرورةَ بن مسعود ، ويُذيلُ بن ورقاء ، مِن رُكونهم إلى الصلحِ وحبِّهم للسلامة ، مع قلةِ التسرُّعِ والتوثُّبِ . على أنهم قد أجلبوا وطعنوا ، وكفروا وكذبوا ، بعد الإفصاحِ لهم بالحجَّةِ ، والإبانةِ لهم عن المحبَّةِ .

ولقد كان أبو هبٍ على قربه وقربته ، شبيهاً بأبي جهلٍ في الغلظةِ والقسوةِ والجفاء ، وكثرةِ التدرِّي ، وقلةِ السامةِ .

ولم يكن أبو طالبٍ يوم نزلت هذه الآيةُ حياً مقيماً فيكونُ الله جلُّ ذكره عناه فيمن أطاعه من رهطه بهذا الكلامِ . على أنه لو كان حياً لقد كان معلوماً أنه لم يكن هناك أحدٌ أحسنَ ذباً ، ولا أشدَّ نصراً ، ولا أظهرَ معونةً ، ولا أشدَّ حمايةً منه .

ولم يكن الله ليُعرف قوماً موضع الخلة في النصرة ، والتقصير في المدافعة ،  
إلا وأدنى منازلهم أن يكونوا مُقرنين لمن ناوَاهم ، مضطلعين بدفع من شاقهم .

ولا نعلم يومَ كانت هذه القصة ، ونزلت هذه الآية ، وبمكة رجلٌ من بني  
هاشمٍ مطاعٌ متبوعٌ غير العباس بن عبد المطلب . ولا يجوز أن يقول الله للعباس  
وَمَنْ كَانَ فِي ذَرَاهِ مِمَّنْ يَسْمَعُ لَهُ وَيَنْفَعُ لَأَمْرِهِ : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾ ،  
وقد علم أن العباس وأشباَهه من مشيخة بني عبد مناف لا أعوان لهم يومئذ من  
بني عبد مناف ، لأن بني عبد مناف دنيا على قريهم وقرابتهم ، كانوا أشدَّ الخلق  
على رسول الله ، كأبي سفيان بن حرب ، وعقبة بن أبي معيط ، والحكم بن أبي  
العاص ، وأبي أحيحة ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة ،  
وفلان وفلان . ولم تكن أميةً انمازت في ذلك الدهر من هاشم ، وكان يقال  
للحيين : عبد مناف . [ و ] كان من أمر عثمان الذي بلغك .

فقد دلَّ الكلامُ على أن الله إنما عني بالآية المؤمنينَ دون الكافرين ؛ إذ  
كانت مخاطبةً العادي والخاذل على ما وصفنا . وليس أنه أراد تأنيب المؤمنين  
وتقريع المهاجرين ، ولكنه أختير عن تفصيرهم عن فضيلة أبي بكر إذ ظعنوا  
وأقام . وليس النقص في الفضل كالنقص في الفرض . فكأنه تعالى وعزَّ قال : لو  
كنتم صبرتم مع نبيكم ، ما أقام ، إلى وقت الإذن كصبر أبي بكر معه ، ولم  
تخرجوا هاربين جازعين ، ولدار نبيكم مهاجرين ، كان أشدَّ لصبركم ، وأكمل  
لرغبتكم ، وأنتم لتقيتكم . وليس أنكم عصيتم في خسروكم ، ولكن بعض  
الصبر والاحتمال أفضل من بعض ، وكذلك الطاعة تطوعها وفرضها . كما قد  
علمتم أن بلالاً وخباباً وعماراً حين فضهم المشركون عن دينهم جزعَ عمارُ  
وأعطاهم الرضا ، مع انطواء قلبه على الإخلاص ، وتلج صدره بالإيمان ، ولكن  
عزمه كان منقوصاً عن التمام ، من غير أن يكون ذلك عصياناً ولا خلافاً .  
ويدلك على ذلك قول الله : ﴿ إِلَّا مَنْ أَكْرَمَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ . ولذلك قال  
النبي صلى الله عليه وسلم : « إن عادوا فعد ، يريد به التوسعة والرخصة  
والإطلاق ، وليس على الأمر والترغيب .

وكما بلغك عن الرجلين الواردين على مُسَيْلِمة ، حين قال لأحدهما : أتعلم  
 أي رسول الله ؟ قال : نعم . قال : أتعلم أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم .  
 قال : فأمر به فقتل . وقال للآخر : أتعلم أي رسول الله ؟ قال : نعم . قال :  
 فتعلم أن محمداً رسول الله ؟ قال : [ لا ] فأمر بتخليفة سبيله . فلما بلغ ذلك  
 النبي صلى الله عليه قال : أما الأول فمضى على عزمه ويقينه فنهياً له ، وأما  
 الثاني فأخذ برخصة الله فلا تبعه عليه .

فعل هذا المثال كان تقصير القوم ، لا على وجه الخلاف والمعصية .

وذلك أن أبا بكرٍ أقام بمكة ما أقام النبي صلى الله عليه وسلم ، وهاجر  
 الناس الأول فالأول ، فبعض أتى المدينة ، وبعض أتى الحبشة ، حين اشتد  
 عليهم البلاء وطال الذلُّ وقُلُّ الناصر ، وقويت الضغائن ، فكان النفر بعد  
 النفر ، والرجل بعد الرجل ، يستأذن النبي صلى الله عليه وسلم في الهجرة فيأذن  
 له . وأقام أبو بكرٍ وحيداً لا أنيس له ، وذليلاً لا ناصر له ، وخائفاً لا أمان  
 معه ، في كل يوم يزدادون عليه قوة ويزداد عنهم ضعفاً فإذا بلغ المجهود ،  
 ولم يبق في قواه فضل يستعين به على الصبر ، استأذن النبي صلى الله عليه وسلم  
 في المضي إلى إخوانه واللحاق بهم ، فيقول له : « لعل أن يجعل لك صاحباً »  
 فيزداد بها أبو بكرٍ قوة ، وتحدث له بها همة . وهذه كلمة ما قالها النبي صلى الله  
 عليه لمستأذن قبله ، فيعلم أبو بكر عند ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما  
 عناه ؛ فيشجع من نفسه ، ويشد من منته ، طمعه في شرف الصُحبة ، وإكرامه  
 إياه بفضيلة المرافقة .

وقد استأذن النبي صلى الله عليه الناس [ قبله ] بسنين ، فكان أولهم أبو  
 سلمة بن عبد الأسد ، وآخرهم عمر بن الخطاب ، لقرب حال عمر في الفضل  
 والصبر من حال أبي بكر . فكأنه خاطب المهاجرين ، على التعريف لهم بفضيلة  
 صبر أبي بكر على صبرهم ، مشحذة لهم على إعطاء الجهد ، وترغيباً لهم في غاية  
 الصبر في مستقبل الأمور وحوادث الامتحان . فكأنه قال : إذا لم تستموا

الصبر ، ولم تبلغوا غاية الجهد ، ولم تصبروا ما أقام ، فقد نصرته أنا إذ أخرجته  
ثاني اثنين .

والدليل على ما قلنا قولُ عمر لقريش حين بادأهم العداوة ، ونَصَب لهم  
الحرب ، وأحس من نفسه بالجلدِ وشدة الشكيمة ، وقوة العزيمة : « أما والله أن  
لو قد صبرنا مائة لتركتموها لنا إن تركناها لكم ، يعني مكة .

فلو كان جميع من هاجر إلى الحبشة وأن المدينة على مثل هذا العزم  
والاحتمال والدفع ، وهم جميع ، لكان ذلك من أقام ووحشته أقل ، ونفوسهم  
أطيب .

والدليل على فضيلة مقام أبي بكرٍ على ظعنهم أنهم حيث هاجروا ونزلوا  
بالنجاشي والأنصار فنزلوا بأكرم منزلٍ به ، فكانوا في ذراه آمنين ، رافهين  
وادعين ، إلا ما كان من قصة جعفر ، وسعاية عمرو ، وإحماس النجاشي  
وتهمجه . فما كان ذلك إلا صذرَ نهارٍ حتى جعل الله العاقبة للمتقين . وأبو بكر  
والنبي من الوحدة والقلة ، والجفوة والوحشة ، وخفة ذات اليد ، والسب  
والإهانة ، والخوف بالقدر الذي لا يأتي عليه قولٌ وإن كثر ، ولا يبلغه وهم وإن  
أُتسع .

وهكذا روينا عن الضحَّاك وقتادة وأبي بكر الهذلي في تأويل هذه الآية : أن  
الله عاتب جميع المؤمنين بها غير أبي بكر . ولو لم يكن [راويه] ولم يفسر ذلك  
صاحب تأويل ، لم يجوز أن يكون تأويله غير الذي قلنا ؛ للذي شرحنا وقصنا .

ولو كانت هذه المخاطبة وقعت على الخاذلين والعادين ، أو على الخاذلين  
دون العادين والمؤمنين ، لقد كان لأبي بكر في الآية ما ليس لأحد ، فكيف بها إن  
كانت في المهاجرين ؛ لأن في قوله « ثاني اثنين » معنى عظيمًا ، وفي قوله :  
﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ ﴾ معنى عظيم .

فإن قالوا : كل ما عظمتهم فعظيم ، ولكن بعضه لا يجوز إلا للنبي صلى

الله عليه دون أبي بكر ، وهو قوله : ﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ﴾ .

قيل لهم : استكرهتم التأويل ، وصرفتم الكلام عن سنيته ، وغير تأويلكم أشبه بكلام العرب ، وأظهر في بيان الخطباء ، ومراجعة الحكماء . وذلك أن النبي صلى الله عليه كان هو الرابطة الجاش ، والثابت الجنان ، الساكن النفس ، وهو المعزى لأبي بكر ، والمسهل عليه شدة حزنه ، والمطيب لنفسه ، والمسكن لحركة قلبه ، للذي رأى وعان من أكرائه ومن اضطرابه ، وقلة سكينته . وهذه الحال التي فيها قلب النبي صلى الله عليه وخليفته ، وأبو بكر على ما وصفنا وفرقنا ، هي الفاصلة بين النبي صلى الله عليه وبين خليفته ، إذ كان الخليفة قد شارك النبي صلى الله عليه في حضوره واحتماله ، وبان منه النبي صلى الله عليه بشدة عزمه وسعة صدره ، وسكون قلبه ، كالفصل الذي بين الخليفة ووليّ عهده .

وكذلك تعجل عمر الهجرة قبل أبي بكر ، فكان بذلك أنقص فضلاً منه . وتأخر بعد المهاجرين ، فكان بذلك أتم فضلاً منهم .

وفي قول الله : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ﴾ دليل على أن السكينة نزلت على صاحبه ، وأن الهاء التي في « عليه » مضمرة فيها صاحبه . ولا يشبه أن تكون السكينة نزلت على من لم يخل من السكينة وقلة الاضطراب ، وعلى المسهل على صاحبه والمطيب لنفسه والمبشر له بالنصر ، حين يقول : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ . وهو كما أخبر أبو معاوية الضري ، عن عبد العزيز بن سبابة ، عن حبيب بن أبي ثابت : في قول الله : ﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ﴾ قال : على أبي بكر ؛ فأما النبي صلى الله عليه فقد كانت السكينة عليه من قبل ذلك .

فإن قالوا : فكيف وقد قال الله على نسق الكلام : ﴿ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَعْرِفْهَا ﴾ ، والمؤيد بالجنود في هذا الموضع لا يجوز أن يكون إلا النبي صلى الله عليه ، لأن الجنود الذين عنى الله ملائكته .

قيل لهم : وما تنكرون أن يكون الله أيّد رجلاً بالملائكة ، بشفاعة النبي

صلى الله عليه وبشارته وبحقُّ صحبته ، كما أيد الله جميع أهل بدرٍ بالملائكة ،  
وكما زعموا أن الملائكة نزلت في زِيِّ الزُّبير ، وليس أن الله حين أيد أبا بكر  
بالملائكة أنه أراه جبريلَ وميكائيل ، ولكن ليعلمه النبي صلى الله عليه أن  
بحضرتة ملائكة قد أرسلهم الله ليمنعوه من المشركين ، ليسكن بذلك روعه ،  
وتهدأ نفسه ، وليثق بحضور النصر وتمجيل الدَّفْع .

وقد علمنا أن الله لم يجعل مع كلِّ مؤمنٍ ملكين يكتبان خيرهَ وشُرَّه  
استذكّاراً ، ولكنَّ المؤمن إذا شَمَرَ بمكانها كان أقطع له عن ركوب الأدناس ،  
وآدعى له إلى الاستحياء ، وليعلم أن الأمر جدُّ وليس بهزل .

فكذلك إحضار الملائكة لأبي بكرٍ ، ليكون إشارةً النبي صلى الله عليه له  
بذلك تسكيناً لنفسه ، وتمجيلاً لبعض ما استحق بالاحتمال والمواساة والصبر ،  
من الثواب المعجل دون المؤجل .

ولقد بلغ من ظهور قصة أبي بكرٍ وصحبته ومرافقته وكونه مع النبي صلى  
الله عليه في الغار ، أن الروافض مع شدة الإقدام ، والجُراة على تكذيب  
النَّاقِلين ، لم تقدر على دفعه وردِّه ، حتى قال منهم قائلون : إنما أخرجَه النبي  
صلى الله عليه خوفاً من أن يبدلَ عليه ويسمى بأمره إلى أعدائه ، لأنه كان حَسُّ  
من النبي بالهجرة ، وعَرَف ميقاته الذي عزم عليه .

وكيف يجوزُ أن يخاطبَ الله النَّاسَ فيقول : ﴿ إِنْ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ  
أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ ﴾ والذي به كان النبي صلى الله عليه بائناً قد أبرَّ  
على الأعداء وأربى على الكُفَّار ، لأنَّ النُّفاق أعظم من التصريح .

وهذا ما لا يجوز في عقل ، ولا يَسْتَح في فكر ، ولا يجوز في التعارف ، ولا  
يليق بالبيان .

وكيف والله يقول على اتصال اللفظ باللفظ والمعنى بالمعنى ، وتركيب الآية  
الأخرى على الأولى : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ

## العُليا .

ولا كافر أعظمُ كُفراً ، ولا أشدُّ عنوداً من ثاينيه وصاحبه في الغار ، ورفيقه في الطريق ، والمعزى لشدة حُزنه ، إن كان الشأن على ما قالوا وكما وصفوا .

وإنما المناققة أن يكون الرجل معتقداً بلحد الرسول وعداوته ولكن الرسول هو الغالب على داره القاطع لمن باداه بالعداوة ، وناواه في الفضيلة ، فلنما يستبقي نفسه بنفاقه ، ويتزميل حقه ، وإخفاء ضيقه . فأما رجلٌ مقيم بمكة قليلاً مفرد ، وذليل مطرد ، وخائف مشرد ، بين استخفاء يُعَدِّل الموت ، أو هرب يقطع الأحشاء ، والذي هرب معه مقهور مخذول ، والغالب على داره عدوه ، فكيف كان أبو بكر منافقاً والحال على ما وصفنا ؟ !

ولولا كثرة الفساد وما عمَّ النَّاسَ من العَلَطِ وفُحْشِ الخَطِّ ما كان لذكر هذا وشبهه معنى .

والأثر المجتمع عليه من أصحاب السِّرِّ والأشعار والأخبار ، أن النبي صلى الله عليه قال لحسان : أما قلتَ في أبي بكر شيئاً ؟ فأنشأ يقول :

إذا تذكرتَ شَجَّوْا من أخي ثَمَّةٍ      فاذكر أخاك أبا بكرٍ بما فعلا  
التَّالِيَّ الثَّانِيَّ المحمودَ مشهده      وأولَّ النَّاسِ منهم صدقُ الرُّسُلَا  
وثانيَ اثنينٍ في الغارِ المنيفِ وقد      طاف العُدَاةُ به إذ صعد الجبلا  
خيرَ البريةِ أنفاسها وأطهرها      إلا النبيُّ وأوفاهما بما حملا  
فجعله تالياً ، وثانياً ، وصاحباً .

وقال أبو بَحران :

وسميتَ صديقاً وكلُّ مهاجرٍ      سيواك يسمي باسمه غير منكر  
سبقتَ إلى الإسلامِ واللَّهُ شاهدٌ      وكنتَ جليساً بالعريشِ المشهرِ  
وبالغارِ إذ سميتَ بالغارِ صاحباً      وكنتَ رفيقاً للنبيِّ المطهرِ

فجعله سابقاً وصديقاً ، وجليساً وصاحباً .

وقال كعب بن مالك :

سبقت ، أخا تميم ، إلى دين أحمد      وكنت لدى الغيران في الكهف صاحباً  
فجعله سابقاً ، وجعله صاحباً .

وقال النجاشي :

غداة أتى بدرأ وحراً جلاذهم      وكان جليساً بالعريش مؤازراً

فلو لم تكن له مائرة إلا ما دلت عليه هذه الآية ، وإلا شرف هذه  
الصحبة ، وموقع هذه الخاصة ، ونبل هذه المرافقة ، ومشاهد الثقة ، لكان فوق  
الجميع في المكانة والفضيلة ، وفي مرافقة النبي صلى الله عليه .

سمع أهل مكة الهاتف بالليل على قرن الجبل وهو رافع عقيرته ، يقول :

جَزَى اللهُ رَبُّ النَّاسِ خَيْرَ جَرَائِهِ      خَلِيلٌ صَفَاءِ طُرْدَا كُلِّ اطْرِدِ  
هُمَا نَزَلَا فِي الصُّبْحِ نُمْتُ هَجْرَا      وَأَفْلَحَ مَنْ أَمَى رَفِيقَ شَمْدِ  
لِيَهْنَأَ بَنِي كَعْبٍ مَكَانُ فِتَاتِهِمْ      وَمَقْعَدُهَا لِلْمُؤْمِنِينَ بِمِرْصِدِ

وقال الحارث بن هشام :

رفيقان في المحيَا وفي الموت ضَمْنَا      بأكرم مَشْوَى مَنْزِلٍ وَمَكَانِ  
فهذا هذا .

[ ٣٢ - آية الصفع عن مسطح بسبب قرف عائشة ]

ثم الذي كان من قصة مسطح بن أثاثة وقضيته ، وكان ربيبه وابن خالته ،  
وفي مؤونته وتمت جناحه ، فلما قُرِفَتْ عائشة بالذي قُرِفَتْ به وبلفك ، أتى أبو  
بكر ألا ينظر في وجهه ، ولا يُنْفَقَ عليه ولا يكفله ولا يُؤمِّنَ عياله ، فلما أنزل الله

عذر عائشة وبراءتها ، ولم يرض لها بالطهارة والعفة حتى جعلها غافلة ، فضلاً على أن يكون خطراً ذلك على بالها فتنتيه ، إشاراً للحلال على الحرام . وأنزل الله على رسوله صلى الله عليه في آية يأمر أبا بكر بالصفح عن مسطح ، والتجاوز عن ذنبه ، وتغمّد ما كان منه ، وأن يعيده في كتفه وعياله ، فقال : ﴿ ولا ياتل أولو الفضل منكم والسعة ﴾ . فما ظنك بأمرى يقول الله له وفيه هذا القول ، ويصفه بهذه الصفة حتى يقول : ﴿ ولا ياتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ﴾ ، فتلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي بكر ، فنما انتهى إلى قوله : ﴿ ألا تحبون أن يغفر الله لكم ﴾ قال أبو بكر : بلى يا رب ! فعفا عنه ، فوجبت له المغفرة ، وأعادته إلى نعمته ، وجعل عياله في حشاه ونحت ظله .

فمن أعظم قدراً من رجل يفرد الله له الآي في معظماً لشأنه ، ذاكراً لفضله على لسان جبريل ومحمد عليهما السلام . فهذا هذا .

مركز تحقيقات كويت علوم إسلامية

[ ٣٣ - آيات أخرى في أبي بكر ]

وقد أجمع أهل التأويل على أن الله عنى بقوله : ﴿ والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين ﴾ أبا بكر ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، وأمه .

وكان أبو بكر وأهل بيته أهل بيت إسلام : كان هو مسلماً ، وامراته مسلمة ، وأبواه مسلمان ، وبناته مسلمات . وليس في العشرة الذين قال لهم النبي صلى الله عليه إنهم في الجنة ، ولا في قریش قاطبة رجل مؤمن مؤمن الأبوين غير أبي بكر الصديق ، ولا في قریش خاصة والمهاجرين عامة صاحب ابن صاحب ابن صاحب غير عبد الله قتيل الطائفة ابن أبي بكر الصديق ، ابن

أبي قحافة المسلم يوم مكة ، والقائل فيه رسول الله صلى الله عليه لأبي بكر :  
« فهلا تركت الشيخ في منزله فأتيناه ! » . وله صحبة .

واجتمع أهل التأويل على أن قوله : ﴿ أَفَمَنْ يَمِشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى  
أَمْ مَنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ نزلت في أبي بكر وأبي جهل . إلا ترى  
أن أبا جهل رأس الكفر فلم يُقرَّن به ولم يُوضَّح بإزائه من المسلمين إلا رأس  
مثله .

وقال الله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴾ الآية ، يعني أبا  
بكر في إنفاقه المال وعتقه الرقاب والمعذبين وقوله : ﴿ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ يعني أبا  
جهل . وليس في الأرض صاحب تأويل خالف تأويلنا ولا رد قولنا أن هذه الآية  
نزلت في أبي بكر .

وأما قوله : ﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُغُونَ إِلَى قَوْمِ آبَائِهِمْ  
شَدِيدًا فَقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُوا فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا  
تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلِ يَعْذِبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ . فزعم ابن عباس أن القوم الذين ذكرهم  
بنو حنيفة ، وأبو بكر استنفر إليهم العرب ، وضمهم إلى المهاجرين والأنصار ،  
حتى أظفر الله يده وأظهر حكمه .

وأما غير ابن عباس فزعم أنهم فارس والرُّوم .

فإن كان [ ذلك ] كذلك فإن أبا بكر هو المستنفر إلى قتال الرُّوم . وإن كان  
عمر هو المقاتل لكسرى فإن ذلك راجع إلى أبي بكر بتأسيسه لعمر واختياره له .

وقد زعم جُوَيْبِر عن الضُّحَّاك في قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ  
وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ . قال : أبو بكر وعمر .

وقد زعم وَكَيْع عن الفضل بن دَهَم ، عن الحسن في قوله : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي  
اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ ، قال : هم والله أبو بكر وأصحابه .

ومثل هذا كثير ، ولم يجيء المجيء الذي يحتجُّ به المنصف والمرشد ، ولكن

الحجة القاطعة في إجماع المفسرين في الآيات التي ذكرناها قبل في قصة الغار ،  
والنصرة ، وفي قصة مسطح ، والعمد عنه والإنفاق عليه ، وفي قصة عبد الرحمن  
ابن أبي بكر وأبويه ودعائهما له إلى الإسلام وردّه عليهما ، وقصة أبي بكر وأبي  
جهل .

[ ٣٤ - آية طاعة الرسول وأولي الأمر ليست في علي وحده ]

وقالت (العثمانية) : فان زعمت الرافضة أن الله أنزل في علي آياً كثيراً ، فكان  
مما أنزل فيه وفي ولده قوله : «أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ» .  
فاولي الأمر علي وولده . فلعمري لئن كان أصحاب الأخبار قد أطبقوا على أنها  
نزلت في علي وولده إن طاعتهم لواجبة . وإن كان هذا شيئاً نقوله متقول ، أو  
جاء من وجه ضعيف ، فهو مع ضعفه شاذ ، وليس في ذلك لكم حجة ؛ لأن  
الحديث قد يحتمله الرجل الواحد الثقة عن مثله ، فيكون شاذاً ، ما لم يكن  
مستفيضاً شائعاً قد نقل عن المستفيض الشائع . وقد يكون الحديث يحتمله  
الرجلان والثلاثة وهم ضعفاء عند أهل الأثر فيكون الحديث ضعيفاً لضعف  
ناقله ، ولا يسمونه شاذاً ، إذا كان قد جاء من ثلاثة أوجه . وإنما الحجة في  
المجيء الذي يمتنع فيه العمد والاتفاق . وهذا الجنس من الخبر هو الإجماع .

وليس يكون الخبر إجماعاً من قبل كثرة عدد الناقلين ، ولا من قبل عدالة  
المحدثين ، وإنما هو العدد الذي نعلم أنهم لم يتلاقوا ولم يتراسلوا ولا تتفق  
السننهم على خبر موضوع ، مع اختلاف عللهم وأسبابهم ، ثم يكون معلوماً عند  
سامع ذلك الخبر من ذلك العدد ، أنهم قد نقلوه عن مثلهم في مثل أسبابهم  
وعللهم .

فإذا كان معلوماً أن فرعه كأصله كان ذلك موجباً لليقين ، وناقياً لغير الشك  
واستبرابة التقليد .

وهو كنجوماً نقلوا من قصة الغار ، وقصة مسطح .

فأما ما قالوا وأدعوا أن الله عنى بقوله : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ علياً وولده دون جميع المهاجرين ، فليس من شكل ما اشترطنا ، ولا من فن ما بيننا ؛ لأن أصحاب التأويل زعموا أنها نزلت في عمال النبي صلى عليه وسلم وولاته ، وفي المسلمين ، وفي أصحاب سراياه وأجنادهم كالعلاء بن الحضرمي ، وأبي موسى الأشعري ، وعتاب بن أبي سعيد ، وخالد بن الوليد ، ومعاذ بن جبل ، يأمر الناس بطاعة الأمراء والتسليم لولاية أمورهم .

[حدث] عيسى بن يونس بن أبي إسحاق السبيعي قال : حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان قال : سألت أبا جعفر محمد بن علي عن تأويل قول الله : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ فقلت : من أولو الأمر؟ فقال : هم أصحاب محمد . قلت : إنهم يزعمون أنه علي . فقال : علي منهم .

وهذا من أثبت وأحسن ما يروون في تأويل هذه الآية ، ومن أحرى ما جمع الفريقين على تقبله والرضا به ، إذ قائله العالم المقبول عند الفريقين ، والرئيس الذي لا أحد فوقه في عصره عند الروافض .

وزعم محمد بن السائب الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس ، أن الله أنزلها في عبد الله بن حذافة السهمي .

فإذا كان تأويلها مشهوراً بما ذكرنا من الاختلاف ، فليس فيها للمتشیع حجة .

[ ٣٥ - آية الدخول في السلم ليست في علي ]

وزعموا أيضاً أن الله أنزل في علي : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلْمِ كَأَنَّهُ ﴾ يقول : في طاعة علي .

والكلام في هذا كالكلام فيما قبله : لأن أصحاب الأخبار والتأويل لا يعرفون ذلك .

والخبير المشهور عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس وغيره أن الله أنزلها في ناسٍ من مُسلمي أهل الكتاب ، كانوا بعد إسلامهم يُقيمون السُّبُت ، وَيَعَافُونَ الذَّبِيحَةَ ، لِرُسُوخِ الْعَادَةِ ، وَعَلَبَةِ الْإِلَافِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَمَا قَدْ قَدْ يَقُولُ : ادْخُلُوا فِي جَمْعِ الشَّرِيعَةِ ، ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ وَزَيَّنَهُ لَكُمْ الْحُكْمَ بِالْفِكْمِ لَهُ ، وَنَشُوكُمْ كَانَ فِيهِ .

وزعموا أن الله أنزل : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ .

قيل لهم : أما ظاهر الكلام فيدل على ما قال أصحاب التاويل ، كابن عباس وغيره ، حين زعموا أنها نزلت في عبد الله بن سلام ، ورهطٍ من مشركي أهل الكتاب ، وذلك أنهم أتوا النبي صلى الله عليه عند الظهر فقالوا : يا رسول الله ، إن بيوتنا قاصية ولا نجد مسجداً دون هذا المسجد ، وإن قومنا لما صدقنا الله ورسوله عادونا وتركوا مخالفتنا ، وأقسموا ألا يكلمونا .

فبينما هم يشكون عداوة قومهم لهم إذ نزلت : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ . فلما قرأها النبي صلى الله عليه قالوا : رضينا بولاية الله ورسوله والمؤمنين . وأذن بلالٌ للصلاة ، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى المسجد وهم معه ، والناس بين راكم وساجد ، وقائم وقاعد ، فتلا النبي صلى الله عليه : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ الآية . فإن تكن هذه الآية كما قال ابن عباس فليس تأويل الرافضة بأقرب التأويل .

[ ٣٦ - تأويل آية يقيمون الصلاة ويأتون الزكاة وهم راكمون ]

وقد عرفنا أن تأويل هذا الكلام يشبه غير الذي قالوا ، وليس لنا أن نجعله كما قالوا إلا بخبر عن النبي صلى الله عليه ، أو بإجماع من أصحاب التأويل على تفسيره . وذلك أن قوله : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا

الذين يُقيمون الصلوة ويؤتون الزكاة وهم راکمون ﴿ يدلُّ على العدد الكبير وأنتم تزعمون أنه عني علياً وحده ، وليس لأحد أن يجعل « الدين » لواحد إلا بخبرٍ يُجمَع عليه ، فإن لم يُقدر على ذلك فليس له أن يحوّل معنى الكلام عن ظاهر لفظه ، والذي عليه التعمُّل والتعارُف . ولفظ الجميع معروف من لفظ المفرد . لأن الرافضة تزعمُ أن سائلاً دخل المسجد فسأل الناسَ وعليّ راکع ، فلم يُعط شيئاً ، فنزعَ عليّ خاتمَه فأعطاه ، فأنزل الله فيه : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ . وأنت إذا سمعت بتأويل ابن عباسٍ وتأويلهم علمت أن تأويلهم بعيدٌ من لفظ التنزيل ، قُرب تأويل ابن عباسٍ منه .

ولو كان الأمر كما قالوا ما كان أحدٌ أعلم به من ابن عباسٍ ولا أشعرَ به منه .

وأنتم تزعمون أن علياً كان أزهدي من أن يحوّل عليه الحوّل وعنده مالٌ راهنٌ يجبُ عليه فيه الزكاة .

ولو كان ذلك كذلك ما كان بلغ من قدر صنيع رجلٍ في إعطاء درهمٍ ودرهمين من زكاته الواجبة ما إن يبلغ به إلى هذا القدر الذي ليس فوقه قدر ، أو يكون كان عليٌّ مشهوراً بإعطاء الزكاة وهو بصليٌّ .

ولو كان هذا هكذا لكان مشهوراً مستفيضاً . وكيف اتفق له ألا يزكّي إلا وهو بصليٌّ ؟ !

وإن تطرّع بإعطاء الخاتم على جهة الإيثار والمواساة فليس بمعروفٍ في الكلام أن يكون الرجلُ إن تصدّق بالدرهم والدرهمين مُتنبِّلاً ومتطوعاً أنه معطٍ زكاة ، لأن الزكاة عندنا ما وَجِبَ إخراجه وكان تطهيراً لسائر ماله ، وسبباً للنساء والبقاء . إلا أن يُحمَل الكلامُ الشاذ ، وعلى أبعَد المجاز . وليس هكذا كلام الحكميم يريد أن يدلُّ الأمة على إمامته ، ويوجبُ عليهم طاعته .

ولا بد في هذه الآية من أحدٍ ضريين : إما أن يكون لفظها يدلُّ على ما

قالوا دون ما قال غيرهم ، وإما أن تكون قد نزلت في قصة مشهورة لعل كقصة الغار حين كانت لأبي بكر .

فإن لم تجدوا إلى واحد من هذين سبيلاً فلم يبق إلا أن تزعموا أن الرسول صلى الله عليه قال للناس : إن هذه في علي فاعرفوا له حقه وفضيلته . ولو كان ذلك كذلك ما اختلف فيه أصحاب التأويل ، ولا قال فيه ابن عباس الذي قال .

قالت ( العثمانية ) : قد زعمت الروافض أن الله أنزل هذه الآية في علي فاعرفوا له حقه وفضيلته .

ولو كان ذلك كذلك ما اختلف فيه أصحاب التأويل ، ولا قال فيه ابن عباس الذي قال .

[ ٣٧ - تأويل آية وكفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب ]

قالت العثمانية : وقد زعمت الروافض أن الله أنزل فيه : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ .

ولا يجوز أن يقول : ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ وهو يعني علياً إلا وعليه قد كان أشهر من هناك بعلم الكتاب .

وكيف يكون ذلك وقد توفى النبي صلى الله عليه وهو لم يجمع الكتاب بعد ؟ ! وقد زعم الشعبي أنه لم يجمعه إلى أن مات .

وكيف يكون من المشتهرين بعلم الكتاب وأنت إذا سألت أصحاب الأخبار والتأويل عن أسماء أصحاب التأويل ذكروا ابن عباس ومن دون ابن عباس بطبقات كالحسن البصري ، ومجاهد ، والضحاك ، وعكرمة ، وفلان وفلان وفلان ، ولا يذكرونه في هذا الصنف ، كما لا يذكرون فيه أبا بكر وعمر وعثمان ؛ لأنهم لم يكونوا بالمشتهرين بالتأويل وحفظ القرآن ومعرفة معانيه ؛ لأن

غير ذلك كان أغلب عليهم منه ، وقد أخذوا منه بنصيب . ولم يكونوا كمن تجرد لمعرفة التأويل حتى غلب عليه كما غلب على زيد بن ثابت الفرائض ، وكما غلب علم التأويل على ابن عباس ، وكما غلب كثرة الأسانيد وعدد الآثار على ابن عمر وجابر وعائشة ، وكما غلب على أبي وعلى عبد الله القراءات .

ولو كان للناس أن يقولوا في هذه الآية على الظن وما هو أشبهه لكان أولى الناس بها عبد الله بن عباس ، لأنه كان أعلم الناس بالقرآن . ولو لم يكن عرفنا فضله فيه بالذي ظهر منه ، لعرفنا فضله وإن بطن وغاب عن العيان لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » . فكيف وقد ظهر من علمه بمعانيه وغريبه ، وإعرابه وقصصه ومحكمه ومتشابهه ، وخاصه وعمامه ، وناسخه ومنسوخه ، ومكيه ومدنيه ، ما لم تجد عند أحد شطره ولا قريباً منه .

وقالت ( العثمانية ) : إنه لا يعجز أحد أن يعيد إلى كل آية في القرآن فيدعى أنها في أبي بكر وعمر كما ادعيتم ذلك في علي ، وإنما الشفاء والبيان في صحة الشهادة ، وظهور الحجّة .

مركز تحقيقات كويتيون سعوديون

[ ٣٨ - تسمية أبي بكر بالصدّيق دليل على فضله ]

وزعمت العثمانية أن من الدليل على فضيلة أبي بكر على علي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سماه « الصدّيق » ، وليس بعد اسم النبي اسم أنبى من الصدّيق ، حتى كان لا يقال قال أبو بكر وفعل أبو بكر إلا والصدّيق متصل به ، وحتى ربما قالوا قال الصدّيق وفعل الصدّيق ، استغناء عن اسمه وكنيته .

ولقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « الزبير حواري وابن عمي ، وطلحة حواري » وقال : « عثمان ذو النورين » فلم يقل المسلمون : قال عثمان ذو النورين ، وقال الزبير الحواري ، وقال ذو النورين ؛ استغناء عن اسمائها وكناهما .

فإن كان المسلمون أشاعوا اسم أبي بكر وتركوا أن يشيعوا اسم غير أبي بكر ،

لفضلِ رأوه في أبي بكر ، فهو الذي قلنا وأدعينا . وإن كان ذلك منهم لشيء  
رأوه في وجه رسول الله صلى الله عليه وفي صنيعه بأبي بكر ، فلا شيء أدل على  
الفضيلة والمباينة منه .

ولم يسمَّ النبي صلى الله عليه علياً باسم ينسبُ به ، لأن ذلك لو كان لظهر  
كما ظهر اسم من ذكرنا . ولا سماء أحد من أصحاب رسول الله باسم بان به  
كما سُمي أصحاب رسول الله أبا بكر خليفة رسول الله .

ولأبي بكر اسمان يدلان على الفضيلة والمباينة : أحدهما لم يسم به قط إلا  
نبي أو من يتلوه ، والآخر لم يسم به أحد من الناس .

فأما الاسم الذي لم يسم به إلا نبي فقول « الصديق » بإجماع من المسلمين  
على هذا الاسم أنه لا يكره دون غيره . وأما الاسم الذي لم يسم به مؤمن  
قط ، ولا بعده ، فقول جميع الأمة : يا خليفة رسول الله .

فإن كان الذي نُقِل إلينا أنه [ كان ] يكتب في دهر النبي صلى الله عليه :  
« من خليفة رسول الله » ويكتب إليه « إلى خليفة رسول الله » وكما كان الحسن  
يخلف بالله أن النبي صلى الله عليه [ عليه ] هو تولى استخلافه ، فلا منزلة أعظم منها  
قدراً ، ولا أرفع منها شأنًا .

وإن كان المسلمون أجمعوا له على ذلك لخاصة رأوها فيه ، فكفى به شرفاً  
وقدراً ، ومزيةً وذكراً .

وإن زعم قوم أن الأسماء التي ارتضاها الرسول صلى الله عليه وحباها  
أصحابه لا تدل على فضيلة ولا على خاصة كرامة ، وجسروا على أن يقولوا إنه  
ليس في قول النبي صلى الله عليه لحمزة إنه أسد الله ، وأسد رسوله ، فضيلة ؛  
وليس في قوله « الزبير حواربي » فضيلة - فليس عندنا في ذلك إلا مثل ما لهم في  
صدور أهل القبلة من الإسقاط والإهانة .

فإن قالوا : إن اسم الصديق مؤلّد موضوع مُحدّث ، أحدثه العثمانيّة

## والْحَشْوِيَّة .

قيل لهم ، ففعل قولهم : إن حمزة أسد الله ، وأسد رسوله ، وإن جعفر الطيار في الجنة ، وإن الزبير حواري رسول الله ، مولد موضوع صنعة الشيعة ، وأحدته أتباع الزبير يوم الجمل ، لا فرق بين ذلك .

وكيف يكون اسم الصديق مولداً محدثاً ، وأكثر من تكلم به ليسوا بذوي نحلة فيتقدروا له ، ولا بذوي معرفة فيعرفوا فضله ، ولا ذوي قرابة فيطلبوا السبق به ، مع الذي نجده في الأشعار الصحيحة القديمة . وليس بين الأشعار والأخبار فرق إذا جاءت مجيء الحجج .

وإنما ذكرنا الأشعار مع الأخبار ليعرفوا ظهور أمره ، ووجوه دلائله وقهر أسبابه ، وليكون آنس للقلوب ، وأسكن للنفوس ، وأقطع لشغب الخصم ، ولتجعد المنازع .

فمما جاء من الأشعار في ذلك قول شريح بن هانئ الحارثي ، وكان معمرًا وكان شيعيًا ، وهو يرتجز في بعض حروبه :

أصبحت ذا بث أقاسي الكبرياء قد عشت بين المشركين أغصبرا  
ثمت أدركت الرسول المنذرا وبسعدته صديقه وعمررا  
ويوم مهران ويوم تسترا وبساجمثيراوات والمشقرا  
والجمع من صفينهم والنهرا فيها ما أطول هذا عمرا

ألا ترى أن هذا شريح بن هانئ؛ سمي أبا بكر صديقاً على ما لم يزل يسمى به .

وقال العجاج بن رؤبة ، وهو أعرابي ليس بذوي نحلة ولا صاحب خصومة ، وقد أدرك الجاهلية .

عهد نبي ما عفا وما دثر وعهد عثمان وعهداً من همر  
وعهد صديقي رأى براً قبر وعهد إخوان هم كانوا السورد

وقال الحارث بن هشام بن المغيرة ، حين بلغه وهو بمكة أن الأنصار قد كانوا  
اجتمعوا وقالوا لقريش في سقيفة بني ساعدة : منّا أمير ومنكم أمير :  
فَبِضِّ النَّبِيِّ وَيُوسِعِ الصَّدِيقُ

في قصيدة له طويلة ، وهي التي يقول فيها :  
وأراد أمراً دونه الغيوق

ولما أردنا منها المعنى .

وقال أبو محجن في ذلك :

سُميت صديقاً وكل مهاجر  
مواك يُسمى باسمه غير منكر

وقال طريف بن عدي بن حاتم :

أبىدوا قريشاً بالسُيوف ليظهروا  
ومعديقه التالي المعين بماله  
وأول من صلى وصاحب جنكة  
ويعد قتيل الهرمزان ، وباركت  
أقاموا طغاة حائرين عن الهدى  
فلما تولوا طامن الحق جاشه  
وإسباغ لقول الصادق المتطرد  
بئذ الله في ذلك الأديم المقسد  
وليس يقوم الذين إلا بمهند  
وثاب إليهم كل غاوٍ مطرد

أما قوله : « وثاب إليهم كل غاوٍ مطرد » فإن « الغاوي » مروان بن  
الحكم ، « والمطرد » : أراد أباه الحكم بن أبي العاص طريد رسول الله صلى الله  
عليه .

وقال حسان بن ثابت في ذلك أيضاً ، وهو يهجو بعض الشعراء :

لو كنت من هاشم أو من بني أسد  
أو في الدؤابة من تيم وقعت بهم  
أو من بني جهم الخضر الجلاعيد  
لم تُصبح اليوم نكساً مائل العود  
أو عبد شمس أو أصحاب اللوا الصيد  
أو من سرارة أقوام أولي حسب

لولا الرُّسُولُ وَرُوحُ الْقُدُسِ يَحْفَظُهُ  
وَأَنْفِي أَحْفَظُ الصُّدُيقِ مَجْتَهِدًا  
أَتَكُمُ خَيْلُنَا كَاللُّؤْدِ كَالْحَمَّةِ  
مَنْ كَلَّ نَخْفَانِي طَالَ اللَّجَامُ بِهَا

وقال طليحة الأسدي في ذلك :

نَدِمْتُ عَلَى مَا كَانَ مِنْ قَتْلِ ثَابِتٍ  
وَأَعْظَمُ مِنْ هَذَيْنِ عِنْدِي مُصِيبَةٌ  
وَتَرْكِي بِلَادِي وَالخُطُوبَ كَثِيرَةً  
فَهَلْ يَقْبَلُ الصُّدُيقُ أَلِي تَائِبٌ

وقال البارقي في ذلك أيضاً :

بَكَرَ النَّعِيمُ بِخَيْرِ كِنْدَةَ كُلِّهَا  
بِسَابِنِ الْأَشَجِّ وَخَالِهِ الصُّدُيقِ !

هؤلاء الذين ذكرنا : شريح بن هانئ ، والمعجاج بن رؤبة ، والحارث بن هشام بن المغيرة ، وطريف بن عدي بن حاتم ، وحسان بن ثابت ، وطليحة الأسدي ، ومن أشبههم ، ليسوا بأصحاب خصومات ولا نظير في الفاضل والمفضول .

وإنما قدموه وسمّوه صديقاً على ما لم يزل يُسَمَّى به . وهذا أكثر من أن نأتي عليه في كتابنا ونستقصيه .

والعجب من الروافض حين ترى ما قال رشيد المَجْرِي والسيد الحميري ، ومنصور النَمْرِي حجة في أشعارها إذا كان ذلك القول في علي بن أبي طالب . وإذا قال حسان بن ثابت ، والمعجاج ، والحارث بن هشام ، وأشباههم ممن ذكرنا في القدم والقدر ، في أبي بكر وعثمان وعمر وتقديمهم ، لم يكن حجة .

وفي قول عبد الله بن عباس لعائشة بعد الجمل في دار بني تخلف الخزاعي

حين أرسله علي بن أبي طالب إليها : ولم تقولين إنه ليس في الأرض موضع  
أبغض إلي من موضع أنتم به ، ونحن جعلنا أباك صديقاً وجعلناك أم للمؤمنين ،  
حجة في أن تسميته بالصديق قد كان مستعملاً في ذلك الدهر .

وإذا أحببت أن تعلم قدر هذا الاسم الذي سمي به النبي صلى الله عليه  
أبا بكر فانظر في كتاب الله . قال الله جل ثناؤه : ﴿ واذكر في الكتاب إفريس إنه  
كان صديقاً نبياً . ورفعه مكاناً جلياً ﴾ وقال : ﴿ واذكر في الكتاب إسماعيل إنه  
كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً ﴾ ، فذكر صديقته قبل أن يذكر نبوته .

وقال في كتابه : ﴿ ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه  
صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أن يؤفكون ﴾ .

ولكن انظر كيف نبين للروافض الحجج بالآيات والإجماع ثم انظر أن  
يؤفكون ، أي يسخرون بهذه الفضيلة له علي بن علي .



[ ٣٩ - تأمير أبي بكر الحجج دون علي ]

ثم الذي كان من تأمير النبي صلى الله عليه وآله عليه أبا بكر عليه حين ولّاه الموسم  
وبعثه أميراً على الحاج سنة تسع ، وبعث علياً يقرأ على الناس آيات من سورة  
براءة ، وكان أبو بكر الإمام وعلي المأموم ، وكان أبو بكر الدافع بالموسم ، ولم  
يكن لعلي أن يندفع حتى يدفع أبو بكر ، ولا يستطيع خلق من الناس أن يزعم  
أن سنة تسع دفع بالناس غير أبي بكر ، ولا يستطيع أحد أن يزعم أن سنة تسع  
لم يبعث النبي صلى الله عليه وآله عليه بصدر سورة براءة مع علي بن أبي طالب ليقرأه على  
الناس إذا فرغ أبو بكر .

فلن قال قائل : ألا ترى أنه كان لعلي بن أبي طالب في ذلك الموقف من  
الفضل ما ليس له لخصمتين : إحداهما أن النبي صلى الله عليه وآله بعث معه بصدر  
براءة ، وقال : « لا يبلغ عني إلا رجل مني » . والأخرى فرط الاحتمال وشدة  
الخطار الذي احتمله علي حين يقوم بالبراءة وقطع العهد وقد وافى الموسم من

فبئس العرب ومن المتورين والناقمين والحنقين ، العمد الذي لا يحصى ، والقوة التي لا تدفع ، فشر عن ساقه وأبدى صفحته . ففي هاتين الخصلتين دليل على أن له في ذلك ما ليس لأبي بكر ، والمحنة عليه أشد .

قيل له : إن كان الشأن في شدة الخطار والتضير والتعرض على ما قلتم ، فنصيب أبي بكر في ذلك أوفر ، والأمر عليه أخوف ، وهو إليه أسرع ، لأن أبا بكر كان هو الأمير والوالي والمتبوع ، وعلي هو المؤتم والرعية والسامع والطيع . وبين التابع والمتبوع والأمر والمأمور فرق .

وأما قولكم : إن النبي صلى الله عليه قال حين بعث بصدر سورة براءة مع علي بن أبي طالب : « إنه لا يبلغ عني إلا رجل مني » فلانما قال هذا وليس بحضرته أبو بكر ليكون علي قد قدم عليه ، لأن النبي صلى الله عليه قد كان وجهه أبا بكر قبل ذلك ، ثم بعث علياً بعده فلحقه في الطريق .

وقد زعم ناس من ( العثمانيين ) أن النبي صلى الله عليه لم يقل ذلك لعلي تفضيلاً منه له على غيره في الدين ، ولكن النبي صلى الله عليه عامل الحرب على مثل ما كان بعضهم يتعرفه من بعض ، وكعادتهم في عقد الحلف وحل العقد ، فكان السيد منهم إذا عقد لقوم حلفاً أو عاهد عهداً لم يحل ذلك العتد غيره ، أو رجل من رهطه دنياً كاخ أو ابن ، أو عم ، أو ابن عم ، فلذلك قال النبي صلى الله عليه ذلك القول .

[ ٤٠ - النبي يعهد إلى أبي بكر بأمر الناس في الصلاة يوم شكاته ]

ثم الذي كان من تفضيله عليه وعلى الناس جميعاً أيام شكاته ، حيث أمره أن يؤم الناس ويقوم مقامه في صلاته وعلى منبره ، حتى أن عائشة وحفصة أرادتا صرف ذلك عنه لعل سنذكرها في موضعها إن شاء الله ، فقال النبي صلى الله عليه : « إلكن عني صواحب يوسف ، أي الله ورسوله إلا أن يصلي أبو بكر » .

ولم يستطع أحد من الناس أن يقول إنه صلى بالناس في تلك الأيام غيره ،

ولا استطاع أحد أن يقول إن المأمور بالصلاة كان غيره ، حتى قالوا بإجماعهم :  
اختارهُ رسولُ الله لديننا فاخترناه لدُنْيَانَا . وحتى قالوا : ولأه رسول الله صلواتنا ،  
وزكأتنا تبع لصلواتنا وما معظمها أمر الدين .

ولا يستطيع أحد أن يقول : إنه لما تقدم أبو بكر بالناس ليصلي بهم والنبى  
صلى الله عليه مُسَجِيًّا قال له رجلٌ واحد : وما لك تصلي بنا على غير عهد ولا  
سبب . ولا قال رجلٌ من خلفه مثل ذلك ، ولا قال رجلٌ من الأنصار : مِنَّا  
مصلٌ ومنكم مصلٌ ، كما قالوا : مِنَّا أميرٌ ومنكم أميرٌ .

فإن كان الناس مع كثرة الخير والشر فيهم تركوا مجاراته ومدافعته في قيامه  
في مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لتبريزه ، كان ، عليهم عند أنفسهم  
فكفى بذلك دليلاً على الفضل ، وحجة على الاستحقاق .

وإن كان رضاهم بذلك وتسليهم ، للذي ثبت عندهم من أمر رسول الله  
صلى الله عليه وتقديمه إياه ، فليس لأحد في ذلك متكلم ، ولا لشاغب فيه  
متعلق ، ولا لواقف فيه عُذر ، والقوم جميع ، ومصلاتهم واحد ، وتقدمه ظاهر .

ولم تكن صلاة واحدة فيكون جليسة ، والقوم كانوا أشد تقدماً لذلك المقام من أن  
يَدْعُوا رجلاً لم يقهرهم بسيف ، ولم يمتنع عليهم بعشيرة ، ولم يفيض فيهم  
الأموال ، وليس معه فضل بائن ، ولا سبب من قرابة ، ولا أمر من النبى صلى  
الله عليه .

فإن صاروا إلى الاعتلال بالأحاديث وذكر الآثار قالوا : إنما نحتاج إلى  
المقابلة بين أفعال علي وأفعال غيره ، لو كنا لا نجد له غير الأفعال فإذا كنا قد  
وجدنا له من غير الأفعال ما هو أدل على الفضيلة من الأفعال ، لم يكن لنا أن  
نتخطى الأفضل إلى الأنقص في دفع التغلب ، وإقامة المستحق عند ظهوره  
وزوال التقيّة فيه . لا أنهم قابلوا بين جميع المهاجرين في القرب والبعد ، ولا  
أنهم صنعوا العلم بفضله بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم قوم قد  
كانوا من قبل ذلك بثلاثٍ وعشرين سنة يرى بعضهم بعضاً ويعرف بعضهم أمر

بعض ، يَتَزَوَّنَ مَعاً وَيُقِيمُونَ مَعاً ، وَيَسْمَعُونَ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ الْقَوْلَ بِعَدِّ الْقَوْلِ ، وَيَرَوْنَ أَحْوَالَ الرُّجَالِ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَفِي الْمُسْلِمِينَ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ، فَعَلِمُوا بِذَلِكَ فَضَّلَ أَبِي بَكْرٍ ، فَلَمَّا تَوَفَّى النَّبِيَّ لَمْ يَحْتَاجُوا مَعَ عِلْمِهِمُ الْأَوَّلِ إِلَى أَنْ يَضَعُوا عَلِمًا ثَانِيًا .

ولو أن رجلاً منا شاهد النبي صلى الله عليه وأصحابه سنة واحدة ما خفي عليه من المقدم عنده وعند المسلمين ، ومن أشبههم به هدياً وعملاً ، وطريقة وعزماً . فما ظنك بالسلف الطيب ، والخيار المتتخين ، وأسس الإسلام ومُرسى قواعده .

وذلك أن أبا بكر لا يخلو حيث أسلم أن يكون أسلم قبل الناس ، أو ثانياً ، أو ثالثاً . فإن كان إسلامه قبل الناس فقد تين للشاني تقدمه ، ، وللثالث تقدمها عليه . فإذا كانوا ثلاثة لم يخف عليهم أيهم أفضل . ثم إن أسلم بعدهم نفر لم يخف أيضاً قصة الثلاثة المتقدمين . وكلما أسلم قوم لم يخف عليهم حال الأفضل بالذي يرون عند من أسلم قبلهم . فكانوا كذلك ثلاثاً وعشرين سنة .

فقد أيقنا أن القوم لم يوتوا في تقديم أبي بكر من الجهل بموضع الفضل ، أطاعوا الله في إقامته أم عصوه . وكذلك لو كانوا قدّموا غيره ما كانوا إلا متعمدين . وذلك أن الأفعال إنما تدل على ظاهر عدالة الرجل وفضيلته ، ولا تدل على باطن طهارته وإخلاصه .

وقول الرسول صلى الله عليه في الرجل ومدبج له وإخياره عن فضله ومنزته ، والوحي ينزل عليه صباح مساء ، أدل على طهارته وإخلاصه .

وإذا كان العبد كذلك كانت النفوس إليه أسكن ، وكان من التبذل أبعد ، مع السلامة من التفاق ، والدخل في الاعتقاد ؛ لأن الغلط في خير الرسول صلى الله عليه ونصه وتبيينه وإقراره للرجل بالفضيلة والاستحقاق ، أقل من الغلط فيما بين أقدار الناس ، من الموازنة بين أفعالهم وعقولهم ، وعلومهم وتجاربهم ، وصلاح الناس عليهم ، مع كثرة عدد الأفعال المتساوية والمتقاربة ، ومع كثرة عدد

[ ٤١ - حجج الشيعة في تفضيل علي من الأحاديث ]

فما يدلُّ على تفضيل النبي صلى الله عليه له قوله يوم غدِير خُمٍّ ، وهو قابضُ  
 على يده وقد أشخَّصَهُ قائلاً لمن بحضرتِهِ : « من كنتُ مولاً فعليُّ مولاه . اللهمَّ  
 عادِ مَنْ عاداه ، ووالِ مَنْ والاه . » . وقوله : « أنتُ مِنِّي بمنزلةِ هارونَ من  
 موسى ، إلاَّ أَنَّهُ لا نبيُّ مِن بعدي . » . وقوله : « اللهمَّ آتني بِأحبِّ النَّاسِ إِلَيْكَ  
 يَأْكُلُ مِنِّي مِنْ هَذَا الطَّيْرِ ثَلَاثاً ، كُلُّ ذَلِكَ يَجُوبُ أُنْسٌ ، طَمَعاً أَنْ يَكُونَ  
 انصاريّاً ، فإني الله إلاَّ أَنْ يَجْعَلَهُ الْآكَلُ ، وَالْآتِي ، وَالْأَحَبُّ . »

ومن ذلك أنَّ النبيَّ صلى الله عليه حين آخَى بين أصحابِهِ فَفَرَّقَ بَيْنَ  
 الأشكالِ ، وفرد بين الأمثالِ ، جعله أخصاً من بين جميع أمته وعِليَّةِ أصحابِهِ .

فيلهم : إنَّ الأخبارَ لا يَبْدُ فيها من التَّصَادُقِ كما لا يَبْدُ في ذِكْرِ العُقُولِ  
 من التَّعَارُفِ ، فإنَّ في عَدَمِ التَّعَارُفِ في حججِ العُقُولِ ، والتَّصَادُقِ في حُججِ  
 السَّمْعِ ، عَدَمُ الإِنصافِ ، وبُطْلانُ الكلامِ .

وليس لكم أن ترفعوا خبراً له ضرب من الإسناد وتوجبون تصديق مثله ؛  
 لأنَّ كُلَّ واحدٍ من الخصمين لا يُعجزه دفعُ المستفيض بلسانه ، فضلاً عن دفعِ  
 الشَّاذِّ وإنَّ كان ناقله عدلاً في ظاهره . فإذا كان ناقله ذلك كذلك فالوحي الأمور  
 بكم وبهم الصُّدق . وليس كُلُّ مَنْ أراد الصُّدق في مثل هذا قنَّزَ عليه إلاَّ بالتَّسَدُّمِ  
 في كثرةِ السَّماعِ واتِّساعِ الرِّوايةِ . وليس لأحدٍ ، وإنَّ حَسَنَ عقله وصحَّ فكره ،  
 أن يقول فيما لا يضاف علمه إلا من طريق الخبر حتى يكون صاحبَ خبرٍ ،  
 وطالبِ أثرٍ . فإذا صحَّ عقله وكثُرَ سماعه ، خُفَّتْ مؤونته على نفسه وعمل  
 خصمه .

[ ٤٢ - حجج العثمانية في تفضيل أبي بكر من الأحاديث ]

أوما علمتم أن خصومتكم وهم أكثر منكم عدداً، وأكثر فقيهاً ومحدثاً، يروون أن النبي صلى الله عليه قال : « لَيْسَ أَحَدٌ أَمَنَ عَلَيْنَا بِصَحْبِهِ وَذَاتِ يَدِهِ مِنْ أَبِي بَكْرٍ ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ خَلِيلاً لَأَتَّخِذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً ، لَكِنْ وَدَّاءُ وَإِحَاءَةُ إِيْمَانٍ » فَإِنْ كَانَ هَذَا الْحَدِيثُ كَمَا نَقَلُوا لَمْ يُجْزَ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَدًا إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْأَخَ غَيْرَ الْخَلِيلِ ، وَلَا نَعْلَمُ الْخَلِيلَ إِلَّا أَحْصَى مَنْزِلَةَ وَأَقْرَبَ مَوْدَّةً . مَعَ أَنَّ قَوْلَهُ « وَلَكِنْ » دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ قَدْ كَانَ إِخَاهُ .

يُروون أن النبي صلى الله عليه قال في شكاته وقبيل وفاته : « إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي فَيَمُوتُ حَتَّى يَتَّخِذَ مِنْ أُمَّتِهِ خَلِيلاً ، وَإِنْ خَلِيلِي مِنْكُمْ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ » .

ويروون أن النبي صلى الله عليه قال : « اقْتَدُوا بِاللَّذِينَ مِنْ بَعْدِي : أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ » .

وقد تعلمون أن إسناقه عهد الملك ، عن ربعي عن حذيفة ، والآخر سلمة ابن كهيل ، عن أبي الزعراء ، عن عبد الله .

ويروون أن النبي صلى الله عليه ، نظر إلى أبي بكر وعمر مقبلين . فقال : « هَذَانِ سَيِّدَا كَهَوْلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، إِلَّا الْأَنْبِيَاءَ وَالْمُرْسَلِينَ . يَا عَلِيُّ لَا تُخْبِرُهُمَا » .

فزعوا جميعاً أن علياً قال : ولو كانا حين ما حدثتكم .  
ويروون جميعاً أن علياً قام في الناس خطيباً فقال : « الْآلُ إِنَّ خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبُو بَكْرٍ ، وَالثَّانِي عُمَرُ ، وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَخْبِرَكُمْ بِالثَّالِثِ فَعَلْتُ » . فَكَفَى عَنْ ذِكْرِ عُثْمَانَ .

ويروون أن النبي صلى الله عليه لما أسس مسجد المدينة جاء بحجر لوضعه ، ثم جاء أبو بكر بحجر فوضعه ، ثم جاء عمر بحجر فوضعه ، ثم جاء

عثمانٌ بحجرٍ فوضعه ، فسئل النبيُّ صلى الله عليه عن ذلك فقال : « هم أمراء الخلافة من بعدي » .

وقالوا : لما قدم المدينة رسولُ الله صلى الله عليه خطُّ لأهل قُباةٍ مسجدهم بعنزةً ، فوضع النبي صلى الله عليه حجراً ، ثم قال : يا أبا بكرٍ ضَع حجراً إلى جنبِ حجري ثم قال : يا عثمان خُذ حجراً فضعه إلى جنبِ عُمر . ثم التفت إلى سائر الناس فقال : وَضَع رجلٌ حجْرَه حيثُ أحب .

ويروون أن النبي صلى الله عليه قال يومَ الحُدَيْبية : « مثَلُ أبي بكرٍ في الملائكةِ مثَلُ ميكَائيلَ ينزلُ بالرحمة ، ومثلهُ في الأنبياءِ مثَلُ إبراهيم ، ومثلهُ عمر في الملائكةِ مثَلُ جبريلَ ينزلُ بالسُّخط ، وفي الأنبياءِ مثَلُ موسى » . والحديث طويلٌ ولكنني اختصرته .

ويُروى أن النبي صلى الله عليه وَضَع في كِفَّةِ المِيزانِ والأُمَّةَ في الكِفَّةِ الأخرى ، فرجَحَ بهم ، ثم أُخْرِجَ النبيُّ صلى الله عليه ووَضَع أبو بكرٍ مكانه فرجَحَ بالأُمَّة ، ثم أُخْرِجَ أبو بكرٍ ووَضَع عمرُ مكانه فرجَحَ بالأُمَّة ، ثم أُخْرِجَ فرجَحَ المِيزان .

مركز تحقيقات كويتيون علوم إسلامية

وقالوا : إن النبي صلى الله عليه قال : « أيُّها النَّاسُ ، إنَّ اللهَ بعثني إليكم جميعاً فقلتم : كذبت ، وقال لي صاحبي : صدقت ، فهل أنتم تاركي وصاحبي ؟ » .

ومما يؤكد هذا قولُ النبي صلى الله عليه : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا وقد كان له ترُدُّ وكبوةٌ ، إلا ما كان من أبي بكرٍ فإنه لم يتلعثم » .

وقالوا : إن النبي صلى الله عليه قال : « إن أبا بكرٍ لم يَسْؤُرْ قط ، فاعرفوا ذلك له » ، في كلامٍ طويلٍ .

[ ٤٣ - موقف الجاحظ من التفضيل ]

فإن كان ما رويتم في فضيلة عليٍّ حقاً ، وما رووا في فضيلة أبي بكرٍ حقاً

فأبو بكرٍ خيرٌ من عليٍّ ، وعليٌّ خيرٌ من أبي بكرٍ . وهذا هو التناقض ، والحقُّ لا يتناقض . وفي هذا دليلٌ أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتكلَّم بذلك ولا قاله ، لأنَّ الخبر إذا خَرَجَ مخرجَ العامِّ في تفضيلِ أبي بكرٍ ، وكذلك في تفضيلِ عليٍّ ، فليس له وجهٌ إلا ما قلنا ، إلا أن يكونَ النبيُّ صلى الله عليه قد قال أحدَ القولين وصحَّتْ به الشهادة ، ولم يُقلَّ الآخرَ وإنما ولَّدته الرجال ، وصنَّعتَه حملةُ السَّيرِ . ولا سبيلَ لنا إلى معرفة ذلك إذا كان الإسناد متساوياً ، وعند الرجال مُتقارباً . وليس في هذه الأحاديث كلها حديثٌ يضطرُّ خصمه إلى معرفة صحته ، أو يكونَ النبيُّ صلى الله عليه قد تكلم بكثيرٍ من هاتين الروايتين وكان معناه وقصده فيها معروفاً عند من كان بحضرته ، حتى كان الجميع يعرفون خاصته من عامه . ولكنَّ الناقلين احتملوا عن السلف مجردةً بغير تأويل معانيها ، فأدوها على اللفظ العامِّ ، فصار السامع يتناقض عنده إذا قَابَلَ بعضها ببعض ، لجهله بأصول مخرجها ، وكيف كان موقعها .

والذي فسرتُ لك مثلَ تعرفٍ به سَمَّيتُ الحُجَّةَ ، وَقَصَدَ السَّبِيلَ . وهو كما نقلوا أن النبي صلى الله عليه قال : « ما أَقَلَّتِ الغَبْرَاءُ ولا أَظَلَّتِ الحَضْرَاءُ على ذِي لهجَةٍ أَصْدَقُ من أبي ذرٍّ » . ولم يكن بالنبي صلى الله عليه إلى استثناء نفسه حاجةً ؛ لمعرفته باستغناء الناس عن ذلك .

وقد عرفنا بوجهٍ آخر أن حديث أبي ذرٍّ كان مخرجه مخرج العامِّ وأنه خاصٌّ وإن لم تكن خصوصيته موجودةً في لفظ الحديث ؛ لأنك إذا سألت الشَّيخَ فقلت : أيُّ الرجلين كان أصدقَ عند النبي صلى الله عليه أبو ذرٍّ أو عليٌّ ؟ قالوا بأجمعهم : عليٌّ ، وإنما تركَ النبيُّ صلى الله عليه لعلمه بمعرفة المسلم بذلك من رأيه .

وكذلك لو سألت العثمانية فقلت : أيُّ الرجلين كان أصدقَ عند النبي صلى الله عليه : أبو بكرٍ أو أبو ذرٍّ ؟ قالوا : أبو بكرٍ ، كقول الشَّيخِ في عليٍّ . فقد أجمَعَ الصَّنْفَانِ جميعاً أن غير أبي ذرٍّ أصدقُ من أبي ذرٍّ .

ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه : «منا خير فارس في العرب» قالوا : من هو؟ قال : عكاشة بن محصن .

وليس بين الأمة تنازع أن زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالب الطيار ، والزبير ، خير من عكاشة .

ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه : «يأتيكم خير نبي مني» [ عليه ] مسحة ملك . فاتاهم جرير بن عبد الله .

فلو كان هذا اللفظ العام عاماً في معناه ، ولم يكن النبي صلى الله عليه أتكل فيه على معرفة القوم ، فترك لذلك الاستثناء والتفسير ، لكان واجباً أن يكون جريراً خيراً من سعد بن معاذ ، ومن حمي الذئب ، ومن غسيل الملائكة ، ومكلم الذئب . وهذا ما لا يقوله مسلم .

ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه لأبي سفيان بن الحارث : «أبو سفيان خير أهلي» . وقد علمنا أن حمزة والعباس وعلياً وجعفرأ خيراً من أبي سفيان .

ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه : «خير أهل الله عمر بن الخطاب» وقد أجمع المسلمون أن غيره خير منه ، لأن الناس إما عمري وإما علوي ، فالعلوي يقدم علياً ، والعمري يقدم أبا بكر .

والجملة أنه لم يقل أحد قط : إن عمر خير الناس . فهذا باب قد فرغت [ منه ] ، تعرف به أن النبي صلى الله عليه قد يتكلم بالكلام المعروف المعنى عند من حضره ، فإذا نقلوا الكلام وتركوا المعنى التبس على العابرين وجه المعنى فيه .

فمن ذلك ما يُعرف ، كالذي حكينا من حديث أبي ذر ، وعكاشة ابن محصن ، وجرير ، ومنه ما يُجهل كحديث علي ، وأبي بكر .

وقد نقلوا عن النبي صلى الله عليه في رجال كلاماً وتفضيلاً ما نقل مثله في أبي بكر وعلي ، اللذين فيها التنازع .

من ذلك أنهم نقلوا عن النبي صلى الله عليه أنه قال : « كم من ذي طمرين لا يؤتة له لو أقسم على الله لأبره ، منهم البراء بن مالك » . وهذا كلام عظيم إن كان حقاً ، وليس عندنا فيه إلا أن نرده إلى الله ورسوله .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في رجال كلاماً لو كان قاله في أبي بكر وعلي لكان أصحابها سيجعلونه في أول ما يحتججون به في الإمامة والتفضيل مثل قول النبي صلى الله عليه : « رضيت لأمتي ما رضيت لها ابن أم عبد ، وكبرهت لها ما كره » .

ومن ذلك قوله : « لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة » .

وقوله في طلحة يوم أحد ، حين واتاه السهم فوق النبي صلى الله عليه فقال ، حين أصابه السهم : حس ! فقال النبي صلى الله عليه : « لو قال باسم الله لرفعت الملائكة » .

ومن ذلك دخول عثمان عليه وهو مكشوف الفخذ ، فغطاها ، فقيل له : يا رسول الله ، لم تغطها من أبي بكر وعمر وغطيتها عند دخول عثمان . فقال : « كيف لا أستحي ممن تستحي منه الملائكة » .

وقال : « اهتز العرش لموت سعد بن معاذ » .

فهذا أيضاً بابٌ يُعرف به أن الرجل ليس يستحق التقديم بالرواية والحديث ، إذ كان هؤلاء دون أبي بكر وعلي في الفضل ، وقد جاء فيهم ما لم يجرى فيهما .

ولقد رَووا في رجل لم يُهاجر ، ولم يُصحب ، ولم يشهد المشاهد ، ولم يُنفق ، ولم يتعرض ، ولم يذع إلى الله ورسوله ، إلا أنهم زعموا أنه كان يطلب الخليفة قبل مبعث النبي صلى الله عليه ، وهو زيد بن عمرو بن نفيل . فزعموا أن النبي قال : « يبعث يوم القيامة أمةً وخذ » .

وأني شيء أدل على كل فضيلة من قول النبي صلى الله عليه لعمار : « لا

تُؤذُوا عَمَارًا فَإِنَّمَا عَمَارٌ جِلْدَةٌ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ .

ما أعطت الرافضة الطاعة أبداً ، ولا رَضُوا من الناس بالإنصاف !  
وقد علمنا أن حمزة وجعفرًا وعليًا ، كانوا أفضل من سعد بن معاذ ، ولم  
يبتز ملوتهم عرش الرُّمَن ، وقُتِلوا شُهَدَاء ، ولم تُحْمِ لُحُومُهُم الدُّبُر ، ولا غَسَلَتْهَا  
الملائكة .

فإن الله أعلم بمعاني هذه الأحاديث . ولعلَّ النبي صلى الله عليه قال في كلِّ  
رجلٍ قولاً عدلاً ، وكان ذلك قولاً معروفاً مفهوماً عند الحاضر ، ولكنه أدى  
اللفظ وترك المعنى .

فإذا كانت الأحاديث في أسلافنا وأئمتنا على ما حكيت لك لا تمنع من  
معرفة وتدافع ما وصل إلينا منه ، كان واجباً أن يكون المنزوع في أمرهم إلى الخبر  
الذي يجيء بحجة الحججة ، وترك ما يسوى ذلك مما لا يُبْرَىء من سقم ولا يُبْرِد  
من حيرة . وإنما الخبر الصحيح الذي لا يعتمد بضعف الإسناد ، ولا يُتْرَك  
لضعف الأصل ، ولا يُوقَف فيه لكثرة المعارض والمناوئء ؛ كنعو ما روينا من  
مآثرهم في مقاماتهم ومشاهدتهم ، وكصنيع عليٍّ ومؤازرته ببدر ، وككون أبي بكرٍ  
في العريش . وهذا ما لا يتدافع ولا يتناقض ؛ لأنَّ قتل عليٍّ الأقران ببدر ليس  
بناقض لكون أبي بكرٍ في العريش ، ولأنَّ موقف عليٍّ بأحدٍ لا يدفع كون أبي بكرٍ  
في الغار ، ولأنَّ صنيع عليٍّ بخيبر لا يدفع إنفاق أبي بكرٍ الأموال ، وعنته  
الرقاب .

فهذا وما أشبهه مما لا نجد له راداً ودافعاً ، وليس هذا من شكل ما قالوا :  
أنَّ النبي صلى الله عليه قال : « اقتدوا باللذين من بعدي بأبي بكرٍ وعمر » ونقلهم  
أنَّ النبي صلى الله عليه قال لعليٍّ : « أنت مني بمنزلة هارون من موسى » ، وكما  
نقلوا أنَّ النبي صلى الله عليه أخى بين نفسه وبين عليٍّ ، وأنَّ النبي قال : « لو  
كنتُ مُتَّخِذاً خليلاً لأتَّخذتُ أبا بكرٍ خليلاً ، في أشباهِ هذا قد حُكِيَتْ لك في صدر  
الكتاب ، لتعرف مجرى الكلام في السلف .

فإن قالوا : فلعَلَّ النبي قال : « اقتدوا باللذين من بعدي » وقد كان معلوماً في [ ذلك ] الوقت أن علياً كان مستثنىً في هذا القول .

قيل لهم : ولعله قال : « من كنت مولاه فعلي مولاه » [ وقد كان معلوماً في ذلك الوقت أن أبا بكر كان مستثنىً .

فإن قالوا : الفرق في ذلك أنكم لا تُتكررون روايتنا في عليٍّ ، ونحن ننكر روايتكم في أبي بكر .

قيل لهم : إن العجزَ كلَّ العجز أن تعيدَ على خصمك بشيء لا يُعجزه . فإن أبوا إلا جحدَ الأخبار وتكذيبَ الآثار والإيجابَ على الناس ما لا يُوجبون لهم مثله فإن الذين نقلوا أن النبي صلى الله عليه قال : « مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ » لم ينقلوا معه في الحديث : « اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ » .

وإنما سمعنا هذه البُيُوتَ من الشيعة ، ولم نجدَ له أصلاً في الحديث المحمول .



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

[ ٤٤ - تأويل العثمانية لحديث : من كنت مولاه فعلي مولاه ]

روى الأعمش - وكان رافضياً - عن سعد بن عبيدة ، عن ابن بُرَيْدَةَ ، عن أبيه قال : بعث النبي صلى الله عليه علياً في سرية واستعمله عليهم ، فلما جاء قال : كيف رأيتم صاحبكم ؟ قال : فيما شكوتُه وإما شكاه غيري ، وكنت رجلاً مكباباً ، فرفعت رأسي فإذا النبي صلى الله عليه قد احمرَّ وجهه وهو يقول : « مَنْ كُنْتُ وَلِيَّهُ فَعَلِيٌّ وَلِيَّهُ » .

فواحدة أن الذي روى هذا الأعمش ، وهو ظنينٌ في عليٍّ مضعفتُ عند أهل الحجاز . وسعدُ بن عبيدة ليس هناك .

وثانية أنه لم يقل من كنت مولاه ، وقال : « من كنت وليه » فإذا اختلفت الألفاظ دلَّ ذلك على الوهن . ولم يقل : « اللهم عاد من عاداه ووار من

والاه . ونحن نشهد أن من كان النبي صلى الله عليه ولبيه فسعد بن معاذ ولبيه .  
وعلى أنهم قد رَووا في شكايه أقوام في تلك الغزاة لعلي كلاماً قبيحاً .

ووجه آخر مما يدل في هذا الحديث على الاختلاف والوهن : أنهم نقلوا أن  
هذا القول في علي كان أن علياً جازى زيد بن حارثة في بعض الأمر، ولاحاه  
فيه ، لأنه أغلظ له ، فرد عليه زيد مثل مقالته ، فقال له علي : تقول هذا القول  
لمولاك ؟ فقال زيد : إنما ولاني لرسول الله صلى الله عليه ، ولست لي بمولى .  
فأتى علي النبي صلى الله عليه ، فشكا إليه زيدا ، فقال النبي صلى الله عليه  
وسلم : « من كنت مولاه فعلي مولاه » . وصدق النبي صلى الله عليه أن علياً  
مولى زيد ، إذ كان النبي صلى الله عليه مولاه ، وكذلك العباس والفضل ،  
وعبد الله ، وقثم ، وثمام ، ومعبد .

وإذا كان هؤلاء موالى زيد لأن النبي صلى الله عليه مولاه ، فلعلم النبي  
صلى الله عليه من ذلك ما ليس لهم جميعاً فإنما أراد النبي صلى الله عليه أن يعلم  
زيداً غلظه في ذلك القول ، حين ظن أن ابن عم النبي صلى الله عليه ليس  
مولاه .

مركز تحقيقات كويت علوم إسلامية

فإذا كان أمر علي وزيد مشهوراً عند أصحاب الآثار ، فإنما عني مولى  
النعمة ، وليس في هذا إخبار عن فضل علي في الدين .

ولو كان النبي صلى الله عليه قال كما زعمت الروافض : « اللهم عاد من  
عاداه ووال من والاه » ، كان هذا القول يدل على أن زيدا قد أتى جرمًا عظيمًا ؛  
فلم يكن ليتخطى دعاء النبي صلى الله عليه على من عادى علياً إلى غيره إلا بعد  
وقوعه به ، لأن زيدا هو المشتكى ، ومن أجل صنيعه خرج النبي صلى الله عليه  
إلى مثل هذا القول الشديد ، وهذا الدعاء القاصم ، ومن قوله ومذهبه غضب  
عليه ، وعليه نص وإياه عني .

وإنما يقول هذا ويجوزه من لا علم له بقدر زيد عند النبي صلى الله عليه .  
أوما علمت أن زيدا أحد من روى الناس عنه ونقلوا أنه كان أقدم الناس

إسلاماً . وقد دَلَّلنا على فضيلة إسلامه على إسلام عليّ في صدر كتابنا ، في كلام  
العثمانية .

وقد بلغ من قدره عند النبي صلى الله عليه وتفضيله إياه أنه لم يكن في  
سرية قط إلا كان أميرها ، ولا أقام ببلادٍ إلا وهو أميرها .

ويدلُّك على ذلك أن النبي صلى الله عليه أمره على جعفر الطيار ، وعقد له  
يوم مؤتة ، ثم عقد لابنه أسامة على كبار المهاجرين والأنصار ، منهم عمر بن  
الخطَّاب ، وسعيد بن زيد ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وسعد ابن أبي وقاص .  
حتى قال رجال من المهاجرين . وكان أشدهم في ذلك عياش بن أبي ربيعة - :  
يولي علينا هذا الغلام ! فغضب عمر وردَّ عليهم ، ثم أتى النبي صلى الله عليه  
فقال : ألا أعجبك يا رسول الله من رجال يقولون كذا وكذا ؟ ! فمشى النبي  
صلى الله عليه إلى المنبر في شكاته التي توفِّي فيها فقال :

ما مقالة بلغتني عن بعضكم في أسامة وتأميره ؟ ! ولئن طعنتم في إمارته  
لقد طعنتم في إمارة أبيه . وأيم الله إن كان خليفاً للإمارة ، وإن ابنه لخليق لها ،  
وإن كان لمن أحب الناس إليّ ، وابنه لمن أحب الناس إليّ .

فهو الحِبُّ وأبو الحِبِّ ، وهكذا يقال بالمدينة : أسامة الحِبُّ .

ولذلك قال عمر لابنه عبد الله حين زاد في فريضة أسامة على فريضته ،  
فقال له عبد الله : لم فضلتَ عليّ ونحن سيان ؟ فقال عمر : إن أباه كان أحبَّ  
إلى النبي صلى الله عليه من أبيك ، وكان هو أحبَّ إلى النبي صلى الله عليه  
منك .

وقالت عائشة عند وفاة النبي صلى الله عليه : لو كان زيد حياً لاستخلفه  
النبي صلى الله عليه عليكم .

هذا وأبوها الخليفة والمجول إليه الإمامة .

ومما يدلُّك على فضيلة أبي بكر ومكانته وخاصته من النبي صلى الله عليه

وسلم وعِظَم شأنه عنده ، أن النبي صلى الله عليه [لما] آخى بين المهاجرين والانصار آخى بينه وبين حمزة ، وإليه أوصى حمزة يوم أحد . وقد تعلمون أن حمزة استشهد وهو أجل الناس في صدور المؤمنين ، وأعظم في أنفس المهاجرين . وإن امرأ يكون كفوًّا لحمزة في الإخاء ، وحمزة على ما وصفنا ، لعظيم الشأن ، رفيع المكان .

ولو لم يُعرف من قدره إلا أن ذكره الله باسمه في كتابه ، كما ذكر لقمان ، ولم يفعل هذا لغيره من هذه الأمة ، لقد كان ذلك دليلاً على المنزلة والقربة ، فكيف يجوز أن يكون في الحديث : « اللهم عادٍ من عاداه ووالٍ من والاه » وحال زيدٍ وصفته على ما ذكرنا وفسرنا ؟ ! مع أن اللفظ في الحديث لو كان : اللهم عادٍ من عاداه ووالٍ من والاه ، لم يكن فيه دلالة تضطرُّ إلى إمامته ، وحُجَّة تقهر العقول وتحملها على معرفة خاصته ، ولكنه لفظٌ يدلُّ على الفضل والقدر ، وليس بالفضل الذي لا بعده ، والتقديم الذي لا فوقه .

وإنما الكلام الذي لا بعده قول النبي صلى الله عليه : « ما أحدٌ آمنَ علينا بصحبته من أبي بكر » ، وقوله : « لو كنتُ متخذاً خليلاً لا تأخذتُ أبا بكر خليلاً » ، وقوله : « أبو بكرٍ وعمرٌ سيِّدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين ، إلا النبيين والمرسلين » .

فإذا كان هذا الحديث مختلفاً في أصله وفي صحته مخرجه ، ومختلفاً في تأويله وفرعه ، والحجة في أصله متداخلة ، والحجة في فرعه متكافئة ، فكيف يكون جحد عليٍّ إمامته واستحقاقه وفضيلته على نظرائه .

ولو كان هذا الحديث مجتمعاً على أصله وصحته مخرجه ، ثم كان لفظه محتملاً لضروب التأويل ، ما كان للروافض فيه حجة تقطع الخصم ، وتظهر المباني .

ولو كان هذا الحديث مجتمعاً على أصله وصحته مخرجه وكان لا يحتمل من التأويل إلا معنى واحداً ما اختلفت في تأويله العلماء ، ولا اضطربت فيه

الفقهاء ، ولكان ذلك ظاهراً لكل من صحَّحْهُ ، وحسُنْ بيانهُ ، ولا سيَّما إذا كان الحديثُ ليس مُفصِّحاً عن نفسه ، ومعرباً عن تأويله ، إلا عن قصد الرسول وإرادته لأنَّ يكفِيهِمْ مَوْنَةُ الرّواية والأسباب المشكّكة فينبغي على هذا القياس أن يكون علماء العثمانية وفقهاء المُرجئة تُعرِف من ذلك ما تعرف الروافض ، ولكنَّها تُجحد ما تعرف ، وتنكِر ما تعلم .

ولو كان هذا الحديثُ مجتمِعاً على أصله ولكنَّه غامضُ التأويل ، وعويصُ المعنى ، لا يكاد يُدرِكُهُ إلا الراسخُ في العلم ، البارِعُ في حُسن الاستخراج ، كان العُذر في جهل إمامته وفضيلته على غيره واسعاً مبسوطاً. لأكثر المسلمين ، وجُلُّ الناقلين ، وكبراء المتكلِّمين .

وإنَّما صارت الروافض إلى إكفار الأنصار والمهاجرين ، بِرِزْءِهِمْ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ نَصٌّ عَلَى إِمَامَتِهِ ، ودلٌّ على فضيلته ، فإنَّه لا بدُّ للناس في كلِّ عصرٍ من إمام من ولده ، لأنَّ ذلك الموضع إذا كان مَقْنَعاً وَمَعْلِماً كان أخفَّ على الناس في المحنة ، وأبعَدَ من الخطأ والزلل ، ولأنَّ اختيارَ الله لهم لأنفسهم ، لأنَّه لو كان ذلك لا يكون إلا بالنظر دون النصِّ لم يصلوا إلى إقامته ، لكثرة عدد الناس ، ولكثرة عدد الفضل ، ولما في ذلك من الإشكال عند الموازنة ، والشغل عن العدو .

فإذا كان السَّببُ في الإمامة هو الذي قالوا ، فلا بدُّ من حديثٍ لا يجتمَلُ التَّأويل ، ولا يَمْنَع من معرفة صحَّة أصله وصدق نَحْرجه .

فإن قالوا : فإننا سنأتيكم بمثل اللفظ الذي أتيتمونا به حتى لا يكون لفظٌ أدلُّ على الغاية منه . من ذلك قولُ النبي صلى الله عليه عند طائرٍ أتى به فأراد أكله فأحبُّ أن يَشْرَكَه في أكله أحبُّ الناس إلى الله فقال : « اللّهُمَّ آتِنِي بِأَحَبِّ عِبَادِكَ إِلَيْكَ يَأْكُلُ مَعِيَ هَذَا الطَّائِرُ » ثم قال لأنس : اخرجْ فانظرَ مَنْ ترى بالباب ؟ فخرج فوجدَ عليّاً فلم يَأْذَنْ له ، ولم يُعلم النبي صلى الله عليه مكانه طمعاً أن يكون أنصارياً . ففعل النبي صلى الله عليه ذلك ثلاثاً ، كلُّ ذلك

يُحِبُّهُ أَنَسٌ ، ثُمَّ أَدْخَلَهُ ، فَلَمَّا طَلَعَ قَالَ : « اللَّهُمَّ وَالِ » .

قِيلَ لَهُمْ : أَمَا وَاحِدَةٌ فَإِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ سَاقِطٌ عِنْدَ أَهْلِ الْحَدِيثِ ، وَلَوْ كَانَ صَحِيحاً عِنْدَهُمْ فَلَمْ يَجِيءَ إِلَّا مِنْ قِبَلِ أَنَسٍ فَقَطْ ، وَأَنَسٌ وَحْدَهُ لَيْسَ بِحُجَّةٍ ، فَلَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ مَقَالٌ وَلَا مِتْكَأَمٌ .

وِثَانِيَةٌ : إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ الْأَمْثَلُ بِخَبَرِ أَنَسٍ لِأَنَّكُمْ مَعْشَرَ الشَّيْعَةِ ، لِأَنَّ أَنَساً عِنْدَكُمْ كَافِرٌ كَذَّابٌ .

وَلَقَدْ بَلَغَ مِنْ سُوءِ قَوْلِكُمْ فِيهِ أَنَّكُمْ زَعَمْتُمْ أَنَّهُ كَذَّبَ عَلِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، كَذَبَهُ وَبَهْتَهُ بِأَمْرِ ، فَدَعَا اللَّهَ عَلَيْهِ ثُمَّ بَصَقَ فِي وَجْهِهِ فَبَرِضَ مِنْ قَرْنِهِ إِلَى قَدَمِهِ . وَأَنْتُمْ تَكْفُرُونَ بِعَمَلِهِ لِلْحُجَّاجِ ، وَتَزْعُمُونَ أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ أَكْفَرُ بِاللَّهِ وَلَا أَجْحَدُ لِإِمَامَةِ عَلِيٍّ وَلَا أَنْقَضَ لِأَمْرِهِ ، وَلَا أَقْتُلُ لِشِيعَتِهِ مِنَ الْحُجَّاجِ وَلَا مَنْ وُلَّاهُ ، وَأَنْ مَنْ وُلِّيَ لَهَا فِي طَرِيقِهَا وَحَكْمِهَا .

وَأُخْرَى أَنَّهُ إِذَا كَانَ هَذَا الْحَدِيثُ كَمَا تَقُولُونَ وَقَدْ صَدَقْتُمْ عَلَى أَنَسٍ ، فَقَدْ زَعَمَ أَنَسٌ بِزَعْمِكُمْ أَنَّهُ كَذَّبَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ فِي مَوْقِفٍ وَاحِدٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ . وَقَدْ أَمْسَكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَنِ الطَّعَامِ وَهُوَ يَشْتَهِيهِ ، فَاحْبَبَ لَشَهْوَتِهِ لَه أَنْ يَشْرَكَ فِيهِ أَشْبَهُ النَّاسِ بِهِ فَدَعَا رَبَّهُ ؛ وَأَنَّهُ إِذْ دَعَا رَبَّهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ كُلُّ ذَلِكَ يَسْتَجِيبُ لَهُ ، وَكُلُّ ذَلِكَ يَرَاهُ أَنَسٌ وَيَكْذِبُ لَهُ وَيَصُدُّهُ عَنِ حَاجَتِهِ ؛ وَمِنْغُهُ سُرْعَةَ الْاسْتِجَابَةِ ، وَتَعْجِيلَ قَضَاءِ الْحَاجَةِ ، وَتَسْوِيفَهُ أَكْلَ الْمُشْتَهَى مِنْ طَعَامِهِ . كُلَّمَا دَعَا دَعْوَةً قَالَ اخْرُجْ يَا أَنَسُ فَانظُرْ مَنْ بِالْبَابِ ، ثِقَةٌ مِنْ رَبِّي ، وَاتَّكِلْ عَلَى الَّذِي عِنْدَهُ لَهُ ، وَيَرْجِعُ وَقَدْ كَتَمَهُ وَحَجَبَهُ عَنْهُ ، وَمِنْغُهُ سُرُورَ تَعْجِيلِ الدُّعَاءِ ، وَأَكْلَ شَهْوَى الْبِغَاءِ .

فَإِنَّ كَانَ أَنَسٌ كَمَا تَقُولُونَ فَقَدْ رَكِبَ أَمراً عَظِيماً ، وَذَهَبَ مَذْهَباً قَبِيحاً . وَكَيْفَ يَصْدُقُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ مَنْ خُلِفَهُ بِهَذَا ، وَكَذَّبَهُ فِي وَجْهِهِ ثُمَّ لَا تَمْنَعُهُ الْأَوَّلَى مِنَ الثَّانِيَةِ ، وَالثَّانِيَةُ مِنَ الثَّلَاثَةِ . هَذَا وَالْوَسْطِيُّ يَنْزِلُ بِأَسْرَعٍ مِنَ الطَّرْفِ بَلْعَنِ قَوْمٍ وَمَذْحِ آخَرِينَ .

وإن امرأاً احتملت نفسهُ وشاع في طبعه أن يواجهَ النبيَّ صلى الله عليه  
بالكذب ثلاثَ مراتٍ في أحبِّ الناسِ وأوجبهم حقاً عليه ، لحريِّ الأ يصدق عليه  
في مُعظمِ أمرِ الدين ، مع أن الحديثَ نفسَه هو أضعفُ حديثٍ عند أصحابِ  
الأثرِ من أن يهوجنا إلى الإطْئابِ فيه ، والإخبارِ عنه .

ومنى ادّعينا ضَعْفَ حديثِ وفَسَادَه فاثَّمتُم رأينا ، وخِفْتُم مِئْنا أو غَلَطْنا  
فاعترضوا هَمَّالَ الحديثِ وأصحابِ الأثرِ ، فإنَّ عندهم الشفاءُ فيما تنازَعنا فيه ،  
والعلمُ بما التَّبَسَّ علينا منه .

ولقد أنصَفَ كلَّ الإنصافِ مَنْ دعاكم إلى المَقْتَنعِ مع قُربِ داره وقلَّةِ جوره  
وأصحابِ الأثرِ من شأنهم روايةَ كلِّ ما صحَّ عندهم ، عليه كان أولهم . مع  
أن هذا الأمرِ ليس يُعرَفُ من قِبَلِ الحديثِ ، وإنما يُعرَفُ من الوجهِ الذي به  
يُقضى على جميعِ الدِّينِ .

وإنما احتججنا عليكم في أنسِ بالذي سمعتم ، لانا وجَدناكم تكفرونه  
حتى إذا جرى سببٌ يؤكد ما تقولون جعلتم كفره إيماناً ، وكذبه تصديقاً ،  
وعداوته ولاية . ثم لم ترفضوا بأن الحَقْموه بالأولياءِ وأخرجتموه من حدودِ  
الأعداءِ ، حتى أقمتُم خبره وحده مَقَامَ خبرٍ من يكذبُ آياً به ، أو مقامِ خبرٍ  
يُمتنعُ الكذبُ في مجيئه لاختلافِ عللِ أهله .

فأما نحنُ فإننا نرى أنه رجلٌ عظيمُ الحُرْمَةِ واجبِ الحقِّ ، إذ كان قد خدم  
النبيَّ صلى الله عليه صغيراً واعتصم به كبيراً ، وكان من رهطِ صدق .

وأما ما حكيتُم من ولايته للحجَّاجِ فقد ولى للحجَّاجِ وصلى خلفه مَنْ كان  
يرى إكفاره فضلاً عن من يرى تفسيقه ، وفي البراءة منه وفي التَّقِيَّةِ سَعَةٌ ، وفي  
الخوفِ عُدْر .

فأما الذي حكيتُم من البياضِ الذي أصابه فإنَّ المؤمنَ بعرضِ مصائبِ ما كان في  
دارِ الدنيا . وما كان الذي أصابه في جَنبِ الذي كان فيه أيوبُ النبيَّ صلى الله

عليه ؟ ! وقد كان شعيب مكفوراً !

ولو كان علي كما يقولون فأراد أنه كان إذا بصق على إنسان فأراد أن يبرص  
برص ، لما كان بينه وبين عيسى بن مريم صلى الله عليه فرق .

والعجب إن كان كما تزعمون ، كيف لم يبصق على أبي موسى فيجذمه ، أو  
على جيش صفين فيهزمه ؟ ! بل كان علي أظهر سلباً ، وأرجح جليماً وأشد ورعاً ،  
وأكثر فقهاً ، وأمين فضلاً ، من أن يدعى هذا وشبهه .

[ ٤٥ - تاويل العثمانية لحديث « أنت مني كهارون من موسى » ]

وأما قولكم إن النبي صلى الله عليه قال : « أنت مني كهارون من موسى  
إلا أنه لا نبي بعدي » ، وإن النبي صلى الله عليه أراد بهذا أن يعلم الناس أن  
علياً وصيه وخليفته ، فإننا سنقول في ذلك ، وبالله وحده نستعين .

نقول : إن خلافة الرجل لا تكون إلا في إحدى منزلتين : إما في حياة  
المستخلف وإما بعد موته . ولم يقل أحد أن النبي صلى الله عليه استخلف علياً  
في غزوة من غزواته ، في كثرة ما غزا ، وكثرة ما ولى .

قالوا بأجمعهم : إن النبي صلى الله عليه خلفه في غزوة تبوك ، واستخلف  
على المدينة محمد بن مسلمة . وقال قوم : المستخلف ابن أم مكتوم . وهم إن  
اختلفوا فلم يختلفوا أن علياً كان مقيماً بالمدينة والامير غيره ، والإمام سيواه .

ولولا أن خلفاء النبي صلى الله عليه في غزواته يُصاب عليهم بكل مكان ،  
وفي كل سيرة ، لقد كتبه لك في كتاب الذي رددت فيه على من صغر قدر  
الإمامة وزعم أنها غير واجبة ، وأنها تصلح في العدد الكثير . وأما غير ذلك من  
كتبي فلم أنتحل فيه قولي ، وجعلت الكتاب هو الذي عبّر عن نفسه ، وقيمت  
مقام جميع الخصوم وجعلت نفسي عدلاً بينهم . ولو لم أكن على ثقة من ظهور  
الحق على الباطل لم أستحل كتمانته مع زوال الثقة ، وصلاح الدهر ، وإنصاف  
القيم .

ثم رجعنا إلى كلامنا الأول فقلنا : لا بد لخلافة الرجل من إحدى منزلتين : إما في الحياة أو بعد الموت : فأما في الحياة فلا يستطيع أحد أن يقول : إن النبي صلى الله عليه استخلف علياً في حياته . وليس يضع ذلك من علي ، لأن أبا بكر وعمر اللذين هما عندنا أولى بالأمر منه لم يستخلفهما النبي صلى الله عليه قط في حياته . أو تكون الخلافة بعد الموت فلا يجوز أيضاً أن يكون النبي صلى الله عليه عنى بقوله « أنت مني بمنزلة هارون من موسى » الخلافة لعلي بعده والذي قد علم أن هارون قد مات قبل موسى : لأن هارون وموسى وأمهما ماتوا جميعاً في شهر واحد ، وكان موسى صلى الله عليه أجرحهم موتاً . ولذلك قالت بنو إسرائيل لموسى : أنت قتلت هارون .

فإن قالوا : ومن يقول : إن هارون مات قبل موسى ؟

قيل لهم : إن شتم فاعترضوا أصحاب التفسير والسيرة ، والتمسوا علم ذلك من قبل أصحاب ابن عباس ، وإن شتم فاهل الكتاب يهودهم ونصاراهم الذين ليس لهم في ذلك دفع مضرة ولا اجتلاب منفعة ، ولو آثروا أن يجحدوا ما عرفوا ، وأن يطبقوا على إنكار ما علموا ، وكان ذلك ممكناً في القدرة ، سائغاً جائزاً ، لجحدوا أن بني إسرائيل أخذت موسى بقتل هارون تعتاً وبغياً ، أو غلطاً أو جهلاً .

وهذا مشهور عند أهل الكتاب وأهل التفسير .

وليس أحد أحق بأن يُصيب في الأمثال إذا ضربها ، ولا أولى بحسن التشبيه إذا شبه ، من خيرة الله وصفوته من رسله ، فكيف يجوز أن يقول النبي صلى الله عليه لعلي : « أنت مني بمنزلة هارون من موسى » وهو يريد الخلافة ، وهارون لم يكن من موسى خليفة من بعد موته ، ولم يكن علي خليفة النبي صلى الله عليه في حياته . ففي أي المنزلتين وعلى أية الحالين يكون علي خليفة إذ لم يكن استخلفه النبي أيام حياته . بل كيف يجعله من نفسه بمنزلة هارون من موسى وهو يريد الخلافة من بعده ، وهارون لم يكن خليفة موسى بعده .

ولا بدُّ للحديث مع سوء تأويلكم واضطراب حُجَّتكم من ضريين :  
إمّا أن يكون باطلاً لم يتكلّم به النبي صلى الله عليه . وإمّا أن يكون حقاً  
ومعناه غير فلتتم ، وتفسيره غير ما ادّعيتم .

ولو أن النبي صلى الله عليه أراد أن يجعل علياً خليفةً من بعده إذ لم يكن  
جعله خليفةً أيام حياته ، لقال : « أنت مني بمنزلة يوشع بن نونٍ إلا أنه لا نبيُّ  
بعدي » ، لأن يوشع كان خليفةً موسى في بني إسرائيل بعده ، وكان نبياً قبل موت  
موسى وبعده .

فإن قالوا : إن النبي صلى الله عليه لم يقصد إلى الخلافة ولم يُرد الإمامة ،  
ولكنه عنى الوزارة .

قلنا : إن وزارة هارون من موسى لا بدُّ فيها من أحد أمرين :

إمّا أن يكون موسى هو جعل له ذلك وهو وزيره على جهة ما يتخذ الإمام  
وزيراً والملك وزيراً على معنى الاختيار والاستكفاء والثقة .

أو يكون وزيره على جهة المؤازرة والمكائفة والتعاون ، على أن كل واحد  
منها وزير صاحبه ومعاونه ومكائفه ، إذا غاب عن قومه كان الآخر خليفةً ، لا  
على أن موسى الجاعل ذلك له .

ولا منزلة هارون من موسى إلا هاتين المنزلتين في جهة الخلافة والوزارة ،  
لأن نبوة هارون لا تكون من قبل موسى ، والنبوة لا تكون إلا من قبل الله .

وليس يخلو قول موسى لهارون : « اخلّفني في قومي » عن ضريين : إمّا أن  
يكون هو جعله خليفةً على جهة الاختيار والاستكفاء والثقة به ، وإمّا أن يكون  
خليفةً على أن يكون كل واحدٍ منهما إذا غاب عن قومه كان الآخر خليفةً .

فإن كانت وزارة هارون أو خلافته لموسى إمّا كانت منزلتين أنزله فيهما  
موسى ، وليست هارون من موسى منزلةً غيرهما ، فقال النبي صلى الله عليه :

« أنت مني بمنزلة هارون من موسى » فكأنما قال : لك خلافتي ووزارتي ، فكيف يقول : إلا أنه لا نبي بعدي . والنبوة منزلة من الله لهارون وليست منزلة لهارون من موسى . فإذا كان ذلك كذلك فكيف يستثنى الحكيم المرشد الشيء من [ غير ] شكله ؟ ! وهل يكون بعض من غير كله ؟ !

وكيف يقول : قد جعلتك خليفتي ووزيراً ، إلا أني لم أجعلك نبياً مثلي ، ومنزلة النبوة ليست إليه كما كانت منزلة الخلافة والوزارة إليه . وإنما قوله : « أنت مني بمنزلة هارون من موسى » يريد به : إن لك مني مثل الذي كان لهارون من موسى ، وهو الخلافة والوزارة . فكيف يقول : « إلا أنه لا نبي بعدي » فيستثنى ما لا يملكه ولا يجوز أن يملكه ، مما قد ملكه ويجوز أن يملكه من هو دونه من خلفائه ومن خلفاء خلفائه .

أو يكون هارون كان وزيراً صاحبه وخليفته عند الغيبة وحضور الآخر ، ليس أنه قد كان خليفة ووزيراً . وإن كان ذلك كذلك فليست لهارون من موسى منزلة من الوزارة والخلافة إلا ولموسى من هارون مثلها . وإذا كان ذلك كذلك فقد صارت خلافتها ووزارتها كنبوتها أو رسالتها . وإذا كان ذلك كذلك فكيف يجوز أن يقول النبي صلى الله عليه لعلي : أنت مني بمنزلة هارون من موسى ، وليست لهارون من موسى منزلة إلا ولموسى مثلها من هارون ؟ ! . . وكيف يجوز أن يقول النبي صلى الله عليه ذلك لعلي ومنزلة هارون من موسى منزلة النبي من النبي ، والشكل من الشكل ، والمثل من المثل ، وهي منزلة من الله كما أن نبوة موسى منزلة من الله ؟ !

وكيف يقول : إلا أنه لا نبي بعدي ، وسبيل النبوة سبيل منزلة هارون من موسى على ما حكيناه من التعاون والتآزر ؟ !

وإذا كان هذا الحديث لو صح في أصله وأول مخرجه ، وسليم من الزيادة والنقصان وجاء مجيء الحجّة ، لم يقدر القوم على أن يجعلوه دليلاً موجباً وشاهداً صادقاً على خلافته وإمامته دون غيره ؛ فما ظنك به إن كان قد دخله من الخلل

والضعف والاحتمال في الفساد ما يوجب تكذيبه ورثه .

وأقل ما للعثمانية في هذا الحديث أن يسأؤوكم في تأويلكم ، وفي ذلك الخلاف بطلان حججتكم .

وقد زعم ناس من العثمانية أن هذا الحديث باطل من أجل أنه لا يمتثل من التأويل إلا ما حكيث لك ، وأن النبي صلى الله عليه لا يعلن ولا يظهر غير ما يضمن ، ولا يتكلم بالفساد ، ولا يستكره المعاني ، ولا يتكلم بالمتعقد ، ولا يضرب مثلاً ولا يشبه شيئاً بشيء إلا وذلك الشيء وفق ما قال ، لا يزيد عليه ولا ينقص عنه .

ووجه آخر : أن هذا الحديث لم يُرو إلا عن عامر بن سعد . فواحدة إن عامر بن سعد هذا لو كان بالفقه والحديث والفضل معروفاً وكان كأمثاله من بني الصحابة كعبد الله بن عباس ، وابن عمر ، وابن الزبير ، وأبي سلمة بن عبد الرحمن وغيرهم ، ما كان ليكون وحده حجة في تأخير أبي بكر عن مقامه ، فكيف وهو في غير سبيلهم وطريقهم .

ولو سمعنا هذا الخبر من سعدٍ وحده ما كان إلا حجة على نفسه كالحجج على علي في روايته أن النبي صلى الله عليه قال في أبي بكر وعمر : « هذان سيده كهول أهل الجنة » .

وكيف يروى هذا سعد مع قوله في الإمامة : « ما أنا بقميبي هذا أحو مني بها » وهو يدعو علياً إلى الشورى والمخايرة والمكاثرة بالمحاسن ، ويقول « أعيذوها شورى كما كانت » ، ويعيب علياً بالاستبداد ، ويقول : « كنت سابع سبعة مع النبي صلى الله عليه ، ما لنا طعام إلا ورق الشجر ، ثم جاءني أعرا يعلمني دين الله ، ما أنا بقميبي هذا بأحق مني بها » .

ولأنما فخر بأنه كان سابع سبعة على علي لأن علياً لم يكن فيهم عنده وكان إما حدثاً صغيراً وإما على أمر غير ذلك .

وسعدٌ من العشرة ، ومن الستة ، ومن السبعة ، والمستجاب الدعوة . وقال له النبي صلى الله عليه : « ارمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي » . ومن كان لهذه الأمور مستحقاً لم يجمع بين طلبِ مخايرة رجلٍ ومكائرتِه بالمحاسن وهو مُقرُّ أن النبي صلى الله عليه جعلَ خصمه منه بمنزلة هارون من موسى ، إلا أن يكون تأويلُ الحديث عند سعدٍ وعند من شهد سعداً على غير معنائكم .

وحديثُ عامرٍ على غير ما يروون ، وإنما قال : « أنت مني بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه ليس معي نبي » ، هكذا رَوَاهُ عن عامر بن سعدٍ على غير معنائكم .

وفي قول النبي صلى الله عليه : « هذا خالي أباهي به فليات كل امرئ بهخاله » تفضيل له على كل خالٍ في الأرض ، وقد كان عليٌّ خالاً جعدة بن هبيرة ، ولم يستثن أحداً .

فلان قالوا : الدليل على ما قلنا أن النبي صلى الله عليه لما آخى بين المهاجرين والأنصار آخى بينه وبينه ، فلولا أنه كان أشبه الناس به هدياً ، وعلماً وفضلاً ، لم يجعله عدلاً نفسه دون غيره .

قيل لهم : أنتم ليس لكم علمٌ بالأثر ولا بالخبر . وكيف يعرف الأثر والأخبار من يكفر الأسلاف ، ويبرأ من التابعين ، ويحمد كل ما لم يوافق هواه ، ويدعي ما وافق هواه وإن كان باطلاً ، بل لا يرضى حتى يتناول الزور ويؤلد الباطل .

وليس شيءٌ أيسرَ من أن يقول قائل : إن النبي صلى الله عليه لما آخى بين أصحابه آخى بين نفسه وبين أبي بكر . ولكن الحقُّ أحقُّ ما خُصِّع له واحتُجِّل ما فيه . وهذه الفقهاء وأصحاب الأثر عُرْضَةٌ لكم ، فإن لم يقولوا إن النبي صلى الله عليه لما آخى بين المهاجرين والأنصار آخى بين عليٍّ وسهل بن حنيف فنحن أولى بجمد المعروف منكم . وقد قال الله : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

وأنتم لستم أصحاب آثارٍ ، فاسألوا أصحاب الآثار إن كنتم لا تعلمون ،  
فإن ذلك أمرٌ مشهور لا خفاة به ، ولا دافع له ، أعني المؤاخاة بين عليٍّ وسهل  
ابن حنيفة .

ولثقة عليٍّ به استعمله على المدينة حين خرج عنها . ومن أجل سهل بن  
حنيفة امتنع الزبير وطلحة أن يركبا عثمان بن حنيفة والي عليٍّ على البصرة  
بأكثر مما كانا ركبا به . ولذلك السبب صلى أبو أمامة بن سهل بن حنيفة  
بالناس في مسجد الرسول صلى الله عليه وعثمان محاصر ، لرأي عليٍّ كان في  
ذلك ، ولغلبته على الدار ، وأنه كان يطاع بأكثر من طاعة الزبير وطلحة وسعد .

وإنما أخى النبي صلى الله عليه بينه وبين سهل بن حنيفة الأنصاري كما  
كان أخى بين عثمان بن عفان وأوس بن ثابت . ولذلك قال حسان بحامي دونه  
وَيَنْصُرُهُ بِالْكَلَامِ وَالشُّعْر ، وَيُظْهِرُ الْمِيلَ عَلَى عَلِيٍّ حِينَ قَالَ :

يا ليت شعري وليت الطير تخبرني ما كان شأن عليٍّ وابنِ عفانا  
لنسمعن وشيكاً في دياركم الله أكبر يا ثاراتِ عثماننا  
ولذلك قال في كلام له وهو يعتمد رأي عليٍّ واختياره : ثكلت أم نزال  
حرب لقي ابن أبي طالب كفاحاً ، وسعدت أم نزال رأي لقي ابن أبي طالب  
سهواً . في كلام كثير ، وشعر كثير .

وكسها أخى النبي صلى الله عليه بين أبي الدرداء ، وسلمان ، وبين  
عبد الرحمن ابن عوف وسعد بن الربيع ، وبين حذيفة وعمار ، وبين حمزة  
وزيد ، وبين أبي بكر وعمر .

فإن قالوا : فلعل النبي صلى الله عليه أخى بين عليٍّ وبين نفسه ، وبين  
عليٍّ وبين سهل بن حنيفة ، وهذا ما لا يتدافع ، كما كان يواخي بين الرجل  
المهاجري وبين الأنصاري ، وقبل ذلك ما آخى بين المهاجرين بعضهم في  
بعض ، فكان الرجل منهم تصير المؤاخاة بينه وبين اثنين : مهاجري وأنصاري .

قلنا لهم : أما واحدة فإننا لم نجد لقولكم إن النبي صلى الله عليه أخى علياً

إسناداً يثقُ به أصحابُ الحديثِ فضلاً عن أن يكونَ جاءَ مجيءُ الحديثِ . ولو كانَ النبيُّ عليه السلامُ حيثُ آخَى بينَ المهاجرينَ ولم يرضَ لعليٍّ إلا بنفسه لفضَّلَ عليٌّ على غيرهِ وأنه أشبهُ الأُمَّةَ به وأقربُهم حالاً من حاله . ثم آثرَ أن يُؤاخِيَه بينه وبين رجلٍ من الأنصارِ كفعله بغيره من المهاجرينَ . وكان ينبغي له أن يُؤاخِيَه بينه وبين أفضلِ الأنصارِ ، إذ كان الذي يمنعهُ من أن يُؤاخِيَه بينه وبين بعضِ المهاجرينَ طلبَ أفضليهم ، وكان ينبغي على هذا المذهبِ أن يُؤاخِيَه بينه وبين سعدِ بنِ معاذٍ .

فإن قالوا : سهل بن حنيف أفضل من سعدٍ ومن حميِّ الذُّبَرِ ومن غسيلِ الملائكةِ ، ومن مكلمِ الذُّبِ ومن غيره ، لم يكن هذا منكراً من مكابرتهم وجهلهم .

فإن قالوا : إنه جائز أن يُؤاخِيَه بين غير الأشكالِ في الفضلِ ، وجائزُ ألا يُؤاخِيَه بين المتساويينَ والمتقارِبينَ .

قيل لهم : ففعلَ أيضاً النبيُّ صلى الله عليه لم يُؤاخِ بين نفسه وبين عليٍّ - إن كان أخاه كما زعمتم - من قبيل تقاربِ الحالِ والمشاكلةِ في الأفعالِ . ولعل النبيُّ صلى الله عليه لم يُؤاخِ عليّاً رأساً إذا أجازَ ألا يُؤاخِيَه بين الأشكالِ ، ولا يقاربِ بين الأمثالِ . وأدنى ما فيه أن يكون ذلك قد كان جائزاً .

[ ٤٦ - تأويل الشيعة لحديث امرة ابي بكر في الصلاة والرد عليه من

العثمانية ]

فإن تركوا هذا أجمع وقالوا : كيف يجوز أن يكون أبو بكر هو الإمام وقد كان النبي صلى الله عليه جعله في جيش أسامة ، وما زال يقول في شكائِهِ : « أنفلوا جيشَ أسامة » يُعيد ذلك ويكرره ، إلى أن قبضه الله إلى جنته .

قيل لهم : إن في أمر النبي صلى الله عليه له أن يقوم مقامه في الصلاة

بالمسلمين . وعائشة وحفصة قد اعتونتا ليصرفا ذلك إلى عمر ، ويقولان : إن أبا بكر رجل رقيق لا يستطيع أن يقوم مقامك .

وهو قد ودّع المسلمين في خطبته التي خطبها في شكاته حين قال : « إن عبداً من عباد الله خيرهُ الله بين الدنيا والآخرة فاختر الآخرة » فبكى أبو بكر ، فعجب الناس منه وقالوا : قال رسول الله صلى الله عليه : إن عبداً من عباد الله !! قالوا : وكان أبو بكر أعلمنا برسول الله صلى الله عليه . هكذا أخبر ثم جاء جبريل في شكاته فقال : يا محمد ، هذا ملك الموت يستأذن عليك ولم يستأذن على آدمي قبلك . قال : ائذن له . فأذن له جبريل حتى وقف بين يدي النبي صلى الله عليه ثم قال : يا محمد ، إن الله أرسلني إليك وأمرني أن أطيعك فيما أمرتني به ، فإن أمرتني قبضَ نفسك قبضتها ، وإن كرهت ذلك تركتها قالوا : فسمع النبي صلى الله عليه يقول : « الرفيق الأعلى » . فعلم أنه قد خيّر صلى الله عليه .

ثم كان عند كل صلاة لا يجد عندها إفاقة يقول : « مروا أبا بكر يصلي بالناس » ويقول : « أبا الله إلا أبا بكر » ، وفي قوله أبا الله أن يصلي إلا أبو بكر ، دليل أن ذلك من قبل الوحي مع قوله لعائشة وحفصة حين أرادت أن تصلي ذلك إلى عمر : « أنتن صواحبات يوسف ، أبا الله ورسوله أن يصلي إلا أبو بكر » بالغلظ . فلو كان الخطب في ذلك صغيراً ما أغلظ النبي صلى الله عليه لهما ، ولا اشتد عليهما .

فإن قالوا : وما دعا عائشة إلى صرف هذا الأمر العظيم والمقام الشريف إلى عمر ؟ .

قيل : فإنه ليس عندنا في ذلك إلا ما اعتذرت هي به لنفسها ؛ فإنها قالت : إني والله ما أردتُ صرف ذلك على أبي لم أعرف شرفه وخطره ، واكتفى خفت أن يتشأم المسلمون به ، وألا يحبوا رجلاً قام مقامه أبداً .

فأما حديث الربيع بين صبيح عن الحسن فإنه زعم أنها قالت : خفتُ

الأ يطبق حمل الخلافة ، وظننتُ أن الناس سيُريدون منه مثل ما تعودوا من النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلمتُ أن أحداً لا يكون كالنبي . فإن كان النبي صلى الله عليه وسلم جعله في جيش أسامة فقد استثناء حين اشتكى ، من جميع الجيش ، إذا استخلفه في مقامه ، وأمره بالصلاة لأُمَّته ، لأن من صلى في مقام النبي صلى الله عليه وسلم وفي مسجده ومُصلاه ، في أعياده وسائر أيامه ، فقد صلى بجميع الأمة ، وتأمر على جميع البرية .

وإنما أدخلنا فيها صلاة الجمعة والعيد لأن النبي صلى الله عليه وسلم حين قال : « أبا الله ورسوله إلا أن يصلي أبو بكر » لم يستثن صلاة دون صلاة . فإذا كان الكلام عاماً والنبي صلى الله عليه وسلم على يقين من فراق الدنيا ، والوحي ينزل عليه ، فقد دخل في ذلك صلاة العيد والجمعة ؛ لأن النبي يتكلم كلاماً عاماً .

وقد علم الله ورسوله أن الكلام العام يتخذه الناس حجة فيما يدل عليه العام .

وقد علم الله أن أبا بكر يصلي بالناس في أعيادهم وسائر صلواتهم وأنه سيُحتج في استحقاق أبي بكر بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « أبا الله ورسوله إلا أن يصلي أبو بكر » ؛ فكان ذلك دليلاً على أن الله قد أراد ذلك وأوجبه ، وعناه وأحبه .

فهذا دليل على أن أبا بكر لم يُخالف أمر الله بتخلفه عن جيش أسامة إن كان أبو بكر ممن كان في ذلك الجيش قبل شكاة النبي صلى الله عليه وسلم وأمره له بالصلاة .

وهناك دليل آخر يدل على ما قلناه . وهو أننا لم نجد أحداً من المسلمين ولا من الأنصار والمهاجرين ذكروا عنه في ذلك الدهر حرفاً واحداً من ذكر تخلف أبي بكر ، لا عاتباً زارياً ، ولا مستغنياً مسترشداً ، ولا متعجباً ناقماً ، ولا مصوباً عاذراً ؛ ولم يذكر أحد حديثاً - ضعف إسناده أم قوي - أن أحداً احتج لأبي بكر

ولا عليه .

ولا يكون رجلٌ في مثل نباهة أبي بكر وقدره ، وفي مثل نباهة ما صار إليه ، لأنه لا موضع أولى بشدة الحسد وكثرة الطعن منه ، وقد كان منه التخلف الذي لا يخفى موضعه ، مع توكيد النبي صلى الله عليه وسلم وشِدته على ذلك ، ثم لا يلجأ في تخلفه إلى حجة ولا أمر من النبي صلى الله عليه وسلم ثم يُطبق جميع الخلق في ذلك على السكوت والرضا والاستحسان أكثر مما صاروا إليه .

هذا وبنو عبد منافٍ شهودٌ ، وخالد بن سعيد قد ترك بيعته ستة أشهر ، وقال : أرضيتُم معشرَ بني عبد مناف أن يلي عليكم رجلٌ من تيم ؟ ! وقال أبو سفيان بن حربٍ مثل ذلك . وقالت الأنصار : منّا أميرٌ ومنكم أمير . وقد سمع أبو قحافة رجّةً وهو بمكة ، وهو مكفوف ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : مات النبي صلى الله عليه وسلم قال : فما صنع الناس ؟ قالوا : أقاموا ابنك . قال : فرضيتُ بنو عبد منافٍ بذلك ؟ قالوا : نعم . قال : وبنو المغيرة ؟ قالوا : نعم . قال : فلا مانعٌ لما أعطى الله ، ولا معطيٌ لما منع .

وفي إطباق الجميع على السكوت عن التخلف بعينه ، مع قول خالدٍ وأبي سفيان ، دليلٌ على أنهم لو وجدوا غميرةً أو خلافاً أو معصيةً لم يدعوا الاحتجاج به ، والخوض فيه . ولو كانت البقية قطعتهم عن ذلك لقطعتهم عن ذكر الطعن في إمامته ، كما قطعتهم عن ذكر الطعن في تخلفه .

وفي رضا أسامة وتسليمه وسكوته وقناعته حتى لا يحكى عنه في ذلك كلمةً واحدة ، دليلٌ على ما قلنا .

فإن قالوا : إن أسامة قد عرف صنيعه في تخلفه ولكنه كان في تقيّة منه ، لأنّ أبا بكرٍ لو لم يكن هو المطاع في العوام ، والمقتنع في الدماء ، ما تقدّم بني عبد مناف وكان أسامة لا يستطيع أن يُبيد في دهرٍ عمرٍ من ذلك شيئاً ، لشدة عمُر في تعظيم أبي بكر ؛ لأنّ الطعن في أبي بكرٍ راجعٌ على عمر ، وأن رعيّة عمر هم رعيّة أبي بكر وكذلك كان أسامة في دهر عثمان ، لأنه نسقٌ واحدٌ ومييلٌ

قيل لهم : فما منعه أن يتكلم في دهر عليّ ومع عليّ يومئذ مائة ألف سيف يُطيعه . وهل عندكم في أسامة أكثر من أن تدعوا على ضميره غير ما يدل عليه ظاهر عمله ؟ وإن أولى الناس ألا يجتج بأسامة لأنتم ؛ لأن أسامة هو الشاهد لطلحة على عليّ ، حين قال عليّ : **بَايَعْتَنِي وَنَكَثْتَ بَيْعِي** . قال طلحة : **« بَايَعْتُكَ وَاللُّجُّ عَلَى قَفِي »** . فقال أسامة : **أَمَّا السَّيْفُ عَلَى قِفَاهِ فَلَمْ أَرَهُ وَلَكِنْ بَايَعَ وَهُوَ كَارِهِ** . في أمور كثيرة تدل على أن أسامة كان عمرياً ، ليس هذا موضع ذكرها . فهذا هذا .

وفي إطباقهم جميعاً يدعونته خليفة رسول الله من تلقاء أنفسهم ، لا مكرهين ولا مقهورين ، لم يُرفع عليهم سوط ولا شهر سيف ، ولا سمعوا وعيداً ، ولا رأوا لذلك أثراً ، ولا رأوا منه إمرة لبعض العشائر ، فيخافون أن يتقوى بهم عليهم ، مع كثرة العدد واختلاف الأنساب وتفرق الأهواء ، و [ في ] الذي قبله ، دليل على ما قلنا ، وحجة على الذي ادعينا .

ومما يُقرب من قولنا قول النبي صلى الله عليه : **« أَنْفِذُوا جَيْشَ أُسَامَةَ »** . فقد يعلم المستدل أن النبي صلى الله عليه إنما قصد بذلك الأمر في خاصته والمطاعين ، لأن قوله : **« أَنْفِذُوا »** دليل أنه قد كان هناك من ينفذ أمره ، وإليه قصد بالأمر مفعلين غير ساخطين .

ولو كان الأمر إنما كان لأسامة وأصحابه كان اللفظ على غير هذا .

فإذا كان ذلك كذلك فمن أولى بأن يكون من المخاطبين المطاعين من أبي بكر وخليفه وصفيه ، على ما كتبت لك في كتابي هذا ، مع أننا لم نيلناه ولم نستقصيه ، إنما بالخوف منا والكراهية لإطالة الكتاب ، وإما بالتقصير منا في معرفة جميع محاسنه .

ووجه آخر : أنك لو جهدت أن تجد لحديث من زعم أن أبا بكر كان في

جيش أسامة أصلاً لم يُجَدِّ ، وإنما أتت عامة ذلك من قبل كون عمر في ذلك الجيش ، لأن عمر وأبا عبيدة كانا من أول من انتدب في ذلك الجيش .

ولما كان الناس كثيراً ما يرون عمر يجري مع أبي بكر غلظوا في ذلك في مواضع كثيرة ، حتى جر ذلك على أبي بكر فرار عمر يوم أحد ، فقال من لا علم له : وفر يوم أحد أبو بكر وعمر . وموقف أبي بكر والنفر من المهاجرين في يوم أحد أشهر من أن يطمس عليه جاحد .

ومن ذلك أن عمر كان في جيش ذات السلاسل ، فألقوا به أبا بكر .

فإن أبوا إلا أن يكون قد كان في ذلك الجيش فالجواب على ما قلنا .

فإن قالوا : قد سمعنا مقاتلكم ، ولكن ما الدليل على أن النبي صلى الله عليه أمر أبا بكر بالصلاة بالناس ؟ .

قلنا لهم : إنه ليس لأنه كان مأموراً بالصلاة فقط ، ولكنه صلى بالناس سبع عشرة صلاة إلى أن توفي النبي صلى الله عليه وذلك أن النبي صلى الله عليه بدأ يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من صفر ، ويوم الاثنين لاثنتي عشرة مضت من ربيع الأول . وهذا هو السبب عندهم .

وزعم أصحاب السير والأخبار أن النبي صلى الله عليه كان يأمر بلالاً بالأذان ، فإذا وجد إفاقة خرج يصلي بالناس ، وإن اشتد ما به قال : « مروا أبا بكر يصلي بالناس » ؛ فكان النبي وأبو بكر يصليان على [ التناوب ] ؟

فإن أنكروا أن يكون النبي صلى الله عليه أمر أبا بكر أن يصلي ولا ادعوا أن هذه الأخبار كلها باطل ، وأن العلة في هذه الآيات كلها لم تمنع النبي صلى الله عليه من الصلاة حتى مات .

قيل لهم : رأيتم هذا الذي قُلتُموه وأدعيتُموه ، شيء استخرجتموه أو سمعتموه ؟

فإن زعموا أنهم سمعوا قلنا لهم : فأتوا بفقير واحد أو محدث يقول كما

تقولون ، ويحدث كما تزعمون ، وجميع ما يُدعى باطل .

وإن كانَ إذاً اعترضوا المحدثين والناقلين لم يجهدوا أحداً إلا وهو يُجبر بما قلنا فالحقُّ أحقُّ أن يتبع . ولا يجوز أن يقولوا : إننا استخرجنا معرفة هذا المعنى ؛ لأن الاستخراج لا يكون إلا من بيانٍ أو خبر .

أوليس قد كان النبي موضوعاً على سريه حين زاغت الشمس يوم الاثنين إلى حين زاغت من يوم الثلاثاء ، يصلي الناس عليه وهو على شفير قبره وأبو بكر يصلي بالناس ؟ !

فإن أتوا بحديثٍ واحدٍ أنه صلى بالناس في غير ذلك الوقت غير أبي بكرٍ فالقول كما قالوا . وإن أتوا بحديثٍ واحدٍ أنه صلى بالناس غير أبي بكرٍ أول صلاة صلاها المسلمون [ حين ] اختلفوا في تأمير الأمراء واستخلاف الخلفاء عليهم ، كما قالت الأنصار : منا أمير ومنكم أمير فالقول كما قالوا

وهل يستطيعون أن يزعموا أنهم قالوا : منا مصل ومنكم مصل .

والعجب كيف لم يقولوا : إن علينا لم يزل هو المصلي بالناس ، والمأمور بالصلاة ، فعصّب حقه وظلم مقامه ؟ !

وكيف يجوز أن يجيء رجلٌ من أرضه وسمائه من غير نسب ولا سبب ، حتى ينفذ من أشرف المقامات ، بحضرة القرابية والعشيرة ، من عم وابن عم ، وقريب ونسب ، وجلة المهاجرين والأنصار ، والعظماء وعلية قريش ، وذمماء العرب ، ثم لا يتكلم في ذلك رجلٌ واحد ؟ ! فلنما يقول هذا من لا يعرف قدر ذلك المقام في الصدور ، وكيف طبائع قريش وأنفة العرب .

[ ٤٧ - الرد على احتجاج الشيعة بان الناس لم يجمعوا على امامة أبي بكر ]

فإن قالوا : كيف يكون أبو بكر إماماً ولم يجتمع المسلمون على إمامته والرضا به ؟ ! وقد قالت الأنصار : منا أمير ومنكم أمير ، وقال سلمان : « كَرْدَاذُ

وَنَكَرْدَاذٌ . وقال خالد بن سعيد : أرضيتهم معشر بني عبد منافٍ هذا . وقال أبو سفيان بن حربٍ مثل مقالته ، وخرج الزبير بسيفه شاداً ، فلما رآه عمر قال : **تُونِكُم الكَلْب . وجلس عليّ [ في ] منزله واعتلّ بأنه آلى الآ يبرح حتى يجمع القرآن .**

قيل لهم : ليس الأمر على ما تقولون . ولو كان الأمر على ما تقولون ما كان خلافتُ هؤلاء ناقضاً لأمره ، لأن الرجل إذا كان أفضل الناس وأكمله وأنفعه للمسلمين وأردّه عليهم ، فعليهم إقامته والتسليم له ، والرّضا به ؛ لأنّ كل ما عدتُ لك من فضله هم كانوا أعلم به ، إذ كانوا يسافرون معاً ويقومون معاً ، وكانوا أعمى بمعرفة الخير ، وأسرع إلى العلم به منا ومن أهل دهرنا .

ولو كان أبو بكرٍ تتقضى إمامته ، وكان عليه اعتزال ذلك المقام ، بخلاف رجلٍ أو رجلين أو ثلاثة ، كان أولى الناس بأن يكون له في الإمامة سببٌ ولا حقٌّ ومتعلّقٌ عليّ بن أبي طالب ، لأن سعد بن أبي وقاص كان أحد الشورى وأحد الأئمة ، وقد أباه وقال قولاً أبين من قول خالدٍ وأبي سفيان وسلمان ، قال : « ما أنا بقميحي هذا الحقّ مني بها ، أعيبونها سُورِي ، أما بالسيف فلا أريدُها » ، وقال لرسول عليّ حين أراءوه على بيعته : **تكلتُ أمّ لم تلدني ، لئن كنتُ سادسَ بيتِ ما لنا طعامٌ إلا ورزقُ البشام ، وقد جاني أعرابُ الأوس تعلمني دينَ الله ؟** في كلام كثير .

وخالفه طلحةٌ والزبير وهما شريكاه ، وأحدّهما فارس النبي صلى الله عليه ، والآخر وقايته ، فقال عليّ : **بايعتاني ؟** قال : **الزبير : ما بايعتك قط ، إن كنت على يقين أنك أولى بها فاجعلها سُوري ، بيعه وحقّ دهاوك من باطله .**

وقال طلحة : **« بايعت واللّج على ققي »** حين رقى إليه العساكر وطعنت عليه عائشةٌ واستحلّت محاربتَه . ثم اجتمع على حربهِ أهل الشام قاطبة فوهم عبد الله بن عمر ، وكعب بن مرة البهزي ، وكان من فضلاء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي قال حيث قال النبي صلى الله عليه : **« ستكونون**

فتنة هذا فيها يومئذ على الحق ، ، وأومأ إلى رجل مقنّع ، فكشف عن رأسه فإذا هو عثمان ، فلما قُتِل عثمان وهو يكفّ عن القتال استنصر ، فكان يحدث هذا الحديث .

ومنهم واثلة بن الأسقع اللبني ، وله صحبة ونُسك ، والنعمان بن بشير ، ومُسلمة بن مخلد ، وحبيب بن مسلمة ، وذر الكلاع ، ومعاوية بن حُديج .

ومن التابعين أبو مسلم الخولاني ، وشُرَحْبِيل بن السَّمْط ، وعمرو بن وafd الغامدي الذي قال [ فيه ] مكحول : كأنه قد مات ودخَلَ النار وحُوسِب ثم رُدَّ إلى الدنيا ، فمعه خَوْف المجرّب .

ثم خالف عليه خاصة إخوانه ونُساك أصحابه ، وأهل البصائر من جُنده وحدث حتى أكفروه وخلصوا إمامته وولايته .

وفيهم مع نسكهم وجدّهم نفرٌ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، منهم فروة بن نوفل الأشجعي ، وحرقوص بن زهير . وفيهم عبد الله بن وهب الراسبي ، وزيد بن حُصَيْن الطائي .

ولقد دعا محمد بن مسلمة إلى عونه ، واعترض آخذاً بسيفه ، ثم كسره وقال : أضربُ المسلمين بسيفٍ ضربتُ به الكافرين ؟

فدعا زيد بن ثابتٍ إلى عونه فأبى وقال : أنت والله تعلم أن لو شحاً أسدٌ فاهُ لألقمته كُفْي ثونك ؛ فأما أن أضرب بسيفي لأؤكد لك مُلكاً فلا .

ودعا عبد الله بن عمر فقال حين أراد على بيعته : إني لن أنزع يدي من جماعةٍ وأضعها في فرقة . وكذلك قال حين قيل له بعد ذلك : لو بايعت أخاك عبد الله بن الزبير . قال : إن أخي وضع يده في فرقة ، وإني لن أنزع يدي من جماعةٍ وأضعها في فرقة .

وطمن عليه سعد بن زيد بن عمرو بن نُفَيْل وعلى طلحة وقال : « فتنة عَمِيَاءُ يَخْبَطُ أَهْلُهَا » . قال طلحة : ابن عمك كان أعلم بي وبك حين جعلني في

الشورى وأخرجك منها . قال : إن ابن عمي خانك وأمنني .

ودعا إلى بيعته وعونه أسامة بن زيد فقال : إني إذا لمقتون ! وأسامة هو الذي كان طلحة استشهده على قوله : « قد بايعت واللجج على قفي » فمثل أسامة عن ذلك ، فكلمه طلحة بكلام غليظ .

وقول صهيب أيضاً ، وسلمة بن سلامة بن وقش ، كل هؤلاء السبعة [ ما منهم ] إلا من شهد بدرأ .

وزعم ابن سيرين والشعبي أنها قالا : وقعت الفتنة بالمدينة وأصحاب النبي صلى الله عليه أكثر من عشرة آلاف ، فقال : فما يعدون من خوف فيها عشرين رجلاً . فسميا حرب علي وطلحة والزبير وصيفين فتنة .

وكما قال الشعبي : من حدثك أنه شهد الجمل عن شهد بدرأ أكثر من أربعة نفر فكذب . كان علي وعمار في ناحية ، وطلحة والزبير في ناحية .

وقد تعلمون أنه لم يكن في الأرض عثمان إلا تعلمون أنه منكر لإمامته . وهم أكثر عدداً وأكثرهم فقيهاً وعبدنا . ولقد كان الرجل من أصحاب الآثار يُظنُّ به التشيع فيترك ويضعف ويؤثم عند أهل العلم ، حتى أنه كان يطويه ويُسْثَره أكثر مما يَسْثَرُ السوء يكون بجلده .

فلو كان الفاضل الكامل تتقضى إمامته وتفسد عدالته من قبل خلاف لربعية أو خمسة ، لما كان في الأرض أشد انتقاصاً من إمامة علي .

[ ٤٨ - تأويل قول أبي بكر : منا أمير ومنكم أمير ]

أما قولكم : إن الأنصار قالت لقريش والمهاجرين : منا أمير ومنكم أمير ، فهذا إلى أن يكون حجة عليكم أقرب ، لأن النبي صلى الله عليه وعلى آله لو كان قائماً علياً وجعله خليفة ووصياً ونص على ذلك بغدير خم ، أو في بعض المغازي ، ما كان بلغ من حرهم وعنودهم أن يقولوا هذا الكلام والإمام قائم

الحجة ، معروف المكان .

وكيف حاز أن يُلغوا ذكره حتى لا يذكرونه في شيء من مخاطباتهم  
ومنازعاتهم ، إلا والقوم لم يكن عندهم فيه عهد ولا سب . فهذه حجة قاطعة .

وأخرى : الذي رأينا من قلة مبالاتهم من أقامه المهاجرون كائناً من كان ؛  
لأن قولهم : منا أمير ومنكم أمير ، قول قوم كأنهم قالوا : لا بد لنا معشر  
الانصار من أمير على حال ، وأنتم بعد أعلم بشأنكم فأمرؤا عليكم من بدأ  
لكم . وليس في هذا طعن على خاصة أبي بكر ، كما أنه ليس فيه تأكيد لإمامته  
دون غيره .

وهذا قول كان من نفر من الانصار في سقيفة بني ساعدة ، قبل أن يقوم  
فيهم أبو بكر خطيباً وواعظاً ، ومبيناً ومعتجاً . فلا يستطيع أحد أن يقول : إن  
أحداً منهم رد على أبي بكر خاصة كلمة واحدة . فليس في قولهم : منا أمير  
ومنكم أمير ، خلاف على أبي بكر ؛ وإن كان خلافاً فإنما هو على الجميع .

وإن كان هذا الكلام منهم حجة ما كان إلا على من زعم أن الإمامة غير  
واجبة ، أما على من زعم أنها لأبي بكر دون علي فإنها غير لازمة .

ولعمري لو كان القوم حيث قالوا : منا أمير ومنكم أمير قالوا : ولا يكون  
أميركم إلا علي أو فلان أو فلان ، أو قالوا : الرأي لكم أن تجعلوا أميركم علياً  
أو فلاناً أو فلاناً ، كان في ذلك ما يتعلق به متعلق ، ويشغب به شاغب . وهذا  
ما لا يحتاج به عالم ، لأن الحجة فيها للرافضة الزم ، وعليها أوكد .

[ ٤٩ - تأويل قول سلمان : كرادذ ونكرادذ ]

أما قولهم أن سلمان قال ما قال ، فإنما سلمان رجل من عرض المسلمين ،  
لا يصلح أن يكون خليفة ، ولا يجوز أن يكون في الشورى ومع الأنكفاء ،  
فتكفّر به مريّة أو تبرّم به ؛ لأسباب :

منها أنه ليس من المهاجرين ، ولا من شهد بدمراً ولا أحداً ، ولا لقي في الله ما لقي نظراؤه عند الناس كبلالٍ وصُهيب ، ونَجَّابٍ وعمار ، ولا كان من الذين آووا ونصروا ، وذكروا في القرآن وقدموا .

وكان حديث الإسلام قليل المشاهد ، وإنما أسلم حين انحسرت الشدة وانكشف عنهم معظم الكربة ، ولكنه كان من الصالحين ومن الفضلاء المخلصين ؛ وكان عند النبي صلى الله عليه وسلم وجيهاً ، وعند خلفائه مقرباً . وقد قال النبي فيه قولاً حسناً ، ولكنه ليس من الأكفاء في الإمامة وموضع الشورى والخلافة ، فيكون قوله حجةً تقتضيه الإمامة ، وطمعته عليه يصرف الخلافة .

ثم آخر : أنا قد وجدناه وليً لعمر بن الخطاب على المدائن ، يُقيم له الصلاة ويحيي له الخراج ، ويدعوه على المنبر ، ويؤكد له خلافته ، وينفذ أمره ، مطيعاً غير مكره ، ومخلى غير مقصور ، فولايته لعمر دليلٌ على تصويب أبي بكر ، ومطيع عمر أذعنٌ لأبي بكر ، ومعظم عمر أشد تعظيماً لأبي بكر .

ولقد كان يخرج آذن عمر والناس بياب فيجعلهُ في الفوج الأول . حتى روي عن أبي سفيان بن حربٍ وسُهَيْل بن عمرو في ذلك كلامٌ مشهور : من ذلك أنهم كانوا بياب عمر في جلةٍ من قريش والعرب ، مثل عيينة بن حصن وغيره ، إذ خرج آذن عمر فقال : أين بلال ؟ أين سلمان ؟ أين صُهيب ؟ أين عمار ؟ ادخلوا . فتغيرت وجوههم واستبان الجزعُ فيهم ، فأقبل عليهم سهيل بن عمرو واعظلاً ، ومُعرباً ومذكراً ، فقال : دُعوا ودعينا ، فأسرعوا وأبطأنا ، ولئن حسدتموهم على باب عمر لما أعد الله لهم في الجنة أعظم .

فما في الأرض عاقلٌ يظنُّ أنه يأذن لسلمان قبل أبي سفيان بن حرب وسُهَيْل بن عمرو ، ويوليهِ بلاد كسرى وآل كسرى ، وسلمانٌ عنده ظنينٌ في بيعة أبي بكر وناقمٌ عليه .

وقد بارك عمر أبا بكر ، في خالد بن سعيد بن العاص ، حين عقد له على

أجناد الشام ، لكلمته التي كانت في بيعة أبي بكرٍ حتى عزله .

فكيف يَحْتَمِلُ لسلمانَ الطُّمن والحِلاف ثم لا يَرْضَى له إلا بالولاية على بلاد كسرى ، وسلمانٌ لا يجري عند عُمرٍ مجرى خالدٍ ولا قريباً ۱؟ ففي هذا دليل على أن سلمانَ لم يَقُلْ : « كَرْدَاذٌ وَنَكَرْدَاذٌ » . وإن كانت هذه الكلمة حقاً كانت ترجمتها بالعربية : صَنَعْتُمْ ولم تصنعوا . يقول : قد أقمتم فاضلاً مجزياً ولو كان غيره كان أفضل منه .

وأخرى فلو كان سلمانٌ كان عنده أن النبي صلى الله عليه كان قد استخلف علياً ونصبه إماماً وجعله وصياً لم يقل : صنعتم ولم تصنعوا ، إلا أن قوله « صنعتم » تثبت لإمامته ، فكأنه قال : هو إمامٌ ، لو كان غيره كان خيراً لكم منه . وليس على هذا بُني القول .

ولو احتج بهذا القول الزيدية كان أشبه من أن يحتج به الطاعن في إمامة أبي بكرٍ حين قال : ارتدَّ الناسُ كلُّهم عن الإسلام بإنكارهم إمامة عليٍّ ، والتسليم لمن أنكر ، ما خلا أربعة نفر : سلمان ، والمقداد ، وأبو ذر ، وبلال . ثم زعموا أن حذيفة وعماراً تابا بعد عمرٍ بن الخطاب .

#### [ ٥٠ - موقف بلال من بيعة أبي بكر ]

ولئن كان بلالٌ كما قالوا من الطمن والحِلاف على أبي بكرٍ وعمر ، لقد شاركهما حيث وليَ لها دمشق ، لأن عمر كان وليَ بلالاً دمشق ، فكان أنفذَ لأمره من أبي عبيدة .

وكيف يكون بلالٌ طاعناً على أبي بكرٍ وعمر حتى قد شهِرَ بذلك من بين الخلقِ وعمرٌ يوليهِ ، ويقربه ويُدنيه ، ويقدمُ إذنه ، ويلحق عطاءه بعطاء عثمانٍ وهليٍّ وطلحةٍ والزبيرِ وسعد ، ويقول : « بلالٌ سيِّدنا ومولى سيِّدنا » ، ومرةً يُلَوِّق : « أبو بكرٍ سيِّدنا واعتق سيِّدنا » .

ولا يجوزُ هذا القول من عمر من يجوزُ طعن بلالٍ على أبي بكرٍ ، إلا  
جاهلٌ بعمر ، جاهلٌ بأمر السلطان ، وعجزُ الخلافة .

[ ٥١ - موقف المقداد من خلافة أبي بكر ]

فأما ذكْرُهُم المِقْدَادَ فما عَلِمْنَا ولا عَلِمَ أصحابُ الأثَارِ أَنَّهُ نَطَقَ فِي خِلافةِ  
أبي بكرٍ وفي نَقْضِهَا ، وفي خِلافةِ عَلِيٍّ وتوكِيدِهَا ، بحرفٍ فَطَّ ، ولا وَقَفَ فِي ذلكِ  
موقفاً ، ولا قامَ فِي إنكارِهِ [ أ ] وتثْبِيتهِ مَقاماً . وما نَدْرِي : بأيِّ سببٍ ادَّعَوْهُ ؛  
إلا أَن يَكُونُوا ذَهَبُوا إِلَى أَن عَلِيّاً رَحِمَهُ اللهُ عَلَيْهِ رَبِّماً كَانَتْ لَهُ الْحَاجَةُ إِلَى النَّبِيِّ  
عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَيُكْبِرُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَبِعَظْمِهِ عَنْ مَواجِهَتِهِ بِهَا ، فيكْلِفُ  
ذلكَ المِقْدَادَ .

من ذلك حديث هشام بن عروة ، عن أبيه في الرجل إذا دنا من المرأة  
فأمذى ولم يمسها ، فاستحيا علياً أن يسأل النبي صلى الله عليه عن هذا من أجل  
ابنته ، فقدم المقداد فسأله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « يغسل ذكره وأنثيته  
ويتوضأ » . وغير ذلك .

والأغلب علينا أن المقداد لم يزل مُتَنَكِّراً لعليٍّ ، لأنَّ المقداد حين خطب  
ضُبَّاعَةَ بِنْتَ الزُّبَيْرِ بنِ عبدِ المَطْلَبِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ ، بعثَ النَّبِيُّ إليها  
عليّاً بذلك يُخْبِرُهَا ، وأنه قد رَضِيَها لها ، فكَرِهَ عَلِيٌّ ذلكَ فَرَجَعَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ  
عَلَيْهِ ، وقال : رأيتها كارهةً . فأرسل النبي إليها رسولاً فقالت : أولم أخبر عليّاً  
أنني قد رضيتُ لنفسي بما رَضِيَ بِهِ النَّبِيُّ ؟ ! فقام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ خَطِيباً  
فحمدَ اللهُ وأثنى عليه ثم قال : « يا عليُّ قُمْ فانظُرْ مَنْ عن يمينك وعن شمالك ،  
واعلم أَنَّهُ ليس لك فضلٌ على أسودهم وأحمرهم إلا بالدين » . فهذا قد رُوِيَ ،  
والله أعلم .

ولم يُرَوَ عن المِقْدَادِ الطَّعْنَ على أبي بكرٍ فِي خِلافتِهِ ليؤكدَ بذلك لعليٍّ شيئاً .

وأقل ما ينبغي للمتكلّم أن يَعْرِفَ فُرُوقَ الْأُمُور ، فَإِنَّهُ إِذَا عَرَفَ ذَلِكَ لَمْ يَتَعَلَّقْ مِنَ الْأَسْبَابِ إِلَّا بِأَمْتِنِهَا . فَأَمَّا تَجْرِيدُ الْبَاطِلِ وَكَثْرَةُ الدَّعْوَى بِسَبَبٍ ، فَهَذَا جَهْدُ الْعَاجِزِ .

[ ٥٢ - موقف عمار بن ياسر من أبي بكر ]

[ وَلَرُبَّمَا تَعَلَّقُوا بِالسَّبَبِ الضَّعِيفِ ، كَالَّذِي وَجَدُوا لِعَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ مِنْ عِدَاوَةِ عِثْمَانَ ، وَصَنِيْعِ عِثْمَانَ بِهِ ، فَلَمَّا كَانَ عِثْمَانُ عِنْدَهُمْ فِي طَرِيقِ عُمَرَ وَأَبِي بَكْرٍ وَفِي حَيْزِهِمَا جَعَلُوا طَعْنَ عَمَّارَ عَلَيْهِ طَعْنًا عَلَيْهِمَا ، وَاحْتِجَاجَ عَمَّارٍ لِعَلِيٍّ احْتِجَاجًا عَلَيْهَا .

ولو اجتهدت أن تصيب لعمار موقفاً واحداً أو كلمة طاعنة على أبي بكر وعمر وعثمان ، فضلاً عليها قبل إحدائه ، وقبل أن يجري بينهما ما جرى ، ما قدرت عليه .

وهل كان لعمر وال أنفذ لطاعته من عمار ١٢ ولقد رقع عليه جرير بن عبد الله ، فجمع بينهما طمعاً في ظهور حُبِّه ، والصرح عن نفسه ، فلما لم يجد ذلك عنده قال : ما عندنا خير لك يا أبا اليقظان .

ومن أجل ضعف عمار في الولاية وقوة المغيرة حين شكاهما أهل الكوفة قال عمر : « أَعْضَلَ بِي أَهْلُ الْكُوفَةِ ، إِنْ وُلِّيتْ عَلَيْهِمْ تَقِيًّا ضَعُفُوهُ ، وَإِنْ وُلِّيتْ عَلَيْهِمْ قَوِيًّا فَجَرَّوهُ . »

فإذا كان عمار يخطب على منبر الكوفة بشوكيد إمامة عمر ، ويأمر الناس بطاعته ، ويقيم الحدود والأحكام بأمره ، ويفتح الفتوح بتأميمه ، فيرى القتل والسبي وإحلال الفروج ، غير مكره بوعيد ولا مقصور بإيقاع ، فأي دليل أدل مما حكيناه .

ولو أن طاعناً طعن في طاعة سهل بن حنيف ، وعثمان بن حنيف ، وأبي

أيوب الأنصاري ، وأبي مسعود البدري ، لعليّ ، هل كان عندكم في دفع ذلك إلا مثل ما عندنا من الدُّفَع عن طاعة سلمان وبلالٍ وعَدَارٍ وأقلّ منه .

[ ٥٣ - موقف أبي ذر من عمر ]

فأما أبو ذرّ فزعم أصحاب الآثار أنه كان يعظم عمر بن الخطاب تعظيماً ما عظّمه أحدٌ قط . فمن ذلك أن عمر صافحه يوماً فعصر يده وكان أيداً ، فصاح : يا قُفْلَ الْفِتْنَةِ ! وَمَسَحَ مِنْ وَجْهِهِ الْمَرْقَ بِيَاطِنِ رَاحَتِهِ ، وعمر موعوك وهو يقول : بأبي رَحْضَاؤُكَ لَوْ قَدِمْتُ صَرْنَا هَكَذَا - وَثَبُّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ - أَوْجَعْتَنِي ! فَخَلَّاهُ وَقَالَ : مَا هَذَا ؟ فَقَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ : « لَنْ تَزَالُوا بِخَيْرٍ مَا كَانَ هَذَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ » .

وقال عمرٌ لشابٍ : غَفَرَ اللَّهُ لَكَ ! فَقَامَ إِلَيْهِ أَبُو ذَرٍّ فَقَالَ : اسْتَغْفِرْ لِي ! وَهُوَ حَدِيثٌ فِيهِ أُمُورٌ كَثِيرَةٌ .

ولو لم يجيء عن أبي ذرٍّ من هذا قليل ولا كثير لكان حكمه الرُّضَا والتسليم ، إذ لم نُرَ مِنْهُ طَعْنٌ ، وَلَا رَأْيًا لَهُ مَتَوَعَّدًا .

ولو اعترضتم مائة من أصحاب النبي صلى الله عليه فقلتم : إنهم كانوا طعانين على أبي بكرٍ مؤكدين لخلافة عليّ ، ما كان عندنا في أمرهم حديثٌ قائم ، ولا خبرٌ شاهد ، أكثر من أن يحكم الممسيك عن الطعن والخلاف هو الرُّضَا والتسليم .

[ ٥٤ - عودة الى اسلام سلمان ]

ولقد ينبغي لنا ولكم أن نتفكر في معنى كلمة سلمان ، فقد أكثرتم فيها ، حيث قال صنعتم ولم تصنعوا ، ومعنى هذا الكلام : إنكم قد أقمتهم مجزياً وتركتم من هو أجزاء منه ، فيجب أن نعرف الخلل الذي لم يسُدّه أبو بكر . . . التي لم

يبلغها ، والموضع الذي عجز عنه ، ما هو ؟ وأي ضرب هو ؟ إلا أن امتحن بما لم يُمتحن به أحد قبله ، ولا يمتحن به أحد بعده ، من قيامه في مقام رسول الله صلى الله عليه ، في عقب الذي تعود المسلمون من طريقته ، وتعرفوا من سيرته في نفسه وفي أمته ، ثلاثاً وعشرين سنة - وهي السيرة التي لا تحتاج إلى الإخبار عن فضلها ، والإطّباب في تشريفها - فلم يُغادر ولم ينحرف ولم يتغير ، ولم يؤثر ولم يضعف :

وقد علمنا أن الذي عظم صغير ما كان من أمر عثمان ، وشنع عظيم ما كان منه من الضعف وغير ذلك ، الذي كان من إفراط جلد عمر ، وشدة رأيه وشكيمته ، ويقظته وخشونته ، وثبات عزمه ، وحمليه نفسه على ملهب صاحبيه قبله . ولذلك قال عن بلال : « ما قتل عثمان غير عمر » . فالفضل الذي بين النبي صلى الله عليه وأبي بكر أكبر وأظهر من فضل ما بين عمر وعثمان . ولذلك قال عمر بن عبد العزيز : « ليس لله ستر أكشف ولا أسبغ من ستره على الصديق حين لم يتكشفت إذ قام يعقب النبي صلى الله عليه » .

وقد تعلمون أن لو كان النبي غائباً عن المدينة في غزاة ، أو حجّة وارتدت العرب وانتقضت العهود ، وظهر النفاق وماج الناس ، فوثب رجل من عرض أصحابه ، فلم يزل باللين والشدة ، والكف والإقدام ، والبطش والحيلة ، حتى رده في نصابه ، وأعادته كاحسن عادته يبدل النفس فيما دونها ، لقد كان صنع صنيعاً عظيماً ، وفعل فعلاً كبيراً . فكيف برجل قام بأمر الإسلام وقد هتكت أستاؤه ، وتقطعت أطنابه ، ومرجت عهوده ، منفرد بالرأي غير مستعين عليه ، ولا مستوحش إلى غيره ، بل خالفه الجميع في صوابه وما أوجده الرأي ، ودل عليه النظر من عزمه ، وقد أهي إلا صرامة وبصيرة وثقة ، والنبي صلى الله عليه وسلم قد مات غير مخوف ولا متوقع قدومه ، فرد أهل الردة قاطبة ما بين أهل الحيرة ، إلى شحر عثمان إلى أقاصي اليمن ، وقمع النفاق بالمدينة وما حولها ، وقتل مسيلمة واستفتح اليمامة ، وأمر طليحة ، ثم أوطأ خيله الشام ، وجند الأجناد ، ومنع الحوزة ، ووطأ الأمر ، وقتل العدو بكل مكان . ثم لم يستأثر

بدرهم ، ولم يكثر ديناراً ، ولم يخلف درهماً ، ولم يتفككه بغنيمة ؛ وجعل عمالته مردودة على بيت مال المسلمين . ولذلك قال عمر : « رحم الله أبا بكر لقد شق على من بعده » .

فما الشيء الذي لو كان علي هو القيم به كان اجزأ منه ، وبلغ منه ما لم يبلغه . وكيف يكون علي اجزأ منه ولم تغلق الفتوح إلا في زمانه ، ولم تكن الفتوح إلا على رأسه ، ولم تخرج الخوارج إلا عليه . وهذا باب الكلام فيه على علي ، ولكننا إذا فعلنا ذلك فقد دخلنا في الذي عننا .

مع أنك لو طفت في الافاق تطلب لكرداذ ونكرداذ إسناداً ولكننا قد رأينا أن سلمان قال : « أصبتم الحق وأخطأتم المعين » فنرى أنه إن كان قال هذا القول فلأنما ذهب إلى أن الأمر لو كان في بيت النبي صلى الله عليه وعلى التوارث الأقرب فالأقرب ، كان أجدر ألا يطمع فيه ذووان العرب وذهاة العجم ، على غابر الأيام ، وتطاول الدهور .

وسلمان رجل فارسي ، وهذا كان شاهداً كسري ؛ فتوهم أن حكم الكتاب والسنة كحكم تدبير السر والقائمين بالملك ؛ فلأنما تكلم على عادته وتربيته .

ولعمري لقد كان في قوم قد ساسوا الناس سياسة ورتبوهم ترتيباً ، يقطع عن العطمع في الملك بآيين : لم يجعلوا للصانع أن ينتقل عن صناعته إلى الكتابة ؛ ولم يجعلوا للكتاب أن ينتقل من كتابته إلى القيادة ؛ ولم يجعلوا لأبنائهم إلا مثل ما كان لأبائهم ؛ ليعودوا الناس عادة يستوحشون معها إلى الخروج منها .

وأما حسن هذا في ملكهم إذ كان بالرأي والغلبة ، ولم يكن لأهله أمثل من التدبير والحكم ، لم يكن شأنهم الأخذ بالكتاب والسنة ؛ وسبيل الإمامة غير سبيل الملك .

فإن كان سلمان إلى هذا المعنى ذهب ، وإسائه عفى ، فلأنما قوله حجة للعباسية لا للعلوية .

وسنخبر عن مقالة العباسية ووجوه احتجاجهم بعد فراغنا من مقالة  
العثمانية ، بغاية ما يمكن من الاستقصاء ، وإنصاف البعض من بعض ، لتكون  
انتَ المختارَ لنفك بعقلك ، والأقوالُ ظاهرةً مجلِّيةً لذهنك ؛ فلئن أعجزك  
الاختيار الأرجحُ بعدَ الكفاية إنك عن استنباطه وتخليصه أعجز .

وقد ذكر هشيم ، عن العوام بن حوشب عن إبراهيم التيمي قال : قال  
سلمانُ حين بُويع : « أصبتم حين بايعتم وحيد الناس ، وأخطأتم حين عزلتموها  
عن أهل بيت نبيكم ، ولو وضعتموها فيهم لأكلتم رعداً » .

وهذا حكمٌ من سلمان أن أبا بكرٍ خيرٌ من عليٍّ ومن جميع الناس ، والناس  
علي خير الناس أصلحُ منهم عليٌّ من دونهم .

وأخرى : أن سلمان حين قال : « كرّذاذ » كما زعمتم ، لو لم يكن عندكم  
عظيمُ القدر نبيلُ الرأي ، قدوةٌ عند الاختلاف ، لم تسمعوا قوله بهذا المكان ،  
حتى صار مثل طعنه وخلافه ، ينقضُ إمامة الأئمة ، وتتخذونه على خصمائكم  
حُجَّةً .

مركز تحقيقات كويت علوم إسلامية

وإن كان سلمان على ما قد وصفتم ، وبالمكان الذي وصفتم ، من الحكمة  
والبيان ، فما دعاه إلى أن يكلم العرب والأعراب بالفارسية ، وهو عربيُّ اللسان  
فصيح الكلام ، وهو يعلم أنه لم يكن بحاضرة المدينة فرسٌ ولا من يتكلم  
بالفارسية ولا من يفهمها . وهو إنما أراد الاحتجاجَ عليهم والإعدادَ إليهم ، وأن  
يقضي حقَّ إمامة عليٍّ ويقوم بشأنه .

وقد ينبغي لمن بلغ من صدق نيته وفرط اجتماع لُبِّه وشدة عزمته أن يتكلم  
في دار التقية لا في دار العلانية ، حتى خاطر بنفسه وبكل شيء يهوله ، ومن شأنه  
أن يفهم الحجة ، ويوضح الموعظة ، ويبين عن موضع المظلمة ، وإلا فسكوته  
أحسن من الفارسية .

وكيف فهمت معناه العربُ وهي لا تعرف من الفارسية قليلاً ولا كثيراً ،

ولم يكن للنبي صلى الله عليه تَرْجَمَانٌ يَعْبُرُ عَنْهُ لِلْفُرْسِ فَيَكُونُ ذَلِكَ التَّرْجَمَانُ كَانَ حَاضِرًا لِكَلَامِهِ ، فَيَفْسِرُ لِلنَّاسِ مَعْنَاهُ .

وكيف نَقَلْتُ عَنْهُ الصُّحَابَةَ إِلَى التَّابِعِينَ وَكُلُّ مَنْ كَانَ بِحَضْرَةِ الْقَوْمِ حِينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ لَا يَفْهَمُونَ الْفَارْسِيَّةَ ، وَيَكُونُ سَلْمَانَ حِينَ تَكَلَّمَ بِهَا اسْتَرَابُوا عِنْدَهَا فَسَأَلُوهُ عَنْهَا فَفَسَّرَهَا . وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ لِحِكَاةِ الَّذِينَ نَقَلُوا الْحَدِيثَ ، فَكَانَ ذَلِكَ أَحَبَّ إِلَى الرَّوَافِضِ ، لِأَنَّهُمْ إِذَا نَقَلُوهُ لَيَعْرِفُوا مَنْ كَانَ الطَّاعِنَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ . وَالطُّعْنُ كُلَّمَا كَثُرَتْ فِيهِ الْمَرَاجِعَةُ وَالْمُنَاقِضَةُ ، وَطَالَ سَبَبُهُ ، وَعُورِفَ عِلْمُهُ ، كَانَ أَدْلَى عَلَى الشُّهُرَةِ وَالِاسْتِغَاظَةِ ، وَأَنَّ الْأَمْرَ كَانَ حَقًّا مَعْرُوفًا .

فَوَاحِدَةٌ أَنَّ الْأَمْرَ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَكَانَتْ الرَّوَافِضُ أَسْرَعَ النَّاسِ إِلَى حِكَايَتِهِ ، لَتَسْتَشْهَدُهُ عَلَى الدَّعْوَى ، وَلَتَقْوِي بِهِ الْحَدِيثَ ، وَتَشَدَّ بِهِ الْحُجَّةَ .

وثنائية : أَنَّ النَّاظِلِينَ أَنفُسَهُمْ كَانُوا سَيَحْكُونَهُ ، إِذْ كَانُوا إِذَا حَاكَمُوا نَفْسَ الْكَلِمَةِ لَيَعْرِفُوا أَنَّهُ قَدْ كَانَ هُنَاكَ خِلَافٌ ، وَيَدُلُّونَا عَلَى أَنَّ سَلْمَانَ كَانَ مِمَّنْ خَالَفَ ، وَمَنْ لَهُ هَذَا الْقَدْرُ الرَّفِيعُ الَّذِي يُجْتَمَعُ بِخِلَافِهِ .

وأخرى : أَنَّ ذَلِكَ لَوْ كَانَ قَالَهُ سَلْمَانٌ ، وَهُوَ طَمَعٌ عَلَى أَبِي بَكْرٍ ، كَانَ مَشْهُورًا عِنْدَ عُمَرَ وَعَثْمَانَ ، وَأَبِي عُبَيْدَةَ وَسَعْدِ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ ، وَهَؤُلَاءِ عِنْدَكُمْ شَيْخُ أَبِي بَكْرٍ . فَكَيْفَ أَطْبَقُوا عَلَى تَرْكِ التَّكَلُّمِ عَلَى سَلْمَانَ وَالذَّارُ دَارَهُمْ وَالْحُكْمَ حَكْمَهُمْ ، وَمَعَهُمُ الرُّغْبَةُ وَالرُّهْبَةُ ، مَعَ أَنَّ الْجِرَاءَةَ عَلَى سَلْمَانَ أَيْسَرَ وَأَسْلَمُ مَغْبَةً مِنَ الْجِرَاءَةِ عَلَى أَبِي بَكْرٍ . وَقَدْ أَطْبَقْتُ عَلَى طَاعَتِهِ الْأُمَّةَ خِلَالَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ : أَحَدُهُمْ سَلْمَانٌ . وَلَيْسَ سَلْمَانٌ مَعْرُوفًا بِالنُّجْدَةِ وَشِدَّةِ الشُّكِيمَةِ ، وَلَا وِرَاءَهُ ظَهَرَ يَمْنَعُهُ ، فَكَيْفَ لَمْ يَزْجُرْهُ عَنْ ذَلِكَ زَاجِرٌ ، وَلَمْ يَدْفَعْهُ عَنْ ذَلِكَ دَافِعٌ . وَلَمْ يَنَاطِرْهُ مَنَاطِرٌ ، وَلَمْ يَتَعَجَّبْ مِنْهُ مَتَعَجِّبٌ ، وَلَمْ يَرْفَعْ ذَلِكَ رَجُلًا إِلَى أَبِي بَكْرٍ كَمَا رَفَعُوا إِلَيْهِ قَوْلَ خَالِدِ بْنِ سَعِيدٍ .

فإن قلت : إِنَّ أَبَا بَكْرٍ كَانَ مُدَارِيًّا يَتَسَّعُ صَدْرُهُ لِأَكْثَرِ مَنْ هَذَا كَمَا اتَّسَعَ صَدْرُهُ فَلَمْ يَعْأَيْبْ خَالِدًا وَلَا أَرَادَهُ عَلَى بَيْعَتِهِ . كَيْفَ سَلِمَ عَلَى حِدَّةِ حُكْمِ فَأَيِّنْ

جُدُّ عُمَرَ وَحَلَّةُ ، وَقَلَّةُ احْتِمَالِهِ ، وَاعْتِقَادُهُ لِمِثْلِ هَذَا ؟ ! وَكَيْفَ [ سَلِمَ ] طَلْحَةُ مَعَ شِدَّةِ بَأْوِهِ وَصِرَامَتِهِ .

وَلَا نَعْلَمُ شَيْئاً مِمَّا ادَّعَوْهُ أَظْهَرَ بِاطِّلَاءٍ ، وَلَا أَفْسَدَ مَعْنَى مِنْ قَوْلِهِ « كَرْدَاذٌ وَنَكْرَدَاذٌ » .

### [ ٥٥ - مَوْقِفُ خَالِدٍ مِنْ بَيْعَةِ أَبِي بَكْرٍ ]

وَأَمَّا مَا ذَكَرْتُمْ مِنْ تَرْكِ خَالِدٍ بَيْعَةَ أَبِي بَكْرٍ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ فَإِنَّ الَّذِينَ نَقَلُوا هَذَا هُمُ الَّذِينَ نَقَلُوا أَنَّ خَالِدًا يَوْمَ تُوُفِّيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ كَانَ عَلَى صَدَقَاتِ الْيَمَنِ ، فَقَدِمَ بَعْدَ أَنْ بَايَعَ النَّاسُ أَبَا بَكْرٍ ، فَلَمَّا دَخَلَ الْمَدِينَةَ اسْتَقْبَلَهُ عِثْمَانُ وَعَلِيٌّ فَقَالَ لَهَا : أَرْضَيْتُمْ مَعْشَرَ بَنِي عَبْدِ مَنْفَى أَنْ يَلِيَّ هَذَا الْأَمْرَ عَلَيْكُمْ غَيْرُكُمْ ؟ فَلَمْ يَذْكُرْ لَنَا أَنَّهَا رَدَّتْ عَلَيْهِ قَوْلًا ، وَلَا أَظْهَرَ قَبُولَهُ . ثُمَّ جَلَسَ عَنْ بَيْعَتِهِ لَا يَسْأَلُهُ ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ وَلَا يَدْعُو إِلَيْهِ ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ مَرَّ أَبُو بَكْرٍ بِدَارِ خَالِدٍ مُظْهِراً لِبَعْضِ الْأَمْرِ ، وَخَالِدٌ فِي دَارِهِ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ لَهُ خَالِدٌ : أَتُحِبُّ أَنْ أَبَايَعَكَ ؟ قَالَ : أَحَبُّ أَنْ تَدْخُلَ فِي صَالِحٍ مَا دَخَلَ فِيهِ الْمُسْلِمُونَ . قَالَ لَهُ : مَوْعِدُكَ الْعِشْيَةَ . فَأَتَاهُ وَهُوَ عَلَى الْمَنْبَرِ فَبَايَعَهُ .

فَفِي هَذَا وَجْوهٌ مِنَ الْكَلَامِ :

مِنْهُ أَنَّ خَالِدًا لَمْ يَطْعَنَ فِي إِمَامَةِ أَبِي بَكْرٍ مِنْ جِهَةِ الْجُزْءِ وَالْكَفَايَةِ وَالْكَمَالِ وَالْفَضْلِ ، وَلَا مِنْ طَرِيقِ مَا تَفْسُدُ بِهِ الْإِمَامَةُ وَتَنْتَقِضُ بِهِ الْخِلَافَةُ وَإِنَّمَا ذَكَرَ الْحَسْبَ وَطَرَاتِقِ الْجَاهِلِيَّةِ . وَهَذَا الْأَمْرُ إِنْ كَانَ مَقْصُوراً فِي قَوْمٍ دُونَ قَوْمٍ ، فَلَيْسَ هُوَ فِي بَنِي عَبْدِ مَنْفَى عَامَةً . وَإِنْ كَانَ لَيْسَ [ مَقْصُوراً ] فِي قَوْمٍ ، وَلَيْسَ لِقَوْلِ خَالِدٍ مَعْنَى ، فَإِنَّ كَانَ مَقْصُوراً فِي عَبْدِ مَنْفَى لِلشَّرَفِ أَوْ لِلْقَرَابَةِ ، فَالْعَبَّاسُ أَوْلَى بِذَلِكَ مِنْ عَلِيٍّ وَجَمِيعِ عَبْدِ مَنْفَى .

وَلَوْ أَرَادَ عَلِيٌّ لَمْ يَقُلْ : أَرْضَيْتُمْ بَنِي عَبْدِ مَنْفَى ؟ ! لِأَنَّ عِثْمَانَ وَعَلِيَّ

منافيان ، بل كان يقول : أرضيتم معشر العترة ، أو معشر بني هاشم ومعشر بني عبد المطلب . مع أنه لو قال ذلك لكان للعباس في ذلك القول من السبب ما ليس لعلي ؛ لأن هذا الأمر إن صلح أن يخرج من رهط النبي صلى الله عليه و آله ، ومن أقرب الناس إليه ، إلى أقصى بني عبد مناف ، لصلح أن يخرج إلى أقصى بني كلاب . فإذا كان ذلك كذلك فميم وعبد مناف سواء .

ومما يدلُّك على أن خالداً لم يقل شيئاً ، أن هذا الأمر إن كان إنما يستحقُّ بالعلم والعمل والجزء والغناء فليس لذكر عبد مناف معنى .

وإن كان هذا الأمر لأفضل قريش كائناً من كان فلم يقل خالد شيئاً ، وليس لذكر عبد مناف معنى .

وإن يكن هذا الأمر في أقرب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه و آله فلم يصنع خالد شيئاً .

وإن يكن هذا الأمر لرجل بعينه قد نصبه النبي صلى الله عليه و آله ودل عليه فلم يصنع خالد شيئاً ؛ لأنه كان ينبغي له أن يسير بالمنصوص أو بالمدلول عليه .

أو يكون هذا الأمر لا يُصاب إلا من طريق الوراثة . فإن كان ذلك كذلك فلم يصنع خالد شيئاً ؛ لأن صاحب الوراثة أظهر أمراً وأشهر موضعاً من أن يحتاج إلى كلمة ليست بأن تدل عليه بأقرب منها من أن تدل على خالد نفسه .

ووجه آخر : أنه قصد بكلامه إلى عثمان وعلي جميعاً ، ليهزهما معاً ؛ لأن هذا اللفظ الأغلب على ظاهره حُب العصبية ، والمحاماة على الأحساب ، وترك التخابير بالأفعال ، والتفاضل بالجزء والكمال .

ولعله أراد عثمان دون علي ، أو لعله أراد نفسه والتذكير بها والتنبيه عليها ؛ فإنه كان أشرف من عثمان وأقدم إسلاماً منه ، وكان من مهاجرة الحبشة ، وكان ذا قدر عظيم . وهو ابن أبي أحيحة ، وكان أبو أحيحة إذا اعتم بمكة لم يعتم لها أحد ؛ إكباراً لقدره ، وتفضيلاً لحاله .

وكان عثمان لا يجابي سعيد بن العاص .

وظاهر كلام خالد وقع على عبد مناف بجملة ، وهو يرى أنه في السر منهم .  
فإن كنتم أردتم أن تُخبروا عن خلاف خالد على أبي بكر وجلوسه عنه ، فلقد كان ذلك حتى راجع من تلقاء نفسه ، وثاب إليه عازب رايه ، فأناب إلى خطته ، ودخل في صالح ما دخل فيه غيره . وما كان تخلفه عن بيعته إلا ريشا ذهبت عنه حميته ، وإنجاب عن . . . وتيقظ من نومه .

وما ذلك بأعجب من اجتماع الأنصار وقوله للمهاجرين الأولين : « منّا أميرٌ ومنكم أمير ! » والدار دارهم ، والمهاجرون ضيفائهم ونزول فيهم ، وهم أول الناس والعدو والصلاخ والرأي ، فكانوا مجلبين جادين مجدين ، فما هو إلا أن هجم عليه الصديق وقام فيهم مُرشداً ومحتجاً [حتى] استبدلوا بالخلاف طاعة ، وبالضجة إطراقاً ، وبالأنفة خضوعاً ، وبالطيش حلياً ، وأنصتوا معاً واستمعوا معاً .

وكان السائل إنما أراد تعريفنا أنه كان من خالد خلافاً . فقد كان ذلك ثم رجع إلى نفسه وعرف موضع خطته ، غير مرغوب ولا مرهوب .

وإن كان إنما أراد أن يجعل هذا وشبهه حجة في إمامة علي فليس لعلي رحمة الله عليه في ذلك من الحجة على إمامته قليل ولا كثير ، إذ لم يذكره في شيء من أمورهم ، لا في سير أمرهم ولا عسيره . ولو ذكره ما كان لذكرهم دليل على أنه أولى بالإمامة من أبي بكر ، مهما عددنا عليك من خصاله التي لا يفي بها علي ولا غيره .

وإنما كان يكون هذا الإدخال حجة لو قلنا : إن أحداً لم يخالف أبا بكر .

ورضى الجميع وسكونهم وصوابهم لم يكن ليتهاً أبداً ، حتى لا ينطق أحد بحرف واحد لا جاهل ولا عالم ، ولا عصي ولا حاسد .

[ ٥٦ - يستحيل اجماع الناس على الخلافة وهي كان اقل الخلفاء اجماعاً ]

وكيف يُتفق إطباقهم على سكوت واحد والناس من بين حاسد وراضٍ ،  
وعصبي وتقي ، وحليم وسخيف ، وغالط ومصيب ، وعامل وأحق ١٢

وإذا كان النبي صلى الله عليه مع رجاحته على جميع الخلق لم يسلم على  
أمته [ من ] المستجيبين له ، فضلاً على جاحديه والمنكرين له ، كان أبو بكر أجدر  
الآيسلم من رعيته .

ولقد قام رجل إلى النبي صلى الله عليه فقال : والله يا محمد ما عدلت في  
الرعية ، ولا قسمت بالسوية . وقال الله : ﴿ ومنهم من يلمزك في الصدقات ﴾  
قال : ﴿ إن الدين ينادونك من وراء الحجرات ﴾ .

وقال عباس بن مرداس :

أتمم كل نهي ونهى العبد بين عينة والأقرع  
فما كان حصن ولا حابس بقوقان مرداس في المجمع  
في شعره طويل .

وقال أبو حذيفة بن عتبة يوم بدر : يقتل أبناءنا وأعمامنا وبنهانا عن  
عشيرته ، والله لئن أدركته لأجمنه بالسيف !

وخالفوا عليه في يوم الحديبية في نحر المهدي ، وحيث قالوا : « لا تعطى  
الدنية مرة بعد مرة » ، في أمور كثيرة .

فليس في طعن الطاعن دلالة إذا كان المطعون عليه كاملاً باضلاً . وإجماع الناس  
كلهم على الصواب أمر لا ينال ، ولكن إذا كانت الأمة قد أطبقت على طاعة رجل على  
غير الرغبة والرغبة ، ثم لم يكن اختاراً ولا إغفالاً ؛ فليس في شذوذ رجل ولا  
رجلين دلالة على انتقاض أمره ، وفساد شأنه .

وليس يفتح بهذا وشبهه إلا رجل جاهل بطبائع الناس وعللهم . ولو كان

هذا وشبهه ناقضاً لإمامة أبي بكر ، كانت إمامة علي أنقض وأفسد ، لأن الدنيا انكفت بأهلها عليه وماجت بساكنيها . . . من ولايته ، وتداعت من أقطارها ، تريد محاربتة ، حتى لقد نازعه فيها من ليس في مثل حاله ولا شرف موضع ، ولا في فضيلة دينه فناهضه الحرب ، ونازله القتال . . . بيعته ، والتج عليه الخلف من أهل طاعته ، وموضع الجذ في عسكره ، فرد بآته في أصحابه ، وصرف كيده إلى جنده ، وجلس على الذرع ، رضي البال ، [ في ] عجب الفاتن وسرور المخادع ، وعز المصيب ، وبأو الأريب . ثم بعث رسولا قد اختاره بالحكم عليه وله ؛ وبعث خصمه رسولا قد اختاره بالحكم عليه وله ؛ فكان رسول المخلوع ورسول خصمه المخادع ؛ ثم رجعت الأمور إلى خصمه ، وانتزعت منه ومن ولده مرة بالبطش ، ومرة بالهيلة .

ثم كان يرى من خلاف أصحابه واضطراب جنده وتبديل أصحابه مثل ما يرى خصمه من طاعة خاصته ، ونصرة جنده ، وثبات عهد أصحابه ؛ فلم يكن ذلك عارا عندنا ولا عندكم على علي ، ولا دليلا على نقص رأيه ، وضعف حزمه ، وسعة علمه وكثرة فضله . وقد أصابه من الخلف والتعذر وانتشار الأمر ، واضطراب الحبل ، وظفر الأعداء وشماتة الحساد ، ما قد رأيتم ؛ ثم قد جثتم تشبثون بطن سلمان ، وقول أبي سفيان ، وقعود خالد ، كأنكم لم تعرفوا ما عند خصومكم : غرارة ونقصا .

وأعجب من هذا أنكم مرة تزعمون أن الذي حمل بني أمية على صرف الإمامة عن علي الضغن الذي في نفوسها ، والأحقاد التي في صدورها ، لقتل علي أبناءها وإخوتها وأعمامها . ومرة تعتلون ولحتجون في نقض إمامة أبي بكر بطن عظيمي بني أمية في إمامته كعلي ، كخالد بن سعيد ، وأبي سفيان بن حرب ، وإذا شتم كانا لكم ، وإذا شتم كانا عليكم .

[ ٥٧ - تأويل قول أبي بكر : « كانت يعني فلانة » ]

وأما ما ذكرتم من قول أبي بكر : « ما كانت يعني إلا فلانة » ، وقول عمر :

« ما كانت بيعة أبي بكر إلا فلتةً وقى الله شرّها ، فإن الأمر على هذا واضح ،  
والحجة فيه قائمة .

وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم لما تُوفّي كان الناس على طبقات : من  
رجل مؤمن عالم ، ناصح لله ورسوله .

ومن رجل مطاع ليس له علمٌ بالإمامة ، وما السبب الذي به تنعقد من  
السبب الذي به تنحل .

ومن رجل مكانه في قريش أشرف من مكان أبي بكر ، وليست غايته  
صلاح المسلمين إنما غايته أن يكون الإمام من أقرب القبائل إليه ، ليزداد هو  
وقومه بذلك شرفاً وفخراً .

ومن رجل له قرابة فهو يرى أنها تغنيه عن العلم والعمل .

ومن رجل شديد في بأسه ، ضعيف في دينه ، مُخَفٌّ في ذات يده بعيد  
الهمة حامل في هدوء الناس وأمنهم ، فهو لا يألو إضرار الفتنه ، وتبيح  
السفلة ، يرى أن في الهيج ظهورٌ لجدته ، وخروجُه من الخمول إلى النباهة ،  
ومن الإقلال إلى الإكثار .

ومن رجل دخل في الإسلام مع من دخل في دين الله ، دخل من  
الأفواج ، لا يعرف حقيقته ، ولا يستريح به إلى الثقة .

ومن رجل أخافه السيف ، وأتقى الدلّ والقتل بإسلامه ونفاقه ، كمنافقي  
المدينة ومن حولها من أهل القرى والبادية ، يعضون على المسلمين الأنامل  
بالقوِّظ ، وهم البطانة لا يألون خبالاً ، يترقبون الدوائر ، وينفرجون إلى  
الأراجيف ، ويستريحون إلى الأمان .

ومن رجل صاحب سلم ، يدين لمن غلب ، لا يدفع مبتطلاً ولا يعين  
محقاً ، يرى أن صلاح خاصته هو صلاح العامة .

ثم الذي كان من وثوب الأنصار ، وهم أهل العدد وأصحاب الدار

والأموال ، على أمير لو تابعهم المهاجرون عليه حتى يكون من كل فرقة أمير ،  
لفتحت بذلك باباً من الفساد لا يقوى أحدٌ على سدِّه ، ولكان الذي يقع بين  
الأوس والخزرج في الأمر أشدَّ مما كان يُخاف منها ومن قريش ؛ لأنَّ القرابة كلُّها  
كانت أمس ، والجوار أقرب ، كانت العداوة على قدر ذلك .

ولو أنَّ الأنصار حين أتاهم أبو بكر فأظهروا الشقاق والخلاف . . . عن  
الحقِّ وجَهلوه ، ما كان لهم دون البوار مانع ، ولكان غير مأمون وثوبٌ من  
بالمدينة ومن حولها من ائنافقين وأشبايهم ، من الحشور والطعام ، ولكان غير  
مأمون أن ينضمَّ إليهم من حول المدينة من المرتدِّين ، ممن بدَّل إسلامه ساعةً  
بلغته وفاةُ النبي صلى الله عليه . ولو صاروا إلى ذلك لكانوا أقوى من المهاجرين  
والأنصار ، إذ كانوا جميعاً نَشراً وقلوبهم شتى ، وبأسهم بينهم ، ولكان غير مأمون  
عند ذلك أن يفزروهم مُسيلمةُ في أهل اليمامة قاطبة مع من حولها من أهل  
البادية . ثم كان غير مأمون أن يستمدَّ بجميع أهل الردَّة ممن نكث ونصب  
العداوة .

وجميع ما قلنا إنَّه كان غير مأمون ، لم نقله إلا بأسباب قد كانت هناك  
قائمة معروفة ، فما عسى نعتة المهاجرون والأنصار على ما وصفنا ونزلنا .

فقد صدَّق أبو بكر وصدق عمرُ أن تلك البيعة كانت فلتةً وأعجوبةً  
وغريبةً ، إذا سلمت على كلِّ ما وصفنا من أسباب الهلكة ، وهي سرَّيبٌ ، وليس  
دونها سبٌّ ولا ردٌّ ، فكانت بيعته يُمنأ وبركة أنقذ الله بها من الهلكة ، وجمع بها من  
الشقات ، وردَّ بها الإسلام في نصابه ، بعد تخلُّفه واضطرابه . فأما  
السُّخيمةُ ، وأودعت القلوب السُّلامةَ ، وجمعتها على الألفة .

وهذه مكرمةٌ وعظيمةٌ ، ولا يجوز أن يجوبها خالقُ العباد إلا نبياً أو خليفةً  
نبي .

فأما قوله : « ما كانت بيعتي إلا فلتةً وفي الله شرها » ، فقولٌ امرئٍ عالم  
بالعواقب ، عالمٌ بأسباب الفتن ، شديد الشفقة منها ، حامدٌ لربه على السلامة

أوما علمت أن أبا بكر بينا هو يخطب على المهاجرين في مسجد النبي صلى الله عليه ، والنبي مسجى ، وهو محتج عليهم ويعرفهم سرفهم ، واعتداءهم في قولهم : إن النبي صلى الله عليه لم يميت . وقد خاف أن يصير بهم الإفراط في التعظيم ، والغلو في الحب ، أن يضارعوا مذهب النصارى وخاف أن يكون آخر أمرهم أشد من أوله . وكان أشد الأمور عليه في ذلك أن مثل عمر ، وعبد الرحمن ، وعثمان ، هم الذين كانوا خرجوا إلى ما لا ينبغي من القول ، فبدرهم بالخطبة محتجاً عليهم ومعرفاً لهم مواضع غلطهم ، ونحس إفراطهم ، فحين تبين لهم خطوهم وسلموا لاحتجاجه عليهم ، أتاه آت فقال : إن الأنصار قد اجتمعت إلى سعد بن عبيدة في سقيفة بني ساعدة ، يقولون : منا أمير ومنكم أمير . فراعته ذلك ، وصور له الخزم كل تخوف ، فعلم أن الداء الذي عنه نطقوا أشد علاجاً من الداء الذي نطق عنه عمر وعثمان وعبد الرحمن ، والنفر من المهاجرين الذين قالوا : إن النبي صلى الله عليه وعلى آله لم يميت ؛ وعلم أن إبراء كل سقم أهون من إبراء سقم الحمية والطمع في الملك ، ولا سيما إذا شابهها سوء تأويل ، وضافرها الحس بالقوة . وهذا هو الداء العضال ، والداهية العظام .

فلما انتهى إليه أمرهم ، وعرف جميع ما عليه طبائعهم وعللهم ، وطبائع أتباعهم ، لم يكن شيء أهم إليه من البدار إليهم قبل أن يستفحل الشر ، ويتمكن العزم ، فمر حثياً وتبعه عمر ، ولحقه أبو عبيدة في نفر من قريش ، فيمر بالناس خلقاً عزيزين وهم يبكون ويتحدثون ، فيقبل عليهم فيقول : أنتم جلوس تفركون أعينكم وفي الإسلام العسا البدار . وقيل البوار .

فلو لم يتداركهم بيحطه ويقظته وصدق حسه ، وأبطأ عنهم ريشا كانوا يتطارحون الرأي ، ويستثيرون دفين الحسد حتى يتمكن ذلك الحسد ، وتمثل لهم صبرة الظفر ، فلو فجم عليهم أبو بكر في ضعف من بالمدينة من قريش ، لم يكن في طاقتهم دفعهم ، والدار دارهم ، والبلاد بلادهم واليادية باديتهم ،

ومن فيها تبع لهم ، فكان من صنيع الله أن كان هو الذائد والقائم ، والحارس ،  
والمعاطف والمداوى ، ولم يكلمهم الله إلى نظرهم واختيارهم ، فيكون ذلك  
فسادهم وهلكتهم .

فإن قالوا : فما معنى قول أبي بكر للأتصار حين أتاهم : « إن هذا الأمر  
ليس بخلسة . قد علمتم معشر قريش [ أنا ] أكرم العرب أحساباً ، وأيقننا  
أنساباً ، وأنا عترة النبي صلى الله عليه وأصله ، والبيضة التي تفقات عنه » ؟

فلم يذكر أبو بكر قريشاً وأحسابها وعترة النبي صلى الله عليه والبيضة التي  
تفقات عنه ، إلا وهو يرى أن له عليهم بهذا من الفضل ما ليس لهم ، ومن  
السبب إلى الخلاف ما ليس لهم . فقد ينبغي أن يكون لبني هاشم على هذا  
القياس من الفضل والسبب ما ليس لبني تيم .

قلنا لهم : إن أبا بكر لم يقل هذا القول وهو يريد معنى مذقبتكم فيه ، مع  
أنكم قد قطعتم الكلام ، لأنه قال : « فإنه لم يكن فينا فكان يوبخ به وأنا نحن  
المهاجرون وأنتم الأنصار ، وإن الله لم يذكرنا وإياكم في شيء من القرآن إلا بدأ  
بذكرنا قبلكم ، فمننا الأمراء ومنكم الوزراء » .

فلم يقل أبو بكر : « قد علمتم يا معشر قريش أنا أكرم العرب أحساباً ،  
وأيقننا أنساباً ، وأنا عترة النبي وأصله » ، وهو يريد أن يخبر أن الرئاسة في الدين  
تستحق لغير الدين ، والخلافة أعظم رياسات الدين ، فعلى حسب ذلك تحتاج  
إلى العمل الصالح .

ولكن أبا بكر خطب على قوم كانوا يرون للخب قديراً ، وللقرابة سبباً ،  
فاتاهم من مآتهم ، وأخذهم من أقرب مأخذهم ، واحتج عليهم بالذي هو  
عندهم ، ليكون أقطع للشعب ، وأسرع للقبول . وليس في كل المواضع تفسير  
لحجة أمثل من إظهار الجملة ، وتعريف الناس الغاية ، وملههم على أدق الحجج  
وأصوبها . ولربما أخفى الإمام كثيراً مما يريد بالناس عنهم ، للذي . . . . من  
بعضهم عن فضله ، وضيق صدورهم عن سعة فضله ، بل يعلم أنه لو أطلعهم

طَلَعَ إِرَادَتَهُ ، وَالَّذِي عَزَمَ عَلَيْهِ مِنْ صِلَاحِهِمْ ، كَانُوا أَسْرَعَ إِلَى طَلَبِ بُغْضِهِ مِنْ عَدُوِّهِمْ .

وَقَدْ دَلَّ أَبُو بَكْرٍ عَلَى مَذْهَبِهِ فِي الْأَحْسَابِ فِي أَوَّلِ خُطْبَةِ خَطْبِهَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، حِينَ قَالَ فِي كَلَامِهِ :

« وَعَلَيْكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ، فَإِنَّ أَكْبَرَ الْكَيْسِ التَّقْوَى ، وَأَحْمَقُ الْحِمَى  
الْفُجُورِ ، وَإِنِّي مُتَّبِعٌ وَلَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ ، فَإِنِ أَحْسَنْتُمْ فَأَعِينُونِي ، وَإِنِ زَعَمْتُمْ  
فَقُومُونِي . أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَمْ يَدْعِ الْجِهَادَ قَوْمٌ قَطُّ إِلَّا ضَرَبَهُمُ اللَّهُ بِذُلٍّ ، وَلَمْ تَشِعْ  
الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ إِلَّا عَمَّهُمُ بِالْبَلَاءِ . أَيُّهَا النَّاسُ اتَّبِعُوا كِتَابَ اللَّهِ ، وَاقْبَلُوا  
النُّصِيحَةَ ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ ، وَيَعْفُو عَنِ السَّيْئَةِ . وَاحذَرُوا الْخَطَايَا الَّتِي لِكُلِّ  
بَنِي آدَمَ مِنْهَا نَصِيبٌ ، وَلَكِنْ خَيْرُهُمْ مَنْ اتَّقَى اللَّهَ . وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا يَنْفَعُ فِيهِ حِمِيمٌ  
وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ . »

أَلَا تَرَاهُ ذَكَرَ جَمِيعَ بَنِي آدَمَ ثُمَّ قَالَ : وَلَكِنْ خَيْرُهُمْ أَنْتَقَاهُمْ كَمَا قَالَ اللَّهُ :  
﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَقَاهُمْ ﴾ ثُمَّ قَالَ : اتَّقُوا يَوْمًا لَا يَنْفَعُ فِيهِ حِمِيمٌ وَلَا  
شَفِيعٌ ؛ فَقَدْ أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ وَمَذْهَبِهِ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ بِغَايَةِ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ أَصْحَابُ  
التَّسْوِيَةِ . فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ إِذَا قَالَ : فَإِنَّ كَانَ هَذَا الْأَمْرُ مَعْتَرًا الْأَنْصَارَ إِذَا مَا يُسْتَحَقُّ  
بِالْحَسَبِ ، وَيُسْتَوْجَبُ بِالقَرَابَةِ فَقَرِيشٌ أَكْرَمُ مِنْكُمْ حَسَبًا ، وَأَقْرَبُ مِنْكُمْ قَرَابَةً ،  
وَإِنْ كَانَ إِذَا مَا يُسْتَحَقُّ بِالْفَضْلِ فِي الَّذِينَ فَالسَّابِقُونَ الْأَوْلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ الْمُقَدَّمُونَ  
عَلَيْكُمْ فِي جَمِيعِ الْقُرْآنِ أَوْلَى بِهِ مِنْكُمْ . لِأَنَّ أَبَا بَكْرٍ ذَكَرَ فِي صَدْرِ كَلَامِهِ الْحَسَبَ  
وَالْقَرَابَةَ ، وَفِي عَجْزِهِ فَضَلَ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى الْأَنْصَارِ . فَلَمَّا أَبْصَرَ الْقَوْمُ وَجْهَ  
الْحُجَّةِ ، وَقَرَّرَهُمْ بِمَا لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ طَبَائِعُهُمْ ، لَحِقُوا بِالطَّاعَةِ وَأَعْطَوْا  
المُقَادَةَ .

وَكَيْفَ يَكُونُ كِبَارُ الْأَنْصَارِ أَفْضَلَ مِنْ كِبَارِ الْمُهَاجِرِينَ ، وَقَدْ سَبَقَهُمُ  
الْمُهَاجِرُونَ وَأَسْلَمُوا قَبْلَهُمْ بِالسَّنِينَ قَبْلَ السَّنِينَ ، وَالْأَنْصَارُ بَعْدُ عَلَى دِينِ آبَائِهِمْ ،  
وَعِبَادَةِ أَصْنَامِهِمْ . ثُمَّ الَّذِي لَقِيَ الْمُهَاجِرُونَ فِي اللَّهِ بَيْطَنَ مَكَّةَ وَالْأَنْصَارُ وَادَّعَوْنَ

في بيوتهم ، رافهون في ديارهم ، ناصم بأهم ، تحلي سربهم ، لذيذ عيشهم . ثم هاجروا إلى دارهم فكانوا معاً في العبادة والجهاد ، إلا ما فضلوا به من وحشة الاغتراب ، وفراق الدار والأحباب . فللمهاجرين مثل ما للأنصار ، وقد بانوا بسابقتهم ، وإنما قُدِّموا في القرآن لتقدمهم في الإسلام .

وكما أن المهاجرين الأولين ليسوا كغيرهم من المهاجرين ، وكما أن من أسلم بعد الفتح ليس كمن أسلم قبله ؛ فكذلك ليس من أسلم والناس كلهم كفار غيره ، كمن أسلم وقد أسلم الناس قبله .

وأنت إذا تأملت قول الصديق للأنصار : « إن هذا الأمر ليس بخلسة » علمت أنه كان ثابت الجنان ، رابط الجأش ، واثق بالحجة ، عارفاً بمواضع الإمامة ، وإنما كانت غايته تقريرهم بفضيلة المهاجرين ، لأنهم إذا صاروا إلى ذلك فلا حاجة به إلى ذكر نفسه وتعريفهم فضله ، لأن تمييزه كان بيناً على المهاجرين ، وفضله كان ظاهراً على السابقين .

والدليل على ذلك أن حوض الأنصار وكلامها لم يكن إلا فيما بين جملة الأنصار وجملة المهاجرين ، قالوا : « منا أمير ومنكم أمير . » فما هو إلا أن قرَّروا بفضيلة المهاجرين فلم يكن لهم بعد ذلك متكلم ، حتى أطبقوا جميعاً على بيعته هم والمهاجرون من بين جميع المهاجرين - فلا يستطيع أحد أن يدَّعَى أن إنساناً قال من الأنصار : « فإن كان لا بد أن يكون منكم الأمراء فليكن فلان ، فإنه أفضل وأحقُّ بقرابةٍ أو بعمل - فسكتوا معاً سكتةً واحدةً ، وسلموا معاً تسليماً واحداً . »

ولو أن الأنصار كانوا قد سلموا للمهاجرين في البدء فلم يفارقوا ولم يتمادوا ، وكانوا كالمهاجرين في إطباقهم على أن الإمام منهم ما كان ليظهر للناس من شهامة أبي بكر وصرامته واجتماع نفسه وقوة منته ، وجلده رايه ، وقلة خيبرته وتضجعه مثل الذي ظهر لهم . وإنما يعرف العاقل فضل العاقل في مضايق الأمور ، وساعة الجؤلة ، والعجلة والحيرة ، وظهور الفتنه ، وموجان السفلة ،

واضطراب العلية واختلاط الخاصة بالعامه .

فهل أعضل به داء فلم يسد ثغره ، أم هل نجم بلاء فلم يتول قمعه ؟ !

[ ٥٨ - الرياسة عند العثمانية لا تنال بالقرابة بل بالدين ]

وزعمت ( العثمانية ) أن أحداً لا ينال الرياسة في الدين بغير الدين . ولو جاز أن يعطي الله رجلاً عطية ويفضله على غيره لنسبه ، وعملها سواء في دار الدنيا ، جاز أن يفضله عليه في الآخرة .

وليس ذلك كالمعاقى والمبتلى ؛ لأن العافية والبلاء ، والشكر والصبر ، والثواب على الطاعة بهما والعقاب على المعصية فيهما ، إذا وازنت بين عواجل أمرهما وأواجلها من كل وجوهها ، رأيتها سواء لا فضل بينهما .

وكذلك شأن المملوك والمالك ، والفقر والغنى ، والمبتلى والمعاقى .

فإن كان القريب القرابة والبعيد القرابة سيلهما في النقص والفضل ، والصبر والشكر ، والثواب والعقاب ، وجميع حالاتهما في العاجل والأجل ، كالمعاقى والمبتلى ، والمالك والمملوك ، والفقر والغنى ، فليس بين القريب والبعيد فرق ، وليس لقرابته فضيلة على غيره ، ولا ينفعه شيء إلا كما نفعت المعاقى والغنى في ظاهر أمرهما ، وما يقع البيان عليه منها ، وهما في الغنى والمصلحة ، والنظر والصنع ، سواء .

وليس على هذا بنى القوم أمرهم في القرابة ؛ لأنهم زعموا أن القرابة سبب للرياسة في الدين . ولو قالوا إنها سبب للقدر والنباهة في الدنيا كان ذلك وجهاً ، كما ترى من فضل حال المنيع الرهط ، الجميل الرواء ، والمعاقى في بدنه الكثير المال ، على الذليل الرهط الدميم في روائه ، المبتلى في بدنه ، القليل ذات اليد ، وهما في مغيب أمرهما ، وفيها لا يقع البيان عليه من شأنها ، سواء في صنع الله وفضله وعائلته .

[ وإنما ] كان لنا أن نزعم أن القرابة تنفع في الدين والحسب فتكون سبباً

إلى الرِّياسة فيها ، أن لو كنا رأينا من عظم قدر القرابة ونبل من أجله نال  
الرِّياسة الكبرى بالحسب . فإذا رأينا النبي صلى الله عليه لم يستحق ذلك الموضع  
البائن العالي إلا بالفضل دون المركب كان من متِّ بقرابته أجدر ألا ينال الرِّياسة  
إلا بالفضل دون المركب ؛ لأن النبي صلى الله عليه لو كان نال ذلك بالهاشمية  
كان هو ورجلٌ من عُرض بني هاشم سواء .

ولو كان ناله بعبد المطلب لكان ولدٌ عبد المطلب لصلبه أقرب إليه .

وقد نعلم أن ذلك لو كان لشخصٍ بالهاشمية أو بالمطلبية لكان لعليٍّ في  
ذلك ما ليس لأحدٍ ، لأنه ابنُ أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم ، وأمه فاطمة  
ابنة أسد بن هاشم .

فلما وجدنا الأمر كما ذكرنا ، علمنا أن النبي صلى الله عليه لم يصيره  
مستحقاً لأعظم الرِّياسات وأشرف المقامات إلا بالعمل ، إذ كنا قد وجدنا من  
يساويه في الهاشمية لا يستحق مثل ماله .

[ ٥٩ - احتجاج العثمانية للتسوية بين الناس ]

وزعمت ( العثمانية ) أن لها في التسوية بين القريب والبعيد حججاً كثيرة ،  
قد عرفتُها وسمعتها من أهلها .

ولكن كتابي هذا لم يُوضع إلا في الإمامة ، ولربما ذكرت من المقالة والملة  
والنخلة التي تعرض في الإمامة صدرأ ، طلباً للتمام ، وتعريفاً لوجوه الإمامة  
وما دخل فيها .

والكلام في التسوية كلامٌ يدخل في باب التعديل والتجويز ، وهو يشتدُّ  
الكلام فيه ويغمض ، فإن أخبرنا عن فرعه ولم نخبر عن أصله لم يتفح القارىء  
به ، وصار وبالاً عليه .

وقد زعم ناسٌ من ( العثمانية ) أن الله بفضله ومنه كفى أكثر الناس مؤونة

الرؤية ، وتكَلَّفَ غامض الكلام في التَّسوية ، فأخبرهم في كتابه بآيِنِ الكلامِ وأوضحه عن معاني التَّسوية ، وما يجوز في حذله وحكمته . فقال وهو يريد أن يُعلم الناس أنهم لا ينتفعون بصلاح آباءهم ، ولا يضرُّهم فسادُ رهطهم فقال : ﴿ وإبراهيمَ الذي وثى . ألا تزرُ وازرةٌ وِزرَ أخرى . وأن لَيسَ لِلإنسانِ إلا ما سعى ﴾ .

فإذا كان كَوْنُ الإنسانِ ابنَ نبيٍّ وابنَ خليفةِ نبيٍّ ، أو ابنَ عمِّ نبيٍّ لَيسَ من سَعِيهِ ، فقد أخبر أنه لا شيءَ له في ذلك حين قال : ﴿ وأن لَيسَ لِلإنسانِ إلا ما سعى ﴾ فالسعيُّ معروفٌ ، والكَوْنُ من رهطٍ قَوْنٌ رهطٍ لَيسَ من سَعِيهِ المرءِ في شيءٍ ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه لقرايته حين جَمَعَهُم : « يا عباسُ ابنَ عبدِ المطلبِ ، ويا صفيةَ بنتَ عبدِ المطلبِ ، ويا فلانُ ويا فلانُ ، إني لا أغني عنكم من الله شيئاً » .

ولو أن إنساناً من القراية إذا هو عَصَى وَعَصَى غَيْرَهُ بِمِثْلِ مَعْصِيَتِهِ غَفَرَ اللهُ [ له ] لقرايته ، ولم يغفر للآخر ؛ وكان إذا أطاع وأطاع غَيْرَهُ بِمِثْلِ طَاعَتِهِ أَعْطَاهُ اللهُ أَكْثَرَ مِمَّا يُعْطَى الْآخَرَ ، لكَانَا إِذَا اسْتَوَيْتَا فَلَمْ يَطِيعَا جَمِيعاً وَلَمْ يَعْصِيَا ، فَكَانَا إِذَا طَفَلَيْنِ وَإِذَا مَجْنُونَيْنِ وَإِذَا نَائِمَيْنِ ، وَإِذَا سَاهَمَيْنِ ، أَعْطَى الْقَرِيبَ وَفَضَّلَهُ ، وَلَمْ يُعْطِ الْآخَرَ شَيْئاً وَلَمْ يَسُؤْ بَيْتَهُ وَبَيْنَ مَنْ لَمْ يُطِيعْ وَلَمْ يَعْصِ ، كَمَا لَمْ يُطِيعِ الْقَرِيبُ وَلَمْ يَعْصِ ، لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ لِيَقُولَ لِعَمَّةِ وَعَمَّتِهِ : إني لا أغني عنكم من الله شيئاً .

ولذلك قال النبي صلى الله عليه : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم » .

ولذلك قال النبي صلى الله عليه : الناس كلهم سواء كَأَسنانِ المُشْطِ . والمرءُ كثيرٌ بأخيه . ولا خيرَ لك في صحبةِ مَنْ لا يرى لَكَ بِمِثْلِ ما يرى لِنَفْسِهِ .

ولذلك قال حين بلغه أن عُيينة قال : أنا ابنُ الأشياخِ ، أنا عُيينة بنِ حصنِ بنِ حذيفة بنِ بدر بنِ عمرو ، قال النبي صلى الله عليه : « أشرف الناسِ

يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ .

ولذلك أَخَذَ وَبِرَّةَ مَنْ جَنَّبَ بَعِيرٍ يَوْمَ حُنَيْنٍ فَقَالَ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنَا بِهَذَا أَحَقَّ مِنْ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ » .

وقد قال الله : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ ؛ فلم يَسْتَنْ مِنْ جَمِيعِ النَّفُوسِ نَفْسًا وَاحِدَةً ، لَا ابْنَ نَبِيٍّ وَلَا ابْنَ عَمِّهِ .

وقال الله : ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا ﴾ . والمولى كلمة واقعة على جميع ، فمنه ابن عم المرء ، ومنه خليفته ، ومنه مولاة من فوق ، ومنه مولاة من تحت ، ومنه مولاة الذي ملكه قبل عتقه . فإذا قال الله : ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا ﴾ فقد دخل فيه ابن العم وغيره ، ولم يَسْتَنْ الأنبياء دون المسلمين .

وقال : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ، وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٌ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا ﴾ ثم قال : ﴿ إِنْ وَغَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تُغْرُنْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يُغْرُنْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ . فمن اغتر بعد هذا بالقرابة واتكل على غير العمل الصالح فقد رد تأديب الله وتعليمه .

ثم الذي رأينا من قصة ابن آدم حين قُربَ مع أخيه قُرباناً فتقبل من أخيه ولم يُتَقَبَلْ مِنْهُ ، فقتله حسداً له وبغياً عليه . وكيف لم تنفعه قرابته من آدم حيث لعنه الله وبرىء منه ، وجعله من أصحاب النار ، ثم قال : ﴿ وَذَلِكَ جِزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ .

لكي لا يتكل أحد ظالم بعده على قرابته ، ولا يغتر بأن يكون ابن نبي . ولذلك أرسل الكلام على تخرج العموم . ولم يُخرجه ذلك المخرج إلا وذلك إرادته .

فإن قالوا : إنه لم يكن لصلبه ، ولو كان لصلبه لنقمه ذلك عنده .

قلنا : إنه ليس لأحد سمع الله يقول : ﴿ واتل عليهم نبأ ابني آدم ﴾ أن يجعلهما من عرض بني آدم بعد سبعين قرناً إلا بحجة . وإن لم تكن له في ذلك حجة فليس له أن يُزيل معنى ابن عن أصله ، لأن الأصل المستعمل الموضوع أن يكون الابن للصلب ؛ فإثماً جاز أن يقال لابن الابن على التشبيه بالابن ، [ و ] على الحمل عليه . وكذلك الابن الذي هو على التبنّي والتربية ، لأن رجلاً لو قال : أتاني فلان بن فلان ، لم يكن لأحد أن يقول : إنه لم يكن ابنته وربيته ، إلا بحجة ؛ وإلا فالكلام موضوع على أصله وعلى المستعمل المعروف منه .

ثم صنع الله بابن نوح ، وهو كما علمت من أعظم الأنبياء قدراً ومنزلةً ومكاناً ، حين عصى فيمن عصى ، كيف غرقه فيمن غرق ممن لا قرابة له ولا ولادة .

فإن قالوا : إنه لم يكن ابنه ، لأن الله قال : ﴿ إنه ليس من أهلِكَ إنه عمل غير صالح ﴾ ، وذكر امرأة نوح وامرأة لوط فقال : ﴿ كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً ﴾ .

قيل لهم : إنه ليس لنا أن ندع قول الله : ﴿ ونادى نوح ابنته ﴾ إلى تاولٍ مختلف فيه . ولقولة الخيانة مخارج غير تاوليكم . وقد تفجر المرأة بعد أن صح منها لبعلها ولدٌ كبير . وفي قوله : ﴿ فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً ﴾ دليل أن عبتهما كان الصّح عن خيانتها ، وأن عبتهما لم تغن عنهما شيئاً .

ولا يُشبه قولكم [ في ] نساء الأنبياء الذي نعرف من حُسن اختيار الله لهم من طيب المناكح ، وطهارة المداخل . وهذا معنى طبائع الناس . لم يكن الله ليترك امرأة نبيّ تصير إلى تهجينه والتصغير بقدره ؛ لأن امرأة منظفة مُصفاة ، لا تحمل الأقداء ، ولا تعلق بها الأدناس ، ولا يطوق المبطلين عليها الاعتماد .

وفي قول الله لإبراهيم ، وهو شجرة الرسالة ، وخليل رب العزة حين يقول

له : ﴿ إِنِّي جَاءْتُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ قال إبراهيم إنما مستهها وإنما طالباً : ﴿ وَمِنْ قُرْبِي ﴾ قال : ﴿ لَا يَبَالُ هَيْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ . وأخبر أن عهد إمامته وخلافته لا يبال الظالم وإن كان من خير خلق الله .

ففي هذا دليل أن الرياسة في الدين لا تنال بغير الدين .

وقال الله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي قُرْبَيْهِمَا النَّبِيَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَايِسُونَ ﴾ ألا ترى أن الذرية وإن كانت كلها ذرية ومكانها من القرابة سواء ، فمنها ولي ومنها عدو .

[ ٦٠ - رد العثمانية على إدهاء الشيعة ان عمر لم يأخذ بالتسوية لا في

الاعطيات ولا بين العرب والعجم ]

فإن تركوا هذا جانباً وقالوا : كيف تزعمون أن أبا بكر كان يرى التسوية ، وكان لا يرى أن الفروسيّة أصل للإمامة ، والقرابة شعبة عن الخلافة . ولم يكن في الأرض رجل أبعد من هذا المذهب من خاصته وخليفته وصنيعته ، والمحتذى على مثاله ، عمر بن الخطاب ، لأنه فضل القرشيات من نساء النبي صلى الله عليه على غيرهن ، وفضل العرب في العطاء على الموال . وقال : ﴿ زُوْجُوا الْأَكْفَاءَ ﴾ . وكان أشد منه في أمر المناكح .

قيل لهم : إنه لم يكن على ظهر الأرض رجل كان أبعد مما قلتم من عمر ، ولا [ ظَهَرَ ] منه - خلاف ما ادعيتم - مثل الذي ظَهَرَ منه . والدليل على غلطكم وخطأ قولكم ، أن عمر لما فرض الأعطية ودون النواوين وقام إليه أبو سفيان بن حرب ، وحكيم بن حزام ، فقالا : يا أمير المؤمنين ، أديوان كديوان بني الأصفر ، إنك إن فعلت ذلك أتكل الناس على الديوان وتركوا التجارات والمعاش فقال عمر : فقد كثر الفقيه والمسلمون .

ففرس للمهاجرين ومواليهم ، وللأنصار ومواليهم ، ممن شهد بدرأ في ستة آلاف ستة آلاف فكان عطاء عمر وعلي وعبد الرحمن وطلحة والزبير وأبي هبيلة بن

الجراح ، وعطاء بلال وسالم مولى أبي حذيفة وجميع الموالى سواً .

ثم فَرَضَ عَلَى قَدْرِ الْفَضْلِ وَالْغَنَاءِ وَالسَّابِقَةِ ، عَلَى قَدْرِ بُعْدِ الدَّارِ وَقُرْبِهَا مِنَ الْمُهَاجِرِ ، فَفَرَضَ لِأَهْلِ الْيَمَنِ فِي السَّبْعِمِائَةِ إِلَى الْآلْفِ ، وَهُمْ أَبْعَدُ خَلَقَ اللهُ مِنْهُ وَمَنْ مُضِرٌّ أَرْحَاماً وَنَسَباً . وَإِنَّمَا أَرَادَهُمْ وَزَادَهُمْ لِبُعْدِ دَارِهِمْ مِنَ الْمُهَاجِرِ ، وَكَانُوا أَهْلَ قَرْيٍ وَمَزَارِعَ ، فَتَرَكُوا مُطْنَبَهُمْ رَغْبَةً فِي الْهَجْرَةِ .

وَفَرَضَ لِمُضِرٍّ وَبَلِيٍّ وَكَلْبٍ وَطَيْءٍ فِي الثَّلَاثِمِائَةِ إِلَى الْأَرْبَعِمِائَةِ . فَتَسَوَّيْتَهُ بَيْنَ مُضِرٍّ وَطَيْءٍ دَلِيلٌ عَلَى مَا قُلْنَا .

وَفَرَضَ لِرَبِيعَةٍ فِي خَمْسِينَ وَمِائَتَيْنِ وَقَالَ : إِثْمًا هَاجَرُوا مِنْ أَطْنَابِ بَيْوتِهِمْ . وَرَبِيعَةٌ أَمْسُ بِهِ وَعَمَضِرٌّ مِنْ بَلِيٍّ وَطَيْءٍ .

وَفَرَضَ لِأَشْرَافِ الْأَعْجَمِ : لِدهقان شهر الملك ، وهو فيروز بن يزدجرد ، ولابن النخيران ، ولخالد وجميل ابني بصهري دهقان الفلوجة ، ولبسطام بن نرسی دهقان بابل ، وجفينة العبادتي ، ورميل في ألفين ألفين .

وَفَرَضَ لِلْمُوسِحْتَانِ ، وَالْمُرْمِزَانِ ، وَلِسِيَاهِ وَخَشِ وَأَمْقِلَاسِ فِي أَلْفَيْنِ وَخَمْسِمِائَةٍ ، وَهُوَ أَقْصَى شَيْءٍ أَخَذَهُ عَرَبِيٌّ قَطُّ ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ : قَوْمٌ أَعْجَمٌ أَشْرَافٌ ، أَحَبُّتُ أَنْ أَتَأَلَّفَ بِهِمْ غَيْرَهُمْ .

وَفَرَضَ لِسُورِيِّ هَوْلَاءِ النَّفَرِ مِنَ الْعَجَمِ مِنَ الْحَاشِيَةِ وَالْعَوَامِ مِمَّنْ سُمِّيَ وَأَسِيرٌ وَخَرَجَ فِي الصُّلْحِ مَعَ رَئِيسِهِ وَقَائِدِهِ ، فِي أَقْلٍ مِمَّا فَرَضَ لِلْأَعْرَابِ وَحَاشِيَةِ الْعَرَبِ وَعَوَامِهِمْ ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ : إِنَّ الْأَعْرَابِيَّ إِلَّا يِقَاتِلُ عَنْ دِينِهِ قَاتِلًا عَنْ رَهْطِهِ وَشِقَّةِ وَنَاحِيَتِهِ . وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَا بَصِيرَةٍ فِي دِينِهِ قَاتِلًا مَحَامَاةً عَنْ حَسْبِهِ وَأَصْحَابِهِ ، وَقَدْ أَمَنْتَ تَحْوِلُهُ إِلَى عَدُوِّهِ فَاقْلُ مَا عِنْدَهُ إِذَا لَمْ يَبِيلْ أَنْ يَكْثُرَ السَّوَادُ وَيَكْشِفَ الْجَيْشَ وَهُوَ عَلَى حَالِ أَفْقِهِ فِي الدِّينِ وَافْهَمِ لِلتَّأْوِيلِ وَالْعَجْمِيِّ لَيْسَ بِذِي نَصْرَةٍ فِي الْإِسْلَامِ وَلَا يِقَاتِلُ عَنْ دَارِهِ وَلَا يَحَامِي عَنْ حَسْبِهِ وَلَا يَدَافِعُ عَنْ رَهْطِهِ وَغَيْرِ مَأْمُونٍ عَلَيْهِ التَّحْوِيلُ إِلَى أَصْحَابِهِ فَيَدُلُّ عَلَى الْقَوْرَةِ ، وَهُوَ أَجْدَرُ الْأَيُّ يَفْهَمُ تَنْزِيلًا وَلَا تَأْوِيلًا .

وَحَمَلَ قَوْمًا فِي الْبَحْرِ وَأَخْرَجَنِي فِي الْبَرِّ ، فَفَضَّلَ عَلَيَّ قَدْرَ الْكُرُونَةِ ، وَأَهْطَى  
عَلَى قَدْرِ الْمَشَقَّةِ .

فهكذا كانت عطاياها ، وهكذا كان تدبيره فيما نقلت العلماء وروى  
الفقهاء . ولا يشك في ذلك صاحبُ خير ، ولا يدفعه صاحبُ أثر .

فأما ما ذكروا من تهجينه أمر العجم ، وتمظيمه أمر العرب ، فإنما كان  
ذلك لأنه لما نَدَبَ النَّاسَ إِلَى قِتَالِ كَسْرَى وَالْأَسَاوِرَةِ تَشَاوَلَتْ عَنْ ذَلِكَ الْعَرَبُ  
وَالْأَعْرَابُ وَجَمِيعُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، هَيْئَةً لِنَاحِيَةِ كَسْرَى وَالْفَرَسِ ، وَخَفُوا لِقَرْوِ  
الرُّومِ وَنَشَطُوا لَهُ ، حَتَّى انْتَدَبَ أَبُو عَيْبِدٍ التُّقَيْفِيُّ أَوَّلَ مَنْ انْتَدَبَ ، فَلِذَلِكَ عَقَدَ لَهُ  
عَلَى كِبَارِ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ ، وَالْأَنْصَارِ ، وَالْبَدْرِيِّينَ ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُ هُمْ إِلَّا تَصْغِيرُ  
أَمْرِهِمْ وَتَهْجِينُ شَأْنِهِمْ وَالْحَطُّ مِنْ أَقْدَارِهِمْ لِيَرُدَّ ذَلِكَ مِنْ نَفُوسِ الْعَرَبِ .

وهكذا ينبغي أن يكون تدبير المدبر .  
أَوْ مَا عَلِمَتْ أَنَّ الْمَغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ لَمَّا سَمِعَ قَيْسَ بْنَ مَكْشُوحٍ يَقُولُ حِينَ  
عَايَنَ الْفَرَسَ : مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ حَدِيدًا وَلَا عَدِيدًا ! وَهَذَا يَوْمَ الْقَادِسِيَّةِ ، وَقَدْ  
كَانَ قَيْسٌ شَهِدَ قَبْلَ الْقَادِسِيَّةِ حُرُوبَ الرُّومِ ، وَقَيْسٌ يَوْمَئِذٍ عَلَى الْخَيْلِ ،  
وَالْمَغِيرَةُ عَلَى الرُّجَالِ ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ الْمَغِيرَةُ مَهْرًا لَهُ وَهُوَ يَقُولُ : إِنَّمَا هَذَا زَبْدٌ مِنْ  
زَبْدِ الشَّيْطَانِ !

وقد كان المغيرة قد عاين مثل الذي عاين قيس ، ولكن التدبير كان غير  
الذي ذهب إليه قيس .

ومن الدليل على ما وصفنا من تدبير عمر ، تركه الاستخفاف بأقدار  
العجم وإظهار احتقارهم والإزراء بهم ، بعد جلولاء .

فمن ذلك أنه لما أتى بسيف كسرى وقبائه ومنطقته ألبسه سراقاة ابن  
ممالك بن جعثم ، ثم قال له : أقبر ، ثم قال له : أقبل . أقبل عليه عمر  
وعنده الناس فقال : أما والله لرُبُّ يومٍ لو كان هذا من كسرى وآل كسرى

لكان شرفاً لك ولقومك ، في أمور كثيرة من هذا الضرب لم يكن عمر لينطق  
بمخبر منها وحرّيم مخوفة ، ونفوس العرب لهم هائلة .

وهكذا تدبير الخفاء ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ولو كانوا إذا لم  
يقفوا عن الأئمة لم يعترضوا عليهم ولم يخطئوهم ولم يجهلواهم كان أيسر .

ولا أعلم في الأرض جيلاً أجهل بهذا وشبهه ممن يتحلل اسم الكلام  
وينصب نفسه للخصومات . ثم البروافض خاصة ، ليس يعرفون من أمر  
الإمام إلا أنه يعلم ما يكون قبل أن يكون .

ومن الدليل على ما وصفنا به عمر ، قوله لسعد بن أبي وقاص حيث  
وجهه إلى القادسية وأوصاه ، قال : يا سعد سعد بن وهيب إن الله عز وجل  
إذا أحب عبداً حببه إلى الناس ، فاعتبر منزلتك من الله بمنزلك أن يقال خال  
رسول الله صلى الله عليه ، فإن الناس في ذات الله سواء

فأي قول أجمع وأدل ، وأي فعل أشبه بالذي حكينا عنه من التسوية ،  
من هذه الأقاويل والأفاعيل .

وكان سعد خال النبي ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وقد أخذ  
بيده : « هذا خالي أباهي به فليات كل امرئ بخاله » .

وفي قول عمر في المناكح : « ليس شيء من خصال الجاهلية إلا وقد  
تركته ، إلا إنني لست أبالي إلى من نكحت ، وإلى من أنكحت » . فإن شئت  
أن تقول : وأي أمر هو أوجب على العاقل المسلم الحر من ألا يبالي إلى من  
نكح وأنكح ؟

قلت : وإن قلت إن هذا الكلام من عمر يدل على بقية عصبية فيه .  
فما تبرأ إليك منه حين جعله من خصال الجاهلية إلا وهو أب له وناه عنه ،  
وزار عليه . وفي قوله هذا دليل على أنه قد اكتثر لبقية عادة الجاهلية ، وأنه  
راغب عنها كما رغب عن أكبر منها .

وفي قوله لعبد الله بن عمر حين فرض له في الفين وفرض لأسماء في الفين وخمسمائة ، وابنه قُرشي وأسماء مولى ، حين قال له عبد الله : أتفضل عليّ أسماء في المعطاء وأنا وهو سيان ؟ قال : إن أسماء كان أحب إلى رسول الله منك ، وكان أبوه أحب إلى رسول الله من أبيك .

ألا ترى أنه يدور مع الذين حيثما دار ؟ !

وفي قول عبد الله بن عمر لأبيه ؛ تفضل عليّ أسماء في المعطاء وأنا وهو سيان ، دليل على أن القوم كانوا لا يعرفون إلا الذين والسابقة ، والغناء عن المسلمين .

وفي وصيته عند وفاته أن يصلي عليه صهيب ، وفي أمره إياه بالصلاة بالناس في مقامه إلى أن يختار المسلمون رجلاً ، دليل على ما قلنا .  
وصهيب مولى لعبد الله بن جُدعان .

والدليل على أن صهيباً رجلاً من العجم قول رسول الله صلى الله عليه : « بلال سابق الحبشة ، وسلمان سابق فارس ، وصهيب سابق الروم » . وهذا حديث لم يختلف فيه فقيهان *مركز تحفة كويت علوم دينية*

وفي خروج آذنه وحاجبه يوماً إلى الناس ، وقريش والعرب جلوس بيابه ينتظرون إذنه ، فيهم أبو سفيان بن حرب ، وشهيل بن عمرو ، وحكيم بن حزام ، والأقرع بن حابس ، وعيينة بن حصن ، فنادى بأعلى صوته : أين عمار ؟ أين بلال ؟ أين صهيب ؟ أين سلمان ؟ فينفضون مكرمين ومفضلين ، وعلى الناس مقدمين ، وتلك الجلئة وتلك السادة جلوس لا ينطقون ولا ينكرون ، فلما كثر ذلك عليهم تمعرت وجوههم ، وامتنعت السواتم ، فأبصرهم شهيل فعرف ما قد أصابهم ونزل بهم ، وكان حليماً خطيباً فقال :

لم تمعرو وجوهكم وتتغير ألوانكم ، ولا ترجعون باللائمة على أنفسكم ؟  
دعينا ودعوا ، فأبطانا وأسرعوا ، ولئن حسدتموهم على باب عمر للذي أهد

الله لهم في الجنة أفضل !

ثم الدليل الذي ليس فوقه دليل ، قوله وعنده أصحاب الشورى وكبار المهاجرين وجملة الأنصار ، وعليه العرب ، وهو موفٍ على قبره ينتظر خروج نفسه : « لو كان سالم حياً ما تخالفتني فيه الشك » . وسالم مولى امرأة من الأنصار ، وكان حليفاً لأبي حذيفة بن عتبة بمكة ، فلذلك كان يقال : مولى أبي حذيفة ؛ لأن حليف الرجل موله .

فإن كان هذا لا يدل على التباعد من الحمية والأعرابية والعصبية ، ولا يدل على التسوية ، فما عندنا ولا عند أحد شيء يدل على شيء ! وإذا كان هذا مذهبه وقوله في الخلافة فما ظنك به فيما دون الخلافة ؟ !

وهذا باب إن استقصيناه كثر وشغل الكتاب . وفيما قلنا مفتح لمن كان الحق له مفتحاً ، والصواب له مألفاً .

فهل يقدر أحد أن يحكي عن علي مثل الذي حكينا عن عمر في التسوية ، أو شطره ؟ !

مركز تحقيقات كويت للطباعة والنشر

إن أكبر ما رأينا في أيديكم عنه قوله : « إنني قرأت ما بين دفتي المصحف فلم أجد فيه لبني إسماعيل على بني إسحاق فضلاً » .

فهذا قول إن قاله علي فليس فيه دليل أنه أراد به الطعن على عمر وإظهار خلافة ، لأن علياً قد ملك أكثر الأرض خمس حجج ، فلو كان رأيه في خلاف عمر على ما تصفون ، وكان عمر عنده لا يرى التسوية في العطاء ، لقد كان غير دواوين عمر ، وبدل أعطيته وفروضه وحولها إلى الحق عنده ، أو نطق فيها بحرف ، أو أظهر ذلك في هيئته إن لم ينطق به خطيباً ومحتجاً .

وكيف يكون ذلك ولا أحد أعلم بصواب ما دهر عمر في ذلك من علي ؟ ! وكيف يكون عمر لا يرى التسوية وقد صنع صنيعاً لو قام مقامه أشد

الناس سعيًا - ما لم يُجر عن الحق وَيَعْدِلْ عن السُّداد - ما كان عنده ولا في طاقته أكثر منه .

[ ٦١ - الرد على ادعاء الشيعة ان علياً عمل بالتسوية بينا أهلها عمر ]

والمعجب أنكم تزعمون أن علياً كان يرى التسوية ، وأن عمر صاحب حمة ، فأنتم تروون أن أكثر احتجاجه إنما كان بذكر قرابته وأمن أسبابه ومصاهرته ، مع أن القرابة هي التي أخرجتكم إلى هذا الإفراط كله . فأنتم تحبسون بني هاشم وتفضلونهم للقرابة ، وتوجبون لهم الإمامة للقرابة . ثم تزعمون أن علياً كان يرى أن ولد إسماعيل وإسحاق سواء ، وكان يرى أن العرب والعجم سواء .

وكيف غضبتكم على عمر لأنه فضل قريشاً على العرب ، والغريب على العجم ، ولم تغضبوا على أنفسكم حين فصلتم بني عبد المطلب على بني هاشم ، وفصلتم بني هاشم على بني عبد شمس ؟

ففضلوا أيضاً بني عبد شمس على سائر قهص ، وسائر قهص على سائر كعب ، وسائر كعب على سائر قريش ، وكذلك سائر قريش على سائر مضر ، وكذلك سائر مضر على ربيعة ، وربيعه على ولد إسحاق ، وولد إسحاق على ولد قحطان .

وإن شتمت ففضلوا ربيعة على اليمن ، واليمن على العجم . وإذا أتتكم قد دخلتم في كل ما عبتكم .

فأما أن تفضلوا من شتمت على من شتمت - وإن كان من لم تفضلوا في القياس كمن فصلتم - فليس ذلك لكم ؛ لأن القياس قد اعترض دون مشيبتكم وقضى عليكم .

ولو أن قائلًا قال : أنا أزعم أن الناس بكلهم يعد بني عبد المطلب لصلبه

سواء ، كما قلتُم إنَّ الناس كلَّهم بعد بني هاشم سواء ، ما كان الذي قال  
أمس بالرسول وأولى بالحكم . فإن قلتُم : فمن أين كان له أن يقف على جدِّ  
عبد المطلب وليس بينه وبين هاشم إلا أب ؟ فيقال لكم : وكيف كان لكم أن  
تقفوا على جدِّ هاشم وبين هاشم وعبد مناف أب واحد ؟ وكيف كان لكم أن  
تقطعوا التفضيل وحقَّ القرابة من لدن هاشم ، وهاشم وعبد شمس أخوان  
لام وأب ؟ ! ولذلك قال الشاعر :

عبد شمسٍ كان يتلو هاشماً وهما بعدُ لامٌ وأب

فاجعلوه يتلو هاشماً في حقَّ القرابة واستحقاق الإمامة . وإذ جاز عندكم أن  
تتخطى الإمامة العم إلى ابن العم كان [ ذلك ] في الأخ للام وللأب .

ثم زعمتم أن الدليل على أن عمر صاحب عصية وحمية ، رده لسلمان  
حين خطب إليه ابنته ، وسلمان كان أعقل من أن يخطب إلى عمر ابنته  
وعثمان وعلي .

قلنا : جوابنا في هذا في خطبته إلى علي ، وإن كان علي أشرف موضعاً  
مع أن القائم عن سلمان أنه كان يقول : قال لي النبي صلى الله عليه : « يا  
سلمان لا تبغض العرب فبغضني » . وكان يقول : أمرنا أن ناتم بكم ولا  
نؤمكم ، وأمرنا أن نزوجكم ولا نتزوج منكم .

فليس في الأرض متعرب وصاحب عصية إلا وأكبر ما يحتج به في  
المنالك حديث سلمان .

وقد تمنع الأشراف عقائل نساها لأسباب غير التحريم ، لا يكون ذلك  
عيباً عليهم في آدابهم ، ولا نقصاً في أديانهم .

وفي قول علي يوم الجمل حين رأى عبد الرحمن بن عتاب صريعاً :  
« شفت نفسي وجدعت أنفي . قتلت الصناديد من بني عبد مناف والمتني  
الاعيان من بني جمح ! » فقال له رجل : لشد ما جزعت عليه يا أمير المؤمنين !

قال : « إنه قد قامت عني وعنه نِسوةٌ لم يُقْمَنَ عنك » دليلٌ أنه قد كان يرى  
للأمهات قدراً كثيراً ، وللمناكح خطراً عظيماً .

وفي كراهته أن يتزوج المقدادُ ضبَاعَةَ بنت الزبير ، حتى كان من النبي  
إليه الذي كان ، دليلٌ على شدة تدبيره .

وإنما ينبغي أن يقضي بين أصحاب محمدٍ من قد عرف أمورهم في جميع  
مُتَقَلِّبِهِمْ ؛ لأنه غير مأمونٍ على المتكلم إذا قل سماعه أن يخرج الجاهل [ إلى ]  
استصغار بعضهم أو تضليله والبراءة منه ، فيهلك الدنيا والآخرة .

وإن أغنى الناس أن يكون أصحاب محمدٍ خصومته لأنتم معشر أصحاب  
النظر والمتكلمين .

والذين نَحَلُوا عمرَ العصبيةِ رجلاً : راضيٌ أحبُّ أن يُمَقِّتَهُ إلى العَجَمِ  
والموالي ، ومتعربٌ عرف أن عمر عند الناس قُدوةٌ ، فنَحَلَهُ ذلك ليكون له  
حُجَّةٌ . فاعرف ذلك .

[ ٦٢ - رد العثمانية على ادعاء الشيعة أن الزبير سل سيفه انتصاراً  
لعلي ]

وأما ما ذكروا من أن الزبير خرج شاداً بسيفه يوم السقيفة ، فإن كانوا  
صادقين فإن هذا هو الطيش والتسرُّع إلى الفتنة ، وتهيبج الناس على إظهار  
السلاح .

وإنما أتى أبو بكر الأنصارَ واعظاً ومحتجاً ، ومسكناً ومصليحاً بألین الكلام  
وأحسن الهدى ، لم يحمل سوطاً ولا سيفاً ، ولم يُظهر معازة ولا أراد المغالبة  
فما وجه خروج الزبير بسيفه شاداً نحوه ؟ ! بل كان أشبه الأمور بالزبير وأولاه  
به ، والذي يجب علينا أن نظنه به ، أن يقوم محتجاً ومصليحاً ؛ فإذا أبان عن  
حُجَّتِهِ وأعدَرَ في موعظته فلم يرَ ذلك ناجعاً ولا مقبولاً ، ورأى شيئاً يجوزُ به  
حَمْلُ السيف والشُّدُّ به ، كان من وراء ذلك .

وكيف علمتم أن الزبير إنما سئل سيفه ليؤكد لعلي إمامته أو ليوطىء له خلافته ؟ ! ولعله إنما أراد الأمر لنفسه دون غيره . ولعله إنما غضب لصرف الأمر عن خاله وكبيره وشيخه العباس بن عبد المطلب . فكيف علمتم أنه إنما أراد صرفها عن أبي بكر خاصة ؟ ! وكيف يشدُّ على من لم يقل بايعوني ، ولا أظهر الحرس عليها ، وإنما كره أن يبقى الناس شراً ، وعلم أن على الأنصار أن يسمعوا للمهاجرين ، وقد قال للناس : « بايعوا أي هذين شتم » ، يعني أبا عبيدة وعمر . إلا أن يكون الزبير قال : ولم كنت أنت المحتج على الأنصار والمعرف لهم فضل المهاجرين عليهم دون علي .

ويقال لهم عند ذلك : أما بإدي الرأي والذي لا تشك فيه نحن ولا أحد ممن خالفنا ، فالذي كان من مناصبة الزبير لعلي ومحاربه له دون الإمامة ، وزعمه أنه أفضل منه وأولى بها منه ، ولو جعلها شورى لقرعه وبرز عليه .

ثم الذي لا يشك الناس فيه من طاعته لعمر ، وإنما عمر شعبة من شعب أبي بكر . ولقد بلغ من تعظيمه لعمر وطاعته له وإكباره لقدره ، أنه محاً نفسه من الديوان لما قُتل عمر تسلياً عليه ، ورفعاً لقدره أن يلي منه من الإعطاء والمنع أحد كما كان يليه منه عمر . كما محاً نفسه من الديوان حكيم بن جزام لما توفي النبي صلى الله عليه . وكذلك محاً نفسه من الديوان عبد الله بن الزبير حين قُتل عثمان .

ولقد بلغ من طاعته لعمر أنه بعثه مدداً لعمر بن العاص ، فجعل عمر الأمير عليه ينفذ لأمره ويصلي بصلاته .

والذي يدلُّ على انبئانه في هوى أبي بكر ، وانقطاعه إليه بمودته ، الخاصة التي كانت بين أبي بكر وبينه . وذلك أن عبد الله بن مسعود أوصى إليه حين مات . وعبد الله عمري محض ، وهو القائل في عثمان حين برز على الشورى : « ما ألونا أن جعلناها [ في أعلا ] نا ذا فوق » فإذا كان هذا قوله في

عثمان وعليّ فيما ظنك به في أبي بكرٍ وعُمَرَ .

ثم أوصى إليه عثمان بن عفان [ و ] هو أصل العمرية والعثمانية ،  
والمباينة لعليّ وشيعته عندهم . وأوصى إليه عبد الرحمن بن عوف ، وهو المختار  
لعثمان عليّ ، وصاحب أبي بكر ، والدافع بالموسم في خلافة أبي بكر من  
بين جميع المهاجرين .

هذا مع أسباب الزبير الواشجة بأبي بكر : فمن ذلك إسلامه علي  
يديه ، واحتماله مؤونته في مصاهرته ، حيث رغب إليه في تزويج ابته أسماء  
ذات النطاقين ، فولدت عبد الله - وعبد الله كنيته أبو خبيب - وعُروة وغيرها .  
وكان عبد الله أول مولود ولد في الهجرة ، فسماه الزبير باسم جدّه أبي بكر ،  
لأن اسم أبي بكر عبد الله ولقبه عتيق ، وإنما لقب بعتيق لعنق وجهه ودقة  
محاسنه . ثم كنى الزبير بأبي بكر بكنية جدّه ، فكان عبد الله بن الزبير يكنى أبا  
بكر تيمناً منهم بكنيته .

وقالت عائشة رضي الله عنها : ألا تكفيني يا رسول الله ؟ قال : « بل ،  
اكتفي بابنك » يعني عبد الله بن الزبير . فكانت عائشة تكتفي بأبي عبد الله .  
ولذلك كانت تقول : قال ابني ، وفعل ابني ، وكادوا يوم الجمل أن يقتلوا  
ابني .

فيقال للرافضة : أما العيان والوجود فهو الذي خبرناكم به . وأما ما  
ادّعيتم من [ أن ] الزبير سل سيفاً ليؤكد إمامة عليّ فقد ينبغي أن تأتوا على  
ذلك ببرهان . فأما معاداة الزبير له ومحاربتة إياه وفخره عليه ، فهذا ما لا  
يُدفع عنه . ولقد فخر عليه حين دعاه إلى الشورى وأبى ذلك عليّ فقال :  
أسلمت بالفأ مدركاً وأسلمت ناشئاً طفلاً ، وكنت أول من سل سيفاً في  
الإسلام يبطن مكة وانت مستخف في الشعب يكفلك الرجال ويمونك الأقارب  
من هاشم ، وكنت فارساً وكنت راجلاً ، وكنت شجاعاً وكنت بطلاً . ولئن  
كنت تزعم [ أنك ابن عمه ] إني لابن عمته . وأنا عابر البحر يوم الحبشة ،

وفي هيتي نزلت الملائكة ، وأنا حَوَارِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَفَارِسُهُ .

خبرني بهذا الكلام أبو زُفَرٍ عن ضراب ، أن الزُّبَيْرَ كَانَ احتج به : وقد سَقَطَ عَنِّي بَعْضُهُ لَطُولُ الْعَهْدِ بِسْمَاعِهِ .

وقالت ( العثمانية ) : العجب أن الروافضَ رَبَّمَا احتجت علينا بأن الزُّبَيْرَ سَلَّ سَيْفَهُ وَمَضَى قُدَّمَا فِي تَأْكِيدِ بَيْعَةِ عَلِيٍّ وَخَلَعَ سِوَاهُ ، وَنَقَصَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ .

فيقال لهم : فَمَا منعكم أن تقولوا لما مات النبي صلى الله عليه وَجَحَدَ السَّلْفُ إِمَامَةَ عَلِيٍّ : كَفَرَ النَّاسُ خِلا خَمْسَةِ نَفَرٍ أَوْلَهُمُ الزُّبَيْرُ فِي نَفْسِهِ وَفَضِيلَتِهِ عَلَى غَيْرِهِ . وَأَكْبَرُ مَا كَانَ مِنْهُ مِنْ سَلِّ السَّيْفِ وَالشُّدِّ بِهِ ، وَهَذَا مَوْقِفٌ لَمْ يَقِفْهُ بِلَالٌ وَلَا أَبُو ذَرٍّ . وَأَنْتُمْ عَلَى ثِقَةٍ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ ، وَأَنَّ السَّيْفَ لَمْ يُجْمَلْ إِلَّا لِنُصْرَةِ عَلِيٍّ دُونَ الْعَبَّاسِ وَجَمِيعِ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ وَمَا وَلَدَ قُصَيٍّ .

وكيف لم يكن أدنى منازل التدبير أن يكون قد كان مؤمناً ولياً إلى أن جَحَدَ إِمَامَةَ عَلِيٍّ بَعْدَ مَقْتَلِ عِثْمَانَ ، لِيَكُونَ سَبِيلُهُ شَبِيهاً بِسَبِيلِ حُذَيْفَةَ وَعُمَارَ ؛ لِأَنَّهَا كَانَا عِنْدَكُمْ كَافِرِينَ حَتَّى تَابَا فِي زَمَنِ عِثْمَانَ ، فَكَانَ يَكُونُ الزُّبَيْرُ مُؤْمِنًا إِلَى أَنْ كَفَرَ عِنْدَ مَقْتَلِ عِثْمَانَ .

وإنما صار حذيفة وعمار عند الرافضة وليين لأنها قالا بزعمهم : والله ما دخل عثمان حفرته إلا كافراً ، وأنه لجيفة على الصراط يوم القيامة ، يتأذى به أهل الجمع .

فإن كانوا إنما صاروا إلى توليها بعد إكفارها من أجل تصديق هذا الحديث فإن الذين رَوَوْهُ هُمُ الَّذِي رَوَوْا أَنَّهَا قَالَا : وَاللَّهِ مَا دَخَلَ عِثْمَانَ حَفْرَتَهُ إِلَّا كَافِرًا ، وَإِنَّهُ لَجِيْفَةٌ عَلَى الصَّرَاطِ يَتَأَذَى بِهِ أَهْلُ الْجَمْعِ ، وَإِنَّهُ لَا يَلِي هَذَا الْأَمْرَ بَعْدَ عُمَرَ إِلَّا كُلُّ أَصْفَرٍ أَبْتَرٍ ! فَإِنَّ كَانَا قَدْ تَابَا بِقَوْلِهَا الْأَوَّلِ لَقَدْ ارْتَدَا بِقَوْلِهَا الثَّانِي حِينَ قَالَا : وَإِنَّهُ لَا يَلِي هَذَا الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِ عُمَرَ إِلَّا كُلُّ أَصْفَرٍ أَبْتَرٍ .

ولو لم يكن ذلك كذلك بل كانا مرتدّين فتأبى فتولّيتموهما عند توبتهما وعاديتموهما قبل ذلك على طاعتها لعمر ، فما بالكم لم تقولوا مثل ذلك في الزبير أنه لم يزل مؤمناً حتى جحد إمامة عليّ بعذ ١٩ مع أن سلّ الزبير سيفه ، وعذوه نحو أبي بكر وأصحابه ، وقول عمر : « دونكم الكلب » حتى أخذ سيفه وخاطر ، إنما هو حديثٌ وجدناه في بعض السيرة ، وليس من الأخبار المستفيضة ، وليس مما يحقّقه أصحاب الحديث .

[ ٦٣ - تأويل قول أبي بكر : « ولينكم ولست بخيركم » ]

وإن قالوا : فما قول أبي بكر في خطبته التي خطب بها في أول خلافته : « ولينكم ولست بخيركم » ؟ وهل يخلو هذا القول من الصدق والكذب . فإن كان صادقاً فهو خلاف قولكم في تفضيله على جميع أئمتكم ، والرجل كان أعلم بنفسه وبأهل دهره . وإن كان كاذباً فأي كذب أقبح من كذب إمام صلّى منبر جماعة ١٩ ومن أحقّ بالألّا يليهم ويحمل إمامة دينهم ودنياهم بمن يكذب على منبر الرسول من غير أن يكرهه أحدٌ أو يريدّه عليه ، أو يكون في تقيّة كخائف السوط والسيف ١٩ بل ما يدعوه إلى الكذب ، والكذب مقبح في العقل مقبح في الدين ، ولم يكن هناك رهبة تسوقه ، ولا رغبة تقوده ١٩ على أن كذب الرعية أسخف وأقبح ، وهو لا يخلو من أن يكون صادقاً فلا يسعه أن يتقدم من هو خير منه وقد مكّنه تقدّمه ، أو يكون كاذباً فالقول فيه على ما قلنا .

قلنا : إن ( العثمانية ) تذكر لذلك وجوهاً ؟ .

فمنها : أن الحسن كان يقول : والله أعلم أنه كان خيرهم ، ولكن المؤمن يهضم نفسه . فزعم الحسن أنه إنما تهضم نفسه ووضع منها لأن الخلف المشفق كثيراً ما يُزري على نفسه ويهيب عليها ويستبطنها ، ويُظهر المقت لها والخوف عليها . فهذا كان مذهب الحسن .

وأما فتادة فزعم أن قوله : « وليتكم ولست بخيركم » إنما أراد في الحسب ، ليعلمهم أنه إذ يليهم بالحسب وإنما وليهم بالسابقة ، لأنهم قد كانوا أكثروا من قولهم : أرضيتم معشر بني عبد مناف أن تلي عليكم تيم ؟ ! وأراد في أول مقام قامه أن يعلمهم [ أن ] ذلك المقام لا يُنال بأن يكون صاحبه خيراً الناس حسباً ومركباً ، إنما يُنال بأن يكون خيراً الناس علماً وعملاً .

وأما غيرها فزعم أن من عادة الخائفين الوجيلين المشفقين أن يقول الرجل منهم : كل أحد خيراً مني ؟ ثم يبكي على تضييعه ، ويستعظم صغير ذنوبه كأنه ليس في الأرض مُذنبٌ سواه . وأكثر ما يقول ذلك عند ذكر بعض ذنوبه أو عند بعض ما يعارضه به الشيطان والإنسان ، من تزكيتة وتقريظه وإظهار تفضيله لنفسه وإحسانه ، والعجب بحاله . لأنه ليس بعد أن يرى العبد أن ذنبه من قبل ربه مذهب هو أعظم من استكبار الطاعة واستصغار المعصية . فعند ذلك يعارضه المؤمن بتقريب نفسه وتأنيبها ، وتوقيفها على ما فرط منها ، وتذكيرها مساوئها ، واستعظام كل ما كان من تقصيرها وإساءتها ، واستصغار كل ما كان من عظيم إحسانها وطاعتها ، فيقول : كل أحد خيراً مني . وما أشبهه من الكلام .

وهذا الضرب من اللفظ ، إذا كان على هذا الوجه فليس في مجرى الكذب وقول الزور . وإن كان القائل : « كل أحد خيراً مني » خيراً من كل أحد .

فكان أبا بكر لما خطب الناس وقام مقام رسول الله صلى الله عليه ، وسلم عليه المهاجرون والأنصار وعلية قريش وسادة العرب قياماً على أقدامهم ، وصفواً على مراتبهم ، يقولون : السلام عليك يا خليفة رسول الله وألقيت إليه أزيمة الأمور ، وأعطوه المقادة ، وأسمحت نفوسهم له بالطاعة وقد صرفوها عن القرابة وعن أهل الشرف ، رأى بسطة عيشه من جز الخلافة وبأو الامامة ، ما لا يعرف قدره غيره ، ولا تأتي الصفة على كنهه . وللشيطان هناك

مداخل وتحايل ، ودس وتحريرك وطمع ، ليس تقوى بشري على دفع تلك  
الفتنة ، وتسكين تلك الحركة ، والنهوض بتلك المحنة ، إلا بغاية الزري على  
النفس والهضم لها ، والبخس والتخون منها ، وتناسي ذكر جميع محاسنها ،  
واجتلاب ذكر جميع مساوئها . فبالحرى إذا صنع ذلك أن يرد من غربه وطوائع  
نفسه ، وحركة عجمته ، وانتشار عزمه ، وانتفاض مرته .

وهذه حال لا يمتحن بها إلا الخلفاء ، ولا يختبر بها إلا الأئمة الهدى ،  
لأن معهم من قوة المئن ومن فضول الأحلام ، وشدة الورع وكثرة العلم ،  
وثبات النفس ، والمعرفة بما آداه الطائع ، وإماتة الشهوات ، وقمع . . . ما  
يقام به [موربه] مكاييد الشيطان وتعظيم الإنسان ، وعز السلطان ، والنفس لا  
تسبح بإعطاء ما عليها حتى تمنعها ماها .

وإن كان قول أبي بكر : « ولئيتكم ولست بخيركم » إنما أراد به مداواة  
قلبه ، والزري على نفسه فليس بكذب وإن كان خيرهه ، إذ كان إنما أراد  
إصلاح قلبه ، وعلاج دائه ، والبعد من تقرير القوم بنقصهم عن فضله ،  
والفخر عليهم (بتبريزه) . فإما أراد أن يكون سبيله سبيل من يظهر التعلم إذا  
علم ، وسبيل من يتواضع إذا عظم . فجمع بذلك حسن الأدب ، والبعد من  
التزكية ، والتعجب إلى المستمع ، والتواضع لربه ، والمداواة لقلبه ، والظفر  
بعده ، وإحراز دينه .

وقد يكون إخلاص ظاهر لفظه على شيء ومعناه غيره ، فلا يكون ذلك  
كذباً ، لمعرفة القائل بقهم المستمع عنه . وهذا باب كثيراً ما يستعمله  
العرب .

يقول الرجل لامرأته : ألقىت حبلك على غاربك ! وهو يعني طلاقها  
وليس هناك حبيل ألقى على غارب .

ويقول : مالي في هذا الأمر ناقة ولا جمل ! وليس ذلك يُريد . و : لست  
منها في غير ولا تغير ! وليس ذلك يُريد .

وقال عُمَرُ في الصُّدَاقِ ما بَلَغَكُمْ ، فلما احتجَّت عليه المرأة بقول الله : ﴿ وَأَتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ﴾ قال : كلُّ أحدٍ أفقه من عمر .

وهذا القول ينبغي أن يكون على قياسكم هذا كذباً . ولا نعلم أحداً رواه عن عمر إلا على التفضيل له . ووجهه قائم معروف .

[ ٦٤ - تاويل قول أبي بكر « بايعوا أي هذين شتم » ]

فإن قالوا : ما معنى قول أبي بكر : « بايعوا أي هذين شتم » ، يعني عمر وأبا عبيدة .

قيل لهم : إن أبا بكر إنما قال هذا الكلام للأنصار ومن حضر بعد أن قرَّر الأنصار بفضل المهاجرين عليهم ، وأن الأمراء منهم . فعلم عند ذلك أنه بائن عند الأنصار من جميع المهاجرين كما بان عند المهاجرين ولكنه كان سائساً رفيقاً ، فكبره أن يقول بايعوني ، ليكونوا هم الذين يطلبون منه ذلك ويريدونه عليه ، ويظهرون حبَّ تقديمه ؛ لتكون النفوس بطاعته أسمع ، وفيها أرغب ، ولذبه أحد ، ولأن ذلك عندهم أبعد من الاستبداد عليهم ، والافتيات بالأمر دونهم ، والحرص على التأمر عليهم . ولذلك مَثَى في الناس بعد بيعته ثلاثاً يقول : هل من مستقيل فيقال ؟

وقد قال في خطبته بعد البيعة :

وقد كانت بيعتي فلتنة ، وخشيت الفتنة . وإيم الله ما حرصتُ عليها يوماً ولا ليلة ، ولا سألتها الله في سرٍّ ولا علانية ، ومالي فيها راحة . وقد قلدتُ أمراً عظيماً مالي به طاقة ، ولو ددت أن أقوى الناس عليها مكاني .

ألا ترى زهدَه فيها ، وقلة حرصه عليها ، وكيف يُخبر أنه لو لم يتخَشَّ الفتنة ما قبلها ، ولو دد أن أقوى الناس عليها مكانه ؟

وقوله « لوددت أن أقوى الناس عليها مكاني » ، يقول : وددت أنه لو كان في الناس من هو أقوى عليها مني . ليس أنه يرى أن في الأرض يومئذ رجلاً هو أقوى عليها منه .

ومثل هذا في كلام العرب كثير .

وقال الراجز وذكر إبله فقال ، إذا كانت عليها مغارضها :  
يشربن حتى تُنْقِضَ المغارضُ

يقول : يشربن حتى لو [ كانت عليها مغارضها ] سمعت لها نقيضاً والبحير لا يُورَدُ وعليه غَرَضُهُ وبطانه .

ثم رجعنا إلى الحديث الأول .

فكان أبو بكر حين قال : « بايعوا أي هذين شتم » علم أن عمر وأبا عبيدة لا يستجيزان تقدمه والتأمر عليه ، كما بلغنا من قول عمر في أبي بكر ، يوم جمع المهاجرين والأنصار يستشيرهم في غزوة الروم حيث خالفوه وأبى أبو بكر إلا إنفاذ ذلك الجيش والتعريف لهم بالحجة فيه ، حين يقول : « الحمد لله الذي يخص بالخير من يشاء من خلقه . والله ما استبقنا إلى شيء من الخير إلا سبقنا إليه ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

وقال أيضاً يوم السقيفة حين قال أبو بكر : بايعوا أي هذين شتم : « والله لأن أقدم فضرب عني أحب إلي من أن أتقدم أبا بكر » . وقال : « والله لأن أضجع فلذبح كما يذبح الجمل أحب إلي من أن أتقدم أبا بكر » .

ولقد بلغ من تعظيمه له وتقديمه إياه ، أنه قال حين سُئِلَ عن الكلالة :

« والله إنني لأستحي من الله أن أرى بخلاف رأي أبي بكر » .

وأنت لم تجد أبا عبيدة تقدمه في موقف قط ، وقد وجدت أبا بكر قد تقدم

أبا عبيدة في مواقف كثيرة ، في حياة رسول الله صلى الله عليه وبعد وفاته ، كما

حكينا لك قبل هذا . ولم نجد ذكر أبي بكر وعمر في موضع قط إلا وأبو بكر المقدم عليه ؛ مع مقامات لأبي بكر شريفة ليس لعمر فيها ذكر .

فبين أن يكون أبو بكر يأمرهم بذلك أمراً أو يطلب إليهم طلباً ، وبين أن يجعله إليهم فيكونوا الطالبين له والراغبين إليه ، وليكون ذلك من تلقائهم وطيب أنفسهم ، فرق عظيم .

وأية بيعة أثبت من بيعة عقدها عمر والنبي يقول : « ضرب بالحق على لسانه » و « الشيطان يفرق من حسه » و « اللهم أعز الإسلام بعمر » ؟ ! وأية بيعة أثبت من بيعة عقدها أبو عبيدة والنبي يقول : « لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » .

وأية بيعة أثبت من بيعة عقدها عبد الرحمن بن عوف وقد سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم « الأمين » . فإذا كان أمين رسول الله صلى الله عليه في أمته ، والفاروق الذي فرق الله به بين الحق والباطل ، حيث قال : « لا يعبد الله سراً بعد اليوم » قد عقدا بيعته وأكد أمره ، فما عسى أن يبلغ قول قائل ؟ ! ولو كان ذلك عن مواطاة من أبي بكر لأبي عبيدة كما واطأ معاوية عمرو بن العاص ، ما استعمل عليه خالد بن الوليد أميراً أيام حياته حتى عزله عمرو بن الخطاب ، ولكان كما صنع معاوية بعمر وحين أطعمه مصر .

وأية بيعة أثبت من بيعة عقدها عبد الله بن مسعود ، والنبي صلى الله عليه يقول : « رضيت لأمتي ما رضي لها ابن أم عبد بيعة رجل فقد رضيها النبي عليه السلام ، إذ كان النبي قد قال : « رضيت لأمتي ما رضي لها ابن أم عبد ، وكرهت لها ما كره ابن أم عبد » .

ولقد بلغ من تقديمه لأبي بكر وعمر وعثمان أنه قال عند اختيار الناس لعثمان : « ما ألونا أن جعلناها في إعلاننا ذا فرق » .

ولقد بلغ من تعظيمه لعمر وتقدمه له ، أنه قال : « لقد خشيت الله في

حُبِّ عُمَرَ . وقال : « ما صلينا ظاهرين حتى أسلم عمر » . وقال بعد موت عمر : « إن عمر كان للإسلام حصناً حصيناً يدخل الناس فيه ولا يخرجون منه ، فلما مات انثلم ذلك الحصن فصار الناس يخرجون منه ولا يدخلون فيه » . وقال : « إذا ذكر الصالحون فحيّ هلاً بعمر » .

فإذا كان عمر وعثمان من أتباع أبي بكر وشيعته وأوليائه ، وهذا قوله فيها ، وتفضيله لهما ، فما ظنك به في أبي بكر ؟ !

ولو أن رجلاً واحداً من نحو من ذكرنا عقد لعليّ إمامة ، أو نطق فيه بكلمة ، لأكلت الشيعة والروافض هذه الأمة فضلاً عن أن تحتج برضاه واختياره . فهذا هذا .

ثم الذي نقلوا إلينا من تثبيت عليّ بيعة أبي بكر . وذلك أنهم قالوا : لما بويع أبو بكر وبايعه عليّ وبنو هاشم ، قام أبو بكر فطاف في الناس ثلاثاً يقول : « أيها الناس ، قد أفلتكم يعني » ! قالوا : يقول عليّ من بين الناس : « والله لا نُقبلك ولا نَسْتقبلك ، قدّمك رسول الله صلى الله عليه تصليّ بالناس فمن ذا يؤخرك ؟ ! » .

مركز تحقيقات كويتية للدراسات والبحوث الإسلامية

ثم الذي نقله الناس عن عليّ حين قال على منبره : « ألا إن خير هذه الأمة أبو بكر ، والثاني عمر ، ولو شئت أن أخبركم بالثالث فعلت » .

ونقلوا جميعاً أنّ عليّاً قال : بينا أنا يوماً عند رسول الله صلى الله عليه إذ أقبل أبو بكر وعمر فقال النبي : « هذان سيّدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين ، ما خلا النبيين والمرسلين ، لا تخبرهما بالذي قلت يا عليّ » . قالوا : قال عليّ : لولا أنها قد ماتا ما حدثتكم .

قال الشعبي : قال عليّ : إنّ أبا بكر كان أواهاً مُنبياً ، وإن عمر ناصح الله فنصحه الله .

ونقلوا أنّ عليّاً قال - ودخل على عمر وقد مات وهو مسجى - فقال :

رحمك الله يا عمر ! والله ما أحد أحب إليّ أن ألقى الله بمثلِ صحيفته من هذا  
المسجى صاحب السرير !

وبلغه أن رجلاً تناولَ أبا بكرٍ وعمرَ ، فقال للرجل : لو سمعتُ منك  
الذي بلغني لالقيتُ أكثرَكَ شعراً .

وقال : لو أتيتُ برجلٍ يشتمهما لجلدتهُ حدَّ المقرّي .

ثم الذي نقله جميع أصحاب الآثار أنه قال : كنتُ إذا سمعت من النبي  
صلى الله عليه حديثاً نَفَعَنِي الله بما شاءَ منه ، فإذا حَدَّثَنِي غيره عنه استحلقتُه ،  
فإذا حَلَفَ لي صدَّقته . وإنْ أبا بكرَ حَدَّثَنِي - وصدقَ أبو بكرَ - حَدَّثَنِي أن النبي  
صلى الله عليه قال : « ما من رجلٍ يُذنب ذنباً فيتوضأ فيُحسِن الوضوءَ ثم يصلي  
ركعتين ويستغفر الله إلا غُفِرَ له » .

الاترى كيف أوردته بالتصديق وقلة المهمة ، وأقامه مقام التقليد ورفع  
الاستراحة .

فهذا مذهب علي فيها وتعظيمها لها .

ثم الذي كان من تزويجه أم كلثوم بنت فاطمة بنت رسول الله صلى الله  
عليه ، من عمر بن الخطاب ، طائعاً راجياً ، وعمر يقول : إنى سمعت رسول الله  
صلى الله عليه وسلم يقول : « إنه ليس سبيل ولا نسب إلا منقطع ، إلا نسي » .  
قال علي : إنها والله ما بلغت يا أمير المؤمنين . قال : إنى والله ما أريد لها لذاك !  
فأرسلها إليه فنظر إليها قبل أن يتزوجها ؛ ثم زوجها إياه ، فولدت منه زيد بن  
عمر ، وهو قاتل سودان مروان ، فلما أتى النعمي أم كلثوم كمدت عليه حُزناً حتى  
ماتت ، وقالت : واحربها ! قتل أبوها علي بن أبي طالب ، وقتل زوجها عمر بن  
الخطاب ، وقتل ولدها زيد بن عمر .

ثم تسمية علي أولاده بأسمائهم ، كما يتبرك الرجل بأسماء أئمة وقادته ،  
حين سُمى بعمر وعثمان وأبي بكر ، فأعقب عمر ولم يُعقب أبو بكر وعثمان .

ثم الذي كان من قبوله ولاية عمر حين استخلفه على المدينة ، ومضى عمر  
مُعسكراً يريد جيش مهران بعد وقعة قُسِّ الناطف فاتاه عليٌّ إلى مُعسكره فأشار  
عليه فيمن أشار بأن الرأي أن يرجع إلى المدينة ولا يلقاهم بنفسه وحده ، بل  
يكون للمسلمين فيته . فرجع عمر .

ولمَّا أراد عمر بذلك تحريك النَّاس ليجُدُّوا ويعزموا .

فإن قالوا : هذا كله باطل ، أو قالوا : إن هذا الذي حكيتموه وإن كان  
حقاً فإنما كان على التُّخية . فقد قلنا في ذلك أجمع بالذي يكتفى به .

### [ ٦٦ - خلاصة آراء الشيعة والعمثانية ]

والمعجب أنهم يوجبون على النَّاس تصديقهم أن سلمان قال : « كَرَدَاذ  
وَنَكَرَدَاذ » وأنَّ الزُّبَيْرَ خَرَجَ شَادًّا بِسَيْفِهِ لِيُؤَكِّدَ إِمَامَةَ عَلِيٍّ ، وَأَنَّ الْأَنْصَارَ إِنَّمَا خَالَفَتْ  
عَلِيَّ الْمُهَاجِرِينَ نَقْضًا مِنْ اسْتِبْدَادِ أَبِي بَكْرٍ ، وَأَنَّ أَبَا سَفِيَانَ بْنِ حَرْبٍ ، وَخَالِدَ بْنَ  
سَعِيدٍ ، إِنَّمَا قَالَا : « أَرْضَيْتُمْ مَعْشَرَ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ أَنْ يَلِيَّ عَلَيْكُمْ تَيْمٌ » ، نَصْرَةً  
لِعَلِيِّ دُونَ جَمِيعِ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ، فَإِنَّ اللَّهَ رَدُّ عَلَيْهِ الشَّمْسُ ، وَإِنَّ النَّبِيَّ قَالَ :  
« أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى » ، وَجَعَلَ إِلَيْهِ طَلَاقَ نِسَائِهِ ، وَأَنَّهُ قَسَمَ  
النَّارَ ، وَصَاحِبَ الْعَرَضِ ، وَالْقَائِمَ عَلَى الْحَوْضِ ، فَيُوجِبُونَ عَلَيْنَا أَنْ نَصُدِّقَهُمْ فِي  
هَذَا وَلَا يُوجِبُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ لِحُمَالِ الْأَثَارِ أَنْ عَلَيْنَا قَالَ فِي الْحَقْلِيَّةِ وَالْبَرِيَّةِ ،  
وَالْبَائِنَةِ ، وَالْبَيْتَةِ ، وَطَلَاقِ الْحَرَجِ ؛ وَأَمْرُكَ بِبَيْتِكَ ، وَالْحَرَامِ ، أَنَّهُ كَسَلَاتُ  
تَطْلِيقَاتٍ . وَيُوجِبُونَ عَلَى طُلَّابِ الْحَدِيثِ أَنْ عَلَيْنَا كَانَ لَا يَرَى الطَّلَاقَ إِلَّا طَلَاقَ  
السُّنَّةِ .

وهذا أمر ما سمعنا به قط عن عليٍّ إلا منهم .

وليس بأعجب من استشهاد خصومهم العيان والإجماع وما عليه الوجود ،  
واستشهادهم القصد والضمير والغيب ، وجعلهم له يوازن الظاهر والشائع .

وذلك أن القائل إذا قال : أسلم أبو بكر كهلاً وأسلم عليٌّ طفلاً .

قالوا : كان عليّ وهو ابن سبع سنين أرجح عقلاً من أبي بكر وهو ابن إحدى وأربعين سنة . فتركوا العيان وعارضوا الشاهد بالغائب .

وإن قتال قائل : إن أبا بكر كان مع النبي في الغار وقد نطق به القرآن وثبتته الإجماع . قالوا : فإن علياً بأنه النبي على فراشه .

وإن قلت : إن النبي سُمي أبا بكر بالصديق تفضيلاً له ولم يجعل له اسماً يفضله به . قالوا : بلى ، قد كان النبي سُمي بالصديق الأكبر ، ولكن الناس منعه ذلك وظلموه ، حين لم يُسَيروهُ ويُشيعوه .

وإن قلت : إن النبي اشتكى أياماً وليالي ، كل ذلك يامر أبا بكر بالصلاة ، وهو حاضر ولا يأمره ، قالوا : لأن علياً كان مشغولاً بتمريضه .

وإن قلت : إن الناس لما افتتنوا بعد موت النبي وعظموا شأنه حتى دعاهم الإفراط إلى أن قالوا : لم يميت ، ولكنه يغيب مثل ما غاب موسى عن قومه . فكان أبو بكر هو المتكلم والمحتج والمحابي حتى عرفهم الحق وتنبهوا من الوسنة . قالوا : لأن علياً قد كان اشتد حزنه حتى قطعه عن الاحتجاج والتعريف .

فإن قلت : حين أظهروا الفرقة والذمار دارهم ، لو تركهم أبو بكر ولم يعرفهم فضل المهاجرين عليهم ، لكان في ذلك أشد الفتن وأكبر الفساد ، فعاجلهم وتجرّد للاحتجاج عليهم ، حين كان كل إنسان همهم نفسه ، وعليّ معزلاً حتى كأنه كان غائباً . قالوا : لأن علياً قد كان عرف حسد قريش وبعيها عليه ، وطاعتها وحبها لأبي بكر ، فلم يكن ليقدح في غير مقدح ، أو ينفخ في غير فحم .

فإن قلنا : إن إظهار عليّ الرضا بالشورى دليل على طاعة عمر . قالوا : إنما ذلك للتقية .

فإن قيل : فلم رضي بعبد الرحمن مختاراً وعبد الرحمن عنده من عدوه ، وأدى منازله أن يكون كان مخوفاً عنده ، وأدى من ذلك أن يكون الغلط غير

مامون عليه .

قلنا : وَهَلَّا أَظْهَرَ مِنَ الْخِلَافِ شَيْئاً يُسِيرُ إِلَيْنَا ، وَهَلَّا نَطَقَ بِحَرْفٍ وَاحِدٍ  
بَقَرْنَا مَا يَتَّخِذُهُ النَّاسُ بَعْدَ حُجَّةٍ ، وَلَمْ يَكُنْ بَلِغَ أَقْصَى خِلَافِهِمْ فُتْرَى وَعَيْدَاً أَوْ  
إِبْقَاعاً .

فإن قلت : إن علياً قال لأساء بنتِ عُمَيْسٍ - وهي يومئذ امرأته - حين  
تفاخر ولدها من أبي بكرٍ وجعفرٍ وعليٍّ عندهما : اقضي بيني وبينك . فقالت : ما  
رأيتُ شاباً كان أظهرَ من جعفرٍ ، ولا رأيتُ شيخاً كان أفضلَ من أبي بكرٍ ، وإن  
ثلاثة أنت أحسُّهم لفضلاءِ ! فلم يُنكر ولم يمتنع ، ولم يفرق ولم يتمعّب ،  
والكلام يُؤثر والقضية تظهر .

قالوا : إن فضله أظهرُ في الناس من أن يحتاج إلى الاحتجاج ، وإنما قالت  
ذلك مازحةً ، كما تمزح المرأة مع زوجها وتخرشُ به .

فإن قلت : إن علياً قد بايعَ أبا بكرٍ وأعطاه صفته طائعاً غير مكره والحكم  
السابق من الله ورسوله أن المدعى عليه إذا أقر ولم يُنكر ، ولم ير الوالي أثر جنونٍ  
ولا إكراهاً ، أن إقراره جائزٌ عليه ، فكذلك عليٌّ إذا كان قد بايعَ وليس على  
رأسه سيف ولا سوط ، فتحكمه حكم الراضي المسلم .

قالوا : قد كان هناك إكراهٌ ظاهر ، ولكن الناس تكاثموا وأخفوه فيما بيننا  
وبينهم ، إذ كان الجمهور الأكبر معهم .

فإن قلت : قد صدقناكم في قولكم إنه قد كان في تقيّةٍ من أبي بكرٍ وعمر  
وعثمان ، أرايتم أيامَ سلطانِ نفسه ومعه مائة ألفٍ سيفٍ تطيعه وأهل الأرض  
كلُّهم رعيته ما خلا الشام ، لم كان يُظهر تركيبةَ أبي بكرٍ وعمرَ على منبره وفي  
مجلسه ؟ .

قالوا : للتقيّة من رعيته ، إذ كان أكثرهم على هواهم وطاعتهم .

قلنا : قد عرّفنا أن تركه لعنهم والبراءة منهم والإخبار عن استبدادهم

وظلمهم ، على التقيّة ، فما حمّله على تزكيتهم والإخبار عن محاسنهم ، والرّواية  
الحسنة فيهم ، وقد كان له في السُّكوت سعة ، وعن الكلام مندوحة ؟ ! ولقد  
تعدّى في مديح أبي بكرٍ وعمرٍ حتى قال لابن طلحة : إنّي لأرجو أن أكون أنا  
وأبوك ممن قال [فيهم] الله : ﴿ إخواناً على سُررٍ متقابلين ﴾ .

وإن قلنا : إن في تسميته بنيه بأسمائهم دليلٌ على تعظيمه لهم .  
قالوا : لأنه قد كان علم أن شيعة سيحتاجون في آخر الزمان إلى الترحم  
على أبي بكرٍ وعمرٍ وعثمان ، تقيّة من شيعتهم ، فسُمي بنيه بأسمائهم ، حتى  
يكون ذلك الترحم واقعاً عليهم ، ولأنّ ينصبّ لهم من إذا قصدوا إليه بالترحم  
أصابوا الحقّ ولم يحتاجوا إلى اللطاط .

وإن قلنا : إنه زوّج عمرَ غير مُكره ، ولا شيء أدلُّ على الخاصّة والصفاء من  
المشاركة والمصاهرة .

قالوا : قد كان هناك توعدٌ وتخوفٌ ، وقد قال بعضهم : إن هذا باطلٌ وإن  
عليّاً لم يزوّج عمرَ قط . ونبئت عن بعضهم أنه قال : قد كان ذلك على التقيّة ،  
ولكن الله صانها فأخفاها ورفعها تحت كفيّتي *سوي*

فقيل له : فخبّرنا عن التي رأوها في منزل عمرٍ وعلى فراشه ، وولدت منه  
زيداً ، ما هي ؟ وأي شيء كانت ؟  
قال : شيطانة في صورة امرأة .

وإن قلت لهم : كيف زعمتم أنه كان أشدَّ أهل الأرض قلباً ، وأنتم  
تزعمون أنه كان يتقي كل شيء ، حتى يُسلم حرمة إلى كافرٍ من غير أن يُشهر  
عليه سيفٌ أو يُضرب بسوط . وقد رأينا من هو في دون حاله في النجدة  
والشجاعة ، والحبيّة والبصيرة ، يمتنع حتى يُقتل في دون هذا . وقد تعلمون أنه  
لم يُكلم ولم يُخدش ، فضلاً على أن يُجرّح ويُقتل ، في جميع المقامات التي زعمتم  
أنه إنما استجاز واستحل من التقيّة .

وأعجبٌ من جميع هذا أننا رأيناكم تزعمون أن أبا بكرٍ وعثمان كانا من أجبن البرية وأبعده من حمة ، وقد رأينا صنيع أبي بكرٍ في الردة كيف نهض بالقليل في محاربة الكثير ، وكيف أشاروا عليه بأن يستعين بجيش أسامة حتى إذا رَدَّ الردة أعاد الجيش إلى حاله . وكيف قال لهم حين قالوا له : إنا قد أمنا غزوة الروم إيانا في يومنا هذا ، ولسنا نأمن مع ارتداد جميع العرب أن تُغزى في عُقر دارنا ! قال : لو بقيت حتى يأكلني الكلابُ وحدي ما أخرت جيشاً أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإنفاذه .

ثم رأينا عثمان ، وهو عندكم أضعف من أبي بكرٍ وأجبن ، قد كان محاصراً معطشاً مخدولاً قد قهره عدوه ، والسيوف تلمع على بابه ، وقد أفضوا إلى داره ، وتسلفوا عليه من نخوته ، وهم يريدون نفسه أو خلع الخلافة من عنقه ، فصبر حتى قُتل كريماً محتسباً وهو يقول : لا أنزع قميصاً قمصنيه الله ! ، وهو يرى الجِدُّ وليس معه أمانٌ من قبله .

وقد يزعمون أن علياً قد كان يعلم أنه لا يُقتل ولا يموت حتى يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين ، ومع ذلك يزعمون أن الله قد كان أسراً إليه علم كل ما يحدث في هذه الأمة من الفتن والمهيج . وهذا لا يُشبه اتخاذه أبا موسى حكماً عليه وله ، مع غباء أبي موسى وعداوته كانت له ، ولا سيما إذا قرئته بعمرورين العاص ، وما ظنك برأي عمرٍو وقد كان فيه معونة .

### [ ٦٧ - جدل الشيعة والعثمانية حول صحة اسلام ابي بكر ]

ففي جميع ما قلنا دليل على أن القوم لم يكونوا مالكين لاهوائهم ، فإن قالوا : ما اللليل على إسلام أبي بكر فضلاً على تقديمه وتفضيله ومبايئته ؟ ومن أين لكم أن تزعموا أنه قد كان مسلماً وأنتم وخصومكم مجتمعون على أنه كان كافراً ، ثم ادعيتم أنه قد أسلم بعد كفره وأنكر ذلك خصومكم ، فليس لكم أن ترجعوا عما اجتمعتم عليه إلا بإجماع منكم يوازنه . وقد ينبغي أن

تطرحوا موضع الفِرقة وتفضوا بموضع الجماعة ، وقد جامعتونا أن علينا لم يزل مؤمناً .

قيل لهم : إنا لو كنا عرفنا أنه قد كان مرةً كافرًا من قبيلِ خبر أصحابنا ومجاعةِ خصومهم لهم ، وكان علمُ ذلك لا يُصاب إلا بمجامعتهم لأصحابنا ، لقد كان الذي قلتم واجباً وقياساً صحيحاً . ولكننا عَرَفْنَا أنه قد كان كافرًا بقدر من الخبرِ قد يكذب مثله ، وبه ثبت عندنا أنه قد كان في الدنيا ، فضلاً على أن يكون كان له فعلٌ يسمى كُفراً وإيماناً . وإنما الحجّة في المجيء الذي لا يكذب مثله ، ثم لا نلتفت بعد ذلك إلى موافق ولا إلى مخالف ، ولا إلى عقل ولا إلى نظر . ثم نظرنا فإذا الوجهُ الذي منه علمنا أنه قد كان في الدنيا ، منه علمنا أنه قد كان مرةً كافرًا ، و [ هو ] الوجهُ الذي منه علمنا أنه قد أسلم بعد كفره . ولو أنا عرفنا كفره بنا وبخصومنا ، لما عرفنا إيمانه إلا بنا وبهم .

ووجهُ آخرُ من الجواب : أنكم قد جامعتونا على أنه قد كان يشهد الشهادة ، ويأكل الذبيحة ، ويظهر الإسلام ، في حيثُ النفاقُ مستخفٍ وثوبُ الإسلامِ داجٍ ، والكفرُ ذليلٌ والإسلامُ عزيزٌ ؛ [ ثم ] ادعيتم بعد أن أقرتم أنه قد كان يُظهر الإسلامَ في دار الإسلام ، أنه كان مُستسيراً بالكفر ، وأنه كان من المؤلّفة قلوبهم .

فالواجب بالقياس أن يُحكّم له بالإسلام على ظاهر ما اجتمعنا عليه من جلته ، ولا ندعُ موضعَ الإجماع إلى قولكم وحدكم : إنه قد كان إسلامه على نفاق ، لأن الجماعة لا تنزل إلى فرقة ، ولأن الحجّة لا تُترك إلا بحجّة .

فإن قالوا : فإن أبا بكرٍ لم يشهد قطّ الشهادة ، ولا صلى [ إلى ] القبلة . قلنا : ما تقولون في رجلٍ رأيناه كافرًا في دار الكفر ، ثم رأيناه بعد ذلك في دار الإسلام وفي زيِّ أهله ، وحكم الإسلامِ غالٍ ، ومعلومٌ أن من عادة أهله قتلٌ من كفر ، كيف يكون حكمُ ذلك الرجل ؟

فإن قالوا : ولكننا نقف في مغيبه .

قلنا : اجعلوا أبا بكرٍ ذلك الرجل .

فإن قالوا : فإن أبا بكرٍ لم يزل يُظهر الكفر في دار الإسلام ، كما كان يظهر الكفر في دار الكفر .

قلنا : لا بدُّ لكفره من وجهين : إما أن يكون كان يظهره على عهدٍ وذمةٍ فلذلك لم تقتلوه . أو يكون كان على غير عهدٍ وذمةٍ .

فإن ادَّعوا أن كفره كان على عهدٍ وذمةٍ كما جعل الله ورسوله للنصارى وللإهود ، خرَّجوا إلى ما لا نحتاج مع فُحشه إلى الكلام فيه . وإن زعموا أنه كان على غير عهدٍ وذمةٍ وحكم الإسلام ظاهرٌ ، فما أشبه هذا القول بالقول الأول .

ويقال لهم : خبرونا عن أبي بكرٍ ، هل يخلو من أن يكون لم يقل قطُّ في دار الإسلام : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، أو يكون قد قال ذلك مرةً واحدةً ؟

فإن زعموا أنه قد قالها مرةً واحدةً ثم تركها ، قيل لهم : فقد أقررتم وجامعتم خصومكم على أنه قد شهد الشهادة ، فليس لكم أن تخرجوه إلى نفاقٍ أو إلى تركٍ ، إلا لمجامعة خصومكم لكم ، إذ كانت الفرقة لا تنقض الجماعة .

فإن قالوا : فإنه لم يقل لا إله إلا الله محمد رسول الله مرةً قطُّ من دهره ، لا على نفاقٍ ولا على غيره ، بل كان يظهر عبادة الأصنام ، ثم مع ذلك سلم على حكم الكتاب والسنة ، وعمل حكم الدار . فليس عندنا في ذلك إلا إسقاطه ومحريمٌ كلامه وإمضاء حكم مثله فيه .

بل قد ثبت إسلامه بعد الوجوه التي ذكرتها بوجوه :

منها أن الله أثنى على عباده الصالحين ، فخصَّ بتفضيله السابقين والمهاجرين الأولين ، وقد اجتمعت الأمة أنه من المهاجرين الأولين مع فضيلة هجرته ، إذ كانت هجرته وهجرة رسول الله صلى الله عليه معاً ، فهذا وجه .

ثم الذي رأينا من ذكر الله وثناؤه على أهل بدر . وقد أجمع المسلمون أنه كان ممن شهد بدرًا ، مع ما فضل به من الكون في العريش ، ولا موضع أدل على الخاصة من ذلك الموضع في ذلك الموقف ، مع ما شهد به من مستجيبه وعتقائه ومواليه . ولقد بلغ من قدر من شهد بدرًا أن عامة الفقهاء تحدث أن الله « أطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم ، فلذلك كان الحسن يقول : إن طلحة والزبير وعليًا في الجنة معًا وإن لم يكونوا كانوا في الدنيا ، لأنهم عتقوا الله من النار ، ولم يكن الله ليعتق عبداً ثم يعيده في رقه . ولذلك كان الحسن ، وحوشب ، وهاشم الأوقص ، ويكر ابن أخت عبد الواحد ، يقولون إذا ذكروا يوم الجمل : « هلكت الأتباع ونجت القادة » . فهذا هذا .

ثم الذي كان من ذكر الله وحسن ثناؤه على من بايع تحت الشجرة . وأي شيء أعجب من اجتماع السلف مهاجريها وأنصاريها خلا أربعة نفر على تقديم رجل في مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقضي في إشارهم وأشعارهم وفروجهم وأموالهم ، ويحمل أماناتهم ، ويدعونه خليفة رسول الله ، حتى ترك الشريف المطاع ذا السابقة والقدم وتولى مكانه الخامل القليل المقصر ، فلا يراد ولا يدافع ، ولا يُراجع ولا يستفهم ، وهو المعروف عندهم بجحد الرسول وعبادة الأوثان ، وليس بذي عشيرة منيعة .

ولا يستطيع أحد أن يزعم أنه قد كان واطأ العشائر ليصرفوا إليه عونهم على أن يؤثرهم ويفضلهم . ولو كان ذلك لظهر علمه ولم يخف أثره . ومثل هذا لا يستطيع كتمانته وستره وتزويله .

وكيف وقد سوى بين الرفيع والوضيع ، والدليل [ و ] المنيع !؟ فلم يؤثر قريباً ولم يول نسيباً .

ولو استعان بطلحة وولاء وفضله لقد كان لذلك موضعاً ، وللولاية والتقديم أهلاً ، بل صنع ضد ما يصنفه أصحاب الميل والأثرة ، والعصبية والمواطاة .

ولو كان قريبَ القرابة لجاز لقاتل أن يقول : إنما قُدم لقرابته .

ولو كان عصبيةً لقالوا : إنما استحقَّ بورائه .

ولو كان منيعَ الرهط لقالوا : إنما قُدم لكثرة قبيلته .

ولو كان استعانَ بقومٍ على مواطأةٍ وشريطةٍ ، كصنيع معاوية بندي الكلاع وعمرو بن العاص ، لقالوا : إنما قُدم رهبةً ممن واطأه ، ورغبةً فيمن أكدَّ هواه .

[ و ] ولي بني مخزومٍ أعناقُ العربِ وقِتالُ أهل الرِّقة ، وحرب مسيلمة ومخارية طليحة ، دون رهطه ولو ولي ذلك طلحةً لكان لذلك أهلاً ، ولكن الطاعن قد كان يهد سبياً .

وكذلك عمرُ بن الخطاب لو كان أدخل في الشورى سعيد بن زيد كما كُلم في ذلك ، وأدخل في الرُّقباء عبد الله بن عمر كما كُلم في ذلك ، لكان لذلك أهلاً ، ولكن الطاعن قد كان يهد متعلقاً .

وولي خالد بن الوليد حربٌ مسيلمةً وطليحةً وبني نعيم وأهل البادية ، وولي عكرمة ردة عُمان ، وولي المهاجر بن أبي أمية ردة أهل نَجِيرِ واليمن . وما زال عمر يعاتبه في خالدٍ فيقول أبو بكر : « لا أشييمُ سيفاً سلَّه الله على الكُفَّار » . فهذا هذا .

والمعجب لهذه الأمة كيف اختلفت في رجلين أحدهما خير خلق الله ، والآخر شرُّ خلق الله . وكيف اختلفت في رجلين أحدهما لم يزل مؤمناً والآخر لم يزل كافراً ، ثم كان المقدم الحسيس الكافر ، على الرفيع المسلم ! [ وهم ] أصحاب القرآن وخاصة الرسول من الصحابة والبدرين والأنصار والمهاجرين ، وهم الذين قالَ فيهم التابعون : خير هذه الأمة أصحابُ محمد صلى الله عليه ! ابتلوا فصبروا ، وأنعمَ عليهم فشكروا .

والمعجب كيف رأوا تفضيل عليٍّ على أبي بكرٍ وعمر مديحاً له . وإنما كان

يكون عليّ عالياً رفيعاً متقدماً زاهداً عالماً سائساً أن لو كان أفضل من فضلاء ،  
وأعلم من علماء ، وأعقل من عقلاء ، وأزهد من زهاد ، وأسوس من ساسة .  
فأما أن يكون أفضل من أنقص الناس ، وأزهد من أرغب الناس ، وخيراً من  
شرّ الناس ، وأعلم من أجهل الناس ، فليس في هذا التفضيل ذرّك فيتكلّفه  
متكلّف ، ويقوم به قائم .

والعجب من رجلين بينهما هذا التفاوت والتباين ثم شهد المتكلمين من  
سمعهما يتنازعان فيهما ، فيحسب الحاضر أن شرهما خيرهما ، وهو الأريب الأديب  
الذاهب مع التعارف عن التناكر . وكيف التبس الأمر وأشكل أن لم يكن الأمر  
مشكلاً ملتبساً .

وكيف يجوز أن يكون أبو بكر لم يزل كافراً ، أو يكون كفره بجحده إمامة  
علي وكفر معه المهاجرون والأنصار، وقد أجمع أصحاب الأخبار وحمال الآثار أن  
النبي صلى الله عليه قال : « إن من أمّتي سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير  
حساب » ، فقام عكاشة بن محصن فقال : يا رسول الله ، دع الله يجعلني منهم .  
قال : أنت منهم . فقتل مع خالد بن الوليد يوم بُزّاعة في إمرة أبي بكر وطاعته  
والإقرار بخلافته ، قتله طليحة بن حويلد الأسدي . فكيف يجوز أن تكون إمامة  
أبي بكر معصية فضلاً على أن تكون كفراً والمقتول في طاعته والمنقاد لأمره من أهل  
الجنة .

ثم تزعم الروافض أن من الدليل على أن علياً كان المحقّ دون طلحة  
والزبير ، أن النبي صلى الله عليه [ قال ] وذُكر زيد بن صوحان : « زيد وما  
زيد ! يسبقه عضوّ منه إلى الجنة » . فقتل يوم الجمل . فجعلوا الدليل على  
صواب عليّ في قتاله أن زيدا قُتل في طاعته .

قيل لهم : ففي قول النبي « يسبقه عضوّ منه إلى الجنة » دليل أن ذلك  
العضو لم يسبق إلى الجنة إلا وقد قطع في طاعة الله . وقد اجتمعوا أن يده قُطعت  
يوم نهاوند ، في طاعة عمر .

وهذا بابٌ كبيرٌ إن تَبَّعَهُ مَتَّبِعٌ ، وَلَكِنَّا أَرَدْنَا أَنْ نَذُلَّ عَلَى جَمِيعِ الْأَبْوَابِ فِي تَفْضِيلِ الشَّيْخِينَ ، وَتَفْيِ التَّنْقِصِ عَنْهَا .

[ ٦٨ - العامة لا تصلح لاقامة الامام ]

وان سأل سائل : هل على الناس ان يتخذوا اماماً وان يقيموا خليفة ؟

قيل لهم : إن قولكم « الناس » يحتمل الخاصة والعامة . فإن كنتم قصدتم إليهما ، ولم تَفْصِلُوا بَيْنَ حَالِيهِمَا ، فَلِئِنْ نَزَعْنَا أَنَّ الْعَامَّةَ لَا تَعْرِفُ مَعْنَى الْإِمَامَةِ وَتَأْوِيلَ الْخِلَافَةِ ، وَلَا تَفْصِلُ بَيْنَ فَضْلِ وَجُودِهَا وَنَقْصِ عَدَمِهَا وَلَا يُّ شَيْءٍ ارْتَدَّتْ وَلَا يُّ أَمْرٍ أُمِّتَتْ ، وَكَيْفَ مَاتَاهَا وَالسَّبِيلُ إِلَيْهَا . بَلْ هِيَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ تَهَبُّ ، وَنَاشِئَةٌ تَنْجُمُ ، وَلَعَلَّهَا بِالْبَطْلِينَ أَقْرَبَ عَيْنًا [ مِنْهَا ] بِالْمُحَقِّينَ .

وَأَمَّا الْعَامَّةُ أَدَاةٌ لِلْخَاصَّةِ ، تَبْتَدِلُهَا لِلْمُهَنِّ ، وَتَرْجِي بِهَا الْأُمُورَ ، وَتَطُولُ بِهَا عَلَى الْعَدُوِّ ، وَتَسُدُّ بِهَا الثُّغُورَ . وَمَقَامُ الْعَامَّةِ مِنَ الْخَاصَّةِ مَقَامُ جَوَارِحِ الْإِنْسَانِ مِنَ الْإِنْسَانِ ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا فَكَّرَ أَبْصَرَ ، وَإِذَا أَبْصَرَ عَزَمَ ، وَإِذَا عَزَمَ تَحَرَّكَ أَوْ سَكَنَ وَهَدَأَ بِالْجَوَارِحِ [ دُونَ الْقَلْبِ ] وَكَمَا أَنَّ الْجَوَارِحَ لَا تَعْرِفُ قَصْدَ النَّفْسِ وَلَا تَتَرَوَى فِي الْأُمُورِ ، وَلَمْ يُخْرِجْهَا ذَلِكَ مِنَ الطَّاعَةِ لِلْعَزْمِ ، فَكَذَلِكَ الْعَامَّةُ لَا تَعْرِفُ قَصْدَ الْقَادَةِ وَلَا تَدْبِيرَ الْخَاصَّةِ ، وَلَا تَتَرَوَى مَعَهَا ؛ وَلَيْسَ يُخْرِجُهَا ذَلِكَ مِنَ طَاعَةِ عَزْمِهَا ، وَمَا أَبْرَمَتْ مِنْ تَدْبِيرِهَا .

وَالْجَوَارِحُ وَالْعَوَامُّ وَإِنْ كَانَتْ مَسْخُورَةً وَمَسْدُورَةً فَقَدْ تَمْتَنِعُ لِعَلِّ تَدْخُلُهَا ، وَأُمُورٌ تَصْرِفُهَا ، وَأَسْبَابٌ تَنْقُضُهَا ، كَالْيَدِ يَعْزِضُ لَهَا الْفَالِجُ ، وَاللِّسَانُ يَعْثَرِيهِ الْحَرَسُ ، فَلَا تَقْبِرُ النَّفْسُ عَلَى تَسْدِيدِهَا وَتَقْوِيمِهَا ، وَلَوْ اشْتَدَّ عَزْمُهَا وَحَسُنَ نَأْتِيهَا وَرَفَقَتْهَا . وَكَذَلِكَ الْعَامَّةُ عِنْدَ نَفُورِهَا وَتَهْيِيجِهَا وَغَلْبَةِ الْمَوَى وَالسُّخْفِ عَلَيْهَا ، وَإِنْ حَسُنَ تَدْبِيرُ الْخَاصَّةِ وَتَعَهَّدَ السَّاسَةُ . غَيْرَ أَنَّ مَعْصِيَةَ الْجَارِحَةِ أَيْسَرُ ضَرُورًا وَأَهْوَنُ أَمْرًا ، لِأَنَّ الْعَامَّةَ إِذَا انْكَفَتْ بِالْخَاصَّةِ وَتَنَكَّرَتْ لِلْقَادَةِ ، وَتَشَرُّنَتْ عَلَى الرَّاضَةِ كَانَ الْجَوَارِحُ الَّذِي لَا حِيلَةَ لَهُ ، وَالْفَنَاءُ الَّذِي لَا بَقَاءَ مَعَهُ .

وصلاح الدنيا وتمام النعمة ، في تدبير الخاصة وطاعة العامة ، كما أن كمال المنفعة وتمام ذرّك الحاجة بصواب قصد النفس وطاعة الجارحة ، لأنّ النفس لو أدركت كلّ بُغية ، وأوفت على كلّ غاية ، وفتحت كلّ مستغلق ، واستثارت كلّ ذفين ، ثم لم يُطعمها اللسان بحسن العبارة ، واليد بحسن الكتابة ، كان وجود ذلك المستنبت - وإن جلّ قدره وعظّم خطره - [ وعدمه ] سواء .

فالحاضرة تحتاج إلى العامة كحاجة العامة إلى الخاصة . وكذلك القلب والجارحة . وإنما العامة جنة للدفع ، وسلاح للقطع ، وكالترس للرامي ، والفأس للنجار . وليس مضيّ سيف صارم بكفّ امرئ صارم بأمضى من شجاع أطاع أميره وقلّد إمامه ! وما كلب أشلاه ربّه واحمسه كلابه ، بأفرط تنزقاً ولا أسرع تقدماً ، ولا أشدّ تهوراً ، من جنديّ أغراه طمعه ، وصاح به قائده .

وليس في الأعمال أقلّ من الاختيار ، ولا في الاختيار أقلّ من الصواب ، فلباب كلّ عمل اختياره ، وصفوة كلّ اختيار صوابه ، ومع كثرة الاختيار يكثر الصواب . فأكثر الناس اختياراً أكثرهم صواباً ، وأكثرهم أسباباً موجبة أقلّهم اختياراً ، وأقلّهم اختياراً أقلّهم صواباً .

فإن قالوا : فقد ينبغي للعوامّ ألا يكونوا مأمورين ولا منهيين ، ولا عاصين ولا مطيعين .

قيل لهم : أمّا فيما يعرفون فقد يطيعون ويعصون .

فإن قالوا : فما الأمر الذي يعرفون من الأمر الذي يجهلون ؟

قيل : أمّا الذي يعرفون فالتنزيل المجرد بغير تأويله ، وبجملّة الشريعة بغير تفسيرها ، وما جلّ من الخبر واستفاض ، وكثر تردّده على الأسماع ، وكثوره على الأفهام . وأمّا الذي يجهلون فتأويل المنزّل ، وتفسير المجمال ، وغامض السنن التي حملتها الخواصّ عن الخواصّ من حملة الأثر ، وطلاب الخبر ، مما يتكلّف معرفته ويتبّع في مواضعه ، ولا يحجم على طالبه ولا يقهر سمع القاعد عنه .

والخبير ، خبيران : خبيرٌ للخاصة فيه فضلٌ على العامة ، كالمصلوات الخمس ، وصوم رمضان ، وغسل الجنابة ، وفي المائتين خمسة . وخبيرٌ تفضل فيه الخاصة العامة ، وهو كما سنَّ الرسول في الحلال والحرام ، وأبواب القضاء والطلاق ، والمناسك ، والبيوع ، والأشربة ، والكفارات وأشباه ذلك .

وبابٌ آخر يجهله العوامٌ ويخبط فيه الحشو ، ولا تشعر بعجزها [ لا ] موضع دأئها . ومتى جرى سببه أو ظهر شيء منه تسنمت أعلاه ، وركبت حومته ، كالكلام في القدر والتشبيه ، والسعد والوعيد ، لأنها قد تحجم [ عن ] دعوى الفتيا ، ولا تنهات فيها ، [ ولا ] تتسكع فيما لا يعرف منها ، ولا تستوحش من الكلام في [ التعديل والتجويز ، ولا تفرغ من الكلام في ] الاختيار والطباع ، وبجاء الأخبار وكل ما جرى سببه من دقيق الكلام وجليله في الله وفي غيره .

ولو برز عالمٌ على جادة منجٍ وقارعة طريق ، فنازع في النحو واحتج في العروض ، وخاض في الفتيا ، وذكر النجوم والحساب ، والطب والهندسة ، وأبواب الصناعات ، لم يعرض له ولم يفتحه إلا أهل هذه الطبقات .

ولو نطق بحرفٍ في القدر حتى يذكر العلم والمشية ، والاستطاعة والتكليف ، وهل خلق الله الكفر وقدره ؟ أو لم يخلقه ولم يقدره لم يبق حمالٌ أغثر ولا [ بطل ] غث ، ولا خاملٌ غفل ، ولا غبيٌّ كهام ، ولا جاهلٌ سفيه ، إلا وقف عليه ولاخاء ، وصوبه وخطاه ؛ ثم لم يرض حتى يتولى من أرضاه ، ويكفر من يخالف هواه . فإن جراه محق ، أو أغلظ له واعظ ، وأتفق أن يكون بحضرته أشكأه ، استغوى أمثاله فأشعلوها فتنة ، وأضرموها ناراً .

فليس لمن كانت هذه صفته أن يتخيز مع الخاصة . مع أنه لو حسنت نيته لم تحتمل فطرته معرفة الفصول وتمييز الأمور .

فإن قالوا : ولعلمهم لا يعرفون الله ورسوله كما لا يعرفون عدله من جوره ، وتشبيهه بخلقه من نفى ذلك عنه ، وكما لا يعرفون [ القرآن و ] تفسيره ،

وتأويل منزله .

قيل لهم : إن قلوب البالغين مسخرة لمعرفة رب العالمين ، وعمولة على تصديق المرسلين ، بالتنبيه على [ مواضع ] الأدلة ، وقصر النفوس على الروية ، ومنعها [ عن ] الجولان والتصرف ، وكل ما ربت عن التفكير وشغل عن التحصيل ، من وسوسة أو نزاع شهوة ؛ لأن الإنسان ما لم يكن معتوهاً أو طفلاً فمحبوج على السنة المرسلين عند جميع المسلمين ، ولا يكون محجوجاً حتى يكون عالماً بما أمر به ، عارفاً بما نهي عنه ، لأن من لم يعلم في أي الضربين سُخط الله وفي أي النوعين رضاه ، ثم ركب السخط أو أتى الرضا ، لم يكن ذلك منه إلا على الاتفاق . وإنما الاستحقاق مع القصد ، والله يتعالى أن يعاقب من لم يرد خلافه ولم يعرف رضاه ، أو يتمد من لم يعتمد رضاه ولم يقصد إليه .

ولم يكن الله ليعدل صنعته ويسوي أداته ، ويفرق بينه وبين المنقوص في بنيته وتركيبه ، إلا ليفرق بين حاله وحال الطفل والمعتوه . وليس للمعرفة وجه إلا لتبصيره وتخييره ، ولولا ذلك لم يكن للذي خص به من الإنابة ، وتعديل الصنعة ، وإحكام البنية معنى . والله يتعالى عن فعل ما لا معنى له .

وفي قول الله : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ دليل على ما قلنا .

وليس لأحد أن يخرج بعض الجن والإنس من أن يكون خلقاً للعبادة إلا بحجة . ولا حجة إلا في عقل ، أو كتاب ، أو خبر .

فإن قالوا : فإن كان الله إنما أبانهم بالتعديل والتسوية للعبادة والاختيار مع الأمة فحكمهم حكم المسلمين المتعبدين . وإنما الإمام إمام المسلمين والمتعبدين .

قلنا : إنما يلزم الناس الأمر فيما عرفوا سبيله ، وليس للعوام خاصة معرفة بسبيل إقامة الأئمة فيلزمها أمر ، أو يجري عليها نهي .

والعامة وإن كانت تعرف جمل الدين بقدر ما معها من العقول فإنه لم يبلغ

من قوّة عقولها وكثرة خواطرها أن ترتفع إلى معرفة العلماء، ولم تبلغ من ضعف عقولها أن تنحط إلى طبقة المجانين والأطفال .

وأقدار طبائع العوامّ والخواصّ ليست مجهولةً فنحتاج إلى الإخبار عنها بأكثر من التنبيه عليها ، لأنكم تعلمون أنّ طبائع الرُسل فوق طبائع الخلفاء ، وطبائع الخلفاء فوق طبائع الوزراء ، وكذلك النّاس على منازلهم من الفضل ، وطبقاتهم من التركيب في البخل والسّخاء ، والبُلدة والذّكاء ، والغدر والوفاء ، والجبن والنّجدة ، والجسّع [ والصبر ] والسّطيش والحلم ، والكبر والتّيّه ، والحفظ والنسيان ، والعمي والبيان .

ولو كانت العامّة تعرف من الدّين والدّنيا ما تعرف الخاصّة كانت العامّة خاصّة ، وذهب التفاضل في المعرفة ، والتّباین في البنية . ولو لم يُخالف بين طبائعهم لسقط الامتحان وبطل الاختبار ، ولم يكن في الأرض اختيار . وإنما خولف بينهم في الغريزة ليصبر صابر ، ويشكر شاكر ، وليتفقوا على الطّاعة . ولذلك كان الاختلاف هو سبب الائتلاف .

ويقال لهم عند ذلك : إنكم قد أكثرتم في أمر العوامّ ، وخلطتم في الحكم عليهم ، فمرة تزعمون أنا نكذب عليهم حين نزعهم أنهم غير محجوجين ، لأنهم يزعمكم لا يفصلون بين الأمور ، ولا يفرقون بين الكاذب المحتال وبين الصادق المحقّ . وجعلتم الدليل على ذلك أنّكم اعترضتموهم بزعمكم فسألتموهم عن الدليل والحجّة ، والفرق والعلة ، فلم تجدوهم يشعرون بما يلزم فيها ولا يعرفون بابها ، وكيف الكلام فيها . وأنا معشر أصحاب المعرفة قد تعمّدنا الكذب عليهم ، حين زعمنا أنهم يعرفون ذلك ، ويفرقون بين معانيه . ومرة تزعمون أنهم يعرفون ما يعرفه الخواصّ والعلماء ، ويعلمون ما يعلمه المتكلمون والفقهاء ، من إقامة الأئمة وعقد الخلافة . فمرة تخرجونهم من جميع المعرفة ، ومرة تجعلونهم في غاية المعرفة وأعدّل الأمور في ذلك وأقسطها أن تزعموا أنهم يعرفون جمل الشرائع الظاهرة الجليّة ، وجمل السنن الواضحة المستفيضة ، ويجهلون تفسير

جملها وتاويل مُترُها ، وكل منصوص لم يظهر كظهور الحج ، ولم يُشهر كشهرة صوم رمضان ، وغسل الجنابة ، وتحريم الخمر والخنزير والميتة والدم .

ولكن دَعُونَا جانباً ، واضربوا عمًا نقولُ صَفْحًا ، وقربوا جميع القولين لتعاون عليهما ، فأيهما كان أثبت على الامتحان ، وأنفى للقلبي ، وأحسن مَغزَى ، وأجدُّ على الأيام ، وأصعُّ على التقلب ، دِنًا به ، وحامينا عليه ، وتقربنا به ، وأثرناه على ما سواه .

على أنا لا نستملحُ حَقُّ ذلك وصدقه إلا منكم ، ولا نحتجُ عليكم إلا بما تقرُّون به على أنفسكم .

خبرنا عن العوام : هل يخلو أمرهم من أن يكونوا محجوجين أو غير محجوجين ؟ فإن كانوا غير محجوجين فقد دخلوا في أكثر مما عابوا . وإن كانوا محجوجين فهل تخلو الحججة التي بها قطع الرسولُ عُذرهم من ضريين : إما أن تكون المعرفة بصدق الرسول وفضل ما بينه وبين المتنبئ كما نقول . وإما أن تكون الحججة في الدليل على المعرفة ، وليست بالمعرفة .

فإن زعموا أن الحججة هي المعرفة فقد وافقوا وأصابوا . وإن زعموا أنها الدليل على المعرفة فليخبرونا عن ذلك الدليل ما هو ؟

فإن قالوا : هو كلام الذئب وحنين العود ، وإظلال الغمامة ، وقصة الميضاة ، وحدُّ الشجرة ، وكلام اللراع ، وعجز الشعراء عن تأليف القرآن ، والبشارات برسالته في الكتب .

قلنا : قد صدقتم فيما ذكرتم من هذه الآيات والأعاجيب ، ولكن [ لا ] تخلو عقولُ العوام من أن تكون قد عرفت هذا كله وأقرت به ، أو لم تعرفه ولم تقر به ، ولم تُودع العلم بصحة مجيئه .

فإن زعموا أنها لم تعرف ذلك ولم تُقرر به ، قيل لهم : فمن أين زعمتم أن الحججة لهم قاطعة ، والفريضة لهم لازمة ، ولم يعرفوا الحق ولا الدليل عليه .

وإذا كانت المعرفة لا تُستطاع إلا بالدليل ، والدليل معدوم ، والتكليف لازم ، فقد كُلفوا ما لا يستطيع ، ولم يَضِح الكلام بيننا وبين الجبرية .

وإن كان الله قد قرّر عقولهم بالآيات ، وعرفهم صدقها وصحة مجيئها ، فإنما الفرق بيننا وبينهم أننا نزعم أن العاقل إذا كان قد جرّب بعض التجربة أنه لا يمتنع من تصديق من أحيا الموت ، وأبرأ الأكمه ، وفلق البحر ، وأنطق السباع . وأنتم تزعمون أنه يمتنع ، ويجوز أن يعتقد أنه أكذب العالمين وأبطل المبطلين ، مع ما أراه من عظيم البرهان وعجيب الآيات . ولعل قوم موسى كلما زادهم موسى آية وأردفها بعلامة ، ازدادوا جهلاً بصدقه ، واستبصاراً في تكذيبه .

وكيف يستطيع ذلك من صحت فطرته ، وقد جرّب من أمور الدنيا بعض التجربة ، وعرف ما يحدث في العادة وغير العادة .

وإن كانت العامة قد قرّرت بأعلام الأنبياء ، وعرفت الآيات كما زعمتم ، فقد كان ينبغي لنا إذا سألناهم عن صدقها وصحة مجيئها وإن لم تفصل بينها وبين حيلة المبطل ، أن يجبرونا عنها وينزلوا لنا أمرها . فما بالنا إذا سألناهم لم نرهم يعرفونها ، ولا يحصلون مجيئها ، ولا يجبرونا عن صدقها .

فإن كان لكم أن تقضوا على العامة بالجهل بين النبي والمنتبي ، لأنهم لم تروهم يحسنون الفروق ، ويفصلون بين الأمور ، فقد ينبغي لنا أيضاً أن نقضي عليهم بالجهل ، وأنهم لم يعرفوا الدلالة ، ولم يقرروا بشيء من الآيات والأعاجيب .

فإذا كان القوم عندكم محجوجين قد قرّروا وعرفوا ، ونحن لا نجد عندهم على المسألة من ذلك شيئاً ، وجاز لكم أن تزعموا ما زعمتم ، فلم لا يجوز لنا أن نزعم أنهم [ كانوا ] عارفين وإن لم نجد ذلك عندهم على المسألة .

ولولا أني قد ذكرت هذا الباب مفسراً في « كتاب المعرفة » لأخبرت من أي جهة جاز أن يكون بعض المارقين لا يجبر عن كل ما في نفسه ومن أين امتنع ذلك عليه .

[ ٦٩ - تكليف الخاصة باقامة الامام ]

فإن قالوا : قد فهمنا قولكم في العامة فيما تقولون في الخاصة ؟ فهل كلفها الله ذلك أم لم يكلفها كما لم يكلف العامة ؟ وفي ذلك سقوط التكليف عن الجميع .

قلنا : بل نقول : إن على الناس إقامة الإمام ، نريد الخاصة ولا نقول أيضاً إن على الخاصة إقامة الإمام إلا على الإمكان .

فإن قالوا : وما سبب عجز الخاصة وإمكانها ؟ .

قلنا : من ذلك أن تكون العامة عليها مع جند الباغي المتغلب .

فإن قالوا : فهل يلزمها فرض الإقامة إذا كانت العامة كافة عن العون عليها .

قلنا : قد يلزمها في ذلك ولا يلزمها في أخرى .

وإن قالوا : ففي أية الحالين يلزمها ؟

قلنا : إذا كان المستحق للإمامة والمستوجب للخلافة معروف الموضع ، مكشوف الأمر ، وكانت التقيّة عنها زائلة .

فإن قالوا : وكيف لا تكون التقيّة عنها زائلة ، وهي على حال أكثر عدداً من جند المتغلب والباغي ، والعامة كافة ممسكة لها ولا عليها .

قلنا : إنه ليس في حال أكثر عدداً . فإذا كانوا أكثر عدداً وكانت التقيّة زائلة ، فعليهم إقامته .

فإن قالوا : فلم جعلتم لهم التقيّة ، وأسقطتم عنهم الفرض في الحال التي هم فيها أكثر عدداً؟

قلنا : لأسباب ، منها أن العدو إذا كان معدداً ، ذا سلاح وعتاد وكراع ،

وكانوا على هيئة وأمرهم جميع ، فقليلٌ مجتمع أكثر من كثيرٍ نثر . مع أن معهم  
أنفذ السلاخين ، وأوفر العتادين : الضرا والدربة ، وحسن التدبير والمعرفة ،  
بطول الممارسة وكثرة الحاجة .

ومنها أن الخاصة وإن عرفت موضع المستحق ، وظهر لها المستوجب ،  
وكانوا أكثر جهاحاً ، فكل واحد منهم على ثقة من محل صاحبه به ويخذلانه له .  
ولا بد ، ما دامت التقية ، من التواكل والتخاذل ، وإن اتفق رأي الجميع في  
الغيب على النصرة . وليس يُتفَعُ باتِّفاق أهوائهم ما لم يتشاعروا .

فإن قالوا : إن كان الأمر كما تصفون وجب ألا يقيموا إماماً أبداً ؛ لأنهم  
كما لا ينفكون من التقية ، كذلك لا ينفكون من التخاذل .

قلنا : ليس الأمر كما تقولون ، لأن تقية بعض الخاصة لبعض قد تزول  
بأسباب كثيرة : منها أن تسوء بيرة المتسلط الباغي فيهم ويفحش جورُهُ ، ويكثر  
تعذيله واستثاره وقهره ، حتى يكون ذلك إخراجاً لهم وسبباً للكلام والشكاية  
والتلاقي ، لأنهم قد عُمُوا بالإخراج معاً ليكون كل واحدٍ من المخرجين يتكل  
على رأي صاحبه ، لعلمه بالذي لقي من المكروه الذي هو فيه ، من ثوران  
النفس وتهيج الطبيعة . فلا يزال بهم ذلك حتى يتفقوا في الظاهر كاتفاقهم في  
الباطن ، إذ كان الإخراج قد شملهم وعمهم ، وبلغ أقصاهم بعد أدناهم .  
وعند التلاقي تزداد النفوس حيةً وغضباً وبصيرة . فإذا تبأثوا وتكاشفوا وشاع  
ذلك من شأنهم ، وشهر من أمرهم ، علموا أن ذلك قد ظهر لعدوهم ،  
والتسلط عليهم . فإذا علموا ذلك علموا أنهم قد لحجوا في الحرب ، ونشئوا في  
المناصبة . فإذا علموا ذلك لم يجدوا بداً من بذل المال ، وإعطاء الجهد . وإنما هي  
أسباب ترامي ، وعلل تداعى ، وأمور تهيج أموراً ، وأسبابٌ توجب أفعالاً ،  
فعند ذلك تمكن الشدة ، ويحب الفرض . ومدار الأمر على الإمكان ، فمق بطل  
بطل الفرض ، ومق وجد وجد الفرض .

وربما كان سبب تكاشفهم ما يعرفون من ضعف جُند الباغي عليهم ،

والمستبد عليهم بأمرهم .

ولضعفهم أسباب : فربما كان لاختلاف يقع بينهم ، وربما كان لعدو يدهمهم وينازعهم ملكهم ، وربما كان للخلل يدخل عليهم ، والبرقة نصيبهم ، من موت أعلامهم . أو قتل قوادهم ، وربما كان لضعف رأي مدبرهم وسياسة سائسهم ، أو موت قيمهم .

فيهذا وأشباهه تتكاشف الناس ، وتظهر على ألسنتهم ضمائرهم ، وتبدو أسرارهم ، ونفوسهم من قبل ذلك جنة عليهم ، متدبنة بخلعهم والاستبدل بهم ، وإنما أمسكت عن الإنكار وأظهرت التسليم ريثما تجد فرصة وترى خلة ، ويستجمع الأمر ، وتزول الثقة . مع أنا نعلم أن العامة أسخف أحلاماً وأخف حركة ، وأشد طيشاً ، أن تؤثر الكف والعزلة والتسليم والمجانبة ، عند حرب المحققين والمتسلطين . ولو كانت تطبق ذلك ويجوز عليها ما كانت العامة بعامة ، ولكانت العامة خاصة . ولكننا أجبنا على قدر مجرى المسألة .

وإنما البلية العظمى والذاهية الكبرى ، أن تمتاز العامة حتى يصير بعضها مع الخاصة ، وبعضها مع البغاة والظلمة .  
والجملة أنهم متى أقرنوا لعدوهم وأمكنهم منهم ، والرجل المستحق ظاهر لهم معروف عندهم ، فعليهم إقامته والدفع عنه .

[ ٧٠ - معرفة الامام ]

فإن قالوا : ومن لهم بمعرفة الرجل الذي لا بعته ؟

قيل : إنه ليس على الناس أن يصنعوا المعرفة ، وإنما عليهم إذا عرفوه واستطاعوا إقامته أن يقيموه . ولا بد للناس أن يقوم فيهم - إذ فرض ذلك عليهم - رجل يصلح لجباية خراجهم ، وإقامة صلاتهم ، وسد ثغورهم وتنفيذ أحكامهم .

فإن قالوا : فكيف تعرفون فضلَه ولم تقابلوا بينه وبين غيره ، وأهل الفضل  
كثير ، والفضل ممنون مستفيض ؟

قيل : كما بانَ عند المعتزلة عمرو بن عُبيد ، وكما بان الحسن بن حَيٍّ عند  
الزُّبَيْدِيَّة من بينها وكما بان مِرْدَاس بن أَدِيَّة عند جميع الخوارج من بينهم ، وكما  
علمتم من حالِ غَيْلان بدمشق ، وحال عبد اللّهِ بن المبارك بخراسان . وليس أن  
المعتزلة اجتمعت من أقطار الأرض فقالت نَعَمْ جميعها ، ولا وضعت فيه سُورَى ،  
ولا تساوى منهم نفرٌ فاحتاجوا إلى القرعة . وكذلك الزُّبَيْدِيَّة في الحسن بن حَيٍّ ،  
والخوارج في مِرْدَاس بن أَدِيَّة . ولكن الأمور تَرِدُ على القلوب ، وتهجُم على  
العقول على طول الأيام ، [ إمَّا بالخبر ] الذي يَشْفِي من الشك ويبرئ السقم .  
وإمَّا بالعيان الذي يُلْج الصدور ويضطرُّ العقول .

وقد علمنا نحن على حداثة أسناننا وتقادُم الناس قبلنا ، أن جالينوس قد  
كان بائناً في طبه ، وأن الأرسطاطاليس كان البائن في المنطق .

وكذلك علمنا أن قيس بن زهير كان داهية قيس في الجاهلية ، وأن  
الحارث بن ظالم كان فاتكها ، وأن هرم بن سنان كان جوادها ، وأن النابغة كان  
شاعرها ، وأن الحارث بن كلدة كان أطبها ، وأن عامر بن الطفيل كان أفرسها .  
ولم نَضِعْ قط في هذا سُورَى ، ولا وَضَعَه من كان قبلنا ، ولا استجمعت قيسُ  
فقابلت بين خصال هؤلاء وبين جميع قيس ، لتعرف الفضيلة بالموازنة والمقابلة ،  
ولا احتاجوا في ذلك إلى الإقراع والمساهمة .

وإذا كنّا مع تقادم الأخبار نعرف البائن في كل عصر ، والمقدّم في كل  
أمر ، فعلى شبيه ما وصفنا يعرف الناس فضيلة المستوجب . والخير لا يستطاع  
كتمانهُ ، والشّر لا بد من ظهوره .

واعلم أنه لا يمكن أن يكون رجلٌ أعلم الناس بالدين والدُّنيا ثم لا يُسمع  
به ، لأنه لا بصير كذلك إلا بالاختلاف إلى العلماء ، وبطول مجاثاة الفقهاء ،  
وكثرة دَرَس كتب الله وكتب الناس ، ومنازعة الخصم ومقاولة الأَكْفَاء . وهذا كلُّهُ

مما يُظهر أمره ، ويَظهر مكانه .

ثم الذي يدخل العالم من خيلاء العلم وعزُّ الحق ، وسرور الفقر بما أعيانا  
الناس معرفته ، حتى لا يستطيع أن يكتمه وإن اشتدَّ عزمه ، وقلَّ رجاؤه ونفجته ؛  
لأنَّ للعلم سورة ، ولانفتاحه بعد استغلاقه فرحة ، لا يضبسطها بشري وإن  
اشتدت حنكته ، وقويت مُنته ، وفضلت قوته .

وإنك لتجد كثيراً من العقلاء يُخاطرون بأعناقهم ، لبعض العظمة يجدونها  
في أنفسهم على خصومهم وأكفائهم ، حتى لا يمتنعون من إظهارها والفخر بها ،  
فما ظنك بالعالم إذا كان بائناً بنفسه ، وكان في دولته . وتعظيمُ الناس مُوكل  
بصاحبه كيف يستطيع كتمانهِ وإماتته ، مع ما أخذ الله على العالم من حُسن  
الإرشاد واحتمال المؤونة ، واستنقاذ الناس من الجهالة . ومن القيام بحق العلم  
تعليمُ الجاهل . فهذا كله يغني عن لقاء الكل للكل .

ولو أشكل أمره ولم يبين من أمثاله ، وهو للناس أصلح من غيره ، فقد  
أمكن البأس ؛ إذ لو كان ظاهراً لهم إقامته لنبه الله على مواضع فضله ، ولأذكر  
الناس ما سقط عنهم من تدبيره ، وليعتدَّ المهيم على حُبه وطلب محاشنه .

وكيف يجوز أن يكون أكملُ الناس خفيُّ العلم ومغيبُ العمل ، وهو لا  
يكون كذلك حتى تكثر تجربته ويكثر صوابه ، ويشتدَّ جلمه ويحسن تدبيره . ولا  
بد من كثرة حُجِّ وغزو ، وصلاة وصوم وصدقة ، وذكر وقراءة قرآن ، وأمرٍ  
بالمعروف ونهي عن المنكر ، وحَدب على الأولياء وغِلظة على الأعداء . إن دام  
فقره دامت قناعته وقلَّ إسفافه ، وإن دام غناهُ دامَ بذله وقلَّ طُغيانه . وليس من  
هذا شيء إلا وهو يَظهرُ صاحبه ويُظهر للناس مكانه ، ويدعو إلى محبته  
وتعظيمه .

وإن زعموا أنه يجوز أن يكون خيرَ الناس أو أعلمَ الناس ، وإن لم يُعرف  
بشيء مما ذكرنا ، فقد صار خيرَ الناس من لم يعمل خيراً قط .

فإن قالوا : فما تقولون إن وجدوا عشرة سواء ؟

قلنا : قد يكون أن تجدوا عشرة متقاربين ، فإذا صاروا إلى الموازنة بأن الأفضل من الأنقص . وقليلاً ما يكون ذلك ، كما وجدنا السنة الشورى الذين اختارهم عمر والمهاجرون والأنصار معه ، فقد كانوا في طبقة واحدة . ولكن أهل الطبقة قد يتفاضلون بأمر بين لا خفاء به ، كما نظروا فاختاروا عثمان غير مكرهين ولا محمولين .

ولكن لا يجوز بوجه من الوجوه أن يتفق عشرة سواء في الحقيقة ، وعند الموازنة الصحيحة لأن في اتفاق ذلك بطلان الإمامة . ولو جاز أن يتفق عشرة سواء لجاز أن يكون الرقباء والشهود عليهم سواء . ولو جاز أن تستوي حالاتهم وأفعالهم جاز أن يقولوا لما ينبغي أن يقولوا فيه نعم : « لا » معاً ، ولما ينبغي لهم أن يقولوا فيه لا : « نعم » معاً .

وفي هذا فساد الاختيار والإقراع . فإذا فسد الاختيار والإقراع ولم يكن الرجل بائناً فلا سبيل إلى إقامته . ولم يكن الله ليفرض أمراً ولا يجعل إليه سبيلاً ، ولم يكن الله ليكلف الناس أمراً إلا وذلك الأمر مصلحة لهم . فكيف يمنعهم مصلحتهم ، بل كيف يظهر لهم فرض الإمامة وقد أمكتهم الشدة ، والمعلوم عنده أن العالم سيتهدم فيه ويتفق ما لا يمكن معه أداء الفرض ، ولا بلوغ المصلحة .

ولو جاز أن يتفق عشرة سواء في الحقيقة وعند الموازنة في جميع الخصال ، ما كان لإحياء الموت وإبراء الأكمه أعجب منه ، ولا أخرج من العادة ، وإنما جعل الله ذلك لرسله فقط .

ولو جاز أن يتفق في العالم شيء يكون جاعلاً من الرسالة جاز ذلك في أمور كثيرة . ولو جاز ذلك اختلط الكاذب بالصادق ، والحجة بالشبهة . وهذا ما لا يجوز على الله تبارك اسمه ، وتعالى جلته .

ولو عَرَفُوا مَوْضِعَ الْإِمَامِ بِعَيْنِهِ ثُمَّ قَالَ الشَّامِيُّ : لَا يَكُونُ إِلَّا مِنَّا ، وَقَالَ  
 الْعِرَاقِيُّ : لَا يَكُونُ إِلَّا مِنَّا ، وَقَالَ الْحِجَازِيُّ : لَا يَكُونُ إِلَّا مِنَّا ، وَكَذَلِكَ  
 التُّهَامِيُّ وَالْجَزْرِيُّ . وَكَذَلِكَ إِذَا قَالَ الْقُرَشِيُّ : لَا يَكُونُ إِلَّا مِنَّا ، وَقَالَ الْحُسَيْنِيُّ :  
 لَا يَكُونُ إِلَّا مِنَّا ؛ وَقَالَ الْحَسَنِيُّ : لَا يَكُونُ إِلَّا مِنَّا ، وَكَذَلِكَ الْفُلَانِيُّ وَالْفُلَانِيَّةُ .  
 وَكَذَلِكَ أَنْ لَوْ قَالَ الْإِبَاضِيُّ : لَا يَكُونُ إِلَّا مِنَّا ، وَكَذَلِكَ لَوْ قَالَ الصُّفْرِيُّ  
 وَالْأَزْرَقِيُّ وَالنُّجْدِيُّ وَالزُّبَيْدِيُّ ، وَالْفُلَانِيُّ وَالْفُلَانِيَّةُ - لَمَّا وَصَلَ أَهْلَ الْحَقِّ إِلَى إِقَامَتِهِ  
 إِلَّا بَأَن يَكُونُوا فِي عَدَدِ الْجَمِيعِ فِي عِتَادِهِمْ .

[ ٧١ - وجوه ثلاثة لإقامة الامام ]

والإمام يقام من ثلاثة أوجه :  
 فوجه كالذي حكينا ووصفنا .

ووجه آخر مثل ما أقام المسلمون عثمان بن عفان حين اختار عمر ستة  
 متقربين فاختاروا منهم رجلاً ، فلولا أن الستة كانوا بائنين عند الجميع لم يُطبقوا  
 ذلك الإطباق ، لأنه لم يقل واحدٌ كان ينبغي أن يكون منا ، ولم يقل واحدٌ من  
 الرُّقباء ولا من الفقهاء والخاصة : فينا واحدٌ كان ينبغي أن يكون معهم ، ولا  
 قالوا : فيهم واحدٌ كان ينبغي أن يكون معنا . فهذا دليل أن الستة كما كانوا  
 بائنين عند عمر كانوا بائنين عند الخاصة .

ووجه آخر ، وهو مثل إقامة الناس لأبي بكر ، ليس على أن النبي صلى الله  
 عليه وسلم جعل شورى كما وضعها عمر ، ولا على جهة ما حكينا من أمر  
 الخاصة والعامة بإقامة الإمام والنص عليه ؛ لأن ذلك أسلم وأخف في المؤونة ،  
 وأبعد من الغلط والفتنة . وقد وجدتم ما هو أغمض معنى وأدق مسلكاً ،  
 وأغوص مُستخرجاً ، وأفحش مائناً ، غير مفسر ولا متصوص عليه ، كالكلام في  
 التعديل والتجويز ، وفصل ما بين الطباع والاختيار ، والكلام في التشبيه ونفيه ،  
 وفي مجيء الأخبار وحجج العقول .

ونحن لم نَرِ أحداً قطُ الحَدُّ ولا تَزَنَدَقُ مِنْ قِبَلِ الغَلَطِ في كلام الإمامة والاختلاف فيها . وَمَنْ وجدناه قد ارتدُّ زنديقاً أو دَهِرياً مِنْ قِبَلِ هذه الأبواب أكثر من أن نُحصيَ لهم عدداً ، أو نَقِفَ منهم على حدِّ .

٤٢٧ [ ٧٢ - رفض نظرية الشيعة في النص على الامام ]

فإذ جاز أن يتركنا وأشدُّ الأمرين لتكون نحن الذين نستنبطه ونتكلف معرفته ، ليكون عاجلُ سروره ورِيثه وآجلُ ثوابه وعظيمُ جزائه ، كان الذي هو أظهرُ للعقول ، وأسهلُ على الطالب ، وألينُ كنفاً للواطئ ، واقربُ ماخذاً للمسترشيد ، أولى بذلك .

ولا بدُّ لهم من أن يقولوا أحد أمرين : إما أن يقولوا : إننا إذ وجدنا نَصَبَ الإمام والنصُّ عليه أسلمَ لنا من الخطأ ، فالواجبُ علينا أن نزعِم أن الله قد فعلَ ذلك ، وإن لم نجد خبراً نَضَطَّرُ إليه ، ولا قرآناً ينصُّ عليه ، والإمامة مختلفة في ذلك ، فلئما أوجبنا ذلك من قِبَلِ حُسْنِ الظَّنِّ بالله . وإن لم يكن في القرآن آيةٌ تدلُّ على أن الله لم ينصب إماماً ، ولا في الخبرين *رسولي*

وإما أن تقولوا إن ذلك قد كان وقع منه ، وإنما عرفناه بالأخبار والآثار والكتاب .

فإن كانوا إنما حكموا على الله بفعل ذلك لأنه أسلم لهم من الخطأ ، وأبعد لهم من الغلط ، إلا أنهم قد وجدوا بذلك خبراً قاطعاً ، وكتاباً دالاً ، فإن كان ذلك كذلك فلمَ أوجبوا على الله فعل ما هو أيسرُ وأظهر ، وقد وجدوا الله لم يصنع ذلك فيما هو أغمض وأشكل . كالذي وصفنا قبل هذا من الكلام في التعديل والتجوير ، والتشبيه ، ومجيء الأخبار .

وقد علموا مع ذلك أن أكثر الناس لم يؤثروا في هلكتهم إلا من قِبَلِ سَرَفِ شهواتهم ، وغلبة طبائعهم .

وكيف لم يحكموا على الله بغير ما وجدوا من رفع مؤونتها ، وقمع دواعيها ،  
حتى لا يلجج الناس طبائعهم ، ولا تورطهم شهواتهم .

ولمّا يحكم بهذا وأشباهه على الله من لا علم له بالله وتدبيره ؛ لأن الله لو  
أسقط عن الناس كل ما أثقل ظهورهم ، واستبشعته نفوسهم ، وخالف أهوائهم  
لسقط الامتحان ، وبطل الاختبار ، إذ لم يكن هناك حلاوة تُجتب ومرارة  
تُركب ، ولذيذ يؤخر ، وكريه يقدم .

وإن ذهب السائل إلى غير هذا الوجه ، وزعم أنه إنما قال إن الله قد نص  
على إمامة عليّ لأن الخبر به جاء المجيء الذي لا يكذب مثله . ولولا أن الخبر  
صحيح جاز عنده أن يكون الله يطوقهم النظر ، ويضع لهم الدلالة ، ولا ينصهم  
على شيء ولا يفسره لهم ، كفعله فيما هو أدق وأخفى ، وأعظم إثماً وأشد  
خطراً .

قيل لهم : إنكم وإن سمعتم فليستم بأعلمم بالأخبار من غيركم ، ولئن  
كنتم مجيبين بخبر قد سمعناه معكم فلم يجئنا كما حجكم ، إنه لعجب . وإن  
كان الخبر قد حج جميع من خالفكم مع كثيرهم ، واطبقوا على كتمانهم وجحد  
وانفقوا عليه ، إن هذا لأعجب .

وكيف تُحجون بخبر لا تستطيعون أن تقيموا حجته على من خالفكم ، فإن  
كنتم إنما حجكم سلفكم فحجوا أهل عصركم ومن معكم ، كما حجكم من  
قبلكم من أسلافكم .

وقد نفضنا القرآن من أوله إلى آخره فلم نجد فيه آية تنص على إمامة ،  
ولا أنها إذ لم تنص كانت دالة عند النظر والتفكير ، ولا أنها إذ لم تدل بالنظر  
والتفكير وكان ظاهراً لفظها غير ذلك على ما قلتم كان أصحاب التأويل والتفسير  
مطابقين على أن الله أراد بها إمامة فلان .

فهذا باب لا تقدرّون من قبله على حجة ، وليس لكم في باب الخبر

والإجماع متعلق ولا سبب ، مع قول الأنصار : مِنَّا أمير ومنكم أمير . وقول المهاجرين : بل مِنَّا الأمراء ومنكم الوزراء .

ثم وجدنا أبا بكر وهو متكلم قريش وصاحب أمر المهاجرين ، والمنازع عنهم يوم السقيفة ، يقول للناس بعد سُكون الأنصار وارتداعهم : بايعوا أي هذين شتم - يعني عمر وأبا عبيدة - فلم نجدُه ادعاهما لنفسه ، ولا أي أن تكون لغيره . ولم يقل إنسان من الأنصار ولا من المهاجرين ، ولا من أفساء الناس : إن النبي صلى الله عليه وسلم قد كان جعلها لفلانٍ وحُضُّ عليها له . ولا أنهم إذا لم يدعوا النَّصَّ قال قائل إن النبي صلى الله عليه قد كان قال قولاً يوم كذا وكذا يدلُّ على أنها لفلان ، ولم ينطق بذلك أحدٌ بعد تلك الأيام كما لم ينطق أحدٌ فيها .

ثم وجدنا أبا بكر حين أراد أن يجعلها إلى عمر من بعده كيف يشي إليه رجال المهاجرين وعِليُّ السابقين ، ليصرفها إلى من هو ألين جانباً وأخفُّ جناحاً ، وأقلُّ هيبة ، ويقولون : يا خليفة رسول الله ، إن الحاجة للأرمل والأرملة ، والضعيف والضعيفة ، وعمر رجل مهيب في صدور الناس والله ما تريد صرفها عنه ألا يكون سبق إلى كل يوم خير ! قال أبو بكر : أبرسي تهذوني ، أما إذا لقيته فقال لي : من استخلفت على عبادي ؟ قلت : استخلفت عليهم خير أهلِكَ عندي .

فلم يجر بينهم مما يقولون حرف واحد .

ثم إن عمر بعد ذلك جعلها سُورَى بين ستة وجعل إليهم الخيار ، وسلم بذلك جميع المسلمين ، فيهم الزُهري والتيمي والهاشمي والأموي والأسدي ، على أنها إن وقعت للأسدي لم يكن منكراً عند الجميع ، وكذلك الزُهري والأموي .

وأعجب من هذا أجمع وأدلُّ على الاختلاف ، وأبعد من النَّصِّ والإجماع ، قولُ عمر في شكاته وهو موفٍ على قبره وعنده المهاجرون الأولون : « لو أدركت سالماً مولى أبي حذيفة ما تخالجتني فيه الشك » حين ذكر دُعاية علي ، ويخل الزبير ،

وبأوطلحة ، وحبّ عثمان لرهطه .

ثم الذي كان من مُنازعة سعد بن أبي وقاص لعليّ ، وتركه بيعته ودعائه له إلى وضع الشورى ، والتخاير بالأعمال والجزء ، فلم تجردوا أحداً من الناس يقول من وراء سعد أو في وجهه : ولم تخايرك وقد اختاره الرسولُ دونك .

وقد كان ينبغي لأصحاب عليّ ومن معه من المهاجرين والبدرين وسائر الصحابة والتابعين ، ألاّ يمسكوا عن ذكر هذه الحجّة وإن أمسك عنها الناس وأضاعوها ، وعاندوا أو غلظوا فيها . ولم نعلم هذا وأشباهه إلاّ دليلاً قاطعاً لمن لم يمنع قلبه معرفة الحقّ ولسانه الإقرار به ، في عارية طلحة والزبير وعائشة وعليّ ، وما أراقوا من الدماء . ولم يقلّ واحدٌ من الناس : ولم تقاتلون رجلاً أو تطلبون مخايرته وقد نصبه النبي صلى الله عليه وفسر أمره ، وبين شأنه . [ وهذا ] دليل على ما قلنا ، وبرهان لما ادّعينا .

ولقد قال رجلٌ لعمر بن عليّ : خبرني عن وصية رسول الله صلى الله عليه إلى أبيك . قال : والله إن هذا الكلام ما سمعتُ به قطُّ إلاّ الساعة .

وقد تعلمون أن الأمة كلّها مع اختلاف أهوائها ونحلها ، لا تعرف مما تدعون من أمر النصح والوصية قليلاً ولا كثيراً ، وإنما هذه دَعوى مقصورة فيكم ، لا يعرفها سواكم . وإن أشدّ الناس عليكم في الوصية والنصح للزيدية مع تشيئها وإفراطها وشدة إقدامها على عثمان ، وسوء قولها وشدة عداوتها للزبير وطلحة .

فلو كان النبي صلى الله عليه وسلم نصّب للناس وبين أمره واحتجّ له ، لم يكن هناك اختلاف ولا ارتياب ، ولا تحير ، ولا احتجّ بذلك المحجوجون على شاذٍ إن شذّ ومُفارق . [ وفي ] هذا وأقلّ منه ما يردّع ذا اللبّ ، ويكفّ ذا الحجا .

وزعمت الرافضة أن النبي صلى الله عليه أوصى إلى رجلٍ بعينه ، وأمر أمته بالوصية في تركاتهم ، لأن ذلك أجمع للشمل ، وأدعى إلى الألفة ، وأمنع

للفساد ، وأقطع للشغب ، وأذهب للضغائن ، وأبعد من الغلط . إلا أن الله قد كان يعلم أن النبي صلى الله عليه وآله منى أوصى إلى ذلك المستحق تكفراً أمة محمد صلى الله عليه وآله إلا ثلاثة أنفس ، وأن الوصي سيضعف عن القيام بالحق وسيترك مع العلم به [ إظهاره بلسانه ، وأنه لا يرضى بالكف عن شتم الكافرين حتى يزكيهم على منبره . فسبحان الله ما أعجب هذا القول !

وإن تركوا الكتاب وأضربوا عن الإجماع واحتجوا بالرواية ، فما أحد أجهد لها ولا أرد لمعرفتها منهم . مع أن رواية غيرهم أكثر ، وعلى السنة أصحاب الحديث أظهر .

ولو كانت روايتهم ورواية خصومهم سواء ما كان تأويلهم باقطع لتأويل خصومهم من تأويل خصومهم لتأويلهم . مع أن الحديث إن كان يشمل ضروب التأويل فغلط في حق ذلك من باطله رجل فليس بكافر ولا مكابر ، لأن ذلك الحديث لو كان صحيحاً لم يكن بآيين من القرآن ولا أوضح .

وقد يختلف الناس في تأويله ولا يكفرون ولا يكابرون ، فكيف يكفرون من غلط في تأويل حديث لو كان رده لم يكن عاصياً .

وإن كانت إمامة علي لا تثبت عندهم إلا من قبل الرواية فقد أفلح خصم الرافضة ، واستراح من كذ المنازعة .

وقد زعم ناس من ( العثمانية ) أن الله قد اختار للناس إماماً ، ونصب لهم قياً ، على معنى الدلالة والإيضاح عنه بالعلامة ، لا على النص والتسمية ، لأن الله إذا قال : ﴿ وَأَشْهَدُوا قَوْلِي هَذَا مِنْكُمْ ﴾ . وقد عرفنا صفة العدالة . فمضى رأيناها في إنسان علمنا أنه الذي كان عنى الله بالآية وإن لم يسمه فيها . وكذلك قول الرسول : ﴿ لِيُؤْمِكُمْ بِخِيَارِكُمْ ﴾ فقد عرفنا الله الخيار من الشرار ، والفضل من النقص ، فمضى وجدنا الفضيلة في رجل فهو الذي عناه النبي صلى الله عليه وآله وإن لم يذكره باسمه .

ولا يهمل الناس ويتركهم سُدى من وضع لهم الأدلة ، ونبيهم على موضع  
البرهان ، وعرفهم أبواب الصلاة .

ولو قلنا إن النبي صلى الله عليه قد اختار للناس إماماً على معنى أنه إذ أمر  
أبا بكر بأن يتقدم المسلمين في مُصلّاه ومقامه ومنبره فقد استخلفه ، جاز ذلك في  
الكلام . وباب الجواب في هذه المسائل كثير . لأنه لا يجوز أن يكونوا لم يعلموا  
ذلك وقد علموا ما هو أخفى وأدق وأيسر خطباً وأقل نفعاً ، وهم القوم الذين لا  
يؤتون من نصيحة وحسن معرفة . وكيف يؤتون منها وبهم عرفنا النصيحة  
والمعرفة .

فإن قالوا : فإنما كان خيراً للناس أن يختاروا لأنفسهم أو يختار النبي لهم .

قلنا : لو كان النبي قد اختاره لهم لقد كان ذلك خيراً لهم من اختيارهم لأنفسهم .  
فإذ لم يختره لهم فترك اختياره خيراً لهم ، لأنه إذا كان أن لو كان اختاره لهم ، فقد دل  
تركة الاختيار أن تركه الاختيار لهم خيراً لهم ، إذ كان قد كان اختار الترك دون  
الاختيار ، وترك الاختيار ربما كان اختياراً . وهو في هذه المواضع اختيار ، لأن  
النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن ليختار لهم ترك النص والتسمية إلا وترك  
النص والتسمية خيراً من النص والتسمية .

وإنما هذا مثل قائل لو قال لنا : أرايتم التأويل الذي قد ضل من أجله  
عالم ، والتشبيه ، والوعد والوعيد ، والقدر ، والأسماء ، والأحكام التي قد كفر  
من أجلها بشر ، وبسببها تناحر الناس . وإنما كان خيراً لهم أن يعرفوه بأسره ،  
وينصوا على حقيقته ، ويكفوا المؤونة فيه ، حتى كان لا يقع خلاف ، ولا يوجد  
خطأ ، ولا يثيب فساد ، ولا يتفانى الناس أو يتسركوا ونظرهم ، ويخلوا  
واختيارهم .

قلنا : الخيرة فيها صنع الله ، فلو كان الله بين ذلك بالنص والتفسير دون  
الدلالة ووضع العلامة ، كان ذلك خيرة ، لأننا نعلم أن الله لا يصنع إلا ما هو

فلو لم يفعل ذلك ولم ينص عليه فتركه الأمر على ما نحن عليه خير لنا  
وأفضل . فكيف أوجبتم على الله وحكمتم عليه .



[ ٧٣ - خاتمة ]

هذا جمل جوابات العثمانية بجمل مسائل الرافضة والزيدية . ولولا أن فيما  
قدّمنا غنى عما أخرنا لقد فسّرنا كما أجملنا . وإنما ملاك وضع الكتاب إحكام  
أصله ، والأ يشدّ عنه شيء من أركانه . فأما استقصاؤه حتى لا يجري بين  
الخصمين منه إلا شيء قد وضع بعينه ، فهذا ما لا يمكن الواضع ولا يجتمل  
الكتاب . ولو أمكن الواضع واحتمله الكتاب لكان طوله قاطعاً لنشاط القارئ ،  
ومجلبةً لنعاس المستمع ، إلا لمن صحت إرادته ، وافرطت شهوته وقوي طبعه ،  
وحسن احتسابه .

وقد أعيتنا هذه الصفة في المعلمين ، فكيف [ في ] المتعلمين .

وعلى أن للنحل صوراً كصور الناس ، فكما أن بعض الصور أشدّ مشاكلة  
لطبعك ، وآتق في عينك ، وأخف على نفسك ، فكذلك النحل في مقابلة  
الاهواء ، ومشاكلة الشهوات ، والخفة على النفوس .

فاحذر حوادث الشهوات ، واتصال المشاكلة ؛ فإنه أخفى من الدقيق ،  
وأدق من الخفي :

هذا إذا كان المعنى مجرداً والمذهب عارياً ، فكيف إذا موّه صاحبه ،  
وزخرفة واضعه ، بأعذب الألفاظ وأشهاها ، وأحسن المخارج وأعفاها فشفى كل  
واحد منهما صاحبه ، وحبّبه إلى سامعه . فإن وافق ذلك منه تعظيم لسلفه ،  
وهوى في قائله ، فقد أسمحت نفسه بالتقليد ، واستسلمت للاعتقاد .

فاحذر في هذه الصفة ، ولا تستخفن بهذه الوصية .  
واعلم أن واضع الكتاب لا يكون بين الخصوم عدلاً ، ولا هل النظر مألفاً حتى  
يبلغ من شدة الاستقصاء لخصمه مثل الذي يبلغ لنفسه ، حتى لو لم يقرأ القارئ  
من كتابه إلا مقالة خصمه لخيّل له أنه الذي اجتباها لنفسه ، واختاره لدينه .  
ولولا اتكالي على انقطاع الباطل عن مدى الحق وإن استقصيته وبلغت  
غايته ، ما استجزت حكايته ، وقمت مقام صاحبه .  
ونحن مهتدون في كتاب المسائل وبالله ذي المن والسطول نستعين ، وعليه  
نتوكل .  
هذه جمل أقوال العثمانية ، والحمد لله كثيراً دائماً ، وصلّى الله على سيدنا  
محمد نبيه ، وآله الطاهرين وصحبه ، وسلم تسليماً .



مركز بحوث كميبيوتر علوم إرسودي

## هامش رسالة العثمانية

- (١) المقدمة مجتزأة ومرتملة لا تتجاوز سطراً ونيقاً ، وربما لم تكن من وضع الجاحظ .
- (٢) يضع الجاحظ شرطين لصحة الخبر او الشعر هما امتناع التباعد او الاختلاف في الرواية ، وامتناع التواطؤ والاتفاق بين المخبرين . قارن هذا الرأي برأيه في صحة الاخبار الوارد في كتاب حجج النبوة حيث يستبعد تواطؤ كثرة الناس المختلفي الديار على الكذب .  
- المجادل تعني المناظر او الخصم .  
- القضية تعني المسألة او الرأي المدافع عنه ولا تعني الحكم المنطقي .
- (٣) القياس ان يؤخذ باوسط الروايتين . يطبق الجاحظ اصل المعتزلة المنزلة بين المنزلتين اي التوسط وعدم التطرف .  
- لاحظ الدقة في استعمال التاريخ .  
- لاحظ الدقة في استعمال التاريخ .
- (٤) « نتكلم على ظاهر الاحكام وما شاهدنا عليه طباع الاطفال » يصدر الجاحظ عن المبدأ الطبيعي في فلسفته . فهو يحكم الطبيعة في كل شيء .
- (٥) في تمييز علي الحدث آية على مبايئته الناس وخروجه على طبيعة الاشياء .
- (٦) الاعجوبة لا يبتدعها الله ويخرق بها العادة والطبيعة الا للتعريف والاعذار كما فعل عندما انطلق عيسى في المهدي ، وعندما اتى زكريا بالحكم وهو صبي . لاحظ تقيده الاعجوبة او تضييق نطاقها وقارن ما قاله الغزالي بصدد الاعجوبة .
- (٧) يستعمل الجاحظ الشيع بدل الشيعة للاشارة الى كثرة فرقهم ، كما يستعمل احياناً لفظة العلوية بمعنى الشيع .
- (٨) اذا كان اسلام زيد وخباب افضل من اسلام علي لان له ظهراً وهما تابعان لا ظهر لهما ، واذا كان اسلام ابي بكر افضل من اسلامها ، فان اسلام ابي بكر افضل من اسلام علي . هذا القياس الشرطي المتصل مفلوط .
- (٩) لاحظ المقارنة الدقيقة بين ابي بكر وعلي .

- (١٠) لاحظ استعمانة الجاحظ بالمؤرخ محمد بن اسحق ( ١٥١ هـ ) والمؤرخ محمد بن عمر الواقدي معاصر الجاحظ ( ٢٠٧ هـ ) .
- قوله : « لأن العقل وان اشتد مغرزه وثبتت أواخيه وجاد نحته فانه لا يبلغ بنفسه درك الغاية دون كثرة السماع والتجربة » . دليل على اعتقاده بضرورة التجارب في المعرفة وعدم الاكتفاء بالعقل .
- (١١) « اسلم على يد ابي بكر خمسة من الشورى » يعني بهم عثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن ابي وقاص . وهم الذين عينهم عمر بن الخطاب بالإضافة الى علي بن ابي طالب ليختاروا من بينهم الخليفة بعده .
- (١٢) لاحظ التناقض بين ما يزعمه العثمانية من بذل ابي بكر في سبيل الاسلام وما يزعمه الاسكافي من أنه باع من النبي بعيرين وقبض منه ثمنها .
- (١٣) لاحظ خلاف المؤرخين حول المدة التي قضاها النبي في مكة من مبعثه الى هجرته : ١٥ سنة او ١٣ سنة ، او ١٠ سنين .
- (١٤) المقارنة بين نوم علي في فراش النبي ، ومرافقة ابي بكر للنبي عندما هاجر من مكة الى المدينة ، من حيث التضحية في سبيل الاسلام .
- (١٥) ليست الفروسية مقياساً للفضل في الدين . هذا ما تدعيه العثمانية وترفضه الشيعة رفضاً تاماً .
- حروب الفجار ، وحلف الفضول الوارد ذكرهما هنا لمحدث الجاحظ عنها وفسرهما في رسالة فضل هاشم على عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .
- (١٦) الفقه هو العلم بالدين والتأويل والحرام والحلال والفتيا الخ . . واحق الناس بالامامة ائمتهم بالدين . وعلم الدين اصعب من العلم بامور الدنيا .
- (١٧) صلح الحديبية اتفاق بين النبي وقريش على السماح للمسلمين بدخول مكة .
- (١٨) لاحظ ما جرى لدى موت النبي . والموقف الذي اتخذته عمر وعثمان بعدم تصديق موت النبي . وموقف ابي بكر الحكيم الرصين .
- (١٩) ابوبكر لم يقبل بالغاء الزكاة ، وفي ذلك دليل على بعد نظره وحسن تدبيره .
- يميز الجاحظ بين الشيعة وفرقة الرافضة منهم التي تمجد الاخبار المستقيضة ذات الاسانيد المختلفة ، وتقبل بالشاذ منها .
- (٢٠) يلقي الجاحظ الضوء على تاريخ تجهيز جيش اسامة لغزو بلاد الروم ، انه حصل قبل موت النبي وانفذ بعد موته .
- (٢١) لاحظ كثرة الخلافات بين المسلمين عند موت النبي ، حتى مكان القبر اختلفوا فيه فحسم الأمر ابوبكر بحديث يقول ان النبي يدفن حيث يقبض .

(٢٢) علي يبجل ابا بكر ويقول فيه أقوالاً جميلة ولكن الشيعة تعمل ذلك بانتيمه ،  
وارضاء العامة الخ . . وهذا يدعو الى العجب .

(٢٣) صدق الظن فضيلة عند ابي بكر ومثل ابته عائشة دليل عليه .

(٢٤) لأن علياً امتاز بالفقه لذا تقلل العثمانية من شأن الفقه ، لأن الفقيه يحطىء  
ويصيب .

عرف بالفقه عدا عليا ، عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود وابي  
إبراهيم كعب ، ومعاذ بن جبل .

(٢٥) يحدد الجاحظ هنا موضوعات الفقه وهي : حفظ القرآن ، والقراءة ، والتأويل ،  
ورواية الحديث .

- العثمانية ترد مقرونة بالعمرية : « اذا كنا عثمانية وحميرية » .

(٢٦) تصور علي في السياسة - وهي تعني الاختيار وجودة الرأي والقوة في السلطان ،  
والضبط للمدو والعوام - عن ابي بكر وعمر .

(٢٧) ما هو مقياس الزهد ؟ الزهد برأي العثمانية هو انفاق المال بحيث لا يبقى منه  
شيء . وهذا ينطبق على ابي بكر وليس على علي الذي مات عن ثروة .

(٢٨) عيب علي بكثرة النساء اللاتي تزوجهن وطلقهن .

(٢٩) وعيب بانه أخذ عمالته من بيت المال على عكس ابي بكر .

(٣٠) الدليل على فضل ابي بكر كثرة الآيات التي نزلت فيه .

(٣١) آية الغار ﴿ الا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين ا . هما في  
الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا فانزل الله سكينته عليه وايده بجنود لم  
تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز  
حكيم ﴾ ( التوبة ، ٤ ) .

(٣٢) آية الصفاة عن مسطح بشأن قرف عائشة : ﴿ ولا يأتل أولوا الفضل منكم  
والسعة ان يؤتوا اولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليصفوا وليصفحوا  
الا تحبون ان يفر الله لكم والله غفور رحيم ﴾ ( النور ، ٢٢ ) .

(٣٣) آية الوالدين : ﴿ والذي قال لوالديه أف لكما اتعداني ان أخرج وقد خلت  
الفرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن ان وعد الله حق فيقول ما هذا الا  
اساطير الاولين ﴾ ( الاحقاف ، ١٧ ) .

والآية : ﴿ افمن يمضي مكياً على وجهه اهتدى ام من يمضي سوياً على صراط  
مستقيم ﴾ نزلت في ابي بكر وابي جهل .

والآية ﴿ فاما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى ﴾ .

(٣٤) الآيات التي تقول الشيعة انها نزلت في علي كثيرة منها الآية : ﴿ اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم ﴾ ( النساء ، ٥٩ ) .

(٣٥) والآية : ﴿ يا ايها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ﴾ ( البقرة ٢٠٨ ) .  
(٣٦) والآية :

﴿ انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلوة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾ .

(٣٧) والآية ﴿ قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾ . ( الرعد ، ٤٣ ) .

(٣٨) أسياء أبي بكر : الصديق ، وخليفة رسول الله . . .  
- يقرن العثمانية بالحشوية .

- الروافض تحتج بشعر رشيد المغربي ( قتله زياد ابن ابيه ) ، والسيد الحميري ، ومنصور التمري . ولا تحتج بشعر حسان بن ثابت والعجاج والحارث بن هشام واشباههم .

(٣٩) الامام هو الأمير والرئيس « وكان ابو بكر الامام وعلي المأموم » .

(٤٠) الامام استعملت هنا بمعنى من يتقدم الناس في الصلاة . . . حيث امره ان يؤم الناس ويقوم مقامه في صلاته وعلي منبره » .

(٤١) الاحاديث التي يروها الشيعة في تفضيل علي اهمها حديث غدير خم : « من كنت مولاه فعلي مولاه . اللهم عاد من عاداه ووال من والاه » وحديث هارون : « انت مني بمنزلة هارون من موسى ، الا انه لا نبي بعدي » .

وحديث الطير : « اللهم آتني باحب الناس اليك يأكل معي من هذا الطير » .

(٤٢) الاحاديث التي يستند اليها العثمانية في تفضيل ابي بكر اهمها - حديث الخليل : « ليس احد امن علينا بصحبته وذات يده من ابي بكر ، ولو كنت متخذاً من هذه الأمة خليلاً لاتخذت ابا بكر خليلاً ، لكن وداً وأخاً ايمان » .

- وحديث الاقتداء : « اقتدوا باللذين من بعدي ، ابي بكر وعمر » .

- وحديث كهول الجنة : « هذان سيدا كهول أهل الجنة من الاولين والآخرين ، الا الانبياء والمرسلين ، يا علي لا تخبرهما » . يعني ابا بكر وعمر .

- وحديث الحجارة : « هم امرء الخلابة من بعدي » يعني بهم ابا بكر وعمر وعثمان وقد وضع كل منهم حجراً في اساس مسجد المدينة متابعين النبي في ذلك .

- وحديث جبريل : « مثل ابي بكر في الملائكة مثل ميكائيل ينزل بالرحمة ، ومثله في

الانبياء مثل ابراهيم ، ومثل عمر في الملائكة مثل جبريل ينزل بالسخط وفي الانبياء مثل موسى . . . » .

- وحديث الصدق « ايها الناس ان الله بعثني اليكم جميعاً فقلتم : كذبت ، وقال صاحبي : صدقت ، فهل انتم تاركي وصاحبي ؟ » .

- وحديث اللعنة « ما دعوت احداً الى الاسلام الا وقد كان له تردد وكبوة ، الا ما كان من ابي بكر ، فانه لا يتلعم » .

- وحديث الاسامة « ان ابا بكر لم يسؤني قط ، فاعرفوا ذلك له » .

(٤٣) موقف الجاحظ من هذه الاحاديث : انه يشك فيها لانها متناقضة . وثمة احاديث

يستشهد بها الجاحظ للدلالة على نعلها مثل « ابو سفيان خير اهلي » . ومثل « خير اهل الله عمر بن الخطاب » .

- انقسم الناس في عصره قسمين : عمري وعلوي . العمري يقدم ابا بكر والعلوي يقدم علياً .

- فالله اعلم بمعاني هذه الاحاديث ، فلعل النبي صلى الله عليه قال في كل رجل قولاً عدلاً ، وكان ذلك قولاً معروفاً مفهوماً عند الحاضر ، ولكنه أدى اللفظ وترك المعنى .

ويقترح الجاحظ . حلاً لهذه المشكلة وهو عدم قبول الخبر الذي لا يجيء بجيء الحجية « وانما الخبر الصحيح الذي لا يعتمد بضعف الاسناد ولا يترك لضعف الاصل ، ولا يوقف فيه لكثرة المعارض والمناوي » . . . » .

(٤٤) نقد الحديث : من كنت مولا فعلي مولا . من حيث الاسناد والنص والمعنى .

- الروايف يقولون ان النبي نص على امامة علي : « ثم لا بد للناس في كل عصر من امام من ولده نص عليه من سلفه لان الناس لا يتقون على اختيار الاسام الصالح » لكثرة عددهم ، ولكثرة عدد الفضل ولما في ذلك من الاشكال عند الموازنة والشغل عن العلو .

(٤٥) نقد حديث « انت مني كهارون من موسى » . من الناحية التاريخية : موت هارون قبل موسى ، ومن الناحية المعنوية .

(٤٦) تأويل حديث امرة ابي بكر في الصلاة . « مروا ابا بكر يصلي بالناس » . وانظر ما قاله النبي وهو يلفظ انفاسه الاخيرة بشأن ملاك الموت .

- « ان رحمة ابي بكر هم رحمة عمر » .

- الاستخراج لا يكون الا من عيان او خبر . فإرن هذا بما جاء في مقدمة « حجج النبوة » .

- (٤٧) الاجماع على البيعة ، هل تحقق لابي بكر ؟ وهذا الاجماع لم يتحقق لعلي ايضاً .  
 - اصحاب الشورى كسعد بن ابى وقاص وطلحة والزبير يطالبون علياً بالعمل بها  
 بعد مقتل عثمان ومطالبة علي اياهم بمبايعته .
- (٤٨) تأويل قول ابي بكر : منا امير ومنكم امير . القول ضد الشيعة .
- (٤٩) تأويل قول سلمان « كرادذ ونكرادذ » صنعتهم وما صنعتهم . هل كان العرب يعرفون الفارسية ؟
- (٥٠) موقف بلال من ابي بكر وعمر ، لقد كان مقرباً منها وقد تولى لها دمشق .
- (٥١) موقف المقداد من ابي بكر لا يستند الى اي قول نطق به ، ثم قصة المقداد وعلي بشأن ضباعة بنت الزبير التي خطبها المقداد وارادها علي لنفسه . وموقف النبي المؤيد للمقداد .
- (٥٢) موقف عمار بن ياسر من ابي بكر ربما كان انسحاباً لموقفه من عثمان الذي اذاه .  
 وقد خطب عمار على منبر الكوفة تأييداً لعمر .
- (٥٣) موقف ابي ذر من عمر . العثمانية تقول ان ابا ذر كان يحب عمر والشيعة تقول انه كان يحب علياً ويكره عمر .
- (٥٤) معنى كلام سلمان « انكم قد اقمتم مجزياً وتركتم من هو اجزاً منه » لا ينطبق في نظر العثمانية على ابي بكر لأنه لم يترك خلاً لم يسده . . . . .
- « وسنخبر عن مقالة العباسية ووجوه احتجاجهم بعد فراغنا من مقالة العثمانية ،  
 بغاية ما يمكن من الاستقصاء ، وانصاف البعض من بعض ، لتكون انت المختار  
 لنفسك بعقلك . . . . »
- يستنتج من هذا القول ان الجاحظ وضع رسالة العباسية بعد رسالة العثمانية ، وانه انصافاً لهم يستقصي اقوالهم جميعاً ، وعلى القارىء الحكم . وبذلك يعلن حياده من جميع هذه الفرق والاحزاب .
- (٥٥) موقف خالد بن الوليد من بيعة ابي بكر : بايع بعد تردد . لاحظ اثر ذلك على مستقبل خالد في قيادة الجيوش وعزله .
- (٥٦) الاجماع على الخليفة مستحيل وقد علل الجاحظ ذلك بقوله : « وكيف يتفق اطباقتهم على سكون واحد والناس من بين حاسد وراض ، وعصي وتقي ، وحليم وسخيف ، وغالط ومصيب ، وعاقل واهق ؟ »
- (٥٧) تأويل قول ابي بكر « كانت بيعتي فلتنة » لان اجماع الناس عليه شاذ بسبب اختلافاتهم وتباين آرائهم واهوائهم .
- (٥٨) الرئاسة تستند الى الدين لا القرابة . وهذا يردون نظرية العباسية المستندة الى

القرابة ونظرية الشيعة المستندة الى النص والقرابة .

(٥٩) دعوة العثمانية الى المساواة بين الناس يخالف الحديث الذي استندوا اليه و الائمة من قریش . وهم يفهمون بها ان القرابة لا تغني المرء نفعاً تجاه الله . وان ليس للانسان الا ما سعى ويستشهدون بالآية ﴿ ما ايها الناس اتقوا ربكم واحشوا يوماً لا يجزي والد من ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ﴾ .

(٦٠) موقف عمر من العرب والمعجم يستحق الوقوف عنده . فالشيعة يتهمونه انه فضل العرب على المعجم . والعثمانية نجد لموقفه مبررات عدة .

وانظر قول الجاحظ « والمعجمي ليس بنبي بصيرة في الاسلام . . . وهو اجدر الا يفهم تنزيلاً ولا تأويلاً » .

(٦١) اتهام عمر من قبل الشيعة بانه صاحب حية لقرابته وللعرب . يجابه من قبل العثمانية بقولهم ان مذهب الشيعة قائم على التعصب للقرابة .

- لاحظ دور الشعوبية في الصراع بين ابي بكر وعمر وعلي « والذين نحلوا عمر العصية رجلاً : رافضي أحب ان يمقته الى المعجم والموالي ، ومنعرب عرف ان عمر عند الناس قدوة فنحله ذلك ليكون له حجة ، فاعرف ذلك » .

(٦٢) قصة الزبير الذي سل سيفه عند مبايعة ابي بكر وتأويلها .

(٦٣) تأويل قول ابي بكر « وليتكم ولست بخيركم » . بمعنى انه يضم نفسه تواضعاً . هكذا فسره الحسن البصري .

(٦٤) تأويل قول ابي بكر « بايعوا اي هذين شتم » ، يعني عمر و ابا عبيدة ، بانه كان زاهداً في الخلافة . وهذا ما يفهم من الخطبة التي القاها بعد توليته .

(٦٥) أقوال علي في عمر كما يسوقها العثمانية .

(٦٦) خلاصة آراء الشيعة والعثمانية : موجز لما ورد في الكتاب .

(٦٧) جدل الشيعة والعثمانية حول اسلام ابي بكر : تكرار لما سبق .

(٦٨) ضرورة اقامة الامامة بشكل القسم الأخير من الكتاب . وفي هذا القسم يثلي الجاحظ برأيه الخاص في موضوع الامامة بعدما انتهى من عرض اقوال العثمانية والشيعة .

وهو يرى ان العامة لا تصلح لجهلها لاقامة الامام . وعلى العامة ان تطيع الخاصة وتأمر باوامرها ، والعامة من الخاصة بمثابة الجوارح من النفس . ودور العامة هو الدفاع عن الخاصة كالسلاح بالنسبة للفارس والفأس بالنسبة للنجار .

- ان العامة يعرفون التنزيل المجرد بغير تأويله ، وجملة الشريعة بغير تفسيرها ، وما انجل من الخبر واستفاض . ويجهلون التأويل والتفسير وضامض السنن التي تحملها

الخصائص . كما يجهلون الكلام في القدر والتشبيه والوعد والوعيد والاستطاعة والتكليف .

- ان طبائع العامة دون طبائع الخاصة وفوق طبائع المجانين والاطفال . والناس مسخرون لطبائعهم ولم منازل من الفضل حسب تلك الطبائع من بخل وسخاء ، وبلاغة وذكاء ، وطيش وحلم الخ . . ان الجاحظ يرجع كل شيء الى الطبائع وفق فلسفته الطبيعية .

- وقد عالج هذه المسألة أي معرفة الاشياء في كتاب المعرفة مما يدل على انه وضعه قبل رسالة العثمانية .

(٦٩) ان الخاصة مكلفة باقامة الامام اذا امكثها ذلك ولم تحمل الموانع دونها .

(٧٠) كيف يعرف الامام ؟ كما عرف عمرو بن عبيد والحسن بن صالح بن حي الهمداني عند الزيدية ( ١٦٩ هـ ) ومرداس بن ادية عند الخوارج . يعني ان الامام هو من يشتهر بعلمه وكماله وفضله .

(٧١) وجوه ثلاثة لاقامة الامام : الوجه الذي تبناه اعلاه ، والوجه الذي تمت به بيعة ابي بكر ، والوجه الذي تمت به بيعة عثمان من قبل اصحاب الشورى الستة .

(٧٢) يرفض الجاحظ نظرية الشيعة في الامة القائمة على النص والقرابة .

(٧٣) في الخاتمة يشير الجاحظ الى انه لم يستوف جميع اقوال العثمانية والرافضة - واكتفى بالاصول والاركان - لكي لا يطول الكتاب فيمله القارئ . ويشبه النحل بصور الناس ، فكما ان بعض الصور أشد مشاكلة لطبيعتك وأنف في عينك واخف على نفسك ، فكذلك النحل في مقابلة الاهواء ومشاكلة الشهوات والخفة على النفوس .

هذا تشبيه جميل يشير الى رأي الجاحظ في موقف الناس من الفرق والاحزاب . ان موقف الناس تحدده طبائعهم التي فطروا عليها - وفي ذلك عودة الى مبادئ فلسفته الطبيعية ، ولا تحدده عقولهم .

ومن ثم يحذر الجاحظ من الاهواء ، ويدعو الى اعمال العقل في تفحص الصحيح وكشف المزيف لأن المذاهب يغلب عليها التموه والزخرفة فتخدع وتغوي .

ويعلن أنه استقصى لخصمه بدافع العدالة . وهذا الاستقصاء هو الذي دفع البعض الى الاعتقاد بان ما ورد في كتابه هو الذي اجتبه لنفسه واختاره لدينه . وهذا اعتقاد خاطيء .

رسالة في الحكمين ونصويب أمير المؤمنين  
علي بن أبي طالب في فعله



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

[ ١ - موضوع الرسالة ]

وَفَقَّكَ اللهُ لِلسَّلَامَةِ وَالغَنِيمَةِ ، وَأَعَزَّكَ بِالْحَقِّ ، وَخَتَمَ لَكَ بِالسَّعَادَةِ ، وَجَعَلَ لَكَ مِنْ عَليكَ وَاعِظًا وَرَقِيبًا [ و ] مِنْ نَفْسِكَ سَامِعًا وَمُطِيعًا ؛ وَجَعَلَ لَكَ مَعَ حَزْمِكَ نَصِيحًا مِنَ التَّوَكُّلِ ، وَمَعَ تَوَكُّلِكَ حِظًّا مِنَ التَّحَدُّرِ ، حَتَّى تَقْبَلَ إِذْنَهُ فِي الْحَدَّرِ وَتَطِيعَ أَمْرَهُ فِي التَّوَكُّلِ ؛ قَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ » ، فَجَمَعَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ وَسَوَّى بَيْنَ الْوَصِيَّتَيْنِ ، وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَبْلِ اللهُ مِنْ نَفْسِكَ حُدْرًا ، فَإِذَا أَعْجَزَكَ أَمْرٌ فَقُلْ : اللهُ حَسْبِي » ، قَالَ أَبُو عَيْبَةَ ابْنُ الْجَرَّاحِ لِعَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ حِينَ خَافَ طَوَاعِينَ الشَّامِ فَانكفأ رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ : « أَتَفَرَّ مِنْ قَدْرِ اللهِ ؟ » - قَالَ : « نَعَمْ ، إِلَى قَدْرِ اللهِ ! » وَقَالَ لَهُ سَعِيدُ بْنُ جَرِيرٍ : « قُمْ ، أَيَنْفَعُ الْخُدْرَ مِنَ الْقَدْرِ ؟ » - فَقَالَ : « لَسْنَا مِمَّا هُنَاكَ فِي شَيْءٍ ؛ إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِمَا لَا يَنْفَعُ وَلَا يَنْهَى عَمَّا لَا يَضُرُّ » .

وَقَدْ كُنْتُ حَذَرْتُكَ ، يَا ابْنَ حَسَّانَ ، أُمُورًا ، فَكَأَنِّي أَخْرِبُتُكَ بِهَا ، وَأَنْسُبُكَ بِأُمُورٍ ، فَكَأَنِّي أَوْحِشُتُكَ مِنْهَا ، وَكُنْتُ لَا أَظُنُّ بِكَ مِنَ النِّقْصَانِ إِلَّا مَا كَانَ عَنْ بُلُوغِ الْكَمَالِ ، وَلَا مِنَ التَّقْصِيرِ إِلَّا مَا كَانَ عَنِ التَّفْضِيلِ ، وَلَا مِنْ تَضْيِيعِ الرَّأْيِ إِلَّا مَا أَمَكَّنَ مِنْ اسْتِدْرَاكِهِ قَبْلَ الْفُتُورِ ، وَلَا مِنْ نَكُوبِ مَا لَا يَبْلُغُ الْكَثِيرَ إِلَّا مَا لَا يَسْبِقُ النَّدَمَ ، وَلَا مِنَ النِّسْيَانِ إِلَّا مَا لَا يَمْنَعُ مِنْ سُرْعَةِ الْإِنْتِبَاهِ ، وَلَا مِنَ السَّامَةِ إِلَّا مَا لَا يَقْرَبُ مِنَ الْمُعْجِزَةِ ، وَلَا مِنَ الْحَمِيَّةِ إِلَّا مَا لَا يَخْلُطُ الْعَصِيَّةَ ،

ولا من التنافس إلا ما باعد عن التحاسُّد ، وكنت عندي ، إن لم تكن مع العلية ، فلم تنحط عن الأوساط إلى السفلة ، وإن رضيت بحال المنفصلين ، لم تعرض إلا أن تكون مع المنصفين ، وإن لم تكن غنياً لمخالفك عند مناظرتهم لك ، ورائداً لموافقك عند استعانتهم بك ، وآلة لمن استعمل منك ، ومفزعاً لمن سمع إليك ، وجرزاً لاسرار خصمك ، وحائطاً من وراء من ذهب من الناس عنك ، لم تكن عندي بمخوف على ما انتهى إلي من خبرك ولا على ما حكاه من لا يُتهم على موذنتك .

• عتبتُ عليك في مجادلة الرافضة ، فأعتبتني بممارسة الغالية ، وأنكرتُ منك مقارنة الخوارج ، فأردفت ذلك بمساحة النوابت ، حين زعمت في جواب مسألة النابيتي أن علياً كان أحق بالإمامة من معاوية ، وزعمت في جواب الخارجي أن رضاه كان هفوة منه ومكيدة من عدوه ، إلا أنها الهفوة التي تبلغ الضلال ، والفهمة التي لا تفسد الحكم ، والنقصان الذي لا يكمل معه حل العقد ، والتضييع الذي لا ينقض معه العهد .

ثم قطعت الشهادة وأوجبت الحكومة أن علياً قال عند موته وأقر عند زلله :

إني عشرت عشرة لا تنجيز سوف أكيس بعدها وأستبِر  
وأجمع الرأي الشثيت المنتبِر

ثم قضيت بعد قطع الشهادة والحكم على غائب الفعل بأنه لم يعن بذلك القول إلا الرضى بالحكمين ، وجزمت على أنه لا تأويل لذلك القول إلا ما ذهب إليه ولا معنى له إلا ما قضيت به .

فأجمع الآن بالك في الاستماع للحق كما جمعت بالك في الاجترام على الباطل ، وفرغ قلبك لما أنا واصفه لك ومقربه من عقلك ؛ فإن أعجزك الفهم فليس يُعجزك التفهم ، وأول منازل الإنصاف حسن الثبوت ، ونعم الرائد التفهم ونعم العون حب الإنصاف ! وقال يزيد بن المهلب : « هذا ابن

الأشعث غلب على النصر فغلب على الصبر» ؛ فأحذر أن يُقال : « هذا ابن حُسان غلب على العلم فغلب على التعلُّم ! » ، وقد قال عامر بن عبد القيس : « الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب ، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الأذان » .

وقد علّم أني شديد الحبّ إلى رَشادك ، حريصٌ على هدايتك ، وأنا بعد ذلك كله أسأل الله أن يديم لك العصمة وأن يوفّقك للمعرفة ، وقد قال بعض العلماء : « لا تستجب إلا لمخلص أو مظلوم » ؛ فأما نبيّ في تبصرتك بابّ الرشد من العمي فقد تقدّم القول مني فيها بما سمعت ؛ وأما الظلم فمن أظلم لصديقه ممن أفسد نفسه عليه ، ومن أجورٌ على وليّه ممن دان بدين عدوّه ؟ ومن التوفير على حظّ هذا الكتاب من الأفهام وعلى حفظك من التفهّم أن لا يهدّه القارىء هداً ولا ينثر كلامه نشراً ، فلا يكون نصيب السمع منه إلا صدى الصوت ولا حظّ العقل منه إلا استحسان التأليف ؛ فعليك بالتوقّف وحده بالترسُّل والتشبُّث مع تفريغ البال ونفي الاشغال ومع الاحتراز من ديب الهوى وفراغ المشغل .

مركز تحقيقات كميوتير علوم راسدي

[ ٢ - لا وجه للمقارنة بين علي ومعاوية ]

خبّرني أيّ شيء نفيت لعلي بن أبي طالب من الفضل ، وأيّ شيء نفيت على معاوية من النقص حتى وضعت الخيار بينهما وأقررت الشبهة في أمرهما من غير إكراه ولا إحلال عُذر؟ فمن أعجزُ رأياً ممن زعم [ أن . . . ] أفضل من سمرة وأن سحبان أخطب من بائِل ، وأن زياداً أدهى من هَبْنَقَة ، وأن أبا ذرّ أصدق من مُسيلمة ، وأن الجالينوس أطبّ من أبي دينار! وهل ذلك إلا في مجرى من قال : « أيما أصدق : المسيح بن مريم أو المسيح الدجال ؟ » ، وهل ذلك إلا كقول القائل : « أيما أحلى : العسل أم الخُل ؟ » وليس للخُل حظ في الحلاوة .

قلنا : فكيف تزعم أن علياً أولى بالإمامة من معاوية وليس لمعاوية في

الإمامة حفظاً ؟ ولقد عجبتُ فطال تعجبي وشنعتُ فاشتدَّ تشنيعي على النجاشي حيث يقول بفخره على معاوية بعليّ :

نِعْمَ الْفَقِي أَنْتَ ، إِلَّا أَنْ بَيْنَكُمَا كَمَا تَفَاضَلَ قَرْنُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ

فمن هذا الذي يقرّ بانه ليس بين عليّ ومعاوية في الفضيلة واستحقاق الإمامة إلا بقدر ما بين الشمس والقمر ؟ بل تجعل لمعاوية في ذلك حظاً ونصيباً ، إلا أن نريد مزيد الفرق بين هاشم وعبد شمس ، وبين عبد المطلب وحرب ، وأبي طالب وأبي سفيان ، ونذهب إلى البيان والفصاحة ، والفصاحة مما قد يتفاضل فيه البرّ والفاجر ويتساوى فيه الجاهليّ والإسلاميّ ؛ وإن أردتُ معرفة ذلك فانظر في كتابي الذي فرقتُ فيه بين قبائل قريش وميزتُ فيه بني عبد مناف وبيّنت فيه من فضل هاشم وأظهرتُ فيه جمال عبد المطلب .

أولست ، يا ابن حسان ، قد أطمعته في التمثيل بينها وأقررت بالحاجة إلى تمييز حاليتها ، وقد علمنا أن الله - تعالى قدره - قد قال : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ ﴾ ؛ وقال : ﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ ؛ وليس ذلك في موضع الخيار وتمييز الحال من الحال ولا على الموازنة بين أئمّ الخيرين ؛ [فلولا] اتقاء الله قلتُ مقالة تسير مع الركبان [أفردها] بعليّ ؛ وإن الربيع ابن زياد قال :

عُمارة السُّهَابِ خَيْرٌ مِنْ عَلَسٍ      وَزُرْعَةُ النَّسَاءِ ( ٢ ) شَرٌّ مِنْ أَنْسٍ  
وَإِنَّا خَيْرٌ مِنْكَ يَا قَتَبَ الْفَرَسِ

وإنما هذا على معنى قول عليّ لأجناده ، وكخطبته على أصحابه عند استبطائه إياهم وتأييده لهم : « أبدلني الله بكم من هو خير لي منكم وأبدلكم بي من هو شرّ لكم مني » ؛ والكلمة تكون جواباً فتدلّ على معنى ، ثم تكون ابتداء فتدلّ على خلاف ذلك المعنى ، وتدور دلالتها مع ظاهر الحالات على قدر ما يسبق من المثالات حتى تكون الكلمة كفرة في حال وإيماناً في حال .

فكذلك المجاز والتصحيح ، والتضريب والتبعيد ، والارتجال والتحرير ،  
والكناية والإفصاح ، والتعقيد والإسجاج ، والخلط والإيجاز ، والإفهام والإلغاز ،  
والمعارضة والكنى والاستكراه والهدأ ، وغير ذلك من أشكال الكلام  
وحدوده وصوره وأقسامه ودلائله ؛ وقد قال كثير :

فهلأ فإداك الموت من كل ريبه ومن هو أسوأ منك ذلاً وأقبح

وقال حسان بن ثابت في بعض ما يصرخ وينافح عن النبي صلى الله عليه  
وسلم :

أتهجوه ولست له بكفء فشركتما تحيرتكما الفداء ؟

وسمع أعرابي رجلاً يقول : « الشحيح أعذر من الظالم » - فقال : « أخزى  
الله أمرين خيرهما الشح !

وعتبت عليك في معاونة إبراهيم بن الحسن على ترك القنوت في مسجد ابن زغبان  
ومحلة البصريين وزاد في التعجب منك والإنكار عليك تخذيل خالد الأزلية ،  
[ . . . ] عنه خبرني ، حدثني [ عن ] غدرك إياه ؛ فأنت معتزلي نظامي ؛  
فكانت محابة خالد على نصيبه من مذهب البصريين من القنوت - وليس القنوت  
من دينه - أوفر من محاباتك على نصيبك من مذهب المعتزلة في القنوت - وهو من  
دينك ؛ وقد علمنا أن الذي بناه من ماله وأوقف عليه الغلات لنوابته بصري ابن  
بصري ثم معتزلي ؛ على ذلك اشترى الأرض ووضع الأساس وشيد البنيان  
وكتب عليه ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ ، وهو الفضيل بن عبد الرحمن  
مولي بني سدوس ؛ ولم يزل المسجد يقنت فيه الجبري كما يقنت فيه المعتزلي  
العدلي ، ويقنت فيه النابقي كما يقنت فيه المعتزلي ومن صلى فيه ، حتى عرضت  
فيه بما دل خالداً - بزعمه - على رقة دينك وسخافة عقلك وحلمك وانفساخ عقدك  
وسوء المحافظة على نحلتهك ، غير مكترث لما نال عرضك وغير محتفل بما نلم  
دينك وساء وليك وسر عدوك .

### [ ٣ - فضائل معاوية ]

ولم أقل إن معاوية ليس بذكور بالعقل والحلم وبالدهاء والفهم وبالنكرى والجزم والسودد والعزم ، وبالبيان العجيب والغور البعيد ، وإنه لم يكن كاتب وحي الله وصاحب ديوان بيت مال الله ، وإن أبا بكر لم يؤت مقعدة أخيه ، وإن عمر لم يجمع له أرباع الشامات وأنه لم يعزله إلى أن توفي ولم يغضب عليه مد رضي عنه ، ولم يكتب له بفضل خصال القضاء وترتيب منازل الحكم ، كما كتب إلى أبي موسى الأشعري وإلى قضاته في الأمصار ورجال الفتيا في الأطراف ، وإن عثمان لم يؤكد له ما تقدم منها وثبت له ما جرى له من قبلها وزاد في تثبيت عدائه وتزكية بجماله في سني الجماعة وسني الاختلاف ، وأدى حالاته أن يكون مؤمناً غير فاسق وولياً غير عدو وعدلاً غير مزور ، مع علمي بأنهم لم يكونوا ليولوا الثغور والاحرام والإمارات العظام إلا القوي الأمين وصاحب الرأي الرصين .



### [ ٤ - أسس استحقاق الإمامة بنظر الجاحظ ]

ولكن الخلافة ، يا ابن حسان ، لا تستحق والإمامة لا تستوجب إلا بالتقدم في الفضل والتقدم في السوابق ، وإلا بان يكون الفضل إما ظاهراً للعيون ومشهوراً عند جميع المسلمين قد أجمعوا على تقديم رجل وتأمير أمير من تلقاء أنفسهم بغير سيف ولا خوف ولا إكراه ظاهر ولا سبب يوجب سوء الظن فضلاً على غير ذلك ؛ وإما بأن يختاروه عن تشاور وتناظر ويظهر فضله بعد طول التخابر ؛ أو يكون له ذلك [ في ] مصره دون رهطه بميراث العمومة ويستحقها كما تستحق المقامات الموروثة ؛ أو يكون ذلك من جهة وصية أو وراثة مشهورة ؛ أو يكون ذلك نتيجة خصال كريمة لاقت القرابة وحرمة العترة ، فبلغ صاحبها باجتماع الخصلتين ما لا يبلغه صاحب الواحدة ويكون مقنعاً للإلف لأنه أمس بالمعدن وأقرب من صاحب المقام وأحرى أن لا يخفى مكانه على بعيد

الدار ، كما لا يأنف منه العظيم الكبير ، وإن كان نصيبه من الطاعة دون نصيب كثير ممن لا يجري مجراه في شرفه ولا يشاكله في موضعه ؛ وهذه الأركان لتجتمع على جميع المقالات إلا ما لا يعدّه المتكلمون قولاً وكان عندهم عارضاً بهرجاً .

### [ ٥ - معاوية لا يستحق الإمامة ]

ولم نجدهم ادعوا لمعاوية إلا أنه كان رجلاً من عرض المسلمين وصالح الطلقاء وكاتب الوحي ، فقد كتبه قبله من قد علمتم : ابن أبي سرح ثم كان من أمره ما كان ، وكتبه علي بن أبي طالب وكتبه حنظلة الكاتب الأسيدي وكتبه زيد بن ثابت ، فلم نجد أحداً جعل كتابتهم للوحي سبباً إلى ادعاء شيء من مراتب الإمامة وطبقات استحقاق الخلافة .

وأما قولهم « خال المؤمنين » ، فإنه إما يكون خالاً لو كان كون أم حبيبة أمّاً للمؤمنين من طريق النسب لا من طريق تحريم النكاح والتعظيم لحقوق الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ؛ ولو كان قولهم قياساً مقبولاً وتأويلاً معقولاً لكان أبو بكر وعمر وأبو سفيان أجداداً للمسلمين ، ولكان جميع ولد أبي بكر ودمر أخوالاً للمسلمين ، ولكان سالم بن عبد الله ابن خال المسلمين ، وهذا حمل بالاحتجاج به سفه والقاتل به إما ساقط العقل وإما ظاهر العبث .

وإن كان معاوية قد كان سكن إلى هذا القول وكان هذا القول قد قيل في تلك الأيام ، فما كان ذلك منه إلا من خوف شديد وحاجة مفرطة ؛ ولو كان للمسلمات خالاً لما جاز له أن ينكهن ، وهذا رأي ساقط ومذهب فاضح .

### [ ٦ - معاوية يدهي استحقاقه الإمامة لأنه يطالب علياً بدم عثمان ]

وليس ينبغي لمعاوية أن يُحمد على ما أتفق له من أسباب القوة وتبهاً له من الملك إلا قتل عثمان والذين صاحوا يوم قالوا : « أخرجوا لنا قتلة عثمان ! » .

- فقالوا : « كلنا قتلة عثمان ! » ، لأن عثمان لو لم يُقتل لم يُمكنه أن يُوهم أعمار الأمة وأغثار أهل الشام والقابليين والمفتونين من الأعراب وأشباه العرب أن علياً هو الذي قتله أو كان السبب [ لقت ] له عندهم من جهة الشبهة على أهل الغباء والغفلة أو على من يُعميه هواء أو يلي جده ، وصار من قتل إمام المسلمين يتبرأ عندهم ممن قتل رجلاً من عرض المسلمين ، وقَاتِلُ المؤمن عندهم ضالٌّ والضالُّ لا يكون شاهداً فكيف يكون عندهم حاكماً ؟ ومن لا يجوز أن يكون عندهم حاكماً فكيف يجوز أن يكون عندهم إماماً ؟

[ ٧ - معاوية يستغل موقف سعد وابن عمر ويفيد من اختلاف جند علي

واتفاق جنده ]

فلما فرغ من تثبيت ذلك عندهم ومهمهم أن من منع الضال من الإمامة أحقُّ منه بالإمامة ، وأن أولى الناس بمقام الإمام من انتدب للطلب بدعه وبذل في ذلك نفسه لأخذ الحق من لولده وولي دمه ، فلما فرغ من ذلك ومهمهم وثبتت عندهم أن من دان بدين سعد وذهب مذهب ابن عمر ممن لا يرى قتال « الفئة الباغية » ويقول : « كُنْ عبد الله المقتول » لا يرى طلبها ولا الدفع عنها إلا بالكف دون البسط والأب الجهدال دون القتال - وعلى أن عليه إن ظن أن الجهدال يؤدي إلى شيء من القتال أن يكون أترك الناس للدعاء إليها والإحواج لها فضلاً على غير ذلك من الأمور [ ... ] .

هذا مع ما عليه من طبائع الناس من حب المال والعلو في الحال وأنه متى لم يرغهم السوط وينهكهم السيف فالأمر مريع والفساد شامل والحرب أكيدة والفتن شائعة والأمر مضاع والحق مقموع ، ومن عز بز ومن قل قل ومن قل أكمل ومن ظهر قتل ؛ فالإمام ما لم يحم مكانه وثغر سلطانه فمغلوب معزول ومطلوب مقتول ، والرئيس ما لم يندد عن حوضه ويحامي عن عشيرته فمسلوب مغلول أو [ م ] شلو [ ل ] مأكول على الدنيا ولم يكن معنى قط على هذه الصفة

ولا صحت يوماً قط إلا على خلاف هذه الحال .

ومما تبيها له من الأسباب وأتفق له من العلل ما كان ظاهراً من رأي سعد  
وابن حمر في تحريم البسط والأمر بالكف والنهي عن حمل السلاح والإمكان من  
الحربة : فاجتمع له السبب الذي به يؤهم موضع دم عثمان ؛ فإن سعداً ، وإن  
كان بقاءة الشورى ، فإن الحق لا يفريه وإن الباطل لا يضل به ؛ وهى هذين  
الأصلين دار [ . . . . . ] الطمع منه فيها واستجاز الطلب لها والحرص  
عليها .

ثم أتفق أن جنده بمائة إلا القليل ، وجند علي نزارية إلا القليل ؛ وأتفق  
أن كان أهل العراق أصحاب الخواطر والنظر والتأويل والقياس ، ومع هذه  
الصفة يكون الاختلاف إذ كانوا عرباً وأعراباً وعهدهم بالجاهلية قريب وتمظيم  
الرؤساء فيهم غير قديم ؛ وأهل الشام هم في قلة الخواطر والتقدير وفي قلة الفطنة  
والتفتيش على خلاف ذلك ؛ وكانوا ملوكاً وأجناد ملوك أو قرابين ملوك ، لا  
يعرفون إلا طاعة الملوك والكبراء واتباع الرؤساء ؛ وقد علمت أنه متى أطاع الجنود  
الرئيس والرئيس يصيب الرأي ، فكلمهم رئيس وكلهم مصيب ومع الإنصاف  
تجتمع القوة ويقوى الضعيف ، ومع الاختلاف يتثر الأمر وتنكبت القوة ؛ وقيل  
لرجل من عبس : « كيف نهضتم بالعمائر الكبار على الألو ؟ » - قال : « كان  
لنا رئيس يصيب الرأي وكنا له تبعاً فكنا ألف رئيس » .

وجند علي بن أبي طالب من ربيعة ومضّر ، وهم كانوا أصحاب التحارب  
في الجاهلية والتجاذب ، وفيهم كان التحالف والتجاور ، وهم كانوا أصحاب الغزو  
والغارات والسبي وطلب الطوائل ، وأكثرهم أصحاب وير وعمد وصحار ،  
وأقلهم أصحاب المنذر والمحال ، وأكثرهم أصحاب الحذر والنجمة والفقه والمواثبة  
[ ٢ ] ومع الحاجة يكون الطلب والحركة ومع الغناء والخصب يكون الحلم  
والمرؤة والثاقل عن الحركة ؛ حتى كان رؤسائهم يخرجون في الحروب والمغازي  
متسارين ، لكل رأس لواء ولكل سيد معسكر ؛ وما زال أصحاب التجارب

والعقول وأهل النظر والتحصيل من كل ملة وأمة وقرن وبلدة يرون أن الشرك في الحرب كالشرك في الملك وأنها كالشرك في الزوجة ، وأن الخطأ في ذلك لا يُستقال والوهن لا يستدرك ، وأن هذه الخصال فاحشة الضرر سيئة الاثر ، لا يثبت معها إلف ولا يصلح عليها تدبير ؛ فاحتملوا ما في التشابه من ضرر التساند لنكود الاخلاق ولشرف الحمية ولما كانوا عليه من حمية الجاهلية .

ألا ترى أن مروان بن محمد لما استبدل قيس عيلان الجند بقيس عيلان الجند ، من أبناء قحطان ، كيف ظهر انتشار أمره واضطرب حبله واختلفت الكلمة وتقطع النظام وانحلت العقد وأدبر الملك وركدت الريح ؟ هذا وقيس عثمانية عند أنفسها جماعية دعامية فيما تذهب إليه سلطانية ، كذلك اصطهرت إليها الملوك ، يعني المصاهرة دون النزارية بالانفس ، ووليت العراق المرار الكثيرة والثغور العظام والمهم من الأمور الجسام ؛ ولم يفعلوا ذلك بتميم ولا بريعة لما كان فيها من النزوح والخارجية ، ولذلك قلت الفسوح في تميم وربيعة ؛ وكانت قيس في جملة أمورها ومعظم تدبيرها زارية على الشيعة ناقمة عليها ، نافرة من الخوارج ناهية عنها ؛ وقد عرفت ما كان من شأن زفر ابن الحارث ومجاشع ابن مسعود وحاتم بن النعمان والخفاف بن حكيم ، وحال كل من سيره علي من البصرة بعد وقعة الجمل الى الجزيرة ؛ ثم مع ذلك ما برحت أن نزعها ذلك العزم وجذبها ذلك الطمع ولم تدعها الرحم من نزار ، وعرف مروان فضل رأي أسلافه على رأيه وتدبيرهم على تدبيره .

ولعل قائلًا يقول : « فأين ربيعة السامعة المطيعة وكانت شطر نزار ومعظم الفرسان ؟ أو ما كانوا في طاعة علي مجتهدين وعلى معاوية مطيعين ، حتى هجروا فيه الإخوان والجيران وفارقوا من أجله الأوطان كصنيع عجل بالبصرة وانتقلهم بعد نصرته يوم الجمل إلى الكوفة حتى نزلت ديارهم وصارت في ربوعهم الازد ، يتقدمها ابن نوح ؟ قال في ذلك الشاعر :

وَسَيَّبَ رَأْسِي قَبْلَ حِينَ مَشِيئِهِ      نَزُولَ الْعَبِيدِ فِي دِيَارِ بَنِي عَجَلٍ

قلنا لهم عند ذلك : قد كانوا كما وصفتم ثم صاروا شراً من قيس وأكثر خلافاً من تميم ، على أنهم بتميم أشبه ؛ ولذلك قال الحجاج : « الكوفة أشبهه بالبصرة من بكر بن وائل بتميم » ؛ بل صارت رجال يمانية أسوأ طاعة وأكثر خلافاً من رجال نزار ، كالذي كان بين الأستر والأشعث وكالذي كان بين الأشعث وحجر ؛ وما تخفى عليك أمور همدان وكندة في تلك الأيام ، وحال سعيد بن قيس ، وما كان من قول عبد الله بن بُدَيْل ، هذا إن كان بعض ما ذكرنا يعرفها من قبل عليٍّ ومعاوية ابن ملجم ، ومن إمداده الرأي ومن تشجيعه على الاقدام وإفساد يانيته عليه فضلاً على قيسته ؛ فقال يزيد بن حجة قبل أن يكون إليه من عليٍّ بن أبي طالب ما كان :

عَادَتْ رَبِيعَةَ قَيْسًا بَعْدَ طَاعَتِهَا      حَقُّ السِّمَانِيِّ لَا يُبْقِي وَلَا يَنْزُرُ

ثم صرف إلى معاوية مع أكثر قومه من تيم اللات بن ثعلبة وقال :

وَقَالُوا: عَلِيٌّ لَيْسَ يُقْتَلُ مُسْلِمًا      فَمَنْ ذَا الَّذِي يُحْيِي الرُّفَاتَ وَيُقْتَلُ

ثم لحق بالشام خالد بن المعمر في أكثر بني سدوس ، ولقدره ولقدر ما جلب إلى معاوية من القوة قال قائلهم :

مَعَاوِيَةُ أَمْرُ خَالِدِ بْنِ مَعْمَرٍ      فَإِنَّكَ لَوْلَا خَالِدٌ لَمْ تُعْمَرْ

ثم لحق مصقذ بن هبيرة في عامة بني شيان في رجال كثير ورؤساء لا يُحصون ، معروف سبب هربهم وشهور تنقمهم ؛ وأما مصقلة بن هبيرة فإنه طولب بما عليه من مال الله من ثمن من أعتق من بني ناجية ؛ وأما يزيد بن حجة ففر من الجيش لما كان فر من خراج المسلمين إلى ما لا يعرف من هرب النجاشي عند شرب الخمر .

[ ٨ - معاوية يلجأ الى الترغيب بالمال والتولية على عكس علي ]

والجملة أن رجالات العرب ورؤساء الأعراب وكثيراً من أهل البأس  
والنجدة والرئاسة في المشيرة كان سوء معاوية ومعاملته أحب إليهم من سوء علي  
ابن أبي طالب ومعاملته ، لأن القوم ، لما ثبت عندهم من إطعام خراج مصر  
عمرو بن العاص ما ثبت ، ومن ضمانه لذي الكلاع سميفع بن ناكور ما  
ضمن ، ولحبيب بن مسلمة ما قد علمت ، ورأوا ما صنع علي بن يزيد بن حجة  
وسمعوا رد جوابه على من سأله أن يزيد في عطاء الحسن والحسين وكيف قال ،  
ورأوا مع ذلك شدته على الخائن وقمعه للظالم وأن الرجال أنما تحظى  
عنده على قدر الزهد والفقه وعلى قدر الوفاء والنجدة وعلى قدر العلم بالكتاب  
والسنة ، لم يكن لهم هم إلا التخلص إلى معاوية وإلا أن يصيروا إلى من يرتع  
ويرتعون معه ويأخذ ويأخذون معه ويذهب مذهب التودد والتحبب والتألف ويدع  
مذهب الإمامة وإقامة جزاء الحسن والحسين ؛ وقد قال خالد ابن المعمر لعلياء بن  
الميثم : « أتتني الله في عشيرتك وانظر لنفسك ورحمك ، ما يؤمل عند رجل أردته  
على أن يزيد في عطاء الحسن والحسين ذريهات يسيرة ريشا يبلان بها من طريف  
عيشها ، فأبى وغضب ؟ » .

[ ٩ - حيلة المصاحف تنظلي على الناس ]

فكل ما ذكرنا مما اتفق له من غير اكتساب وتهيباً له من غير احتيال ، فغير  
مكره - حفظك الله - معاوية على ما اتفق له ولا ملوم علي بن أبي طالب على ما  
امتنحى به فيهم ؛ فعلى هذه العقدة دار الكلام ؛ ثم اتفق له الخلاف الذي كان  
عن رفع المصاحف والانتشار الذي حدث عن ذلك التدبير والحيلة ؛ فانظر هل  
ألفى عليٌ عندها عاقلاً أو صادف بها عزيزاً ؟ ولقد قال ثم أعاد القول ثم احتج  
وعرف وزجر وتوعد وقال : « ويحكم ! إنها خدعة ومكيدة ، وإنها بعد دليل على  
الفشل وعلى انقطاع القوة ؛ فانتهزوا هذه الفرصة فقد دلكم بها على موضع

العورة ، وليس بينكم وبين الظفر إلا صبر ساعة ؛ فكان أشدّ القوم عليه  
خلاقاً وأفحشهم عنوداً الذين صاروا بعدُ إلى إكفاره وإلى البراءة منه بعد إقرارهم  
بأنه كان المستبصر والمحدود والواعظ والمتوعد ، وأنهم كانوا المخدوعين والمفرورين  
والمخدولين ؛ فهذا هذا .

[ ١٠ - دهاء عمرو بن العاص وغباء ابي موسى الأشعري ]

وكان ما أمّتحن به عليّ واشتدّت البلوى على أصحابه فيه وعلى اصحاب  
النبيّ وعلى من معه من أجناده ومن خاصة أهله ، أن صار الحُكْمُ المُوازِي  
لعمر بن العاص أبا موسى الأشعري ، فكان من خدعه له ومن غدر عمرو به  
ما قد علمتم ؛ ولم تجد الناس اقتصروا من أمرهما على أنه خدعه بفضل أرب  
وكأده بعد غور واستنزله بفضل [ ..... ] ؛ فلو لا يزال يكون مثله يبين  
الرجال من رجال الرأي والدهاء والمادة وجدت العامة والطبقة التي تلي العامة لا  
يشكون أن أبا موسى كان أغبى العالمين وأعبا الأولين والآخرين ، وأنه فوق  
جهيزة في سقوط الرأي ، وأسوأ حالاً من دغة في الرقاعة ، وأكثر خطلاً وأعجب  
خطأ وأغرب غلطاً من جحا وأعبا لساناً من باقل .

[ ١١ - دوافع ابي موسى الى موقفه في التحكيم ]

وليس يقول هذا - رحمك الله - إلا من لا علم له ولا تحصيل عنده ؛ قد  
عرفنا حال ابي موسى عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعند ابي بكر ومنزله  
من عمر بن الخطاب ومكانه من عثمان بن عفان في كثرة فتوحه وصحة تدبيره ،  
ألا وإنما عن مقارعة شديدة ومنافقة [ ؟ ] طويلة بالرأي السديد والكيد البعيد  
والسيوف الحداد وبالعدّة والعتاد وسياسة الأجناد وبمين الفتنة والسلامة العجيبة  
وحفظ الرعية والقسمة بأسوية ، ومع الفقه في الدين والعلم بالقياس والحجج في  
الفتيا ؛ وكان سادس ستة ممن حصلوا من فقهاء الصحابة وأحد القضاة

وأحد الثلاثة ، ولذلك قالوا : « ثلاثة أخذوا عن ثلاثة : ابن مسعود عن عمر ،  
وأبو موسى عن عليّ ، وزيد عن أبي » ؛ ويسدلّ على ذلك قول الشاعر في مدح  
بلال ابن أبي بردة بن أبي موسى وكان قاضياً ابن قاض ابن قاض ، قال له :

وأنت يا ابنَ قاضيينِ

وقال آخر في بلال :

قَضَيْتَ عَلَى عِرْقِي بِمَا لَكَ صَاعِداً وَأَوْتَيْتَ بِمِزْمَاراً وَخُطْبَةً فَيُصَلِّ

( ذهب من المزمار الى ما كان أعطي أبو موسى في حنجرته من الصفا  
والشحا ؛ وذهب من ذكر الخطبة الى ما كان أعطي في لسانه من البيان ) .

- وكان مع ذلك مشهوراً بالحلم ومذكوراً بالفقه ، من المعدودين في  
أصحاب الفتوح ومن المذكورين في الولاية والعمال ومن المعروفين بالنزاهة وطيب  
الطعمة ومن المعروفين بصحة الرواية ؛ ثم خصلة ما أقل ما تجدها وأكثر ما  
تفقدتها وهي قلة التغير مع طول الولاية والثبات على الأمر الأول مع كثرة الفتوح  
والفائدة ، ولو كان أبو موسى كما يقولون غيباً منقوص العقل ضعيفاً ، لكان اللوم  
على تأميره [ على ] البلدان والأمصار وعلى الجيوش العظام وتسليطه على  
الأحكام ، على مَنْ ولاء دونه ؛ ولو كان ذلك كذلك لكان لعليّ في ذلك أوفر  
الأقسام .

كلاً ، ولكننا نقول فيه كما قال أهل العلم من أسلافنا وأهل العدالة من  
مشايخنا : نقطع الشهادة على كل ما أجمعوا عليه ونقف عند كل ما اختلفوا فيه ،  
وقولي فيه ، إن لم يكن قول أبي إسحق بعينه فيما أقربه من قوله ؛ قال أبو  
إسحق : كانت التي خلع بها علي بن أبي طالب دون عمرو وبعد التصادر على  
ذلك والتوكيد له نتيجة خمس خصال ، منها انصرافه عن عليّ ، والاخرى ميله الى  
رأي سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر وزيد بن ثابت ومحمد بن مسلمة  
وصهيب بن ميان وأسامة بن زيد من الكفّ وتحريم القتال ، ولذلك روى

بالكوفة ما روى حيث أقعد الناس عن علي بن أبي طالب ونصرته ومعاونته حتى جرى في ذلك بينه وبين الحسن وهما ما جرى حيث قال : « سمعتُ النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « تكون فتنة القاهد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشي والماشي [ فيها ] خير من الساعي » .

وخصلة اخرى وهي ميله من عدنان لقحطان ولذلك قال يومئذ : « لو كان هذا الامر لا يُنال إلا بالقدم والشرف لكان رجل من أولاد أبرهة بن الصباح أولى بها منها » ؛ وخصلة اخرى وهي نقصانه لاحتالة عن مقدار عمرو في بُعد الفكر وثبته المكر ، ولكن ليس من خُدع مرة او كان دون أدهى الناس فلا اسْم له إلا الغبي العمي الجاهل المنقوص ؛ وخصلة اخرى وهي ما كان إسرار قلبه من تصييرها الى ابن عمر بكل حيلة ويكل قيد وقوة ، ولذلك وافى ابن عمر دومة الجندل ، والخصلة من هذه الخصال - رحمك الله - تصرف بنصيبها من إدخال الخطأ على العقل ، فما ظنك بها وقد أقبلت معاً ثم صادفت عقلاً مستهدفاً وعرضاً قريباً ؟ .

مركز تحت كنفه صلوات ربي  
[ ١٢ - لماذا قبل علي بابي موسى حكياً ]

وكان أبو اسحق يتعجب من قول من زعم أن علياً إنما اجبر على أبي موسى اجباراً ولم يوجه اختياراً لأن اليمانية أبت أن تكون إلا ميزان نزاريين ؛ قال أبو اسحق : قد علمنا أن من شأن طبائع الأزدي وثيم ويكر ويربوع وتغلب وقيس وجملة عدنان وجملة قحطان أن تتفانى في أقل من هذا ، وقد عرفنا سبب حرب البسوس وسبب حرب لبني قيلة وسبب حرب داحس والغبراء ، وهي حرب الإخوة وأطول حرب كانت في الجاهلية وأشدّها ضغينةً وأبعدها غاية في طلب الطائفة ، وما كان بعد ذلك عما كان بين تغلب وقيس وابن أبي الهيثم وقبائل اليمن بالشام وغير ذلك ، وكيف كان صغر الامر في أوائلها وعظمتها في أواخرها ، وكيف طبائع العرب قاطبة والاعراب خاصة ، وكيف نفوس الاجناد ، وكيف حركة الاتباع ، وكيف صبرت نزار كلُّها ، مع ما وصفنا ، عل هذه الذلّة

واغضت على هذا القذى وتعرضت لهذا التغير وكيف استنجدت وأطرقت  
وطابعت وسامت حتى لم يختلف سيفان ، والسيوف عتيده ، ولا اجتمعت في  
ذلك جماعة والحيام متقابلة .

ثم لم يقل فيه شاعر قصيدة واحدة ولا فخر به فاحر مرة واحدة ، فلا  
هؤلاء هجوا ولا هؤلاء مدحوا ؛ وهل يعرف هذا من أخلاقهم وهل يُظن هذا  
بهم ؟ بل متى اغضت نزار من اليمن على مثلها ؟ ولو كانت معاودة لذلك منها في  
جاهليتها لما صبرت على ذلك بعد تحوّل الملك فيها والنبوة إليها ، وقد رأيناهم  
كيف كانوا يوم خَزَازَى ويوم الكلاب والآخر ويوم شويحط ويوم اجتمعت تميم  
على زُرارة ويوم اجتمعت على غزو اليمن في فكّ تميم من أيدي العباهلة  
والرثسان الاضبط بن قُرييع والنمر الحصاني ، وكم قتلوا من الملوك عنوة وكم  
غزوا ديارهم لا يلتمسون حياً دونهم كعمرو حذيفة بن زيد وجصن بن حذيفة  
وفلان وفلان .

واحتسبت كيف لم تتجمد باحتمال ملاحها ولم تتقرب بذلك إلى عليّ ابن أبي طالب  
ولم تجنح بالورع وتدع بغض الطرّ وكراهة الفتنه إن كان العجز قد قطعها والجبن  
قد خلع قلوبها . وكيف حمل على نفسه هذه الدنية وكيف [قبل] بالضغطة وكيف نزل على  
هذا الحكم وكيف أمكن من نفسه هذا التمكين وأغرى بها هذا الاغراء ، وفي  
دون ذلك مرزية الأعداء وضراوة لأهل العصبية ، وقد علم أن فطم العادة شديد  
وأن نزع صاحب الدربة عسير .

وقال أبو إسحق : احسبهم كانوا القاهرين والغالين والمتحكمين المتحكمين  
ما خالف إلى أبي موسى وأي جمع كان هنالك من الأشعريين وأي عجز كان في  
ذلك العسكر لأهل بلده ؟ وإن كان غيباً عند أصحابه مضموناً قليلاً المعرفة  
مخدوعاً ، فماذا الذي اضطرهم إليه ؟ فأين كان الاشعث بن قيس ؟ وأين كان  
سعد بن قيس ؟ وأين كان عبد الله بن بُدَيْل ؟ وأين كان قيس بن سعد ؟ فان  
قلت إن القوم لم يرضوا إلا بمن له صحبة ، فما حذب لمعاوية هذا التحديب على

الصحابة ، وهذا التعظيم لمن له هذه الحرمة ، وهذا التقديم لمن له هذه  
التقدمة ؟ ولا بأس ، فأين كان أبو أيوب الأنصاري وأبو مسعود البدري ؟ وأين  
كان عدي بن حاتم ؟ فإن أقرت قحطان بأنه لم يكن في جماعته رجلٌ  
واحدٌ كانت له صحبة يفي موازاة عمرو بن العاص ، فقد أقرّوا بالخسيصة  
وسلموا بالفضيلة .

ولعمري أن لو كان المسؤولون من نزار لذكروا رجالاً قد جمعوا مع الصحبة  
العقل البارع والتجربة الكثيرة والرأي الاصيل والغور البعيد والحزم والعزم  
والعلم والنكرى والدهاء والرأي [ . . . . . ] ، ولو كانت الحال قد بلغت بعلي  
إلى أن صار لا يمتنع من قهر تلك اليمانية ومن غلبة بعض ذلك الجند ، وذلك  
ظاهراً لمعاوية ولجواسيسه السمية ، ويُزال عنه فرض الجهاد ، فمن كان كذلك  
كان عن حلبة أهل الشام وأجناده المتناصرة بالأيدي المثقفة هو أعجز .

كلّا ، ليس الأمر على ما قالوا وذكروا ، فما دعا إذا معاوية إلى المحاكمة  
وكيف رضي بالنصفة ؟ كان علي بن أبي طالب أشدّ ورعاً وأثقب نظراً والطف في  
الأمور تدخلاً من أن يوجهه مع عمرو بن العاص حكماً وهو عنده عبد منقوص أو  
عدو مرصد ، بل لا كَرَّر أن يقلده مثل ذلك الأمر وهو عنده ظنين عليه ، وكان  
الاقبل من ذلك أن لا يدع الاحتجاج والتبيين والاعتذار الى غيره من رعيته  
وأجناده ، فمن أين اتى - يرحمك الله - أمن كلال وجمد وعي لسان ، أم من قلة  
معرفة وضعف مخبرة ؟ أو من جبن قلب وشدة هيبة ؟ أم من خور في العرق ؟ أم  
من فساد في أصل الطينة ؟ أم من خبث في المنشأ والعادة ؟ أم من قلة ممارسة  
للحروب ومقارعة للابطال ومعاودة للقتال ، مع قتل الفرسان والقادة والرؤساء  
والسادة ، وهل رُبِّ إلا فيها وهل نبت لحمه إلا عليها وهل يعرف شيئاً سواها ؟  
ألا يدور ما يعرف منها على استفاضة علمه واتساع معرفته ؟

ولو لم يكن عليّ امتحن منها بشيء قط ولا اختبر بأمر قط إلا بما امتحن به  
يوم نادى مشادي معاوية : « أخرجوا الينا قتلة عثمان اء ، لكان في ذلك أعظم

المحنة وأشدّ البلاء والفتنة ، ولقد ابتلي عليّ بعقد لا سبيل إلى حله وبفضل لا حيلة في فتحه ، ولو كان باب الحيلة فيه مغلقاً ولم يكن [ ..... ] مبهماً ، لكان أحقّ من [ ..... ] ذلك القفل و [ ..... ] لذلك الغلق ؛ ألا ترى أنه لو أخرج إليهم طلبتهم والذين أوقعوا عليهم ظنونهم ومن هو عندهم قاتله إما معيناً وإما متولياً وإما بالهوى والمحبة والنحلة والديانة ، لدفع إليهم محمد بن أبي بكر وكنانة بن بشر وعمرو بن الحمق وسودان بن حمران ومالك الاشر وعبد الله بن عديس وعمرو بن زُرارة وعُمير بن ضاهية وفلاناً وفلاناً ؟

ولو أخرجوهم إليهم لامتنعوا بعشائرههم ولمنعتههم الذين قالوا : « كلنا نصيحة واحدة ، كلنا قتال عثمان ! » ؛ ولو كان كذلك لكان معاوية أول واثب بهم وكان ذلك من أكبر فريضة فيهم . ولو أخرجوهم إليهم وسلموهم في أيديهم ، لقتلوهم خبطاً بالسيوف ورضخاً بالجنادل ، ولاعجلوهم عن حكم الإمام القائم وعن الثبوت والتعرف وعن تمييز ما بين الأمر والمحبة والمعين والمتولي والمتهم والمعترف بالدم .

ولو قام عليّ في كَلِّ عَدِيهِمْ وَعَدُوَّتِهِمْ يردّ عليهم ويكذبهم ، لكان توابب بعضهم إلى بعض بالجدال والقتال أقرب من وثوب معاوية بهم على قرب ذلك منهم ، ولو جرى بينهم بعض ما هو دون السابقة والمتأخرة لكان في تشاغلهم واضطراب حبلهم واختلاف كلمتهم وانتشار أمرهم ما يدعو أهل الشام إلى الوثوب بهم والشدّ عليهم ؛ ولو فعل ذلك والحال كذلك لما كان دون البوار سبتر ولا دون الظفر بهم مانع ولا حائل .

وقد علمت - حفظك الله - أن الناس في قتل عثمان على ثلاث طبقات :  
 طبقة تدعي ان قتل علي لعثمان كان من اكبر طاعاته لله ، وهذه الطبقة هم الشيعة والخوارج ؛ وإن الطبقة الأخرى هي الذين يسرون الوقوف فيه وفي عثمان ، وفيه وفي طلحة والزبير، ويتولّوهم على أصولهم ويقفون عند أحداثهم ، والطبقة الثالثة وهم السواد الاعظم والجمهور الاكبر ، منهم أصحاب الحديث

والقضاة والنوابت ومن زعم أن جميع أهل الكلام [ ..... ] وأن الكفت  
عن ذلك هو السنة والجماعة .

فلو أن علياً قال يوم ذلك : كذبوا ، لم يكن ذلك تدبيراً ، وقد ذكرنا ذلك  
وفسرناه ، ولو قال : صدقوا ، لخلعه جميع من يرى الوقوف وجميع من يرى تبرئته  
ونفى تلك الدعوى عنه ؛ ولو كان علي سبيل من قتله لما كان عليه في ذلك اليوم  
الإقرار بقتله ، إذ كان الاقرار فيه ليس بفرض واجب ، ولا كان مأخوذاً به ،  
وفيه إفساد قلوب العامة وبعض الخاصة ، وما كان إلا كرجلٍ قال إن السماء  
خضراء ، فقد صدق ، وليس عليه أن يقول في كل حين إن هذه سماء ولا إنها  
خضراء ، ولكن عليه ، إن أثر أن يخبر ، أن لا ينكر أنها خضراء .

فكذلك كانت حال علي بن أبي طالب إن كان علي سبيل من قتله وان لا يرى أن  
عقله في تلك الحال المحل الذي لا يكون أضيّق منه ، إذ كان لا يمكنه في وجه  
التدبير أن يقول : صدقوا ، ولا أن يقول : كذبوا ، فهل ترى التدبير إلا ما  
صنع علي ؟ ولذلك زعم بعض من يفضل عليه أبا بكر وعمر أن ذلك الفضل  
لها إلى أن امتحن علي بما لم يبلغه امتحانها ، فصار أفضل منهما ؛ ولولا أن الله  
قد علم أن إرادته في نفسه كانت أتمّ وعلمه أوسع وعزمه أقوى ، لما أخبره  
بذلك ولا امتحنه إلا بمثل ما امتحن به الائمة قبله .

ولو كانت هذه الرسالة تحتل [تخريج] القول في الحكمين والاحتجاج في  
جميع أبوابه لاستقصيت ذلك ، ولكني سأوميء إليك - إن شاء الله - بجملته يكتفي  
بها من كان في دون حالك بعد أن يستصحب الإنصاف ويتحفظ من الهوى  
ويتحدّ [ر من] السابق إلى القلوب وهي فارغة .

[ ١٣ - اسباب ترك علي القتال ]

قد تبين للناس كلهم اختلاف أصحاب علي بعد رفع المصاحف وإخلائهم  
إلى المقام بعد أن رجعوا إلى أوطانهم ، وكيف ملأوا الحرب وشموا طول مقارعة

الشر ، بعد أن ذاقوا الحفص ووجدوا مس المهاد وشموا ريح الأولاد ، وبعد أن  
عليه من عدد الجرحى والصرعى والقتلى ، وبعد أن وجدوا خشونة المس ومنع  
الجانب ، وبعد أن قال كبرائهم : « لا نعود حتى نشمر الكراع ونحد السلاح  
ونجني المال » .

وأنا واصف لك جملة القول في الحكمين ، إن كان كتابنا هذا يعجز عن  
التفسير ، فافهمه واعلم اني وجدت الذين خطبوا علياً في ذلك لم تجاوز نخطتهم  
له ثلاثة أوجه : أحدها اختيار أبي موسى بعينه وفي العسكر من هو أدمى منه  
وأصح ، وقد قلنا في ذلك جملة كافية إن شاء الله ، والوجه الآخر  
إنكارهم حكم الرجال في الأمر الذي قد بينه الكتاب وقطع عليه الشهادة وعرفهم  
فيه وجه الحق وهو قوله : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ،  
فَإِنْ بَغْت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ ، وأنه  
مثل قوله : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ  
اللَّهِ ﴾ ، فكما أنه ليس لعلي ولا لغيره أن يحكم الرجال في قطع السارق وفي  
الامساك عنه وفي ضرب الاجل له ، لما ظهر في الآية من الدلالة ، فكذلك ليس  
له ولا لغيره أن يحكم في قتال الفئة الباغية ويترك ما ظهر في صورة الآية وفي  
ظاهر الكتاب .

والوجه الثالث أنهم قالوا : لم يكن يخلو علي في ترك قتالهم ، وقد دعونه إليه ،  
من وجهين : إما أن يكون كان عاجزاً معذوراً أو قوياً غير معذور ، فالعذر في  
ترك القتال واقع ، بل قد فرض الله عليه أن لا يُعرض قليلاً من معه لكثير من  
مع عدوه من الاعداء ، وعليه أن يعرف ذلك الجاهل ويكف عمّن عرف الغمر  
المتسرّع ، فإن قبلوا كان قد بلغ ما أراد من الشفقة والحسنة ، وإن ردوا ما قصده  
كان قد أعذر وأنذر ، فظهر في العوامّ عذره وثبتت على سائر الانام حجته ، وإن  
كان قوياً وكان بمثل عدده وعدته يزال الظلم ويدحض الباطل ويقمع العدو ،  
فعليه أن يقاتل : فإن ظفر كان مطيعاً منصوراً ، وإن ظفر به كان مطيعاً  
معذوراً .

قد قلنا في تنازعهم واختلاف قلوبهم ونكوسهم إلى أوطانهم وفي سامتهم بما  
 قد سمعت ، وقد علمنا أن من جمع بين القلوب المختلفة والقلوب المؤتلفة وإن  
 كان عدّة المختلف فوق عدّة المؤتلف ، إنه مدموم التدبير مسخوط التقدير ؛ وإذا  
 كانوا كذلك فالرأي ان يكتم الناس داهمهم وعيبهم ولا يفطن لذلك عدوهم بكل  
 ما أمكن من الحيلة وبلغه التدبير ، وأن يستأنس بهم ويتلطف لهم ويتنظر أوتهم  
 وإفاحتهم من سكرتهم وانتباههم من رقدتهم إلى غاية وإلى نهاية ، ولا يجعل إلى  
 تفريقهم ما دام الطمع في تراجع قلوبهم ممكناً وكان الأمل في تعابريهم وتراجزمهم  
 مأمولاً .

فان قال قائل : لا نستطيع أن ننكر أنه قد كان هناك خلاف يوم رفع  
 المصاحف ، ولكننا قد علمنا أن الذين عصوه يومئذ في قطع القتال هم الذين  
 أطاعوه اليوم في معاودة القتال ، نادمين على ما كان وسلف منهم ، مقرين بالخطأ  
 على أنفسهم ، مدعين لصواب رأيهم ، وهم كانوا العصاة يوم عصوه ،  
 وصار هو العاصي يوم عصاهم ، لأنه دعاهم للقتال فأمسكوا عند رؤية  
 المصاحف ، ثم دعوه بعد أن تبينوا المكيدة التي كانت بانت له يومئذ ، فدخل في  
 مثل ما دخلوا فيه ؛ إلا أن القوم كانوا أحذر منه لفضل علمه ونقصهم عن كماله  
 وأن الشبهة عليهم يوم رفع المصاحف كانت أغمض والنفوس أشغل والرأي أقل  
 من الشبهة عليه يوم جاوزوه نادمين سادمين ومقرين متغابرين ومستغفرين نازعين ؛  
 قلنا لهؤلاء القوم : إن كان الشأن في اختلاف ألسنتهم وقلوبهم وفي سوء طاعتهم  
 وفي تشاقلهم عن قتال عدوهم وركونهم إلى المقام في أهلهم ليس على ما حكينا  
 ولا على ما ثبت به الخبر عندنا ، وإنما كان ذلك في قليل من كثير وفي مقدار لا  
 ينقص الجمهور الأعظم ولا ينقض قوى السواد الأكبر ، فهل يخلو تركه لقتالهم  
 من وجوه أنا ذكروها لكم ؟ فان كان عندكم وجه غير ما ذكرنا أو نحن ذكروه  
 فاذكروه .

لا يخلو ترك علي لقتالهم ، إن لم يكن ما قلنا حقاً ، من أن  
 يكون صار جباناً أو عاد منخوب القلب هيوباً بعد أن كان أشد الناس أشراً وقلباً

وأثمهم بصيرة وعزماً ؛ وإما أن يكون طمع في نزوع معاوية وتوبة عمرو ، وإما أن يكون ذلك منه على طريق الندم على « ما أراق من الدماء ومن عدد القتلى ، فتاب من ذلك إذ استبدل باليقين الشك وبالاستبصار الشبهة ؛ وإما أن يكون الحرف عجل عليه قبل وقت لِداته وقبل العادة المعروية [ قة ] في رهطه ، فظهر ذلك في تدبيره وغلبه الاختلاط في قوله وعمله ؛ وما علمنا أن أحداً من المخالفين والموافقين ولا من أهل الوقت ولا مما يُنسب إلى الحشو ادعى ذلك عليه ولا قرره به ؛ وكيف يقول ذلك قائل ويطمع في القبول عنه طامع وهو يعلم أن قوله مر [ دود ] مكذب ورأيه مسخوط معتل !

فاختاروا خصلةً من خصلتين : إما أن تُوجدوا وجهاً لم يُذكر ، وإما أن تثبتوا عبثاً أن علياً قد كان اعتراه بعض ما ذكرنا من الجبن أو من الحرف أو الطمع في نزوع معاوية أو الندم على ما سلف منه ؛ فعلى أي الخصال تعتمدون وأيها تدعون ؟ إن ادعيتم الجبن على أشد الناس قلباً وأشراً وأكثرهم للاقران قتلاً وأيمينهم نقيبةً وأشدهم بصيرة ، أكذبتهم الأمة ويهتَم حكم المعرفة ؛ أما عند [ د ] قتلاه وجرحاه وصرعاه ومن فر منه وترك التعرض له ، فلا أعلم ذكرهم إلا فضلاً من القول ، وما ذلك إلا كمن التمس الزيادة في العامة إذا مد البحر بالفظن ، وإما تتابع الظفر ويمن النقية فقد علمتم الذي تهيأ له من قتل العظماء والسادة والنجباء وأن ذلك أعظم العناء ، وأنه لم يتوجه في جيش قط إلا كان هو المنصور وعدوه المخدول ، كشأنه وشأن بني زبيد ، وكشأنه وشأن أصحاب الجمل ، وكشأنه وشأن أصحاب النهروان ، وهل قاومه عدو قط ، إلا ما كان في بعض ساعات أيام صفين ؟ وهل أتى في ذلك من قبل نفسه ومن تدبيره وتصميمه ومن تعبته ؟ وهل أتى إلا من جنسده؟ وهل مُنع من الظفر بهم إلا بما صنعوا بانفسهم ؟

وقد علمتم ان معاوية قد كان القى بيده وأيس من نفسه حين أحذقت به الرماح وقصد له عبد الله بن بُديل في أهل البصائر ومنعه من الفرار بزعمه الذي ذكر في شعر ابن الإطنابة بقوله :

أَبَتْ لِي عِفَّتِي وَأَبَى حَيَاتِي      وَأَخَذِي الْمَجْدَ بِالثَّمَنِ الرُّبِيحِ  
وَقَوْلِي ، كُلَّمَا جَشَأْتُ ، لِنَفْسِي      مَكَانَكَ تُحْمَلِي أَوْ تَسْتَرِيحِي

وهل نفس عن كربه ورفه عن خناقه وردَّ عليه حشاشة روحه وابقى عليه علالة  
نفسه إلا ما كان من اعتزاً [سهم] برفع المصاحف ومن تركهم القتال وهو يذكرهم  
بالله ويمظهم بالقرآن ويزجرهم بوعده ؟ وسنذكر من كلامه الدال على شدة  
اختلافهم عليه وإبطائهم عن عدوه وركوبهم إلى الراحة ، المعروف من خطبه  
والمشهور من كلامه والمذكور من مقامه الذي لا تستطيعون أن تقولوا إنه مما رواه  
أبو مخنف أو صنعه ابن داب أو ألفه شوكر أو حبره العتابي وقبل ذلك رشيد  
الهجري ، وهو قوله حين انكشف أمر الصحابة وظهر المكتوم من سره وسر عيوب  
أجناده : « أيها الناس المجتمعمة أبدانهم المتفرقة أهواؤهم ، ما عزت دعوة من  
دعاكم و [ لا ] استراح قلب من فاسساكم ، كلامكم يوهي الصم  
الصلاب ويفعلكم يطمع فيكم عدوكم ، إذا أمرتكم بالمسير قلتم كيت وكيت  
[ ..... ] أعاليل بأضاليل وأضاليل [ أبابا ] طيل ، وسألتموني التأخير ،  
دفاع ذي الدين المطول ، استخفكم الجهل جيدي حيايد ، ولا يمنع الضيم الدليل  
ولا يدرك الحق إلا بالجد ، أي دار بعد داركم تمنعون [ و ] مع أي إمام بعدي  
تقاتلون ؟ المغرور - والله - من غررتموه ومن فاز بكم فقد فاز [ بال ] سهم  
الأخيب ! أصبحت - والله - لا أصتق قولكم ولا أطمع في نصركم . فرق الله  
[ بين ]ي وبينكم وأعقبكم من هو شر لكم مني وأعقبني من هو خير لي  
منكم .»

فلما نزل [ قصد ]وه يعتذرون إليه ، فقال : « أما [ إنكم ] - والله -  
ستلقون بعدي ثلاثاً : ذلاً شاملاً وسيفاً قاتلاً وأثرة [ ..... ] يتخذها  
الظالمون عليكم سنة فيضرق جمعكم وتبكي عيونكم ويدخل الفقر [ ف ] لوبكم  
فتمنون أنكم رأيتموني فتغنموني فلا يبعد الله إلا من ظلم .»

وقال في مقام [آخر] : « وددت - والله - أن لي بكم ألف فارس من بني فراس

ابن غنم ١ ، وقال في مقام آخر : « وددت - والله - أن لي بكل عشرة منكم فارساً من بني فراس بن غنم صرف الدينار بالدرهم » [ ف ] بلغ من تثبتهم لهذا الخبر ان جعلوه حجة في صرف الدينار في ذلك الدهر ؛ [ و ] قال في مقام آخر : « يا أهل الكوفة المنسبر من مناسر أهل الشام أطل عليكم أغلق كل امرئ منكم بابَه وانحجز في بيته انحجاز الضبع في وجارها ولئن رمى بكم لقد رمى بأفوق ناصل » ؛ ولا بطائهم عن عدوهم قال لهم : « ما قوتل قوم قط في عقر دراهم إلا ذلوا » في كلام كثير مشهور معروف .

قد قلنا في العذر في اختيار أبي موسى وفي العذر في تأخير القتال بعد أن كان هو الداعي [ ١ ] إليه والحاث عليه ؛ ونحن قائلون في نفس التحكيم وبالله التوفيق ؛ وجواب آخر : زعم أن علياً لو وجه الحسن أو الحسين ابتداء أو عبد الله بن عباس أو عمار بن [ يا ] سیر أو مالكاً الاشتهر أو قنبراً مولاه أو أنصح الناس جيباً أو أيمنهم رأياً أو أشدهم نبراساً أو أبعدهم غوراً أو أقواهم عزماً ، لما استجاز أن يحكمه بينه وبين معاوية ؛ [ و ] كيف وهو على يقين أن معاوية لا يصلح للخلافة في حال من الأحوال ، ليس لحرف التبديل به والاشفاق من ذلك الرأي عليهم ، ولكن لأن الدين والبيعة مانع من ذلك لأن الحق عنده أن أهل بدر والحديبية لو أطبقوا كلهم على أن معاوية أولى بها منه أو على أنه يصلح لها في بعض الحالات ، لكانوا ضللاً غير مهتدين ولكانوا [ مخ ] طشين غير مصيبين ؛ وإذا كان إنكارهم لحقه لا يحل عقدة الخلافة وإقرارهم به لا يثبت عقدة الخلافة ، بل يكون ذلك منهم مؤكداً ومسنداً ومرمياً ومركباً ؛ أما أن يكون رضي رجل أو سخطه تبرماً ناقضاً خلافته ، فلا .

قد علمنا خلاف [ ط ] لحة والزبير وسعد ومحمد بن مسلمة وصهيب ابن سنان وسلمة بن سلامة بن وقش وهم بدريون ، فلم يكن ذلك بناقض لإمامته ولا ناقص من بصيرته ؛ [ ف ] القياس أنه لو لم يكن منه سبب تستحق به الإمامة إلا سبب هؤلاء له ، أن إقرارهم غير مثبت كما أن إنكارهم غير ناقض ، ولو بان عند الامام أن رجلاً أكمل أهل محله كمالاً ثم أبى إمامته من أهل ذلك المصل

عشرة من وجوههم لأجبرهم الامام عليه ولما التفت إلى ما كان من  
بنيهم عليه وغلطهم فيه .

ولكننا نزعم أن علياً دافع بمعارض الكلام وبالتورية وبما يشبه التوهيم  
وأعمل المكيدة عند الحاجة إلى المكيدة حين رأى اختلاف القلوب وانتشار الامور  
ونقصان البصائر والركون الى الراحة وطمع أن تكون عظته وتصرفه وتعريفه  
وتخويفه مما ينفع فيهم ويسري في طبائعهم وينبهم من رقتهم ويحرك مواضع  
الأنفة من قلوبهم إلى انقضاء تلك المدّة وفي تلك المهلة والهدنة حين ارتبق فيهم  
خبلة ولم يبق غاية ، وبعد ان كتم الداء ودثر الدواء وأرفق العلاج ؛ فلما أعضل  
الداء واستفحل البلاء وظهر العيب واستم الفساد وصار ستره عياً وكنمه عجزاً ،  
خطب بالموعظة على المنابر وقرع بالتأنيب في المحافل وأعدر عنه المقبل والمدبر ،  
وكان على يقين من انهزامهم إن مضى بهم مكرهين غير متبصرين ومختلفين غير  
متفقين ، هذا أسوأ ما كان [ . . . . . ] فله الجيوش عنه فتظهر له الخلة وتتشنع  
به المثلة .



مركز تحقيقات كويتيون علوم إسلامية

[ ١٤ - العمل عند المعتزلة كالقول ]

وأعلم أن لصاحب الفتنة والمكر والمخبر من معارض القول من التورية في  
الكلام ومن إضمار المعاني في الالفاظ إلى ما يخرج من الكذب وإن وهم ذلك  
القول السامع الطالب والمستحلف الغاصب الموافقة والرضى بحكمه ما ليس  
لغيره ، وهذا هو المعنى في الفتنة التي أناخها الله تعالى بعباده ، وقد كان له أن  
يتعبدهم بالإفصاح وإن قتلوا عن آخرهم .

ونحن نزعم أن اليمين إذا كانت لازمة لك فهي على ضمير من  
استحلفك ، وإذا كانت غير لازمة فهي على ضمير الخالف ؛ وكذلك البيعة وجميع  
الكلام ، والعمل عندنا في ذلك كالقول ؛ ولو أن غاصباً أخذ عليك يمناً للبيعة  
له ، كان لك أن تقول « نعم » ولست تريد التي هي خلاف « لا » ولكن تر [ بد ]

النعم من الابل والبقر ؛ وإن كنت تعدّ أنه يظنّ غير ما تعني ، تقول أيضاً عند استخلافه « نعم » وإن وهمت الكلمة معنى « نعم » التي هي خلاف « لا » وأنت تريد الطاعة ؛ ولو قال لي بعض من أخافه على نفسي : « قل : المسيح ابن الله » ، لكان لي أن أقول [ ذلك ] وأنوي أنه كذلك عند النصارة ، وإن علمت أنه لا يتوهم إلا ما دلّ عليه [ اللفظ ] ؛ فإن أمكن أن أنوي وأوجه الكلام وأعمل الاضمار والاستثناء ولا عناء عليّ فيه ولا مشقة ولا تفتنة يرتاب بها ، ثم لم اضمر خوفاً من فطنته فقد شرحت بالكفر صدراً ، فإذا جاز أن أقول إن مع الله إلهاً آخر وإن محمداً - عليه السلام - كذاب وإن مسيلمة صدوق إذا خفت على نفسي ، بعد أن أضمر و [ ..... ] وإن كان ظاهراً قولي التكذيب لمحمد صلى الله عليه وسلم ، جاز أن أقول إن أبا موسى حكيم وله أن يحكم وأنا أنوي غير ما أظهر وأضمر غير ما أبدى إذا خفت على الناس الفتنة والمهرج والفساد وتبديل الحكم .

[ ١٥ - معاوية لم يخدع علياً بل كان هو المخدوع ]

فلو لم يظنّ عليّ وطمع أن أصحابه سيعودون إلى بصائرهم وإلى ما يشبه أول حيا [ لهم ] عند التخابر والتذاكر وعند قضاء الوطر من الزوجات والاطقان وبعض الملل من طول الإقامة وبعض الحياء من النعيم ومعه الأنف من ظهور الأعداء وبعض التوقّع للبلاء إذا جرى عليهم حكم عدوهم ولعلمهم أن يطالبوهم بطوائفهم ولم يأمنوا الوثبة بهم ، لما جاز له ذلك ولما كان لصنيعه ذلك وجه ؛ فالمخدوع في هذا الموضع معاوية والخادع عليّ ، وعليّ صاحب المكيدة ومعاوية المستراب ، لأنه في ذلك ولو ظنّ لانتشار الأمر على عليّ ثم غزاه بالقلوب المجتمعة والأهواء المتفتحة ، لما كان دون الظفر مانع ولما كان بعد تلك الوقعة وقعة ، فرأى عليّ أن التدبير في توهمه وتوهم أصحابه الرضى بالمساواة والافترار بان في أمرهما من الشبهة ما يحتاج فيه إلى نظر الرجال ، وعلم أنه متى أعطاه ما كان لا يطمع فيه ولا يناله طرفه ولا أمنيته ولم يزل يظنّ ، بل لا يشك ، أنه لا

يُحِبُّ إِلَيْهِ [ . . . . . ] ولم يكن عرف من سر أصحابه مثل الذي عرفه عليّ  
فراى أنه قد ربح وأنّ عليّاً قد خسر ؛ فما ينقضي تعجبي من رضى معاوية بتلك  
الهدنة والمدة مع ما قد كان ظهر من اختلاف أصحاب عليّ ، وأرى الناس  
يتعجبون من رضى عليّ بها مع اختلاف أصحابه ؛ .

[ ١٦ - معاوية ليس ادهى من علي ولكن كان يستعمل جميع المكاييد حلالها  
وحرامها بينما لم يستعمل علي الا ما وافق الكتاب والسنة ]

اللهم إلا أن لا يكون عصى عليّ عندهم إلا في تحكيم الرجال دون تأخير  
القتال ؛ فان كان ذلك كذلك فما قولهم وإكثارهم ؛ « عصينا أمس حين قطعنا  
القتال وعصى عليّ حين رجعنا ندعوه إلى القتال [ - ] رأى ؛ فقد ينبغي لنا الآن  
أن نقصد إلى الجواب في لفظ التحكيم ؛ أيجوز أم لا يجوز ، فنَدَعُ ما سوى ذلك  
من الأمور ؛ وإذا لم يبقَ إلا ذلك فقد سقطت ثلاثة أرباع الخلاف ، وليس على  
ذلك بنى القوم أمرهم وجرت عليه عادتهم ؛ وربما رأيتُ بعض من يظن أنه من  
الخاصة ويزعم ان معاوية كان أبعد غوراً وأصحّ فكراً وأجود رؤيةً وأبعد غايةً  
وأدقّ مسلكاً ، وليس الأمر كذلك ، وسأومئُ إليك بجملة تعرف بها موضع  
غلطه والمكان الذي دخل عليه الخطأ من قبله ، فافهم ذلك .

كان عليّ لا يستعمل في حربه إلا ما عدّله ووافق فيه الكتاب والسنة ،  
وكان معاوية يستعمل خلاف الكتاب والسنة ويستعمل جميع المكاييد وجميع الخدع  
حلالها وحرامها ، ويسير في الحرب سيرة ملك الهند إذا لاقى كسرى ، وحقاقان  
إذا لاقى زُنَيْبِلَ وفنغور إذا لاقى المهراج ؛ وعليّ يقول : « لا تبدؤوهم بقتل حتى  
يبدؤوكم ، ولا تبغوا مديراً ولا تجهزوا على جريح ولا تفتحوا باباً مغلقاً ، فهذه  
سيرته في ذي الكلاع وأبي الأهور السلمي وعمرو بن العاص وحبيب بن مسلمة  
وجميع الرؤساء ، كسيرته في الحاشية والحشو والاتباع والسفلة ؛ وأصحاب  
الحروب ان قدروا على البيات بيّتوا ، وأن قدروا على رضخ الجميع بالجندل وهم

نيام فعلوا ، وإن أمكن ذلك في طرفة عين لم يؤخروه ساعة ، وإن كان الحريق بالنار أعجل من الغرق لم يقتصروا على الغرق ولم يؤخروا الحريق إلى وقت الغرق ، وإن أمكن الهدم لم يتكلموا بالحصار ولا يدعون أن ينصبوا العرّادات والمجانيق والثقب والتسرّب والدبّابات والكمين ، ولا يدعون دسّ السموم والتضريب بينهم بالكذب وطرح الكذب في عساكرهم بالسعائيات وتوهيم الأمور وإجاش بعضهم من بعض وقتلهم بكل آلة وحيلة وكيف [ ما ] وقع القتل وكيف [ ما ] دارت به الحال .

فمن اقتصر - حفظك الله - من التدبير على ما في الكتاب والسنة كان قد منع نفسه الطويل العريض من التدبير وأما الأشاهي من المكاييد ؛ والكذب - حفظك الله - أكثر من الصدق ، والحرام أكثر عدداً من الحلال ؛ ولو سمي إنساناً إنساناً باسم الإنسان كان قد صدق وليس له اسم غيره ؛ ولو قال : هو شيطان ، أو كلب ، أو حمار ، أو شاة ، أو بعير ، لكان كاذباً في كلّ ذلك ؛ فكذلك الإيمان والكفر ، وكذلك الطاعة والمعصية ، وكذلك الحقّ والباطل ، وكذلك السقم والصحة ، وكذلك الصواب والخطأ .

فعلّي كان بالورع مُلجماً عن جميع القول إلا ما هو لله رضي ، ولا يرى الرضي إلا فيما دلّ عليه الكتاب والسنة ، وممنوع اليد من البطش إلا ما هو لله رضي دون ما يعول عليه أصحاب الدهاء والنكرى والمكاييد والآراء ؛ فلما أبصرت العوام - حفظك الله - بوادر معاوية في المكاييد ومثابرة غوايته في الخدع وكثرة ما اتفق له وتمهياً على يده ، ولم يروا مثل ذلك من عليّ ، ظنّوا بقصور رأيهم وقلة عقولهم أنّ ذلك من رجحان عند معاوية ونقصان عند عليّ ؛ فانظروا بعد ذلك هل بقي له إلا رفع المصاحف وهي من خدعه ، ثم انظروا هل خدع بها إلا من عصي عليّاً ومال عن رأيه وخالف إذنه .

فان زعمت أنه نال ما أراد من الاختلاف فقد صدقت ، وليس في هذا اختلافنا ولا عن غرارة أصحاب علي وعجلتهم وتسرعهم وتنازُعهم دفعنا ، وإنما

كان القول في التمييز بينهما في الدهاء والنكرى وصحة العقل والرأي البر، لا على أنا لا نصف الصالحين بالدهاء والنكرى ولا نقول : « ما كان أنكر أبا بكر ابن أبي قحافة وما كان أنكر عمر بن الخطاب ا » ، ولا يقول أحد عنده من الخبر شيء : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أدهى العرب والعجم وأنكر قريش وأمكر كنانة » لأن هذه الكلمة إنما وضعت في مديح أصحاب الأرب ومن يتعمق في الرأي في توكيد أمر الدنيا وزبرجدها وتشديد أركانها ؛ فأما أصحاب الآخرة الذين يرون الناس لا يصلحون على تدبير البشر وإنما يصلحون على تدبير الخالق للبشر ، فإن هؤلاء لا يمدحون بالدهاء والنكرى ولم يمنعوا هذا إلا ليعطوا أفضل منه ؛ ألا ترى أن المغيرة بن شعبة ، وكان أحد الدهاة ، [ قال ] : « أنت كنت توهم شيئاً فتلقبه عنك ، ما رأيتك مستجلباً أحداً إلا رجته كائناً من كان ذلك الرجل ، كان - والله - أعقل من أن يخدع وأفضل من أن يخدع » ، ولم يذكره بالدهاء والنكرى ، هذا مع عجبه بإضافة الناس ذلك إليه ؛ ولكن قد علم أنه إن أطلق على الأئمة الألفاظ التي [ لا ] تصلح لأهل الطهارة كان ذلك غير مقبول منه ، فهذا هذا .

وكذلك كان حكم قول معاوية للجمع : « أخرجوا إلينا قتلة عثمان نحن لكم مسلم » ، فاجهد كل جهدك واستعن بمن شايحك إلى ان تتخلص إلى صواب رأي في ذلك الوقت أضله علي حتى تعلم أن معاوية خادع وان علياً كان المخدوع ؛ فإن قلت : وقد بلغ ما أراد ونال ما أحب ، قلنا : وهل رأيت كتاباً وضع لا على علي ، علياً كان قد امتحن في أصحابه في دهره لما لم يمتحن به إمام قبله من الاختلاف والمنازعة والشجاج على الرئاسة والتسرُّع والمجلة ، وهل أتى إلا من هذا المكان ؟ أو لسا قد فرغنا من هذا مرة ؟ وقد علمنا أن ثلاثة نفر تواطؤوا وتتابعوا على قتل ثلاثة : فانفرد ابن ملجم بالتماس ذلك من علي ، وانفرد [ عمرو بن بكر التميمي ] بالتماس ذلك من عمرو بن العاص وانفرد [ البرك بن عبد الله الصرمي ] بالتماس ذلك من معاوية ؛ فكان من الاتفاق او من الامتحان أن كان علي المقتول من بينهم ، وفي قياس مذهبكم أن

تزعّموا أنّ سلامة معاوية وعمرو إنما كانت بحزم كان منها ، وان قبل عليّ إنما كان من تضييع كان منه ، إذ قد تبين لكم من الابتلاء والامتحان في نفسه خلاف الذي قد شاهدتموه في عدوّه وكلّ شيء سوى ذلك فإنما هو تبع للنفس ، فهذا باب :

### [ ١٧ - كفر معاوية في ادعاء أخوة زياد بن أبيه ]

والباب الآخر الذي عتبتُ عليك فيه ، وهو زعمك ان معاوية قد ضلّ من وجوه وكفر من وجوه ، فأخطأت في إكفاره ولم تصب الحق في تفسير بعض الوجوه ؛ زعمت أنه كفر في حكمه بادعاء زياد بن أبي سفيان وأن من جعل الولد للماهر وجعل الحجر للفراش ومن ردّ الحكم المنصوص وبذل هذا القول المفسر فقد كفر ؛ وهذا منك سرف وبعث ، وهو شبيه بمذهب أصحاب التكلف والتزيّد ومن يريد [ ب ] العفن الذي في نفسه والذلة التي يجدها في قلبه والريبة التي تشتمل عليها أضلاعه أن يُذلل من حضره ويوهم من سمع كلامه ، أنه إنما يكفر من أكفر من فرط في تعظيمه لحرّمات الله ومن شدّة غضبه على من عصى الله ؛ وعهدي بك تشنع بذلك على العمريّة والرافضة وعلى الخوارج والبكريّة .

ولو كان معاوية صنع ما تقول على ما فسرت ورد المنصوص على ما ذكرت ، لكان جلة السابقين وكبراء التابعين وفقهاء المحدثين قد سبقوك إلى إكفاره وتشريكه ، بل كان أعداؤه وأهل الخلاف عليه قد أكفروه وسبقوا إلى ذلك فيه ، فان زعمت أنه قد كان عند غالبية الشيع وعند جميع الخوارج كافراً ، قلنا : لعمرى ، لو كانوا لا يكفرونه على خصال كثيرة ولا ترى أنت وأصحابك أنه قد كفر من أجلها ، ثم أكفروه على هذه الخصلة ، لكان في ذلك متعلق لهم ومصاب وجمال ومُسْتَح ؛ ولكن الفريقين جميعاً يكفرانه على جميع خصاله التي أنت لا ترى بعضها إثماً ، فضلاً عن أن تكون [ عندك ] فسقاً ، ولا تراها فسقاً ، فضلاً عن ان تكون عندك كافراً .

ثم اعلم أنه لا بدُّ لك من الخبر على تأنيبهم من ترك إكفاره ، بل على إكفار  
من ترك إكفاره ، إذ كان إنما كفره برّد المنصوص وما لا يحتمل التأويل ؛ وأما أن  
تجرأ أن تدعي عليهم من إكفاره خلاف ما ثبتت به الشهادة عنهم وخلاف  
المعروف من قولهم ، فلو كان كذلك لكان [ن] الخبر به مشهوراً ولكان معروفاً  
مستفيضاً ؛ بل ينبغي أن يكون قد كان ثبت عنده أن وطياً قد كان ، ورأى فيه  
الشبه والمخايل والاخلاق والشمائل وشبهه له القافة ، وذهب في سبيل الفراسة  
وتأويل قول عمر وسمع كلام أبي مريم وقواه رأي المغيرة فقال : « هو ابن أبي  
سفيان » ، لم يذهب الى تثبيت حكم ولكنه حبّل كان عنده من نطقه فكأنه قال :  
« هو من نطقة أبي سفيان » ، وكان أغلظ أحواله أن يكون كمن استلأط اليوم منا  
رجلاً أو أقرّ بولد عند موته ليصرف الميراث عن آخرين ، ولم يعترض  
على قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكمه وسته برّد ولا جحود ؛ والحاكم  
عندك وعند أصحابك قد يعطل الحكم ويحكم بالهوى ويجلد من يستحق القطع  
ويقطع من يستحق الجلد ؛ ثم أنتم لا ترون إكفاره ولا تشريكة .

[ ١٨ - موقف الجاحظ الحياضي ]

ولم أنصب نفسي - حفظك الله - لاحتجاج له إلا بما يلزمي من الاحتجاج  
من لا يرى إكفاره من السلف ، وإياهم أردتُ وعنهم دافعتُ ؛ وعلى أني على كل  
حال أكره الزيادة والنقصان ، والعدل أولى بنا وهو مذهب إخواننا ومشايخنا  
وسلفنا من المعتزلة في فرق ما بين الاكفار والتفسيق ، وفي فرق ما بين التفسيق  
والتأنيب ، ولسنا ممن يميل في شق عن شق ويتعصب لبعض على بعض ومن  
يبخس حق الدولن ، فكأنك به قد تبخس حق من فوقه حتى تصير إلى أئمة  
المهتدين وخلفائه الراشدين ؛ لستُ عمرياً دون أن أكون علوياً ولا علوياً دون أن  
أكون عثمانياً ، اللهم إلا بما أخص به العترة بسبب القرابة ، وأما في غير ذلك  
فليس شأني إلا محبة الجميع والتوفير على الكل ودفع الظلامة عن الكبير  
والضعيف على قدر ما شاهدنا عليه من الحالات ؛ وليس هذا الكتاب من كتب

أصحاب الأهواء ولا من كتب المتكسبين ولا المتقربين ولا من كتب المفلقين  
بالباطل ومن جرى من النفاق على أخبث منشئ وأسوأ عادة ؛ فعليك [بسنة]  
أصلافك ودع عنك ما قد أخذ الناس فيه .

[ ١٩ - السفينية لا تفضل معاوية لمبايعته ابنه يزيد ]

وأما براءتك منه على قتل حُجْر وأصحابه وإطعام عمرو وخراج ، وعلى  
ادعاء الخلافة وعلى الحكم بالهوى وتبذ كثير من أحكام الكتاب والسنة ، والسير  
في الحرب والسلم سيرة ملوك الغلبة ، فهذا ما لم أملك عليه ولم أنكره منك ،  
وعلى ذلك مضى سلفك الصالح - نصر الله وجوهمهم - ؛ ولكني عتبتُ عليك في  
قولك : « وضللتُه أيضاً لبيعته لابنه » ، فان قلت : « وضللتُه أيضاً بالمبايعه ليزيد  
لانه كان صاحب كذا وكذا ويقول كذا » ، لكان صواباً ولكن قولاً عدلاً ولكن  
مصنئ مهذباً ، وأجود العبارات ما كانت الدلالة فيها غير مستكرة ويكون اللفظ  
للمعنى طبقاً فاضلاً ولا ناقصاً ، وأما أن تقول كلمة مرسله الوجوه مطلقه  
[ ..... فلا ]

مركز تحقيقات كويتيون

ضللتُه لانه بايع ابنه ، وما باس بيعة الابن إذا كان لذلك مستحقاً ؟ ما  
الابن إلا كالأخ وما الأخ إلا كابن العم ؛ وما علمك ؟ لعل علياً قد بايع الحسن  
ولعل الحسن قد بايع الحسين ؟ فأني حجة تدفع ذلك وما البرهان على خلاف ما  
جاء من ذلك ؟ وهل يعترض على هذا المذهب مسلمٌ وهل يجمله عاقل ؟ فأياك  
أن تعود إلى هذا اللفظ مفسراً أو مشروحاً مثبتاً ؛ فان من حق العلم عليك ومن  
شكر أياديه عندك ومن الصون لعراضه والدفع لقدره أن تخلص الفاظك من كل  
هجنة وأن تصفّيتها من كل كدر وان تخير من الألفاظ أيهاها وأقربها دلالة وأن  
تقصد من المعاني لاطهرها شرفاً وأرفعها قدراً وأكرمها منصباً ، وقد يلزم من عبّر  
عن العلم وتوكل به وأضاف نفسه إليه أن يعبر عنه بأبين العبارات وأقرب  
الاختصار وأن يضعه في موضعه وأن يجري عليه كما ينبغي على نفسه وأن يجيبه

إلى السامع بالإنصاف ويُنتهيه عنده بالترُّسل ويوتيه بالنصيحة ، وأن يجعل قائمه إلى القلوب والعمل وسائقه إلى العقول الانقطاع إليه ، ولا يغالب خصمه ولا يناهب الكلام من ناقله ولا يعجله عن جوابه إذا فاتحه ولا يُظهر تضجره إن هو أبطأ عنه ولا يفتنم بخلطه إن هو سها ولا بشيء يلفظه ظناً وهو يجد له في الصواب محتملاً .

### [ ٢٠ - كتاب القضية مدخول لفظاً وشهوداً ومضموناً ]

وزعمت أن كتاب القضية في الحكمين يُثبت للخوارج حجبتهم وأن لفظه يمتنع فيه التوجيه والتورية ، وسألتني أن أكتب لك الكتاب لتجمع بين مخارج لفظه ودلائل وصفه وبين احتجاجي له في ضمان علي ، والكتاب الذي يدور في صحف أصحاب الاخبار والاسناد هو هذا الكتاب الذي أنا مصوره لك ، ولكني بعد ذلك عائد إلى أسانيد بالتصفح في الثبوت وعلى أصل مخرجه بالتفتيش والتنقير إن شاء الله :

بسم الله الرحمن الرحيم ، حدثنا عثمان بن عبد الرحمن عن الزُّهري وحباب بن موسى وعليّ ومجاهد عن محمد بن إسحق : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ( قال معاوية : « لو سميتك بهذا لم أحاربك ولولا أنك أسن مني ما قُدمتُك » ، فأبى عليّ ملياً من النهي ثم تسمع وكتب : هذا ما تقاضى عليه عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان : قاضي [ عليّ بن أبي طالب ] على أهل العراق [ ومن كان معه ] من شيعته من المؤمنين والمسلمين [ وقاضي معاوية بن أبي سفيان على أهل الشام ومن كان معه من شيعته من المؤمنين والمسلمين ] أنا ننزل عند حكم الله في كتابه فيما اختلفنا فيه من فاتحته ( إلى خاتمته ، نحى ما أحيا ونميت ما أمانت ، فما وجدنا في كتاب الله مسمى أخذنا به ، وما لم نجده في كتاب الله مسمى فإلسنة العادلة الجامعة غير المفرقة فيما اختلفنا فيه ؛ والحكمان عبد الله بن قيس الأشعري وعمرو بن

العاص ؛ وأخذ علي ومعاوية عليهما عهد الله ليحكمان بما وجدا في كتاب الله وما لم يجدا في كتاب الله مسمى فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة ؛ وأخذ الحكمان من علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان الذي يرضيان من العهد والميثاق ليرضيان بما يقضيانه فيهما من خلع من خلعا وتأمير من أمرا ؛ وأخذنا من علي ومعاوية والجندين كليهما الذي يرضيانه من العهد والميثاق وأنها آمان على أنفسهما وأموالهما ، والامة لهما أنسار على ما يقضيان به عليهما وأعوان على من بدّل وغير ، وأنه قد وجبت القضية من المؤتمر والأمر والاستفاضة ورفع السلاح أين ما شأوا وكانوا على أنفسهم وأهاليهم وأموالهم وأرضهم وشاهدهم وغائبهم ؛ وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه ليقضيان بين الأمة ولأبذراهم في الفرقة والحرب حتى يقضيا ؛ وآخر أجل القضية بين الناس في انسلاخ شهر رمضان ؛ فإن أحبنا أن يعجلا ذلك عجلا ، وإن أحبنا أن يؤخرا ذلك عن ملاءمتها وتراض أخرا ؛ وإن هلك أحد الحكمين فإن أمير الشيعة والشيعة يختارون مكانه رجلا لا يألون عن أهل المعدلة والاقتصاد ، وأن ميعاد القضية أن يقضيا بمكان من أهل الكوفة وأهل الحجاز وأهل الشام سواء لا يحضرهما فيه إلا من أرادا ، فإن أحبنا أن يكون بأقرب وبدومة الجنادل كان ، وإن رضيا مكانا غيره حيث أحبنا فليقضيا على علي ومعاوية أن يجتمعا على الحكمين ؛ شهد عبد الله بن عباس والاشعث بن قيس ومعيد بن قيس وورقاء بن [ . . . . . ] البكري الحارفي وعبد الله بن طفيل البكاوي و ( يقال : عبد الله بن طليق البكاوي ) وجرير بن يزيد الكندي وعبد الله بن حجل العجلي وعتبة بن زياد المذحجي ( أو الانصاري ) ومالك بن كعب النحلي ( أو الهمداني ) ويقال : عتبة ابن زيد ويقال زياد بن كعب .

- وأنا أقول - حفظك الله - أن كتاب القضية كتاب مدحول - منه ما يشبه ألفاظهم ولحنهم وطبع الفصاحة وقريحة البلاغة - وللقوم كلام معروف وجوهر معلوم متى تكلف المولّد لم يستطع تغليب الجهابذة فيه إذا طال شعره وامتدّت خطبته ، وكذلك رسالته واحتجاجه ، وقد يخفى ذلك في الشعر القصير والكلام

القليل - ؛ وفي هذه القضية كلام ركيك ضعيف خفيف سخيف ، وفيها ما يضارع العجمة ويناسب الضعة ؛ ومأ يُبهمه أيضاً اختلاف الخوارج والشيعه وما بين أهل الشام وأهل العراق من الزوائد والنقصان فيه مع ضعف أسانيدِه وحال رواته عند رُواة الآثار وحال الأخبار وعند ناقلِي الحلال والحرام ، ولأنَّ أبعد غاياتهم فيه الزُّهرِيّ وأمتن ما يعتمدون عليه ابن اسحق وهذان لم يدركاه ولا شاهداه ؛ فكلٌّ من روى ذلك عنهما فليس بالمحمود ولا المثبت المقبول ؛ وليس العلم به وبصحته كالحبر الذي ليست للخاصة فيه فضيلة على العامة وإنما هو خبر يدرك عند مَنْ يطلب مثله ؛ فإذا لم يجده في معدن الصحة وفي جوهر الصدق ومُصاب السلامة والبراءة من التهمة فكان معرضاً لأصحاب الأهواء أولمّن له في النقصان منه والزيادة فيه وفي تحريفه وتبديله أقوى العلل ؛ لم يكن لك ان تقضي به على عليّ بن أبي طالب في سابقته وشدة ورعه واتساع معرفته وصحة غريزته وثبات حجّته فكانت خليقاً أن تردّ حكم ذلك إلى الأصل الذي به عرفت فضيلته ونقصان غيره عن درجته .

وعلى أن عمامة الشهود المذكورين فيه مشكوك في نسبهم ، مختلف في أسمائهم ، ثم لا تجدهم إلا أقلّ القليل من وجوههم وذوي العدالة والأقدار منهم ، حتى كان واصفه حيث وصفه وصفه [ وصف ] مَنْ له الخيار عليه ؛ إن شاء أثبته وإن شاء أنكره ؛ ونحن لا نشك أن علياً إنما أعطى القوم لفظاً ليحكم واستحلّ ذلك التوهّم بما رجا في تلك المهلة والهدنة من رجوع بصائرهم إليهم ومن اجتماعهم بعد فرقتهم ؛ وفي هذا الكتاب أن أجل القضية سلخ شهر رمضان ، وهذا كلام ظاهره ينقض ظاهر التدبير الذي لا وجه للتحكيم غيره ولا عذر فيه سواه وليس نقضه له بما يعرف [ بالاستنباط ] وبعد التفكير فيُدعى فيه الغلط ، بل هو ظاهر فيهما قائم بهما .

وقد قسمنا أقسام التدبير الذي لا يجوز على غيره وعددنا أبواب ذلك وسألنا المخالفين لنا أن يزيدوا فيها وينقصوا منها ، فلم نجد ذلك بعد التفكير منا ومنهم وبعد أن مرّت عليه الدهور وبردت عليه الحقود ؛ فكيف يجوز لنا أن نظن أن

علياً وأصحابه تولوا نفض تدبيرهم بأيديهم ولم يدفعوه ولم يحتالوا فيه وكيف سهلوا وكيف هان عليهم موقعه وهم لا يطمعون في سواء ولا حيلة لهم غيره ؟ وبعد فمدار الكلام إنما هو على أن علياً هو الإمام في كتاب الله وفي سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فإن دلت الكتاب على أن علياً هو الإمام فعلياً هو الإمام وسبيل السنة في ذلك سبيل الكتاب وكذلك حالهما في الحكم معاوية .

فخبرني - رحمك الله - وقف عندما سألتك عنه عن الكتاب ، كيف يجوز أن يدن على معاوية وكيف جواز ذلك وأين بابه وأين مفتاحه والطريق إليه ، في أي سورة ذلك الدليل وفي [ أي ] آية ذلك البرهان يُصاب ؟ وأين تلك السنة ، وأين تُطلب ، ومن أي شكل هي ، وما لفظها ، وما أصل معناها ؟ وقد علمت أن القرآن الذي أشاروا إليه هو الذي في مصاحفنا وإن السنن التي قصدوا إليها هي التي في صحفنا مما فرض الله في كتابه وسنة النبي صلى الله عليه وسلم في أمته ؛ فانظر فيهما وتبينهما وفتشهما بالنظر الشافي والتقليب المستقصى : هل تجد فيهما اسم معاوية أو صفته أو جليته أو صفة عمله أو جليته عمله ؟ .

وقد علمنا ان الله الجليل قدره لم يقل في كتابه : « اقبلوا شهادة أبي بكر وعمر وعثمان » ولكن الله لما قال : ﴿ مَن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ ﴾ وجدناهم مرضيين نصاً فقبلنا شهادتهم ؛ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليؤمكم خياركم » ، فإذا كان الغرض الذي إليه ينزع الكلام ويشير القول إليه الخير دون الشر والفضل دون النقص ، فكل من كان خيراً كان احق بتلك الإمامة ؛ فإن كان كتاب القضية إنما دعا الحكمين إلى هذا الجنس من النظر ، فليس معاوية فيه درك ، ولا متعلق ولا طمع ، وإن كان على غير هذا الوجه فخبرني ما هو وما شكله وأي صورة هو .

وقد قالوا في وصف السنة فجعلوها العادلة والجامعة غير المفرقة ، والسنة كلها عادلة وكلها جامعة غير مفرقة ، فأثبتن هي وما علامتها وما شبهتها ؟ ويدللك على فساد هذا الأمر أنه لم يأتنا قط أنها مذنفدا إلى أن انقضى امرهما

تذاكرا شيئاً من ذلك في خلاء ولا ملاء ولا الشمساً تأويلاً ولا خرُجا تفسيراً ؛ ولا سمعنا في ذلك إلا ما كان منهما عند المراضة أن الناس لا يكتبون بعد تفريقهم إلا على رجلٍ لم يُخَضَّ في الدماء وليس لأحد قبله بيعة ولا وتر ؛ فهذا خلاف الشريعة والذي وقعت فيه القضية وإنما جعل إليهما سطرأ في كتاب الله والسنة على أيهم أدل فقط ، فتركا ذلك البتة .

ثم ابتداءً باباً آخر لم يجر لها ذكره ولا وقع عليه شرط ؛ فلو ان أبا موسى قال : « قد صرفتها إلى ابن عمر » ، وقال عمرو : « قد صرفتها إلى ابني عبد الله ابن عمرو ما كان إلا كقول أبي موسى ، وهذا عند جميع من شهد القضية خلاف ما وقع عليه شرط القضية ، وهما - حفظك الله - لم يحكما على ان لهما ان يخرجاهما إلى من أحبوا وإنما جعل إليهما في ظاهر الكتاب ان يجتمعا على أحد الرجلين اللذين حكماهما ، فأما ان يقول له عمرو وهو يعرف رايه في عمر وميله إلى ابن عمر : « ما لهذا الأمر خير من رجل لم يُخَضَّ في الفتنة ، له صحبة ولم يتلطح بالدماء وليست قبله تباعة ولا ضغينة ، فيكون مرضياً ابن مرضي » ، ثم توهمه ذلك ليسكن إليه ويظهر أن الرأي في وضع شورى بين من كان هذا شكله وهذه صفته ، وهذا خروج من حد القضية ، وقد صاروا حينئذ يختاران للأمة ، فلا يثبت ذلك الحكم منها إلا أن يكونا عن توكيل منهما لهما ، أو يكون لأن مكانهما من الإسلام أن يضعا الإمامة حيث أحبوا ؛ وإذا كانا كذلك فهما أحق بالإمامة ممن يريان إقامته وتقويمه ، فلا الأمة وكُلَّتْها ولا مكانها هذا المكان والحمد لله .

ووجه آخر تستدل به على صواب ما قلنا وتعرف به صحة ما فسرنا : كأن قائلًا قال : كان علي قد كان علم أن عمراً وأبا موسى يوم القضية وفي تلك الحال لم يكونا عند أهل العراق وأهل الحجاز عدلين مرضيين ، وإذا لم يكونا مرضيين لم يكونا شاهدين ، وإذا كانا بعيدين من جواز الشهادة كانا من جواز الحكم أبعد ؛ فأظهر علي قولاً يتوهم المتوهم معه أنه قد رضي بحكم عمرو وقد علم أن في قلوب اصحابه منه ومن سقوط عدالته ما فيها ، وعلم أن عمراً وأبا موسى [ إن ]

اجتمعوا على الحكم له فقد كفي القيل والقال ، وإن اجتمعوا على معاوية ، وعمرو  
 نندهم لا يجوز حكمه ، كان على دارس أمره ، لأن الحكم كان مجموعاً إليهما  
 ولا باجتماعهما يقع ؛ ولا يقع أن يلزم علياً حكم عمرو لمعاوية ولا يلزم معاوية  
 حكم أبي موسى لعلي ، وإنما الشرط أن يجتمعوا ومن اجتمعوا عليه فله إنكار ذلك  
 الحكم إذ كان واحداً من لا تتم الحكومة إلا به فاسد الحكم ؛ وإنما استجاز علي  
 أن يظهر كلاماً ما ، يحتل الحكم الفاسد لمكان التقية ، وليس هذا التدبير كان  
 معروفاً عنده ؛ وهذا - أبقاك الله - تدبيرٌ معجب ورأي مؤثق في هذا المكان وعند  
 هذه البلية وعند الضيقة والتقية والخوف من الفتنة لا كتدبير معاوية في ذلك ، فأننا  
 لا نجد له في ذلك مذهباً مرضياً ولا تدبيراً صحيحاً .

#### [ ٢١ - عزل علي معاوية لضلاله فتمرد عليه ]

وقد علمت - أبقاك الله - أن الذي أخرج معاوية إلى حرب علي ولزوم  
 محاربة علي عزل علي له حين بويج له وحين لم يستحل أن يدعه طرفة عين ،  
 ولذلك حين قيل له : « لو شئت أن تدعه حتى إذا تمكن الأمر ومهد وضرب  
 الحق بجمرانه عزلته » - قال : « ما كنت منجد المضلين عضداً » ؛ فقد دل ذلك  
 على أن رأيه كان فيها متقدماً ؛ فعلي عندما قال ذلك القول وصنع ذلك الصنيع  
 الذي يتوهم عنها المتوهم أنه قد رضي بعمرو حكماً وكره أيضاً بما أعطاه الله من  
 صحة الغريزة وقوة القرينة وعجيب التدبير أن يجيء برجل غير أبي موسى ويحيى  
 معاوية بغير عمرو ، فكان إنكار حكم عمرو وإزالة جوره ، إذ كان عند أهل  
 العراق والحجاز ظنيناً ، أهون وأيسر من أن يرضى برجلين مسلمين صالحين برين  
 تقين مسلمين سليمين طاهرين نقين ؛ فإن هما غلطا أو بدلا كان نقي حكمهما  
 والسخط لما أبرما من قضيتهما أعسر وأضيق ، بل قد أراد أن يجرح شهادة أبي  
 موسى ويسقط حكمه عند جميع الأمة لأنه بالأمس قد كان روى عن  
 رسول الله صلى الله عليه وسلم الروايات في الشبيط عن علي وأن من سمى معه  
 في تلك الجيوش والحروب مفتنون ، حتى جرى بينه وبين الحسين وعمار ما قد

رواه الناس وشاع في الأفاق ، وصار بعد ذلك حكماً لهذا الفاتن ليحدّ إليه وإلى  
خبره .

كذلك كان ظاهر حالها ، فنفس حال أبي موسى كانت جارحة لشهادته  
مفسدة لحكمه ، فأراد عليّ أن يكون بالخيار وكان ينبغي لمعاوية في الحزم أن يظن  
لهذه المكيدة وأن يرتاب بظاهر رضاه بأبي موسى ، والحال عنده معروفة وجواسيسه  
كثيرة ومن يكاتبه أكثر عدداً .

### [ ٢٢ - الشيعة والخوارج غافلون عن فهم علي ]

والناس - حفظك الله وأرشدك - عن تدبير هذا الامام غافلون ، لا الشيعة  
يعرفونه فيضيفونه اليه ويحتجون به على الخصوم ويوسعون الناس عذراً عند  
تضايق الأمر عليهم فيه ، ولا الخوارج النذير هم عليه يقومون والمكفرون له من  
هذه المارقة يعرفون ذلك التدبير ، وهم كانوا من خاصة جنده من المحققين  
وأصحاب البرانس وأصحاب السجادون غيرهم ، فيرتدعون عن إكفاره وشمته  
وخلعه ؛ وقد كان ينبغي لمن خالف علياً مرة - حفظك الله - وهو مستبصر في  
نفسه ثم تبين أن الحق معه ، أن يرتدع عن الاستبصار في أمر آخر فلا يدري  
لعل السبيل فيه كالسبيل فيما قبله .

### [ ٢٣ - ضلال الخوارج في قضية التحكيم ]

فلو قال لهم بعض نصحاتهم : قد علمتم ما كان منا يوم رفع المصاحف  
من إضلال وجه الرأي ومن خديعة معاوية إيانا ومن إصابة عليّ وجه الرأي  
وتنبهه لنا ، فلعل الذي أعطى من نفسه في الحكمين من شكل ذلك التدبير ؛  
بل قد رأيتم وسمعتم ما كان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم  
قضية الخديبية حين ألغى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكتاب اسم النبوة

وقاضاهم على أن من أتاه من عدوه كان عليه رده ، ومن صار إلى عدوه من أصحابه فليس عليهم رده ، فماجوا وضاعت نفوسهم وقالوا : « هذه دنية » ، حتى قال أبو بكر : « لو كانت دنية ما أعطاها » ، ثم أقبل على عمرو وقال : الزم غرزه واعلم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يعط دنية » ، فلم ير المسلمون قط قضية أعظم عليهم بركة منها ، فلو فكر القوم فيما أعطى الله أنبياءه وخلفاءه من صواب التدبير والرأي والمعرفة بغوامض الأمور لما تهوروا تهور الأغمار ولا أقدموا على تخطئة الأئمة إقدام من لا يجب التمكن ولا يعرف فضل عقل الإمام على رعيته .

#### [ ٢٤ - موقف ابن عباس من عزل معاوية ]

وأما ما روئتم عن ابن عباس أنه قال لعليّ حيث أبى إلا عزله وقال : « ما له عندي إلا السيف حتى يغلبه الحق » - فقال له ابن عباس : « وما لك عنده إلا السيف حتى يغلبك الباطل » ، فإن باطل معاوية يوم عزم على عزله [ لا ] يتخوفه على الخلافة ولا ظن أحد ولا دار في وهمه ولا خطر على باله ان الامور ستفتح وان الحوادث ستفتق بما تفتحت وتفتقت ، ولا ظنوا ان تلك الاعاجيب كانت كامنة في تلك الحالات ، ولا قدر ذلك معاوية ولا ظنه ولا طمع فيه ، ولكنها امور تناجت وأعاجيب تلاقحت وامور كثيرة - حفظك الله - قد كانت محقرة الاوائل مصفرة الاسباب ثم ترامت بها أمواج البلاء وزخرت بها بحور الفتن حتى عنت وخسرت من الجيلة وطفت وامتنعت على الأطباء ، وقد قال مجاشع الربيعي : « ليس بكبير ما أصلحه المال » وقد يصلح المال الداء وينجع فيه الدواء وربما أعضل الداء فامتنع الشفاء .

#### [ ٢٥ - العامة تستنكر مقتل عثمان فتقبل الى معاوية ]

وقد خبرتكم أن دم عثمان كان من أمتن أسبابه وأجود

مصايده ، وكان ذلك الدم دماً أكثرته الجماعة واستفظعته الدهماء وكبر في نفوس العامة وفي نفوس أكثر الخاصة ؛ وقد رووا أن ابن عمر لما هجم على طارق مولى عثمان يأكل الطعام على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما ظننت ان العقوبة يقتل عثمان تبلغ ما أرى ! » ، وقال عدي بن حاتم : « إنكم إن قتلتم عثمان لم تحبث فيه عنز » ، فلما قتل ابنه وفقت عينه ودخل بعد ذلك على معاوية وقد صار الأمر إليه وله ، قال له : « هل حبقت العنز ؟ » - قال : « أي - والله - والتيس الاضخم ! » وزعموا أنهم حين سمعوا قول كثير في ولد عثمان :

وابن الذي عوقبت في قتليه العرب

عجبوا مما أظم ، وقد قالوا لعلي بن أبي طالب ولاصحابه يوم الجمل :

رُدُّوا علينا شيخنا ثم بَجِّلْ نعي ابن عفان بأطراف الأسل  
 فإذا كان جند طلحة والزبير وحالهما في دم عثمان والعمون عليه وهو محصور حالهما  
 وهم يقولون هذا القول ويطالبون علياً بدمه هذه المطالبة ، كيف تتمجب من  
 معاوية وجنده وكيف لا يطالب معاوية علياً بدم عثمان بأهل الشام إذ كان طلحة  
 والزبير يطالبان علياً بدمه ، وأصحاب طلحة والزبير يوم الجمل هم فتحوا هذا  
 الباب لأصحاب معاوية يوم صفين ؟ وإنما ذكرت لك هذا لتعلم أن معاوية يوم  
 عزله علي لم يكن بالمخوف على ما تهبأ له وأنفق على يده ؛ فإن قلت : فإن أكثر  
 الناس قد أكثروا في علي وقالوا : « قتل عثمان » ، وقال حسان بن ثابت :

يا ليت شعري وليت الطير تخبرني ما كان شأن علي وابن عفان  
 لتسمعن وشيكاً في دياركم الله أكبر يا ثارات عثمان

وقال الوليد بن عقبة ايضاً :

بني هاشم رُدُّوا سلاح ابن أختكم . ولا تنهبوه لا تحل مناهيه

قلتُ لك إني قد سمعتُ من هذا روايات ورويتُ فيه أشعاراً وسمعتُ من الناس فيه خوضاً كثيراً ، وسأقيمك على السواضحة وأقف لك على الجادة ، بل على العلم العظيم والمنهج الفسيح إن شاء الله ؛ وخير الاقوابيل بل أعدّها وأرضاهما عند الله أقصدّهما ، ولذلك اخترنا الاعتزال مذهباً وجعلناه نحلةً ومفخراً ؛ وسنقدم قبل القول في هذه المسألة قولاً ، فافهمه ، قالت الجهمية : « لا نقول إن الله معنى ولا نقول إنه شيء ، ومتى أضفنا إليه شيئاً فمتى نحن أضفناه إليه فذلك الشيء فعلٌ من أفعاله ، كذلك سمعته وبصره وعلمه وقدرته . » وقالت الرافضة : « هو جسم فضلاً عن ان نقول إنه شيء » ؛ وقالت المعتزلة : « هو شيء وليس كمثل شيء ، وليس بجسم وليس علمه بفعل ولا صنع ، وإنما قولنا : له علم ، كقولنا : هو عالم ، نريد أنه لا يخفى عليه خافية . »

وقالت المرجئة : « القاذف مؤمن » ، وقالت الخوارج : « القاذف كافر » ، وقال بعضهم : مشرك ؛ وقالت البكرية : « بل هو أسوأ حالاً من المشرك ، والمُنافق أشدّ عذاباً من الكافر » ؛ وقالت المعتزلة : « هو فاسق كما سُمّاه نصّاً ولا نسمّيه كافراً فيلزمنا أن نلزمه أحكام الكفار وليس ذلك حكمه ، ولا نقول : مؤمن ، فيلزمنا ولايته ومدحه وإيجاب الثواب له ، وقد أخبرنا الله تعالى أنه مشؤوم من أهل النار ، فنزعم أنه في النار مع الكافر وأنه لا يجوز أن يكون في الجنة مع المؤمن . »

وقالت الخوارج في قتال الفئة الباغية : « نسير فيها بالإكفار وبالسي والغنائم وباتباع المدبر والاجهاز على الجريح » ؛ وقالت المرجئة : « لا قتال » ؛ وقالت المعتزلة بالقول المرضي وهو إيجاب القتال على جهة الدفع لا على القصد إلى القتال ولا على السي ولا على الاجهاز على الجرحى ولا على استحلال

الاموال ، فلم تُفطر إفراط الخوارج ولم نقصر تقصير المرجئة ، ودين الله بين المقصر والغالي ، وهذا الاشتقاق ، وهو التوسط والاقتصاد ، هو الاعتزال لغلو من غلا وتقصير من قصر ؛ والاصل الذي نبي عليه أمورنا فيمن ليس عندنا كعلي وسابته وأرومته وكامل خصاله بل في أدنى رجل من أوليائنا ، أنا متى وجدنا له عملاً يحتمل الخطأ والصواب لم يكن لنا ان نجعل عمله خطأ ، حتى يُعيينا فيه وجه الصواب ، وليس لنا بعد ان قضينا بانه خطأ أن نقضي بانه خطيئة حتى يُعيينا القدر بانه سليم من طريق المآثم ، فان قضينا بانه إثم فليس لنا أن نقضي بانه ضلال ونحن نجد لصرف الدفع عنه أنه ضلال الى الاثم عتماً ، وان قضينا بانه ضلال فليس لنا ان نقضي بانه كفر إلا بعد ألا نجد من ذلك بدأ فيكون الحق أحق ما قضي به وصبر عليه .

فمن كانت - حفظك الله - هذه سيرته وطريقته في أدنى أوليائه ، فكيف تظنه في أرفع أوليائه ؟ فهذا ما لا يحل لي أن أظنه بعلي بن أبي طالب ؛ فان كان عندك برهان واضح ودليل بين يكشف لنا عن الحال فيه حتى يتبين به انه كان سبياً من إراقة دمه ، فعلينا البسمع واليقين والاقرار وعليك البيان والافهام بالدليل والحرص .

واعلم أن الرجل المخوف على الملك قد يكون محبوساً عند الملك القائم فيموت حتف أنفه ؛ فلا يشك الناس أن الملك هو الذي أمر بقتله ، ويموت على فراشه وفي منزله ؛ فلا يشكون انه قد دس إليه السموم وأدب إليه العقارب ، ويموت وهو ناء عنه ؛ فلا يشكون انه قد احتال له وتقدم في ذلك من أمره على يدي طبيب أو خادم أو طبّاخ أو صاحب شراب على بُعد داره وشطون مزاره ، ولو تمنع مكانه واشتد احتراسه ؛ ولو قتله هبوب الريح أو صعقته صاعقة لوجدت من يقول في ذلك قولاً مرغوباً عنه .

وقد قال بعض العلماء من تعلم : « لقد عجز عن معرفة أمر عثمان من شدة غيبه ، فكيف بمن غاب عنه ؟ » ؛ ولو كان معاوية القائم ، بزعمه ، بدعه هو

القائم بعده بالحجاز والعراق ، لوجدت من يقول إنه قد كان دس عليه ورفض به وأفسد عليه وأنغل ، إن لم يجدوا شيئاً ظاهراً ؛ هكذا الناس فاعرفهم ، إلا من عصم الله ولا يعصم الا المخلصين .

### [ ٢٧ - موقف علي والناس من مقتل عثمان ]

وكان - حفظك الله - من أعظم ما أثنى به على علي في دم عثمان أن دمه الامة كانوا يعقلمون شأن دمه ويبرثون علياً منه ، وكان اكثر أجناد الخلافة والقواد ورؤساء العشائر من سوء الرأي في عثمان وحسن الرأي في قاتليه على خلاف ذلك ؛ ولم يكن للناس جند سواهم : فصار علي ، إن هو أظهر الدلالة الصحيحة على البراءة من قاتليه ، خاف أن يفسد عليه عامة أجناده ؛ فكان يمسك من ذكره ما امكنه الامساك ، فإذا اضطره القول قال قولاً يحتمل رضى الفريقين ، ولو شهدته - أرشدك الله - عذرتة ، ولو وهمت نفسك بحالاته التي كان يمتحن بها لصوتته ، بل لعلمت انه لا رأي ولا صواب إلا ما اختار ولا رأي إلا ما كان يفعله ؛ واحذر - حفظك الله - تخطئة الاثمة ، فإنه [ لو ] لم ينزل ذلك إلا لأنها كثيراً ما تظهر من تدبيرها شيئاً تورى به عن شيء آخر مخسفة في حال وطمعاً [ في ] ان تكون مصلحة شأنه في ذلك التدبير ، لوجب عليك ترك ذلك ، ولذلك روي عن علي : « ما قتلته ولا امرت بقتله وما ساءني وما سرنني » ، وروي عنه انه قال : « الله قتله وانا معه » ، في كلام كثير يحتمل التأويل .

### [ ٢٨ - أنصار معاوية يحتجون له ]

وزعمت أنك سمعت رجلاً من السُفيانية ممن يرى رأي المروانية وبعض من ينحل مذهب الغيلانية ومن أصحاب ثور بن يزيد والاوزاعي يذكرون حججاً في تثبيت الخلافة لمعاوية وأن نسبه إليها أقرب من نسب الزبير وطلحة ، وأنهم

كانوا يتعجبون من رأى الوقوف في حرب عليّ والزبير وطلحة ولم يقف في حرب عليّ ومعاوية ، وأن معاوية إما أن يكون على الحق وإما أن يكون أثبت على القياس وأبقى على المسائل من أمر طلحة والزبير ، وأن حجته في قتال عليّ أصح من حجة عبد الله بن وهب ، وأن عذره أوضح من عذر أصحاب النهر ، ولكنه لما كان أهل الحجاز وأهل العراق ليغضتهم على أهل الشام ولطول محاربتهم لأجناد بني مروان وآل أبي سفيان أطلقوا على عداوتهم البراءة منهم ، صار من عرف حقهم استعمل التقيّة ومن لم يعرفه قال : « تقول تلك الجماعة » ، إذ كان لا يرى الجماعة إلا تلك الجماعة .

### [ ٢٩ - موقف طلحة والزبير من علي ]

وذلك أن علياً سُمي أصحاب الجمل الناكثين لنكث طلحة والزبير لبيعتهم ، ولم يختلف الناس في بيعتهما له ، ولا أنكر ذلك الزبير يوم واقفه عليّ بالبصرة وقد أقر بها طلحة ثم ادعى الإكراه ؛ ففي واجب الحكم أن يقضي عليه بإقراره وأن يُسأل البيّنة على دعواه ؛ ولم يشهد إلا أسامة ، وليس في قول أسامة وحده حجة على أنه لم يشهد عليّ ، وأسامة ممن ترك بيعة عليّ ، ولو لم يدع بيعة عليّ لما كان في شهادة الواحد حجة ؛ على أنه لم يشهد إلا بأنه بايع وهو كاره ، وهذا اللفظ يحتمل الوجوه ، وهو بخلاف ما أراد طلحة أشبه .

والحق كله مرّ والباطل كله حلّ ؛ وقد خلق الله النار فحرقها بالشهوات وخلق الجنة فحرقها بالمكراه ؛ ومن صفة الطاعة أن يحتمل فيها صاحبها الكلفة والمشقة ومجانبة الهوى ، ومن صفة المعصية أن يدخل فيها من طريق الشهوة لها والذهاب معها ، وقد رجع الزبير عند الأذكار ، وتأخر طلحة إلى خلاف موضع صاحب الاستبصار حتى قتل في أخريات الناس ، ولذلك قال بعض الناس : « لله مصرع شيخ ما أضيعه » ، وهو لا يستطيع أن يدعي على معاوية عقد بيعة ولا على أصحابه نكثاً كما ادعى على الزبير وأقر له بها طلحة .

[ ٣٠ - احتجاج السفينانية بان معاوية لم يكن قاسطاً ]

« ولو كان معاوية سيء السيرة في أهل الشام سيء النظر للعوام غير مُصِيب في سياسة الأجناد وفي ترتيب الأشراف وفي تقريب العلماء وفي رحمة المساكين ولم يكن عفيفاً عن المال شديداً على الفاسد نامعاً للظالم قوياً في الحق سهل الحجاب معظماً للشريف منصفاً للضعيف بصيراً بالحزم عالماً بالحكم كثير الفتوح رحب العطن واسع الصدر ميمون النقية فاضل الحلم ، قد جمع المحبة والهيبة ، لما لقوا معه بجباههم ظبابة السيوف وينحورهم أطراف الأسنّة ، ولما خلّفوا العيالات وراءهم [ و ] ملك الروم قد زحف اليهم ، ولولا أن عدله عليهم وحسن سيرته فيهم قد كان دخل كل قلب وخص كل شخص وتمكّن من كل قلب ، لكانت الملاة لطول الولاية والذي يعتري النفوس من الضجر والضعة عند السامة قد منع من ذلك وأعان عليه من لم يعنه ، ولكان أحسن حالاته أن ينجو منهم سالماً لاله ولا عليه .

وهل رأيتم قط أو سمعتم برجل ولي مثل ما ولي من أمر الناس أربعين سنة ، عشرين سنة منها كان فيها أميراً وعشرين سنة كان فيها خليفة ، وكانوا مع ذلك يوم فارقهم أضنّ به وأميل إليه منهم في ابتداء ولايته وفي أول ما أذاقهم من حلاوة إمرته ، وقد رويتم أن علياً قال : « لا تتمنوا موت معاوية ، فإنه لو مات لرأيتم الرؤوس تندر عن كواهلها » ؛ وقال معاوية : « لو أن شعرة طرفها في يدي وطرفها الآخر في أيدي الناس لما انقطعت أبداً » - قيل له : « وكيف ذلك ؟ » - قال : « كنت إذا مدّوا أرسلت وإذا أرسلوا مددت » .

فمن أين سمّاهم القاسطين ، والقاسط هو الجائر ؟ فأئي جور كان رأى منه ؟ ولو كان صاحب جور كان من أغضى له على ذلك الجور أجور ، فهذا اسم أصحاب يوم الجمل اشتق لهم من النكت لنكت الرجلين ؛ وهذا اسم أصحاب النهر اشتق لهم اسم الحرورية من نزولهم بحروراء ، واسم المارقين لأنهم مرقوا عنه من الحق مرتين : مرّة حين عرفهم أن رفع المصاحف خدعة ، فعصوه

ومرقوا عن أمره ، ومرة لسألتهم إياه العوذة وهو يرى فيهم الوهن وفساد القلوب  
وضعف الركن .

خبروني عن معاوية أي جور ظهر منه منذ ولأه عمر إلى أن قُتل عثمان ،  
وعلى من كان جاراً ، وأي شيء ذلك الجور ، ومن يعرف ذلك ومن يشهد به  
عليه ؟ فان زعمتم أن امتناعه من اعتزاله [ عن ] العمل هو جور فلذلك سمّاه  
فاسطاً ثم عمّ به الجميع لطاعتهم له ، فقد قلنا في ذلك ما قد سمعتم ، وكيف  
ونحن لم نر أحداً من فقهاءهم لم يأخذ منه عطائه ولا أبى جائزته ولا أسقط اسمه  
من ديوانه « ولا ترك ابتياع السبي من مغنم عميال ثغوره ولا ترك وطر ما يبيع من  
مقاسمه ولا ترك الأكل والبيع والابتياع من ثمار قطائعه ، ولقد سموا العام الذي  
سلم إليه فيه الحسن الخلافة « عام الجماعة » ، ولقد دفع إليه عبد الرحمن  
ابن سَعْرَةَ ، وهو من كبار الصحابة ، مالا كان عنده وعليّ حي ، وقال : « جيبته  
في الجماعة فلم أكن لأدفعه إلا في الجماعة » ؛ وقيل لابن عمر : « ما منعك من  
أخيك ابن الزبير حين نصب نفسه للخلافة وخرج على يزيد بن معاوية ؟ »  
- فقال : « إن أخي وضع يده في فرقة وأبي لن أنزع يدي من جماعة وأضعها في  
فرقة » .

[ ٣١ - احتجاج السفينانية بان عمر وعثمان وليا معاوية وان علياً لم ينل

الخلافة بالتشاور والاجماع او النص ]

وقلت : وكان مما احتجوا به في استحقاق اسم الخلافة واستيجاب الإمامة  
أنه قال : « هذا موضع وضعي به عمر بن الخطاب ، ولم يعزلني مد ولأني وقد  
كان لا يكاد يدع أميراً إلا استبدل به ولأ غضب عليه لبعض ما يكون منه ،  
وربما أمر بإشغاصه إليه ، ولم يعزلني ولم يغيظ عليّ مد رضي عني ولا عزلني مد  
ولأني ، ثم جمع لي الأرباع بعد أن كان ولأني رُبعاً وقوى أمري وثبت وطني ،  
ثم أكد لي ذلك عثمان بن عفان وشُدّه وقوى أمري ومكّنه ، فلم يكن لي سني

الاختلاف أكثر في ذلك منه في سبني الائتلاف ، ثم إنك أمرتني بالاعتزال من غير أن أكون أحدثت حدثاً أو أويتُ حدثاً ، وأنت لم تأخذها من جهة التشاور والتخاير كما أخذها عثمان ، ولا نصّ عليك عثمان كما نصّ أبو بكر على عُمر ، ولا أجمعت عليك الأمة من تلقاء أنفسها كما أجمعت على أبي بكر ، فلم يكن لي أن أسلم إليك علقاً في الفرقة كنتُ تسلّمته من أهله في الجماعة ؛ فإن حاربتني على ما في يدي ، منعتك ، وإن تركتني ، سلمته إلى مثل من سلمه إليّ ، ولي أن أمنعك بالسلاح إن شهرت عليّ السلاح ، وأن أمنعك بالحجة إن طلبته مني بالحجة .

### [ ٣٢ - احتجاج السفينانية بان ولاية معاوية صارت له بوضع اليد ]

وزعمت أنهم قالوا : وقال معاوية : « احسبوا أن هذا العلق الذي قد صار في يدي ، وصار لي فيه حقٌ صاحب اليد فيه ، كان لقطعة طلبها مني بعض من لم يثبت عندي أن اللقطة له ، لا من طريق البيئات التي لا معارض لها ولا من طريق العلامات التي يستحق بها اللقطة من جاء بمثل العلامات التي يُستحق بها اللقطة : فأنا في منعك محق ، وأنت في طلبها مني مُبطل ، فإن قاتلتني قاتلتك دون حقي ، وإن كفت عني انتظرتُ بها صاحبها متى أرادها مني ؛ أو ليس لو طلبها مني سعد ولم يتبين لي أنه أحق بها منك فدفعتها إليه كنتُ ظالماً لك ؟ فكذلك أنت في التماسك ما لو دفعته إليك كنتُ ظالماً له ؛ فإذا اجتمعنا على أمر ، فعندها لك أن تأمر وتنهى ؛ ولست في جهلي فضلك على سعد بأسوأ حالا من سعد حين جهل فضيلتك عليه ، وقد أشكل عليّ كما أشكل على من قبلي ؛ ولو كانت أقداركم عند عمر بن الخطاب متميزة وحالاتهم عند أنفسكم وعند الرقباء عليكم غير مشكلة ، لكان تكلف التشاور عيباً وهجراً ، ولكان تكلف عمر ذلك لكم جهلاً وضعفاً ، وكيف أمسكت في ذلك الدهر عن إنكار مخايرة سعد وأنكرته في هذا الدهر ؟ فأرنا الفضيلة التي حدثت لك والنقص الذي ظهر له ! » .

[ ٣٣ - احتجاج السفينانية بان معاوية أولى الناس بمطالبة علي بدم عثمان ]

وزعمت أنهم قالوا : قال معاوية : « قتل إمامي وخليفتي مظلوماً وقتل ابن عمي وولي نعمتي مخلولاً ، ورايتُ موضع قتليته ومتهكّي حرمانه في زمان مفتون ودهر اختلاف ، وأولياء دمه ضعفاء وهم لي أهل وأولياء : فإن أنا طلبتهم وحبستهم إلى أن يقوم إمام يحكم فيهم وكان ذلك مني من طريق القيام بحق الحرمة والحسبة وما يجب من شكر النعمة ، كان ذلك حسناً : فهو يحسن من طريق الدين والحسبة ومن طريق الوفاء والمودة ومن طريق الأرحام الماسة ومن طريق ما يُوجبه شكر النعمة ، وكيف يحسن بي أو يُستحسن لي ترك محاولة ذلك وتكليفه وتعاطيه وامتحان الخيال فيه مع ما معي من الآلة والقوة والعدد والعتاد والعتة ، وقتلته معروفون ومكانهم مشهور ؟ فإن حال بيني وبين الاستيثاق منهم أحد كان ظالماً ، وهل أنا في أخذهم إلا كقوم مات إمامهم فشدوا على من في مجالهم وعشائرهم من أهل الدُّعارة والفساد ومن رجال الفتنة والفساق فحبسوهم إلى أن تجتمع جماعتهم وتُفق كلمتهم ؟ فإن منعتي دون هؤلاء القتلّة مانعٌ بالسلاح ، طلبتهم بالسلاح ، وإذا فعل ذلك عدلٌ زالت عدالته وتحول حكمه ، ولا تجوز الإمامة إلا للعدل ، بل لا تجوز لمن اشترك في دم أو أمان على قتل مسلم ؟ أو منع وليّ الدم من أخذ قاتلٍ وليّه إلى أن يسلمه إلى من له أن يحكم فيه حكمه . »

[ ٣٤ - احتجاج السفينانية بان الخلافة شورى ومعاوية أحق بها من بقية

الشورى الأربعة ] .

وزعمت أن أصحابه قالوا : وكيف جاز لسليمان بن صردة وللمسيّب بن نجبة ولعبد الله بن هلال أن يطلبوا بالسلاح قتل الحسين بن عليّ ، ولا يكون لمعاوية أن يطلب بالسلاح قتل عثمان ؟ ، وقلت : وزعموا أن معاوية زعم أنه أحق

بالخلافه من جميع بقية الشورى : فاما سعد فلم يستحقها قط لانه كان جليسا لا يرى ان يدفع ضيما ولا يمنع حرما ، وان الدفع بالسلاح عن اراد السلطان بالسلاح بدعة وفسق وضلال وفجور ، ولانه زوى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كان اخى عليا دون جميع الصحابة وقال له : « أنت مني بمنزلة هارون من موسى » ، فإن كان صادقا فهلا روى هذه الرواية آيما كان علي حيا وهو يجاذبه الرئاسة ويأبى تقديمه الى مقام الإمامة ويصرح أنه أحق بها منه ويدعوه الى الشورى ويقول : « ما أنا بمقصي هذا أحق مني بها » ؟ وهل يخلو من أن يكون في روايته كاذبا أو صادقا ؟ فإن كان صادقا فقد ضلّ بامتناعه عن بيعة من هذه عنده صفة وترك تقديم من هذه الرواية فيه ومن مكانه من الرسول هذا المكان ؛ وإن كان كاذبا فليس هذا النوع من الكذب من أخلاق الأئمة ومن صفات الخلفاء ، وهل أن من أقر بأنه قد ترك تقديم من هذه صفة ، فقد أقر على نفسه بالمعاندة ويشرك الإقرار لأهل الحق بحقهم ؛ ومتى ثبت ذلك عليه بطل خبره وردت روايته ، ومن كان مكذبا في حديثه ، فغير إمام ولا حاكم ولا شاهد ، فافهم ذلك .

وأما طلحة والزبير ، فإن كانا قد اهتديا في بيعته ، فقد ضلّا في النكث عليه ، وإن كانا قد ضلّا في بيعته ، فما تابا من ضلّاهما ولا خرجا من إدخال الشبهة على رعيتهما ، وإدخال شبهة ثورث الفتنة أعظم من قتل رجل من المسلمين ؛ وفي رجوع الزبير ونكوص طلحة وفيما كان من مسيرهما وتجاهدهما الإمامة فيما بينهما وتقديم أبنائهما الصلاة على النوب واختلاف أمرهما ما يدل على اختلاط التدبير ؛ فلأنهما لم يكونا من أحلاس الخلاف ولا يتسمان لها ولا ينهضان بأعبائها ، وإن الأمر لو أفضى إليهما ومات من ينازعهما ، لكان كل واحد منهما أشدّ على صاحبه من العدو الذي مات عنه ، ولو فرغا من حرب علي لألقيا للناس حرباً أطول وفتنة أشنع وقتلاً أذرع ، ولو قتل كل واحد منهما صاحبه أو مات عنه حثف أنفه لجري بين ابنيهما ، إذ كان هذا يصلي بالناس مرة عن أبيه وهذا مرة عن أبيه ، من الشرّ والمناسبة ومن القتال والمغالبة ما « هو أشنع وأفظع

وأدهى وأمر ، ولو كان ذلك لأصابنا من أتباع أبناء الأبناء وسرعان الغوغاء ما يُنسي ما قبله ويشغل عن ذكر ما تقدم امامه ، ومن كان كذلك حكم ارتحاله وحله وعقله ونقضه وإبرامه لم يستحق تلك المقام ولم يستوجب تلك المراتب .

وقالوا : وأما علي بن أبي طالب فإنه مع الشرك في دم عثمان والاشتمال على قتله لم يزل لا يرى أن يعيد الأمر إلى الشورى وكان ذلك منه طعناً على عمر وزيارة منه على أولئك الرقباء والأمناء وخلافاً على رأي الجماعة ، والظن على هؤلاء ضلال والخلاف عليهم إثم كبير ، وإنما كان الإنصاف والإقرار بالحق والخضوع اللازم أن تجتمع بقية الشورى وهم أربعة فيشتوروا في التخيير كمشورتهم فيه وهم ستة ، ولأن ذلك الأمر إنما كان مقصوداً على قوم قد أجمعوا على تفضيلهم وتوليتهم وأنه حق لنفر فلا يزول حق الحي لموت الميت ، والجماعة الذين كانوا بالأمس راضين لم يتغيروا ولم يتبدلوا ، وإنما كانوا ستة فمات عبد الرحمن وقتل عثمان : فلو تركهم علي يجتمعون ولم يبتز الأمر وصيره إلى التخيير والتشاور وإلى طلب من هو أربط عليهم وأنفع لهم ولو بشيء يسير وذلك هو القياس ، لما كان اختلاف كما لم يكن قبله اختلاف ، وعلى أن المسلمين لم يتشاوروا قط في أمر الإمامة فيما دونها فافترقوا إلا عن غير اختلاف ، وكيف يختلفون وقد أطاعوا ربهم وكيف لا يعصمهم وقد اعتصموا بحبله وآثروا حقه ؟ قال الله : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنِهِمْ ﴾ ، وقال : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ ، وقال : ﴿ فَابْتَغُوا حَكْماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكْماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾ ، ولا يجوز أن يضمن التوفيق لنفسين إذا أرادا الإصلاح ويخذل الجماعة ، ولا يجوز أن يوفق من كان من عرض الأمة ويدع الأئمة .

ويعتد فهل خالف ذلك الرأي من عمر أحد ؟ ولقد اتفقوا عليه بعد موته كما اتفقوا عليه قبل موته ؛ ولقد خالف بعضهم أبا بكر في استخلاف عمر وما خالف أحد عمر في وضع الأمر في الستة ، ولم يقل أحد من الستة : « فينا واحد لم يكن ينبغي أن يكون معنا » ، أو : « في الناس واحد كان ينبغي أن يكون

معنا» ، لا ولا قال احد من الأمناء ولا من جميع الجمهور والدمماء : « فيهم واحد لم يكن ينبغي أن يكون فيهم وفيما واحد كان ينبغي أن يكون معهم » ، فتَمَّت الكلمة وشاع الرضى واستفاض التسليم .

وقالوا : فعلي لا يصلح لها من هذه الوجوه وطلحة والزبير لا يصلحان لها من حيث ذكرنا ، وسعد هو الذي لا يجوز أن يجيء منه ملك ولا إمام في كفر ولا إسلام ، لأن من لم يدفع عن بيضة الملك بالسيف فهو مقتول وأمره ضائع ، ولم يطلب ملكك أحدً فرضي بأخذه دون أن يأخذ نفسك مع الملك ، وهذا قائم منذ كانت الدنيا ، ولو آمنه أن يثب به أو يثب من أجله واثب ما دام حياً لكان استبقاؤه أحب إليه وألذ له وأبلغ عنده فيما يريد .

### [ ٣٥ - احتج السفينة بانه لا بد من الدين والسيف في الملك ]

وقالوا : ولو ادعى رجل عندنا النبوة وذكر أنه يستشهد إحياء الموتى والمشى على الماء ، ثم زعم أن الملك مستقيم دون منعه بالسيف والسوط ، لعلمنا أنه لم يكن ليأتي بعلامة أبداً ولا يُقيم شاهداً على دعواه أبداً ، إلا ان يأتي قوم طبائعهم على خلاف طبائعنا وحالاتهم على خلاف حالاتنا وعاداتهم على خلاف عاداتنا وأسبابهم على خلاف أسبابنا ؛ فأما والأمر على ما شاهدنا من طبائع الناس اليوم وعلى ما سمعنا من طبائع العرب في جاهليتها وإسلامها والعجم في سالف أيامها ، فإن ذلك لا يجوز ولا يقوله من يعرف الدنيا وما فيها ؛ ولذلك لم يكن للزنادقة مملكة قط ولا تكون أبداً ، ولقد اضطر الأمر نصارى الروم ونصارى الحبشة إلى الدفع بالسيف حين رغبت في الملك ومالت إلى الدنيا مع علم جميع العالم أن القتال ليس من دينها ولا من مذهبها .

ألا ترى أن الله لم يُخل الدنيا من أن يجعل فيها نبياً يحمل السلاح ويُقيم جزاء الحسنه والسيئة ويستعمل السيف والسوط ، أو يضم إليه ملكاً يذب عن النبوة بعز الملك ويدعو النبي إلى طاعته براءة النبوة ؛ فأما أن يُرفع أحدهما من

العالم فلا بد من اجتماع اللين والشدة إما في شخص واحد وإما في شخصين ،  
وقد قال الله : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ، وفي المثل  
المحمود : « قتل البعض إحياء الجميع » ، وليس في الأرض ملك إلا وأطراف  
ملكته تنتهي إلى حدود ممالك الملوك ، فهو وإن تنصّر فإن الملوك لا يتنصرون  
معه ، وإن تزندق لم يتزندقوا معه ، على أن الملوك لم تنصب الأديان رغبة في  
الديانات ولكنها تعلم أنها إن لم يكن لها دين لم تلزم بيعة ولم يثبت عقد أولى  
الملك من بعدها ، ولم يتدين الناس بقتال من يخرج عليها ويريد إزالتها ؛ وإن لم  
يكن دين كانت الأموال متهبة والزوجات مشتركة ولم يثبت نسب ولم  
يكن لأحد وارث ولم يكن تزويج ولا طلاق ولا ملك ولا عتاق ولم يثبت توكيل  
ولا أجره ولا شهادة ولا وصية ولا شرط ولا عهد ولا حدود ولا قصاص ولا قود  
ولا حبس ولا إقرار ولا إنكار ولا دعوى ولا أيمان ولا بيع ولا شراء ولا ميراث ؛  
وإنما يحرص عليه لأن به وفيه ثبات ملكه وتوكيد سلطانه ، ثم لا يسالي ما قالوا في  
الله وما جوزوا على الله وكيف وقعت الأمور بعد أن يستقيم له شيء يكون فيه  
وبه ثبات الملك .

فإن كنتَ محبب أن تعلم أن الذي أقول حق فتأمل قول كسرى مع شدة  
عقله في الله وفي إبليس وفي أعلام زرادشت وفي شرائعه من غشيان الأمهات  
والتوضؤ بالأبوال ، وفي دين قيصر وقوله في الله وفي المسيح وفي بولس ، وفي دين  
ملوك العرب وفي عبادة الحجارة ، وفي ملوك الهند في البُدّ وفي تعظيم الزنا ،  
ودخول النيران ، وهؤلاء رؤساء الأمم ، فانظر كيف تجدهم في الأديان .

[ ٣٦ - اسباب صلاح معاوية للخلافة بنظر السفينانية ]

وإذا كان هؤلاء وهم بقية الشورى لا يصلحون للإمامة فمن دونهم أجدر  
ألا يصلح لها وكانوا منها أبعد ؛ وقلت إن معاوية أولى بها منهم إذ كان  
أبراهم ساحة من هذه العيوب وأسلمهم فناء من هذه اللوائم ، ولأنه أيضاً أول

مَنْ انتدب ؛ ولو أن جميع أهل بدر أمكنهم إنكار المنكر من مَلِكٍ متغلب إلا أنهم لم يتكلموا ذلك حتى انتدب رجل من عرض المسلمين فبذل نفسه وأهله وماله ودياره وعشيرته وأصحابه وأمل الناس فيه درك حاجتهم ورجوا الفرج على يديه ، كان ذلك المنتدب - وإن كانت سابقة غيره أفضل - أولى بذلك منهم ، ولعله أن يلحق بهم في الطاعة أو يجوزهم ، كما عقد عمر بن الخطاب لأبي عبيد ابن مسعود على أربعين من أهل بدر وعلى الجماعة الكثيرة من المهاجرين والانصار السابقين وليست له في ذلك علة إلا أنه كان أول من انتدب ، ولذلك كانوا رأوه وتحدثوا به ، فساروا تحت لوائه وصلّوا خلفه وأطاعوا أمره وأكبروه بالخضوع له وأعظموه بالإطراق بين يديه والانتصاب له عند طلوعه .

### [ ٣٧ - رد الجاحظ على حجج السفينانية ]

قد كتبت إليك ، يا ابن حسان ورسمت لك ما ألقيت إلي من جمل دعواهم مفسراً ومن حججهم مبيناً ، ولم أقتصر على مقدار ذلك حتى لم أدع لذي هوى نزاعاً ولا لذي حيلة متعلقاً ، لأن أحسم من قلبك هذا الداء وأقطع أصل هذه المأذة ، ولولا أني - والحمد لله - على ثقة من سهولة الجواب وقرب المأخذ وظهور المعنى وقمع الحق للباطل وأنه لا يتلقاك إلا مكشوف القناع ناصع البياض مشرق اللون ، كما رضيت أن أكون سبباً لتنبه العدو ومأذة لخواطر الأعداء ، ولعل بعضهم أن يعدو عليّ بالسلاح الذي ألقيت إليه يوم الحفل ويلتمس به نحري على شغل مني ؛ فقف الآن على فصل فصل وانظر في باب باب ، فإنك ستفهمه ما لم تتشاغل تشاغل المستفرغ وتستبين ما لم تصد عنه صدود المتعمق إن شاء الله .

### [ ٣٨ - معاوية لم يحتج بحجج السفينانية ]

باسم الله الرحمن الرحيم فأول ما أبدوك به وأول ما أذكره لك من هذه

الخصال ، تعريفك أن معاوية لم يحتج بشيء من هذا قط ولا احتج له به في عصره أحد ، ولا جرى لهذا الشكل ذكر قط ولا خطر على بال ؛ فمنه ما تكلفه أعداء علي من المتكلمين وأهل السباب من الناصبة الملاحين ، ومنه ما هو تخريج من أصحابنا لخصومهم على أنفسهم ليتقدموا في الحجّة وفي العناد والعدّة وفي الأخذ بالثقة كصنيعهم واعتلاهم بمذاهب المخالفين ودعوى جميع المبطلين ، ومنه ما حضرني عند ابتدائي الإخبار عنهم وما عزمّت عليه من استقصاء كلّ شيء لهم لتعرف قوّة أوليائك وعجز أعدائك ، وتعلم أنّ من عرف من حجاج الخصم أكثر مما يعرفه الخصم كان بحجج نفسه أعرف وعلى معالي حقّه أغوص وعلى غايته أقدر وأنقى ، وكان أياس للمخالف وأنس للموافق ، ولأن تعلم أنّ أوليائك لو لم يجدوا في أنفسهم فضلاً لما أعاروا بعض قوتهم أعداءهم ، ولأن لا يبقى على من قرأ كتابي شبهة بعد قراءته ، والله الموفق للصواب ، وهو على كلّ شيء قدير .

[ ٣٩ - أصحاب السير والأخبار لم يذكروا حجج السفينانية ]

ولو كانت هذه الحجج قد احتج بها معاوية واحتج له بها أحد في ذلك الدهر ، لكان ذلك مشهوراً عند جمال الأثار والمعروفين بالصدق من أصحاب الأخبار والنقلة مثل الزهريّ ومحمد بن إسحق إمامي أهل الحجاز في علم السير ونقل الأخبار ، ومثل قتادة صاحب الأخبار بالبصرة ومن كانت الملوك تكتب إليه من الشامات في المشكلات ، ومثل سيمك بن حرب بالكوفة ، ومثل الشعبيّ وابن شبرمة والقاسم بن مَعْن ، وجملة من أهل [ ع ١٨ ] البصرة مثل ابن أبي عيّنة ، ومثل مسلمة بن محارب ، بل مثل أبي عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب ومحمد بن حفص وعبيد الله بن محمد بن حفص وأبي عبيدة وأبي اليقظان ، ومثل مسمع وكردين وأبي عاصم النبيل ، ومثل خلاد بن يزيد والقحذميّ ومؤرج وابن قنبر .

وسندع ذكر الأصحاء والثقات وأصحاب التبريز في تصحيح

الروايات ، ونذكر من دونهم ممن قد يؤخذ عنه ويُطعن عليه كالكلبي وابن الكلبي وعوانة والشرقي بن القطامي وأبي الحسن المدائني والميثم بن عبدني وأبي مخنف لسوط بن يحيى وابن جعدبة ؛ وكان لا أقل من أن يرويّه شوكر وابن دأب والعتبي ، أو لرواه رواية الخوارج كهمران بن حطان . والمقعطل والضحاك بن قيس وحبيب بن خدره وأبي عبيدة كورين ومثيل وأصغر بن عبد الرحمن ورعا ومسمار .

### [ ٤٠ - حجج السفينية من عمل المتكلمين ]

وأنت تعلم اضطراراً أن هذه المسالك ليست مسالك الرواة وإنما هي مسالك المتكلمين إذا كانوا رواة ؛ وقد سمعتُ خطب معاوية ورسائله وكتاب القضية : أظنُّ أن معاوية كان عنده من هذه الحجج ومن هذه الاعتلالات شيء وهو يدع أن يخاطب به ويشيعه ويدعوه إليه ويعرضه على أصحابه ؟ بل كان لا يدع أن يجعله في كتاب ويقرأه على أجناده في كل خميس واثنين ؛ ولم أقل إن معاوية لم يكن فطناً أم بعيد الغور بيناً ، ولكن لو رجعت إلى عقله ودهائه عقل عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وزياد والأحنف والمهلب وأضعافهم من الرجال ، لما عرفوا من هذا الشكل شيئاً بطباعهم دون أن يستعملوا صناعة الكلام ، كما أنهم لو أرادوا الحساب والهندسة وعلم اللحون والطب وجميع العلوم لكانوا لا يدركون من ذلك حظاً دون كثرة التنقيح والتفتيش وطول الدراسة للكتب ومنازعة الرجال ؛ وما أشك أنهم أحق بذلك من كثير ممن قد رأيت من المعدودين في أهل النظر ، فلا تنكر قولي إنه لم يكن يعرف من هذا قليلاً ولا كثيراً .

فدواؤك قبل كل شيء أن تخرج من قلبك أنه كان يحسن هذا وأن عمراً كان يتندي له ؛ ثم أعلم أنه مولد خبيث وموه ضعيف ، وسوجدك ذلك فيه باباً باباً وفصلاً فصلاً ؛ وقد يكون الكلام ظاهر العيوب بادي المقاتل مستهدفاً

للمطاعن ، ولا يفتن له الحازم من الرجال ويفتن له الخسيس العقل من أهل النظر ؛ وإن خرجنا كل شيء في هذا الباب كثر الكلام ، وإذا كثر الكلام خرج الكتاب من حدّ الرمائل ، ولم نأمن من ملالة القارىء ونعاس المستمع ، وفيما نلقي إليك من الجمل ما يُغني مثلك عن التخصيل ، ولو كان المقصود إليه سواك لما وجدتُ بدأً من التفسير والتخريج وانتظام جميع الآمات واستحصاء جميع الأبواب .

[ ٤١ - حجة السفىانية بعدم توافر الإجماع على علي لا يظمن في خلافه لان

الإجماع تابع لفضله ]

أما قولهم بقول معاوية : « هذا موضع صرتُ إليه بالإجماع فلا أخرج منه في الفرقة » ، فإن أكثر الناس يغلطون في حكم الإجماع في هذا المكان ويُلحقونه بغير شكله ؛ نقول إن الناس إنما أجمعوا على تفضيل الفاضل لفضيلة وجدوها فيه ، وليس أنهم وجدوا الفضيلة فيه لأنهم أجمعوا على تفضيله ، فالإجماع تبعٌ للفضيلة الموجودة ، وليست الفضيلة تبعاً للإجماع الذي كان منهم ؛ وإذا كان الفضل بارزاً ، فعليه الإجماع عليه ؛ فإن اختلفوا فلا يبعد الله إلا من خالف ، الحقُّ حقُّ الفاضل ؛ وإن لم يصل إليه مع ضعف الموافق وقوة المخالف ؛ فإن وافق صاحب الحق إجماعاً فعليه الشكر والحقُّ حقُّه ، وإن وافق اختلافاً فالحقُّ حقُّه وعليه الصبر .

وقد كان فضل عليّ ظاهراً ، فإن أجمعوا عليه فقد أصابوا حظوظهم ووافقوا محبته إذ كان ذلك حقاً ، وإن اختلفوا فقد أخطأ المخالف حفظه ، ولم يُضْم ذلك علياً لأن ثواب عليّ على الصبر على البلاء كشوابه على الشكر على الرخاء ؛ والحقُّ ليس يجب له بالإجماع بل إنما كان ذلك دليلاً على الاستحقاق وحكم مقام النبيّ صلى الله عليه وسلم وحكم مرتبة الإمام والتخصيل إلى أن نعلم أن أمراً قد اضطرَّ إليه ؛ فما لم نعلم ، فالحكم بالتخصيل

لازم لظاهر الحال ، وليس لنا أن نُزيل حكم ظاهر الأمر بـ « لعل » أو « عسى » ،  
 وليس يزول اليقين إلا باليقين ، ومتى هجمنا على رجل قد أجمع الناس على تأميره  
 طائعين غير مكتمهين ، ثم رأيناهم يدينون بطاعته ويتقربون إلى الله بنصيحته  
 ويرون أنه إذا ولى رجلاً صلاة الجمعة أن له أن يقصر وأن لهم أن يقصروا  
 خلفه ، وإن هو عزله كان عليه وعليهم أن يأتوا بخلاف ذلك ، ومتى استعمل  
 رجلاً على ثغر دانوا بابتیاع ذلك السبي ووطنه واستخدامه وبيعه والانتفاع بذلك  
 المقسم وبابتیاع العقود والعقارات والمستغلات منه ، ومتى عزله حرّموا  
 ذلك وسقطوا من لم يجتنبه ؛ ومتى استقضى رجلاً لزم الناس حكمه ونفذ فيهم  
 أمره ووجب سجلاته ولزمت قضاياه ، ومتى قال : قد عزلتُك ، كان كالمفاتي  
 وكالمشير والمصلح ، ثم تراهم إذا كان قاضياً يقومون فوق رأسه ولا يجلسون إلا  
 بأمره .

ولم نر علياً لما عزل سعداً وولى أبا موسى وعزل عماراً وولى المغيرة ، قال  
 المعزول : « لا اعتزل البتة ا » أو قال : « لا اعتزل حتى أعرف لم عزلني ولم ولى  
 من أنا اعظم عناية منه واجود سياسته منه وأشرف أرومة منه » ، أو قال : « أنا  
 أسن منه وأكثر فقهاً وعلماً منه » ، أو يدعى أن أهل البلدة به أرضى وأنه لا يرضى  
 أن يكون قد عانى خراب أرضها وفساد رجالها وضياع ثغرها ، فلما عمر البلدة  
 وحصن الثغر وأصلح الفاسد وقد كلف وتعب وسهر ونصب ، بعثت رجلاً يصير  
 له مهناً فيذهب ببردتها وحلاوتها ، وأنا قد صُلبت بحرّها ومرارتها ؛ بل نجد  
 المعزول صابراً راضياً والمستعمل قابلاً نافذاً لأمره وقوله ؛ فحكم ظاهر هذه الحال  
 وحكم المرتبة التقديم لأهلها والتفضيل لأربابها حتى ثبتت الحجة ببعض ما يحطه  
 عن أهل المراتب ويقتصر به على دون الكمال ، فالإجماع تابع في هذا الموضع .

[ ٤٢ - حجة السفينية بعدم عمل علي بالشورى لا يطعن في خلافته لأن

شورى عمر لا تلزمه ]

فأما من حيث ذهب القوم إليه فقد قلنا في ذلك ؛ فان قال : « فهلاً

جعلها شورى بينه وبين طلحة والزبير ؟ - قلنا : قد زعمتم أنها قد بايعا فإن كانا قد ضلّا بتلك البيعة فقد صارا لا يصلحان لإمامة ، وإن كان ذلك منها هدى فقد ضلّا بالصمت قبل الحديث ؛ فإن قالوا : قد قلنا ذلك في طلحة والزبير ولكننا قد علمنا أن سعداً لم يبايع وإنما ضلّ عندنا بعد أن تبين لنا رايه في ترك البسط وفي روايته في تفضيل عليّ على نفسه بعد وفاة عليّ ولكن ما باله لم يدعُ إلى الشورى يومئذ ، وتركه للشورى عندها ضغف [ حينة ] على عمر ونخطة للجماعة ؟ - قلنا : إن عمر لم يشترط ذلك الأبد ، ولم يُوجبه إلا في الثلاثة الأ [ يام ] التي قال : « إن انقضت ولم يفرغوا ، فاقتلوهم » ؛ وما علم عمر بما يكون من انحفاظ قوم وتبديلهم ، وبأي وجه آخر يدلّ من تقدّمهم ، وبما يحدث في أنصارهم من العمى الذي يمنع من الحكم ، أو ممّا يُعجل من [ ..... ] الذي يحول دون الخلافة ، أو ليس الإمام الذي بعده قد كان له في رعيته من التدبير مثل الذي كان لعمر في رعيته ؟ .

أولستُم تزعمون أنّ أبا بكر أقام عمر وأنّ عمر ترك سيرة أبي بكر وصار إلى الشورى ووضعها ؟ فإن قلتم : « إنما غير التدبير حين لم يجد واحداً [ قادراً ] قد لكم : وكذلك من بعده فغير تدبير عمر كما غير عمر ذلك التدبير عن بعض ما شاهد أبو بكر من الحال المخالفة للحال الأخرى ، فليس لنا أن نلزم عليّاً الشورى إلا بأن يوجد أنّ عمر قد كان جعل ذلك شرطاً محدوداً وأنّ الأمة تلقت ذلك بالتصويب ، فلم [ يحدث ] اختلاف وليس لعمر في سلطانه إلا مثل ما للإمام [ من ] المصلحة على قدر ما شاهد من الحال ؛ وإنما تدبير الأمور على قدر اختلاف الأمور وقد وجدنا عليّاً نفسه عند الحاجة والضرورة وعند الخطبة على الرعيّة قد أظهر الرضى بأن يكون أبو موسى وعمرو يتشاوران فيه ، فكانا في موضع الشورى في ظاهر الحال وهما عنده على ما هما له عندنا ، وكذلك معاوية وقد امتنع قبل ذلك أن يجس نفسه بمخايرة طلحة والزبير وسعد [ فحبسها ] بحباله أخرى أبعد من الأولى من كلّ ما ذكرنا ؛ وإنما كلّ ذلك بقدر ما يشاهد الإمام من الحال إذ كان ذلك إنما يُعرف صوابه من باب الرأي فقط .

[ ٤٣ - علي اولى بالخلافة للقرابة والرواية والقدم والزهد ] .

ويقال لهم : فإننا نرد الأمر إليكم : أرايتم لو أمرتم ان تختاروا بين عليّ وسعد إماماً كيف كنتم تصنعون حتى تُوجدونا أن سعداً أو [ لى ] من عليّ ؟ قولوا كيف شئتم ؛ قد علمتم ان هذا الأمر ، إن كان بالحسب ، فإن سعداً ليس من شكل عليّ ، وعليّ هاشميّ الأبوين وكان أول هاشميّ الأبوين كان في الأرض ، ولذّه أبو طالب بن عبد المطلب بن هاشم من فاطمة بنت أسد بن هاشم ، وهم أربعة : عليّ وجعفر وعقيل وطالب ؛ ثم هو صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن اخي حمزة والعبّاس ؛ ثم الذي يجمع أبا النبي صلى الله عليه وسلم وأبا طالب [ الجد ] الأديني بالأمّ التي جمعتهما .

فإن كان هذا الأمر إنما يستحقّ بالرواية فليس لسعد في ذلك حرف واحد ممّا يُوجب له الإمامة والتفضيل على جميع الأمة وما أكثر [ من ] روى [ فيه الرواية ] ولكن تلك الرواية ليست من شكل الرواية في علي بن أبي طالب ، [ فإن ] ذكرنا أهل التقديم في الإسلام والسبق إليه فأدنى حالاته أن يكون مذكوراً معهم ، وإن ذكر أهل الزهد والتشفّ والظلف والنزاهة وقلة الركون إلى الدنيا والميل إلى اللذات فأدنى [ حالاته ] أن يكون مذكوراً معهم ، وليس بعد هذه الأمّهات شيء يستحقّ به الخلافة إلا ما حددنا وذكرنا ، وكلهنّ مجموعات في عليّ بن أبي طالب ومتفرقات في سواه ، فقد فوّضنا الأمر في سعد إليكم : فقولوا كيف شئتم : فإن سددتم قدّمتم عليّاً ، وإن تركتم السد [ د ] كفيتمونا [ . . . . . ] فيكم وأعفيتمونا من ذكركم وشغل القلوب بكم .

[ ٤٤ - حتى معاوية بالمطالبة بدم عثمان لا يمنحه الحق بالخلافة ]

وأما طلبه بدم عثمان ، فليس ذلك مستكراً إذ كانت غايته الاستيثار منهم إلى أن يقوم حاكم الجماعة ؛ ونحن لا نخالفكم أن قاتل عثمان من

أهل النار مَنْ كان من العالمين، ولكنْ معاوية وأهل الشام لم [ ..... ]  
 عند علي بما هو بين [ ..... ]  
 دون قيام الحجّة بالأَم ولا بما هو [ ..... ] ولا أن  
 يقتلوا [ ..... ] قتله ومن أمر ومن أشار ومن أظهر عجة ذلك وعلم  
 أنه لو درجهم إليهم إنهم كانوا لا يقتصرون عليهم حتى يطمعهم ذلك في أكثر  
 منه، كان له حين عرف [ ..... ] أي معنى [ ..... ] وأي طريق  
 يسلك ان يمنع من ذلك ..... بأهل [ ..... ] فضلاً عن أهل الصلاة  
 ومن يشك ان عسكر علي قد كان يشتمل على قو [ م ..... ] طوائف  
 وفي رقابهم حقوق ومق يتهباً أن يجمع منه ألف مقاتل ليس فيهم إلا مؤمن بريء  
 الساحة [ ..... ] العدالة .

[ ٤٥ - علي لم يقتل عثمان ولم يمن عليه ]

وأما ما ادعى عليه من قتل عثمان فقد قلنا في ذلك في صدر  
 الكتاب بجملة كافية، وأما القنوت فإن سأقول فيه إن شاء الله وأحمد [ ..... ]  
 [ ..... ] أكثر مما قد كنت قد أوردته على ابن ابراهيم بن الحسين بحضرتك  
 وحضرة [ ..... ] شهادتك عليه بحب المغالبة وقلة التهيّب والمرافقة ويغيبك  
 على [ ..... ] يظهر في صدوده وشدة عنوده ، ولو كان القنوت وتركه  
 .....



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

## هامش رسالة الحكمين

(١) يوجه الجاحظ كلامه الى شخص يدعوه ابن حسان يبدو انه كان يميل الى العثمانية ويكره الشيعة ، وكان معتزليا فانفصل عنهم « فانت معتزلي نظامي » اي من فرقة النظام استاذ الجاحظ ، هكذا يخاطبه الجاحظ ، ولكنه لم يحافظ على نحلة الاعتزال فعاون ابراهيم بن الحسن على ترك الصلاة في مسجد ابن رغبان بالبصرة الذي بناه احد المعتزلة الفضيل بن عبد الرحمن مولى بني سدوس . وكان هذا المسجد يقنت فيه ابناء جميع الفرق من الجبرية والنابتة والمعتزلة . وهذا العمل يدل في نظر الجاحظ على سخافة عقل ابن حسان وسوء المحافظة على نحلته .

ونستطيع ان نستنتج من هذه الحادثة ان الفرق الغالبة على البصرة عندما كتب الجاحظ هذه الرسالة قبل الانتقال الى بغداد هي الجبرية والنابتة والمعتزلة . وان التعصب كان على اشده بينها بحيث انها اقتسمت المساجد في البصرة .

(٢) يبحث الجاحظ في شروط التمثيل بين شخصين او شيئين . وقد تحدث على هذه المسألة في رسائل أخرى ( انظر رسالة التبريع والتدوير رقم ٢٣ ) . ولا وجه للمقارنة بين علي ومعاوية لأنه لا شبه بينهما . ويستعين الجاحظ ببعض الامثال فيحورها لتلائم مع الفكرة التي يريد التعبير عنها فيقول ان سحبان اخطب من باقل ، والاصل مثلان هما اخطب من سحبان واعيا من باقل ، ويقول ان زيادا ادهى من هبنقة ، والاصل مثلان هما : ادهى من زياد ( يعني زياد ابن ابيه ) واحق من هبنقة ( هبنقة رجل ضرب المثل بحمقه ) . ويقول ان ابا ذر اصدق من مسيلمة والاصل مثلان هما : اصدق من ابي ذر واكذب من مسيلمة ، ( اي مسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة بعيد موت النبي ) . ويقول ان جالينوس اطب من ابي دينار ، والاصل مثلان هما : اطب من جالينوس ( الطبيب اليوناني الشهير ) واجهل من ابي دينار ( رجل يضرب المثل بجهله في الطب ) .

(٣) يجمل الجاحظ فضائل معاوية التي يقول بها ابن حسان والسفيانية . ويبدو ان النص حرف بحيث لا يظهر فيه رأي الجاحظ الحقيقي في معاوية . فحسب النص معاوية مؤمن عادل غير فاسق ؛ ولكن حسب نص الثابتة ، معاوية فاسق وضال وكافر .

(٤) يذكر الجاحظ طرق اختيار الامام او اقامته . وقد ذكر معظمها في كتاب العثمانية (راجع رسالة العثمانية ضمن هذا الكتاب) . وتبنى الاولى منها التي تقول « والامامة لا تستوجب الا بالتقدم في الفضل والتقدم في السوابق ، والا بأن يكون الفضل اما ظاهراً للعيون ومشهوراً عند جميع المسلمين قد اجمعوا على تقديم رجل وتأمر امير من تلقاء انفسهم بغير سيف ولا خوف ولا اكراه ظاهر ولا سبب يوجب سوء الظن فضلاً على غير ذلك » .

(٥) يعدد الجاحظ كتاب الرحي الذين سبقوا معاوية او عملوا معه وقد كان له رأي سيء بالكتاب عامة (راجع رسالة الكتاب ضمن كتابنا هذا «رسائل الجاحظ السياسية» ) .

(٦) الجاحظ يريد أن يقول ان قتلة عثمان مهدوا الطريق له الى الخلافة اذ لولا قتل عثمان لما اوهم الناس باشتراك علي في قتله وتآليهم عليه ، ولما قال انه اولى بها لانه انتدب نفسه للأخذ بثأره .

(٧) موقف عضوي الشوري سعد بن ابي وقاص وعبد الله بن عمر بن الخطاب الناهي عن القتال استغله معاوية بحبر استغلال لصالحه . كما افاد من تماسك جنده وتضعضع جند علي ، وقد علل الجاحظ تضعضع جند علي لانهم من النزارية اصحاب الاحقاد والعداوات القبلية الجاهلية ، كما انهم من اهل العراق « اصحاب الخواطر والنظر والتأويل والقياس ومع هذه الصفة يكون الاختلاف .. » .

(٨) يذكر الجاحظ سبباً آخر ادى الى غلبة معاوية وهي اللجوء الى الترغيب بالمال والمناصب يفري بها اصحاب النفوس الضعيفة والدينية . بينما عرف عن علي تشده في بذل المال والظن به على غير مستحقه .

(٩) حيلة المصاحف لم تنطل على علي ، ولكنها انطلت على جنده .

(١٠) دهاء عمرو بن العاص ادى الى ضعف موقف علي .

(١١) الجاحظ يحلل موقف ابي موسى الاشعري ، وينتهي الى نتيجة جديدة وهي أنه لم يكن غيباً فيخضع ولكنه انقلب على علي وحاول صرف الخلافة الى عبد الله بن عمر .

(١٢) أنظر موقف الجاحظ من قبول علي بابي موسى حكماً ، انه يتابع استاذة النظام في تعليل ذلك القبول وهو انه لم يرض به حكماً لانه قصير النظر عديم الفطنة ، جاهل بما يضمه ابو موسى من عداوة له ، ولا بسبب ضغط انصار ابي موسى اليمانية

عليه ، ولكن خوفاً من الخلاف في جيشه .

(١٣) اسباب ترك علي القتال هو ما لمسه من مهل جنته الى الراحة والملل من الحرب .

(١٤) يشرح الجاحظ مبدأ من مبادئ المعتزلة هو اقتران القول بالعمل . ويلمح الى التقية عند الشيعة .

(١٥) يرى الجاحظ ان علياً لم يمدح بحيلة معاوية وعمرو بن العاص .

(١٦) الفرق بين علي ومعاوية هو ان عليا كان يلزم في اعماله وتصرفاته الكتاب والسنة اي القرآن وسنة الرسول من قول وفعل وتقرير . اما معاوية فكان لا يتقيد بهما دائماً .

(١٧) الجاحظ يشير الى ما قاله في رسالة النابتة من ان معاوية كفر لمخالفته سنة الرسول في ادعاء الولد ( يعني زياد ابن ابيه الذي ادعى ابو سفيان انه ابنه وهو ابن قراش ) .

(١٨) الجاحظ يعلن انه معتزلي وليس علوياً او عثمانياً او بكرياً ، وهو لا يكره هؤلاء ولا اولئك ولا يميل الى اي فريق من الفريقين .

(١٩) السفينانية لا تحكم على معاوية بالفسلال بسبب مبايعته ابنه يزيد . والجاحظ يخالفهم في ذلك .

(٢٠) وكتاب القضية ، هو نص الاتفاق على التحكيم بين علي ومعاوية . اثبت الجاحظ النص وحلله فوجده مزوراً لفظاً ومعنى او شكلاً ومضموناً . وقد احسن الجاحظ التحليل والتقد .

(٢١) سبب تمرد معاوية على علي عزله عن ولاية الشام .

(٢٢) الشيعة غافلون عن تدبير علي ، رأي خطير اذا ثبت قلب مقاييس الشيعة راساً على عقب .

(٢٣) خطأ الخوارج في موقفهم من علي : لم يفهموا تدبيره مرتين : عندما دعاهم الى مواصلة القتال فابوا ، وعندما دعوه الى استئناف القتال فأبوا .

(٢٤) الجاحظ يميظ اللثام عن موقف ابن عباس من عزل معاوية : لقد نصح عليا بعدم عزله فرفض الخليفة .

(٢٥) سبب آخر ساعد معاوية في صراعه ضد الامام علي هو استنكار العامة لمقتل عثمان ، والشك في موقف علي من مقتله .

(٢٦) الجاحظ يحدد معنى الاعتزال بانه التوسط والاقتصاد بين غلو الخوارج وامشاهم وتقصير المرجئة وامثالهم في صفات الله والغاذف وقتال الفئة الباغية . والمنزلة بين المنزلتين .

(٢٧) لماذا كان موقف علي من مقتل عثمان غامضاً ؟ لأن الناس انقسموا فثنين بشأن عثمان : فئة ناقمة على عثمان مثبته على قاتليه وهم اكثر الجنود والقواد ورؤساء العشائر . وفئة تعظم شأن دمه وتبريء عليا منه وهم عامة الأمة . فاحترار علي فيما عساه يقول في مقتله : فاذا اظهر البراءة من قاتليه ثار به الجند . واذا اتنى على قاتليه نعمت عليه العامة . « فكان يمسك عن ذكره ما امكنه الامساك ، فاذا اضطره القول قال قولاً يحتمل رضى الفريقين » .

(٢٨) يذكر الجاحظ اسما الفشاة التي تؤيد معاوية وتثبت حقه في الخلافة وهي : السفينانية ( نسبة الى ابي سفيان والد معاوية ) والمروانية ( نسبة الى مروان بن الحكم المؤسس الثاني للخلافة الاموية ) . والغيلانية ( نسبة الى غيلان الدمشقي المتكلم ٧٢٣ م ) واليزيدية اصحاب ثور بن يزيد ( احدى رجال الحديث ( ٧٧٠ م ) ) والاوزاعي ( احد فقهاء السنة في مطلع العصر العباسي ، ولد في بعلبك ومات ودفن في محلة الاوزاعي بالقرب من بيروت سنة ٧٧٤ م ) .

(٢٩) طلحة والزبير عضوا الشورى ومن كبار الصحابة بايعا علياً ثم نكثا البيعة وقادا الحرب ضده في معركة الجمل قرب البصرة .

(٣٠) السفينانية تنكر ان يكون معاوية قاسماً او جائراً . ولو كان كذلك لما اطاعه الناس وحاربوا معه وضحوا بنفوسهم واموالهم من اجله .

(٣١) السفينانية تطعن في خلافة علي لأنه لم ينلها بالتشاور ، ولم يجمع عليه الناس ، ولم يرد فيه نص . اما معاوية فقد ولاه عمر وزكاه عثمان وكانا راضيين عنه .

(٣٢) السفينانية تدعي ان ولاية معاوية صارت بوضع اليد كاللقطة ولو طلبها علي منه لم يثبت ان اللقطة له .

(٣٣) السفينانية تزعم ان حق علي بالخلافة سقط لأنه اشترك في دم عثمان او اعان على قتله او منع ولي الدم من معاقبة القاتل .

(٣٤) السفينانية تنفي صحة الحديث النبوي « انت مني بمنزلة هارون من موسى » لأنه لو كان صحيحاً لاحتج به علي . ثم انها تقول ان الخلافة شورى ، وعلي لم ينلها بالشورى .

(٣٥) استندت السفينانية في حق معاوية بالخلافة إلى انتصاره على خصمه وقوته . والامام يجب ان يكون هو الأقوى ويجب أن يجمع الدين والسيف لتستقيم الامامة . وكذلك النبوة فلا بد للنبي من ان يحمل السيف الى جانب الرسالة الدينية أو يؤيده ملك في دعواه ولكن هذا الزعم لا ينطبق على السيد المسيح وعلى موسى . ولا يؤيده الجاحظ الذي يرى في رسالة حجج النبوة أن يكون النبي اعتمد على

الارهاب لنشر دينه ( انظر ايضا استحقاق الامامة ) .

(٣٦) ملخص حجج السفيانية في وجوب امامة معاوية : براءته من عيوب اعضاء الشورى ، وانتدابه الى الثار لدم عثمان .

(٣٧) الجاحظ يعترف بأن حجج السفيانية القاها اليه ابن حسان مفسرة مستوفاة لكي لا يعتب عليه أحد .

(٣٨) جميع حجج السفيانية لم يدل بها معاوية ولم يعرفها اهل عصره انها من تصنع المتكلمين المتأخرين من الناصبة .

(٣٩) يذكر الجاحظ معظم المؤرخين العرب : الزهري ومحمد بن اسحق ، امامي اهل الحجاز في علم السير والاختبار ، وقسادة البصري ، وسمك بن حرب الكوفي ، وشبرمة والقاسم بن معن وابن ابي عينة البصريين الخ . وهؤلاء ثقاة . ومثل الكلبي وابن الكلبي وعوانه والشرفي بن القطامي وابن الحسن المدائني والهيثم بن عدي الخ . . من غير الثقاة . ويدل كلام الجاحظ على انه اطلع على كتبهم مما يبرهن على سعة ثقافته .

(٤٠) الدليل على ان هذه الاحتجاجات التي قالت بها السفيانية في عصر معاوية من صنع المتكلمين المحدثين ان خطب معاوية ورسائله تخلو منها ، وكذلك كتاب القضية .

(٤١) الرد على حجة السفيانية بعدم الاجماع على خلافته بدفع الجاحظ الى ايضاح مفهوم الاجماع وعلاقته باستحقاق الامامة . ان الاجماع بنظره ليس سبب الامامة سواء توافر ام لم يتوافر ، ان سبب الامامة هو الفضل ( راجع نظريته في الامامة في اواخر رسالة العثمانية ، وفي كتابنا : المناحي الفلسفية عند الجاحظ ) .

(٤٢) الشورى ليست سبب الامامة بنظر الجاحظ ، وقد عمل بها عمر وليس من الضروري اتباعها . فابوبكر لم يعمل بها بل اقام عمر قبل وفاته .

(٤٣) علي اولى بالخلافة بسبب القرابة والرواية والقدم والزهد . هذا الرأي قال به الشيعة ورفضه الجاحظ في « استحقاق الامامة » وكتب أخرى .

(٤٤) الجاحظ لا يستنكر طلب معاوية بدم عثمان ويرى ان قاتل عثمان من اهل النار . هذا الرأي اعلنه ايضاً في رسالة النابغة . ( راجعها ضمن رسائل الجاحظ الكلامية ) .

(٤٥) علي لم يقتل عثمان ولا اشترك في قتله . هذا الرأي ابداه الجاحظ في مطلع الرسالة (رقم ٦) .



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی



عبد شمس



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

قال أبو عثمان :

[ ١ - خصال هاشم في الجاهلية ]

إن أشرف خصال قريش في الجاهلية : اللواء والندوة والسقاية والرفادة  
وزمزم والحجابة ، وهذه الخصال مقسومة في الجاهلية لبني هاشم وعبد الدار وعبد  
المزى دون بني عبد شمس . على أن معظم ذلك صار شرفه في الاسلام إلى  
بني هاشم . لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما ملك مكة صار مفتاح الكعبة  
بيده ، فدفعه إلى عثمان بن طلحة . قالشرف راجع إلى من ملك المفتاح لا إلى  
من دفع إليه . وكذلك دفع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير  
اللواء فالذي دفع اللواء إليه وأخذ مصعب من يديه أحق بشرفه وأولى  
بمجده ، وشرفه راجع إلى رهنه من بني هاشم . قال : وكان محمد بن عيسى  
المخزومي أميراً على اليمن فهجاه أبي بن مُذَلج فقال :

قُلْ لَأَبْنِ عِيسَى الْمَسْتَفِي	عِ مِنْ السُّهُولَةِ بِأَلْوَعُورَةِ
النُّاطِقِ الْعَوْرَةِ فِي	جُلِّ الْأُمُورِ بِلَا بَعِيرَةِ
وَلَدِ الْمَفِيرَةِ تَسْعَةَ	كَانُوا صَنَادِيدَ الْعَثِيرَةِ
وَأَبُوكَ عَاثِرُهُمْ كَمَا	نَبَتْ مَعَ النَّخْلِ الشَّعِيرَةِ
إِنَّ النُّبُوَّةَ وَالْجِلَافَةَ	وَالسَّقَايَةَ وَالْمَشُورَةَ
فِي غَيْرِكُمْ فَكَفِّ الْبِك	يَدَا مَجْذَمَةَ قَصِيرَةِ

قال : فانبرى له [ شاعر ] من ولد كُرَيْزِ بن حبيب بن عبد شمس ، وكان مع محمد بن عيسى باليمن ، يهجو عنه ابن مُدَلجٍ في كلمة له طويلة قال فيها :

لَا لَوَاءَ يُعَدُّ بِأَبْنِ كُرَيْزٍ      لَا وَلَا رَفْدُ بَيْتِهِ فِي السَّنَاءِ  
لَا حِجَابٌ وَلَيْسَ فِيكُمْ سِوَى الْ      كِبَرٍ وَبُغْضِ النَّبِيِّ وَالشُّهَدَاءِ  
بَيْنَ حَاكٍ وَخَلَجٍ وَطَرِيدٍ      وَقَتِيلٍ يَلْعَنُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ  
وَلَمْ يَزْمَمْ وَجِبْرَائِيلَ      وَتَجَدُّ السُّقَايَةِ الْفَرَاءِ

قال أبو عثمان : فالشهداء : علي وحمزة وجعفر . والحاكمي والمخلج هو الحكم ابن أبي العاص ، كان يحكى مشية رسول الله صلى الله عليه وسلم فالتفت يوماً فرآه فدعا عليه ، فلم يزل مخرج المشية عقوبة من الله تعالى . والطرديد : إثنان ، الحكم ابن أبي العاص ومعاوية بن المغيرة بن أبي العاص . وهما جدا عبد الملك بن مروان من قبل أمه وأبيه . وكان النبي صلى الله عليه وسلم طرد معاوية بن المغيرة هذا من المدينة وأجله ثلاثاً فحيره الله ولم يزل يتردد في ضلاله حتى بعث في أثره علياً وعماراً فقتلاه . فأما القتل فكثير : نحو شيبة وعتبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة وحنظلة بن أبي سفيان وعقبة بن أبي مُعيط والعاص بن سعيد بن أمية ومعاوية المغيرة وغيرهم .

[ ٢ - كرم هاشم ]

قال أبو عثمان : وكان اسم هاشم عُثْرًا ، وهاشم لقب . وكان أيضاً يقال له القمر . وفي ذلك يقول مطرود الخزاعي :

إِلَى الْقَمَرِ السَّارِي الْمُنِيرِ دَعْوَتُهُ      وَمُطْعِمِهِمْ فِي الْأَزْلِ مِنْ قِمَعِ الْجَزْرِ

قال ذلك في شيء كان بينه وبين بعض قريش ، فدعا مطرود إلى المحاكمة إلى هاشم . وقال ابن الزبيري :

كَانَتْ قُرَيْشٌ رَيْضَةً فَتَلَفَّتْ      فَالْحُ خَالِصَةً لِعَبْدِ مَنْابِ

السَّرائِثُونَ وَلَيْسَ يَوجَدُ رَإِثُ  
وَأَلقائِلُونَ هَلُمُّ لِأَضيافِ  
عَمَرُوا العُلَّ هَشَمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ  
وَرَجَالَ مَكَّةَ مُسَيِّتُونَ عَجَافُ

فعم كما ترى أهل مكة بالأزل والمعجف وجعله السدي هشم لهم الخبز  
ثريداً ، فغلب هذا اللقب على اسمه حتى صار لا يعرف إلا به . وليس لعبد  
شمس لقب كريم ولا اشتق له من صالح أعماله اسم شريف ، ولم يكن لعبد  
شمس ابن يأخذ بضبعه ويرفع من قدره ويزيد في ذكره .

### [ ٣ - مزايا عبد المطلب ]

ولهاشم عبد المطلب سيد الوادي غير مدافع ، أجمل الناس جمالاً وأظهرهم  
جوداً وأكملهم كمالاً ، وهو صاحب الفيل والطير الأبايل صاحب زمزم وساقى  
الحجيج . وولد عبد شمس أمية بن عبد شمس ، وأميه في نفسه ليس هناك وإنما  
ذكر بأولاده ولا لقب له . ولعبد المطلب لقب شهير واسم شريف : شيبه  
الحمد . قال مطرود الخزاعي في مدحه :

يا شيبَةَ الحمدِ الَّذِي تَنَى لهُ  
أَيامُهُ مِن خَيْرِ دُخْرِ الذَّاجِرِ  
المَجْدُ ما حَجَّتْ قُرَيْشُ بَيْتَهُ  
وَدَعَا هَدِيلُ فَوْقَ عُصَمِ نَاجِرِ  
والله لا أَنسَأَكُمُ وِفَعالِكُمُ  
حتى أَغيبَ في سَفَاةِ القَبايرِ

وقال حذافة بن غانم الغدوي وهو يمدح أبا هب ويوصي ابنه خارجة بن  
حذافة بالانتباه إلى بني هاشم :

أَخسارِجُ إِمّا أَهليكَنْ فلا تَنزُلْ  
بني شيبَةَ الحمدِ الكَريمِ فِعالُهُ  
لِساقِي الحَجيِّجِ ثمَّ لِلشَّيخِ هاشِمِ  
أَبو عَتَبَةَ المُسَلِّمِ إِلى جِوازِهِ  
أَبوهم قَهِيٌّ كانَ يُدعى جَمعاً  
لهم شَاجِرًا حتى تُغَيَّبَ في القَبْرِ  
يُضيءُ ظلامَ اللَّيْلِ كَالقَمَرِ البَدْرِ  
وَعَبِدِ مَنافِ ذَليكَ السَيِّدِ القَيمِ  
أَعْرُ هِجَانُ اللُّونِ مِن نَفْرِ غُرِّ  
بِهِ جَمَعَ اللهُ القَبائِلَ مِن نَهْرِ

فأبو عتبة هو أبو لهب بن عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم وابناه عتبة  
وعتبة : وقال العبدى حين احتفل في الجاهلية فلم يترك :

لا تَرَى فِي النَّاسِ حَيًّا مِثْلَنَا مَآخِلا أَوْلَادِ عَبِيدِ الْمُطَلِّبِ

وإنما شرف عبد شمس بأبيه عبد مناف بن قصى ، وبني ابنه أمية بن عبد  
شمس . وهاشم شرف بنفسه وبأبيه عبد مناف وبابنه عبد المطلب . والأمر في  
هذا بينٌ وهو كما أوضحه الشاعر في قوله :

إِنَّمَا عَبِيدُ مَنْافٍ جَوْهَرٌ زَيْنَ الْجَوْهَرِ عَبِيدُ الْمُطَلِّبِ

قال أبو عثمان : ولسنا نقول إن عبد شمس لم يكن شريفاً في نفسه ،  
ولكن الشرف يتفاضل ، وقد أعطى الله عبد المطلب في زمانه وأجرى على يديه  
وأظهر من كرامته ما لا يعرف مثله إلا لنبي مرسل ، وإن في كلامه لأبرهة  
صاحب الفيل وتوعده إياه برب الكعبة وتحقق قوله من الله تعالى ونصرة وعيده  
بحبس الفيل وقتل أصحابه بالطير الأبايل وحجارة السجيل حتى تركوا كالعصف  
المأكول ، لأعجب البرهانات وأسمى الكرامات ، وإنما كان ذلك إرهافاً لنبوة  
النبي صلى الله عليه وسلم ، وتأسيساً لما يريد الله به من الكرامة ، وليجعل ذلك  
البهاء متقدماً له ومردوداً عليه ، وليكون أشهر في الأفق وأجل في صدور القارعة  
والجبابرة والأكاسرة ، وأجدر أن يقهر المعاند ويكشف غباوة الجاهل .

[ ٤ - نبوة محمد ]

وبعد ، فمن ينهاض أو يناضل رجالاً ولدوا محمداً صلى الله عليه وسلم ؟  
ولو عزلنا ما أكرمه الله به من النبوة حتى نقتصر على أخلاقه ومذاهبه وشيمه لما  
وفى به بشري ولا عدله شيء ؟ ولو شئنا أن نذكر ما أعطى الله عبد المطلب من  
نفجر العيون وينابيع الماء من تحت كل كل بعيره وأخفافه بالأرض القسي وبما  
أنتى يوم المساهمة وعند المقارعة من الأمور العجيبة والخصال البائنة لقلنا ولكننا

أحيينا أن لا نحتج عليكم إلا بالموجود في القرآن الحكيم والمشهور في الشعر القديم الظاهر على السنة الخاصة والعامة ورواة الأخبار وحال الآثار .

[ ٥ - إيلاف قريش ]

قال : وما هو مذكور في القرآن - عدا حديث الفيل - قوله تعالى : ﴿ لِيَيْلَافِ قُرَيْشٍ ﴾ ولقد أجمعت الرواة على أن أول من أخذ الإيلاف لقريش هاشم بن عبد مناف . فلما مات قام أخوه المطلب مقامه ، فلما مات قام عبد شمس مقامه ، فلما مات قام نوفل مقامه - وكان أصغرهم - والإيلاف هو أن هاشمياً كان رجلاً كثير السفر والتجارة فكان يسافر في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام ، وشرك في تجارته رؤساء القبائل من العرب ومن ملوك اليمن نحو العباهلة باليمن والبيكسوم من بلاد الحبشة ونحو ملوك الروم بالشام ، فجعل لهم معه ربحاً فيما يربح وساق لهم إبلاً مع إبله فكفاهم مؤنة الأسفار على أن يكفوه مؤنة الأعداء في طريقه ومنصرفه ، فكان في ذلك صلاح عام للفريقين ، وكان المقيم رابحاً والمسافر محفوظاً . فأخبرت قريش بذلك وحملت معه أموالها وأتاه الخير من البلاد الساقلة والعالية وحسنت حالها وطاب عيشها . قال : وقد ذكر حديث الإيلاف الحارث بن الحنشل السلمي وهو خال هاشم والمطلب وعبد شمس فقال :-

إِنْ أُخِي هَاشِمِيًّا لَيْسَ أَخًا وَاجِدٌ      الْأَجِدُ الْإِيْلَافُ وَالْقَائِمُ لِلْقَاعِدِ

قال أبو عثمان ) وقيل إن تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ هو خوف من كان هؤلاء الأخوة يبرون به من القبائل والأعداء وهم معتربون ومعهم الأموال وهذا هو ما فرنا به الإيلاف آنفاً ، وقد فسره قوم بغير ذلك قالوا : إن هاشمياً جعل على رؤساء القبائل ضرائب يؤدونها إليه ليحمي بها أهل مكة ، فان ذؤبان العرب وصعاليك الأحياء وأصحاب الغارات وطلاب الطوائف كانوا لا

يؤمنون على الحرم لا سيما وناس من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة ولا للشهر الحرام قدراً ، مثل طيء وخنعم وقضاعة وبعض بلخريث بن كعب ، وكيفما كان الايلاف فإن هاشماً كان القائم به دون غيره من إخوته .

### [ ٦ - حلف الفضول ]

قال أبو عثمان : ثم حلف الفضول وجلالته وعظمته ، وهو أشرف حلف كان في العرب كلها وأكرم عقد عقده قريش في قديمها وحديثها قبل الاسلام . لم يكن لبني عبد شمس فيه نصيب ، قال النبي صلى الله عليه وسلم وهو يذكر حلف الفضول : لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً لو دعيتُ إلى مثله في الاسلام لأجبت . ويكفي في جلالته وشرفه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم شهدته وهو غلام . وكان عتبة بن زبيعة يقول : لو أن رجلاً خرج مما عليه قومه لدخلت في حلف الفضول لما أرى من كماله وشرفه ولما أعلم من قدره وفضيلته . قال : ولفضل ذلك الحلف وفضيلة أهله سمي « حلف الفضول » وسميت تلك القبائل « الفضول » فكان هذا الحلف في بني هاشم وبني المطلب وبني أسد بن عبد العزى وبني زهرة وبني تيم بن مرة . تعاقدوا في دار ابن جدعان في شهر حرام قياماً يتماسحون بأكفهم سعداً ليكونن مع المظلوم حتى يؤدوا إليه حقه ما بل بحر صوفة ، وفي التآسي في المعاش والتساهم بالمال . وكانت الشبابة في هذا الحلف للزبير بن عبد المطلب ولعبد الله بن جدعان . أما ابن جدعان فلأن الحلف عقده في داره ، وأما الزبير فلأنه هو الذي نهض فيه ودعا إليه وحث عليه ، وهو الذي سماه « حلف الفضول » وذلك لأنه لما سمع الزبيدي المظلوم ثمن سلته قد أوفى على أبي قيس قبل طلوع الشمس رافعاً عقيرته ، وقريش في أنديةها ، قائلاً :

يَا لِلرَّجَالِ بِمَظْلُومِ بَضَاعَتِهِ      بِيْطْنِ مَكَّةَ نَائِي الْحَيِّ وَالنَّفْرِ  
إِنَّ الْحَرَامَ لَمَنْ تَمَّتْ حَسْرَامَتُهُ      وَلَا حَرَامَ لِشَوِيٍّ لَإِسِّ الْعَدْرِ

هي وحلف ليمقدن حلفاً بينه وبين بطون من قريش يمنعون القوى من ظلم الضعيف ، والقاطن من عنف الغريب . ثم قال :

حَلَفْتُ لِنَعْمِدَنَّ حِلْفًا عَلَيْهِمْ      وَإِنْ كُنَّا جَمِيعًا أَهْلَ دَارِ  
نُسَمِّيهِ الْفُضُولَ إِذَا عَقَدْنَا      يَعْزُبُهُ الْغَرِيبُ لِسَدَى الْجَوَارِ  
وَيَعْلَمُ مَنْ يَطُوفُ الْبَيْتَ أَنَا      أَبَاةَ الضَّمِيمِ نَجْرُ كُلِّ عَارِ

فينو هاشم هم الذين سموا ذلك الحلف « حلف الفضول » وهم كانوا سببه والقائمين به دون جميع القبائل العاقدة له والشاهدة لأمره ، فما ظنك بمن شهده ولم يقم بأمره ؟

قال أبو عثمان : وكان الزبير بن عبد المطلب شجاعاً أهباً وجميلاً بهياً ، وكان خطيباً شاعراً وسيداً جواداً ، وهو الذي يقول :

وَلَوْلَا الْحَمْسُ لَمْ يَلْبَسْ رِجَالُ      ثِيَابَ أَعِزَّةٍ حَتَّى يَمُوتُوا  
ثِيَابُهُمْ شِمَالٌ أَوْ عِبَاءُ      بِنَا دَنْسٌ كَمَا دَنْسَ الْحَمِيئَةُ  
وَلَكِنَّا خَلِقْنَا إِذْ خُلِقْنَا      لَنَا الْخَبْرَاتُ وَالْمِسْكُ الْقَيْتُ  
وَكَأْسٌ لَوْ تُبِينُ لَمْ كَلَامَا      لَقَالَتْ إِنَّمَا لَمْ سُبِينُ  
تُسِينُ لَنَا الْقَلْبَى إِنْ كَانَ فِيهَا      رَحِيمٌ الْحِلْمُ يَشْرِيهَا هَبِينُ  
وَيَقْطَعُ نَخْوَةَ الْمُخْتَالِ عَنَا      رِفْلِقُ الْحَدِّ ضَرْبُهُ صَمُوتُ  
يَكْفُ مَجْرِبٌ لَا عَيْبَ فِيهِ      إِذَا لَقِيَ الْكَرِيمَةَ يَسْتَمِينُ

قال : والزبير هو الذي يقول :

وَأَسْحَمُ مِنْ رَاحِ الْمِرَاقِ ثَمَلَا      مِحِطٌ عَلَيْهِ الْخَيْشُ جَلْدٌ مَرَائِرَةٌ  
صَبَحْتُ بِهِ طَلْقًا يُرَاحُ إِلَى النَّدى      إِذَا مَا انْتَهَى لَمْ يَخْتَصِرَةٌ مُعَاقِرَةٌ  
ضَمِيفٌ بِجَنْبِ الْكَاسِ قَبْضُ بِنَانِهِ      كَلِيلٌ عَلَى جَلْدِ النَّدِيمِ أَظَافِرَةٌ

قال : ويتو هاشم هم الذين ردوا على الزبيدي ثمن بضاعته ، وكانت عند

العاصم بن وائل ، وأخذوا للبارقي ثمن سلعته من أبي بن خلف الخثعمي ، وفي ذلك يقول البارقي :

وَيَأَيُّ لَكُمْ جِلْفُ الْفُضُولِ ظِلَامِي      بَنِي جَمَحٍ وَالْحَقُّ يُؤْخَذُ بِالغَضَبِ

وهم الذين انتزعوا من نبيه بن الحجاج فتول الحسناء بنت التاجر الخثعمي ، وكان كابره عليها حين رأى جاهها . وفي ذلك يقول نبيه بن الحجاج :

وَغَشِيَتْ الْفُضُولَ حِينَ اتَّوْنِي      قَدْ أَرَأَيْتَ وَلَا أَخَافُ الْفُضُولَا  
إِنِّي وَاللَّيْلِ بِجَمَحٍ لَهُ      شُمُطٌ يُبَادِ وَيَهْلِكُوا تَهْلِيلَا  
لِبَرَاءِ مِنِّي قَتِيلَةٌ يَا لِلنَّاسِ      هَلْ يَبْتَغُونَ إِلَّا الْقَتُولَا

وفيها أيضاً يقول :

لَوْلَا الْفُضُولُ وَأَنَّهُ لَا أَمْنٌ مِنْ عَدُوَائِهَا  
لَدَنَوْتُ مِنْ أَبْيَائِهَا      وَلَطَفْتُ حَوْلَ نَجَائِهَا

في كلمته التي يقول فيها *بئس كميون عود رسي*

حَسْبُ الْبَيْخِيلَةِ إِذْ نَأَتْ      مِنَّا عَلَى عَدُوَائِهَا  
لَا بِالْفِرَاقِ تُنْبِلُنَا      شَيْئاً وَلَا يُلْقَائِهَا  
حَلَّتْ بِمَكَّةَ حَلَّةً      فِي مَشْيِهَا وَوِطَائِهَا

في رجال كثير انتزعوا منهم الظلمات . ولم يكن يظلم بمكة إلا رجال أقرباء وهم العمد والعارضة ، منهم من ذكرنا قصته .

#### [ ٧ - حرب الفجار ]

قال أبو عثمان : ولهاشم أخرى لا يعد أحد مثلها ولا يأتي بما يتعلق بها . وذلك أن رؤساء قبائل قريش خرجوا إلى حرب بني عامر منسائدين ، فكان حرب ابن أمية على بني عبد شمس ، وكان الزبير بن عبد المطلب على بني هاشم ،

وكان عبد الله بن جدعان على بني تيم ، وكان هشام بن المغيرة على بني مخزوم . وكان على كل قبيلة رئيس منها ، فهم متكافئون في التساند ولم يحقق واحد منهم الرأسة على الجميع . ثم أب هاشم بما لا تبلغه يد متناول ولا يطمع فيه طامع ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : شهدت الفجار وأنا غلام فكنت أنبل فيه على عمومتي . فنفى مقامه عليه الصلاة والسلام أن تكون قریش هي التي فجرت ، فسميت تلك الحرب « حرب الفجار » وثبت أن الفجور إنما كان ممن حاربهم . وصاروا يمينه وبركته ولما يريد الله من إعزاز أمره وإعظام الغالبين العالين . ولم يكن الله ليشهده فجراً ولا غدرة ؟ فصار مشهده نصراً وموضعه فيهم حجة ودليلاً .

#### [ ٨ - مخازي أمية مقابل فضائل هاشم ]

قال أبو عثمان : وشرف هاشم متصل ، من حيث عددت كان الشرف معه كائناً عن كابر ، وليس بنو عبد شمس كذلك ، فإن الحَكَم بن أبي العاص كان عارياً في الاسلام ولم يكن له تناء في الجاهلية . وأما أمية فلم يكن في نفسه هناك ، وإنما رفعه أبوه ، وكان مضموفاً وكان صاحب عهار ، يدل على ذلك قول نفي بن عدي جد عمر بن الخطاب حين تنافر إليه حرب بن أمية وعبدالمطلب ابن هاشم ، فنفر عبد المطلب وتعجب من إقدام حرب عليه وقال له :

أَبُوكَ مُصَاهِرٌ وَأَبُوهُ عَفٌّ وَذَاذَ الْفَيْسَلِ عَنْ بَلَدِ حَرَامِ

وذلك أن أمية كان تعرض لامرأة من بني زهرة فضربه رجل منهم بالسيف ، فاراد بنو أمية ومن تبعهم إخراج بني زهرة من مكة فقام دونهم قيس ابن عدي السهمي ، وكانوا أخواله وكان منيع الجانب شديد العارضة حبي الأنف أبي النفس فقام دونهم وصاح : أصبح ليل . فذهبت مثلاً . ونادى : الآن الطاعن مقيم . وفي هذه القصة يقول وهب بن عبد مناف بن زهرة :

مَهْلًا أُمِّي فَإِنَّ الْبَنِي مَهْلَكَةٌ لَا يُكْسِبُنْكَ يَوْمَ شَرِّهِ ذَكَرُ

تَبْدُو كَوَاكِبَهُ وَالشَّمْسُ طَالِعَةٌ يُضْبُ فِي الْكَاسِ مِنْهُ الصَّبَابُ وَالْمَقْرُ

قال أبو عثمان : وصنع أمية في الجاهلية شيئاً لم يصنعه أحد من العرب ، زوج أبا عمرو امرأته في حياته منه ، فأولدها أبا مُعَيْط بن أبي عمرو بن أمية . والمقيتون في الاسلام هم الذين نكحوا نساء آبائهم بعد موتهم . فأما أن يتزوجها في حياة الأب ويبني عليها وهو يراه فإنه شيء لم يكن قط .

قال أبو عثمان : وقد أقر معاوية على نفسه ورهطه لبني هاشم حين قيل له : أيها كان أسود في الجاهلية ، أنتم أم بنو هاشم ؟ فقال : كانوا أسود منا واحداً ، وكنا أكثر منهم سيذا . فأقر وأدعى ، فهو في إقراره بالتقصير مخصوم ، وفي ادعائه الفضل خصيم وقال جحش بن رئاب الأسدي حين نزل مكة بعد موت عبد المطلب : والله لأتزوجن ابنة أكرم أهل هذا الوادي ولأحالفن أعزهم . فتزوج أميمة بنت عبد المطلب وحالف أبا سفيان بن حرب . وقد يمكن أن يكون أعزهم ليس بأكرمهم ، ولا يمكن أن يكون أكرمهم ليس بأعزهم . وقد أقر أبو جهل على نفسه ورهطه من بني مخزوم حين قال : تحاربنا نحن وهم حتى إذا صرنا كهاتين جاءنا نبي . فأقر بالتقصير ثم ادعى المساواة ، ألا تراه كيف أقر أنه لم يزل يطلب شأوهم ثم ادعى أنه لحقهم ؟ فهو مخصوم في إقراره ، خصيم في دعواه . وقد حكم هاشم دَغْفَلَ بْنَ حَنْظَلَةَ النسابة حين سأله معاوية عن بني هاشم فقال : هم أطعم للطعام وأضرب للهام . وهاتان خصمتان يجمعان أكثر الشرف .

قال أبو عثمان : والعجب من منافرة حرب بن أمية عبد المطلب بن هاشم وقد لطم حرب جارا لخلف بن أسعد جد طلحة الطلحات فجاء جاره فشكا ذلك إليه ، فمشى خلف إلى حرف وهو جالس عند الحجر فلطم وجهه عنوة من غير تحاكم ولا تراض ، فما انتطح فيه عنزان . ثم قام أبو سفيان بن حرب مقام أبيه بعد موته فحالفه أبو الأزير الدوسي ، وكان عظيم الشأن في الأزدي ، وكانت بينه وبين بني الوليد بن المغيرة محاكمة في مصاهرة كانت بين الوليد وبينه ، فجاءه

هشام بن الوليد وأبو الأزهر قاعد في مقعد أبي سفيان بلدي المجاز فضرب عنقه ، فلم يدرك به أبو سفيان عقلاً ولا قوداً في بني المغيرة . وقال حسان بن ثابت يذكر ذلك :

غذا أهل حصني ذي المجاز بسُحرَة      وجارُ ابنِ حربٍ لا يروحُ ولا يغدو  
كسآك هشامُ بنُ الوليدِ يُبابه      فأبلى وأخلقٍ مثلها جُدداً بعدُ

### [ ٩ - ملوك هاشم اعظم من ملوك أمية ]

قال أبو عثمان : فإن قالت أمية : لنا الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي . أربعة خلفاء في نسق . قلنا لهم : ولبنی هاشم : هرون الوائق بن محمد المعتصم بن هرون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد الكامل بن علي السجاد - كان يصلي كل يوم وليلة ألف ركعة ، فكان يقال له السجاد لعبادته وفضله ، وكان أجمل قرشي على وجه الأرض وأوسمه ، ولد ليلة قتل علي بن أبي طالب فسمي باسمه كُنِيَ بِكُنْيَتِهِ فقال عبد الملك : لا والله لا أحتمل لك الاسم والكنية فغير أحدهما ؟ فغير الكنية فصيرها أبا محمد - ابن عبد الله وهو البحر وهو حبر قريش وهو الملقب في الدين المعلم التأويل ، ابن العباس ذي الرأي وحليم قريش ، ابن شيبة الحمد وهو عبد المطلب سيد الوادي ، ابن عمرو وهو هاشم هشم الثريد وهو القمر سمي بذلك لجماله ولأنهم كانوا يقتنون به ويبتدون برأيه ، ابن المغيرة وهو عبد مناف بن زيد وهو قصي وهو مجمع . فهؤلاء ثلاثة عشر سيداً لم يحرم منهم واحد ولا قصر عن الغاية . وليس منهم واحد إلا وهو ملقب بلقب اشتق له من فعله الكريم ، ومن خلقه الجميل ، وليس منهم إلا خليفة أو موضع للخلافة أو سيد في قديم الدهر متبع أو ناسك مقدم أو فقيه بارع أو حلیم ظاهر الزكاة . وليس هذا لأحد سواهم . ومنهم خمسة خلفاء في نسق ، وهم أكثر مما عدته الأموية . ولم يكن مروان كالمصور ،

لأن المنصور ملك البلاد ودوخ الأقطار وضبط الأطراف اثنتين وعشرين سنة ، وكانت خلافة مروان على خلاف ذلك كله ، وإنما بقي في الخلافة تسعة أشهر حتى قتلته امرأته عاتكة بنت يزيد بن معاوية حين قال لابنها خالد من بعلمها الأول : يا ابن الرطبة . ولئن كان مروان مستوجباً لاسم الخلافة مع قلة الأيام وكثرة الاختلاف واضطراب البلدان فضلاً عن الأطراف ، فابن الزبير أولى بذلك منه ، فقد كان ملك الأرض إلا بعض الأردن . ولكن سلطان عبد الملك وأولاده لما اتصل بسultan مروان ، اتصل عند القوم ما انقطع منه وأخفى موضع الوهن عند من لا علم له . وسنو المهدي كانت سني سلامة ، وما زال ملك عبد الملك في انتفاض وانتكاس ، ولم يكن ملك يزيد كملك هرون ، ولا ملك الوليد كملك المعتصم .

#### [ ١٠ - هاشم احق بالخلافة ]

قال أبو عثمان : وتفخر عليهم بنو هاشم بأن سني ملكهم أكثر ومدته أطول ، فإنه قد بلغت مدة ملكهم إلى اليوم أربعاً وتسعين سنة . ويفخرون أيضاً عليهم بأنهم ملكوا بالميراث وبحق العصبة والعمومة ، وأن ملكهم في مغرس نبوة ، وأن أسبابهم غير أسباب بني مروان ، بل ليس لبني مروان فيها سبب ولا بينهم وبينها نسب ، إلا أن يقولوا إنا من قريش . فساووا في هذا الاسم قريش الظواهر . لأن رواية الراوي : الأئمة من قريش . واقعة على كل قريش . وأسباب الخلافة معروفة وما يدعيه كل جيل معلوم ، وإلى كبل ذلك قد ذهب الناس فمنهم من ادعاه لعل لاجتماع القرابة والسابقة والوصية . فإن كان الأمر كذلك فليس لآل أبي سفيان ولا لآل مروان فيها دعوى ، وإن كانت إنما تنال بالوراثة وتستحق بالعمومة وتستوجب بحق العصبة ، فليس لهم أيضاً فيها دعوى ، وإن كانت لا تنال إلا بالسوابق والأعمال والجهاد ، فليس لهم في ذلك قدم مذكور ولا يوم مشهور ، بل كانوا إذ لم يكن لهم سابقة ولم يكن فيهم ما يستحقون به الخلافة ولم يكن فيهم ما يمنعهم منها أشد المنع لكان أهون ولكن

الأمر عليهم أيسر . قد عرفنا كيف كان أبو سفيان في عداوة النبي صلى الله عليه وسلم وفي محاربه له وإجلابه عليه وفضوزه إياه ، وعرفنا إسلامه كيف أسلم وإخلاصه كيف أنخلص ومعنى كلمته يوم الفتح حين رأى الجنود وكلامه يوم حنين وقوله يوم صعد بلال على الكعبة فأذن ، على أنه إنما أسلم على يد العباس ، والعباس هو الذي منع الناس من قتله وجاء به رديفاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله فيه أن يشرفه وأن يكرمه وينوه به . وتلك يد بيضاء ونعمة غراء ومقام مشهود ، ويوم حنين غير مجحود .

### [ ١١ - جور أمية ]

فكان جزاء بني هاشم من بنيه أن حاربوا علياً ، وسموا الحسن وقتلوا الحسين وحملوا النساء على الأقتاب حواسر وكشفوا عن عورة علي بن الحسين حين أشكل عليهم بلوغه كما يصنع بنراري المشركين إذا دخلت دورهم عنوة . وبعت معاوية بُسرَ بن أرطاة إلى اليمن فقتل ابني عبيد الله بن العباس ، وهما غلامان لم يبلغا الحلم . وقتل عبيد الله بن زياد يوم الطف تسعة من صلب علي وسبعة من صلب عقيل ، ولذلك قال ناعيمهم :

عَيْنُ جُودِي بَعْبَرَةٍ وَعَوِيلِ وَأَسْذِي إِنْ نَدَبْتَ آلَ الرَّسُولِ  
تَسْفَةٌ كُلُّهُمْ لِصُلْبِ عَلِيٍّ قَدْ أَصَيْسُوا وَسَبَعَةٌ لِعَقِيلِ

ثم إن بني أمية تزعم أن عقيلاً أعان معاوية على علي ، فإن كانوا كاذبين فما أولاهم بالكذب ، وإن كانوا صادقين فما جازوا عقيلاً بما صنع . وضرب عنق مسلم ابن عقيل صبراً وغدراً بعد الأمان ، وقتلوا معه هاني بن عروة لأنه آواه ونصره ، ولذلك قال الشاعر :

فَإِنْ كُنْتُ لَا تَدْرِيْنَ مَا الْمَوْتُ فَانظُرِي إِلَى هَانِيٍّ فِي السُّوقِ وَأَبْنِ عَقِيلِ  
تَرِي بَطْلًا قَدْ هَشَمَ السَّيْفُ وَجْهَهُ وَأَخْرَجَ تَهْوِي مِنْ طَمَارِ قَتِيلِ

وأكلت هندُ كبد حمزة ، فمنهم آكلة الأكباد ، ومنهم كهف النفاق ، ومنهم من نقر بين ثنيتي الحسين بالفضيب ، ومنهم القاتل يوم الحرة عون بن عبد الله ابن جعفر ، ويوم الطفُّ أبا بكر بن عبد الله بن جعفر ، وقتل يوم الحرة أيضاً من بني هاشم : الفضل بن عباد بن ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب ، والعباس بن عتبة بن أبي لهب بن عبد المطلب ، وعبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب .

قال أبو عثمان : وقالت هاشم لأمية : قد علم الناس ما صنعتم بنا من القتل والتشريد لا لذنب أتيناه إليكم ، ضربتم علي بن عبد الله بن عباس بالسياط مرتين على أن تزوج بنت عمه الجعفرية التي كانت عند عبد الملك وعلى أن نحلتموه قتل سايط ، وسمتم أبا هاشم عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب ، ونبشتم زيدا وصلبتموه وأقيمت رأسه في عرصة الدار توطأ بالأقدام ، وينقر دماغه الدجاج حتى قال القائل :

إطردوا الذئب عن فؤاية زيد طالما كان لا تطأه الدجاج

وقال شاعركم أيضاً :

صَلَبْنَا لَكُمْ زَيْدًا عَلَى جَذَعِ نَخْلَةٍ      وَلَمْ نَرَمْهُدِيًّا عَلَى الْجَذَعِ يُضَلَّبُ  
وَقَسْتُمْ بَعْثَمَانَ عَلِيًّا سَفَاهَةً      وَعُثْمَانَ خَيْرًا مِنْ عَلِيٍّ وَأَطْمَبُ

فروى أن بعض الصالحين من أهل البيت قال : اللهم إن كان كاذباً فسلط عليه كلباً من كلابك . فخرج يوماً بسفر له فعرض له الأسد فافترسه . وقتلتم الإمام جعفر الصادق ، وقتلتم يحيى بن زيد وسميت قتاله ثائر مروان وناصر الدين . هذا الى ما صنع سليمان بن حبيب بن المهلب عن أمركم وقولكم بعبد الله أبي جعفر المنصور قبل الخلافة ، وما صنع مروان بإبراهيم الإمام أدخل رأسه في جراب نورة حتى مات . فإن أنشدتم :

أَفَاضَ الْمَدَامِعَ قَتَلَ كُدَى      وَقَتَلَ بِكُثُورَةٍ لَمْ تُرْمَسْ

وَبِالزَّابِيَيْنِ نَفُوسٌ ثَوَّتْ وَأَعْمَرَى بِنَهْرٍ أَيْ فُطْرُسٍ

أَشَدْنَا نَحْنُ :

وَأَذْكُرُوا مَضْرَعَ الْحُسَيْنِ وَزَيْدًا وَقَتِيلًا بِجَانِبِ الْمَهْرَاسِ  
وَالْقَتِيلَ الَّذِي بِنَجْرَانَ أُمِّي ثَاوِيًا بَيْنَ عُرْبِيَّةٍ وَتَنَاسِ

وقد علمتم حال مروان أبيكم وضعفه وأنه كان رجلاً لا فقه له ولم يعرف بالزهد ولا بالصلاح ولا برواية الآثار ولا بصحبة ولا ببعدهمة ، وإنما ولي رستاقا من رستاق دار أبحرد لابن عامر ثم ولي البحرين لمعاوية . وقد كان جميع أصحابه ومن تابعه يبائع لعبد الله بن الزبير حتى رده عبيد الله بن زياد . وقال يوم مرج راهط والرؤوس تندر عن كواهلها في طاعته :

وَمَا ضُرُّهُمْ عِنْدَ حَيْثُ النَّفُوسِ أَي غَلَامِي قَرَيْشٍ غَلَبَ

وهذا قول من لا يستحق أن يبلي زبعا من الأرباع ولا خمسا من الأخماس ، وهو أحد من قتله النساء لكلمة كان حنفته فيها . وأما أبوه الحكيم بن أبي العاص فهو طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولعينه والمتخلى في مشيته الحامي لرسول الله والمتسمع عليه ساعة خلوته ، ثم صار طريداً لأبي بكر وعمر ، امتنعا عن إعادته إلى المدينة ولم يقبلا فيه شفاعاة عثمان ، فلما ولي أدخله فكان أعظم الناس شؤماً عليه ومن أكبر الحجج في قتله وخلعه من الخلافة .

فعبد الملك أبو هؤلاء الملوك الذين تفتخر الأموية بهم أعرق الناس في الكفر ، لأن أحد أبويه هذا والآخر من قبل أمه معاوية بن المغيرة بن أبي العاص كان النبي صلى الله عليه وسلم طرده من المدينة وأجله ثلاثاً فحيره الله حين خرج وبقي متردداً متلداً حوها لا يبتدي لسبيله حتى أرسل في أثره علياً وعماراً فقتلاه ، فأنتم أعرق الناس في الكفر ، ونحن أعرق الناس في الإيمان ، ولا يكون أمير المؤمنين إلا أولاهم بالإيمان وأقدمهم فيه .

قال أبو عثمان : وتفتخر هاشم بأن أحداً لم يجد تسعين عاماً لا طواعين

فيها إلا منذ ملكوا . قالوا : لو لم يكن من بركة دعوتنا إلا أن تعذيب الأمراء لعمال الخراج بالتعليق والرهق والتجريد والتسهير والمسال والنورة والجورتين والعذراء والجماعة والتشطيب قد ارتفع لكان ذلك خيراً كثيراً . وفي الطاعون يقول العماني الراجز يذكر دولتنا :

قَدْ رَفَعَ اللهُ رِمَاحَ الْجِنِّ وَأَذْهَبَ التَّمْذِيبَ وَالتَّجَنِّيَّ

والعرب تسمي الطواعين رماح الجن . وفي ذلك يقول الشاعر :

لَعْمُرِكَ مَا خَشِيتُ عَسَلِيَّ أَهِيَّ رِمَاحَ بَنِي مُقَيْدَةَ الْحِمَارِ  
وَلِكِنِّي خَشِيتُ عَسَلِيَّ أَهِيَّ رِمَاحَ الْجِنِّ أَوْ إِيَّاكَ حَارِ

يقوله بعض بني أسد للحرث الغساني الملك .

قال أبو عثمان : وتفخر هاشم عليهم بأنهم لم يهدموا الكعبة ، ولم يحولوا القبلة ، ولم يجعلوا الرسول دون الخليفة ، ولم يختموا في أعناق الصحابة ، ولم يغيروا أوقات الصلاة ، ولم ينقشوا أكف المسلمين ، ولم يأكلوا الطعام ويشربوا على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يذهبوا الحرم ولم يطؤوا المسلمات في دار الإسلام بالسباء .

[ ١٢ - هاشم تنتزع الملك من أمة ]

قال أبو عثمان : ويفخر بنو العباس على بني مروان ، وهاشم على عبد شمس بأن الملك كان في أيديهم فانتزعوه منهم وغلبوهم عليه بالبطش الشديد وبالخيلة اللطيفة ثم لم ينزعوه إلا من يد أشجعهم شجاعة وأشدهم تسديراً وأبعدهم غوراً ومن نشأ في الحروب وربي في الثغور ومن لا يعرف إلا الفتوح وسياسة الجنود ، ثم أعطى الوفاء من أصحابه والصبر من قواده فلم يخسر منهم غادر ولا قصر منهم مقصر ، كما قد بلغك عن حنظلة بن نباتة وعامر بن ضبارة ويزيد بن عمرو بن هبيرة ولا من سائر قواده حتى أحببه وكتابه ، كعبد الحميد

الكاتب ، ثم لم يلقه ولا لقي تلك الحروب في هامة تلك الأيام إلا رجال ولد  
العباس بأنفسهم ، ولا قام بأثر الدولة إلا مشايخهم كعبد الله بن علي ، وصالح  
ابن علي ، وداود بن علي ، وعبد الصمد بن علي ، وقد لقبهم المنصور نفسه .

قال : وتفخر هاشم أيضاً عليهم بقول النبي صلى الله عليه وسلم وهو  
الصديق المصدق : « نقلت من الأصلاب الزاكية الى الأرحام الطاهرة وما افترت  
فرقتان إلا كنت في خيرهما » . وقوله : « بعثت من خيرة قريش » . ومعلوم أن  
بني عبد مناف افترقوا فكانت هاشم والمطلب يدا ، وعبد شمس ونوفل يداً .

### [ ١٣ - مفاخر هاشم بعد الاسلام : الفخر بكثرة الولد ]

قال : وإن كان الفخر بكثرة العدد ، فإنه من أعظم مفاخر العرب ، فولد  
علي بن عبد الله بن العباس اليوم مثل جميع بني عبد شمس . وكذلك ولد  
الحسين بن علي بن أبي طالب . هذا مع قرب ميلادهما . وقد قال النبي صلى  
الله عليه وسلم : « شوهاء ولود خير من حسناء عقيم » . وقال : « أنا مكاتر بكم  
الأمم » . وقد روى الشعبي عن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم  
قدم من سفر فأراد الرجال أن يطرقوا النساء ليلاً فقال : « أمهلوا حتى تمتشط  
الشعثة وتستحد المغيبة ، فإذا قدمتم فالكيس الكيس » . قالوا : ذهب إلى طلب  
الولد . وكانت العرب تفخر بكثرة الولد وتمدح الفحل القبيس وتذم العاقر  
والعقيم . قال عامر بن الطفيل يعني نفسه :

لَيْسَ الْفَقَى إِنْ كُنْتَ أَعْوَزَ عَاقِرًا      جَبَانًا فَمَا عُدْبِرِي لَسَدَى كُلِّ مَحْضِرٍ

وقال علقمة بن علاثة يفخر على عامر : آمنت وكفر ، ووفيت وغدر ،  
وولدت وعقر وقال الزبيرقان :

فَأَسْأَلُ بَنِي سَعْدِ وَعَظِيمَهُمُ      يَوْمَ الْفَخَارِ فَعِنْدَهُمْ خُبْرِي  
أَيُّ امْرَأَةٍ أَنَا حِينَ يَحْضُرُنِي      رَفْدُ الْعَسْطَاءِ وَطَالِبُ النَّصْرِ

وَإِذَا هَلَكْتُ تَرَكْتُ وَسْطَهُمْ      وَوَلَدِي الْكِرَامَ وَنَابَةَ الذُّكْرِ

وقال طرفة بن العبد :

فَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ قَيْسَ بْنَ خَالِدٍ      وَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ عَمْرَو بْنَ مَرْثِدٍ  
فَأَصْبَحْتُ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ وَعَادِنِي      بَنُونَ كِرَامٍ سَادَةٌ لِمَسُودٍ

ومدح النابغة الذبياني ناساً فقال :

لَمْ يُحْرَمُوا طَيْبَ النِّسَاءِ وَأُمَّهُمْ      طَفَحَتْ عَلَيْكَ بِسَاطِقِ مِذْكَارِ

وقال نهشل بن حري :

عَلَّ بَنِي يَشْدُ اللَّهُ عَظْمَهُمْ      وَالنَّبْعُ يَنْبِتُ قُضْبَانًا فَيَكْتَهِلُ

ومكث الفرزدق زماناً لا يولد له فغيرته امرأته فقال :

قَالَتْ أَرَاهُ وَاجِدًا لَا أَخَالَكَ      يَوْمَ لَمَّا فِي الْوَارِثِينَ الْأَبَاعِدُ  
لَعَلَّكَ يَوْمًا أَنْ تَرَبِّبِي كَأَنَّمَا      بَنِي حَوَالِي اللَّيْثِ الْحَوَارِدُ  
فَإِنْ تَمِيمًا قَبْلَ أَنْ يَلِدَ الْحَضَا      أَقَامَ زَمَانًا وَهُوَ فِي النَّاسِ وَاجِدُ

وقال آخر - وقد مات اخوته وملا حوضه ليستقي فجاء رجل صاحب

عشيرة وعتره فأخذ بضبعه فتحاه ثم قال لراعيه : إسق إيلك - :

لَوْ كَانَ حَوْضُ جِمَارٍ مَا شَرِبْتُ بِهِ      إِلَّا بِإِذْنِ جِمَارٍ آخِرِ الْأَبْدِ  
لَكِنَّهُ حَوْضٌ مِنْ أَوْدَى بِإِخْوَتِهِ      رَبُّ الْمُنْسُونِ فَأَمْسَى بِيضَةَ الْبَلْدِ  
لَوْ كَانَ يُشْكِي إِلَى الْأَمْرَاتِ مَا لَقِيَ الْآ      حَيَاءُ بَعْدَهُمْ مِنْ قِلَّةِ الْعَدْدِ  
ثُمَّ اشْتَكَيْتُ لِأَشْكَائِي وَأَنْجَدَنِي      قَبْرُ بَسَنْجَارٍ أَوْ قَبْرُ عَلِيٍّ فَحَسِدِ

وقال الاعشى وهو يذكر الكثرة :

وَلَسْتَ بِأَلَاكْثَرِ مِنْهُمْ حَصَا وَإِنَّمَا الْعِزَّةُ لِسُلْكَائِرِ

قال : وقد ولد رجال من العرب كل منهم ولد لصلبه أكثر من مائة ، فصاروا بذلك مفخراً ، منهم : عبد الله بن عمير الليثي ، وأنس بن مالك الأنصاري وخليفة بن بر السعدي . أتى على عامتهم الموت الجارف . ومات جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس عن ثلاثة وأربعين ذكراً وخمس وثلاثين امرأة كلهم لصلبه ، فما ظنك بمن مات من ولده في حياته ؟ وليس طبقة من طبقات الأسنان الموت إليها أسرع وفيها أعم وأفسى من سن الطفولية . وأمر جعفر بن سليمان قد عينه عالم من الناس وعامتهم أحياء . وليس خبر جعفر كخبر غيره من الناس . قال الهيثم بن عدي : أفضى الملك إلى ولد العباس وجميع ولد العباس يومئذ من الذكور ثلاثة وأربعون رجلاً ، ومات جعفر بن سليمان وحده عن مثل هذا العدد من الرجال . وممن قرب ميلاده وكثر نسله حتى صار ك بعض القبائل والعمائر : أبو بكر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمهلب بن أبي صفرة ، ومسلم بن عمرو الباهلي ، وزباد بن عبيد أمير العراق ، ومالك بن مسمع . وولد جعفر بن سليمان السوم أكثر عدداً من أهل هذه القبائل . وأربعة من قريش ترك كل واحد منهم عشرة بنين معروفين ، وهم : عبد المطلب بن هاشم ، والمطلب بن عبد مناف ، وأمية بن عبد شمس ، والمغيرة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم . وليس على ظهر الأرض هاشمي إلا من ولد عبد المطلب . ولا يشك أحد أن عدد الهاشميين شبيه بعدد الجميع . فهذا ما في الكثرة والقلّة .

[ ١٤ - الفخر بالحكمة ]

قال : وإن كان الفخر بنبل الرأي وصواب القول ، فمن مثل عباس بن عبد المطلب وعبد الله بن العباس ؟ وإن كان في الحكم والسؤدد وأصالة الرأي والغناء العظيم ، فمن مثل عبد المطلب ؟ وإن كان إلى الفقه والعلم بالتأويل

ومعرفة التزليل ، وإلى القياس السديد وإلى الألسنة الحداد والخطب الطوال ،  
 فمن مثل علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس ؟ قالوا : خطبنا عبد الله بن  
 عباس خطبة بحمكة أيام حصار عثمان لو شهدها الترك والديلم لأسلموا . وفي  
 عبد الله بن العباس يقول حسان بن ثابت :

إِذَا قَالَ لَمْ يَتْرُكْ مَقَالًا لِقَائِلٍ      بِمُلْتَقَطَاتٍ لَا تَسْرَى بَيْنَهَا فَصَلَا  
 شَفَى وَكَفَى مَا فِي النُّفُوسِ فَلَمْ يَدْعُ      لِيَلِي إِزْبَةَ فِي الْقَوْلِ جِدًّا وَلَا هَزْلًا

وهو البحر ، وهو الحبر ، وكان عمر يقول له في حديثه عند إجابة الرأي :  
 غص غواص . وكان يقدمه على جلة السلف .



[ ١٥ - فخر هاشم بالبسالة ]

قال : وإن كان الفخر في البسالة والنجدة وقتل الأقران وجزر الفرسان ،  
 فمن كحمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب ؟ وكان الأحنف إذا ذكر حمزة  
 قال : أليس . وكان لا يرضى أن يقول شجاع ، لأن العرب كانت تجعل ذلك أربع  
 طبقات فتقول : شجاع . فإذا كان فوق ذلك قالت : بطل . فإذا كان فوق ذلك  
 قال : هُجْم . فإذا كان فوق ذلك قالت : أليس . وقال العجاج : « أليس عن  
 حوياته سخى ، . وهل أكثر ما يعد الناس من جرحاهما وصرعاهما إلا ساداتكم  
 وأعلامكم ؟ قتل حمزة وعلي عتبة والوليد ، وقتل شيبة أيضاً شركا عبيدة بن  
 الحارث فيه ، وقتل علي حنظلة بن أبي سفيان . فأما آباء ملوككم من بني مروان  
 فانهم كما قال عبد الله بن الزبير لما أتاه خبير المصعب : إنا والله ما نموت إلا  
 قتلاً ، قعصاً بالرماح وموتاً تحت ظلال السيوف . قال أبو عثمان : كأنه لم يعد  
 قتل معاوية بن المغيرة بن أبي العاص قتلاً ، إذ كان إنما قتل في غير معركة ،  
 وكذلك قتل عثمان بن عفان إذا كان إنما قتل محاصراً ، ولا قتل مروان بن الحكم  
 لأنه قتل خنقاً ، خنقته النساء ؟ قال : وإنما فخر عبد الله بن الزبير بما في بني

أسد بن عبد العزى من القتل ، لأن من شأن العرب أن تفخر بذلك كيف كانوا قاتلين أو مقتولين . ألا ترى أنك لا تصيب كثرة القتل إلا في القوم المعروفين باليأس والنجدة وبكثرة اللقاء والمعاربة ؟ كآل أبي طالب ، وآل الزبير ، وآل المهلب ؟ قال : وفي آل الزبير خاصة سبعة مقتولون في نسق ، ولم يوجد ذلك في غيرهم : قتل عمارة وحمة ابنا عبد الله بن الزبير يوم قُتَيْدٍ في المعركة ، قتلها الأباضية ، وقتل عبد الله بن الزبير في محاربة الحجاج ، وقتل مصعب بن الزبير بدير الجائليق في المعركة أكرم قتل ، وبازائه عبد الملك بن مروان ، وقتل الزبير بوادي السباع منصرفه من وقعة الجمل ، وقتل العوام بن خويلد في حرب الفجار ، وقتل خويلد بن أسد بن عبد العزى في حرب خزاعة . فهؤلاء سبعة في نسق . قال : وفي بني أسد بن عبد العزى قتل كثيرون غير هؤلاء : قتل المنذر بن الزبير بمكة ، قتله أهل الشام في حرب الحجاج وهو على بغل ورد كان نقر به فأصعد به في الجبل . وإياه يعني يزيد بن مفرغ الحميري وهو يهجو صاحبكم عبيد الله بن زياد ويعيره باخفاره بقراره يوم البصرة :

لأبن الزُّبَيْرِ غَدَاةٌ تَذْمُرُ مُثَلِّباً أُولَى بِكُلِّ حَفِيظَةٍ وَزَمَاعِ

وقتل عمرو بن الزبير قتله أخوه عبد الله بن الزبير وكان في جوار أخيه عبيدة بن الزبير فلم يغن عنه ، فقال الشاعر يحرص عبيدة على قتل أخيه عبد الله بن الزبير ويعيره باخفاره جوار عمرو أخيها :

أُعْيِيذُ لَوْ كَانَ الْمَجِيرَ لَوْلَوْتُ	بَعْدَ الْمُدْوَةِ بِرَنَةِ أَسْمَاءِ
أُعْيِيذُ إِنَّكَ قَدْ أَجَرْتَ وَجَارِكُمْ	تَحْتَ الصَّفِيحِ تَنْوِبُهُ الْأَصْدَاءِ
إِضْرِبْ بِسَيْفِكَ ضَرْبَةً مَذْكُورَةً	فِيهَا أَدَاءُ أَمَانَةٍ وَوَفَاءِ

وقتل بجير بن العوام أخو الزبير بن العوام ، قتله سعد بن صفح الدوسي جد أبي هريرة من قبل أمه بناحية اليمامة ، وقتل معه أصرم وبعكك ابني العوام ابن خويلد . وقد قتل منهم في محاربة النبي صلى الله عليه وسلم قوم متهورون منهم : زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى ، وكان شريفاً ، قتل

يوم بدر . وأبوه الأسود كان المثل يضرب بعزته بمكة ، وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يذكر عاقر الناقة : كان عزيزاً منيعاً كأبي زمعة ويكنى زمعة ابن الأسود أبا حكيمة . وقتل الحرث بن الأسود بن المطلب يوم بدر أيضاً ، وقتل عبد الله بن زمعة بن الأسود ، ضرب عنقه مسرف بن عقبة صبراً ، قال له : بايع لأمر المؤمنين يزيد بن معاوية على أنك عبد قن له ؟ قال : بل أبايعه على أني أخوه وابن عمه . فضرب عنقه . وقتل اسماعيل بن هبار بن الأسود ليلاً وكان دعا حيلة فخرج مصرخاً لمن استصرخه فقتل فاتهم به مصعب بن عبد الله بن عبد الرحمن فأحلفه معاوية خمسين مئناً وخلي سبيله . فقال الشاعر :

وَلَا أَجِيبُ بَلِيلٍ دَاعِيًا أَبَدًا      أَخْتِي الْغُرُورَ كَمَا غُرَّ ابْنُ هَبَّارٍ  
بَاتُوا يَجْرُونَ فِي الْحَيْثِ مُنْعِفِرًا      بَشَّ الْمَدْيَةَ لِابْنِ النِّعْمِ وَالْجَارِ

وقتل عبد الرحمن بن العوام بن خويلد في خلافة عمر بن الخطاب في بعض المغازي . وقتل ابنه عبد الله يوم الدار مع عثمان . فعبد الله بن عبد الرحمن بن العوام بن خويلد ، قتيل ابن قتيل ابن قتيل ، أربعة في نسق . ومن قتلهم : عيسى بن مصعب بن الزبير ، قتل بين يدي أبيه بمسكن في حرب عبد الملك ، وكان مصعب يكنى أبا عيسى ، وعيسى كلاهما : موالي قريش كهلهما وصميمها . ومنهم مصعب بن عكاشة بن مصعب بن الزبير ، قتل يوم قديد في حرب الخوارج وقد ذكره الشاعر :

فَمَنْ فَاثِدُّنَ رَجَالًا قَتَلُوا      بِقُدَيْدٍ وَلِنَقْضَانِ الْعَدَدِ  
ثُمَّ لَا تُعَدِّلُنَّ فِيهَا مُضْعَبًا      حِينَ يُبْكِي مِنْ قَتِيلٍ بِأَحَدِ  
أَنَّهُ قَدْ كَانَ فِيهَا بَاسِلًا      صَارِمًا يُقْسِدُ إِقْدَامَ الْأَسَدِ

ومنهم خالد بن عثمان بن خالد بن الزبير ، خرج مع محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن فقتله أبو جعفر وصلبه . ومنهم عتيق بن عامر بن عبد الله بن الزبير ، قتل بقديد أيضاً ، وسمى عتيقاً باسم جده أبي بكر الصديق .

قال : وإن كان الفخر والفضل في الجود والسماح ، فمن مثل عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ؟ ومن مثل عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ؟ - وقد اعترضت الأموية هذا الموضوع فقالت : إنما كان عبد الله بن جعفر يهب مما كان معاوية ويزيد يهبانه له ، فمن فضل جودنا جاد ، قالوا : ومعاوية أول رجل في الأرض وهب ألف ألف درهم ، وابنه يزيد أول من ضاعف ذلك . فإنه كان يميز الحسن والحسين ابني علي في كل عام لكل واحد منهما بألف ألف درهم ، وكذلك كان يميز عبد الله بن العباس وعبد الله بن جعفر ، فلما مات وقام يزيد وفد عليه عبد الله بن جعفر فقال له : إن أمير المؤمنين معاوية كان يهبل رحمي في كل سنة بألف ألف درهم ؟ قال : فلك ألفا ألف درهم ! فقال : بسأبي أنت وأمي ؟ أما إنني ما قلتها لابن أنثى قبلك ! قال : فلك أربعة آلاف ألف درهم - وهذا الاعتراض ساقط ، لأن [هذا] إن صح لم يمد جوداً ولا جائزة ولا صلة رحم ، هؤلاء قوم كان يخافهم هل ملكه ويعرف حقهم فيه وموقعهم من قلوب الأمة ، فكان يدبر في ذلك تدبيراً ويربغ أموراً ويصانع عن دولته وملكه . ونحن لم نعد قط ما أعطى خلفاء بني هاشم قوادهم وكتائبهم وبني عمهم جوداً ، فقد وهب للمأمون للحسن بن سهل غلة عشرة آلاف ألف فما عد ذلك منه مكرمة ، وكذلك كل ما يكون داخلاً في باب التجارة واستمالة القلوب وتدبير الدولة ، وإنما يكون الجود ما يدفعه الملوك إلى الوفود والخطباء والشعراء والأشراف والأدباء والسمار ونحوه ؟ ولولا ذلك لكان الخليفة إذا وفي الجند أعطياتهم احتسب ذلك في جوده ! فالعمالات شيء والإعطاء على دفع المكروه شيء ، والتفضل والجود شيء .

ثم إن الذين أعطاهم معاوية ويزيد هو بعض حقهم ، والذي فضل عليهما أكثر مما خرج منها . وإن أريد الموازنة بين ملوك بني العباس وملوك بني أمية في العطاء افتضح بنو أمية وناصرهم فضيحة ظاهرة . فإن نساء خلفاء بني العباس

أكثر معروفاً من رجال بني أمية ، ولو ذكرت معروف أم جعفر وحدها لأن ذلك على جميع صنائع بني مروان . وذلك معروف . ولو ذكرت معروف الخيزران وسلسبيل لمئات الطوامير الكثيرة به ، وما نظن خالصة مولاتهم إلا فوق أجواد أجوادهم . وإن شئت أن تذكر مواليتهم وكتابتهم فاذكر عيسى بن ماهان ، وابنه علياً ، وخالد بن برمك ، وابنه يحيى ، وابنيه جعفر والفضل ، وكتابتهم منصور بن زبدا ، ومحمد بن منصور فتي العسكر ، فإنك تجد لكل واحد من هؤلاء ما يحيط بجميع صنائع بني عبد شمس .

فأما ملوك الأموية فليس منهم إلا من كان يخل على الطعام . وكان جعفر بن سليمان كثيراً ما يذكر ذلك . وكان معاوية يبغض الرجل النهم على مائدته . وكان المنصور إذا ذكرهم يقول : كان عبد الملك جباراً لا يبالي ما صنع ، وكان الوليد مجنوناً ، وكان سليمان همه بطنه وفرجه ، وكان عمر أعمور بين عميان ، وكان هشام رجل القوم . وكان لا يذكر ابن عاتكة . ولقد كان هشام - مع ما استثناء به - يقال هو الأحول السراق ، ما زال يدخل أعطيات الجند شهراً في شهر وشهراً في شهر حتى أخذ لنفسه مقدار رزق سنة . وأنشده أبو النجم العجلي أرجوزته التي أولها « الحمد لله الوهوب المجزل » فما زال يصفق بيديه استحساناً لها حتى صار إلى ذكر الشمس فقال « والشمس في الأفق كمين الأحول » فأمر بوجء عنقه وإخراجه . وهذا ضعف شديد وجهل عظيم . وقال خاله إبراهيم بن هشام المخزومي : ما رأيت من هشام خطأ قط إلا مرتين : حدا به الخادي مرة فقال :

إِنَّ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْبُخْتِيُّ أَكْثَرَ مَنْ تَمَشَّى بِهِ الْمَطِيُّ

فقال : صدقت ! وقال مرة : والله لأشكون سليمان يوم القيامة إلى أمير المؤمنين عبد الملك ! وهذا ضعف شديد وجهل مفرط .

قال أبو عثمان : وكان هشام يقول : والله إنني لأستحي أن أعطي رجلاً أكثر من أربعة آلاف درهم . ثم أعطى عبد الله بن الحسن أربعة آلاف دينار

فاعتدها في جوده وتوسعه . وإنما اشترى بها ملكه وحصن بها عن نفسه وما في يديه . قال له أخوه مسلمة : أتطمع أن تلي الخلافة وأنت بخيل جبان ؟ فقال : ولكني حلیم عفيف . فاعترف بالجبن والبخل . وهل تقوم الخلافة مع واحد منها ؟ وإن قامت فلا تقوم إلا مع الخطر العظيم والتغريير الشديد ، ولو سلمت من الفساد لم تسلم من العيب . ولقد قدم المنصور عليهم عمر بن عبد العزيز بقوله : أعور بين عميان . وزعمتم أنه كان ناسكاً ورعاً تقياً ، فكيف وقد جلد خبيب بن عبد الله بن الزبير مائة جلده وصب على رأسه جرة من ماء بارد في يوم شاتٍ حتى كز فمات ، فما أقر بدمه ولا خرج لوليه من حقه ولا أعطى عقلاً ولا قوداً ، ولا كان خبيب ممن أتت عليه حدود الله وأحكامه وقصاصه فيقال كان مطيعاً بإقامتها وأنه أزهق الحد نفسه ؟ واحسبوا الضرب كان أدباً وتعزيراً فما عذره في الماء البارد في الشتاء على إثر جلد شديد ؟ ولقد بلغه أن سليمان بن عبد الملك بوصي فجاء حتى جلس على طريق من يجلس عنده أو يدخل إليه فقال لرجاء بن حيوة في بعض ما يدخل وما يخرج من شأنه : نشدتك الله أن تذكرني لهذا الأمر وتشير بي في هذا الشأن فوالله مالي عليه من طاقة ؟ فقال له رجاء : (قاتلك الله ما أحرصك عليها ! ولما جاء الوليد بن عبد الملك بنعي الحجاج قال له الوليد : مات الحجاج يا أبا حفص ؟ فقال : وهل كان الحجاج إلا رجلاً منا أهل البيت ؟ وقال في خلافته : لولا بيعة في أعناق الناس ليزيد بن عاتكة لجعلت هذا الأمر شورى بين صاحب الأعواص إسماعيل بن أمية بن عمرو بن سعيد الأشدق ، وبين أحمد قريش القاسم بن محمد بن أبي بكر ، وبين سالم بن عبد الله بن عمر . فما كان عليه من الضرر والحرج ، وكان عليه من الوكف والنقص لو قال : بين علي بن عبد الله بن عباس ، وعلي بن الحسين بن علي ؟ على أنه لم يرد التيمي ولا العدوي ، وإنما دبر الأمر للاموي . ولم يكن عنده أحد من هاشم يصلح للشورى ثم دبر الأمر ليبايع لأخيه أبي بكر بن عبد العزيز من بعده حتى عوجل بالسهم : ؟ وقدم عليه عبد الله بن حسن بن حسن فلما رأى كماله وبيانه وعرف نسه ومركبه وموضعه وكيف ذلك من قلوب المسلمين وفي صدور المؤمنين

لم يدعه يبيت بالشام ليلة واحدة وقال له : إلتق بأهلك فإنك لم تغنمهم شيئاً هو  
أنفس منك ولا أرد عليهم من حياتك ، أخاف عليك طواعين الشام ،  
وستلحقك الحوائج على ما تشتهي ونحب . وإنما كره أن يروه ويسمعوا كلامه فلعله  
أن يبذر في قلوبهم بذراً ، ويغرس في صدورهم غرساً . وكان أعظم خلق الله  
قولاً بالجبر حتى يتجاوز الجهمية ويربي على كل ذي غاية صاحب شئعة ، وكان  
يصنع في ذلك الكتب مع جهله بالكلام وقلة اختلافه إلى أهل النظر . وقال له  
شوذب الخارجي : لم لا تلعن رهطك وتذكر أباك إن كانوا عندك ظلمة فجرة ؟  
فقال عمر : متى عهدك بلعن فرعون ؟ قال : مالي به عهد . قال : أفيستك أن  
تمسك عن لعن فرعون ولا يسعني أن أمسك عن لعن آبائي ؟؟ فرأى أنه قد  
خصمه وقطع حجته ، وكذلك يظن كل من قصر عن مقدار العالم وجاوز مقدار  
الجاهل ! وأي شبه لفرعون بآل مروان وآل أبي سفيان ؟ هؤلاء قوم لهم حزب  
وشيعة وناس كثير يدينون بتفضيلهم وقد اعتورتهم الشبه في أمرهم ، وفرعون على  
خلاف ذلك وضده ، لا شيعة له ولا حزب ولا نسل ولا موالى ولا صنائع ولا في  
أمره شبهة ؟ ثم إن عمر ظنن في أمر أهله فيحتاج إلى غسل ذلك عنه بالبراءة  
منهم . وشوذب ليس بظنين في أمر فرعون . وليس الإمساك عن لعن فرعون  
والبراءة منه مما يعرفه الخوارج . فكيف استويا عنده ؟! وشكا إليه رجل من  
رهطه ديناً فادحاً وعبالاً كثيراً فاعتل عليه ، فقال له : هلا اعتلت على عبد  
الله بن الحسن ؟ قال : ومتى شاورتك في أمري ؟ قال : أو مشيراً تراني ؟ قال :  
وهل أعطيتني إلا بعض حقه ؟ قال : ولم قصرت عن كله ؟! فأمر باخراجه وما  
زال إلى أن مات محروماً منه . وكان عمال أهله على البلاد عماله وأصحابه .  
والذي حسن أمره وشبهه على الأغبياء حاله أنه قام بعقب قوم قد بدلوا عمارة  
شرائع الدين وسنن النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان الناس قبله من الظلم  
والجور والتهاون بالاسلام في أمر صخر في جنبه ما عابنوا منه وآفوه عليه .  
فجعلوه بما نقص من تلك الأمور الفظيمة ، في عداد الأئمة الراشدين . وحسبك  
من ذلك أنهم كانوا يلعنون علياً على منابرهم فلما نهى عمر عن ذلك عد محسناً .

ويشهد لذلك قول كثير فيه :

وَلَيْتَ فَلَمَّ نَشْتُمُ عَلِيًّا وَلَمْ نُحِثْ بِرَبِّهِمْ وَلَمْ تَتَّبِعْ مَقَالَةَ مُجْرِمٍ

وهذا الشعر يدل على أن شتم علي قد كان لهم عادة حتى مدح من كف عنه . ولما ولي خالد بن عبد الله القسري مكة - وكان إذا خطب بها لعن علياً والحسن والحسين - قال عبيد الله بن كثير السهمي :

لَعَنَ اللَّهُ مَنْ يَسُبُّ عَلِيًّا      وَحَسِينًا مِنْ سَوْفَةِ وَإِمَامٍ  
أَيُّبُ الْمُطَهَّرُونَ جُدُوداً      وَالكَرَامُ الْأَبَاءُ وَالْأَعْمَامُ  
يَأْمَنُ الطَّيْرُ وَالْحَمَامُ وَلَا يَأْ      مَنْ آلَ الرَّسُولِ عِنْدَ الْمَقَامِ  
طَبَّتْ بَيْتاً وَطَابَ أَهْلُكَ أَهْلًا      أَهْلَ بَيْتِ النَّبِيِّ وَالْإِسْلَامِ  
رَحْمَةً اللَّهُ وَالسَّلَامُ عَلَيْهِمْ      كُلَّمَا قَامَ قَائِمٌ بِإِسْلَامِ

وقام عبد الله بن الوليد بن عثمان بن عفان - وكان ممن يتاله بزعمهم - إلى هشام بن عبد الملك وهو يخطب على المنبر بعرفة فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا يوم كانت الخلفاء تستحب فيه لعن أبي تراب ؟ فقال هشام : ليس لهذا جتنا . ألا ترى أن ذلك يدل على أنه قد كان لعنه فيهم فاشياً ظاهراً ؟ وكان عبد الله بن الوليد هذا يلعن علياً ويقول : قتل جدِّي جميعاً الزبير وعثمان . وقال المغيرة وهو عامل معاوية يومئذ لصعصعة بن صوحان : قم فالعن علياً ؟ فقال : إن أميركم هذا أمرني أن ألعن علياً فالعنوه لعنه الله - وهو يضم المغيرة .

وأما عبد الملك فحسبك من جهله بتبديل شرائع الدين والاسلام وهو يريد أن يلبس أمور أصحابها بذلك الدين بعينه ! وحسبك من جهله أنه رأى من أبلغ التدبير في منع بني هاشم الخلافة أن يلعن علي بن أبي طالب على منابره ويرمى بالفجور في مجالسه ، وهذا قرّة عين عدوه وعير عين وليه ، وحسبك من جهله قيامه على منبر الخلافة قائلاً إني والله ما أنا بالخليفة المستضعف ، ولا بالخليفة المدهن ، ولا بالخليفة المأفون . وهؤلاء سلفه وأئمته ، وبشفعتهم قام ذلك

المقام ، ويتقدمهم وتأسيسهم نال تلك الرئاسة ، ولولا القادة المتقدمة والأجناد  
المجندة والصنائع القائمة لكان أبعد خلق الله من ذلك المقام وأقربهم إلى الهلكة  
إن رام ذلك الشرف . وعنى بالمستضعف عثمان ، وبالمداهن معاوية ، وبالمأفون  
يزيد بن معاوية . وهذا الكلام نقض لسلطانه ، وعداوة لأهله ، وإفساد لقلوب  
شيعة ، ولو لم يكن من عجز رأيه إلا انه لم يقدر على إظهار قوته إلا بأن يظهر  
عجز أئمة لكفالك ذلك منه . . . فهذا ما ذكرته هاشم لأنفسها .

### [ ١٧ - مفاخر أمية بالدهاء والحروب والعلم والشعر ]

قالت أمية : لنا من نواذر الرجال في العقل والدهاء والأرب والتكر ما ليس  
لأحد . ولنا من الأجواد وأصحاب الصنائع ما ليس لأحد . زعم الناس أن  
الدهاة أربعة : معاوية بن أبي سفيان ، وزيد ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن  
شعبة . فمنا رجلان ومن سائر الناس رجلان . ولنا في الأجواد : سعيد بن  
العاص ، وعبد الله بن عامر ، لم يوجد لهما نظير إلى الساعة . وأما نواذر الرجال  
في الرأي والتدبير : فأبو سفيان بن حرب ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وعبد الملك  
ابن مروان ، ومسلمة بن عبد الملك . وعلى أنهم يعدون في الحكماء والرؤساء .  
فأهل الحجاز يضربون المثل في الحلم بمعاوية كما يضرب أهل العراق المثل فيه  
بالأحنف . فأما الفتوح والتدبير في الحرب فلمعاوية غير مدافع ، وكان خطيباً  
مصقلاً ومُحَرَّباً مظهرًا . وكان مسلمة شجاعاً مدبراً وسائماً مقدماً ، وكثير الفتوح  
كثير الأدب . وكان يزيد بن معاوية خطيباً شاعراً . وكان الوليد بن يزيد خطيباً  
شاعراً . وكان مروان بن الحكم وعبد الرحمن بن الحكم شاعرين . وكان بشر بن  
مروان شاعراً ناسباً وأديباً عالماً . وكان خالد بن يزيد بن معاوية خطيباً شاعراً  
وجيد الرأي أريباً كثير الأدب حكيمًا ، وكان أول من أعطى التراجمة والفلاسفة  
وقرب أهل الحكمة ورؤساء أهل كل صناعة ، وترجم كتب النجوم والطب  
والكيمياء والحروب والآداب والآلات والصناعات . وقالوا : وإن ذكرت البأس  
والشجاعة فالعباس بن الوليد بن عبد الملك ، ومروان بن محمد ، وأبوه محمد بن

مروان بن الحكم وهو صاحب مصعب . وهؤلاء قوم لهم آثار بالروم لا تجهل  
 وآثار بإرمينية لا تنكر ، ولهم يوم العقر شهده مسلمة والعباس بن الوليد . قالوا :  
 ولنا الفتح العظيم ، ولنا فارس وخراسان ، وإرمينية وسجستان ، وأفريقية وجميع  
 فتوح عثمان . فأما فتوح بني مروان فأكثر وأعم وأشهر من أن تحتاج إلى عدد أو  
 إلى شاهد ، والذين بلغوا في ذلك الزمان أقصى ما يمكن صاحب خوف وحافر أن  
 يبلغه ، حتى لم يحتجز منهم إلا ببحر أو خليج بحر أو غياض أو عقاب أو حصون  
 وصياصي ثلاثة رجال : قتيبة بن مسلم بخراسان ، وموسى بن نصير بأفريقية ،  
 والقاسم بن محمد بن القاسم الثقفي بالسند والهند . وهؤلاء كلهم عمالنا  
 وصنائعنا . ويقال : إن البصرة كانت صنائع ثلاثة رجال : عبد الله بن عامر ،  
 وزبيد ، والحجاج ، فرجلان من أنفسنا والثالث صنيعتنا . قالوا : ولنا في  
 الأجواد وأهل الأقدار : عبد الله بن خالد بن أسيد بن أمية ، وأخوه خالد ،  
 وفي خالد يقول الشاعر :

إلى خالد حتى أنحنأ بخاليدٍ      فنعم ألقى بُرجي ونعم الموملُ

ولنا سعيد بن خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، وهو عقيد الندي ،  
 كان يسبت ستة أشهر ويفيق ستة أشهر ، ويرى كحيلاً من غير اكتحال ، ودهيناً  
 من غير تدهين ، وله يقول : موسى شهوات \*

أبا خالدٍ أعني سعيد بن خالدٍ      أنحا العُرفِ لا أعني ابن بنتِ سعيدِ  
 ولكنني أعني ابنَ عائشة الذي      أبو أبويه خالدُ ابنُ أسيدِ  
 عقيدُ الندي ما عاش يرضى به الندي      فإن مات لم يرض الندي بعقيدِ

قالوا : وإنما تمكن فينا الشعر وجاد ليس من قبل أن الذين مدحونا ما كانوا  
 غير من مدح الناس ، ولكن لما وجدوا فينا مما يتسع لأجله القول وبصدق فيه  
 القائل . قد مدح عبید الله بن قيس الرقيبات من الناس آل الزبير عبد الله  
 ومصعباً وغيرهما . فكان يقول كما يقول غيره . فلما صار إلينا قال :

ما تقموا من بني أمية إلا      أنهم يحلمون إن غضبوا

وَأَنَّهُمْ مَعْدِنُ الْمُلُوكِ فَمَا تَصْلُحُ إِلَّا عَلَيْهِمُ الْعَرَبُ

وقال نصيب :

مَنْ النَّفْرِ الشَّمِ الذِّينَ إِذَا انْتَجَعُوا      أَقْرَتْ لِنَجْوَاهُمْ نُؤْيُ بِنُ غَالِبِ  
يُحْيُونَ بِسَامِينَ طَوْرًا وَتَارَةً      يَحْيُونَ عَبَّاسِينَ شَوْسِ الْحَوَاجِبِ

وقال الأخطل :

شُمْسُ الْعَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ      وَأَعْظَمُ النَّاسِ إِخْلَامًا إِذَا قَدَرُوا

قالوا : وفيما يقول شاعركم والمتشيع لكم الكميث بن زيد :

فَالآنَ حَسِرْتُ إِلَى أُمِّيَّةٍ وَالْأُمُورُ لَهَا مَصَايِرُ

وفي معاوية يقول أبو الجهم العذوي :

تُقَلِّبُهُ لِنَخْبَرَ خَالَتِيهِ      فَنُخْبِرُ مِنْهَا كَرَمًا وَلِينَا  
عَمِلُ عَمَلِ جَوَانِيصِيَا كَانَا      إِذَا مَلْنَا نَمِيسُ عَمَلِ أَبِيْنَا

وفيه يقول :

تُرِيغُ إِلَيْهِ هُوَادِي الْكَلَامِ      إِذَا ضَلَّ خُطْبَتُهُ الْمِهْدَرُ

قالوا : وإذا نظرتم في امتداح الشعراء عبد العزيز بن مروان عرفتم صدق

ما نقوله :

قالوا : وفي إرسال النبي صلى الله عليه وسلم إلى أهل مكة عثمان

واستعماله عتاب بن أسيد وهو ابن اثنين وعشرين سنة دليل على موضع المنعة

ومن تهاب العرب وتعز قريش . وقال النبي صلى الله عليه وسلم قبل الفتح :

« قَتِيَانِ أَضْنَ بِيهَا عَلَى النَّارِ عَتَابُ بْنُ أُسَيْدٍ وَجُبَيْرُ بْنُ مُطْعَمٍ » فولى عتاباً وترك

جُبَيْرِ . وقال الشعبي : لو ولد لي مائة ابن لسميتهم كلهم « عبد الرحمن » للذي

رأيت في قريش من أصحاب هذا الإسم . ثم عد : عبد الرحمن بن عتاب بن

أسيد ، وعبد الرحمن بن الحرث بن هشام ، وعبد الرحمن بن الحكم بن أبي

العاص . فأما عبد الرحمن بن عتاب فإنه صاحب الخيل يوم الجمل ، وهو صاحب الكف والخاتم ، وهو الذي مر به علي وهو قتيل فقال : فني عليك بمسوب قريش ! هذا اللباب المحض من بني عبد مناف ! فقال له قائل : لشد ما أبته اليوم يا أمير المؤمنين ! قال : إنه قام عني وعنه نسوة لم يقمن عنك .

#### [ ١٨ - فخر عبد شمس بالخطابة ]

قالوا : ولنا من الخطباء معاوية بن أبي سفيان ، أخطب الناس قائلاً وقاعداً وعلى منبر وفي خطبة نكاح ! وقال عمر بن الخطاب : ما يتصعدني شيء من الكلام كما تتصعدني خطبة النكاح . وقد يكون خطيباً من ليس عنده في حديثه ووصفه للشيء واحتجاجه في الأمر لسان بارع . وكان معاوية يجري مع ذلك كله .

قالوا : ومن خطبائنا يزيد بن معاوية ، كان أعرابي اللسان بدوي اللهجة . قال معاوية - وخطب عنده خطيب فأجاد - لأرمينه بالخطيب الأشدق . يريد يزيد ابن معاوية . ومن خطبائنا سعيد بن العاص ، لم يوجد كتبخيره تحبير ولا كارتجاله ارتجال . ومنا عمرو بن سعيد الأشدق ، لقب بذلك لأنه حيث دخل على معاوية وهو غلام بعد وفاة أبيه فسمع كلامه فقال : إن ابن سعيد هذا لأشدق : وقال له معاوية : إلى من أوصى بك أبوك ؟ قال : إن أبي أوصى إلي ولم يوصي بي ! قال : فما أوصى إليك ؟ قال : أن لا يفقد إخوانه منه إلا وجهه .

قالوا : ومنا سعيد بن عمرو بن سعيد ، خطيب ابن خطيب . تكلم الناس عند عبد الملك قياماً وتكلم قاعداً ، قال عبد الملك : فتكلم وأنا والله أحب عشرته وإسكاته ، فأحسن حتى استنطقته واستردته . وكان عبد الملك خطيباً خطب الناس مرة فقال : ما أنصفتمونا معشر رعيتنا ، طلبتم منا أن نسير فيكم وفي أنفسنا سيرة أبي بكر وعمر في أنفسها ورعيتها ، ولم تسيروا فينا ولا في أنفسكم سيرة رعية أبي بكر وعمر فيها وفي أنفسها ، ولكل من النصفة نصيب . قالوا : فكانت خطبته نافعة .

قالوا : ولنا زياد وعبيد الله بن زياد ، وكانا غايتين في صحة المعاني وجودة اللفظ . ولهما كلام كثير محفوظ .

قللوا : ومن خطبائنا سليمان بن عبد الملك ، والوليد بن يزيد بن عبد الملك . ومن خطبائنا وناكنا يزيد بن الوليد الناقص . قال عيسى بن حاضر : قلت لعمر بن عبيد : ما قولك في عمر بن عبد العزيز ؟ فكلح ثم صرف وجهه عني . قلت : فما قولك في يزيد الناقص ؟ فقال : أو الكامل ، قال بالعدل وعمل بالعدل وبذل نفسه وشري وقتل ابن عمه في طاعة ربه ، وكان نكالاً لأهله ، ونقص من أعطيتهم ما زادته الجبابة ، وأظهر البراءة من آبائه ، وجعل في عهده شرطاً ولم يجعله جزماً . لا والله لكانه ينطق عن لسان أبي سعيد - يريد الحسن البصري - قال : وكان الحسن من أنطق الناس . قالوا : وقد قرئ في الكتب القديمة : يا مبذر الكنوز ويا مساجداً بالأسحار ، كانت ولايتك رحمة وعليهم حجة . قالوا : هو يزيد بن الوليد . ومن خطبائنا ثم من ولد سعيد بن العاص : عمرو بن خولة ، كان ناسياً فصيحاً خطيباً . وقال ابن عائشة الأكبر : ما شهد خطيباً قط إلا لجلج هبة له ومعرفته بانتقاده . ومن خطبائنا عبد الله بن عامر ، وعبد الأعلى بن عبد الله بن عامر ، وكانا من أكرم الناس وأبين الناس . كان مسلمة بن عبد الملك يقول : إني لأنحي كور عمامي عن أذني لأسمع كلام عبد الأعلى . وكانوا يقولون : أشبه فريش نعمة وجهارة واقتداراً وبياناً بعمر بن سعيد : عبد الأعلى بن عبد الله .

### [ ١٩ - فخر عبد شمس بالورع والنسك ]

قالوا : ومن أكثر نسك الملوك منا ؟ منا معاوية بن يزيد بن معاوية ، وهو الذي قيل له في مرضه الذي مات فيه : لو أقمت للناس ولياً عهد ؟ قال : ومن جعل لي هذا العهد في أعناق الناس ! والله لولا خوف الفتنة لما أقمت عليها طريقة عين ! والله لا أذهب بمرارتها وتذهبون بحلاوتها ! فقالت له أمه : لوددت أنك حيضة . قال : أنا والله وددت ذلك .

قالوا : ومنا سليمان بن عبد الملك الذي هدم الديماس ورد المسيرين وأخرج المسجونين وترك القريب واختار عمر بن عبد العزيز ، وكان سليمان جواداً خطيباً جميلاً صاحب سلامة ودعة وحب للعافية وقرب من الناس حتى سمي المهدي وقيلت الأشعار في ذلك .

قالوا : ولنا عمر بن عبد العزيز شبيه عمر بن الخطاب ، قد ولده عمر وباسمه سمي ، وهو أشج قريش المذكور في الآثار المنقولة ، العدل في أشد الزمان ، وظلف نفسه بعد اعتياد النعم حتى صار مثلاً ومفخراً . وقيل للحسن : أما رويت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يزداد الزمان إلا شدة والناس إلا شحاً ولا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق » ؟ قال : بلى . قيل : فيما بال عمر بن عبد العزيز وعدله وسيرته ؟ فقال : لا بد للناس من متنفس . وكان مذكوراً مع الخطباء ومع النساك ومع الفقهاء

قالوا : ولنا ابنه عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز ، كان ناسكاً زكياً طاهراً ، وكان من أتقى الناس وأحسنهم معونة لأبيه ، وكان كثيراً ما يهذ أباه وبيناه .

قالوا : ولنا من لا نظير له في جميع أموره ، وهو صاحب الأعواص اسماعيل ابن أمية بن عمرو بن سعيد بن العاص ، وهو الذي قال فيه عمر بن عبد العزيز : لو كان إلي من الأمر شيء لجعلتها شورى بين القاسم بن محمد وسالم بن عبد الله ، وصاحب الأعواص .

قالوا : ومن نساكنا أبو حراب من بني أمية الصغرى ، قتله داود بن علي . ومن نساكنا يزيد بن محمد بن مروان ، كان لا يهدب ثوباً ولا يصبغه ولا يتخلق بخلوق ولا يختار طعاماً على طعام ما أطعم أكله ، وكان يكره التكلف وينهى عنه . قالوا : ومن نساكنا أبو بكر بن عبد العزيز بن مروان ، أراد عمر أخوه أن يجعله ولي عهده لما رأى من فضله وزهده ، فسما جميعاً . ومن نساكنا عبد الرحمن بن أبان بن عثمان بن عفان ، كان يصلي كل يوم ألف ركعة وكان كثير

الصدقة وكان إذا تصدق بصدقة قال : اللهم إن هذا لوجهك فخفف عني الموت . فانطلق حاجاً ثم تصبح بالنوم فذهبوا ينيهونه للرحيل فوجدوه ميتاً . فأقاموا عليه المأتم بالمدينة ، وجاء أشعب فدخّل إلى المأتم وعمل رأسه كبة من طين فالتدم مع النساء ، وكان إليه عسناً . ومن نساكنا عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان .

قالوا : فنحن نعد من الصلاح والفضل ما سمعتموه ، وما لم نذكره أكثر .

وأنتم تقولون : أمية هي الشجرة الملعونة في القرآن وزعمتم أن الشجرة الخبيثة لا تثمر الطيب كما أن الطيب لا يثمر الخبيث . فإن كان الأمر كما تقولون فعثمان بن عفان ثمرة خبيثة ، وينبغي أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم دفع ابتيّه الى خبيث ؟ وكذلك يزيد بن أبي سفيان صاحب مقدمة أبي بكر الصديق على جيوش الشام ؟ وينبغي لأبي العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون كذلك ؟ وينبغي لمحمد بن عبد الله المدبج أن يكون كذلك وإن ولدته فاطمة عليها السلام ، لأنه من بني أمية ! وكذلك عبد الله بن عثمان سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي مات بعد أن شدّ ، نقر الديك عينه فمات ، لأنه من بني أمية . وكذلك ينبغي أن يكون عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية ، وإن كان النبي صلى الله عليه وسلم ولاء مكة أم القرى وقبلة الاسلام مع قوله صلى الله عليه وسلم : فتیان أضن بهما على النار، عتاب بن أسيد وجبير بن مطعم . كذلك وينبغي أن يكون عمر بن عبد العزيز شبيه عمر بن الخطاب ، وكذلك معاوية بن يزيد بن معاوية ، وكذلك يزيد الناقص ؟ وينبغي أن لا يكون النبي صلى الله عليه وسلم عبد عثمان في العشرة الذين بشرهم بالجنة ؟ وينبغي أن يكون خالد بن سعيد بن العاص شهيد يوم مرج الصفر والحبيس في سبيل الله ووالي النبي صلى الله عليه وسلم على اليمن ووالي أبي بكر على جميع أجناد الشام ورابع أربعة في الاسلام والمهاجر الى أرض الحبشة ، كذلك ! وكذلك أبان بن سعيد بن العاص المهاجر إلى المدينة والقديم الاسلام والحبيس على الجهاد يجب أن يكون ملعوناً خبيثاً ! وكذلك أبو حذيفة بن

عتبة بن ربيعة وهو بدري من المهاجرين الأولين ، وكذلك أمامة بنت أبي العاص  
ابن الربيع وأمها زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ! وكذلك أم كلثوم  
بنت عتبة بن أبي معيط وكان النبي صلى الله عليه وسلم يخرجها في المفازي  
ويضرب لها بسهم ويصافحها ؟ وكذلك فاطمة بنت أبي معيط من مهاجرة  
الحبشة .

### [ ٢٠ - مفاخر امية بالملك ]

قالوا : وما نفخر به وليس لبني هاشم مثله أن منا رجلاً وبني أربعين سنة  
منها عشرون سنة خليفة ، وهو معاوية بن أبي سفيان . ولنا أربعة أخوة خلفاء :  
الوليد وسليمان ويزيد وهشام بنو عبد الملك . وليس لكم إلا ثلاثة : محمد وعبد  
الله وأبو إسحق ، أولاد هرون .

قالوا : ومنا رجل ولده سبعة من الخلفاء ، وهو عبد الله بن يزيد بن عبد  
الملك بن مروان ، أبوه يزيد بن عاتكة خليفة ، وجدته عبد الملك خليفة ، وأبو  
جده مروان بن الحكم خليفة ، وجدته من قبل عاتكة ابنة يزيد بن معاوية أبوها  
يزيد بن معاوية وهو خليفة ، ومعاوية بن أبي سفيان وهو خليفة . فهؤلاء  
خمسة . وأم عبد الله هذا عاتكة بنت عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ،  
وحفصة بنت عبد الله بن عمرو بن الخطاب . فهذان خليفتان . فهذه سبعة من  
الخلفاء ولدوا هذا الرجل .

قالوا : ومنا امرأة أبوها خليفة ، وجدتها خليفة ، وابنها خليفة ، وأخوها  
خليفة وبعلمها خليفة ، فهؤلاء خمسة . وهي عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي  
سفيان . أبوها يزيد بن معاوية خليفة ، وجدتها معاوية بن أبي سفيان خليفة ،  
وابنها يزيد بن عبد الملك بن مروان خليفة ، وأخوها معاوية بن يزيد خليفة ،  
وبعلمها عبد الملك بن مروان خليفة .

قالوا : ومن ولد المدبج محمد بن عبد الله الأصغر امرأة ولدها النبي صلى

الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير ، وهي عائشة بنت محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ، وأمها خديجة بنت عثمان بن عمرو بن الزبير ، وأم عمرو أسماء ذات النطاقين بنت أبي بكر الصديق ، وأم محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان وهو المدبج ، فاطمة بنت الحسين بن علي ، وأم الحسين بن علي فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأم فاطمة بنت الحسين بن علي أم اسحق بنت طلحة بن عبيد الله ، وأم عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان حفصة بنت عبد الله بن عمر بن الخطاب .

### [ ٢١ - فخر أمية بالحسن ]

قالوا : ولنا في الجمال والحسن ما ليس لكم . منا المدبج والديباج ، قيل ذلك لجماله ، ومنا المطرف ، ومنا الأرجوان ، فالمطرف وهو عبد الله بن عمرو بن عثمان ، سمي المطرف لجماله ، وفيه يقول الفرزدق :

تَمَّ الْفَارُوقُ أَنْكَ وَأَبْنُ أَرْوَى      أَبُوكَ فَبَأْتِ مُنْصَدِغُ النَّهَارِ

والمدبج هو الديباج ، كان أطول الناس قياماً في الصلاة ، وهلك في سجن المنصور .

قالوا : ومنا ابن الخلائف الأربعة ، دُعي بذلك وشهر به ، وهو المؤمل بن العباس بن الوليد بن عبد الملك . كان هو وأخوه الحارث ابني العباس بن الوليد من الفجاءة بنت قطري بن الفجاءة إمام الخوارج ، وكانت سبيت فوقعت إليه ، فلما قام عمر بن عبد العزيز أتت وجوه بني مازن وفيهم حاجب بن قبيان المازني الشاعر فقال حاجب :

أَتَيْتَكَ زُوراً وَوَفِدَاً إِلَى      أُنْصَأَتْ فَلَا يَخْفَى عَلَى النَّاسِ نُورُهَا  
أَبُوهَا عَمِيدُ الْحَيِّ جَمْعاً وَأُمُّهَا      مِنْ الْحَنْظَلِيَّاتِ الْكِرَامِ حُجُورُهَا  
فَلِإِنْ تَكُ صَارَتْ حِينَ صَارَتْ      إِلَى نَسَبِ ذَلِكَ كِرَامٍ تُغَيِّرُهَا

فبعث عمر بن عبد العزيز الى العباس بن الوليد : إما أن تردّها إلى أهلها  
 وإما أن تتزوجها . قال قائل ذات يوم للمؤمل : يا ابن الخلائف الأربعة ! قال :  
 ويلك ، من الرابع ؟ قال : قطري . فأما الثلاثة فالوليد وعبد الملك ومروان ،  
 وأما قطري فيبيع بالخلافة . وفيه يقول الشاعر :

وَأَبُو نَعَامَةَ سَيِّدُ الْكُفَّارِ

قالوا : ومن أين صار محمد بن علي بن عبد الله بن العباس أحق بالدعوة  
 والخلافة من سائر إخوته ؟ ومن أين كان له أن يضعها في بنيه دون أخوته ،  
 وكيف صار بنو الأخ أحق بها من الأعمام ! قالوا : إن يكن هذا الأمر إنما  
 يستحق بالميراث فالأقرب إلى العباس أحق ، وإن كان بالسنة والتجربة فالعموم  
 بذلك أولى !



[ ٢٢ - مفاخر أمية قبل الإسلام ]

قالوا : فقد ذكرنا جملاً من حال رجالنا في الإسلام . وأما الجاهلية ، فلنا  
 الأعياص ، والعنابس ، ولنا ذو العصابة أبو أحيحة سعيد بن العاص ، كان إذا  
 أعتق لم يعتم بمكة أحد ، ولنا حرب بن أمية رئيس يوم الفجار ، ولنا أبو  
 سفيان بن حرب رئيس أحد والخنزق وسيد قريش كلها في زمانه . وقال أبو  
 الجهم بن حذيفة العدوي لعمر - حين رأى العباس وأبا سفيان على فراشه دون  
 الناس - : ما نرانا نستريح من بني عبد مناف على حال ؟ قال عمر : بش أخو  
 العشيرة أنت ؟ هذا عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا سيد قريش !

قالوا : ولنا عتبة بن ربيعة ، ساد مملقا ولا يكون السيد إلا مترقاً ، لولا ما  
 رأوا عنده من البراعة والنبيل والكمال ، وهو الذي تحاكت بجيلة وقلب في  
 منافرة جرير والفرافصة وتراهنوا بسوق عكاظ وضعوا الرهن على يده دون جميع  
 من شهد على ذلك المشهد . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم - ونظر إلى  
 قريش مقبلة يوم بدر - : إن يكن منهم عند أحد خير فعند صاحب الحمل

الأحر ! وما ظنك بشيخ طلبوا له من جميع العسكر عند المبارزة بيضة فلم يقدرُوا  
على بيضة يدخل رأسه فيها ؟ وقد قال الشاعر :

وَإِنَّا أَنَا نَسُّ تَمَلُّا الْبَيْضَ هَامُنَا

قالوا : وأمية الأكبر صنفان : الأعياص والعنابس . قال الشاعر :  
مِنَ الْأَعْيَاصِ أَوْ مِنْ آلِ حَرْبٍ أَغْرَ كَغُرَّةِ الْفَرَسِ الْجَوَادِ

سموا بذلك في حرب الفجار حين حفروا لأرجلهم الحفائر وثبتوا فيها  
وقالوا نموت جميعاً أو نظفر . وإنما سموا بالعنابس لأنها أسماء الأسود ، وإنما سموا  
الأعياص لأنها أسماء الأصول . فالعنابس : حرب وأبو حرب ، وسفيان وأبو  
سفيان ، وعمرو . والأعياص : العيص وأبو العيص ، والعاص وأبو العاص ،  
وأبو عمرو . ولم يعقب من العنابس إلا حرب ، وما عقب الأعياص إلا  
العيص . ولذلك كان معاوية يشكو القلة : قالوا : وليس لبني هاشم والمطلب  
مثل هذه القسمة ، ولا مثل هذا اللقب المشهور .

مركز تحقيقات كويتيون سعوديون

[ ٢٣ - رد هاشم على ادعاءات أمية الدهاء ]

قالت هاشم :

أما ما ذكرتم من الدهاء والنكر ، فإن ذلك من أسماء فجار العقلاء ،  
وليس من أسماء أهل الصواب في الرأي من العقلاء والأبرار . قد بلغ أبو بكر  
وعمر من التدبير وصواب الرأي والخبرة بالأمور العامة ، وليس من أوصافهما ولا  
من أسمائهما أن يقال كانا داهيين ولا كانا مكيرين ؟ وما عامل معاوية وعمرو بن  
العاص علياً قط بمعاملة إلا وكان علي أعلم بها منهما ، ولكن الرجل الذي يحارب  
ولا يستعمل إلا ما يحل له أقل مذاهب في وجوه الخيل والتدبير من الرجل الذي  
يستعمل ما يحل وما لا يحل ؟ وكذلك من حدث وأخبر ، ألا ترى أن الكذاب  
ليس لكذبه غاية ولا لما يولد ويصنع نهاية ؟ والصدوق إنما يحدث عن شيء

معروف ومعنى محدود ؟ ويدل على ما قلنا أنكم حددتم أربعة في الدهاء ليس واحد منهم عند المسلمين في طريق المتقين . ولو كان الدهاء مرتبة والمكر منزلة لكان تقدم هؤلاء الجميع السابقين الأولين عيماً شديداً في السابقين الأولين ، ولو أن إنساناً أراد أن يمدح أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً ثم قال : الدهاء أربعة وعدمهم ، لكان قد قال قولاً مرغوباً عنه ، لأن الدهاء والمكر ليس من صفات الصالحين ، وإن علموا من غامض الأمور ما يجهله جميع العقلاء إلا ترى أنه قد يحسن أن يقال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكرم الناس ، وأحلم الناس ، وأجود الناس ، وأشجع الناس . ولا يجوز أن يقال : كان أمكر الناس وأدهى الناس ؟ وإن علمنا أن علمه قد أحاط بكل مكر وخديعة ، وبكل أرب ومكيذة ؟؟

#### [ ٢٤ - رد هاشم على ادعاء أمية الجود ]

وأما ما ذكرتم من جود سعيد بن العاص ، وعبد الله بن عامر ، فأين أنتم من جود عبد الله بن جعفر وعبيد الله بن العباس ، والحسن بن علي ؟ وأين أنتم من جود خلفاء بني العباس كمحمد المهدي ، وهرون ، ومحمد بن زبيدة ، وعبد الله المأمون ، بل لعل جود بعض صنائع هؤلاء كني برمك أعظم من جود الرجلين اللذين ذكروهما ، بل من جميع ما جاء به خلفاء بني أمية .

#### [ ٢٥ - رد هاشم على ادعاء أمية الحلم ]

وأما ما ذكرتم من حلم معاوية فلو شئنا أن نجعل جميع ساداتنا حلماً لكانوا محتملين لذلك ، ولكن الوجه في هذا أن لا يشتق للرجل اسم إلا من أشرف أعماله وأكرم أخلاقه ، وإلا أن يبين بذلك عند أصحابه حتى يصير بذلك اسماً يسمى به ويصير معروفاً به كما عرف الأحنف بالحلم ، وكما عرف حاتم بالجود ، وكذلك هرم ، قالوا : هرم الجواد ؟ ولو قلتم كان أبو العاص بن أمية أحلم الناس لقلنا ولعله يكون قد كان حليماً ولكن ليس كل حلم يكون صاحبه

به مذكوراً ومن أشكاله بائناً . وإنكم لتظلمون خصومكم في تسميتكم معاوية بالحلم ، فكيف من دونه ؟ لأن العرب تقول : أحلم الحلمين أن لا يتعرض ثم يحلم . ولم يكن في الأرض رجل أكثر تعرضاً من معاوية ؟ والتعرض هو السفه . فإن ادعيتم أن الأخبار التي جاءت في تعرضه كلها باطل ، إن لقائل أن يقول : وكل خبر رويتموه في حلمه باطل ! ولقد شهر الأحنف بالحلم ولكنه تكلم بكلام كثير يجرح في الحلم ويثلم في العرض . ولا يستطيع أحد أن يحكي عن العباس بن عبد المطلب ولا عن الحسن بن علي بن أبي طالب لفظاً فاحشاً ولا كلمة ساقطة ولا حرفاً واحداً مما يحكى عن الأحنف ومعاوية ! وكان المأمون أحلم الناس ، وكان عبد الله السفاح أحلم الناس . وبعد ، فمن يستطيع أن يصف هاشماً أو عبد المطلب بالحلم دون غيره من الأخلاق والأفعال حتى يسميه بذلك ويخصه به دون كل شيء فيه من الفضل ؟ وكيف وأخلاقهما متساوية وكلها في الغاية ؟ ولو أن رجلاً كان أظهر الناس زهداً وأصدقهم للعدو لقاء وأصدق الناس لساناً وأجود الناس كفاً وأفصحهم منطقاً وكان بكل ذلك مشهوراً ، لمنع بعض ذلك من بعض ولما كان له إلا اسم السيد المقدم والكامل المعظم ، ولم يكن الجود أغلب على اسمه ، ولا البيان ولا النجدة .

#### [ ٢٦ - رد هاشم على ادعاء أمية الخطابة ]

وأما ما ذكرتم من الخطابة والفصاحة والسؤدد والعلم بالأدب والنسب ، فقد علم الناس أن بني هاشم في الجملة أرق السنة من بني أمية . كان أبو طالب والزيير شاعرين ، وكان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب شاعراً . ولم يكن في أولاد أمية بن عبد شمس لصلبه شاعر ، ولم يكن في أولاد أمية إلا أن تعدوا في الإسلام العرجى من ولد عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن الحكم . فنعد نحن الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب ، وعبد الله بن معاوية بن عبد الله ابن جعفر . وإن عددتم الخطابة والبيان والفصاحة لم تعدوا كعلي بن أبي طالب ولا كعبد الله بن العباس . ولنا من الخطباء : زيد بن علي بن الحسين ، وعبد

الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ، وجعفر بن الحسين بن الحسن ، وداود بن علي بن عبد الله بن العباس وداود وسليمان ابنا جعفر بن سليمان . قالوا : كان جعفر بن الحسين ابن الحسن ينازع زيد بن علي بن الحسين في الرصيفة ، وكان الناس يجتمعون ليستمعوا محاورتهما ، وكان سليمان بن جعفر بن سليمان بن علي والي مكة ، فكان أهل مكة يقولون : لم يرد علينا أمير إلا وسليمان أبين منه قاعداً ، وأخطب منه قائماً . وكان داود إذا خطب اسحتفر فلم يبرده شيء . قالوا : ولنا عبد الملك بن صالح بن علي ، كان خطيباً بليغاً ، وسأله الرشيد - وسليمان بن أبي جعفر وعيسى بن جعفر حاضران - فقال له كيف رأيت أرض كذا ؟ قال : ماء في ربح ومنابت شبح . قال : فأرض كذا ؟ قال : هضبات حمر وربوات عُقر . حتى أتى علي جميع ما سأله عنه . فقال عيسى لسليمان : والله ما ينبغي لنا أن نرضى لأنفسنا بالدون من الكلام .



[ ٢٧ - رد هاشم على ادعاء أمية الورع ]

قالوا : وأما ما ذكرتم من نساك الملوك ، فلنا علي بن أبي طالب ، ويزهده وبيدنه يضرب المثل . وإن عددتم النساك من غير الملوك ، فأين أنتم عن علي بن الحسين زين العابدين الذي كان يقال له : علي الخبير وعلي الآخر وعلي العابد ، وما أقسم على الله بشيء إلا وأبر قسمه ؟ وأين أنتم عن علي بن عبد الله بن العباس ؟ وأين أنتم عن موسى بن جعفر بن محمد ؟ وأين أنتم عن علي بن محمد الرضا ، لابس الصوف طول عمره مع سعة أمواله وكثرة ضياعه وغلاته ؟

وأما ما ذكرتم من الفتوح ، فلنا الفتوح المعتصمية التي سارت بها الركبان وضربت بها الأمثال ، ولنا فتوح الرشيد ، ولنا الأثار الشريفة في قتل بابك الخرمي بعد أن دامت فنته في دار الإسلام نحو ثلاثين سنة .

[ ٢٨ - رد هاشم على ادعاء أمية الفقه ]

فأما الفقه والعلم والتفسير والتأويل ، فلإن ذكرتموه لم يكن لكم فيه أحد

وكان لنا فيه مثل علي بن أبي طالب ، وعبد الله بن العباس ، وزيد ومحمد ابني علي بن الحسين بن علي ، وجعفر بن محمد الذي ملأ الدنيا علمه وفقهه - ويقال إن أبا حنيفة من تلامذته وكذلك سفيان الثوري ، وحسبك بهما في هذا الباب ، ولذلك نسب سفيان إلى أنه زيدي المذهب وكذلك أبو حنيفة - ومن مثل علي بن الحسين زين العابدين ، وقال الشافعي في الرسالة في إثبات خبر الواحد : وجدت علي بن الحسين - وهو أفتق أهل المدينة - يعول على أخبار الأحاد . ومن مثل محمد بن الحنفية وإبنة أبي هاشم الذي قرر علوم التوحيد والعدل حتى قالت المعتزلة : غلبنا الناس كلهم بأبي هاشم الأول !

### [ ٢٩ - رد هاشم على ادعاء أمية البسالة ]

وإن ذكرت النجدة والبسالة والشجاعة ، فمن مثل علي بن أبي طالب ؟ وقد وقع اتفاق أوليائه وأعدائه على أنه أشجع البشر . ومن مثل حمزة بن عبد المطلب ، أسد الله وأسد رسوله ؟ ومن مثل الحسين بن علي ! قالوا يوم الطف : ما رأينا مكشوراً قد أفرد من إخوته وأهله وأنصاره أشجع منه ، كان كالليث المجرب يحطم الفرسان حطماً ، وما ظنك برجل أبت نفسه الدنية وأن يعطي بيده مقاتل حتى قتل هو وبنوه وإخوته وبنو عمه بعد بذل الأمان لهم والتوثيق بالآمان المغلظة ، وهو الذي سن للعرب الإباء واقتدى بعده أبناء الزبير وبنو المهلب وغيرهم . ومن لكم مثل محمد وإبراهيم ابني عبد الله ؟ ومن لكم مثل زيد بن علي ، وقد علمتم كلمته التي قالها حيث خرج من عند هشام : - ما أحب الحياة إلا من ذل . فلما بلغت هشاماً قال : خارج ورب الكعبة . فخرج بالسيف ونهى عن المنكر ودعا إلى إقامة شعائر الله حتى قتل صابراً محتسباً . وقد بلغتكم شجاعة بر إسحق المعتصم ووقوفه في مشاهد الحروب بنفسه حتى فتح الفتح الخليفة ، وبلغتكم شجاعة عبد الله بن علي وهو الذي أزال ملك بني مروان وشهد الحروب بنفسه . وكذلك صالح بن علي وهو الذي تبع مروان بن محمد إلى مصر حتى قنه .

[ ٣٠ - رد هاشم على ادعاء امية التواضع ]

قالوا : وإن كان الفضل والفخر في تواضع الشريف وإنصاف السيد وسجاجة الخلق ولين الجانب للعشيرة والموالي ، فليس لأحد من ذلك ما لبني العباس . ولقد سألتنا طارق بن المبارك - وهو مولى لبني أمية وصنيعة من صنائعهم - فقلنا : أي القبيلين أشد نخوة وأعظم كبرياء وجبرية ! ابنو مروان أم بنو العباس ؟ فقال : والله لبني مروان في غير دولتهم أعظم كبرياء من بني العباس في دولتهم . وقد كان أدرك الدولتين . ولذلك قال شاعرهم :

إذا تباينة من عبد شمس رأيت      يتية فسر شحمة لكل عظيم  
وإن تبا تبا سواهم فإئما      يتية بسوك أو يتية لبوم

ومن كلامهم : من لم يكن من بني أمية تباها فهو دعي .

قالوا : وإن كان الكبر مفخراً يمدح به الرجال ويعد من خصال الشرف والفضل ، فمولانا عمارة بن حمزة أعظم كبراً من كل أموي كان ويكون في الدنيا ، وأخباره في كبره وتبئه مشهورة متعالية .

[ ٣١ - رد هاشم على ادعاء امية الحسن ]

قالوا : وإن كان الشرف والفخر في الجمال والكمال وفي البسطة في الجسم وقام القوام ، فمن كان كالعباس بن عبد المطلب ! قالوا : رأينا العباس يطوف بالبيت وكأنه فسطاط أبيض . ومن مثل علي بن عبد الله بن العباس وولده ، وكان كل واحد منهم إذا قام إلى جنب أبيه كان رأسه عند شحمة أذنه ، وكانوا من أطول الناس ، وإنك لتجد ميراث ذلك اليوم في أولادهم . ثم الذي رواه أصحاب الأخبار وحال الآثار في عبد المطلب من التمام والقوام والجمال والبهاء ، وما كان من لقب هاشم بالشمر لجماله ولأنهم يستضيئون برأيه . وكثر رواد الناس

أن عبد المطلب ولد عشرة كان الرجل منهم يأكل في المجلس الجذعة ويشرب  
الفرق وترد أنفهم قبل شفاهم ، وأن عامر بن مالك لما رآهم يطوفون بالبيت  
كانهم جمال جون قال : بهؤلاء تمنع مكة وتشرف مكة ، وقد سمعتم ما ذكره  
الناس من جمال السفاح وحسنه ، وكذلك المهدي ، وابنه هرون الرشيد ، وابنه  
محمد بن زبيدة الى الواصل ، وكان الحسن بن علي أصبح الناس وجهاً ، كان يشبه  
برسول الله صلى الله عليه وسلم . وكذلك عبد الله بن الحسن المحض .

وقالوا : ولنا ثلاثة في عصر كلهم يسمى علياً ، وكلهم كان يصلح للخلافة  
بالفقه والنسك والمركب والرأي والتجربة والحال الرفيعة بين الناس : علي بن  
الحسين بن علي ، وعلي بن عبد الله بن العباس ، وعلي بن عبد الله بن جعفر .  
كل هؤلاء كان تاماً كاملاً بارعاً جامعاً . وكانت أباية بنت عبد الله بن العباس  
عند علي بن عبد الله بن جعفر . قالت : ما رأيته ضاحكاً قط ولا قاطباً ولا قال  
شيئاً احتاج إلى أن يعتذر منه ولا يضرب عبداً قط ولا ملكه أكثر من سنة .  
قالوا : وبعد هؤلاء ثلاثة بنو عم ، وهم بنو هؤلاء الثلاثة ، وكلهم يسمى  
محمداً ، كما أن كل واحد من أولئك يسمى علياً ، وكلهم يصلح للخلافة بكرم  
النسب وشرف الخصال : محمد بن علي بن الحسين بن علي ، ومحمد بن  
علي بن عبد الله بن العباس ومحمد بن علي بن عبد الله جعفر ، قالوا : كان محمد  
ابن علي بن الحسين لا يسمع المبتلى الاستعاذة ، وكان ينهى الجارية والغلام أن  
يقولا للمسكين : يا سائل ، وهو سيد فقهاء الحجاز ، ومنه ومن ابنه جعفر تعلم  
الناس الفقه ، وهو الملقب بالباقر ، باقر العلم ، لقبه به رسول الله صلى الله عليه  
وسلم ولم يخلق بعد ، وبشر به ووعد جابر بن عبد الله برؤيته وقال : ستره طفلاً  
فإذا رأيته فأبلغه عني السلام ، فعاش جابر حتى رآه وقال له ما وصي به . وتوعد  
خالد بن عبد الله القسري هشام بن عبد الملك في رسالة له إليه وقال : والله إني  
لأعرف رجلاً حجازي الأصل شامي الدار عراقي الفوي ! يريد محمد بن علي بن  
عبد الله بن العباس .

[ ٣٢ - رد هاشم على مفاخرة امية بالنساء ]

وأما ما ذكرتم من أمر عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، فلإنا نذكر فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي سيدة نساء العالمين ، وأمها خديجة سيدة نساء العالمين ، وبعلها علي بن أبي طالب سيد المسلمين كافة ، وابن عمها جعفر ذو الجناحين وذو الهجرتين ، وابناهما حسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ، وجدها أبو طالب بن عبد المطلب أشد الناس عارضة وشكيمة وأجودهم رأياً وأشهمهم نفساً وأمنعهم لما وراء ظهره ، منع النبي صلى الله عليه وسلم من جميع قريش ثم بني هاشم وبني المطلب ، ثم منع بني إخوته من بني أخواته من بني مخزوم الذين أسلموا ، وهو أحد الذين سادوا مع الإقلال . وهو مع هذا شاعر خطيب . ومن يطبق أن يفاخر بني أبي طالب وأمهم فاطمة بنت أسد بن هاشم وهي أول هاشمية ولدت لهاشمي ، وهي التي ربه رسول الله في حجرها وكان يدعوها : أمي ، ونزل في قبرها وكان يوجب حقها كما يوجب حق الأم ؟ من يستطيع أن يسامي رجالاً ولدهم هاشم هجرتين من قبل أبيهم ومن قبل أمهم ؟ قالوا : ومن العجائب أنها ولدت أربعة كل منهم أسن من الآخر بعشر سنين : طالب وعقيل وجعفر وعلي . ومن الذي يعد من قريش أو من غيرهم ما يعده الطالبيون عشرة في نسق كل واحد منهم عالم زاهد ناسك شجاع جواد طاهر زاك ؟ فمنهم خلفاء ، ومنهم مرشحون ، ابن ابن ابن هكذا إلى عشرة . وهم : الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي . وهذا لم يتفق لبيت من بيوت العرب ولا من بيوت المعجم .

قالوا : فإن فخرتم بأن منكم اثنتين من أمهات المؤمنين : أم حبيبة بنت أبي سفيان وزينب بنت جحش ، فزينب امرأة من بني أسد بن خزيمه ادعيتموها بالهلف لا بالولادة ؟ وفيها رجل ولدته أمان من أمهات المؤمنين : محمد بن عبد الله بن الحسن المحض . ولدته خديجة أم المؤمنين ، وأم سلمة أم المؤمنين ، وولدتها مع ذلك فاطمة بنت الحسين بن علي ، وفاطمة سيدة نساء العالمين ابنة رسول

الله ، وفاطمة بنت أسد بن هاشم . وكان يقال : خير النساء الفواطم  
والعواتك . وهن أمهاته .

قالوا : ونحن إذا ذكرنا إنساناً قبيل أن نعد من ولده نأتي به شريفاً في  
نفسه مذكوراً بما فيه دون ما في غيره . قلتم : لنا عاتكة بنت يزيد ، وعاتكة في  
نفسها كامراً من عرض قريش ليس فيها في نفسها خاصة أمر تستوجب به  
المفاخرة . ونحن نقول : منا فاطمة ، وفاطمة سيدة نساء العالمين ، وكذلك أمها  
خديجة الكبرى . وإنما تذكران مع مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم اللتين  
ذكرهما النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر إحداهما في القرآن ، وهن المذكورات  
من جميع نساء العالم من العرب والعجم . وقلتم : لنا عبد الله بن يزيد بن عبد  
الملك بن مروان ، ولده سبعة من الخلفاء . وعبد الله هذا في نفسه ليس هناك .  
ونحن نقول : منا محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن  
هاشم ، كلهم سيد ، وأمه العالبة بنت عبد الله بن العباس ، وأخوته : داود  
وصالح وسليمان وعبد الله رجال كلهم أقر محجل ، ثم ولد الرؤساء إبراهيم  
الإمام وأخويه أبا العباس وأنا جعفر ومن جاء بعدهما من خلفاء بني العباس .  
وقلتم : منا عبد الله بن يزيد . وقلنا : منا الحسين بن علي سيد شباب أهل الجنة  
وأولى الناس بكل مكرمة وأطهرهم طهارة ، مع النجدة والبصيرة والفقه والصبر  
والحلم والأنف ، وأخوه الحسن سيد شباب أهل الجنة وأرفع الناس درجة  
وأشبههم برسول الله خلقاً وخلقاً ، وأبوهما علي بن أبي طالب وهو الذي ترك  
وصفه أبلغ في وصفه ، وعمهما ذو الجناحين ، وأمهما فاطمة ، وجدتها خديجة ،  
وأخواتها : القاسم وعبد الله وإبراهيم ، وخالاتهما زينب ورقية وأم كلثوم ،  
وجدتاهما : آمنة بنت وهب والدة رسول الله ، وفاطمة بنت أسد بن هاشم ،  
وجدتهما رسول الله صلى الله عليه وسلم المخرس لكل مفاخر والغالب لكل منافر .  
قل ما شئت واذكر أي باب شئت من الفضل فإنك تجدهم قد حازوه .

[ ٣٣ - رد أمية على هاشم والدعوة الى التسوية ]

قالت أمية :

نحن لا ننكر فخر بني هاشم وفضلهم في الإسلام ، ولكن لا فرق بيننا في الجاهلية إذ كان الناس في ذلك الدهر لا يقولون : هاشم وعبد شمس ، ولا هاشم وأميه ، بل كانوا لا يزيدون في الجميع على عبد مناف ، حتى كان أيام تميزهم في أمر علي وعثمان في الشورى ، ثم ما كان في أيام تمزيهم وحريمهم مع علي ومعاوية . ومن تأمل الأخبار والآثار علم أنه ما كان يذكر فرق بين البيتين ، وإنما يقال : بنو عبد مناف . ألا ترى أن أبا قحافة سمع رجلة شديدة وأصواتاً مرتفعة - وهو يومئذ شيخ كبير مكفوف - فقال : ما هذا ! قالوا : قبض رسول الله . قال : فما صنعت قريش ؟ قالوا : ولوا الأمر ابنك . قال : ورضيت بذلك عبد مناف ؟ قالوا : نعم . قال : فلا مانع لما أعطى الله ولا معطى لما منع . . . ولم يقل أرضى بذلك بنو هاشم ، أرضى بذلك بنو عبد شمس ! وإنما جمعهم على عبد مناف . لأنه كذلك كان يقال . وهكذا قال أبو سفيان بن حرب لعلي وقد سخط إمارة أبي بكر : أرضيتم يا بني عبد مناف أن تلي عليكم تيم ؟ ولم يقل أرضيتم يا بني هاشم ! وكذلك قال خالد بن سعيد بن العاص حين قدم من اليمن وقد استخلف أبو بكر : أرضيتم معشر بني عبد مناف أن تلي عليكم تيم ؟

قالوا : وكيف يفرقون بين هاشم وعبد شمس وهما أخوان لأب وأم ! ويدل أن أمرهما كان واحداً وأن اسمهما كان جامعاً قول النبي صلى الله عليه وسلم وصنيعه حين قال : مناخير فارس في العرب عكاشه بن محصن . وكان أسدياً ، وكان حليفاً لبني عبد شمس - وكل من شهد بدرأ من بني كشير بن داود وكانوا حلفاء بني عبد شمس - فقال ضرار بن الأزور الأسدي : ذاك منا يا رسول الله ! فقال عليه الصلاة والسلام : بل هو منا بالحلف . فجعل حليف بني عبد شمس حليف بني هاشم . وهذا بين لا يحتاج صاحب هذه الصفة إلى أكثر منه . قالوا : ولهذا نكح هذا البيت في هذا البيت ، فكيف صرنا نتزوج بنات النبي وبنات بني

هاشم على وجه الدهر إلا ونحن أكفاء وأمرنا واحد ؟ وقد سمعتم إسحق بن عيسى يقول لمحمد بن الحارث أحد بني عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد : لولا حي أكرمهم الله بالرسالة لزعمت أنك أشرف الناس . أفلا ترى أنه لم يقدم علينا رهطه إلا بالرسالة ؟

[ ٣٤ - جواب هاشم الأخير : لا تسوية بيننا ]

قالت هاشم :

قلت : لولا أنا كنا أكفاءكم لما أنكحتمونا نساءكم . فقد نجد القوم يستوون في حسب الأب ويتفرقون في حسب الأنفس . وربما استووا في حسب أبي القبيلة كاستواء قريش في النضر بن كنانة ، ويختلفون كاختلاف كعب بن لؤى وعمر بن لؤى ، وكاختلاف أبناء قصي عبد مناف وعبد الدار وعبد العزي . والقوم قد يساوي بعضهم بعضاً في وجوه ويفارقونهم في وجوه ويستجيزون بذلك القدر منا كحمتهم وإن كانت معاني الشرف لم تتكامل فيهم كما تكاملت فيمن زوجهم . وقد يزوج السيد ابن أخيه وهو حارص بن حارص ، على وجه صلة الرحم فيكون ذلك جائزاً عندهم . ووجوه في هذا الباب كثيرة . فليس لكم أن تزعموا أنكم أكفاؤنا من كل وجه وإن كنا قد زوجناكم وساويناكم في بعض الأباء والأجداد

وبعد ، فأنتم في الجاهلية والإسلام قد أخرجتم بناتكم إلى سائر قريش وإلى سائر العرب : أفترعمون أنهم أكفاؤكم عينا بعين ؟

وأما قولكم إن الحيين كان يقال فيها عبد مناف . فقد كان يقال لها أيضاً مع غيرهما من قريش وبنوها : بنو النضر . وقال الله تعالى : ﴿ وَأَنْزِلْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ فلم يدع النبي صلى الله عليه وسلم أحداً من بني عبد شمس ، وكانت عشيرته الأقربون بني هاشم وبني عبد المطلب ، وعشيرته فوق ذلك عبد مناف ، وفوق ذلك قصي . ومن ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أتى بعبد

الله بن عامر بن كرز بن حبيب بن شمس ، وأم عامر بن كرز أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم قال : هذا أشبه بنا منه بكم . ثم تفصل في فيه فازدرده ، فقال : أرجو أن تكون مسقياً . فكان كما قال : ففي قوله : هو أشبه بنا منه بكم . خصلتان إحداهما أن عبد شمس وهاشماً لو كانا شيئاً واحداً كما أن بني عبد المطلب شيء واحد لما قال هو بنا أشبه به منكم . والأخرى إن في هذا النول تفضيلاً لبني هاشم على بني عبد شمس ، ألا ترون أنه خرج خطياً جواداً نبياً وسيداً مسقياً له مصانع وآثار كريمة ! لأنه قال : هو بنا أشبه به منكم ؟ . وأبي عبد المطلب بعامر بن كرز - وهو ابن ابنته أم حكيم البيضاء - فتأمله وقال : وعظام هاشم ما ولدنا ولداً أحرص منه . فكان كما قال . ولم يقل : وعظام عبد مناف . لأن شرف جده عبد مناف له فيه شركاء ، وشرف هاشم أبيه خالص له .

وأما ما ذكرتم من قول أبي سفيان وخالد بن سعيد : أرضيت معشر بني عبد مناف أن تلي عليكم تيم ؟ فهذه الكلمة كلمة تحريض وتهيج ، فكان الأبلغ فيما يريد من اجتماع قلوب الفريقين أن يدعوهم لأب وأن يجمعهم على واحد ، وإن كانا مفترقين . وهذا المذهب شديد وهذا التدبير صحيح . قال معاوية بن صعصعة للأشهب بن رميلة وهو نهشلي ، وللفرزدق بن غالب وهو مجاشعي ، ولمسكين بن أنيف وهو عبدلي : أرضيت معشر بني دارم أن يسب آباءكم ويشتم أعراضكم كلب بني كليب ؟ وإنما نسبهم إلى دارم الأب الأكبر المشتمل على آباء قبائلهم ليستروا في الحمية ويتفقوا على الأنف ، وهذا في مثل هذا الموضوع تدبير صحيح .

قالوا : ويدل على ما قلنا ما قاله الشعراء في هذا الباب قبل مقتل عثمان وقبل صفين . قال حسان بن ثابت لأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب :  
وَأَنْتَ مَنْسُوطٌ نَيْطٌ فِي آلِ هَاشِمٍ      كَمَا نَيْطٌ خُلْفَ الرَّايِبِ الْقُدْحِ الْفَرْدِ

ولم يقل : نيط في آل عبد مناف ! وقال آخر :

ما أنت من هاشمٍ في بيتٍ مكرمةٍ ولا بنى جمع الخضر الجلاء عبيد

ولم يقل : ما أنت من آل عبد مناف . وكيف يقولون هذا وقد علم الناس أن عبد مناف وُلِدَ أربعة : هاشماً والمطلب وعبد شمس ونوفلاً ؟ وأن هاشماً والمطلب كانا يداً واحدةً ، وأن عبد شمس ونوفلاً كانا يداً واحدةً . وكان مما حدث ببني نوفل عن الإسلام إبطاء إخوتهم من بني عبد شمس ، وكان مما حدث ببني المطلب على الإسلام فضل محبتهم لبني هاشم . لأن أمر النبي صلى الله عليه وسلم كان بينا ، وإنما كانوا يمتنعون منه من طريق الحسد والبغضة . فمن لم يكن فيه هذه العلة لم يكن له دون الإسلام مانع . ولذلك لم يصحب النبي صلى الله عليه وسلم من بني نوفل أحد ، فضلاً عن أن يشهدوا معه المشاهد الكريمة ، وإنما صحبه حلفاؤهم كيعل بن منبه ، وعتبة بن غزوان وغيرهما . وبنو الحارث بن المطلب كلهم بدري : عبيدة وطفيل وحصين . ومن بني المطلب : مطح بن أثانة بدري ؟ وكيف يكون الأمر كما قلتم وأبو طالب يقول لمطعم بن عددي بن نوفل في أمر النبي لما تمالات قريش عليه :

جَزَى اللهُ عَنَّا عَبْدَ شَمْسٍ وَنُوفَلًا      جَزَاءَ شَيْءٍ عَاجِلًا غَيْرَ آجِلٍ  
أُطْعِمُ إِذَا سَبَّانِي الْقَوْمُ خِطَّةً      فَإِنِّي مَتَى أُوَكَّلْتُ بِأَكْبَلِ  
أُطْعِمُ لَمْ أَخِذْكَ فِي يَوْمٍ شِدَّةٍ      وَلَا مَشْهَدٍ عِنْدَ الْأُمُورِ الْجَلِيلِ

ولقد قسم النبي صلى الله عليه وسلم قسمة فجعلها في بني هاشم وبني المطلب فأناه عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف وجبير بن مطعم بن عددي بن نوفل بن عبد مناف فقالا له : يا رسول الله إن قرابتنا منك وقرابة بني المطلب واحدة ، فكيف أعطيتهم دوننا ؟ فقال النبي : إنا لم نزل وبني المطلب كهاتين . وشبك بين أصابعه . فكيف تقولون كنا شيئاً واحداً ، وكان الاسم الذي يجمعنا واحداً ؟؟

قالت هاشم :

إن كان الفخر بالأيد والقوة واهتصار الأقران ومباطشة الرجال ، فمن أين

لكم كمحمد بن الحنفية ! وقد سمعتم أخباره وأنه قبض على درع فاضلة فجذبها فقطع ذيلها ما استدار منه كله . وسمعتم حديث الأيد القوي الذي أرسله ملك الروم إلى معاوية يفخر به على العرب ، وأن محمداً قعد له ليقبمه فلم يستطع فكأنما يحرك جبلاً ، وأن الرومي قعد ليقبمه محمد فرفعه فوق رأسه ثم جلد به الأرض . هذا مع الشجاعة المشهورة والفقه في الدين والحلم والصبر والفصاحة والعلم بالملاحم والإخبار عن الغيوب حتى ادعى له أنه المهدي . وقد سمعتم أحاديث أبي اسحق المعتصم وأن أحمد بن أبي دؤاد عض ساعده بأسنانه أشد العض فلم يؤثر فيه ، وأنه قال : ما أظن الأسنة ولا السهام تؤثر في جسده !؟ وإن كان الفخر بالبشر وطلاقة الأوجه وسجاجة الأخلاق ، فمن مثل علي بن أبي طالب ؟ وقد بلغ من سجاجة خلقه وطلاقة وجهه أن عيب بالدعابة . ومن الذي يسوى بين عبد شمس وهاشم في ذلك ! كان الوليد جباراً ، وكان هشام شرس الأخلاق ، وكان مروان بن محمد لا يزال قاطباً عابساً ، وكذلك كان يزيد بن الوليد الناقص . وكان المهدي بن المنصور أسرى خلق الله والطفهم خلقاً ، وكذلك محمد الأمين وأخوه المأمون . وكان السفاح يضرب به المثل في الشرو وسجاجة الخلق .

قالوا : ولنا من أفراد الرجال من ليس لكم مثله . منا يحيى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، كان شجاعاً [جريئاً] ، وهو الذي ولي الموصل لأخيه السفاح فاستمرض أهلها حتى ساخت الأقدام في الدم . ومنا يعقوب بن ابراهيم بن عيسى بن أبي جعفر المنصور ، كان شاعراً فصيحاً ، وهو المعروف بأبي الأسباط . ومنا محمد وجعفر ابنا سليمان بن علي ، كانا أعظم من ملوك بني أمية وأجل قدراً وأكثر أموالاً ومكاناً عند الناس . وأهدى محمد بن سليمان من البصرة إلى الخيزران مائة وصيفة في يد كل واحدة منهن جام من ذهب وزنه ألف مثقال مملوء مسكاً . وكان لجعفر بن سليمان ألفا عبد من السودان خاصة ، فكم يكون ليت شعري غيرهم من البيض ومن الإماء ! وما رؤى جعفر بن محمد راكباً قط إلا ظن أنه الخليفة . ومن رجالنا محمد بن السفاح ، كان جواداً أيدياً شديد

البطش . قالوا : ما رؤى أخوان أشد قوة من محمد وريطة أخته ولدى أبي العباس السفاح ، كان محمد يأخذ الحديد فيلويه فتأخذه هي فترده . ومن رجالنا محمد بن ابراهيم طباطبا صاحب أبي السرايا ، كان ناسكاً عابداً فقيهاً عظيم القدر عند أهل بيته وعند الزيدية . ومن رجالنا عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، وهو الذي شيد ملك المنصور وحارب ابني عبد الله بن حسن وأقام عمود الخلافة بعد اضطرابه ، وكان فصيحاً أديباً شاعراً . ومن رجالنا عبد الوهاب بن ابراهيم الامام ، حج بالناس وولي الشام ، وكان فصيحاً خطيباً . ومن رجالنا عبد الله بن موسى الهادي ، كان أكرم الناس ، وجواداً ممدحاً أديباً شاعراً . وأخوه علي بن موسى الهادي ، كان أكرم الناس وأجود الناس ، كان يلبس الثياب وقد حدد ظفره فيخرقها بظفره لثلاث تعاد إليه . وعبد الله بن احمد بن عبد الله بن موسى الهادي ، كان أديباً ظريفاً .

قالوا : وقلتم : لنا عاتكة بنت يزيد يكتنفها خمسة من الخلفاء . ونحن نقول : لنا زبيدة بنت جعفر يكتنفها ثمانية من الخلفاء : جدها المنصور خليفة ، وعم أبيها السفاح خليفة ، وعمها المهدي خليفة ، وابن عمها الهادي خليفة ، وبعلمها الرشيد خليفة ، وابنها الأمين خليفة ، وابنها المأمون والمعتمد خليفتان .

قالوا : وأما ما ذكرتم من الأعياص والعنابس ، فلسنا نصدقكم فيما زعمتموه أصلاً لهذه التسمية ، وإنما سموا الأعياص لمكان العيص ، وأبي العيص ، والعاص وأبي العاص . وهذه أسماءهم الأعلام ليست مشتقة من أفعال لهم كريمة ولا خسيمة . وأما العنابس . فأنما سموا بذلك لأن حرب بن أمية كان اسمه عنبة ، وأما حرب فلقبه . ولما كان حرب أمثلهم سموا جماعتهم باسمه فقيل « العنابس » كما يقال « المهالبة » و « المناذرة » ولهذا المعنى سمي أبو سفيان بن حرب : ابن عنبة . وسمى سعيد بن العاص : ابن عنبة .



وهذا آخر ما عثرت عليه من هذا الكتاب استخلصته بعد جهد وعناء .

## هامش كتاب فضل هاشم على عبد شمس

(١) يخلو الكتاب من المقدمة التقليدية التي نعدها في رسائل الجاحظ مما يدل على ان قسماً من الكتاب قد بتر .

- يعدد الجاحظ الوظائف التي كانت تضطلع بها بطون قريش في الجاهلية وهي اللواء والندوة والسقاية والرفادة وزمزم والحجابه . واللواء : تولى القيادة في الحرب ، والندوة : تولى الاجتماعات التي كانت تعقدتها قريش في دار الندوة للتداول في الامور . والسقاية : تولى امر سقي الحجاج الماء المحلى بالزبيب أثناء الموسم . والرفادة : تولى جمع المال من القرشيين لاطعام الحجاج . والحجابه والسدانة : تولى خدمة الكعبة .

(٢) المقارنة بين هاشم وأخيه عبد شمس وكلاهما ابنا عبد مناف . اشتهر هاشم بجماله حتى لقب بالقمر كما اشتهر بجوده واطعامه بني قومه الثريد في الأيام العجاف ومن ثم اشتهر لقبه . اما عبد شمس فهو على العكس وليس له لقب كريم ولا اشتهر من صالح اعماله اسم شريف .

(٣) عبد المطلب هو ابن هاشم وجد النبي محمد . وهو سيد وادي مكة واجل الناس واكرمهم . وهو صاحب كرامات لا تعرف الا للأنبياء منها الابتهاال الى الله أن ينصره على جيش الحبشة الذي عزم على الإناخة على مكة فاستجاب الله لدعائه ورمى الاحباش بطير اباييل ترميهم بحجارة من سجيل كما جاء في القرآن . وظهرت الكرامات على يدي عبد المطلب مهدت السيل لنسوة خفيده محمد . ومن كراماته تفجر العيون تحت اخفاف بعيره .

(٤) النبي محمد الهاشمي جمع ميزتين لا يضارعه فيها أحد : الرسالة وكرم الاخلاق .

(٥) إيلاف قريش المذكور في القرآن بدأه هاشم ودر على قريش الاموال الطائلة . وقد فر الجاحظ الايلاف على وجهين : الوجه الاول هو إتفاق هاشم مع ملوك اليمن

والشام والحبشة على الاشتراك في تسيير القوافل التجارية بين مكة واليمن والشام  
وضمنان عدم الاعتداء عليها . . . والوجه الثاني هو فرض ضرائب على قبائل قريش  
ليحتمى بها هاشم أهل مكة وقوافلهم التجارية من غارات سائر القبائل مثل طيء  
وقضاعة وختعم .

(٦) يلقي الجاحظ ضوءاً على حلف الفضول الذي قام به بنو هاشم وسمى حلف  
الفضول لفضله وفضيلته . وقد تعاقد أفضاخ هاشم : بنو المطلب ، وبنو اسد ،  
وبنو زهرة ، وبنو تيم بن مرة في دار عبد الله بن جدعان على احقاق الحق ونصرة  
المظلوم والضرب على ايدي الظالم ، سواء كان قريباً او غريباً . وكان الزبير بن عبد  
المطلب هو الذي دعا الى قيام ذلك الحلف .

(٧) حرب الفجار جرت بين قريش وعامر في زمن الزبير بن عبد المطلب عم النبي .  
وقد شهد النبي المعركة اذ كان ينبل فيها على عمومته . وسميت بذلك لان عامر  
هي التي فجرت .

(٨) يقابل هذه المكارم الهاشمية مخازي امية . فامية كان مضعوفاً وصاحب عهار  
( تعرض لامرأة من بني زهرة فضربه احداهم بالسيف ، فلم يستطع قومه الشار  
له ) . وابنه حرب كان مقيتاً ( اي تزوج امرأة ابيه امية في حياته ) والمقيتون هم  
الذين ينكحون نساء اباؤهم بعد موتهم . وابو سفيان بن حرب ضربت عنق حليفه  
ابي الازهر الدوسي الازدي ولم يدرك به قوداً .

(٩) مقارنة بين خلفاء بني هاشم العباسيين امثال المنصور والرشيد والمعتمد والواثق ،  
وخلفاء امية امثال مروان بن الحكم ومعاوية وبزيد وعبد الملك الخ . . . تبين  
عظمة العباسيين وقدرتهم وضعف الامويين .

(١٠) الهاشميون احق بالخلافة من الامويين لانهم ملكوا بالميراث وحق العصبة  
والعمومة ، اما الامويون فملكوا لانهم قرشيون ، وفي هذا يفضلهم العلويون الذين  
ادعوا الملك بسبب القرابة السابقة والوصية ، ويفضلهم العباسيون الذين اعتمدوا  
السوراة ، ويسبقهم سائر القرشية ، اذا كان الملك لا ينال الا بالسوابق والأعمال  
والجهاد .

والجاحظ يلخص هنا مختلف الدعوي بالامامة او الخلافة التي كان ينادي بها كل  
من العلويين والعباسيين وغيرهم .

(١١) يعدد الجاحظ اعمال بني امية وجورهم على بني هاشم ، ابتداء من محاربة علي ،  
الى سم الحسن ، وقتل الحسين ، وسم ابي هاشم عبد الله بن محمد بن علي بن ابي  
طالب ، وضرب الكعبة وتغيير موعد الصلاة . وقد وردت معظم هذه التهم في

رسالة النابتة التي نشرناها ضمن رسائل الجاحظ الكلامية . وقد كررها الجاحظ هنا  
لتركيز عليها والتذكير بها .

(١٢) انتزاع العباسيين الملك من بني امية بفضل شجاعتهم وحنكتهم . وقد تولى ولد  
العباس بانفسهم الحرب امثال عبد الله بن علي ، وصالح بن علي ، وداود بن  
علي ، وعبد الصمد بن علي ، والمنصور . وفي هذا اسقاط للدعوة التي تقول ان  
الفرس هم الذين اسقطوا دولة الامويين .

(١٣) خصال هاشم في الاسلام هو القسم الثاني من الكتاب . والقسم الاول خصصه  
كما رأينا للكلام على خصال هاشم في الجاهلية .  
- وقد بدأه بالفخر بكثرة العدد . واورد ابياتاً في الشعر تبين تعظيم العرب لكثرة  
العدد وتعتبره شرفاً .

(١٤) الفخر بالحكمة اي نبل الرأي وصواب القول ، وقد ذكر من ابواب الحكمة الفقه  
والعلم والتأويل ومعرفة التنزيل والقياس والخطابة . واشتهر بها عبد الله بن عباس  
وعلي بن ابي طالب .

(١٥) الفخر بالبسالة أي الشجاعة والنجدة وقتل الأقران وجزر الفرسان وقد اشتهر فيها  
حمزة عم النبي وعلي بن ابي طالب .

(١٦) الفخر بالكرم أي الفضل في الجود والسماح ، وقد عرف به عبد الله بن جعفر  
وعبيد الله بن العباس .

١٧ - مفاخر أمية في الدهاء والحروب والعلم والشعر :

يذكر الجاحظ من انجبتهم امية في هذه الميادين . فمن الدهاة معاوية بن ابي  
سفيان ، وزيد ابن ابيه ، ومن الشعراء والخطباء يزيد بن معاوية والوليد بن يزيد  
ومروان بن الحكم وابنه عبد الرحمن وبشر بن مروان . وفي العلم نبخ خالد بن  
يزيد الذي ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء . وفي الشجاعة نبخ العباس بن  
الوليد بن عبد الملك ، ومروان بن محمد وعبد الملك بن مروان .

(١٨) مفاخر بني أمية في النسك والورع : يقدم الجاحظ لائحة باسماء عدد من النسك  
الورعين امثال معاوية بن يزيد بن معاوية ، وسليمان بن عبد الملك ، وعمير بن  
عبد العزيز وابنه عبد الملك .

(٢٠) فخر امية بالجمال طريف ، ويذكر منهم المديح والديباج والمطرف عبد الله بن  
عمرو بن عثمان .

(٢١) مفاخر امية قبل الاسلام : لا ينسى الجاحظ مفاخر الامويين قبل الاسلام رداً على  
مفاخر الهاشميين قبل الاسلام لتتم الموازنة . وامية تفتخر قبل الاسلام بجلودها

امثال حرب بن امية رئيس يوم الفجار ، وابي سفيان بن حرب رئيس احد والخندق  
وسيد قريش كلها في زمانه . وقد سموا بالعنابس لانها اسماء الاسود ، وسموا  
بالاعياص لانها اسماء الاصول .

(٢٢) رد هاشم على ادعاءات امية في الدهاء والحلم والخطابة والورع والفقہ والبسالة  
والتواضع والجمال والنساء يتضمن تعداد رجالات هاشم الذين اشتهروا بهذه  
الصفات وتفوقهم على رجالات عبد شمس . ومعظمه تكرر لما سبق .

(٢٣) رد أمية على هاشم ودعوتهما الى التسوية ووقف التنافس لانها ابناء عمومة ولا  
فضل لاحدهما على الآخر .

(٢٤) رد هاشم الأخير : لا تسوية بيننا .



مركز بحوث كميوتري علوم سعودي





مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

قال أبو عثمان :

وقد زعم أناس أن الدليل على صدق خبرهما ( يعني أبا بكر وصهر ) في منع الميراث وبراءة مساحتها ، ترك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم النكير عليها . ا قد يقال لهم : لئن كان ترك النكير دليلاً على صدقها ، إن ترك النكير على المتظلمين والمحتجين عليها والمطالبين لها دليل على صدق دعوهم أو استحسان مقالتهم ، ولا سيما وقد طالت المناجاة وكثرت المراجعة والملاحاة ، وظهرت الشكية واشتدت الموجدة . وقد بلغ ذلك من فاطمة أنها أوصت أن لا يصلي عليها أبو بكر . ولقد كانت قالت له حين أتته مطالبة بحقها ومحنة لرملها : من يرثك يا أبا بكر إذا مت ؟ قال : أهلي وولدي . قالت : فما بالنا لا نرث النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فلما منعها ميراثها وبخسها حقها واحتل عليها وجلع أمرها وهابنت التهضم وأبست في التورع ووجدت نشوة الضعف وقلة الناصر قالت : والله لأدعون الله عليك . قال : والله لأدعون الله لك . قالت : والله لا كلمتك أبداً . قال : والله لا أمجرك أبداً . فان يكن ترك النكير على أبي بكر دليلاً على صواب منعها ، إن في ترك النكير على فاطمة دليلاً على صواب طلبها ؟ وأنى ما كان يجب عليهم في ذلك تعريفها ما جهلت وتذكيرها ما نسيت وصرافها عن الخطأ ورفع قدرها عن البذاء وأن تقول مُجراً ونجوراً عادلاً أو تقطع واصلاً ؟ فإذا لم نجد لهم أنكروا على الخصمين جميعاً فقد تكافأت الأمور واستوت الأسباب . والرجوع إلى أصل حكم الله في الموارث أولى بنا وبكم ، وأوجب علينا وعليكم .

فان قالوا : كيف تظن به ظلمها والتعدي عليها ، وكلما ازدادت عليه غلظة ازداد لها ليناً ورقة ، حيث تقول له : والله لا أكلمك أبداً فيقول والله لا أهجرك أبداً . ثم تقول والله لأدعون الله عليك فيقول والله لأدعون الله لك . ثم يتحمل منها هذا الكلام الغليظ والقول الشديد في دار الخلافة وبحضرة قريش والصحابة مع حاجة الخلافة إلى البهاء والتنزيه وما يجب لها من الرفعة والهيبة ، ثم لم يمنعه ذلك أن قال معتزلاً متقرباً كلام المعظم لحقها ، المكبر لمقامها الصائن لوجهها ، المتحنن عليها . ما أحد أعز عليّ منك فقراً ، ولا أحب إليّ منك غنى ! ولكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه فهو صدقة » ؟ .

قيل لهم : ليس ذلك بدليل على البراءة من الظلم والسلامة من الجور ، وقد يبلغ من مكر الظالم ودهاء الماكر إذا كان أريباً وللخصومة معتاداً أن يظهر كلام المظلوم وذلة المتصف وحبوب السوامق ومقة المحق . وكيف جعلتم ترك النكير حجة قاطعة ودلالة واضحة وقد زعمتم أن عمر قال على منبره : متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، متعة النساء ومتعة الحج ، أنا أنهى عنها وأعاقب عليها ، فما جعلتم أحداً أنكر قوله ولا استثنع مخرج نبيه ولا خطئه في معناه ولا تعجب منه ولا استفهمه ؟ وكيف تفضون بترك النكير ، وقد شهد عمر يوم السقيفة وبعد ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الأئمة من قريش » . ثم قال في شكاته : لو كان سالم حياً ما تخالفتي فيه شك . حين أظهر الشك في استحقاق كل واحد من الستة الذين جعلهم شورى ! وسالم عبد لامرأة من الأنصار وهي أعتقت وحازت ميراثه . ثم لم ينكر ذلك من قوله منكر ولا قابل إنسان بين قوله ولا تعجب منه ! وإنما يكون ترك النكير على من لا رغبة ولا رهبة عنده دليلاً على صدق قوله وصواب عمله ، فأما ترك النكير على من يملك الضعة والرفعة والأمر والنهي والقتل والاستحياء والحبس والإطلاق ، فليس بحجة تشفى ولا دلالة تضيء .

وقال آخرون : بل الدليل على صدق قولها وصواب عملها إمساك

الصحابة عن خلعهما والخروج عليهما ، وهم الذين وثبوا على عثمان في أيسر من  
جحد التنزيل ورد النصوص ، ولو كان كما تقولون وما تصفون ما كان سبيل  
الامة فيها إلا كسبيلها فيه ، وعثمان كان أمز نفراً ، وأشرف رهطاً ، وأكثر عدداً  
وثررة وأقوى عدة ؟

قلنا : إنها لم ييحدنا التنزيل ولم ينكرا النصوص ، ولكنها بعد اقرارهما  
بحكم الميراث وما عليه الظاهر من الشريعة ، ادعيا رواية وتحدثا بحديث لم يكن  
محالاً كونه ولا ممتنعاً في حجج العقول مجيئه ، وشهد لها عليه من عكته مثل علتها  
فيه ، ولعل بعضهم كان يرى تصديق الرجل إذ كان عدلاً في رهطه مأموناً في  
ظاهره ، ولم يكن قبل ذلك عرفه بفجرة ولا جرب عليه غدرة ، فيكون تصديقه  
له على جهة حسن الظن وتعديل الشاهد ، ولأنه لم يكن كثير منهم يعرف حقائق  
الحجج والذي يقطع بشهادته على الغيب ، وكان ذلك شبهة على أكثرهم .  
فلذلك قلّ النكير وتواكل الناس فاشتبه الأمر فصار لا يتخلص إلى معرفة حق  
ذلك من باطله إلا العالم المتقدم ، أو المؤيد المرشد . ولأنه لم يكن لعثمان في  
صدر العوام وقلوب السفلة والعلغام ما كان لها من المحبة والهيبة ، ولأنها كانا  
أقل استئثاراً بالفيء وتفضلاً بجمال الله منه . ومن شأن الناس إهمال السلطان ما  
وفر عليهم أموالهم ولم يستأثر بخراجهم ولم يعطل ثغورهم ، ولأن الذي صنع أبو  
بكر من منع العترة حفيها والعمومة ميراثها قد كان موافقاً لجلة قريش وكبراء  
العرب ، ولأن عثمان أيضاً كان مضعوقاً في نفسه مستخفاً بقدره لا يمنع ضيماً ولا  
يقمع عدواً ، ولقد وثب ناس على عثمان بالشتم والقذع والتشنيع والنكير لأموار  
لو أن أضعافها وبلغ أقصاها لما اجترأوا على اغتيابه فضلاً على مباداته والإغراء به  
ومواجهته ، كما أغلظ عيينة بن حصن له فقال له : أما لو كان عمر لقمعك  
ومنعك ! فقال عيينة : إن عمر كان خيراً لي منك ، رهيني فاتقاني وأعطاني  
فاغثاني .

والعجب أنا وجدنا جميع من خالفنا في الميراث على اختلافهم في التشبيه  
والقدر والوعيد يرد كل صنف منهم من أحاديث مخالفيه وخصومه ما هو أقرب

إستناداً وأصح رجلاً وأحسن اتصالاً ، حتى إذا صاروا إلى القول في ميراث النبي  
صلى الله عليه وسلم نسخوا الكتاب وخصوا الخبر العام بما لا يداني بعض ما  
ردوه وأكثروا قائله ، وذلك أن كل إنسان منهم إنما يجرى إلى هواه ويصدق ما  
وافق رضاه .



مركز بحوث الكمبيوتر علوم إرسودي



مناقب الترك  
سیدی



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

[ ١ - مقدمة ]

وَفَقَّكَ اللهُ لِرَشْدِكَ ، وَأَعَانَ عَلَى شُكْرِكَ ، وَأَصْلَحَكَ وَأَصْلَحَ عَلَى يَدَيْكَ ،  
وَجَعَلْنَا وَإِيَّاكَ مِمَّنْ يَقُولُ بِالْحَقِّ وَيَعْمَلُ بِهِ ، وَيُؤَثِّرُهُ وَيَحْتَمِلُ مَا فِيهِ [ مِمَّا قَدْ بَصَلَتْهُ  
عَنْهُ ] ، وَلَا يَكُونُ حَظُّهُ مِنْهُ الْوَصْفَ لَهُ وَالْمَعْرِفَةَ بِهِ ، دُونَ الْحَثِّ عَلَيْهِ وَالْإِنْقِطَاعِ  
إِلَيْهِ ، وَكُشْفِ الْبِنَائِعِ فِيهِ ، [ وَيُصَالُهُ إِلَى أَهْلِهِ ، وَالصَّبْرِ عَلَى الْمُحَافِظَةِ فِي الْأَمْرِ  
يَصِلُ إِلَى غَيْرِهِمْ ، وَالتَّثْبِيتِ فِي تَحْقِيقِهِ لِنَدِيمِهِ ] ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَعْلَمْ النَّاسَ  
لِيَكُونُوا عَامِلِينَ دُونَ أَنْ يَكُونُوا عَامِلِينَ ، بَلْ عَلَّمَهُمْ لِيَعْمَلُوا ، وَبَيْنَ أُمَّمٍ لِيَتَّقُوا  
التَّوَرُّطَ فِي وَسْطِ الْخُوفِ ، وَالْوُقُوعَ فِي الْمَضَارِّ ، وَالتَّوَسُّطَ فِي الْمَهَالِكِ .

[ فَلِلذَلِكَ ] طَلِبَ النَّاسُ التَّبَيُّنَ ، وَحُبَّ السَّلَامَةِ مِنَ الْهَلَكَةِ ، وَالرُّغْبَةَ فِي  
الْمَنْفَعَةِ ، أَحْتَمَلُوا ثِقَلَ الْعِلْمِ ، وَتَعَجَّلُوا مَكْرُوهُ الْمَعَانَةِ . وَلَقَلَّ الْعَامِلِينَ وَكَثُرَةَ  
الْوَاصِفِينَ [ قَالَ الْأَوَّلُونَ : الْعَارِفُونَ أَكْثَرُ مِنَ الْوَاصِفِينَ ، وَالْوَاصِفُونَ أَكْثَرُ مِنَ  
الْعَامِلِينَ . وَإِنَّمَا ] كَثُرَتِ الصِّفَاتُ وَقَلَّتِ الْمَوْصُوفَاتُ ، لِأَنَّ ثَوَابَ الْعَمَلِ مُؤَجَّلٌ ،  
وَاحْتِمَالُ مَا فِيهِ مُعَجَّلٌ .

[ ٢ - أهداء السلطان ]

وقد أعجبني ما رأيت من شغفك بطاعة إمامك ، والمحامسة لتدبير

خليفتك ، وإشفاقك من كل غلّ وغلّة دخل على ملكه وإن دق ، ونال سلطانه وإن صغر ، ومن كل أمر خالفه وإن خشي مكانه ، وجانب وإن قل ضرره ، ومن تخوفك أن يجد المتأول إليه طرفاً والعدو عليه متعلقاً ، فإن السلطان لا يخلو من متأولٍ ناقم ، ومن محكوم عليه ساخط ، ومن معدول عن الحكم زار ، ومن متعطل متصفح ، ومن معجب برأيه ذي غطلٍ في بيانه ، مولع بتهجين الصواب ، وبالاغتراس على التدبير ، حتى كأنه رائد لجميع الأمة ، ووكيل لسكان جميع المملكة ، يضع نفسه في موضع الرقباء ، وفي موضع التصفح على الخلفاء والوزراء ؛ لا يعير وإن كان مجاز العذر واضحاً ، ولا يقف فيها يكون للشك محتملاً ، ولا يصدق بأن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، وأنه لا يعرف مصادر الرأي من لم يشهد موارده ، ومستدبره من لم يعرف مستقبله . وبين محروم قد أضغنه الحرمان ، ومن لثيم قد أفسده الإحسان . ومن مستبطن قد أخذ أضعاف حقه ، وهو لجهله بقدره ، ولضييق ذرعه وقلة شكره ، يظن أن الذي بقي له أكثر ، وأن حقه أوجب . ومن مستزبد لو ارتجع السلطان سالف أياديه البيض عنده ، ونعمه السالفة عليه ، لكان لذلك أهلاً ، وله مستحقاً . قد غرّه الإملاء ، وأبطره دوام الكفاية ، وأفسده طول الفراغ . ومن صاحب فتنة خامل في الجماعة ، رئيس في الفرقة ، نفاق في المرح ، قد أقصاه السلطان ، وأقام صفوه بقاء الأدب ، وأذله الحكم بالحق ، فهو مغيب لا يجد غير التشنيع ، ولا يتشفي بغير الإرجاف ، ولا يستريح إلا إلى الأمان ، ولا يأنس إلا بكل مرجف كذاب ، ومفتون مرتاب ، وخارص لا خير فيه ، وخالف لا غناة عنده ، يريد أن يسوى بالكفاية ، ويرفع فوق الحمأة ؛ الأمر [ ما ] سلفت له ، وإحسان كان من غيره ، وليس ممن يربّ قديماً بحدث ، ولا يفضل بذروس شرف ، ولا يفصل بين ثواب المحتسين ، وبين الحفظ لأبناء المحسنين .

وكيف يعرف فرق ما بين حق الذمام وثواب الكفاية ، من لا يعرف طبقات الحق في مراتبه ، ولا يفصل بين طبقات الباطل في منازلها .

ثم أعلمتني بذلك أنك بنفسك بدأت في تعظيم امامك ، والحفظ لمنائب

أنصار خليفتك ، وإيهاما حُطت بحماطتك لأشياحه ، واحتجاجك لأولياكه . ونعم  
العون أنت إن شاء الله على ملازمة الطاعة ، والموازرة على الخير ، والمكانفة لأهل  
الحق .

وقد استدلتُ بالذي أرى من شِدَّةِ عنيتك ، وفرطِ اكترائك ، وتفقدك  
لأخبار الأعداء وبحثك عن مناقب الأولياء ، على أن ما ظهر من نصحك أُمَّم ،  
في جنب ما بطن من إخلاصك .

فامتع الله بك خليفته ، ومنحنا وإياك محبته ، وأعادنا وإياك من قول  
الزور ، والتقرب بالباطل ، إنه حميد مجيد ، فعَالَ لما يريد .

### [ ٣ - أقسام جند الخلافة الخمسة ]

وذكرت أبقاك الله أنك جالست أخلاقاً من جُند الخلافة ، وجماعة من أبناء  
الدعوة ، وشيوخاً من جِلَّةِ الشَّيعة ، وكهولاً من أبناء رجال الدولة ، والمنسويين  
إلى الطاعة والمناصحة ، [ والمحبة ] الدينية ، دون محبة الرغبة والرغبة ، وأن رجلاً  
من عُرض تلك الجماعة ، ومن حاشية تلك الجِلَّةِ ارتجمل الكلام ارتجالاً مستبداً ،  
وتفرد به تفرداً مُعجَب ، وأنه لم يستامر زعماءهم ، ولم يراقب خطباءهم ، وأنه  
تعسف المعاني وتمهجم على الألفاظ ، وزعم أن جُند الخلافة اليوم على خمسة  
أقسام : خراساني ، وتركمي ، وموولي ، وعربي ، وبنسوي . وأنه أكثر من حمد الله  
وشكروه على إحسانه وبنته ، وعلى جميع أباديه وسابغ نعمه ، وعلى شمول عافيته  
وجزيل مواهبه ، حين ألف على الطاعة هذه القلوب المختلفة ، والأجناس  
المتباينة ، والأهواء المتفرقة . وأنت اعترضت على هذا المتكلم المستبد ، وعلى هذا  
القائل المتكلف ، الذي قسم هذه الأقسام ، وخالف [ بين ] هذه الأركان ،  
ولفصل بين أنسابهم ، وفرق بين أجناسهم ، وباعد بين أسبابهم .

[ ٤ - لا فرق بين الخراساني والتركي ]

وأنك أنكرت ذلك عليه أشد الإنكار ، وقذعته أشد القذع ، وزعمت أنهم لم يخرجوا من الأتفاق أو من شيء يقرب من الأتفاق . وأنك أنكرت التباعد في النسب ، والتباين في السبب . وقلت : بل أزعِم أن الخراساني والتركي أخوان ، وأن الحمير واحد ، وأن [ حكم ذلك الشرق ، والقضية على ] ذلك الصقع متفق غير مختلف ، ومتقارب غير متفاوت . وأن الأعراق في الأصل إن لا تكن [ كانت ] راسخة فقد كانت متشابهة ، وحدود البلاد المشتملة عليهم إن لا تكن متساوية فإنها متناسبة ؛ وكلهم خراساني في الجملة وإن تميزوا ببعض الخصائص ، فافترقوا ببعض الوجوه .

وزعمت أن اختلاف التركي والخراساني ليس كالاختلاف بين العجمي والعربي ، ولا كالاختلاف بين الرومي والصقلبي ، والزنجي والحبشي ، فضلاً عما هو أبعد جوهرأ وأشد خلافاً . بل كاختلاف ما بين المكي والمدني ، والبدوي والحضري ، والسهلي والجبلي ، وكاختلاف ما بين الطائي الجبلي والطائي السهلي ، وكما يقال : أن هذيلاً أكراد العرب ، وكاختلاف ما بين من نزل البطلون وبين من نزل الحزون ، وبين من نزل النجود وبين من نزل الأغوار .

[ ٥ - العرب أمة واحدة ]

وزعمت أن هؤلاء وإن اختلفوا في بعض اللغات ، وفارق بعضهم بعضاً في بعض الصور ، فقد تحالفت عليها تميم ، وسفلى قيس ، وعَجُز هوازن وفصحاء الحجاز ، في اللغة ، وهي في أكثرها على خلاف لغة حمير ، وسكان تحاليف اليمن ، وكذلك في الصورة والشمايل والأخلاق . وكلهم مع ذلك عربٌ خالص ، غير مشوب ولا مقلهج ولا مذرع ولا مزئج . ولم يختلفوا اختلاف ما بين بني قحطان وبني عدنان ، من قبل ما طبع الله عليه تلك البرية من خصائص

الغرائز ، وما قسم الله تعالى لأهل كل جيزة من الشكل والصورة ومن الأخلاق  
واللغة .

فإن قلت : فكيف كان أولادهما جميعاً عربياً مع اختلاف الأبوة .

قلنا : إن العرب لما كانت واحدة فاستورا في التربة وفي اللغة ، والشماثل  
والهمة ، وفي الأنف والحمية ، وفي الأخلاق والسجية ، فسبكوا سبكاً واحداً ،  
وأفرغوا إفراغاً واحداً ، وكان القلب واحداً ، تشابهت الأجزاء وتساويت  
الأخلاق ، وحين صار ذلك أشد تشابهاً في باب الأعم والأخص وفي باب الوفاق  
والمباينة من بعض ذوي الأرحام ، جرى عليهم حكم الاتفاق في الحسب ،  
وصارت هذه الأسباب ولادة أخرى حتى تناكحوا عليها ، ونصافروا من أجلها ،  
وامتنعت عدنان قاطبة من مناكحة بني إسحاق وهو أخو إسماعيل ، وجاءوا بذلك  
في جميع الدهر لبني قحطان - وهو ابن عابر - ففي إجماع الفريقين على التناكح  
والمصاهرة ، ومنعها من ذلك جميع الأمم : كسرى فمن دونه ، دليل على أن  
النسب عندهم متفق ، وأن هذه المعاني قد قامت عندهم مقام الولادة والأرحام  
المأسة .

[ ٦ - البتوي خراساني ]

وزعمت أنه أراد الفرقة والتحزيب ، وأنت أردت الألفة والتقريب .

وزعمت أيضاً أن البتوي خراساني ، وأن نسب الأبناء نسب آبائهم ، وأن  
حسن صنع الأباء ، وقديم فعال الأجداد ، هو حسب الأبناء . وأن الموالي بالعرب  
أشبه ، وإليهم أقرب ، وبهم أسر ؛ لأن السنة جعلتهم منهم . فقلت : إن  
الموالي أقرب إلى العرب في كثير من المعاني ؛ لأنهم عرب في المذهب ، وفي  
العائلة ، وفي الوراثة . وهذا تأويل قوله « مولى القوم منهم » و « مولى القوم من  
أنفسهم » ، و « الولاء لحمة كلحمه النسب » . وعلى شبيه ذلك صار حليفه

القوم منهم ، وحكمه حكمهم ، فصار الأخنس بن شريق وهو رجلٌ من ثقيف ، وكذلك يعلى بن مُنية وهو رجلٌ من بلعدوية ، وكذلك خالد بن عُرْفَةَ وهو رجلٌ من عُذرة من قريش . وبذلك النسب حُرِّمَتِ الصَّدَقَةُ على موالي بني هاشم ؛ فإنَّ النبي صلى الله عليه وسلم أجراهم في باب التنزيه والتطهير بجرى مواليتهم . وبذلك السَّببُ قَدَّمَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم على عبد المطلب على بني عبد شمس ، وقرباتهم سواءً ونسبهم واحد ، للعقد المتقدم ، وللأيدي المتخفة .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مِنَّا خَيْرُ فِارِسٍ فِي الْعَرَبِ : عُكَّاشَةُ بِنْتُ مَعْصَنٍ » ، فقال ضِرَارُ بْنُ الْأَزْوَارِ الْأَسَدِيُّ : ذَاكَ رَجُلٌ مِّنَّا يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : « بَلْ هُوَ مِنَّا بِالْحَلْفِ » . فَجَعَلَ حَلِيفَ الْقَوْمِ مِنْهُمْ ، كَمَا جَعَلَ ابْنَ أُخْتِ الْقَوْمِ مِنْهُمْ .

ثم زعمت أن الأتراك قد شاركوا هؤلاء القوم في هذا النسب ، وصاروا من العرب بهذا السبب ، مع الذي بانوا به من الخلال ، وحُبوا به من شرف الخصال .

على أن ولاء الأتراك لبني قريش ، ولصاحب عبد مناف ، و [ هم ] في سرُّ بني هاشم ، [ وهاشم ] موضع العذار من خد الفرس ، والعقد من لبة الكاعب ، والجوهر المكنون ، والذهب المصنَّى ، وموضع المحة من البيضة ، والعين في الرأس ، والروح من البدن ؛ وهم الأنف المقدم ، والسنام الأكبر ، والذرة الزهراء ، والروضة الخضراء ، والذهب الأحمر . فقد شاركوا العرب في أنسابهم ، والموالي في أسابهم ، وفصلوهم بهذا الفضل الذي لا يُلغىه فضل وإن برع ، بل لا يعُشره شرف وإن عظم ، ولا مجد وإن قَدَّمَ .

فزعمت أن انساب الجميع متقاربة غير متباعدة ، وعلى حسب ذلك التقارب تكون المؤازرة والمكاتفة ، والطاعة والمناصحة ، والمحبة للخلفاء والأئمة .

وذكرت أنه ذكر جملًا من مفاخرة الأجناس ، وجمهرة من مناقب هذه الأصناف ، وأنه جمع ذلك وفصله وفسره ، وأنه ألغى ذكر الأتراك فلم يعرض لهم ، وأضرب عنهم صفحاً ، يُخبر عنهم كما أخبر عن حُجَّة كلِّ جيل ، وعن بُرهان كلِّ صنف ، وذكر أن الخراساني يقول : نحن النُقباء وأبناء النُقباء ؛ ونحن النُجباء وأبناء النُجباء ، ومنا الدُّعاة ، قبل أن تظهر نقابة ، أو تُعرف نجابة ، وقبل المغالبة والمباراة ، وقبل كشف الفِئاع وزوال التُّقىة وزوال ملك أعدائنا عن مستقره ، وثبات ملك أوليائنا في نصابه . وبين ذلك ما قُتلنا وشُردنا ، ونُهكتنا ضرباً وبُضعنا بالسُّيوف الجداد ، وعذبنا باللوان العذاب .

وبنا شفى الله الصدور ، وأدرك الثار . ومنا الاثنا عشر النُقباء ، والسُّبعون النُجباء . ونحن الخندقية ، ونحن الكُفَّية وأبناء الكُفَّية ، ومنا المستجبية ومن يبرج الشيعة ومنا نيم خزان وأصحاب الجوريين ومنا الرُغندية والأزافرديية .

ونحن فتحنا البلاد وقتلنا العباد ، وأندنا العدو بكلِّ وادٍ . ونحن أهل هذه الدولة ، وأصحاب هذه الدعوة ، ومنبت هذه الشجرة . ومن عندنا هبت هذه الرِّيح .

والأنصار أنصاران : الأوس والخزرج نصروا النبي صلى الله عليه وسلم في أول الزمان ، وأهل خراسان نصروا ورثته في آخر الزمان . غَدَّانا بذلك آباؤنا وغَدَّونا به أبناءنا وصار لنا نسباً لا نعرف إلا به ، وديننا لا نوالي إلا عليه .

ثم نحن على وتيرة واحدة ، ومنهاج غير مشترك ؛ نعرف بالشيعة ، ونُدين بالطاعة ، ونُقتل فيها ونُموت عليها . بييماننا موصوف ، ولباسنا معروف . ونحن أصحاب الرِّايات السود ، والروايات الصحيحة ، والأحاديث الماثورة ، والذين يهدمون مدن الجبابرة ، ويتزعجون الملك من أيدي الظلمة ، وفيما تقدّم الخبر ، وصح الأثر . وجاء في الحديث صفة الذين يفتحون عمورية ويظهرون عليها ،

ويقتلون مُقاتليها وَيُسَبِّون ذرارِها ، حيث قالوا في نعتهم : « شعورهم شعور النساء ، وثيابهم ثيابُ الرهبان » . فَصَلِّقُ الفِعْلُ القول ، وَحَقَّقُ الخَبْرَ العِيانَ .

ونحن الذين ذكّرنا وذكر بلائنا امام الأئمة ، وأبو الخلائق العشرة : عمّد ابن علي ، حين أراد توجية الدّعاة إلى الأفاق ، وتفريق شيعته في البلاد ، أن قال :

أما البصرة وسوادها فقد غلب عليها عثمانٌ وصنائع عثمان ، فليس بها من شيعتنا إلا القليل . وأما الشام فشيعةُ بني مروان وآل أبي سفيان . وأما الجزيرة فَحُرُورِيَّةٌ شَارِيَّةٌ ، وخارجة مارقة ، ولكن عليكم بهذا الشرق ؛ فإن هناك صدوراً سليمة وقلوباً باسلة ، لم تُفسدْها الأهواء ، ولم تُخامِرْها الأدواء ، ولم تعتقْها البدع ، وهم مغيطون موتورون . وهناك العُدَدُ [ والعُدَّةُ ] ، والعَتادُ والنُّجدةُ .

ثم قال : [ وأنا أتساءل ] إلى حيث يطلع منه النهار . فكنا خيرَ جنْدٍ بخيرِ إمام ؛ فصدّقنا ظنه ، وثبتنا رأيه ، وصوبنا فراسته .

وقال مرّة أخرى : *مرآة الحقيقة كميتر علوم رسولي*

أمرنا هذا شرقي لا غربي ، ومُقبِل لا مدبر ، يطلع كطلوع الشمس ، ويمتد على الأفاق امتداد النهار ، حتى يبلغ حيث تبلغه الأحفاف ، وتناه الحوافر .

قالوا : ونحن قتلنا الصّحْصِحيَّة ، والدّالقيَّة ، والدُّكوانِيَّة ، والرّاشديَّة . ونحن أيضاً أصحاب الخنادق أيام نصر بن سيار . وابن جُذيعِ الكرمانِي ، وشيبان بن سلّمة الخارجي . ونحن أصحاب نباتة بن حنظلة ، وعامر بن ضبارة ، وأصحاب ابن هبيرة . قلنا قديم هذا الأمر وحديثه ، وأوله وآخره ومنا قاتل مروان .

ونحن قومٌ لنا أجسامٌ وأجرام ، وشعورٌ وهام ، ومناكبٌ عظام ، وجباهٌ عراض ، وقصرٌ غلاظ ، وسواعدٌ طوال .

ونحن أولدٌ للذكورة ، وأنسل بعولة . وأقلُّ ضوئاً وضؤولة ، وأقلُّ إنساناً

وانتق أرحاماً ، وأشدُّ عصباً وأتمُّ عظاماً ، وأبداننا أحمَلُ للسلاح ، ونجفأفنا أملاً  
للعيون .

ونحن أكثر مائة ، وأكثر عدداً وعدة .

ولو أن ياجوج وماجوج كاثروا مَنْ وراء النهر منا لظهروا عليهم بالعدد .  
فأما الأيد وشدة الأسر ، فليس لأحدٍ بعد عادٍ وثمودَ والعمالقَة والكنعانيين مثل  
أيدنا وأسرنا .

ولو أن خيول الأرض وفرسان جميع الأطراف جمعوا في حلبة واحدة ، لكُنَّا  
أكثر في العيون ، وأهول في الصدور .

ومنى رأيت فواكبنا وفرساننا ، ويُودنا التي لا يحملها غيرنا ، علمت أننا لم  
نُخلق إلا لقلب الدول ، وطاعة الخلفاء ، وتأييد السلطان .

ولو أن أهل التبت ورجال الزابج ، وفرسان الهند ، وحلبة الروم ، هجم  
عليهم هاشم بن أستا خنج لما امتنعوا من طرح السلاح والحرب في البلاد .

ونحن أصحاب اللّحمى وأرباب النّهي ، وأهل الحلم والحجبا ، وأهل  
الثخانة في الرأي ، والبعد من الطّيش . ولنا كجند الشام المتعرضين للحرم ،  
والمتهكين لكل محرم .

ونحن ناس لنا أمانة وفينا عفة . ونحن نجتمع بين النزاهة والقناعة والصبر  
على الخدمة ، والتجمير عند بعد الشقة . ولنا الطبول المهنولة العظام والبود ،  
ونحن أصحاب التجافيف والأجراس ، والبازيكند والبود الطوال ، والأغماد  
المعقفة والشوارب المعقربة ، والفلانس الشاشية ، والخيول الشهرية ، والكافر  
كوبات والطبرزينات [ في الأكتف ] ، والخناجر في الأوساط . ولنا حسن الجلسة  
على ظهور الخيل . ولنا الأصوات التي تسقط منها الحبالى .

وليس في الأرض صناعة غريبة من أدبٍ وحكمة ، وحسابٍ وهندسة ،

وإيقاع وصنعة ، وفقه ورواية ، نظرت فيها الخراسانية إلا فرغت فيها الرؤساء ،  
وبزت فيها العلماء .

ولنا صنعة السلاح من لبّد وركابٍ ودرع . ولنا عما جعلناه رياضة وتمريناً ،  
وإرهاصاً للحرب ، وتثقيفاً وذبّةً للمجاولة والمشاولة ، [ و ] للكرّ بعد الكرّ :  
مثل الدّبوق ، والنزود على الخيل صغاراً ، ومثل الطّبّاطب والصّوالجّة الكبار ، ثم  
رمي المجثمّة ، والبّرجاس والطائر الحطّاف .

فنحن أحقُّ بالأثرة ، وأولى بشرف المنزلة .

[ ٨٠ - مفاخر العرب ]

ثم قلت : وزعم أن القربة تُستعق بالأسباب الثابتة ، وبالأرحام  
الشابكة ، وبالقدمة ، والطاعة للأباء والعشيرة ، وبالشكر النافع ، والمديح الكافي  
بالشعر الموزون الذي يبقى بقاء الدهر ، ويلوح ما لاح نجم ، ويُشدد ما أهمل  
بالحج ، وما هبت الصبا ، وما كان للزيت عاصم ؛ وبالكلام المنشور والقول  
المأثور . أو بصفة مخرج الدولة والاحتجاج للدعوة ، وتقييد المآثر ، إذ لم يكن  
[ ذلك من ] عادة المعجم ، ولا كان يُحفظ ذلك معروفاً لسوى العرب . ونحن  
نربطها بالشعر المقفى ، ونصلها بحفظ الأميين . [ الذين لا يتكلمون على الكتب  
المدوّنة ، والخطوط المطرّسة . ونحن أصحاب التفأخر والتناقر ، والتنازع في  
الشرف ، والتحاكم إلى كلِّ حكم مُقنع وكاهنٍ سجاع . ولنا التعاير بالمشالب ،  
والتفأخر بالمناقب . ونحن أحفظ لأنسابنا ، وأرعى لحقوقنا وتقييدها أيضاً بالمنشور  
المرسل ، بعد الموزون المعدّل ، بلسانٍ أمضى من السنان ، وأرهف من السيف  
الحسام ، حتى نذكرهم ما قد درس رسمه ، وعفا أثره .

وبين القتال من جهة الرغبة والرغبة فرق ، وليس المُعزّق في الحفاظ كمن  
هذا فيه حادث . وهذا بابٌ يتقدّم فيه التالذ القديم الطارف الخديث .

وطُلاب الطوائل رجلاًن : سَجِسْتَانِي وَأَعْرَابِي . وهل أكثر النقباء إلا من صميم العرب ، ومن صلية هذا النسب ، كأبي عبد الحميد قحطبة بن شبيب الطائلي ، وأبي محمد سليمان بن كثير الخزاعي ، وأبي نصر مالك بن الهيثم الخزاعي ، وأبي داود خالد بن إبراهيم الدهلي ، وكأبي عمرو لاهز بن قريظ المرثي ، وأبي عتيبة موسى بن كعب المرثي ، وأبي سهل القاسم بن مجاشع المزني ، ومن كان يجري مجرى النقباء ولم يدخل فيهما ، مثل مالك بن الطواف المزني .

وبعد فمن هذا الذي باشر قتل مروان ، ومن هزم ابن هبيرة ، ومن قتل ابن ضبارة ، ومن قتل نباتة بن حنظلة ، إلا عَرَبُ الدَّعْوَةِ ، والصُّمَيْمُ من أهل الدولة ؟ ومن فتح السند إلا موسى بن كعب ، ومن فتح إفريقية إلا محمد بن الأشعث ؟



[ ٩ - مفاخر الموالى ]

وقلت : وقال : وتفوق الموالى لنا النصيحة الخالصة ، والمحبة الراسخة ، ونحن موضع الثقة عند الشدة . وعلل المولى من تحت موجبة لمحبة المولى من فوق ، لأن شرف مولاه راجع إليه ، وكرمه زائد في كرمه ، وخوله مُسْقَطٌ لقدره . وبودّه أن خصال الكرام كلها اجتمعت فيه ؛ لأنه كلما كان مولاه أكبر وأشرف وأظهر ، كان هو بها أشرف وأنبى . ومولاك أسلم لك صدرأ ، وأردُّ ضميراً ، وأقلُّ حسداً .

وبعدُ فالولاء لحمة كلحمة النسب ، فقد صار لنا النسب الذي يصوبه الغربي . ولنا الأصل الذي يفتخر به العجمي .

قال : والصبر ضرور ، فأكرمها كلها الصبر على إفشاء السر . وللمولى في هذه المكرمة ما ليس لأحد .

ونحن أخصُّ مدخلاً ، وألطف في الخدمة مسلماً . ولنا مع الطاعة والخدمة

والإخلاص وحسن النية ، خدمة الأبناء للآباء ، والآباء للأجداد ، وهم بمواليهم  
آنس ، وبناحيتهم أوثق ، وبكفائتهم أسر .

وقد كان المنصور ، ومحمد بن علي ، وعلي بن عبد الله ، يخصون مواليهم  
بالمواكلة والبسط والإيناس ، لا يُبهرجون الأسود لسواده ، ولا الدميم لدمامته ،  
ولا الصناعة الدنيئة لدناءتها . ويوصون بحفظهم أكابر أولادهم ، ويجعلون لكثير  
من موتاهم الصلاة على جنائزهم ، وذلك بحضرة من العمومة وبني الأعمام  
والأخوة .

ويتذكرون إكرام رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة مولاه ،  
حين عقد له يوم مؤتة على جلة بني هاشم ، وجعله أمير كل بلدة يطؤها .

ويتذكرون حبه لأسامة بن زيد ، وهو الحبُّ ابنُ الحب . وعقد له على  
عظماء المهاجرين وأكابر الأنصار .

ويتذكرون صنيعه بسائر مواليه ، كأبي أنسة ، وشقران ، وفلان وفلان .

قالوا : ولنا من رؤوس النقباء أبو منصور مولى خزاعة ، وأبو الحكم  
عيسى بن أعين مولى خزاعة ، وأبو النجم عمران بن إسماعيل مولى آل أبي  
مُعيط . فلنا مناقب الخراسانية ، ولنا مناقب الموالى في هذه الدعوة ، ونحن منهم  
واليهم ، ومن أنفسهم ، لا يدفع ذلك مسلم ولا ينكره مؤمن ، خدمناهم كباراً  
وحملناهم على عواتقنا صغاراً . هذا مع حق الرضاع والخزولة ، والنشوء في  
الكتاب ، والتقلب في تلك العراض التي لم يبلغها إلا كل سعيدي الجد ، وجيه في  
الملوك . فقد شاركنا العربي في فخره ، والخراساني في مجده ، والبنوي في فضله ،  
ثم تفرّدنا بما لم يشاركونا فيه ، ولا سبقونا إليه .

قالوا : ونحن أشكل بالرعية ، وأقرب إلى طباع الذمماء ، وهم بنا آنس  
وإيناس أسكن ، وإلى لقائنا أحق ؛ ونحن بهم أرحم ، وعليهم أعطف ، وبهم  
أشبه . فمن أحق بالأثرة ، وأولى بحسن المنزلة ممن هذه الخصال له ، وهذه  
الخلال فيه .

[ ١٠ - مفاخر النبوي ]

وقلت وذكرت أن النبوي قال :

أنا أصلي خراسان ، وهي تخرج الدولة وتطلع الدعوة ؛ ومنها نجم هذا القرن ، وصبا هذا الناب ، وتفجر هذا ينبوع ، واستفاض هذا البحر ، حتى ضرب الحق بجرانه ، وطبق الأفاق بضيائه ، فأبرأ من السقم القديم ، وشفى من الداء العضال ، وأغنى من العيلة ، وبصر من العمى

قال : وفرعى بغداد ، وهي مستقر الخلافة ، والقرار بعد الحولة ، وفيها بقية رجال الدعوة ، وابتداء الشيعة ، وهي خراسان العراق ؛ وبيت الخلافة ، وموضع المادة .

قال : وأنا أشرق في هذا الأمر من أبي ، وأكثر تردداً فيه من جدّي ، وأحق في هذا الفضل من المولى والعربي . ولنا بعد في انفسنا ما لا يُنكر من الصبر تحت ظلال السيوف الفصار والرماح الطوال . [ ولنا معانقة الأبطال عند تحطم القنا وانقطاع الصفائح . ولنا المواجهة بالسكاكين ، وتلقي الخناجر بالعيون ، ونحن حماة المستلحم ، وابتداء المضايق . ونحن أهل الثبات عند الجسولة ، والمعرفة عند الخيرة ، وأصحاب المشهرات ، وزينة العساكر وحل الجيوش ، ومن يمشي في الرمح ، ويختال بين الضفين . ونحن اصحاب الفتك والإقدام ، ولنا بعد التسلق ، ونقب المدن ، والتفحم على ظلمات السيوف وأطراف الرماح ، ورضخ الجندل ، وهشم العمود ، والصبر على الجراح وعلى جر السلاح إذا طار قلب الأعرابي ، وساء ظن الخراساني . ثم الصبر تحت العقوبة ، والاحتجاج عند المسألة ، واجتماع العقل ، وصحة الطرف ، وثبات القدمين ، وقلة التكفي بحبل العقابين ، والبعد من الإقرار ، وقلة الخضوع للدهر والخضوع عند جفوة الزوار وجفاء الأقارب والإخوان .

ولنا القتال عند أبواب الخنادق ، ورؤوس القناطر . ونحن الموت الأحر

عند أبواب الثقب . ولنا المواجهة في الأزقة ، والصبر على قتال السجون .  
فسل عن ذلك الخُلَيْدِيَّة ، والكتفية ، والبلائية ، والخريبية . ونحن أصحاب  
المكابدات وأرباب البيات ، وقتل الناس جهاراً في الأسواق والطُرقات .

ونحن نجمع بين السلة والمزاحفة . ونحن أصحاب القنا الطوال ما كنا  
رَجَالَةً ، والمطاردِ القصارِ ما كنا فُرسَانًا . فإن صرنا كُمنًا فالحتف القاضي ،  
والسمُّ الدُعاء . وإن كنا طلائع فكلنا يقوم مقام أمير الجيش . نقاتل بالليل  
كما نقاتل بالنهار، ونقاتل في الماء كما نقاتل على الأرض ، ونقاتل في القرية كما  
نقاتل في المحلة .

ونحن أفنك وأخشب ، ونحن أقطع للطريق وأذكر في الثغور ، مع  
حُسن القدود وجودة الخطر ومقادير اللحم ، وحسن العيمة ، والنفس المرة .  
وأصحابُ الباطل والفتوة ، ثم الخط والكثابة ، والفقه والرؤية .

ولنا بغداد بأسرها، تسكن ما سكننا، وتتحرك ما تحركنا . والدنيا كلها معلقة  
بها ، وصائرة الى معناها . فإذا كان هذا أمرها وقدرها فجميع الدنيا تبع  
لها [ . وكذلك أهلها لاهلها ، وتساكها لتساكها ، وخلعها لخلعها ،  
ورؤساؤها لرؤسائها ، وصلحاؤها لصلحائها .

ونحن بعدد تربية الخلفاء ، وجيران الوزراء ، ولدنا في أفنية ملوكنا ،  
ونحن أجنحة خلفائنا ؛ فأخذنا بأثارهم واحتدبنا على مثالهم ، فلسنا نعرف  
سواهم ، ولا نعرف بغيرهم ، ولا يطمع فينا أحد قط من خطاب ملكهم ،  
ومن يترشح للاعتراض عليهم . فمن أحمق بالأثرة ، وأولى بالقرب في المنزلة  
بمن هذه الخصال فيه ، وهذه الخلال له .

[ ١١ - الغاية من وضع الكتاب ]

إن ذهبنا حفظك الله يعقب هذه الاحتجاجات ، وعند مقطع هذه

الاستدلالات ، نستعمل هذه المعارضة بمناقب الأتراك ، والموازنة بين خصالهم  
وخصال كلِّ صنف من هذه الأصناف ، سلطنا في هذا الكتاب سبيل أصحاب  
الخصومات في كتبهم ، وطريق أصحاب الأهواء في الاختلاف الذي بينهم .

وكتابتنا هذا إنما تكلفناه لنؤلف بين قلوبهم التي كانت مختلفة ، ولنزيد  
الألفة إن كانت مؤتلفة ، ولنخبر عن اتفاق أسبابهم لتجتمع كلمتهم ، ولتسلم  
صدورهم ، وليعرف من كان لا يعرف منهم موضع التفاوت في النسب ، وكم  
مقدار الخلاف في الحسب ، فلا يغير بعضهم مغير ، ولا يفسده عدوُّ بأباطيل  
مموهة وشبهها مزورة ؛ فإن المنافق العليم ، والعدوُّ ذا الكيد العظيم ، قد يصور  
لهم الباطل في صورة الحق ، ويلبس الاضاعة ثياب الحزم . إلا أنا على حال  
سنذكر جملاً من أحاديث روينها ووعيناها ، وأمور رأيناها وشاهدناها ،  
وفضائل تلقفناها من أفواه الرجال وسمعناها .

وسنذكر جميع ما في هذه الأصناف من الآلات والأدوات ، ثم ننظر أيهم  
لها أشدُّ استعمالاً ، وبها أشدُّ استقلالاً ، ومن أثقُب كَيْساً وأفتح عيناً وأدكى  
يقيناً ، وابتعد غوراً وأجمع أمراً ، وأعمُّ خواطر وأكثر غرائب ، وأبدع طريقاً ، وأدوم  
نفعاً في الحروب ؛ وأضرى وأدرب دربةً ، وأغمض مكيدةً ، وأشدُّ احتراساً  
والطفُّ احتيالاً ؛ حتى يكون الخيار في يد الناظر المتصفح لمعانيه ، والمقلب  
لوجوهه ، والمفكر في أبوابه ، والمقابل بين أوله وآخره ، فلا نكون نحن  
انتحلنا شيئاً دون شيء ، وتقلدنا تفضيل بعض على بعض ، بل [ لعلنا أن  
لا ] نخبر عن خاصة ما عندنا بحرف واحد .

فإذا دبرنا كتابنا هذا التدبير ، وكان موضوعه على هذه الصفة ، كان  
أبعد له من مذاهب الجدال والمراء ، واستعمال الهوى .

وقد ظنُّ ناسٌ أن أسماء أصناف الأجناس كما اختلفت في الصورة والخط  
والهجاء ، أن حقائقها ومعانيها على حسب ذلك . وليس الأمر على حسب ما  
توهمته ؛ إلا ترى أن اسم الشاكرية وإن خالف في الصورة وانجاء اسم

الجُنْد ، فَإِنَّ الْمَعْنَى فِيهِمَا لَيْسَ بِبَعِيدٍ ، لِأَنَّهُمْ يَرْجِعُونَ إِلَى مَعْنَى وَاحِدٍ وَعَمَلٌ وَاحِدٌ . وَالَّذِي يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ طَاعَةُ الْخُلَفَاءِ ، وَتَأْيِيدُ السُّلْطَانِ .

وَإِذَا كَانَ الْمَوْلَى مَنقُولًا إِلَى الْعَرَبِ فِي أَكْثَرِ الْمَعَانِي ، وَمَجْمُولًا مِنْهُمْ فِي عَامَّةِ الْأَسْبَابِ ، لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ بِأَعْجَبَ مِمَّنْ جَعَلَ الْحَالَّ وَالسُّدَّ ، وَالْحَلِيفَ مِنَ الصُّمِيمِ ، وَابْنَ الْأَخْتِ مِنَ الْقَوْمِ .

وَقَدْ جُعِلَ ابْنُ الْمَلَاغِنَةِ الْمَوْلُودُ عَلَى فِرَاشِ الْبَعْلِ مَنْسُوبًا إِلَى أُمِّهِ .

وَقَدْ جَعَلُوا اسْمَاعِيلَ وَهُوَ ابْنُ عَجْمِيِّنَ عَرَبِيًّا ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَتَقَّ لِهَاتِهِ بِالْعَرَبِيَّةِ الْمُبِينَةِ عَلَى غَيْرِ التَّلْقِينِ وَالتَّرْتِيبِ ، ثُمَّ فَطَرَهُ عَلَى الْفَصَاحَةِ الْعَجِيبَةِ عَلَى غَيْرِ النُّشُوءِ وَالتَّقْدِيرِ ، وَسَلَخَ طِبَاعَهُ مِنْ طِبَاعِ الْعَجْمِ ، وَنَقَلَ إِلَى بَدَنِهِ تِلْكَ الْأَجْزَاءَ ، [ وَرَكَّبَهُ اخْتِرَاعًا ] عَلَى ذَلِكَ التَّرْكِيبِ ، وَسَوَّاهُ تِلْكَ التَّسْوِيَةَ ، وَصَاغَهُ تِلْكَ الصِّيَاغَةَ ، ثُمَّ حَبَّأَهُ مِنْ طِبَائِعِهِمْ وَمَنَحَهُ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَشَمَائِلِهِمْ ، وَطَبَّعَهُ مِنْ كَرَمِهِمْ وَأَنْفَتِهِمْ وَهَمَمِهِمْ عَلَى أَكْرَمِهَا وَأَمَكْنَهَا ، وَأَشْرَفِهَا وَأَعْلَاهَا ، وَجَعَلَ ذَلِكَ بَرَهَانًا عَلَى رِسَالَتِهِ ، وَدَلِيلًا عَلَى نَبُوَّتِهِ ؛ فَكَانَ أَحَقُّ بِذَلِكَ النُّسْبِ ، وَأَوْلَى بِشَرَفِ ذَلِكَ الْحَسَبِ .

وَكَذَا جُعِلَ إِبْرَاهِيمُ أَبًا لِمَنْ لَمْ يَلِدْهُ ، فَالْبَنُوِيُّ خُرَاسَانِيُّ مِنْ جِهَةِ الْوِلَادَةِ ، وَالْمَوْلَى عَرَبِيٌّ مِنْ جِهَةِ الْمَدْعَى وَالْعَاقِلَةِ . وَإِنْ أَحَاطَ عَلْمُنَا بِأَنَّ زَيْدًا لَمْ يَخْلُقْ مِنْ نَجْلِ عَمْرٍو إِلَّا عِهَارًا لِنَفِينَاهُ عَنْهُ ، وَإِنْ وَثِقْنَا أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْ مِنْ صُلْبِهِ .

وَكَذَا جَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَزْوَاجَهُ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ وَهُنَّ لَمْ يَلِدْنَهُمْ وَلَا أَرْضَعْنَهُمْ ، وَفِي بَعْضِ الْقِرَاءَاتِ : ( وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ ) ، عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ . وَجَعَلَ الْمَرْأَةَ مِنْ جِهَةِ الرُّضَاعِ أُمًَّ ، وَجَعَلَ [ امْرَأَةً ] الْبَعْلَ أُمًَّ وَلَدَ الْبَعْلَ مِنْ غَيْرِهَا ، [ وَجَعَلَ ] الرَّابِّ وَالِدًا ، وَجَلَّ الْعَمُّ أَبًا [ فِي كِتَابِ اللَّهِ ] . وَهِيَ عَمِيدَةٌ لَا يَقْبَلُونَ إِلَّا فِيهَا قُلُوبَهُمْ فِيهِ . وَلَهُ أَنْ يَجْعَلَ مِنْ عِبَادِهِ مَنْ شَاءَ عَرَبِيًّا وَمَنْ شَاءَ عَجْمِيًّا ، وَمَنْ شَاءَ قُرَشِيًّا ، وَمَنْ شَاءَ زَنْجِيًّا ؛ كَمَا لَهُ أَنْ يَجْعَلَ مِنْ شَاءَ ذَكَرًا وَمَنْ شَاءَ أُنْثَى ؛

[ ومن شاء خشي ] ، ومن شاء أفرده من ذلك فجعله لا ذكراً ولا أنثى ولا  
خُنثى .

وكذلك خلق الملائكة وهم أكرم على الله من جميع الخليفة . وخلق آدم  
فلم يجعل له أباً ولا أمّاً ، وخلق من طين ونسبه اليه ، وخلق حواء من ضلع  
آدم وجعلها له زوجاً وسكناً . وخلق عيسى من غير ذكرٍ ونسبه إلى أمه التي  
خلقها منها . وخلق الجان من نار السموم ، وآدم من طين ، وعيسى من غير  
نطفة . وخلق السماء من دُخان ، والأرض من الماء ، وخلق اسحاق من  
عاقرة . وأنطق عيسى في المهدي ، وأنطق يحيى بالحكمة وهو صغير ، وعلم  
سليمان منطلق الطير ، وكلام النمل ، وعلم الحفظة من الملائكة جميع الألسنة  
حق كتبوا بكل خط ، ونطقوا بكل لسان . وأنطق ذئب أهبان بن أوس .

والمؤمنون من جميع الأمم إذا دخلوا الجنة ، وكذلك أطفالهم والمجانين  
[ منهم ] ، يتكلمون ساعة يدخلون الجنة بلسان أهل الجنة ، على غير الترتيب  
والتنزيل ، والتعليم على طول الأيام والثمانين . فكيف يتعجب الجاهلون من  
[ نطق ] اسماعيل بالعربية على غير تعليم الآباء ، وتأديب الخواضن !؟

وهذه المسألة ربما سأل عنها بعض القحطانية ، ممن لا علم له ، بعض  
العدنانية ، وهي على القحطاني أشد . فأما جواب العدناني فليس النظام  
سهل المخرج ، قريب المعنى ؛ لأن بني قحطان لا يدعون لقحطان نبوة فيعطيه  
الله مثل هذه الأعجوبة .

وما الذي قسم الله - عز اسمه - بين الناس من ذلك ، إلا كما صنع في  
طينة الأرض ، فجعل بعضها حجراً ، وبعض الحجر ياقوتاً ، وبعضه ذهباً ،  
وبعضه نحاساً ، وبعضه رصاصاً ، وبعضه حديداً ، وبعضه تراباً ، وبعضه  
فخاراً . وكذلك الزجاج ، والمفجرة ، والزرنبخ ، والمرك ، والكبريت ، والقار  
والتوتيا ، والنوشادر ، والمرقيشا ، والمغنطيس .

ومن يحصي عدداً أجزاء الأرض ، وأصناف الفلز ؟!

وإذا كان الأمر على ما وصفنا فالبنوي خراساني . وإذا كان الخراساني مولياً ، والمولى عربياً - فقد صار الخراساني والبنوي والمولى والعربي واحداً .

وأدى ذلك أن يكون الذي معهم من خصال الوفاق غامراً ما معهم من خصال الخلاف ، بل هم في معظم الأمر وفي كبر الشأن وعمود النسب متفقون . والأتراك خراسانية وموالي الخلفاء قصرة ، فقد صار التركي الى الجميع راجعاً ، وصار شرفه إلى شرفهم زائداً .

وإذا عُرف سائر ذلك سمعت النفوس ، وذهب التعقيد ، ومات الضغن ، وانقطع سبب الاستئصال ؛ فلم يبق إلا التحاسد والتنافس الذي لا يزال يكون بين المتقاربين في القرابة وفي المجاورة .



على أن التوازر والتسام في الترابيات وفي بني الأعمام والعشائر ، أفشى وأعم من البعداء .

مركز بحوث كميبيوتر علوم إسلامي

ولخوف التخاذل ولحب التناصر ، والحاجة إلى التعاون - انضم بعض القبائل في البوادي الى بعض ، ينزلون معاً ويظعنون معاً . ومن فارق أصحابه أقل ، [ و ] من نصر ابن عمه أثر . ومن اغتبط بنعمته وتمنى بقاءها والزيادة فيها أكثر ممن بغاها الغوائل ، وطلب انقطاعها وزوالها . ولا بد في أضعاف ذلك من بعض التنافس والتخاذل ، إلا أن ذلك قليل من كثير .

وليس يجوز أن تصف الدنيا وتنقى من الفساد والمكروه حتى يموت جميع الخلائق ، وتستوي لأهلها ، وتمهد لسكانها على ما يشتهون ويهونون ؛ لأن ذلك من صفة دار الجزاء ، وليس كذلك صفة دار العمل .

[ ١٢ - موضوع الكتاب ]

هذا كتاب كنتُ كتبتُه أيامَ المعتصم بالله ، رضي الله عنه ، فلم يصل إليه ، لأسبابٍ يطول شرحها ، فلذلك لم أعرض للإخبار عنها . وأحييتُ أن يكون كتاباً قَصِداً ، ومذهباً عَدَلاً ، ولا يكون كتابَ إسرافٍ في مديح قوم ، وإغراقٍ في هجاء آخرين ، وإن كان الكتابُ كذلك شابهَ الكذب ، وخالطه التزويد ، وبُني أساسه على التكلُّف ، وخرج كلامُه نَحْرَجَ الاستكراه والتدليق .

وأنقَعُ المدائح للمادح وأجدها على الممدوح ، وأبقاها أثراً وأحسنها ذكراً : أن يكون المديحُ صادقاً ، وللظاهر من حال الممدوح موافقاً ، وبه لائقاً ، حتى لا يكون من المعبر عنه والواصف [ له ] إلا الإشارةُ إليه ، والتنبيهُ عليه .

وأنا أقول : إن كان لا يمكن ذلك في مناقب الأتراك إلا بذكر مثالب سائر الأجناد ، فتركُ ذكر الجميع أصوب ، والأضرابُ عن [ هذا الكتاب ] أحزم ، وذكر الكثير من [ هذه الأصناف بالجميل ] لا يقوم بالقليل من ذكر بعضهم بالقبيح ، لأن ذكر الأكثر بالجميل نافلةٌ ، وبابٌ من التطوع ، وذكر الأقل بالقبيح معصيةٌ ، وبابٌ من ترك الواجب . وقليلُ الفريضة أجدي علينا من كثير التطوع .

ولكل نصيبٍ من المساويء ومقدارٍ من الذنوب ؛ وإنما يتفاضل الناسُ بكثرة المحاسن وقلة المساوي . فأما الاشتغال على جميع المحاسن ، والسلامةُ من جميع المساويء دقيقتها وجليلها ، وظاهرها وخفيها ، فهذا لا يُعرف .

وقد قال النابغة :

ولست بمستبقرٍ أخاً لا تلمه      على شعبٍ ، أي الرجال المهذب

وقال خريش السعدي :

أخ لي كأيام الحياة إخاؤه      نلون الواناً على خطوبها  
إذا عبت منه خلة فتركته      دعني إليه خلة لا أعيبها

وقال بشار :

إذا كنت في كل الأمور معاتباً      خليلك لم تلق الذي لا تعاتبه  
فعيش واحداً أو جبل أخاك فإنه      مقاريف ذنب مرة ومجائبه  
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى      ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

وقال مطيع بن إياس اللثمي :

ولئن كنت لا تصاحب الأ      صاحبا لا تزُل ، ما عاش ، نعله  
لم تجده ولو جهدت وأنى      بالذي لا يكون يُوجد مثله

وقال محمد بن سعيد ، وهو رجل من الجنذ :

سأشكر عمرأ إن تراخت مني      أيادي لم تمنن وإن هي جلت  
فتي غير محبوب البني عن صديقه      ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت  
رأى خلتي من حيث يخفى مكانها      فكانت قذى عيني حتى ثجلت

فإذا كان الخلطاء من جهور الناس ، وأصحاب المعاش من  
ذمها الجماعة ، يرون ذلك واجباً وتدبيراً في التعامل ، على ما هم فيه من  
مشاركة الخطأ للصواب ، وامتزاج الضعف بالقوة ، فلسنا نشك أن الامام  
الأكبر والرئيس الأعظم ، مع الأعراق الكريمة والأخلاق الرفيعة ، والتمام في  
الحلم والعلم ، والكمال في الحزم والعزم ، مع التمكين والقدرة ، والفضيلة  
والرياسة [ والسيادة ] ، والخصائص التي معه من التوفيق والعصمة ، والتأييد  
وحسن المعونة ، أن الله جل اسمه لم يكن ليجلله باسم الخلافة ، وعجوه بتاج  
الإمامة ، وبأعظم نعمة وأسبغها ، وأفضل كرامة وأسناها ، ثم وصل طاعته  
بطاعته ، ومعصيته بمعصيته ، إلا ومعه من الحلم في موضع الحلم ، والعقوف في  
موضع العفوف ، والتغافل في موضع التغافل ، ما لا يبلغه فضل ذي فضل ،

ولا جِلمُ ذي حلم .

[ ١٣ - مناسبة تأليف الكتاب ]

ونحن قائلون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، فيما انتهى اليينا في أمر الأتراك :

زعم محمد بن الجهم ، وثمامة بن أشرس ، والقاسم بن سيار ، في جماعة ممن يغشى دار الخلافة ، وهي دار العامة ، قالوا جميعاً :

بيننا حميد بن عبد الحميد جالساً ومعه بخشاد الصغدني ، وأبو شجاع [ شيب ] بن بخار الخدائي البلخي ، ويحيى بن معاذ ، ورجال من المعدودين المتقدمين في العلم بالحرب [ من أصحاب التجارب والمراس ، وطول المعالجة والمعاناة ] في صناعات الحرب ، إذ خرج رسول المأمون فقال لهم : نقول لكم متفرقين ومجتمعين : ليكتب كل رجل منكم دعواه وحجته ، وليقل أيما أحب إلى [ كل ] قائد منكم إذا كان في عدته من صحبه وثقاته : أن يلقى مائة تركي أو مائة خارجي ؟ فقال القوم جميعاً : [ لأن ] نلقى مائة تركي أحب إلينا من أن نلقى مائة خارجي ! وحميد ساكت .

فلما فرغ القوم [ جميعاً ] من حجاجهم ، قال الرسول : قد قال القوم فقل واكتب قولك ، وليكن حجة لك أو عليك . قال : بل ألقى مائة خارجي أحب إلي ؛ لأنني وجدت الخصال التي يفضل بها الخارجي جمع المقاتلة غير تامة في الخارجي ، ووجدتها تامة في التركي . ففضل التركي على الخارجي بقدر فضل الخارجي على سائر المقاتلة ، ثم بان التركي عن الخارجي بأمر ليس فيها للخارجي دعوى ولا متعلق . على أن هذه الأمور التي بان بها التركي عن الخارجي ، أعظم خطراً وأكثر نفعاً ، مما شاركه الخارجي في بعضها .

[ ١٤ - خصال الخوارج ]

ثم قال حميد : والخصال التي يصول بها الخارجي على سائر الناس يصدق

الشدة عند أول وهلة ، وهي الدفعة التي يبلغون بها ما أرادوا ، ويثالون الذي أملاوا .

والثانية : الصبر على الحطب وعلى طول السرى ، حتى يصبح القوم [ الذين مرقوا بهم ] غارين فيهمجوا عليهم وهم بسوء ، ولحم على وضم ، يتعجلونهم عن الرؤية ، وعن رد النفس عن النزوة والجولة ؛ لا يظنون أن أحداً يقطع في ذلك المقدار من الزمان ذلك المقدار من البلاد .

والثالثة : أن الخارجي موصوف عند الناس بأنه إن طلب أدرك ، وإن طلب فات .

والرابعة : خفة الأزواد وقلة الأمتعة ، وأنها تجنب الخيل وتركب البغال ، وإن احتاجت أمست بأرض وأصبحت بأخرى ، وأنهم قوم حين خرجوا لم يخلفوا الأموال الكثيرة ، والجنان الملتفة ، والدور المشيدة ، ولا ضياعاً ولا مستغلات ، ولا جواربي مطهومات ، و [ أنهم ] لا سلب لهم ولا مال معهم فيرغب الجندي لقائهم ، وإنما هم كالطير لا تدخر ولا تنم لغد ، ولها في كل أرض من المياه والأقوات ما تبلغ به ، وإن لم تجد ذلك في بعض البلاد فأجبحتها تقرب لها البعيد ، وتسهل لها الحزون . وكذلك الخوارج لا يمتنع عليهم القري والمطعم ، وإن تمنع عليهم ففي بنات شحاج وبنات صهال ، وخفة الأثقال على طول الحطب ، ما يسهل أقواتها ، ويكثر من أرزاقها .

والخامسة : أن الملوك إن أرسلوا إليهم أعدادهم ليكونوا في خفة أوزارهم وأثقالهم ، وليقروا على التنقل كقوتهم ، لم يقروا عليهم ؛ لأن مائة من الجندي لا يقومون لمائة من الخوارج ؛ وإن كثفوا الجيش بالجيش ، وضاعفوا العدد [ بالعدد ] ثقلوا عن طلبهم ، وعن الفتور إن طلبهم عدوهم . ومتى شاء الخارجي أن يقرب منهم ليتطرقهم أو ليصيب الغيرة منهم ، أو ليسلبهم ، فعل ذلك ثقة بأنه يغم عند الفرصة ورؤية الغورة ، ويمكنه الهرب عند

الخوف . وإن شاء كبسهم ليقطع نظامهم ، أو ليقطع القطعة منهم .

قال حميد : فهذه هي مفاخرهم وخصالهم ، التي لها كره القواد لقاءهم .

قال قاسم بن سيار : وخصلة أخرى ، وهي التي رعبت القلوب وخلعتها ، ونقضت العزائم وفسختها ، وهو ما تسمع الأجناد ومقاتلة العوام ، من ضرب المثل بالخوارج ، كقول الشاعر :

إذا ما البخیل والمحاذير للقرى رأی الضیف مثل الأزرقی المجفف

وكقول الآخر :

وقلب ود حال عن عهدو والسيف ينبو بيد الشاري

وكقول الآخر :

لقاء الأسد أهون من لقاء إذا التحكيم يسهر بالأصيل

فهذه زيادة قاسم بن سيار تحت كقول حميد

[ ١٥ - خصال الاتراك ]

فأما حميد فإنه قال :

الشدة الأولى التركي فيها أحمد [ أثراً ، وأجمع ] أمراً ، وأحكم شأناً ؛ لأن التركي من أجل أن تصدق شدته ويتمكن عزمه ، ولا يكون مشترك العزم ولا منقسم . لحواطر ، قد عود برذونه ألا ينثني وإن شاء ، أن يملا فروجه للأمر يديره مرة أو مرتين ، وإلا فإنه لا يدع سننه ، ولا يقطع ركضه . وإنما أراد التركي أن يوثق نفسه من البدوات ، ومن أن يعتريه التكذيب بعد الاعتزام ، لهول [ اللقا ] ، وحب الحياة ؛ لأنه إذا علم أنه قد صير برذونه إلى هذه الغاية حتى لا ينثني ولا يجيبه إلى التصرف معه إلا بأن يصنع شيئاً بين الصفتين فيه عطبه ، لم يقدم على الشدة إلا بعد إحكام الأمر ، والبصرة

بالعورة . وإنما يريد أن يُشَبِّه نفسه بالمُحْرَج الذي إذا رأى أشدَّ القتال لم يدعُ  
جُهداً ولم يدخر حيلة ، ولينفَى عن قلبه خواطرَ الفِرار ، ودواعي الرجوع .

وقال : الخارجيُّ عند الشُدَّة إنما يعتمد على الطُّعان ، والأتراك تطعن  
طعنَ الخوارج ، وإن شدَّ منهم ألفُ فارس فرموا رشقاً واحداً صرعوا ألف  
فارس ، فما بقاء جيشٍ على هذا النوع من الشُدَّة !

والخوارج والأعراب ليست لهم رمايةٌ مذكورة على ظهور الخيل ،  
والتركيُّ يرمي الوحشَ والطَّير ، والبُرجاس ، والناس ، والمجتمعة ، والمثلُ  
الموضوعة ، ويرمي وقد ملأ فُروج دابته مُدبراً ومُقبلاً ، ومِنَّةً ويسرة ، وصُعداً  
ومُفلاً ، ويرمي بعشرة أسهم قبل أن يَفُوقَ الخارجيُّ سهماً واحداً ، ويركض  
دابته منحدرًا من جَبَل ، أو مستفلاً إلى بطن وادٍ بأكثر مما يمكن الخارجيُّ على  
بسيط الأرض .

وللتركيُّ أربعة أعين : عينان في وجهه ، وعينان في قفاه . وللخارجيِّ  
عينٌ في مُستدبر الحرب ، وللخراسانيِّ عينٌ في مُستقبل الحرب . فعيب  
الخراسانية أن لها جولة عند أول الالتقاء ، وإن ركبوا [ كُسام ] كانت  
هزيمتهم ، وكثيراً ما يثوبون ، وذلك [ بعد ] الخِطار بالعسكر ، وإطماع العدو  
في الشُدَّة .

والخوارج إذا ولَّوا فقد ولَّوا وليس لهم بعد الفِرار ، إلا ما لا يُعدُّ .  
والتركيُّ ليست له جولةُ الخراسانيِّ ، وإذا أدبرَ فهو التَّمُّ النافع ، والحتفُ  
القاضي ؛ لأنه يصيب بسهمه وهو مدبرٌ كما يصيب به وهو مُقبل ، ولا يؤمن  
وهقه ، ولا انتسافُ الفرس ، واحتطافُ الفارس بتلك الرُّكضة .

وله بُقلت من الوهُوق في جميع الدُّهر إلا المهلب بن أبي صفرة ، والحريش  
هلال ، وعبيد بن الخُصين . ورُبما رمى بالوهُوق وله فيه تدبير آخر وإن لم يتجنَّب  
الرميُّ معه ، يوهم الجاهل أن ذلك إنما كان لخرق التركيِّ ، أو لِحذق المرميِّ .

قال : وهم علموا الفرسان حمل قوسين وثلاثة قسي ، ومن الأوتار على حسب ذلك .

قال : والتركي في حال شدته ، معه كل شيء يحتاج اليه لنفسه وسلاحه ودابته وأداة دابته . فأما الصبر على الخبب وعلى مواصلة السفر ، وعلى طول السرى وقطع البلاغ ، فعجيب جداً .

فواحداً : أن فرس الخارجي لا يصبر صبر برذون التركي .

والخارجي لا يحسن أن يعالج فرسه إلا معالجة الفرسان لخيولهم . والتركي أحذق من البيطار ، وأجود تقويماً لبرذونه على ما يريد من الرأفة [ وهو استتجه ] ، وهو رباه فلوا ، وتتبعه إن سماه ، وإن ركض ركض خلفه . وقد عوده ذلك حتى عرفه ، كما يعرف الفرس أقدم ، والناقة حبل ، والجمل جاه ، والبغل عدس ، والحمار ياسا ، وكما يعرف المجنون لقبه والصبي اسمه .

ولو حصلت عمر التركي وحسبت أيامه لوجدت جلوسه على ظهر دابته أكثر من جلوسه على ظهر الأرض . والتركي يركب فحلاً أو زمكة ، ويخرج غازياً أو مسافراً ، أو متباعداً في طلب صيد ، أو سبب من الأسباب ، فتتبعه الرمكة وأفلاوها ، إن أعياه اصطيد الناس اصطاد الوحش ، وإن أخفق منها أو احتاج إلى طعام فصد دابة من دوابه ، وإن غطش حلب زمكة من رماكه ، وإن أراح واحدة تحته ركب أخرى من غير أن ينزل إلى الأرض . وليس في الأرض أحد إلا وبدنه ينتفض على إقتيات اللحم وحده غيره ، وكذلك دابته تكتفي بالعنقر والعشب والشجر ، لا يظلمها من شمس ولا يكتنها من برد .

قال : وأما الصبر على الخبب فإن الثغريين ، والفرانقيين ، والحصيان والخوارج ، لو اجتمعت قواهم في شخص واحد لما وقوا بتركي واحد . والتركي لا يبقى معه على طول الغاية إلا الضميم من دوابه . [ و ] الذي يقتله التركي بإتعايه له ، وينفيه عند غزاته ، هو الذي لا يصبر معه فرس

الخارجي ، ولا يبقى معه كلُّ برذونٍ بخاري . ولو سائر خارجياً لاستفرغ  
وسعه قبل أن يبلغ الخارجي عَفْوَه .

والتُركي هو الراعي ، وهو السائس وهو الرانض ، وهو النُحاس ، وهو  
البيطار ، وهو الفارس . والتُركيُّ الواحدُ أمةٌ على جِدة .

قال : وإذا سار التركيُّ في غير عساكر التُرك ، فسار القومُ عَشْرَةَ أميالٍ  
سار عشرين ميلاً ؛ لأنه ينقطع عن العسكر يَمْنَةً ويُسرِع في ذرى الجبال ،  
ويستبطنُ قُصور الأودية في طلب الصَّيد ؛ وهو في ذلك يرمي [ كُلُّ ] مادبٌ  
وذرج ، وطارز ووقع .

قال : والتُركيُّ لم يسير في العساكر سِيراً النَّاسِ قَطُّ ، ولا سارَ مستقبياً  
قَطُّ .

قالوا : وإذا طالت الدُّجَّة واشتدَّ السير ، وتعدَّ المنزل ، وانْتصف  
النَّهار ، واشتدَّ التعب ، وشغلَّ النَّاسَ الكَلالُ ، وصمَّت المتسايرون فلم  
ينطقوا ، وقطمهم ما هم فيه عن الشَّاعِل بالحديث ، وتفسَّخَ كلُّ شيءٍ من  
شِدَّة الحرِّ ، وخذ كلُّ شيءٍ من شِدَّة البرد ، وتمنى كلُّ جليد القوى على طول  
السَّرى أن تُطوى له الأرض ، وكلُّها رأى خيالاً أو أبصر علماً سرُّ به واستبشر ،  
وظنُّ أنه قد بلغ المنزل ؛ فإذا بلغه الفارس نزل وهو متفحجٌ كأنه صبيٌّ  
محفون ، يثنُّ أنينَ المريض ، ويستريح إلى التناؤب ، ويتداوى مما به بالتمطُّي  
والتضجُّع . وترى التركيُّ في تلك الحال وقد سار ضعفَ ما ساروا وقد أتعب  
مَنكبيهِ كثرةَ النَّزْع ، يرى قُربَ المنزل غيراً أو ظليماً ، أو عَرَضَ له ثعلبٌ أو  
أرنب ، فيركضُ ركضَ مبتدىٍ مسانِف ، كأنَّ الذي سار ذلك السَّير وتعب  
ذلك التعب غيره .

وإن بلغ النَّاسُ وادياً فازدحموا على مَسلكِهِ أو [ على ] قنطرتِهِ ، بطن  
برذونه فاقحمه ثم طلع من الجانب الأخر كأنه كوكب . وإن انتهوا إلى عَقبةٍ  
صعبةٍ تَرَكَ السُّننَ وذهب في الجبل صُعُداً ، ثم ندلى من موضعٍ يعجز عنه

الوعيل ؛ وأنت تحسبه مخاطراً بنفسه ، للذي ترى من مُطلعه . ولو كان في كل ذلك مخاطراً لما دامت له السلامة مع تتابع ذلك منه .

قال : ويفخر الخارجيُّ بأنه إذا طلب أدرك ، وإذا طلب لم يُدرك .  
والتركيُّ ليس يُجوز إلى أن يفوت ؛ لأنه لا يُطلب ولا يُرام . ومن يروم [ ما لا يُطمع فيه ] ؟

فهذا . على أننا قد علمنا أن العلة التي عمّت الخوارج بالنجدة استواء حالاتهم في الذبانية ، واعتقادهم أن القتال دين ؛ لأننا حين وجدنا السجستاني والحراساني والجزري واليمامي والمصري والعماني ، والأزرق مني والتجدي والإباضي والصفري ، والمولى والعربي ، والعجمي والأعرابي ، والعبيد والنساء ، والحائك والفلاح ، كلهم يقاتل مع اختلاف الأنساب وتباين البلدان - علمنا أن الذبانية هي التي سوت بينهم ، ووفقت بينهم في ذلك . كما أن كل حجّام في الأرض من أي جنس كان ، ومن أي بلد كان ، فهو يجب النيذ ، وكما أن أصحاب الخلقان والسماكين والنخاسين والحماكة في كل بلد من كل جنس ، شيرار خلق الله في المباينة والمعاملة . فعلمنا بذلك أن ذلك خلقة في هذه الصناعات ، وبنية في هذه التجارات ، حين صاروا من بين جميع الناس كذلك .

قال : ورأينا التركي في بلاده ليس يقاتل على دين ولا على تأويل ، ولا على ملك ولا على خراج ، ولا على عصبية ولا على غيرة دون الحرمة والمحرم ، ولا على حمية ولا على عداوة ، ولا على وطن ومنع دار ولا مال ؛ وإنما يقاتل على السلب والخيار في يده . وليس يخاف الوعيد إن هرب ، ولا يرجو الوعد إن أبى عذراً . وكذلك هم في بلادهم وغاراتهم وحروبهم . وهو الطالب غير المطلوب ؛ ومن كان كذلك فإنما يأخذ العفو من قوته ، ولا يحتاج إلى [ مجهوده ] . ثم هو مع ذلك لا يقوم له شية ولا يطمع فيه أحد ، فما ظنك بمن هذه صفته أن لو اضطره إخراج أو غيرة أو غضب أو تدبير ، أو

عَرَضَ لَهُ بَعْضُ مَا يَصْحَبُ الْمُقَاتِلَ الْمُحَامِيَ مِنَ الْعِلَلِ وَالْأَسْبَابِ .

قال : وقناة الخارجي طويلة صماء ، وقناة التركي مطرزة أجوف . والقني المجوفة القصار أشد طعنة وأخف في المحمل . والعجم تجعل القني الطوال للرجال ، وهي قني الأبناء ، على أبواب الخنادق والمضايق . والأبناء في هذا الباب لا يجرون مع الأتراك والخراسانية ، لأن الغالب على الأبناء المطاعنة على أبواب الخنادق وفي المضايق ، وهؤلاء أصحاب الخيل والفرسان وعلى الخيل والفرسان تدور الجيوش ، لهم الكر والفر . والفراس هو الذي يطوي الجيش طي السجل ، ويفرقهم تفريق الشعر . وليس يكون الكمين إلا منهم ولا الطليعة ولا الساقة . وهم أصحاب الأيام المذكورة والحروب الكبار والفتوح العظام ، ولا تكون المقانب والكتائب إلا منهم . ومنهم من يحمل البود والرايات ، والطبول والتجايف والاجراس . وهم أصحاب الصهيل والقتام ، وزجر الخيل ، وقمعة الريح في الثياب والسلاح ووقع الخوافر ، والإدراك إذا طلبوا ، والغوث إذا طلبوا . ولم يجعل النبي صلى الله عليه وسلم للفراس سهمين وللراجل من المقاتلة سهماً واحداً إلا لتضعيف الرد في القتل والفتوح ، والنهبة والمغانم .

ثم قال : ولعمري إن للأبناء من القتال في السكك والسجون والمضايق ما ليس لغيرهم . ولكن الرجالة أبدأ أتباع ومأمورون ومنقادون ، وقائد الرجالة لا يكون [ إلا ] فارساً ، وقائد الفرسان من الممتنع أن يكون راجلاً . ومن تعود الطعان والضرب والرمي ركباً إن اضطر إلى الطعن والضرب والرمي راجلاً كان على ذلك أدفع عن نفسه ، وأرد عن أصحابه ، من الراجل إذا احتاج أن يستعمل سلاحه فارساً . وعلى أنه ما أكثر ما ينزلون ويقاتلون . وقد قال الشاعر :

لم يُطيقوا أن ينزلوا ونزلنا وأخو الحرب من أطلاق النزولا

وقال الضبي :

• وَعَلَامَ أَرْكَبُهُ إِذَا لَمْ أَنْزِلِ •

وقال آخر :

• فَمَعَانِقُ وَمَنَازِلُ •

وقال حميد : وليس في الأرض قومٌ إلا والتساندُ في الحروب ، والاشتراك في الرِّياسة ضارُّ لهم ، إلا الأتراك . على أن الأتراك لا يتساندون ولا يتشاركون ؛ وذلك أن الذي يُكره من المساندة والمشاركة اختلافُ الرأي ، والتنافس في السرِّ ، والتحاسد بين الأشكال ، والتواكل فيما بين المشتركين .

والأتراك إذا صافوا جيشاً إن كان في القوم موضع عورة فكلهم قد ابصرها وعرفها ؛ وإن لم تكن هناك عورة ولم يكن فيهم مطمع ، وكان الرأي الانصراف ، فكلهم قد رأى ذلك الرأي وعرف الصواب فيه . وخواطرمهم واحدة ، ودواعيهم مستوية بإقبالهم معاً . وليس هم أصحاب تأويلات ولا أصحاب تفاخر وتناشد ، وإنما شأنهم إحكام أمرهم ؛ فالاختلاف يقلُّ بينهم .

وكانت الفرس تعيب العرب إذا خرجوا إلى الحرب متساندين ، وكانت تقول : الاشتراك في الحرب وفي الزوجة وفي الإمرة سواء .

وقال حميد : فما ظنك بقومٍ إذا تساندوا لم يضرهم التساند ، فكيف يكونون إذا تحاسدوا .

فلما انتهى الخبر إلى المأمون قال : لست بالترك حاجة إلى حكم حاكم بعد حميد ؛ فإن حميداً قد مارس الفريقين ، وحميد خراساني وحميد عربي ، فليس للثمة عليه طريق .

قالوا : وأى الخبر ذا اليمينين طاهر بن الحسين فقال : ما أحسن ما قال حميد . أما إنه لم يقصر ولم يفرط .

فهذا قول الخليفة المأمون ، وحكم حميد ، وتصويب طاهر .

وخبّرني رجلٌ من أهل خراسان أو من بني سدوس قال : سمعت أبا البطّ يقول : ويلكم ، كيف أصنع بفارسٍ يملاً فروج دابّته منحدرًا من جبيل ، أو مُصعِدًا في مقطعٍ عقير ، ويمكنه على ظهر الفرس ما لا يمكن الرقاص الأبلّي على ظهر الأرض .

قال : وقال سعيد بن عُقبة بن سَلَم الهنائي ، وكان ذا رأيٍ في الحرب وابن ذي رأيٍ فيها : فرّق ما بيننا وبين التُّرك أن التُّرك لم تغزُ قومًا قطّ ، ولا صافّت جيشًا ولا هجّمت على عدوّ كانوا عرباً أو عجمياً ، فأخرجوا إليهم أعدادهم ولقّوهم بمثلهم . وليس غايتهم إلا أن ينقادوا ليكفّوا عنهم بأسهم ومعرّتهم ، ويصرفوا عنهم كيدهم . فإن هم امتنعوا من الصلح واعتزموا إلى الحرب فليس شأنهم والسذي يدور عليه أمرهم إلا منع أنفسهم وتخصّصين عسكرهم ، والاحتراس منهم . فأما أن ترقى همّهم وتسمو أنفسهم إلى الاحتيال عليهم ، والتماس غرّتهم ، فإن هذا شيء لا يخطر على بالٍ من يجارهم .

ثم قال : وقد عرفتم حيلهم في دخول المدن من جهة جيطانها المضمّنة العريضة ، وحيلتهم في عبور نهر بلخ *ببرقيّة كميتر علوم رسدي* ثم قال : وسعيدٌ هذا هو الذي قال : إذا حاربتم وكنتم ثلاثة فاجعلوا واحداً مدداً ، وآخر كميناً . وله كلامٌ في الحرب غير هذا كثير .

قال سعيد : وأخبرني أبي قال : شهدت أبا الخطاب يزيد بن قتادة بن دعامة الفقيه ، وذكر قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في التُّرك حيث قال : « عدوّ شديدٌ طلبه ، قليلٌ سلّبه » ، فقال رجلٌ من العالّة : نهى عمرُ أبا زبيد الطائي عن وصف الأسد ، لأن ذلك مما يزيد في رعب الجنان ، وفي هول الجنان ، ويُقلّ من رعب الشجاع ، وقد وُصف التُّرك بأشدّ من وصف أبي زبيد الأسد .

وقال سعيد في حديثه يومئذ ، وقد قطعتُ شِرذمةً منهم بلادَ أبي خزيمة - يُريدُ حمزة بن أدرك الحارجي - وما والى خراسان [ في ] بعض الأمر ، وحمزة في

مُعظم الناس ، فقال لأصحابه : أفرجوا لهم ما تركوكم ، ولا تتعرضوا لهم ؛ فإنه قد قيل : « تاركوهم ما تاركوكم » .

فهذا قول سعيد بن عقبة ورأيه وحديثه ؛ وهو عربي خراساني

وذكر يزيد بن مزيّد الوقعة التي قتل فيها يولبا التركيّ الوليد بن طريف الخارجي ، فقال في بعض ما يصف من شأن التُّرك : ليس لبدن التركيّ على ظهر الدابة ثقل ، ولا لمشيّه على الأرض وقع ، وإنه ليرى وهو مدبرٌ ما لا يرى الفارسُ منا وهو مُقبل . وهو يرى الفارسَ منا صيداً ويعدُّ نفسه قهداً ، ويعدُّه ظيأً ويعدُّ نفسه كلباً . والله لو رمي به في قعر بشر مكتوفاً لما أعجزته الحيلة ؟ ولولا أن أعمار عامتهم تقصرُ دون الجبل - يعني جبل حلوان - ثم هموا بنا ، لألقوا لنا شغلاً طويلاً .

وأنشد رجلٌ من أصحابه :

هَبِ الدنْيَا تُسَاقُ إِلَيْكَ عَفْوَاً أَلَيْسَ مَصِيرُ ذَاكَ إِلَى زَوَالِ  
قال : أما التركيّ فلأن ينال الكفاف غصباً أحبُّ إليه من أن ينال الملك عفواً . ولم يتهنُّ تركيُّ بطعامٍ إلا أن يكون صيداً أو مغنماً ، ولا يُعزُّ على ظهر دابته طالباً كان أو مطلوباً .

وقال ثمامة بن أشرس ، وكان مثل عمُد بن الجهم في كثرة ذكوره للتُّرك . قال ثمامة : التركيّ لا يخاف إلا مخوفاً ولا يطمع في غير مطمع ، ولا يكفه عن الطُّلب إلا اليأسُ صرفاً ، ولا يدع القليل حتى يصيب أكثر منه ، وإن قدر أن يجمعها لم يفرط في واحدٍ منها . والباب الذي لا يُحسنه لا يُحسن منه شيئاً ، والباب الذي يُحسنه قد أحكمه بأسره وأمره وخفيّه عنده كظاهرة ، ولا يتشاغل بشيءٍ ليس فيه شيء ، ولا على نفسه من شيء . فلولا أن يُجمُّ نفسه بالنوم لما نام ، على إن نومه مشوبٌ باليقظة ، ويقظته سليمة من الوسنة . ولو كان في شِقْهم أنبياء ، وفي أرضهم حُكماء ، وكانت هذه الخواطرُ قد مرّت على قلوبهم ، وقرعت أسماعهم ، لأنسوك أدب البصريين ، ونحكمة اليونانيين ، وصنعة أهل

## الصَّين .

وقال ثمامة : عَرَضَ لَنَا فِي طَرِيقِ خُرَاسَانَ تَرْكِيٌّ وَمَعَنَا قَائِدٌ يَصُولُ بِنَفْسِهِ وَرِجَالَهُ ، وَبَيْنَنَا وَبَيْنَ التَّرْكِيِّ وَادٍ ، فَسَأَلَهُ أَنْ يَبَارِزَهُ فَارْسٌ مِنَ الْقَوْمِ ، فَأَخْرَجَ لَهُ رَجُلًا لَمْ أَرِ قَطُّ أَكْمَلَ مِنْهُ ، وَلَا أَحْسَنَ تَمَامًا وَقَوَامًا مِنْهُ ، فَاحْتَالَ حَتَّى عَبَرَ إِلَيْهِمُ الْفَارِسَ ، فَتَجَاوَلَا سَاعَةً ، وَلَا نَظَنُ إِلَّا أَنْ صَاحِبِنَا يَبْقَى بِأَضْعَافِهِ ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَتْبَاعِدُ عَنَّا . فَبَيْنَا هُمَا فِي ذَلِكَ إِذْ وُلِيَ عَنْهُ التُّرْكِيُّ كَالهَارِبِ مِنْهُ ، وَفَعَلَ ذَلِكَ فِي مَوْضِعٍ ظَنَنَّا أَنْ صَاحِبِنَا قَدْ ظَهَرَ عَلَيْهِ ، وَأَتْبَعَهُ الْفَارِسُ لَا نَشْكُ إِلَّا أَنَّهُ سَيَأْتِينَا بِرَأْسِهِ ، أَوْ يَأْتِينَا بِهِ مَجْنُوبًا إِلَى فَرَسِهِ ، [ فَلَمْ نَشْعُرْ ] إِلَّا وَصَاحِبِنَا قَدْ أَفْلَتَ عَنْ فَرَسِهِ وَغَابَ عَنْهُ ، فَتَزَلَّ التُّرْكِيُّ إِلَيْهِ فَأَخَذَ سَلْبَهُ وَقَتَلَهُ ، ثُمَّ عَارَضَ فَرَسَهُ فَجَنِبَهُ إِلَيْهِ مَعَهُ .

قال ثمامة : ثُمَّ رَأَيْتُ بَعْدَ ذَلِكَ التُّرْكِيَّ قَدْ جِيءَ بِهِ أَسِيرًا إِلَى دَارِ الْفَضْلِ ابْنِ سَهْلٍ ، فَقُلْتُ لَهُ : كَيْفَ صَنَعْتَ يَوْمَئِذٍ ، وَكَيْفَ طَاوَلْتَهُ ثُمَّ عَلَاكَ ثُمَّ وَلِيْتَ عَنْهُ هَارِبًا ثُمَّ قَتَلْتَهُ ؟ قَالَ : أَمَا إِنِّي لَوِشَّتُ أَنْ أَقْتُلَهُ حِينَ عَبَرَ ؛ وَقَدْ كَانَ مَقْتَلُهُ بَارِزًا لِي ، وَلَكِنِّي احْتَلْتُ عَلَيْهِ حَتَّى نَحَيْتُهُ عَنْ أَصْحَابِهِ لِأَجُوزِهِ ، فَلَا يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَ فَرَسِهِ وَسَلْبِهِ .

قال ثمامة : وَإِذَا هُوَ يُدِيرُ الْفَارِسَ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ وَيُرِيغُهُ كَيْفَ شَاءَ وَأَحَبُّ .

قال ثمامة : وَقَدْ غُبِّرْتُ فِي أَيْدِيهِمْ أَسِيرًا فَمَا رَأَيْتُ كَلِمَةً كَرَامَةً مِنْهُمْ وَتُحْفَةً وَالطَّافِيهِمْ .

فهذا ثمامة بن أشرس ، وهو عربي لا يُتهم في الإخبار عنهم .

وأنا أخبرك أني قد رأيت منهم شيئاً عجيباً وأمرأ غريباً : رأيت في بعض غزوات المأمون بسماطي خيل على جنبي الطريق بقرب المنزل ، مائة فارس من الأتراك في الجانب الأيمن ، ومائة من سائر الناس في الجانب الأيسر ، وإذا هم قد اصطفوا ينتظرون مجيء المأمون ، وقد انتصف النهار واشتد الحر . فورد عليهم

وجمُّ الأتراك جلوسٌ على ظُهُور خيولهم إلا ثلاثة أو أربعة ، وجميع تلك  
الأخلاق من الجند قد رَمَوْا بنفوسهم الى الأرض إلا ثلاثة أو أربعة . فقلت  
لصاحب لي : انظر أيُّ شيء اتفق لنا . أشهد أن المعتصم كان أعرف بهم حين  
جمعهم واصطنعهم .

وأردت مرةً القاطول - وهي المباركة - وأنا خارجٌ من بغداد ، وأرى فوارسَ  
من أهل خراسان والأبناء وغيرهم من أصناف الجند ، قد عازَّ لهم فرس ، وهم  
على خيلٍ عتاقٍ يريغونه فلا يقدرُون على أخذه ، ومرَّ تركيٌّ ولم يكن من ذوي  
هياتهم وذوي القدرِ منهم ، وهو على بِردونٍ له خسيس ، وهم على الخيول  
المطهَّمة ، فاعترض الفرسَ اعتراضاً ، وقتله قتلاً وجيئاً ، وأتاه من زجره شيء ،  
فوقف أولئك الجندُ وصاروا نظارةً ، فقال بعضهم عن كان يُزري على ذلك  
التركيُّ : هذا وأبيك التكلف والتعرض : أن فرساً قد أعجزهم وهم أسد  
البلاد ، وجاء هذا مع قصر قامته وضمف دابته ، فطمع أن يأخذه . فما انقضى  
كلامه حتى أقبل به ثم سلَّمه إليهم ومضى لطلبينه ، لم ينتظر ثناءهم ولا دعاءهم ،  
ولا أراهم أنه قد صنع شيئاً ، أو أن إليهم معروفاً .

والأتراك قومٌ لا يعرفون الملق ولا الخيانة ، ولا النفاق ولا السامية ، ولا  
التصنع ولا التهمة ولا الرياء ، ولا البذخ على الأولياء ، ولا البغي على  
الخلطاء ، ولا يعرفون البذع ، ولم تُفسدْهم الأهواء ، ولا يستحلُّون الأموال على  
التأول ، وإنما كان غيبتهم ، والذي يُوجش منهم ، الحنين إلى الأوطان ، وحبُّ  
التقلب في البلدان ، والصَّيابة بالفارات ، والشَّغف بالنهب ، وشدة الإلف  
للعادة ، مع ما كانوا يتذكرون من سُرور الظفر وتتابعه ، وحرارة المغنم وكثرته ،  
وملاعبتهم في تلك الصحاري ، وترددهم في تلك المروج ، وألَّا يذهب بطول  
الفراغ فضلُ نجدتهم باطلاً ، ويصير حذهم على طول الأيام قليلاً .

ومن خلق شيئاً لم يصبر عنه ، ومن كره أمراً فرَّ منه .

- وإنما خُصوا بالحنين من بين جميع العجم لأنَّ في تركيبهم وإخلاقهم طبائعهم

من تركيب بلدهم وتربيتهم ، ومشاكله مياهم ومناسبة إخوانهم ، ما ليس مع أحد سواهم ، ألا ترى أنك ترى البصري فلا تدري أبصري هو أم كوفي ، وترى المكّي فلا تدري أمكّي هو أم مدني . وترى الجبلي فلا تدري أجبلي هو أم خراساني ، وترى الجزري فلا تدري أجزري هو أم شامي . وأنت لا تغلظ في التركي ، ولا تحتاج فيه إلى قيافة ولا إلى فِراسة ، ولا إلى مُساءلة . ونساؤهم كرجالهم ، ودوابهم تركية مثلهم .

وهكذا طبع الله تلك البلدة ، وقسم لتلك التربة . وجميع دور الدنيا ونشؤها إلى منتهى قواها ومدّة أجلها ، جارية على عللها ، وعلى مقدار أسبابها ، على قدر ما خصّها الله تعالى به وأبانها ، وجعل فيها . فإذا صاروا إلى دار الجزاء ، فهي كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴾ .

وكذلك ترى أبناء العرب والأعراب الذين نزلوا خراسان ، لا تفصل بين من نزل أبوه بفرغانة وبين أهل فرغانة ، ولا ترى بينهم فرقا في السبل الصهب والجلود القثيرة ، والأقفاء العظيمة ، والأكسية الفرغانية . وكذلك جميع تلك الأرباع ، لا تفصل بين أبناء النازلة وبين أبناء النابتة .

ومعجزة الوطن شيء شامل لجميع الناس ، وغالب على جميع الجيرة . ولكن ذاك في الترك أغلب ، وفيها أرسخ ؛ لما معها من خاصّة المشاكلة والمناسبة ، واستواء الشبه ، ونكافي التركيب . ألا ترى أن العبدّي يقول : « عمّر الله البلدان بحبّ الأوطان » ، وأن ابن الزبير قال : « ليس الناس بشيء من أقسامهم أقنع منهم بأوطانهم » ، وأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : « لولا ما لولا تفرّق أهواء العباد لما عمّر الله البلاد » ، وأن جمة الإيادية قالت : « لولا ما أوصى الله به العباد من قفر البلاد ، لما وسّعهم وادّ ولا كفاهم زاد » .

وذكر قتيبة بن مسلم الترك فقال : « هم والله أحنّ من الإبل المعقّلة إلى أوطانها » ؛ لأنّ البعير يحنّ إلى وطنه وعطنه ، وهو بعمان ، من ظهر البصرة ، فهو يحبّ كل شيء ويستبطن كل وادّ ، حتى يأتي مكانه ؛ على أنه طريق لم يسلكه إلا

مرة واحدة ، فلا يزال بالشَّم والاسْتِرواح وحسن الاستدلال ، وبالطبيعة  
المخصوص بها حتى يأتي مَبْرَكُه ، على بُعد ما بين عُمان والبصرة .

فلذلك ضربَ به قتيبة المثل .

والشُّعُ على الوطن [ والحنين إليه ] ، والصُّبابية به ، مذكورة في القرآن ،  
مخطوطة في [ الصُّحف بين ] جميع الناس . غير أن التركيُّ للعلل التي ذكرناها  
أشدَّ حنيناً وأكثرُ نزوعاً .

وباب آخر ، مما كان يدعُوهم إلى الرجوع قبل العزم الثابت ، والعادة  
المنقوضة : وذلك أن التُّرك قومٌ يشتدُّ عليهم الحَصْرُ [ والجُشوم ] ، وطول اللَّيْث  
والمُكْث ، وقلة التصرُّف والتحرُّك ، وأصلُ بنيتهم إنما وُضِعَ على الحركة ، وليس  
للسكون فيها نصيب ، وفي قُوى أنفسهم فضلٌ على قُوى أبدانهم ، وهم  
أصحاب توقُّد وحرارة واشتعال وفطنة ، كثيرة خواطرهم ، سريع لحظهم ، وكانوا  
يرون الكفاية معجزةً ، وطول المُقام ببلادهم ، والراحة عُقْلةً ، والقناعة من قصر  
الهِمة ، وأن تَرَكَ الغزو يُورث الذلَّة .

مركز حياكة كويت بئر طوم راسمي

وقد قالت العرب في مثل ذلك : قال عبد الله بن وهب الراسبي : « حب  
المُؤينا يُكسب النَّصَب » . والعرب تقول : « من غلا دماغه في الصَّيف غَلَّتْ  
قِدْرُه في الشُّتاء » . وقال أكنم بن صيفي : « ما أحبُّ أني مكفي كلُّ أمرٍ  
الدنيا » . قيل : ولم ؟ قال : « أخاف العجز » .

فهذه كانت عِللُ التُّرك في حبِّ الرجوع والحنين إلى الوطن .

ومن أعظم ما كان يدعُوهم إلى الشُّرودِ وبيعهم على الرجوع ، ويكرهه  
عندهم المُقام ، ما كانوا فيه من جهل قُوادهم بأقذارهم ، وقلة معرفتهم  
بأخطارهم ، وإغفالهم موضع الرُّد عليهم والانفتاح بهم ، حتى جعلوهم أسوة  
أجنادهم ، ولم يقنعوا أن يكونوا في الحاشية والحشوة ، وفي غمار العامة ومن  
عُرِض العساكر ، وأنفوا من ذلك لأنفسهم ، وذكروا ما يجب لهم ، ورأوا أن

الضيم لا يليق بهم ، وأنّ الحصول لا يجوز عليهم ، وأنهم في المقام على من لا يعرف حقهم ألوم من منعهم حقهم ، فلما صادفوا ملكاً حكيماً ، وبأقدار الناس عليهما ، لا يميل إلى [ سوء ] عادة ولا ينجح إلى هوى ، ولا يتعصب لبلد على بلد ، يدور مع التدبير حيثما دار ، ويقوم مع الحق حيثما أقام ، أقاموا إقامة من قد فهم الحظ ، ودان بالحق وببذ العادة ، وآثر الحقيقة ، ورخل نفسه لفطيرة وطنه ، وآثر الإمامة على ملك الجبرية ، واختار الصواب على الإلثف .

### [ ١٦ - مقارنة الأمم ]

ثم اعلم بعد هذا كله أن كل أمة وقرن ، وكل جيل وبني أبي وجدتهم قد برعوا في الصناعات ، وفضلوا الناس في البيان ، أو فاقوهم في الآداب ، وفي تأسيس الملك ، وفي البصر بالحرب ، فإنك لا تجدهم في النهاية وفي أقصى النهاية ، إلا أن يكون الله قد سخرهم لذلك المعنى بالأسباب ، [ وقصرهم ] عليه بالعلل التي تقابل تلك الأمور ، وتصلح لتلك المعايير ، لأن من كان متقسط الهوى ، مشترك الرأي ، ومتشعب النفس ، غير موقر على ذلك الشيء ولا مهيباً له ، لم يخلق من تلك الأشياء [ شيئاً ] بأسره ، ولم يبلغ فيه غايته ، كأهل الصين في الصناعات ، واليونانيين في الحكم والآداب ، والعرب فيما نحن فيه ذكروه في موضعه ، وآل ساسان في الملك ، والأتراك في الحروب . ألا ترى أن اليونانيين الذين نظروا في العلة لم يكونوا تجاراً ولا صناعاً بأكفهم ، ولا أصحاب زرع ولا فلاحه وبناء وغرس ، ولا أصحاب جمع ومنع ، وجرص وكذب ، وكانت الملوك تفرغهم ، وتجرى عليهم كفايتهم ، فنظروا حين نظروا بأنفسهم مجتمعة ، وقوة وافرة ، وأذهان فارغة ، حتى استخرجوا الآلات والأدوات ، والملاهي التي تكون جماماً للنفس ، وراحة بعد الكد ، وسروراً يداوي قرح الهموم ، فصنعوا من المرافق ، وصاغوا من المنافع كالقصرطونات ، والقبانات ، والأسطرلابات ، وآلة الساعات ، والكالكونيا والكشيزان والبركار وكأصناف المزامير والمعازف ، وكالطب والحساب والهندسة واللحون ، وآلات الحرب كالمجانيق ، والعرادات ،

والرُّبيلات ، والدُّبَابات ، وآلة النَّقَاط ، وغير ذلك مما يطول ذكره .

وكانوا أصحابَ حكمة ولم يكونوا فَعَلَةً ؛ يصوِّرون الآلة ، ويخترطون  
الأداة ، ويصوغون المثل ولا يُحسنون العملَ بها ، ويشيرون إليها ولا يمُسونها ،  
ويرغبون في العلم ويرغبون عن العمل .

فأما سُكَّان الصين فهم أصحاب السُّبُك والصِّيَاغَة ، والإفراغ والإذابة  
والأصبغ العجيبة ، وأصحاب الخَرْط والنَّحت والتصاوير ، والنسخ والخط ،  
ورفق الكفِّ في كلِّ شيء يتولَّونه ويُعائِنونه ، وإن اختلفت جواهره ، وتباينت  
صنعته ، وتفاوتت ثمنه .

واليونانيون يعرفون الفلك ، لأن أولئك حكماء وهؤلاء فَعَلَةٌ . وكذلك  
العرب ، لم يكونوا تجَّاراً ولا صنَّاعاً ، ولا أطباءً ولا حُساباً ، ولا أصحابَ فِلاحة  
فيكونون مهنة ، ولا أصحابَ زرع ، لحسبهم من صَفَّار الجِزْيَةِ . ولم يكونوا  
أصحاب جمعٍ وكسب ، ولا أصحابَ الحِمْيَرِ لما في أيديهم وطلب ما عند  
غيرهم ، ولا طلبوا المعاشَ من السنة الموازين ورؤوس المكاييل ، [ ولا عرفوا  
الدُّوانيق والقراريط ، ولم يفتقروا الفِقر المدقع الذي يشغل عن المعرفة ] ، ولم  
يستغنوا الغنى الذي يورث البلدة ، والثروة التي تحدث الغرَّة ، ولم يحتملوا ذُلًّا قطُّ  
فيميت قلوبهم ويصغر عندهم أنفسهم . وكانوا سكانَ فيافٍ وتربية العرَّاء ، لا  
يعرفون الغمق ولا اللنق ، ولا البُخار ولا الغلظ ولا العفن ، ولا التخم . أذهان  
جداد ، ونفوسٌ منكرة ، فحين حملوا حُدَّهم ووجَّهوا قواهم لقول الشعر وبلاغة  
المنطق ، وتشقيق اللغة وتصاريف الكلام ، بعد قيافة الأثر وحفظ النسب ،  
والاهتداء بالنجوم ، والاستدلال بالآفاق ، وتعرُّف الأنواء ، والبصر بالحليل  
والسَّلاح وآلة الحرب ، والحفظ لكلِّ مسموع والاعتبار بكلِّ محسوس ، وإحكام  
شأن المثالب والمنائب ، بلَغُوا في ذلك الغاية ، وحازوا كلَّ أمنيَّة . وبعض هذه  
العمل صارت نفوسهم أكبر ، وهمهم أرفع من جميع الأمم وأفخر ، ولأيامهم  
أحفظ وأذكر .

وكذلك الترك أصحاب عمَد وسُكَّان فيافٍ وأرباب مواشٍ ، وهم أعراب العَجَم كما أن هذيلًا أكراد العَرَب . فحين لم تشغلهم الصناعات والتجارات ، والطبُّ والفِلاحة والهندسة ؛ ولا غرسٌ ولا بُنيانٌ ، ولا شقُّ أنهار ، ولا جباية غلات ، ولم يكن همهم غير الغزو والغارة والصَّيد وركوب الخيل ، ومقارعة الأبطال ، وطلب الغنائم وتدويخ البُلدان ، وكانت همهم إلى ذلك مصروفةً وكانت لهذه المعاني والأسباب مسخرةً ومقصورةً عليها ، وموصولةً بها ، أحكموا ذلك الأمر بأسره ، وأتوا على آخره ، و [ صار ذلك هو صناعتهم وتجارتهم ، ولذتهم ] وفخرهم ، وحديثهم وسمرهم .

فلما كانوا كذلك صاروا في الحرب كالليونانيين في الحكمة ، وأهل الصين في الصناعات ، والأعراب فيما عددنا ونزلنا ، وكآل ساسان في الملك والرياسة .

ومما يُستدلُّ به على أنهم قد استقصوا هذا الباب واستغرقوه ، وبلغوا أقصى غايته وتعرفوه ، أن السيف إلى أن يتقلده متقلدٌ ، أو يضرب به ضاربٌ ، قد مرَّ على أيدي كثيرة ، وعلى طبقاتٍ من الصُّنَّاع ، كلُّ واحدٍ منهم لا يعمل عملَ صاحبه ، ولا يُحسنه ولا يدعيه ولا يتكلفه ، لأن الذي يذيب حديد السيف ويطبعه ، ويصفيه ويهدبه ، غير الذي يمده ويمطله ؛ والذي يمده ويمطله غير الذي يطبعه ويسوي متنه ، ويقيم خشبيته ؛ والذي يطبعه ويسوي متنه غير الذي يسقيه ويرهفه ، والذي يرهفه غير الذي يركب قبيعته وستوتق من سيلانه ، والذي يعمل مسامير السيلان و [ شاربِي ] القبيعة ونصل السيف غير الذي ينحت خشبَ غمده ، والذي ينحت خشبَ غمده غير الذي يدبغ جلده ، والذي يدبغ جلده غير الذي يجلِّيه ، والذي يجلِّيه ويركب نعله غير الذي يحرز هائله . وكذلك الشرج ، وحالات السهم والجمعبة والرُمح وجميع السلاح ، مما هو جارحٌ أو جُنَّةٌ .

والتركيُّ يعمل هذا كله لنفسه من ابتدائه إلى غايته ، فلا يستعين برفيق ، ولا يفزع فيه إلى صديق ، ولا يختلف إلى صانع ، ولا يشغل قلبه بمطالته وتسويفه ، وأكاذيب مواعيده ، وبغرم كرائه .

وحين بلغ أوس بن حجر صفة القانص ، وبلغ له الغاية في جمعه لأبواب الكفاية بنفسه ، قال :

قهي مبيت الليل للصيد مُطعم لأسهيمه غارٍ وبارٍ وراصفُ

وليس أنه ليس في الأرض تركي إلا وهو كما وصفنا ، كما أنه ليس كل يوناني حكيمًا ولا كل صيني غايًا في الخلق ، ولا كل أعرابي شاعرًا قائفًا ، ولكن هذه الأمور في هؤلاء أعم وأتم ، وهي فيهم أظهر وأكثر .

قد قلنا في السبب الذي تكاملت به النجدة والفروسيّة في التُّرك دون جميع الأمم ، وفي العلل التي من أجلها انتظموا جميع معاني الحرب ، وهي معانٍ تشتمل على مذاهب غريبة ، وخصالٍ عجيبة .

فمنها : ما يُقضى لأهله بالكرم ويُبغد الهمة وطلب الغاية . ومنها : ما يدلُّ على الأدب السديد والرأي الأصيل ، واللفظة الثاقبة والبصيرة النافذة . [ ألا ترى أنه ليس بدُّ لصاحب الحرب من الحلم والعلم ، والحزم والعزم ، والصبر والكتمان ، ومن الثقافة ] ، وقلة الغفلة وكثرة التجربة ، ولا بدُّ من البصر بالخيال والسلاح ، [ والخبرة ] بالرجال وبالبلاد ، والعلم بالمكان والزمان والمكايد ، وبما فيه صلاح هذه الأمور كلها .

والمَلِك يحتاج إلى أواخٍ شدادٍ وأسبابٍ متان ، ومن أتمها سيأ وأعماها نفعاً ما ثبته في نصابه ، وأقره وسكنه في قراره ، وزاد في تمكُّنه وبيئته ، وقطع أسباب المطمعة فيه ، ومنع أيدي البُغاة من الإشارة إليه فضلاً عن البسْط عليه .

قال : ثم إن التُّرك عطفَتْ على العرب بالمحاجة والمقايسة ، وقالوا : قلتم إن تكن القرابة مما يستحقُّ بالكفاية فنحن أقدمُ في الطاعة والوَدِّ والمناصحة ، وإن تكن تستحقُّ القرابة فنحن أقربُ قرابةً .

قالوا : والعرب بعد هذا صنفان : عدنان وقحطان . فأما القحطاني فنسبتنا إلى الخلفاء أقرب من نسبتهم ، ونحن أسُّ بهم رحماً ؛ لأن الخليفة من ولد

اسماعيل بن ابراهيم ، دون قحطان وعابر . وولد ابراهيم عليه السلام  
اسماعيل ، وأمه هاجر ، وهي قبطية . واسحاق وأمه سارة وهي سريانية .  
والسنة الباقون أمهم قطورا بنت مفظون عربية ، من العرب العاربة .

وفي قول القحطانية : إن أمنا أشرف في الحسب إذ كانت عربية . وأربعة  
من السنة هم الذين وقعوا بخراسان ، فأولدوا ترك خراسان . فهذا قولنا  
للقحطاني .

وأما قولنا للعدناني ، فإبراهيم أبونا ، واسماعيل عمنا ، وقرابتنا من  
اسماعيل كقرابتهم .

قال الهيثم بن عدي : قيل لمبارك التركي ، وعنده حماد التركي : إنكم من  
مذحج . قال : ومذحج هذا من هو ذاك ؟ وما نعرف إلا إبراهيم خليل الله  
وأمر المؤمنين .

قال الهيثم : وقد كان سقط إلى بلاد الترك رجل من مذحج فأنسل نسلأ  
كثيراً ، ولذلك قال شاعر الشعوبية للعرب في قصيدة طويلة :

زعمتم بأن الترك أبناء مذحج      وبينكم قرى وبين البرابر  
وذنكم نسل ابن ضبة باسل      وصوفان أنسال كثير الجرائر

وقال آخر :

متى كانت الأتراك أبناء مذحج      إلا إن في الدنيا عجيباً لمن عجب

وقد سمعتم ما جاء في سد بني قطورا وشأن خيولهم بنخل السواد ، وإنما  
كان الحديث على وجه التهويل والتخويف بهم لجميع الناس ، فصاروا للإسلام  
مادة [ و ] جنداً كثيراً ، وللخلفاء وقاية وموتلاً وجنة حصينة ، وشعاراً دون  
الذئار .

وفي المأثور من الخبر : « تاركوا الترك ما تاركوكم » . وهذه وصية لجميع  
العرب ؛ فإن الرأي متاركتنا ومسالمتنا . وما ظنكم بقوم لم يعرض لهم ذو

القرنين . ويقول « اتركوهم » سُموا التُّرك . هذا بعد أن غلب على جميع الأرض  
غلبة وقسراً ، وغنوة وقهراً .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « هذا عدوٌ شديدٌ كَلْبُه ، قليل  
سَلْبِه » . فنهى كما ترى عن التعرُّض لهم ؛ بأحسنِ كناية .

والعربُ إذا ضربت المثلُ في العداوة الشديدة قالوا : ما هم إلا التُّركُ  
والدَّيلم .

قال عمّلس بن عقيل بن علفة :

تبدلت منه بعد ما شاب مفرقي عداوة تُركي وبغض أبي جنل

وأبو حنل هو الضب . والعرب تقول : « هو أعق من ضب » : لأنه

يأكل أولاده .

ولم يُرعب قلوبَ أجناد العرب مثل التُّرك . وقال خلف الأحر :

كأنّي حين أرهنهم بنبي دفعتهم إلى صهب السبال

قال : وإياهم عنى أوس بن حجر بن سدي

نكبتُها مائةم لما رأيتهم شهب السبال بأيديهم بيسازير

وحدثني ابراهيمُ بن السُّندي مولى أمير المؤمنين ، وكان عالماً بالدولة ،  
شديد الحبِّ لأبناء الدعوة ، وكان يحوط مواليه ويحفظ أيمانهم ، ويدعو الناس إلى  
طاعتهم ، ويدرسهم منقابهم ، وكان فخم المعاني فخم الألفاظ ، لو قلت لسأته  
كان أردُّ على هذا الملك من عشرة آلاف سيفٍ شهير ، وبنانٍ طرير ، لكان ذلك  
قولاً ومذنباً .

قال : حدثني عبد الملك بن صالح ، عن أبيه صالح بن علي ، أن خاقان  
ملك التُّرك واقف مرة الجنيد بن عبد الرحمن أمير خراسان ، وقد كان الجنيد هاله  
أمره ، وافزعه شأنه ، وتعاطمه جموعه وجمعه ، ويعل به ، وفظن به خاقان وعرف  
ما قد وقع فيه ، فأرسل اليه :

«إني لم أقف هذا الموقف وأمسك هذا الإمساك وأنا أريد مكروهاً ، فلا تُرغ . ولو كنت أريد غلبةً أو مكروهاً لقد كنت انتسفتُ عسكرك انتسافاً أعجلك فيه عن الروية وقد أبصرتُ موضع العورة . ولولا أن تعرف هذه المكيدة فتعود بها على غيري من الأتراك ، لعرفتُك موضع الانتشار والخلل والخطأ في عسكرك وتعبيتك . وقد بلغني أنك رجل عاقل ، وأن لك شرفاً في بيتك وفضلاً في نفسك ، وعلماً بدينك ، وقد أحببت أن أسأل عن شيء من أحكامكم لأعرف به مذهبكم ، فاخرج إلي في خاصيتك لأخرج إليك وحدي ، وأسألك عما احتاج إليه بنفسي . ولا تحتفل ولا تحترس ؛ فليس مثلي من غدر ، وليس مثلي يؤمن من نفسه ، ومن مكره وكيده ، ثم ينكث بوعده . ونحن قوم لا نخدع بالعمل ، ولا نستحسن الخديعة إلا في الحرب ، ولو استقام أمر الحرب بغير خديعة لما جوزنا ذلك لأنفسنا .»

فأبى الجنيد أن يخرج إليه إلا وحده ، ففصلا من الصوف . وقال : سأل عما أحببت ، فإن كان عندي جواب أرضاه أجبتك ، وإلا أشرت عليك بمن هو أبصر بذلك مني .

مركز تحقيقات كويتية للدراسات والبحوث

قال : ما حكمكم في الزاني ؟

قال الجنيد : الزاني عندنا رجلان : رجل دفعنا إليه امرأة تغنيه عن حرم الناس ، وتكفه عن حرم الجيران ؛ ورجل لم نعطه ذلك ، ولم نحل بينه وبين أن يفعل ذلك لنفسه . فأما الذي لا زوجة له فإننا نجلده مائة جلدة ونحضر ذلك الجماعة من الناس لنشهره ونحذره به ، ونغربّه في البلدان لنزيد في شهرته وفي التحذير منه ، ولينزجر بذلك كل من كان يهمل عمله . فأما الذي قد [ أغنياه ] فإننا نرجمه بالجنادل حتى نقتله .

قال : حسن جميل ، وتدبير كبير ، فما قولكم في الذي يقيف عفيفاً بالزنى ؟

قال : يجلد ثمانين جلدة ، ولا تقبل له شهادة ، ولا تصدق له حديثاً .

قال : حَسَنٌ جَمِيلٌ ، وَتَدْبِيرٌ كَبِيرٌ ، فَمَا حُكْمُكُمْ فِي السَّارِقِ ؟

قال : السَّارِقُ عِنْدَنَا رَجُلَانِ : رَجُلٌ يَحْتَالُ لِمَا قَدْ أَحْرَزَهُ النَّاسُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَتَّى يَأْخُذَهَا بِتَنْقَبِ حَيْطَانِهِمْ وَيَتَسَلَّقُ مِنْ أَعَالِي دُورِهِمْ ، فَهَذَا نَقَطَعَ يَدَهُ الَّتِي سَرَقَ بِهَا ، وَتَنْقَبَ بِهَا ، وَاعْتَمَدَ عَلَيْهَا . وَرَجُلٌ آخَرَ يُخَيِّفُ السَّبِيلَ ، وَيَقَطَعُ الطَّرِيقَ ، وَيَكَايِدُ عَلَى الْأَمْوَالِ ، وَيَشْهَرُ السُّلَاحَ فَلِئِنْ مَنَعَهُ صَاحِبُ الْمَتَاعِ قَتَلَهُ ، فَهَذَا نَقَتَلَهُ وَنَصَلِيهِ عَلَى الْمَنَاهِجِ وَالطَّرِيقِ .

قال : حَسَنٌ جَمِيلٌ ، وَتَدْبِيرٌ كَبِيرٌ . قال : فَمَا حُكْمُكُمْ فِي الْغَاصِبِ وَالْمُسْتَلَبِ ؟

قال : كُلُّ مَا فِيهِ الشُّبْهَةُ وَيَجُوزُ فِيهِ الْغَلَطُ وَالْوُجُوهُ ، كَالْغَضَبِ وَالِاسْتِلَابِ ، وَالْجَنَائِيَةِ ، وَالسَّرِقَةِ لِمَا يُؤْكَلُ أَوْ يُشْرَبُ فَإِنَّا لَا نَقَطَعُ فِيهَا فِيهِ شُبْهَةً وَنَتَمَحَّلُ لِذَلِكَ وَجَهًا غَيْرَ السَّرِقَةِ .

قال : حَسَنٌ جَمِيلٌ وَتَدْبِيرٌ كَبِيرٌ . قال : فَمَا حُكْمُكُمْ فِي الْقَاتِلِ وَقَاطِعِ الْأُذُنِ وَالْأَنْفِ ؟

قال : النَّفْسُ بِالنَّفْسِ ، وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ ، وَالْأَنْفُ بِالْأَنْفِ . وَإِنْ قَتَلَ رَجُلًا عَشْرَةَ قَتَلْنَاهُمْ . وَنَقْتُلُ الْقَوِيَّ الْبَدْنَ بِالضَّعِيفِ الْبَدَنِ ، وَكَذَلِكَ الْيَدُ وَالرُّجْلُ .

قال : حَسَنٌ جَمِيلٌ وَتَدْبِيرٌ كَبِيرٌ . قال : فَمَا تَقُولُونَ فِي الْكُذَّابِ وَالنَّمَامِ وَالضُّرَاطِ .

قال : عِنْدَنَا فِيهِمُ الْإِقْصَاءُ لَهُمْ وَإِبْعَادُهُمْ وَإِهَانَتُهُمْ ، وَلَا نَقْبَلُ شَهَادَتَهُمْ ، وَلَا نَصَدِّقُ أَحْكَامَهُمْ .

قال : وَلَيْسَ إِلَّا هَذَا ؟

قال : هَذَا جَوَابُنَا عَلَى دِينِنَا .

قال له : أَمَا النَّمَامُ عِنْدِي ، هُوَ الَّذِي يُضْرَبُ بَيْنَ النَّاسِ ، فَلِئِنْ أَحْبَبْتَهُ فِي مَكَانٍ لَا يَرَى فِيهِ أَحَدًا . وَأَمَا الضُّرَاطُ فَلِئِنْ أَكْرِي أَسْتَهُ ، وَأَعَاقِبُ ذَلِكَ الْمَكَانَ

فيه . وأما الكذاب فإني أقطع الجارحة التي بها يكذب ، كما قطعتم اليد التي بها يسرق ، وأما الذي يضحك الناس ويعودهم السخف فإني أخرجهم من سلطاني ، وأصلح بإخراجه عقول رعيقي .

قال : فقال الجنيد بن عبد الرحمن : أنتم قوم تردون أحكامكم إلى جواز العقول ، وإلى ما يحسن في ظاهر الرأي ؛ ونحن قوم نتبع الأنبياء ، ونرى أن لم نصلح على تدبير العباد . وذلك أن الله تعالى أعلم بغيب المصالح وسير الأمور وحقائقه ، ومحصوله وعواقبه ، والناس لا يعلمون ولا يرون الحزم إلا على ظاهر الأمور . وكم من مضيع يسلم ، وحازم يعطب .

قال : ما قلت كلاماً أشرف من هذا ، ولقد ألقيت لي فكراً طويلاً .

قال إبراهيم : قال عبد الملك : قال صالح : قال الجنيد : فلم أر أوفى ولا أنصف ولا أفهم ولا أذكى منه . ولقد واقفته ثلاث ساعات من النهار وما تحرك منه شيء إلا لسانه ، وما مني شيء لم أحركه . وهكذا يصفون ملوك الترك ، يزعمون أن ساسان وخابان الأكبر ، تواقفا ببعض الكسور ، وفضلاً من الصفيين ، وطالت المناجاة ، فلما انفتلا قالوا : كان خاقان أركن وآدب ، وكان مركب كسرى أركن وآدب ، ولم يتحرك من خاقان إلا لسانه ، وكان برذونه يرفع قائمة ويضع أخرى ، وكان مركب كسرى كأنما صب صباً ، وكان كسرى يحرك رأسه ويشير بيده .

قالوا : ومن الأعاجيب أن الحارث بن كعب لا يقوم لحزم ، وحزم لا تقوم لكندة ، وكندة لا تقوم للحارث بن كعب .

قالوا : ومثل ذلك من الأعاجيب في الحارث : أن العرب لا تقوم للترك ، والترك لا تقوم للروم ، والروم لا تقوم للعرب .

قال جهم بن صفوان الترمذي : قد عرفنا ما كان بين فارس والترك من الحرب ، حتى تزوج كسرى أبرويز ، خاتون بنت خاقان ، يستميله بذلك

الصهر ، ويدفع بأسه عنه . وقد عرفنا الحروب التي كانت بين فارس والروم ، وكيف تساجلوا الظفر ، وبأي سبب غرس الزيتون بالمداخن وسوسا ، وبأي سبب بنيت الرومية ولم سميت بذلك ، ولم يبق كسرى على الخليج قبالة قسطنطينية النواويس وبيوت النار . ولكن متى ظهرت الروم على ترك خراسان ظهوراً موالياً ، ضربوا بها المثل إلى آخر دارمه ، ومن هناك من الأشباه ، ومن يتخلل هذا النسب .

وكانت خاتون بنت خاقان عند أبرويز فولدت له شيرويه . وقد ملك شيرويه بعد أبرويز ، فتزوج شيرويه مريم بنت قيصر ، فولدت له فيروزا شامي أم يزيد الناقص والوليد . وكان يقول : ولدني أربعة أملاك : كسرى ، وخاقان ، وقيصر ، ومروان . وكان يرتجز في حروبه التي قتل فيها الوليد بن يزيد بن عاتكة :

أنا ابن كسرى وأبي خاقان وقيصر جدّي وجدّي مروان  
فلما صار إلى الافتخار في شعره بالنجدة والثغافة بالحرب ، لم يفخر إلا بخاقان فقط فقال :

فإن كنت أرمي مقبلاً ثم مدبراً وأطلع من طويد زليق على مهر  
فخاقان جدّي فاعير في ذلك واذكري أخا بيرة في السهل والجبل السويعر

قوله « وأطلع » يريد : وأنزل ، وهي لغة أهل الشام وأخذوها من نازلة العرب في أول الدهر . وجعل دابته مهراً ، لأن ذلك أشد وأشق .

وقال الفضل بن العباس بن رزين : أتانا ذات يوم فرسان من الترك ، فلم يبق أحد ممن كان خارجاً إلا دخل حصنه وأغلق بابه ، وأحاطوا بحصن من تلك الحصون ، وأبصر فارس منهم شيخاً يطلع إليهم من فوق ، فقال له التركي : لكن لم تنزل إلي لاقتلنك قتلة ما قتلتها أحداً قال : فنزل إليه وفتح له الباب ، ودخلوا الحصن ، واكتسحوا كل شيء فيه ، فضحك من نزوله إليه وفتح له وهو

في أحصن موضع وأمنع مكان ، ثم أقبل به إلى حصن أنا فيه فقال : اشتروه مني . قلنا : لا حاجة لنا في ذلك . قال : فإني أبيعُه بدرهم واحد . فرمينا إليه بدرهم فخلّ سبيله ، ثم أدبر عنا ومضى مع أصحابه ، فما لبث إلا قليلاً حتى عاد إلينا فوقف حيث نسمع كلامه ، فراعنا ذلك ، فأخرج الدرهم من فمه وكسره بنصفين . وقال : لا يسوى درهماً ، وهذا غبن فاحش ، فخذوا هذا النصف ، وهو على كل حال غالٍ جداً بالنصف الآخر .

قال : فإذا هو أظرف الخلق .

قال : وكنا نعرف ذلك الرجل بالجبن ، وقد كان سيع باحتيال الترك في دخول المدن وغُبور الأنهار في الحروب ، فتوهم أنه لم يتوعد بفتح الباب .

وقال ثمامة : ما شَبَّهتُ الذرَّ إلا بالترك ، لأن كلُّ ذرةٍ على جذتها معها من المعرفة بأدخار الطعام ، ومن الشَّم والاسْترواح ، ونَجِب المدخَر حتى لا يَنْبَت في جحره ، ثم الاحتيال للناس في الاحتيال لها بالصمامة والعفص والمزدجر ، وتعليق الطعام على الأوتاد والبرادات ، مثل الذر مع صاحبها .

وقال أبو موسى الأشعري : كل جنس يحتاج إلى أمير ورئيس ومبدبّر ، حتى الذر .

وروى أبو عمر الضريّر ، أن رئيس الذر الرائد الذي يخرج أولاً لشيء قد شمه دون أصحابه ، لخصوصية خصه الله تعالى بها ، ولطافة الحس ، فإذا حاول حمله وتعاطى نقله ، وأعجزه ذلك بعد أن يبلي عُذراً ، أتاهم فأخبرهم فرجع ، وخرجت بعده كأنها خيط أسود ممدود . وليست ذرة أبداً تستقبل ذرة أخرى إلا واقفتها وسارتها بشيء ثم انصرفت عنها .

وكذلك الأتراك كل واحد منهم غير عاجز عن معرفة مصلحة أمره ، إلا أن التفاضل واجب في جميع أصناف الأشياء والنبات والموت . وقد تختلف الجواهر وكلها كريم ، وتفاضل العتاق وكلها جواد .

وقد قلنا في مناقب جميع الأصناف بجُمَل ما انتهى إلينا وبلغه علمنا ؛ فإن وقع ذلك بالموقفه فبشوق الله وصنعه ، وإن قصر دون ذلك فالذي قصر بنا نقصان علمنا ، وقلة حفظنا وسماعنا . فأما حسن النية ، والذي نُصير من المحبة والاجتهاد في القربة ، فلإنا لا نرجع في ذلك إلى أنفسنا بلائمة . وبين التقصير من جهة التفريط والتضييع ، وبين التقصير من جهة العجز وضعف العزم ، فرق .

ولو كان هذا الكتاب من كتب المناقضات ، وكتب المسائل والجوابات ، وكان كل صنف من هذه الأصناف يريد الاستقصاء على صاحبه ، ويكون غايته إظهار فضل نفسه وإن لم يصل إلى ذلك إلا بإظهار نقص أخيه ووليّه ، لكان كتاباً كبيراً ، كثير الورق عظيماً ، ولكان العدد الذين يقضون لمؤلفه بالعلم والاتساع في المعرفة أكثر وأظهر ، ولكننا رأينا أن القليل الذي يُجمع خير من الكثير الذي يُفرق .

ونحن نعوذ بالله من هذا المذهب ، ونسأله العون والتسديد ، إنه سميع قريب ، فعلاً لما يريد .

تم الكتاب والله المتق ، وببذره الحول والقوة

والله الموفق للصواب

الحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين الطاهرين وسلامه وهو حسبنا ونعم الوكيل .



## هامش رسالة مناقب الترك

### وعامة جند الخلافة

- (١) يجب اقتران القول بالفعل ، او المعرفة بالعمل . وقد كثر المارفون وقل العاملون بين الناس . وقد سبق ابن المقفع في كليله ودمته الى التأكيد على هذه الفكرة .
- (٢) التأول : الذي يفسر الأمور كما يحلو له . قارن معنى التأويل عند الجاحظ ومعناه الذي انتهى اليه ابن رشد الذي يقول ان التأويل هو ارجاع اللفظ من المعنى الحقيقي الى المعنى المجازي .
- المحكوم عليه : الذي صدر بحكم إدانة بحقه .
  - معدول عن الحكم : الذي نحي عن الحكم .
  - المتعطل والمتصفح : الذي لا يعمل شيئاً ويكتفي بالمراقبة .
  - المعجب برأيه : الذي يجب الاعتراض والنقد ، ويعتبر نفسه قائداً للناس ووكيلاً عنهم يدافع عن حقوقهم . يشك في كل شيء ، ولا يصدق احداً .
  - المحروم : الذي لم ينل حقوقه .
  - اللثيم الذي يفسده الاحسان ، يشبه قول الامام علي بن ابي طالب : اتق شر من احسنت اليه .
  - المستبطىء والمستريد : يعني الناس الذين يغلب عليهم الطمع فلا يرضون بما ينالون من السلطان مهما عظم شأنه .
  - صاحب الفتنة : الانسان الذي ينزع الى اثاره الفتن . ويكون هذا رئيس فرقة سياسية او كلامية ابعد السلطان فاغتياظ وعمد الى التشنيع على السلطان واثارة الريب والاكاذيب والظنون به .
  - وتضم لائحة اعداء السلطان تسعة اصناف اجاد الجاحظ حصرهم .



- « حليف القوم منهم » قول نسب للنبي وهو سبب آخر في النسب كسبب الولاء وهذا الحكم ينطبق على الأتراك . فهؤلاء صاروا من العرب بسبب الحلف .

(٧) الخراسانيون يؤكدون على فضلهم على العباسيين لانهم نصرهم ضد الامويين عندما ثاروا بقيادة ابي مسلم الخراساني وزحفوا نحو الشام لاسقاط الدولة الاموية . ويذكرون الرتب العسكرية التي تدل على تنظيمهم من نقباء ونجباء وخذقية وكفية والرغندية والازامردية .

- الشيعة هنا لا تعني الفرقة الاسلامية التي تتبع علي بن ابي طالب . وانما تعني الانصار أو المؤيدين بشكل مطلق .

- لاحظ توزيع الاحزاب والفرق في البلاد الاسلامية في مطلع الدولة العباسية او نهاية الدولة الاموية : العثمانية في البصرة ، والمروانية في الشام ، والخوارج في الجزيرة العربية . اما بلاد فارس فلم تنتشر فيها الفرق ولم يغلب عليهم أحد .

- الصحاحية والدالية والذكوانية والراشدية ، فرق كلامية او حزبية ظهرت في العصر الأموي .

- لاحظ النزعة الشعبية : تفضيل الخراسانيين على جند الشام العرب .

- لاحظ انواع الاسلحة التي كان يستعملها الفرس : الخطبول ، والبنود ، والاجراس ، والبازيكند (كساء يوضع على الكتف) ، واللبود ، والسيوف المعقوفة ، والقلائس ، والخيول الشهبية ( البراذين ) ، والكافركوبات ( المقارع ) ، والطبرزينات ( الفؤوس ) ، والخناجر ، والدروع ، والركاب . عدا تلك التي تستعمل في التمارين العسكرية مثل الدبوق ( لعبة للصبيان ) ، والتزو على الخيل ، والطباطب ( مضرب الكرة ) والصولجان ، والمحتمة ( ما نصب من الحيوان للرمي والقتل ) والبرجاس ( غرض في الهواء على رأس رمح ) والطار الخطاف .

(٨) مفاخر العرب تقتصر على الشعر الموزون ، وقرابة النبي والسبق الى الدين الاسلامي وحمل لوائه ، والانساب النقية ، والخطابة . ورد دعوى الخراسانيين بانهم اصحاب الدعوة العباسية . ان قواد تلك الدعوة من العرب وقد سمي أهمهم امثال قحطبة ابن شبيب الطائي ، وسليمان بن كثير الخزاعي الخ . .

(٩) مفاخر الموالي تجمع النسب الذي يعتز به العرب لانهم عرب بالولاء ، والاصل الذي يفتخر به العجمي اي الفارسي .

ويفخرون بحب النبي اياهم ، فقد عقد لاسامة بن زيد وهو مولى علي عظماء المهاجرين والانصار وقال عنه انه « الحب ابن الحب » .

(١٠) مفاخر الابناء تنحصر في الشجاعة والاقدام في الحروب والفتك وقمع الثورات

واعمال الشغب . ويبدو ان الحليدية والكثبية والبلابية والحريبية حركات تمرد قمعها  
الابناء .

(١١) يؤكد الجاحظ من جديد اتفاق الاعراق والاجناس التي تشكل منها الدولة  
العباسية . فليس الاختلاف في الاسم دليلاً على الاختلاف في الحقيقة . والروابط  
التي توحدتهم هي الولاء والخلف والاصل الواحد لجميع البشر من آدم وحواء .  
- ان الناس جميعاً عبيد الله يقلبهم كيف يشاء ويخلقهم ، كيف يشاء . وله ان يجعل  
من شاء عربياً ومن شاء عجمياً ، من شاء ذكراً ومن شاء انثى ؛ وهو الذي خلق  
آدم من غير اب وام وخلق حواء من ضلعه ، وخلق عيسى من غير ذكر ، وخلق  
الجان من النار وخلق السماء من دخان والارض من ماء ، وعلم سليمان منطق  
الطير .

والجاحظ يذكر مشيئة الله في خلقه ليعين انه لا فضل لمخلوق على آخر . وقد ميز  
بين الاعراق والاجناس كما ميز بين اصناف المعادن ولنلاحظ قوله مثل طاليس ان  
الماء اصل العالم .

(١٢) « هذا كتاب كنت قد كتبه ايام المعتصم رضي الله عنه فلم يصل اليه » . هذه  
العبارة تدل على تاريخ تأليف الكتاب او قسم منه في عهد الخليفة المعتصم .  
والقسم الاول الذي ينتهي هنا قد وضع ايام المتوكل . واذا كان القسم الذي وضع  
في عهد المعتصم يتناول مفاخر الاتراك ( لان الاتراك غلبوا على السلطة ايام  
المعتصم وكثر عدوهم في الجيش ) فان القسم الاول الذي وضع ايام المتوكل يتناول  
مفاخر الخراسانيين والعرب والموالي والابناء ( لان المتوكل حاول ايجاد التوازن في  
الجيش بين مختلف الاجناس ) .

وعمل هذا الاساس بنهي اعادة ترتيب مادة الكتاب . بحيث يوضع القسم الثاني  
الذي يبدأ بعبارة : « هذا كتاب كنت كتبه ايام المعتصم » في اول الكتاب .

(١٣) يذكر الجاحظ مناسبة تأليف الكتاب وهي السؤال الذي طرحه الخليفة المأمون على  
قواده والمقرين اليه امثال . محمد بن حميد الطوسي والاختيميد واي شجاع وعيسى بن  
معاذ : ايها اشجع التركي او الفارسي .

(١٤) خصال الخوارج : صدق الاقدام ، والصبر ، والنصر ، وقلة الامتعة .

الحزون جمع حزن هو المرتفع .

بنات شجاع : البغال .

بنات سهال : الخيول .

(١٥) للتركي اربعة عيون : عينان في وجهه وعينان في قفاه، وللخارجي عين - ولا عيب -

في مستدير الحرب وللخراساني عين في مستقبل الحرب . وبذا يصح المعنى . والعين هنا استعملت بمعنى البصر في الأمر والعلم به . فالتركي يتحسب الحرب في جميع الجهات والخارجي يحسن الكرا إلى الامام والخراساني الكرا إلى الامام .  
الوهق : الحبل . الانتصاف : الاقتلاع .

المهلب بن أبي صفرة ، الحريش بن هلال وعباد بن الحصين التميميان ، من الفرسان المشهورين . وكان المهلب والياً على خراسان ابان الدولة الاموية .

- الخوارج جمعوا في صفوفهم اجناساً مختلفة من اصقاع متباينة وانقسموا الى فرق عدة . فكان منهم اعداد من سجستان وخراسان والجزيرة واليمامة والمغرب وعمان ، وانضوى تحت لوائهم العربي والمولى والعجمي والاعرابي والعبدي والمرأة والحائك والفلاح .

وقد انقسموا الى فرق ذكر منها الجاحظ هنا الازارقة والنجيدات والاباضية والصفرية .

الازارقة نسبة الى رئيسهم نافع بن الازرق الحنفي ، قالوا بتكفير علي بن ابي طالب وكل مرتكب كبيرة ، وكل قاعد عن الجهاد .

وفرقة النجدات او النجدية نسبة الى رئيسهم نجدة بن عامر الحنفي . قالوا يجب على المسلمين معرفة الله ورسله وتحريم دماء المسلمين واموالهم . وما سوى ذلك

فالناس معذورون فيه بجهلهم .  
وفرقة الصفرية نسبة الى عبد الله بن الاصغر قالوا ان جميع مخالفيهم كفار يجب قتلهم .

- حمزة بن ادرك الخارجي : صاحب احدي فرق العجاردة من الخوارج ، خرج في خراسان ايام الرشيد وبقي يقاتل حتى ايام المأمون .

- الوليد بن طريف أحد رؤساء الخوارج قتله يزيد بن يزيد القائد العباسي .

- نعام بن اشرس احد شيوخ المعتزلة ومعاصر الجاحظ، هو كما يقول الجاحظ عربي بيد انه معجب الاثراك . وقد وقع في اسرهم مرة فاكرموه ، وشهد بعض وقائعهم

- الجاحظ يذكر انه رافق المأمون في بعض غزواته . ويرر اصطناع المنتصم للاثراك عندما تولى الخلافة لشدة بطشهم وصبرهم على القتال . ويذكر ايضاً ما شاهده من انفلات فرس من الجنود الخراسانيين وغيرهم وعجزهم عن اخذها حتى جاء تركي فقبض عليها وسلمهم اياها .

- لاحظ كيف يفسر الجاحظ ظاهرة تعلق الاثراك بوطنهم وحنينهم اليه اكثر من

العرب وسائر الأمم . لأن تركيبهم وطبيعتهم من تركيب بلادهم . وقد اورد بعض هذه الافكار في كتاب الاوطان والبلدان .

(١٦) قارن الجاحظ بين مختلف الأمم من عرب ويونانيين وأتراك وفرس وصينيين وخلص

الى القول ان الاتراك تفوقوا في الحرب تفوق اليونانيين بالحكمة واهل الصين في الصناعة ، والعرب بالأدب ، وآل ساسان في الرياسة . وقد مهد السبيل في هذه المقارنة الى ابن صاعد الاندلسي صاحب كتاب طبقات الامم .

- لاحظ انساب العرب والاتراك واليهود . كلهم يتهون الى جد مشترك هو ابراهيم ويتحدرون من ثلاث امهات تزوجهن ابراهيم : هاجر القبطية ، وسارة السريانية ، وقطورا بنت مفظون العربية .

- اسم الاتراك جاء من التَّرك تبعاً للحديث المأثور : تاركوا الترك ما تاركوكم . ويقولون « اتركوهم سموا الترك » .

- الجاحظ يترجم لابراهيم بن السندي مولى امير المؤمنين المعتصم . وقد حدثه عن خاقان ملك الترك الذي حارب الجنيد بن عبد الرحمن المري امير خراسان من قبل هشام بن عبد الملك الخليفة الاموي . ويروي ما دار بينهما من حديث حول احكام الدين الاسلامي في الزنا والسرقه والسلب والقتل الخ . . .

- الفرق بين العقول والنقل : اصحاب العقول يردون احكامهم الى جواز العقول وما يحسن في الرأي . واصحاب النقل يتبعون ما ورد في كتب الانبياء لعلمهم أن الله ادري بصالح الخلق .

- جهنم بن صفوان ( ١٢٨ هـ ) مؤسس فرقة الجهمية . قال بالجبرية والاضطرار وانكر حرية الانسان او قدرته على فعل اعماله . وقال ان الايمان هو المعرفة بالله والكفر هو الجهل به ، وقتل في اواخر الدولة الاموية .





[ ١ - مقدمة ]

تولاك الله وحفظك ، وأسعدك بطاعته ، وجعلك من الفائزين برحمته .

ذكرت - أعاذك الله من الغش - أنك قرأت كتابي في مُحاجة الصُّرحاء  
للهجناء ، وردُّ الهُجَناء ، وجواب أحوال الهُجَناء ، وأني لم أذكر فيه شيئاً  
من مفاخر السودان . فاعلمُ حفظك الله أني أخبرت ذلك متعمداً .

وذكرت أنك أحببت أن أكتب لك مفاخر السودان ، فقد كتبتُ لك ما  
حضرني من مفاخرهم .

قال الأصمعي : قال الفيزرُ عبدُ قزارة وكانت في أذنه خُرْبَةٌ : إنَّ الوئام  
يتترع في جميع الطَّمش : لا يقرب العنز الضَّان ما وجدت الماعز ، وتنفر الشَّاء  
من المِخلب ولا تأنس بالخُف .

وأنشد أبو زيد النحوي :

لولا الوئام هلك الإنسان

وقال شدَّاد الحارثي - وكان خطيباً عالماً - : قلتُ لأمَّةٍ سوداءٍ بالبادية :  
لمن أنتِ يا سوداء ؟ قالت : لسيد الحَضْر يا أصلع . قال : قلتُ أولستِ  
بسوداء ؟ قالت : أولست أصلع ؟ قلت : ما أغضبكِ من الحق . قالت :

الْحَقُّ أَغْضَبَكَ ، لَا تَشْتُمُ حَتَّى تُرْهَبَ ، وَلَآنَ تَتْرَكَهُ أَمَثَلٌ .

وقال شداد : لقد كلمتها وأنا اظنُّ أني أفي بأهل نجد ، وما نزعَتْ عني إلا وأنا عند نفسي لا أفي بأمقي .

وقال الأصمعي : قال عيسى بن عمر : قال ذو الرُّمَّة : فاتل الله أمة آل فلان السوداء ، ما كان أفصحها وأبلغها ! سألتها كيف كان المطر عندكم ؟ قالت : غثنا ما شئنا .

[ ٢ - نجباء السودان ]

أن لقمان الحكيم منهم ، وهو الذي يقول : ثلاثة لا تعرفهم إلا عند ثلاثة : الحليم عند الغضب ، والشجاع عند الخوف ، والأخ عند حاجتك .

وقال لابنه : إذا أردت أن تخالط رجلاً فأغضبه قبل ذلك ، فإن أنصفك وإلا فاحذره .

ولم يرووا ذلك عنه إلا وله أشياء كثيرة . وأكثر من هذا مدح الله إياه وتسميته الحكيم ، وما أوصى به ابنه .

ومنهم : سعيد بن جبير ، قتله الحجاج قبل موته بسنة أشهر وهو ابن تسع وأربعين سنة ، ومات الحجاج وهو ابن ثلاث وخمسين سنة . وكان سعيداً أورع الخلق وأتقاهم ، وكان أعظم أصحاب ابن عباس . وأصحاب الحديث يطعنون في الذي يجيء من قبل أصحاب ابن عباس حتى يجيء [ من ] سعيد ابن جبير . وأبوه مولى بني أسد ، وهو مولى بني أمية ، وقُتل يوم قُتل والناس يقولون : كلنا محتاج إليه .

ومنهم : بلال الحبشي رضي الله عنه ، الذي يقول فيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إن أبا بكر سيدنا وأعتق سيدنا ، وهو ثلث الإسلام .

ومنهم : مهنج ، وهو أول قتيل قُتل بين الصُفَّيين في سبيل الله .

ومنهم : المقداد ، وهو أول من عدا به فرسه في سبيل الله .

ومنهم : وحشي قاتلُ مُسَيْلَمَةَ الكَذَّابِ . وكان يقول : قتلتُ خيرَ الناسِ - يعني حمزةَ بنَ عبدِ المطلبِ رضي اللهُ عنه - وقتلتُ شرَّ الناسِ - يعني مُسَيْلَمَةَ الكَذَّابِ .

ومنهم : مكحولُ الفقيه .

ومنهم : الحَيْقُطَانُ الشَّاعِرُ ، الذي كان يَفْضُلُ في رأيه وعقله وهنئه . وهو الذي يقول في الإخوان : لا تعرفُ الاخَ حتى ترافقه في الحَضَرِ ، وتزامله في السَّفَرِ .

ومنهم : جُلَيْبِيبُ الذي تحدّثت الرواةُ أن رسولَ الله صلى اللهُ عليه وسلم خرج في غزاةٍ فقال لأصحابه : هل تَفْقِدُونَ من أحدٍ ؟ قالوا : نفقد فلاناً وفلاناً . ثم خرج فقال : هل تَفْقِدُونَ من أحدٍ ؟ قالوا : نفقد فلاناً وفلاناً . ثم خرج فقال : هل تَفْقِدُونَ من أحدٍ ؟ قالوا في الثالثة : لا . قال : لكني أفقد جُلَيْبِيباً ، اطلبوه . فطلبوه فوجدوه بين سبعةٍ قد قتلَهُمْ ثم قُتِلَ . فقال النبي صلى اللهُ عليه وسلم : « قَتَلَ سَبْعَةَ ثُمَّ قَتَلُوهُ هَذَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ » . قال : ثم حملهُ على ساعديهِ حتى حَفَرُوا له ، ماله سريراً غير ساعدي رسولِ الله صلى اللهُ عليه وسلم . قال : ولم يذكرُوا غسلًا .

ومنهم : فرجُ الحُجَّامِ وكان من أهل العَدالة ، والمقدِّمين في الشهادة . اعتقه جَعْفَرُ بنُ سُلَيْمَانَ ، وذلك أنه خدّمه دهرًا يصلحُ شاربه ولحيته وبيته ، فلم يره أخطأ في قولٍ ولا عملٍ ، فقال : واللّه لأمتحنه ، فإن كان ما أرى منه عن تدبيرٍ وقصدٍ لأعتقنه ولأزوجه ولأغنيته . وإن كان على غير ذلك عرفتُ الصُّنْعَ فيه . فقال له ذاتَ يومٍ وهو يحجمه : يا غلامُ ، أمتحجم ؟ قال : نعم . قال : ومتى ؟ قال : عند الحاجة . قال : وتعرفُ ذلك ؟ قال : أعرفُ أكثره وربما غلِطت . قال : فأني شيءٌ تأكل ؟ قال : أمّا في الشتاء فذاكبراه خائفة حلوة . وأمّا في الصيف فسيكباجةً حامضة عذبة . فبلغ به جعفر

ابن سليمان ما قال . وهو الذي يقول فيه أبو فرعون :

خَلُّوا الطَّرِيقَ زَوْجِي أَمَامِي      أَنَا حَيْمُ فَرَجِ الْحَجَّامِ

قال: وبلغ من عدالته ونبله في نفسه وتوقيه وورعه، أن مواليه من ولد جعفر وكبار أهل البربد، كانوا لا يطمعون أن يشهدوه إلا على أمر صحيح لا اختلاف فيه .

وأما الحيقطان فقال قصيدة تحتج بها اليمانية على قريش ومضر، ويحتج بها العجم والحبش على العرب، وكان جرير رآه يوم عيد في قميص أبيض وهو اسود، فقال :

كَأَنَّهُ لَمَّا بَدَأَ لِلنَّاسِ      أَيْرَ حَارِئُفٍ فِي قَرطَاسِ .

فلما سمع بذلك الحيقطان وكان باليمامة، دخل الى منزله فقال هذا الشعر :

لئن كنت جعد الرأس والجلد فاجم      فإن لسبط الكف والعرض أزهر  
وإن سواد اللون ليس بضائري      إذا كنت يوم الروع بالسيف أخطر  
فإن كنت تبغي الفخر في غير كنهه      فرهط النجاشي منك في الناس أفخر  
تأبى الجلندي وابن كسرى وحاتث      وهودة والقبطي والشيخ قيصر  
وفاز بها دون الملوك سعادة      فدام له الملك المنيع الموقر  
ولقمان منهم وابنه وابن أمه      وأبرهة الملك الذي ليس ينكر  
غزاكم أبو يكوم في أم داركم      وأنتم كقبض الرمل أو هو أكثر  
وأنتم كطير الماء لما هوى لها      يلقعة، حجن الخالب أكدر  
فلو كان غير الله رام دفاعه      علمت وذو التجريب بالناس أخبر  
وما الفخر إلا أن تبيتوا إزاءه      وأنتم قريب ناركم تتسعر  
ويدلف منكم قائد ذو حفيظة      نكافحه طورا وطورا يدبر  
فأما التي قلت فتلکم نبوة      وليس بكم صنون الحرام المستر

وقلتم لَنَقَاحٍ لا نَسُودِي إِتَاوَةَ      فإِعْطَاءُ أَرِيانٍ مِنَ الْفَرِّ أَيْسَرُ  
 وَلَمَوْكَانٍ فِيهَا رَغْبَةٌ لِمَتَوَجِّحِ      إِذَا لَانْتَهَا بِالْمَقَاوِلِ حَمِيرُ  
 وَلَيْسَ بِهَا مَشَقٌّ وَلَا مَتَصَيِّفٌ      وَلَا كَجُؤَانِثَا مَاؤُهَا يَتَفَجَّرُ  
 وَلَا مَسْرَتَعٌ لِلْعَمِينَ أَوْ مَتَقَنَّصٌ      وَلَكِنْ نَجْرًا ، وَالتَّجَارَةُ تُحْمَرُ  
 أَلَسْتَ كُليْبِيًّا وَأُمِّكَ نَعْمَةٌ      لَكُمْ فِي سِمَانِ الضَّانِ عَارٌ وَمَفْخَرُ

أما قوله :

تَأَى الْجُلَنْدَى وَابْنُ كَسْرَى وَحَارِثُ      وَهَوْدَةُ وَالْقَبْطِيُّ وَالشَّيْخُ قَيْصَرُ

فإنه يقول : كَتَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى بَنِي الْجُلَنْدَى فَلَمْ يُؤْمِنُوا  
 وَكَذَلِكَ كَسْرَى ، وَكَذَلِكَ الْحَارِثُ بْنُ أَبِي شَيْمِرٍ ، وَكَذَلِكَ هَوْدَةُ بْنُ عَلِيٍّ  
 الْحَنْفِيُّ ، وَكَذَلِكَ الْمُقَوْسُ عَظِيمُ الْقِبْطِ صَاحِبُ الإسْكَندَرِيَّةِ ، وَكَذَلِكَ قَيْصَرُ  
 مَلِكُ الرُّومِ . عَلَى أَنَّ بَنِي الْجُلَنْدَى قَدْ اسْلَمُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الْكِتَابِ ، وَلَكِنْ  
 النَّجَاشِيُّ اسْلَمَ قَبْلَ الْفَتْحِ ، فَدَامَ لَهُ مَلِكُهُ وَنَزَعَ اللهُ مِنْ هَؤُلَاءِ النُّعْمَةَ .  
 وَقَيْصَرٌ إِنْ كَانَ قَدْ بَقِيَ مِنْ مَلِكِهِ شَيْءٌ فَقَدْ أُخْرِجُوهُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ يَبْلُغُهُ ظِلْفٌ  
 أَوْ حَافِرٌ ، وَصَارَ لَا يَتَمَنَعُ إِلَّا بِالْحَلِيجِ وَبِالْعِقَابِ وَالْحِصُونِ وَبِالْشُّتَاءِ وَالثَّلُوجِ  
 وَالْأَمْطَارِ .

وفخر بلقمان وابنه .

وأما قوله :

غَزَاكُمْ أَبُو يَكْسُومَ فِي أُمِّ دَارِكَمِ      وَأَنْتُمْ كَقَبْضِ الرَّمْلِ أَوْ هُوَ أَكْثَرُ

فإنه يعنى صاحب الفيل حين أتى مكة ليهدم الكعبة . يقول : كنتم في عدد  
 الرمل ، فلم فررتم منه ولم يلقه أحد منكم حتى أفضى إلى مكة ، ومكة أم  
 القرى ، ودار العرب هي جزيرة العرب ، ومكة قرية من قراها ، ولكن لما  
 كانت أقدّمها قدماً ، وأعظمها خطراً ، جعلت لها أمماً . ولذلك قيل لفتح  
 مكة : قَتَحَ الْفُتُوحِ . وعلى مثل ذلك سميت فاتحة الكتاب : أم الكتاب .

والعرب قد تجعل الشيء أم ما لم يلد . من ذلك قولهم : ضربته على أم رأسه ، وكذلك أم الهاوية . والضيف يسمى ربة منزله أم مشواي .

وقال أعرابي وقد أصابته براغيث عند امرأة كان نزل بها :

يا أم مشواي عديمت وجهك      أنقذني رب الغلا من مصرِك  
ولذع بُرغوثٍ أراه مُهلِكِي      أبيت لي لي دائب التحكك  
تحكك الأجرِبِ عند المبرك

وقد أبان الله تعالى مكة والبيت حين قال : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾ .

يقول : فإذا غزيت - وهي أم القرى وفيها البيت الحرام السذي هو شرفكم - فقد غزيت جميعكم .

وأما قوله :

وأما التي قُلتم فتلكم نبوة      وليس بكم صون الحرام المستر  
وقُلتم لقاح لا نوذي إتاوة      فإعطاء أريان من الفرس أيسر

فالقاح : البلد الذي لا يؤدي إلى الملوك الأريان . والأريان : هو الخراج ، وهو الإتاوة . وفي ذلك يقول عبيد بن الأبرص :

أبوا دين الملوك فهم لقاح      إذا نُدبوا إلى حرب أجابوا

قال : فقتلتم إنا لقاح ولسنا نوذي الخراج والأريان .

قال : فإعطاء الخراج أهون من الفرار وإسلام الدار وأنتم مثل عدد من جاءكم المراز الكثيرة .

وأما قوله :

وليس بها مشق ولا متصيف      ولا كجواثا مأوها يتفجر

يقول : ليس في الغلبة على مكة رغبة ، ولولا ذلك لغزاها أهل اليمن  
وغيرهم . وليس بها مشق ولا متصيف ؛ لأنهم يتبرّدون بالطائف ويتدفقون  
بجدة . وجؤاثا : عين بالبحرين . وليس بمكة شيء يداني ذلك .

وقال :

ولا مرتع للعين أو متقنص ولكن تجراً والتجارة تحقر

يقول : ليس بها متزهات ، وصيدها حرام ، وإنما تجار والتجار يحفرون .  
يقول : هم عند الناس في حد الضعف ولا يستجيز ملك أخذ الذي به  
يتعيشون ، ولا يكون ما يؤخذ منهم يقوم بنوائب الملوك ، وهم قوم ليس  
عندهم امتناع . ولذلك يقول الشاعر معاوية بن أوس ، وهو جاهلي :

وزق سبات لدى متجبر أسيرة كالرجل الأسحم  
ضربت يفيه على نحره وقائمه كيد الأجذم  
إلى التاجر العربي الشح أو خرد ذي النطف العظيم

مركز ترقية كويتيون سعوديون

أراد بهذا كله قريشاً . يقول : هم تجار وقد اعتصموا بالبيت ، وإذا  
خرجوا علّقوا عليهم المقل ولحاء الشجر حتى يُعرفوا فلا يقتلهم أحد .

وأما قوله :

أست كليبياً وأمك نعجة لكم في سمان الضان عار ومفخر

فإن بني كليب يرمون بإتيان الضان ، وكذلك بنو الأعرج ، وسليم .  
وأشجع ترمى بإتيان المعز .

وقال النجاشي :

ولو شتمتني من قريش قبيلة سيوى ناكبة المعزى سليم وأشجع

وقال الفرزدق :

ولست مَضْحُحِيًّا ما دمتُ حيًّا      بشاةٍ من حَلوبَةِ أعرجي  
فما أدري إذا أنفقتُ مالي      لعلَّ الشاةُ تُبَقِّرَ عن صبي

وقال الآخر :

إذا أحببت أن تُغلي أتانا      فذلُّ الدارميِّ على شِراها  
يُقْبِلُ ظَهْرَها ويكاد لولا      فحول الظَّهرِ يدنو من قفاها  
وودُّ الدارميِّ لو أن فاه      إذا نال الحمارةُ نال فاهها

وقال عبد بن رشيد :

قبيلةٌ سَوِيءٌ خَيْرُهُم مثلُ شرِّهم      ترى منهم للضَّانِ فحلاً وراعياً  
إذا جُلِّيتُ فيهم عروسٌ لبعْلِها      ترى النُّعْجَةَ البَقعاءَ أبكى البواكيا

ولذلك قال الأخطل :

فانقُ بضانك يا جريرُ فإنما      مُتَّكَ نَفْسُكَ في الخلاءِ ضلّالا

ولذلك قال الحيقطان :

الستَ كليبياً وأمك نعجةٌ      لها في سِمانِ الضَّانِ عارٌ ومفخرٌ

أما العار فالذي شاع عليهم من ذِكرِ النُّعاجِ . وأما المُفخرُ يقول : إذا  
فَخَرُوا فخرُوا بالشَّاءِ ، ولا يبلغون إلى حدِّ الإبلِ .

ومن مفاخرِ السُّودانِ والزُّنْجِ والحَبَشِ مع ما ذكرنا من قصيدة الحيقطان ،  
أنَّ جريرَ بنَ الخطفيِّ لما هجا بني تغلبَ [ و ] قال :

لا تَطْلُبُنَّ خُزُولَةَ في تَغْلِبِ      فالزُّنْجُ أَكْرَمُ مِنْهُمُ أَحْوالا

غَضِبَ سنيحُ بنُ رَبَاحِ شارٍ ، فهجا جريراً ، وفخرَ عليه بِالزُّنْجِ فقال :

ما بالُ كلبٍ من كُليبٍ سُبنا      أنْ لم يُوازنِ حاجِباً وَعِقالا

إِنَّ امراً جَعَلَ المِراغَةَ وابْنِها  
 وَالزُّنْجُ لَو لا قِيَّتَهُم في صَفْهِم  
 فَسَلِ ابنَ عَمْرِو حينَ رامَ رِماحَهُم  
 فَجَعُوا زياداً بابِئِهِ وَتَنالُوا  
 وَمَرُّ بَطِينِ خِيولِهِم بِفِئائِهِم  
 كانَ ابنُ نَدْبَةَ فيكُم مَن نَجَلنا  
 وابِنًا زُبيبَةَ : عَنزُ وَهَراسَةَ  
 سَلِ ابنَ جِيفرِ حينَ رامَ بِلادِنا  
 وَسُليكَ اللُّيْثُ المِزْبِرُ إذا عَدا  
 هَذا ابنُ خِزَاصِمِ ابنُ عَجَلِي مَنهُم  
 ابِناءُ كَلِّ نَجِيبَةَ لِنَجِيبَةَ  
 فَلنَحْنُ أنجَبُ مَن كُليبُ خُزُولَةَ  
 وَبنو الحُبابِ مَطاعِنَ وَمَطاعِمِ

أما ابن عمرو الذي ذكر ، فهو حفص بن زياد بن عمرو العتكي ، كان  
 خليفة أبيه على شرطة الخنجات ، فغلب رباح بن زيار الزنجي على الفرات ،  
 فتوجه إليه حفص بن زياد فقتله رباح وقتل أصحابه واستباح عسكره .

وأما ابن جيفر فهو النعمان بن جيفر بن عباد بن جيفر بن الجلندي .  
 كان غزا بلاد الزنج فقتلوه وغنموا عسكره .

ثم ذكر أبناء الزنجيات حين تزعموا إلى الزنج في البسالة والأنفة . فذكر  
 خفاف بن ندبة ، وعباس بن مرداس ، وأبني شداد : عترة القوارس وأخاه  
 هراسة ، وسليك بن السلكة . فهؤلاء أسد الرجال ، وأشدهم قلوباً  
 وأشجعهم بأساً ، وبهم يضرب المثل .

ومنهم : عبد الله بن خازم السلمي ، وبنو الحباب : عمير بن الحباب  
 وإخوته .

وكان أيضاً منهم : الجحاف بن حكيم .

وهم أيضاً يفخرون برباح أخى بلال وحاله وصلاحه .

وفخرون بعلم بن فهيرة ، بدرى استشهد يوم بئر معونة ، فرآه الناس  
قد رفعه الله بين السماء والأرض ، فليس له في الأرض قبر .

ومنهم : آل ياسر .

قالوا : ومنا الغداف صاحب عبيد الله بن الحر . لم يكن في الأرض أشد  
منه : كان يقطع على القافلة وحده بما فيها من الحماة والخفراء .

وكعبويه صاحب المغيرة بن الفزr ، كان مثلاً في الشجاعة .

ويقولون : ومنا مريح الأشرم ، غلام أبي بحر القائد ، الذي كان قديم  
من الشام أيام قتيبة بن مسلم ، وكان لا يرَام لقاءه ، وأمره مشهور .

قالوا : ومنا المغلول وبنوه ، وهم من الخول ، ليس في الأرض أعرف  
ولا أنقف ولا أعلم بالبادية منهم .

قالوا : ومنا أفلح ، الذي قطع على القوافل بخراسان وحده عشرين  
سنة . قالوا : وإنما قتله مالك بن الربيع ، لأنه وطشه في جوف الليل وهو  
سكران خائر . والشاهد على قولنا قول ابنه :

أمالِك لولا السكر أيقنت أنه أخو الورد أو يُرَبِّي على الأسد الورد

قالوا : ونحن قد ملكنا بلاد العرب من لدن الحبشة إلى مكة ، وجرت  
أحكامنا في ذلك أجمع . وهزمتنا ذا نواس ، وقتلنا أقيال حمير . وأنتم لم تملكوا  
بلادنا . وقد قال شاعركم :

وخرب غمداناً وهدم سقفه      رباط بأجناد وصولته هصر  
اطافت به الأحبوش ليلاً فقوضوا      بنا شدة الأقيال في سالف الدهر  
بجمع من اليكسوم سود كأنهم      أسود الشرى اجتابت جلوداً من المر

قالوا : ومنا كبا جلا ، لم يصعد نهر . مان ولا قاتل في المخارجات أحد  
قط يشبهه .

قالوا : ومنا الأربعون الذين خرجوا بالفُرات أيام سوار بن عبد الله  
القاضي ، فأجلوا أهل الفُرات عن منازلهم ، وقتلوا من أهل الأبله مقتلة  
عظيمة .

قالوا : ومنا الذي ضرب عنق عيسى بن جعفر بعمان ، بمنجل  
بحراني ، بعد أن لم يجسر عليه أحد .

### [ ٣ - خصال السودان ]

قالوا : والناس مجموعون على أنه ليس في الأرض أمة السخاء فيها أعم ،  
وعليها أغلب من الزنج . وهاتان الخلتان لم توجدا قط إلا في كريم .

وهي أطبع الخلق على الرقص الموقع الموزون ، والضرب بالطبل على  
الإيقاع الموزون ، من غير تأديب ولا تعليم .

وليس في الأرض أحسن خلقاً منهم . وليس في الأرض لغة أخف على اللسان  
من لغتهم ، ولا في الأرض قوم أذرب السنة ، ولا أقل تمطيماً منهم .

وليس في الأرض قوم إلا وأنت تصيب فيهم الأرت والفأفاء والغبي ،  
ومن في لسانه حبسة ، غيرهم .

والرجل منهم يخطب عند الملك بالزنج من لدن طلوع الشمس إلى  
غروبها ، فلا يستعين بالتفاتة ولا بسكتة حتى يفرغ من كلامه .

وليس في الأرض أمة في شدة الأبدان وقوة الأسر أعم منهم فيها .

وإن الرجل ليرفع الحجر الثقيل الذي تعجز عنه الجماعة من الأعراب  
وغيرهم . وهم شجعاء أشداء الأبدان أسخياء . وهذه هي خصال الشرف .

[والزنجي] مع حُسن الخلق وقلة الأذى ، لا تراه ابداً إلا طيب  
النفس ، ضحك السنن ، حسن الظن . وهذا هو الشرف .

وقد قال ناسٌ : إنهم صاروا أسخياء لضعف عقولهم ، ولقصر  
رؤياتهم ، ولجهلهم بالعواقب .

فقلنا لهم : بشئ ما أنثيتم على السخياء والأثرة ، وينبغي في هذا  
القياس أن يكون أوفر الناس عقلاً وأكثر الناس علماً أبخل الناس بخلًا  
وأقلهم خيراً .

وقد رأينا الصقالبة أبخل من الروم ، والروم أبعد رويةً وأشدُّ عقولاً  
وعلى قياس قولكم أن قد كان ينبغي أن تكون الصقالبة أسخى أنفساً وأسمح  
أكفأ منهم .

وقد رأينا النساء أضعف من الرجال عقولاً ، والصبيان أضعف عقولاً  
منهم ، وهم أبخل من النساء ، والنساء أضعف عقولاً من الرجال . ولو كان  
العقل كلما كان أشدُّ كان صاحبه أبخل ، كان ينبغي أن يكون الصبي أكرم  
الناس خصالاً . ولا نعلم في الأرض شيئاً من صبي ، هو أكذب الناس وأنم  
الناس ، وأشره الناس وأبخل الناس ، وأقل الناس خيراً وأقسى الناس  
قسوةً .

وإنما يخرج الصبي من هذه الخلال أولاً فأولاً ، على قدر ما يزداد من  
العقل فيزداد من الأفعال الجميلة .

فكيف صارت قلة العقل [هي] سبب سخاء الزنج ، وقد أقررتهم لهم بالسخاء  
ثم ادعيتهم ما لا يعرف . وقد وقفناكم على إحاض حجتكم في ذلك بالقياس  
الصحيح .

وهذا القول يوجب أن يكون الجبان أعقل من الشجاع ، والغادر أعقل  
من الوفي . وينبغي أن يكون الجزوع أعقل من الصبور . فهذا ما لا حجة فيه

لكم ، بل ذلك هبةٌ في الناس من الله . والعقلُ هبةٌ ، وحسن الخلق هبةٌ ،  
والسخاء والشجاعة كذلك .

وقد قالت الزُّنَج للعرب : من جهلكم أنكم رأيتُمونا لكم أكفاءً في  
الجاهلية في نسائكم ، فلما جاء عدلُ الإسلام رأيتُم ذلك فاسداً ، و [ ما ] بنا  
الرغبة عنكم . مع أن الباديةً منا ملأى من قد تزوج ورأس وساد ، ومنع  
الذمار ، وكَنَفَكُم من العدو .

قال : وقد ضَرَبْتُم بنا الأمثالَ وعظمتُم أمرَ ملوكنا ، وقد متموهم في كثيرٍ  
من المواضع على ملوككم . ولو لم تَرَوْا الفضلَ لنا في ذلك عليكم كما فعلتم .

وقال النُّمَر بن تُولب :

أَنْ مَلَكَه مَا أَنْ تُبَعَا وَأَبْرَهَةَ الْمَلِكِ الْأَعْظَمَا

فَرَفَعَهُ عَلَى مَلُوكِ قَوْمِهِ .

وقال لبيد بن ربيعة :

لَوْ كَانَ حَيٌّ فِي الْحَيَاةِ خُلْدًا فِي الْبَدْرِ أَدْرَكَهُ أَبُو يَكْسُومِ

وهذا شيءٌ من وصف الفضل لم يوصف أحدٌ بمثله .

قالوا : وما قدتم به ملوكنا على ملوككم قوله :

غَلَبَ اللَّيَالِي خَلْفَ آلِ مُحَرَّرِ وَقَمَا فَعَلَنَ بَتَّبَعِ وَيَهْرُقَلِ

وَعَلَبَنَ أَبْرَهَةَ الَّذِي الْفَيْتَهُ قَدْ كَانَ خُلْدٌ فَوْقَ غُرْفَةٍ مُوَكَّلِ

فقدَّم أبرهة وأراد التَّسْوِيَةَ .

قالوا : ومن الحَبْشَةَ عُنْكَيمُ الْحَبَشِيِّ ، وكان أفصح من العُجَاجِ . وكان

علماء أهل الشام يأخذون عنه كما أخذ علماء أهل العراق من المتجع بن

نَبْهَانَ .

وكان المتجعُ سِنْدِيًّا فِي أذنه خُرْبَةٌ ، وقع إلى البادية وهو صبيٌّ ، فخرج

أفصح من رؤية .

ولما قال حكيم بن عياش الكلبى :

لا تفخرون بخال من بني أسد فإن أكرم منها الزنج والنوب

اعترض عليه عكيم الحبشى ، فقال :

ويوم غمدان كنا الأسد قد علموا  
وليلة الفيل إذ طارت قلوبهم  
منا النجاشي وذو العقصين صهركم  
هني غفرت لعدنان تهتكهم  
حمارة جمعت من كل محربة  
ويوم يشرب كنا فحلة العرب  
وكلهم هارب موف على قتب  
وجد أبرهة الحامي أبي طلب  
فما لحمير والمقوال في النسب  
جمع الشبيكة نون الزاخر اللجب

غمدان : حصن كان ينزله الملك الذي يكون على اليمن ، وكان عجيباً ، فلما ملكت الحبشة اليمن أخرجته الأبقايا هدمها عثمان بن عفان رضي الله عنه في الإسلام . وقال : وينبغي لمآثر الجاهلية أن تمحى . وكان في الحصن مصنعة عليها قبة من طلق ، وفيها يقول خلف الأحمر :

ومصنعة الطلق أودى بها عوادي الأحابيش بالصيدين

وفيها يقول قدامة حكيم المشرق ، وكان صاحب كيمياء :

فأوقد فيها ناره ولو أنها أقامت كعمر الدهر لم تنصم

لأن الطلق لو أوقد عليه ألف عام لم يسخن . وبه يتطلى النفاطون إذا أرادوا الدخول في النار .

وقال لبيد :

أصاح ترى بريقاً هباً وهنا  
أرقت له وأنجد بعد هدء  
يضيء زبابه في المزن حبشاً  
كمصباح الشعيلة في الذبال  
وأصحابي على شعب الرحال  
قياماً بالحراب وبالإلال

وقال ذلك لبيدُ لأنهم إذا أقبلوا بحراهم ورماحهم وقسيهم وسيوفهم ،  
وراياتهم ، وخيولهم وفيولهم ، مع سواد ألوانهم وضحَم أبدانهم - رأيت هؤلاً لم  
تَر مثله ولم تسمع به ، ولم تتوهمه .

وأما قوله :

ويومٌ يشربُ كنا فحلة العربِ

فإن مسرف بن عتبة المري ، حين كان أباح المدينة ، زعموا أنه قد كان  
هناك امرقبيح من السودان والجند ؛ وفي ذلك يقول شاعر من شعراء مضر :

فسائل مسرف المري عنكم      غداة أباح للجند العذاري  
فما زجكم على حنق زنوج      وفر الشام كالأسد الضواري  
ودافع وهرز والفرس عنكم      ورأس الحبش يحكم في ذمار  
فأفسد نسلكم بسواد لون      وأبر مثل غرمول الحمار

فذكر إباحة الحبش لليمن كما ذكر إباحة مسرف للمدينة .

مركز ترقية كويت علوم عربي

وأما قوله :

حمارة جمعت من كل معزوة      جمع الشبيكة نون الزاخر اللجب  
فإنه ذهب إلى ما تقول الرواة أن حمير كانت حمارة .

وأما الشبيكة فأراد الشبيكة .

وقال السران : فهذا الفضل فينا ، ولم يصل النبي صلى الله عليه وسلم  
قط إلا على جنازة أو قبر ، إلا النجاشي فإنه صلى عليه وهو بالمدينة وقبر  
النجاشي بالحبيشة .

قالوا : والنجاشي هو كان زوج أم حبيبة بنت أبي سفيان من النبي صلى  
الله عليه وسلم ، ودعا خالد بن سعيد فجعله وليها ، وأصدق عن النبي صلى  
الله عليه وسلم أربعمئة دينار .

قالوا : وثلاثة أشياء جاءتكم من قبلنا . منها الغالية ، وهي أطيب الطيب وأدخره وأكرمه . ومنها النعش وهو أستر للنساء وأضون للحرم . ومنها المصحف ، وشراوقى لما فيه وأحصن له ، وأبهى وأهيا .

#### [ ٤ - مزايا اللون الاسود ]

قالوا : ونحن أهول في الصدور وأملا للعيون ، كما أن المسودة أهول في العيون وأملا للصدور من المبيضة ، وكما أن الليل أهول من النهار .

قالوا : والسواد أبداً أهول . وإن العرب لتصف الإبل فتقول : الصهب سرع ، والحمر غزر ، والسود بهي . فهذا في الإبل .

قالوا : وذهم الخيل أبهى وأقوى ، والبقر السود أحسن وأبهى ، وجلودها أثمن وأنفع وأبقى . والحمر السود أثمن وأحسن وأقوى . وسود الشاء أدسم البانأ وأكثر زبداً ، والدئس أغزر من الحمر .

وكل جبل وكل حجر إذا كان أسود كان أصلب صلابةً وأشدُّ يوسة . والاسد الأسود لا يقوم له شيء .

وليس من الثمر شيء أحلى حلاوةً من الأسود ، ولا أعم منفعة ولا أبقى على الدهر . والنخيل أقوى ما تكون إذا كانت سوداً جذوع .

وجاء : « عليكم بالسواد الأعظم » ، وقال الأنصاري :

أدين وما ديني علي بمفرم ولكن على الشم الطوال القراوح  
على كل خوار كأن جذوعها طلين بقار أو بدم ذبائح

قالوا : وأحسن الخضرة ما ضارع السواد . قال الله جل وعلا : ﴿ ومن ذومها جنتان ﴾ ، ثم قال لما وصفها وشوق إليها : ﴿ مدهاتان ﴾ قال ابن عباس : خضراوان من الرّي سوداوان .

وليس في الأرض عوداً أحسنَ خشباً ولا أغلى ثمناً ، ولا أثقلَ وزناً ولا  
أسلمَ من القوادح ، ولا أجدرَ أن ينشَبَ فيه الخطُّ من الأبنوس . ولقد بلغ  
من اكتنازه والتثامه ومُلوسته وشِدَّةِ تداخُلِهِ ، أنه يرُسَّبُ في الماءِ دونَ جميعِ  
العِيدانِ والخشبِ . ولقد غلبَ بذلك بعضَ الحجارةِ ؛ إذ صارَ يرُسَّبُ وذلك  
الحجرُ لا يرُسَّبُ .

والإنسانُ أحسنُ ما يكونُ في العينِ ما دامَ أسودَ الشعرِ . وكذلك  
شعورُهُم في الجنةِ .

وأكرمُ ما في الإنسانِ حَدَقَتاهُ ؛ وهما سوداوان . وأكرمُ الأَكحالِ الإئِمدُ ،  
وهو أسود . ولذلك جاءَ أن اللهَ يُدخِلُ جميعَ المؤمنينَ الجنةَ جُرداً مُرداً  
مكحَلين .

وأفنعُ ما في الإنسانِ له كِبْدُهُ التي بها تُصلِحُ مِعِدتهُ ، وينهضمُ ضامُهُ ،  
وبصلاحِ ذلكِ قامَ بدنُهُ ، والكِبْدُ سوداءُ .

وأنفُسُ ما في الإنسانِ وأعزُّهُ سويداءُ قلبِهِ ، وهي عَلقَةُ سوداءُ تكونُ في  
جوفِ فؤادِهِ ، تقومُ في القلبِ مقامَ الدماغِ من الرأسِ .

ومن أطيبِ ما في المرأةِ وأشهاهُ شَفَتَاهَا للتقبيلِ ، وأحسنُ ما تكونانِ إذا  
ضارعتا السُّودَ .

وقال ذو الرُّمَّةِ :

لَمِياهُ في شَفَتَيْهَا حُوءٌ لَعَسُ وفي اللِّثاتِ وفي أنيابِها شَنبُ

وأطيبُ الفُطْلُ وأبردهُ ما كانَ أسودَ . وقال الراجزُ :

سودُ غرابيبِ كَأظلالِ الحجرِ

وقال حميدُ بنُ ثورٍ :

ظَلَّلنَا إلى كَهْفٍ وظَلَّتْ رِكابُنَا إلى مَسْتَكِيفاتِ لَهْنِ غروبِ

إلى شجرِ المي الظلال كأنه رواهبُ أجرَمَن الشرابِ عُذوب  
وجعل الله الليلَ سكناً وجماماً ، والنهارَ للكسب والكذ .

والذي يدلُّ على أن السوادَ في وجهٍ آخرَ مقرونٌ بالشدة والصرامة ،  
والهيج والحركة ، انتشار الحياتِ والعقارب وشدة سُومها بالليل ، وهيجُ  
السباع واستكلابها بالليل . وتحرك الأوجاع وظهور الغيلان ، هذه كلها  
بالليل .

قال : وأشبهُنا الليلَ من هذا الوجه .

قالوا : وأبلغ ما تكون القائلةُ وأشفاها للنفس ، وأسرع لمجيئها إذا  
أردتها ، وأبطأ لذهابها إذا كرهتها ، ما كان منها في الظلمة ، عند إسيال  
الستور وإغلاق الأبواب .

قالوا : وليس لونُ أرسخٍ في جوهره وأثبت في حسنه من سواد .

وقد جرى المثل في تبديد الشيء : ولا ترى ذلك حتى يبيض القار ،  
وحتى يثيب الغراب .

مركز تحقيقات كويتيون علوم إسلامي

وهو العَرَضُ المَلَأُ عند الحكماء .

وأكرمُ العطر المسك والعنبر ، وهما أسودان .

وأصلبُ الأحجار سُودها . وقال أبو ذهبل الجمحي يمدح الأزرق  
المخزومي ، وهو عبد الله بن عبد شمس بن المغيرة :

فإن شكرك عندي لا انقضاء له ما دام بالجزع من لبنان جلمسودُ  
أنت الممدحُ والمغسلُ به ثمناً إذ لا يعاتب صخرُ الجنسدلِ السُودُ

والعرب تغخر بسواد اللون . فإن قال : فعلام ذلك وهي تقول : فلانُ  
هجانُ ، وأزهرُ وأبيض ، وأغرُّ ؟ قلنا : ليس تريد بهذا بياض الجلد ، إنما تريد  
به كرم الجواهر ونقاءه . وقد فخرت خضر محارب بأنها سود ، والسود عند

العرب الخضر . وقال الشماخ بن ضرار :

وراحت رَوَاحاً من زَرُودٍ فنازعتُ      زُبالةً جَلِيباً من اللَّيْلِ أخضراً

وقال الراجز :

حتى انتضاني الصُّبح من ليلٍ خَضِرٍ      مثل انتضائه البطل السيفَ الذَّكْرُ

وهم يسمون الحديدَ أخضر لأنه صلب ؛ لأن الأخضر أسود .

وقال الحارث بن حلزة :

إذ رَفَعْنَا الجمالَ من سَعَفِ البَحْرِ      ريينَ سِيراً حتى نَهَاها الحِساءُ

فهزَمْنَا جَمَعَ ابنِ أمِّ قَطَامٍ      وله فَارِسيَّةٌ خَضْرَاءُ

وقال المحارب وهو يفخر بأنه من الخضر :

في خُضْرٍ قيسٍ نَماني كُلُّ ذِي فَخْرٍ      صعبِ المِقَادَةِ أبي الضَّيْمِ شِعْشَاعِ

وبنو المَغِيرَةِ خُضْرُ بني عَزْرَمٍ      قال عُمَرُ بن عبد الله بن أبي ربيعة بن

المَغِيرَةِ المَخُومِي - ويقال إنها لِلْفَضْلِ بن العَبَّاسِ اللُّهَبِيِّ :

وَأنا الأَخْضَرُ مَنْ يَعْرِفُنِي      أخْضَرُ الجِلْدَةِ في بَيْتِ العَرَبِ

مَنْ يَسَاجِلُنِي يُسَاجِلُ مَاجِداً      يَمْلَأُ الدُّلُوالِ عَقْدَ الكَرْبِ

وَأخْضَرُ عَسَّانَ بنو جَفْنَةَ المَلُوكِ ؛ قال الفسَّانِي :

إِنَّ الخَضْرَاءَ الخُضْرُ الذِّينَ وَدَّوا      أهْلَ البَرِيصِ نَماني مِنْهُمُ الحَكَمِ

وقد ذكر حسان أو غيره الخضر من بني عكيم حين قال :

ولست من بني هاشم في بيتٍ مكرمةٍ      ولا بني جَمَحِ الخُضْرِ الجِلاعيدي

قالوا : وكان ولد عبد المطلب العشرة السادة ذلاً ضحياً ، نظر إليهم

عامر بن الطفيل يطوفون كأنهم جمالٌ جُونٌ ، فقال : بهؤلاء تمنع البِدانة .

وكان عبد الله بن عباس أدلمّ ضخماً . وآل أبي طالبٍ أشرفُ الخلق ،  
وهم سُودٌ وأدمٌ ودلمٌ .

قالوا : وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « بُعثت إلى الأحمر والأسود » .  
وقد علمت أنه لا يُقال للزنج والحبشة والنوبة بيضٌ ولا حمرٌ ، وليس  
لهم اسمٌ إلا السُود .

وقد علمنا أن الله عز وجل بعث نبيه [ إلى الناس ] كافة ، وإلى العرب  
والعجم جميعاً . فإذا قال : « بُعثت إلى الأحمر والأسود » ولنا عنده حمرٌ ولا  
بيضٌ ، فقد بُعث إلينا ، فإنما عنانا بقوله « الأسود » . ولا يخرج الناس من  
هذين الاسمين ، فإن كانت العرب من الأحمر ، فقد دخلت في عداد الروم  
والصقالبة ، وفارسٍ وخراسان . وإن كانت من السُود ، فقد اشتمت لها هذا  
الاسم من اسمنا . وإنما قيل لهم وهم آدمٌ وسمرٌ سُودٌ ، حين دخلوا معنا في  
جملتنا ، كما يجعل العربُ الإناث من الذكور ذكوراً .

وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أن الزنج والحبشة والنوبة  
ليسوا بحمرٍ ولا بيضٌ ، وأنهم سُودٌ ، وقد بعث الله تعالى إلى الأسود والأحمر ،  
فقد جعلنا والعرب سواةً ، ونكون نحن السُودَ دونهم . فإن كان اسمُ أسودَ  
وقع علينا فنحن السودان الخُلص ، والعربُ أشباه الخُلص . فنحن المتقدمون  
في الدعوة . وإذا كان اسمهم محمولاً على اسمنا ؛ إذ كنا وحدنا يقال لنا  
سُودٌ ، ولا يقال لهم سُودٌ إلا أن يكونوا معنا .

[ ٥ - كثرة عدد السودان واتساع بلادهم ]

قالوا : وأنتم ترون كثرة العدد مجداً ، ونحن أكثر الناس عدداً وولداً .

قالوا : ونحن صنفان : النمل والكلاب .

قالوا : ولو عدلتكم بالنمل العرب كلها لأربت عليها . فكيف إذا قرنت

إليها الكلاب ؟ ثم كيف إذا ضممت إليها الحبشة ، والنوبة وفزان ومرو  
وزنجاوة وغير ذلك من أنواع السودان ؟

وليست قحطان من عدنان في شيء . ونحن بالحبشة أشبه ، وأرحامنا بهم  
أمر من عدنان بقحطان . وإن ذكرتم اختلاف اللغات ، فإن لغة عجز  
هوازن ، وقد تختلف اللغات والأصل واحد ، وقد تتفق والنجر مختلف . ومن  
دخل أوائل خراسان وأواخرها ، وأوائل الجبال وفارس وأواخرها ، علم أن  
اللغات قد تختلف لاختلاف طبائع البلدان والأصل واحد .

قالوا : وأنتم لم تروا الزنج الذين هم الزنج قط ، وإنما رأيت السبي  
يحيى من سواحل قبلة وغيابها وأوديتها ، ومن مهنتنا وسفلتنا وعبيدنا ،  
وليس لأهل قبلة جمال ولا عقول . وقبلة : اسم الموضع الذي تزفون منه  
سفنكم إلى ساحله . لأن الزنج ضربان : قبلة ولنجوية ، كما أن العرب  
ضربان : قحطان وعدنان . وأنتم لم تروا من أهل لنجوية أحداً قط ، لا من  
السواحل ولا من أهل الجوف ، ولو رأيتهم نسبتهم الجمال والكمال .

فإن قلتم : وكيف ونحن لم نر زنجياً قط له عقل صبي أو امرأة ؟

قلنا لكم : ومتى رأيتم من سبي السند والهند قوماً لهم عقول وعلم  
وأدب وأخلاق حتى تطلبوا ذلك فيما سقط إليكم من الزنج . وقد تعلمون ما  
في الهند من الحساب وعلم النجوم وأسرار الطب ، والخراط والنجر ،  
والتصاوير والصناعات الكثيرة العجيبة ، فكيف لم يتفق لكم مع كثرة ما  
سببتم منهم واحد على هذه الصفة ، أو بعشر هذه الصفة ؟

فإن قلتم : أهل الشرف والعقل والعلم إنما ينزلون بواسطة ، ويقرب  
دار الملك ، وهؤلاء حاشية وأعلاج وأكثر ، ونزال السواحل والأجام والفيوض  
والجزائر ، من أكابر ومن صياد .

قلنا : وذلك من رأيتم ومن لم تروا منا . وجوابنا هو جوابكم لنا .

قالوا : ولو أن الزنجي والزنجية إذا تناكحا بقيت أولادهما بعد الحيض والاحتلام ببلاد العراق ، كانوا قد غلبوا على الدار بالعدد والجلد ، والعلم والتدبير ، ولكن ولد الهندي والهندي ، والرومي والرومية ، والخراساني والخراسانية ، يبقون فيكم وفي بلادكم كبقاء آبائهم وأمهاتهم ، ولا يبقى ولد الزنجيين بعد الحيض والاحتلام . على اننا لا نصيب في عشرة آلاف ، واجد يبلغ ما ذكرنا ، إلا أن يضرب الزنجي في غير الزنجيات ، والزنجية في غير الزنج . ولولا أن الزنجي والزنجية قليلاً ما يريدان من الغرائب والغرباء ، لكننا على حال سنرى لرجال الزنج نسلًا كثيرًا . ولكن الزنجية لا تكاد تنشط لغير الزنجي .

قالوا : وكذلك البيضان منكم ، لا يكادون ينشطون لطلب النسل من الزنجيات . والزنجية أيضاً من الزنجي أسرع لقاحاً منها من الأبيض .

قالوا : وانتم لا تكادون تعدون بمن ولد له من صلبه مائة ولد إلا أن يكون خليفة ، فيكون ذلك لكثرة الطروقة ، ولا تجدون ذلك في سائركم . والزنج لا تستكثر هذا ولا تستعظمه ؛ لكثرتهم في بلادهم ، لأن الزنجية تلد نحواً من خمسين بطناً في نحو من خمسين عاماً ، في كل بطن اثنين ، فيكون ذلك أكثر من تسعين . لأنه يقال إن النساء لا يلدن إذا بلغن الستين إلا ما يحكى عن نساء قريش خاصة .

والزنج أحرص من خلق الله على نسايتهم ، ونساؤهم لهم كذلك ، وهن أطيب من غيرهن .

قالوا : فتأملوا قولنا واحتجاجنا ، فإننا قد رويناهم الأخبار وقلنا الأشعار ، وعرفناكم وعرفنا الأمم .

وقد كان الفرزدق أعلم الناس بالنساء ، وكان قد جرب الأجناس كلها

فلم يجذ مثلهن ، ولذلك تزوج أم مكية الزنجية وأقام عليها ، وترك النساء ،  
للذي وجد عندها . وفي ذلك يقول :

يا رُبَّ خَوْدٍ من بنات الزنج تمشي بتنوير شديد الوهج  
أخشم مثل القدح الخلتج

وكانت دنائير بنت كعبويه الزنجي عند أعشي سليم ، وكانت شديدة  
السواد ، فرآها يوماً وقد خضبت يديها بالحناء ، واكتحلت بالإثمد ، فقال :

تخضب كفاً بتكت من زندها فتخضب الحناء من مسودها  
كأنها والكحل في مرودها تكحل عينها ببعض جلدها  
فلما سمعت ذلك قالت :

وأقبح من لوي سواد عجانهِ على بشر كالقلب أو هو أنصح  
فسموه أسود ، وصاح به الصبيان فطلقها . وقد كان صبيحة عرسها  
قال :

إن الدنيا خير مما تكون سودا

فقال :

بياض الرأس أقبح من سوادِي وشيب الحاجبين هو الفضوح  
فامسك عنها حيناً ثم عاودها ، فلما فضحت طلقها .

قالوا : وإن نظر البيضان إلى نساء السودان بغير عين الشهوة فكذلك  
السودان في نساء البيضان . على أن الشهوات عادات وأكثرها تقليد . من  
ذلك أن أهل البصرة أشبه النساء عندهم الهنديات وبنات الهنديات  
والأغوار . واليمن أشبه النساء عندهم الحبشيات وبنات الحبشيات . وأهل  
الشام أشبه النساء عندهم الروميات وبنات الروميات . وكل قوم فإنما  
يشتهون جلبهم وسبيهم . إلا الشاذ ، وليس على الشاذ قياس .

قالوا : وأطيبُ الأفواه نكهةً ، وأشدُّها عذوبةً ، وأكثرها ريقاً ، أفواهُ  
الزنج . والكلاب من بين السباع أطيبُ أفواهاً منها .

قالوا : والسوادُ مُلاوِمٌ للعين ، وإذا اعتلتْ فخيْفٌ عليها لم يكن لها دواءٌ  
خيراً من القعود في الظلِّمة وفي يد صاحبها خرقةٌ سوداء . فالسوادُ للإبصار ،  
وخيراً ما في الإنسان البصر .

وقالوا : والسُودانُ أكثر من البيضان ، لأنَّ أكثر ما يُعدُّ البيضانُ فارسَ  
والجبالَ وخراسانَ ، والرُّومَ والصُّقالبَ وفرنجةَ والأبر ، وشيئاً بعد ذلك قليلاً  
غير كثير . والسُودانُ يُعدُّونَ الزُّنْجَ والحبشةَ ، وقَزَانَ وبربرَ ، والقبطَ والنُّوبةَ ،  
وزَغاوةَ ومَرَّرَ ، والسُّندَ والهندَ ، والقَمَارَ والدَّيِّلا ، والصُّينَ وماصينَ . والبحرُ  
أكثر من البرِّ ، وجزائرُ البحرِ ما بين الصُّينَ والزُّنْجَ مملوءةٌ سُوداناً ،  
كسرنديبَ ، وكَلَهَ ، وأملَ ، وزابجَ وجزائرها إلى الهندِ إلى الصِّينِ إلى كابلَ وتلك  
السواحلُ .

قالوا : وكان الأعمى الاشتيام يقول : السُودانُ أكثر من البيضانَ ،  
والصُّخرُ أكثر من الوحلِ ، والرَّمْلُ أكثر من التُّرابِ ، والماءُ المسالِحُ أكثر من  
العذبِ .

قالوا : ومنا العَرَبُ لا من البيضانَ ؛ لقرب ألوانهم من ألواننا . والهندُ  
أسفَرُ ألواناً من العَرَبِ ، وهم من السُودانِ . ولأنَّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم  
قال : « بُعثتُ إلى الأحمرِ والأسودِ » . وقد علم النَّاسُ أنَّ العَرَبَ ليست بحُمْرٍ  
كما ذكرنا قبلَ هذا .

قال : فهذا المُفخِرُ لنا وللعَرَبِ على جميعِ البيضانِ إنَّ أحبَّتُ ذلك  
العَرَبُ ؛ وإن كرهته فإنَّ المُفخِرَ لنا بالذي ذكرنا على الجميعِ .

قالوا : ولو لم نكثركم إلا بالزابجِ وحدها لفضلناكم بهم فضلاً مبيناً ؛  
وذلك أنَّ ملكَ الزابجِ إنَّ غضبَ على أهلِ مملكةٍ ولم يتقوه بالخراجِ بعث ألفَ

سُنْبُوقَةٌ فِي كُلِّ سُنْبُوقَةٍ أَلْفُ رَجُلٍ عَلَى أَنْ [ لَا ] يَجْلِدُوهُمْ وَلَا يِقَاتِلُوهُمْ ، وَلَكِنْ يَأْمُرُهُمْ أَنْ يَقِيمُوا أَيْدِيَهُمْ فِيهِمْ حَقًّا بِتَقْوَاهُمْ بِالْخِرَاجِ ، فَيَكُونُ مَا يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَيُغَذَّوْنَ وَيَلْبَسُونَ ، أَضْرُّ عَلَيْهِمْ مِنْ مَقْدَارِ الْخِرَاجِ الْمَرَارَ الْكَثِيرَةِ .  
فَإِنْ اتَّقَوْهُمْ بِالْخِرَاجِ وَالْأَرْضَ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ أَلْفَ سُنْبُوقَةٍ أُخْرَى ، فَلَا يَجِدُ ذَلِكَ الْمَلِكُ بَدَأَ مِنْ أَنْ يَتَّقِيَهُ بِكُلِّ مَا طَلَبَ ، وَلَا يَأْمَنُ أَنْ يَغْضَبَ فَيَأْتِيَ عَلَيْهِ وَعَلَى أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ .

قالوا : ولقد نزل ملك الزابج على خليج مرة والخليج فراسخ في فراسخ ، فبينما هو على مائدته وفي سرادقه على شاطئ الخليج ، إذ سمع صارخة فقال : ما هذا ؟ وقطع الأكل . قالوا : امرأة سقط ابنها في هذا الخليج فأكله التمساح . قال : وفي مكان أنا فيه شيء يشاركني في قتل الناس ! ثم وثب فإذا هو في الخليج . فلما [ رآه ] الناس سقطوا عن آخرهم ، فحضضوه وهو فراسخ في فراسخ ، حتى أخذوا كل تمساح فيه أخذ يد .

فيقال : إن أهل الزابج وأغابها أكثر من شطر أهل الأرض .

قالوا : وآخر العمران كله سودان ، وما استدار من أقاصي العمران أكثر من أهل الواسطة ، كطوق الرُحَى الذي يلي الهواء ، الذي هو أوسع وأكثر ذرعاً مما قصر عنه من فلك الرُحَى ولنعتبر ذلك بالجنح المَطِيف ، لا يرى أحد ذرعاً مع قلة عرضه ، ونجده أكثر ذرعاً من نفس الدار .

وليس خلف الزابج بيضان ، وكذلك جميع بلاد السودان الساكنة في الأطراف وفي آخر أطواق العمران .

قالوا : فهذا دليل على أنا أكثر ، وإذا كنا أكثر كنا أفخر . وقد قال شاعركم :

ولست بالأكثر منه حصي وإنما العيزة للكثير

قالوا : والقبط جنس من السودان وقد طلب منهم خليل الرحمن

[ الولد ] فولد له منهم نبي عظيم الشأن ، وهو أبو العرب إسماعيل عليه السلام . وطلب النبي صلى الله عليه وسلم منهم الولد ، وولد له إبراهيم ، وكناه به جبريل .

قالوا : والحجر الأسود من الجنة . والنحاس إذا اشتد سواده كان اثنان وأجود . فمن استنكر لون السواد فما في فرنجة والروم والصقالبة من إفراط سبوطه الشعر والرقة والصهوية ، والحمرة في شعر الرأس واللحية ، وبياض الحواجب والأشفار ، أقبح وأسمج . وليس في السودان مغرب ، ليس المغرب إلا فيكم . ولا سواد من لم تنضجه الأرحام وما جازت به حد التمام .

#### [ ٦ - اثر البيئة في لون السودان والبيضان ]

قالوا : ولنا بعد معرفة بالتفلسف والنظر ، ونحن أثقف الناس . ولنا في الأسرار حجة . ونحن نقول : إن الله تعالى لم يجعلنا سوداً تشويهاً بخلقنا ، ولكن البلد فعل ذلك بنا . والحجة في ذلك أن في العرب قبائل سوداً كبنو سليم بن منصور . وكل من نزل الحرّة من غير بني سليم كلهم سود . وإنهم ليتخذون الممالك للرعي والسقاء ، والمهنة والخدمة ، من الأشبانيين ومن الروم نسائهم ، فما يتوالدون ثلاثة أبطن حتى تنقلهم الحرّة إلى ألوان بني سليم . ولقد بلغ من أمر تلك الحرّة أن طبأها ونعامها ، وهوائها وذبابها وئعالها وشاءها وحميرها ، وخيلها ، وطيرها كلها سود . والسواد والبياض إنما هما من قبل خلقة البلدة ، وما طبع الله عليه الماء والتربة ، ومن قبل قرب الشمس وبعدها ، وشدة حرّها . وليس ذلك من قبل مسخ ولا عقوبة ، ولا تشويه ولا تقصير .

على أن بلاد بني سليم تجري تجرى بلاد الترك . ومن رأى إبلهم ودوابهم وكل شيء لهم تركي رآه شيئاً واحداً . وكل شيء لهم تركي المنظر . وربما رأى الغزاة دون العواصم اخلاط غنم الروم فلا يخفى عليهم غنم الروم

من غنم الشام ، للرومية التي يرونها فيها .

وقد نرى الناس أبناء الأعراب والأهرايبات الذين وقعوا إلى خراسان فلا  
نشك أنهم علوج القرى . وهذا موجود في كل شيء . وقد نرى جرّاد البقل  
والرّيحان وديدانها خضراً ، ونرى قمل رأس الشاب سوداً ، ونراها إذا ابيض  
رأسه بيضاً ، ونراها إذا خضبت حمراً .

فليس سوادنا ، معشر الزنج ، إلا كسواد بني سليم ومن عددنا عليكم  
من قبائل العرب في صدر هذا الكلام .

وما إفراط سواد من اسود من الناس إلا كإفراط بياض من ابيض من  
الناس . وكذلك السمرة المتولدة من بينها ، وكذلك الزي والهيئات ، وكذلك  
الصناعات ، وكذلك المطاعم والشهوات .

وقد ذكر الشاعر ، حين مدح أسيلم بن الأحنف الأسدي ، سواد  
اليمانية فقال :

أسيلم ذاكم لا تخفا بمكاتبه لعين يداحي أو لأذن تسمع  
من النقر الشم الذين إذا انتموا وهاب الرجال حلقة الباب فعمقوا  
جلا الأذفر الأحوى من المسك فرقه وطيب الدهان رأسه وهو أنزع  
إذا النقر السود اليمانون حاولوا له حوك برديه أرقوا وأسمعوا

وقد عاب بعض اليماني عبد بن جمدة بلونه ، فقال :

قد عاب لوني أقوام فقلت لهم ما عاب لوني إلا مفرط الحمق  
إن كسان لوني فيه دعة كلف حزن الإهاب فإن أبيض الخلق  
أرضي الصديق وأحبي الظعن معترضاً صدر القنابة وأكنى كنه السرقي

وكانت امرأة عمرو بن شاس تجفو جرّار بن عمرو ، وكان ابن سوداء ، فقال

عمرو بن شاس في ذلك ، وفي صفة أبناء الحبشيات والزنجيات :

الم يأتيها أني صحوت وأنني  
وأطرق إطراق الشجاع ، ولو يرى  
أرادت عرّاراً بالهوان ومن يرد  
وإن عرّاراً إن يكن غير واضح  
فإن كنت مني أو تحبين شيمتي  
والأ فبيني مثل ما بان ركب

تخشعت حتى ما أعارم من عرم  
مساغاً لنايبه الشجاع لقد أزم  
عرّاراً لعمري بالهوان فقد ظلم  
فإني أحب الجون ذا المنكب العمم  
فكسوي له كالسمن ربت له الأدم  
تزود بخساً ليس في سيره أتم

وأما الهند فوجدناهم يُقدّمون في النجوم والحساب ، ولهم الخطّ الهندي  
خاصة ، ويقدمون في الطب ، ولهم أسرار الطبّ وعلاج فاحش الأدوية  
خاصة . ولهم خراط التماثيل ونحت الصور بالأصباغ تتخذ في المحاريب  
وأشبه ذلك . ولهم الشطرنج ، وهي أشرف لعبة وأكثرها تدبيراً وفطنة . ولهم  
السيوف القلعية ، وهم ألب الناس بها وأحذقهم ضرباً بها . ولهم الرمي  
النافذة في السُموم وفي الأوجاع . ولهم غناء مُعجِب . ولهم الكنكلة ، وهي  
وتر واحد يمدُّ على قرعة فيقوم مقام أوتار العود والصنج . ولهم ضروب الرقص  
والحنفة ، ولهم الثقافة عند الثّقاق خاصة ، ولهم معرفة المناصفة ، ولهم السحر  
والتدخين والدمازكية . ولهم خطّ جامع لحروف اللغات ، وخطوط أيضاً  
كثيرة ، ولهم شعرٌ كثير وخطب طوال ، وطب في الفلسفة والأدب . وعندهم  
أخذ كتاب قليلة ودمنة . ولهم رأي ونجدة ، وليس لأحد من أهل الصبر ما  
لهم . ولهم من الرّي الحسن والأخلاق المحمودة مثل الأجلة والقرن والسواك ،  
والاحتباء ، والفرق والخضاب . وفيهم جمال وملح واعتدال وطيب عرق .  
وإلى نساتهم يضرب الأمثال . ومن عندهم جاءوا الملوك بالعود الهندي الذي  
لا يعيدله عود . ومن عندهم خرج علم الفكر ، وما إذا تكلم به على السّم لم  
يضر . وأصل حساب النجوم من عندهم أخذه الناس خاصة . وآدم عليه  
السلام إنما هبط من الجنة فصار ببلادهم .

قالوا : ومن مفاخر الزنج حُسن الخلق ، وجودة الصوت . وإنك لتجد

ذلك في القيان إذا كن من بنات السند .

وخصلة اخرى : أنه لا يوجد في العبيد أطبخ من السندي ، هو أطبخ على طيب الطبخ كله .

ومن مفاخرهم أن الصيارفة لا يولون أكبستهم وبيوت صروفهم إلا السند وأولاد السند ؛ لأنهم وجدوهم أنفذ في أمور الضرف ، وأحفظ وآمن . ولا يكاد أحد أن يجد صاحب كيس صيرفي ومفاتيجه ابن رومي ولا ابن خراساني .

ولقد بلغ من تبرك التجار بهم أن صيارفة البصرة وبنادرة البريهارات ، لما رأوا ما كسب فرج أبوزوح السندي لمولاه من المال والأرضين اشترى كل امرئ منهم غلاماً سندياً ، طمعاً فيما كسب أبوزوح لمولاه .

قال : وكان عبد الملك بن مروان يقول : « الأدغم سيد أهل المشرق » يعني عبداً لله بن أبي بكر . وكان أشد السودان سواداً . وإياه يعني عبداً لله ابن خازم حيث يقول :

حَبَشِيٌّ مَرْتَجِي حَبَشِيٌّ مَرْتَجِي حَبَشِيٌّ

فهذا جملة ما حضرنا من مفاخر السودان . وقد قلنا قبل هذا في مفاخر قحطان ، وسنقول في فخر عدنان على قحطان في كثير مما قالوا إن شاء الله .



## هامش كتاب فخر السودان على البيضان

(١) يذكر الجاحظ اسم احد كتبه الذي ذكره في مقدمة كتاب الحيوان اعني كتاب الصرخاء والهجناء . والصريح هو العربي الأب والام . والهجين هو العربي الأب ولكن امه امة غير عربية .

- ينبغي ملاحظة الالفاظ الغريبة في كلام الأصمعي العالم اللغوي والراوية المشهور وقد أخذ عنه الجاحظ . امثال الخربة اي الثقب ، والترع اي التسرع ، والطمش اي الخلق : ولكن استعمال ترع بمعنى تسرع غير موافق لمعنى الجملة او المثل الذي ضربه : لا يقرب العنز الفئان ما وجدت الماعز ، وتنفر الشاة من المخلب ولا تأنس بالحف . وربما كان استبدالها بكلمة يتترع افضل .

(٢) لقمان الحكيم تضاربت الآراء حول شخصيته وهويته ، وقد ورد اسمه في القرآن ، ونسبت اليه حكم ووصايا كثيرة لابنه .

- مهجع هو مولى عمر ، وقد قتل يوم بدر .

- المقداد : هو المقداد بن الاسود الكندي ابوه عمرو بن ثعلبة حليف كنده . حسن اسلامه وناضل في سبيل الدين وقتل في خلافة عثمان سنة ٣٣ هـ .

- وحشي بن حرب الحبشي مولى بني نوفل .

- مكحول بن سهراب ، عرف بفقهاء وتوفي سنة ١١٢ هـ .

- الحيفطان شاعر عاش في العصر الأموي وتبادل الهجاء مع جرير ونسوح من شعره رائحة الشعوبية . وقد اثبت له الجاحظ في كتاب فخر السودان على البيضان قصيدة رائية يفخر فيها بقومه ويهجو جريراً .

- سنيح بن رباح شار : شاعر اسود عاش ايضاً في العصر الأموي وتبادل الهجاء مع جرير ، والقصيدة التي اثبتها الجاحظ له هنا تبين نزعة الشعوبية واعتداده بقومه السود . ولا حاجة لشرح معانيها لأن الجاحظ اعفانا من هذه المهمة فشرحها باسهاب .

(٣) القياس : سمي الجاحظ قياساً الجملة السابقة وهي : « انهم صاروا اسخياء لضعف عقولهم ولقصر رواياتهم ولجهلهم بالعواقب » ومعنى ذلك ان كل ضعيف العقل سخى . والزنج اسخياء لانهم ضعاف العقول . فالعلة في السخاء هي ضعف العقل والعلة في البخل هي رجاحة العقل .

بيد ان هذا القياس لا ينطبق على الصقالبة والروم ولا على النساء والصبيان . فالصقالبة ابخل من الروم مع انهم اضعف عقولا منهم . والنساء والصبيان ابخل من الرجال مع انهم اضعف عقولاً منهم .

ان القياس يعني إذا بناء على هذه الامثلة التي ذكرها الجاحظ نقل الحكم من شيء الى آخر للعلة ذاتها . ولكن الجاحظ يعتبر قياس خصوم الزنج غير صحيح لانهم قلبوا القياس وبدأوا بالنتيجة بدل البدء بالمقدمة العامة .

- ان السخاء او البخل ، والخلق عامة ، وكذلك العقل ، هبة من الله او فطرة اودعها الله في الناس . وهذا هو المبدأ الفلسفي الذي نادى به الجاحظ . فليس السخاء الذي نلغيه في الزنج او عند بعض الاشخاص نتيجة ضعف العقل او غير ذلك من الاسباب .

- عكيم الحبشي شاعر من السودان الاجباش عاصر الكمييت الاسدي . وقد اثبت له الجاحظ هنا خمسة ابيات يفتخر بها ببلاء السودان في المعارك .

(٤) « سويداء القلب وهي علقته سوداء تكون في جوفه ، تقوم في القلب مقام الدماغ من الرأس » . لم يوضح الجاحظ ماذا يعني بذلك ، وما هو الشبه بين سويداء القلب ودماغ الرأس .

- لاحظ النعرة الشعوية في تفسير قول النبي « بعثت الى الاحمر والاسود » . ان السود هم اصحاب الدعوة بنظر هؤلاء وهم المتقدمون على العرب .

(٥) لاحظ المبالغة في العصبية الشعوية التي دفعت السودان الى اعتبار الصين والهند والعرب ومرو من بلاد السودان . والقمار والديبلا وكلة وزابج من بلاد الهند .

(٦) انظر كيف يفسر الجاحظ اختلاف الوان البشر . انه تفسير طبيعي محض يتفق مع فلسفته الطبيعية . فالبيثة هي التي صيرت لون السودان اسود ولون البيضان ابيض بسبب شدة الحر او شدة البرد الخ . .

(٧) عدد علوم الهند لانه اعتبر الهند من السود . ولم يترك علماً لم ينسبه اليهم : الحساب ، الفلك ، الخط ، الطب ، صناعة الادوية ، النحت ، الشطرنج ، صنع السيوف ، الموسيقى والآلها ، الرقص ، السحر ، الشعر ، الخطابة ، الفلسفة ، الأدب .

- علم الفكر : احد علوم الهند ، وهو كلام يتلى على السم فيصبح غير ضار .
- كليله ودمنة اصله هندي برأي الجاحظ ، وهو أقدم من أشار الى ذلك .
- الدمازكية : لفظة هندية على الأرجح .
- اعمال الصيرفة كانت رائجة في البصرة وبغداد في عصر الجاحظ . وقد برع فيها الموالى من اصل سندي .
- بنادرة البربهارات : تجار العقاقير او التوابل .
- حبشي حبشته حبشة : اي اسود من بلاد الحبشة ، ولدت له امرأة حبشية . يعنى به عبد الله بن ابي بكره الذي عاش في العصر الأموي . والشعر لعبد الله بن خازم البصري امير خراسان لبني أمية وقد ثار به اهل خراسان وقتلوه سنة ٧٢ هـ .
- يشير الى كتابين من كتبه هما : فخر قحطان ، وفخر عدنان على قحطان . انظر كشاف آثار الجاحظ .



مركز بحوث كالمبيوتر علوم إرسودي



- ۹ -



# کتاب الحجاب

مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی



[ ١ - مقدمة ]

أطال الله بقاءك ، وجعلني من كل سوء فداءك ، وأسعدك بطاعته  
وتولّك بكرامته ، ووالى إليك مزیده .

إنه يقال - أكرمك الله - « إن السعيد من وعظ بغيره ، وأن الحكيم من  
أحكمته تجاربه » . وقد قيل : « كفاك أدباً لنفسك ما كرهت من غيرك »  
وقيل : « كفاك من سوء سماعه » ، وقيل : « إن يقظة الفهم للواعظ مما يدعو  
النفس إلى الحذر من الخطأ ، والعقل إلى تصفيته من القذى » .

وكانت الملوك إذا أتت ما يجملُ عن المعاتبة عليه ضربت لها الأمثال ،  
وعرض لها بالحديث . وقال الشاعر :

العبد يقرعُ بالعصا والحُرُّ تكفيه الملامة

وقال آخر :

وبكفبك سوراتِ الأمور اجتنأها

وقال عبد المسيح المتلمس :

لذي الحلم قبل اليوم ما تُقرعُ العصا وما عُلم الإنسان إلا ليعلمها

وقال بعضهم : « في خفيّ التعريض ما أغنى عن شنيع التصريح » .

وقد جمعتُ في كتابي هذا ما جاء في الحجاب من خبرٍ وشعرٍ ، ومعاتبَةٍ  
وعُذرٍ ، وتصريحٍ وتعريضٍ ، وفيه ما كفى . وبالله التوفيق :

وقد قلت :

كفى أدباً لنفسك ما تراه      لغيرك شائناً بين الأنام

[ ٢ - النهي عن الحجاب ]

رُوِيَ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ مِنْ  
السُّلْوةِ اضْطَلَعَ بِأَمَانَتِهِ وَأَمْرِهِ : إِذَا عَدَلَ فِي حُكْمِهِ ، وَلَمْ يَحْتَجِبْ دُونَ غَيْرِهِ ،  
وَأَقَامَ كِتَابَ اللَّهِ فِي الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ » .

وَرُوِيَ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ وَجَّهَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى  
بَعْضِ الرُّجُوعِ ، فَقَالَ لَهُ فِيهَا أَوْصَاءُ بِهِ : « إِيَّيْ قَدْ بَعَثْتُكَ وَأَنَا بِكَ ضَمِينٌ فَابْرُزْ  
لِلنَّاسِ ، وَقَدِّمِ الوَضِيعَ عَلَى الشَّرِيفِ ، وَالضَّعِيفَ عَلَى الْقَوِيِّ ، وَالنِّسَاءَ قَبْلَ  
الرِّجَالِ ، وَلَا تُدْخِلَنَّ أَحَدًا يَغْلِبُكَ عَلَى أَمْرِكَ ، وَشَاوِرِ الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ إِمَامُكَ » .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا استعمل عاملاً شرط عليه  
أربعاً : لا يركب برفدونا ، ولا يتخذ حاجباً ، ولا يلبس كتاناً ، ولا يأكل  
ذرمكاً .

ويوصي عماله فيقول : إياكم والحجاب ، وأظهروا أمركم بالبراز ،  
وخذوا الذي لكم وأعطوا الذي عليكم ، فإن امرأة ظلمت حقه مضطرة حتى ينفذوا  
به مع الغادين .

وكتب عمر رضوان الله عليه إلى معاوية وهو عامله على الشام :

« أما بعدُ فإني لم ألك في كتابي إليك ونفسي خيراً . إياك والاحتجاب  
دون الناس ، وأذن للضعيف وأدينه حتى ينسبط لسانه ، ويمتريء قلبه ، وتعهد  
الغريب فإنه إذا طال حبسه وضاق إذنه ترك حقه ، وضعف قلبه ، وإنما أتوى

حَقُّهُ مَنْ حَبَسَهُ . واحرص على الصلح بين الناس ما لم يستثن لك القضاء .  
وإذا حضرك الخصمان بالبينّة العادلة والأيمان القاطعة فأمض الحكم .  
والسلام .»

وكتب عمر رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري :

«أس بين الناس في نظرك وججايبك وإذتك ، حتى لا يطمع شريف في  
خيفك ، ولا يياس ضعيف من عدلك . وأعلم أن أسعد الناس عند الله تعالى  
يوم القيامة من ساعد به الناس ، وأشقاهم من شقوا به .»

وروى الهيثم بن عدي عن ابن عباس قال : قال لي عبيد الله بن أبي  
المخارق القيني :

استعلمني الحجاج على الفلوجة العليا ، فقلت : أما ها هنا دهقان  
يعاش بعقله ورأيه ؟ فقبل لي : بل ، ها هنا جميل بن بضرى . فقلت : علي  
به . فأتاني فقلت : إن الحجاج استعلمني على غير قرابة ولا دالة ولا وسيلة ،  
فأشّر علي . قال :

مركز تحقيقات كويت علوم إسلامي

لا يكون لك بواب حتى إذا تذكر الرجل من أهل عملك بابك لم يخف  
حجابك ، وإذا حضرك شريف لم يتأخر عن لقائك ولم يحكم على شرفك  
حجابك . وليطل جلوسك لأهل عملك ييبك عمالك ، ويبقى مكانك ولا  
يختلف لك حكم على شريف ولا وضيع ، ليكون حكمك واحداً على الجميع ،  
يثق الناس بعقلك . ولا تقبل من أحد هدية فإن صاحبها لا يرضى بأضعافها  
مع ما فيها من الشهرة .

قال موسى الهادي لحاجبه : لا تحجب الناس عني ، فإن ذلك يزيل التزكية ،  
ولا تُلقي إليّ أمراً إذا كشفته وجدته باطلاً ، فإن ذلك يوتغ المملكة .

وقال بعض الخلفاء لحاجبه : إذا جلست فأذن للناس جميعاً علي ، وأبرز  
فم وجهي ، وسكن عنهم الأحراس ، واخفص لهم الجناح ، وأطب لهم

بشرك ، وألن لهم في المسألة والمنطق ، وارفع لهم الحوائج ، وسو بينهم في  
المراتب ، وقدمهم على الكفاية والغناء ، لا على الميل والهوى .

### [ ٣ - واجبات الحاجب ]

وقال آخر لحاجبه : إنك عيني التي أنظر بها ، وجنة أستنيم إليها ، وقد  
وليتك باي فما تراك صانعاً برعيتي ؟

قال : أنظر إليهم بعينك ، وأحملهم على قدر منازلهم عندك ، وأضعهم  
لك في إبطائهم عن بابك ولزومهم خدمتك مواضع استحقاقهم ، وأرتبهم  
حيث ونسبهم ترتيبك ، وأحسن إبلاغك عنهم وإبلاغهم عنك .

قال : قد وفيت بما عليك ولك قولاً ، إن وفيت به فعلاً . والله ولي  
كفايتك ومعونتك .

وعهد أميراً إلى حاجبه فقال : إن أداء الأمانة في الأعراض أوجب منها في  
الأموال ، وذلك أن الأموال وقاية للأعراض ، وليست الأعراض بوقاية  
للأموال . وقد ائتمنتك على أعراض الغائبين لبابي ، وإنما أعراضهم  
أقدارهم ، فصنّها لهم ، ووفرها عليهم . وصنّ بذلك عرضي ، فلعمري إن  
صيانتك أعراضهم صيانة لعرضي ، ووقايتك أقدارهم وقاية لقدري ؛ إذ كنت  
الحظي بزین إنصافهم إن أنصفوا ، والمبتلى بشين ظلمهم إن ظلموا في  
غشيانهم بابي ، وحضورهم فنائي .

أوف كل أمرى قدره ، ولا تُجاور به حده ، وتوق الجور في ذلك التوقي  
كله . أقبل على من تحجب بإبداء البشر وحلاوة العذر ، وطلاقة الوجه ولين  
القول ، وإظهار الود ، حتى يكون رضاه عنك لما يرى من بشاشتك به  
وطلاقتك له ، كرضاه من تأذن له عنك لما يمنحه من التكريم ، ويحويه من  
التعظيم ؛ فإن المنع عند الممنوع في لين المقالة يكاد يكون كالتبيل عند العطاء

في نفع المَنَالَة .

أَنَّهُ إِلَىٰ حَالَاتِ كُلِّ مَنْ يَغْشَىٰ بَابِي مِنْ وَجِيهِهِ وَخَامِلٍ ، وَذِي هَيْئَةٍ وَأَخِي  
رَثَائَةٍ ، فَيَا مَحْضُرُونَ لَهُ بَابِي ، وَيَتَعَلَّقُونَ بِهِ مِنْ إِيَابِي .

لَا تَحْتَقِرُنَّ مَنْ تَقْتَحِمُهُ الْعَيُونَ لِرَثَائَةِ ثَوْبٍ أَوْ لِدِمَامَةِ وَجْهِهِ ، احْتِقَارًا يَخْفَى  
عَلَىٰ آثَرِهِ ، فَرُبَّمَا بَدَأَ مِثْلَهُ بِمَخْبِرِهِ مِنْ يَرُوقُ الْعَيُونَ مِنْظَرُهُ .

إِنَّكَ إِنْ نَقَصْتَ الْكَرِيمَ مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنْ مَالٍ لَمْ يَغْضَبْ بَعْدَ أَنْ تَسْتَوْهَبَهُ  
مِنْهُ ، وَإِنْ نَقَصْتَ مِنْ قَدْرِهِ أَسْخَطْتَهُ أَشَدَّ الْإِسْخَاطِ ، إِذْ كَانَ يَرِيدُ دُنْيَاهُ  
لِيَصُونَ بِهَا قَدْرَهُ ، وَلَا يَرِيدُ قَدْرَهُ لِيُبْقِيَ بِهِ دُنْيَاهُ . فَكُنْ لِتَحْيُفِ عِرْضِهِ أَشَدَّ  
تَوْقِيًّا مِنْكَ لِتَحْيُفِ مَالِهِ .

إِنَّ الْمَحْجُوبَ وَإِنْ كَانَ عَدُوًّا فِي حِجَابِهِ كَعَدَلْنَا عَلَى الْمَأْذُونِ لَهُ فِي إِذْنِهِ ،  
يَتَدَاخَلُهُ انْكَسَارٌ إِذَا حُجِبَ وَرَأَى غَيْرَهُ قَبْدَ إِذْنِ لَهُ . فَاخْتَصُّهُ لِذَلِكَ مِنْ  
بِشَائِئِكَ بِهِ ، وَطَلَّاقَتِكَ لَهُ ، بِمَا يَتَحَلَّلُ بِهِ عَنْهُ انْكَسَارُهُ . فَلَعَمْرِي لَوْ عَرَفَ  
أَنَّ صَوَابِنَا فِي حِجَابِهِ كَصَوَابِنَا فِي الْإِذْنِ لِمَنْ نَأْذُنُ لَهُ ، مَا احْتَجْنَا إِلَىٰ مَا  
أَوْصَيْنَاكَ بِهِ مِنْ اخْتِصَاصِهِ بِالْبَشَرِ دُونَ الْمَأْذُونِ لَهُ .

إِنْ اجْتَمَعَ الْأَعْلُونَ وَالْأَوْسَطُونَ وَالْأَدْنُونَ ، فَدَعَوْتَ بِوَاحِدٍ مِنْهُمْ دُونَ مَنْ  
يَعْلُوهُ فِي الْقَدْرِ ، لِأَمْرٍ لَا يَدَّ مِنْ الدَّعَاءِ بِهِ لَهُ ، فَأَظْهَرَ الْعُذْرَ فِي ذَلِكَ لِشَلَا  
تَحْبِثَ نَفْسٌ مِنْ عِلَاءٍ ؛ فَإِنَّ النَّاسَ يَتَغَالَبُ لِمِثْلِ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ سُوءُ الظُّنُونِ .  
وَالْوَاجِبُ عَلَىٰ مَنْ سَأَسَهُمُ التَّوَقُّيَ عَلَىٰ نَفْسِهِ سُوءَ ظَنُونِهِمْ ، وَعَلَيْهِمْ تَقْوِيمُ  
نَفْسِهِمْ ؛ إِذْ هُوَ كَالرَّأْسِ يَأْلُمُ لِأَلْمِ الْأَعْضَاءِ ، وَهَمٌّ كَالْأَعْضَاءِ بِالْمَوْنِ لِأَلْمِ  
الرَّأْسِ .

المدائني قال : قال زياد ابن أبيه خواجه :

يَا عَجَلَانُ : قَدْ وَلَيْتُكَ بَنِي ، وَعَزَيْتُكَ عَنْ أَرْبَعَةٍ : ضَارِقِ نَيْلٍ ، فَشَرِّ  
مَا جَاءَ بِهِ أَوْ خَيْرٍ . وَرَسُولٍ صَاحِبِ الشَّغْرِ ؛ فَإِنَّهُ إِنْ نَحَى سَاعَةَ نَفْسِهِ

عمل سنة . وهذا المنادي بالصلاة . وصاحب الطعام ؛ فإن الطعام إذا ترك برده ، وإذا أعيد عليه التسخين فسد .

الهيثم بن عدي قال : قال خالد بن عبد الله القسري لحاجبه : لا تحجبني عني أحداً إذا أخذت مجلسي ؛ فإن الوالي لا يحتجب إلا عن ثلاث : إما رجل عيب يكره أن يُطلع على عيبه ، وإما رجل مشتمل على سوءه ، أو رجل بخيل يكره أن يدخل عليه إنسان يسأله شيئاً .

أنشدني محمود الوراق لنفسه في هذا المعنى :

إذا اعتصم الوالي بإغلاق بابيه ورد ذوي الحاجات دون حجابيه

وأنشدني بعض المحدثين في ابن المدبر :

لولا مقارفة الرئيب ما كنت ممن يحتجب  
أولا فعي منك أو بخل على أهل الطلب  
فاكشف لنا وجه الحاجب ولا تُبال من عتب

مركز تحقيقات الكمبيوتر علوم رسدي

[ ٤ - شروط الحاجب ]

قال المنصور للمهدي : لا ينبغي أن يكون الحاجب جهولاً ، ولا غيباً ، ولا عيباً ، ولا ذهولاً ولا متشاغلاً ، ولا خاملاً ولا محتقراً ، ولا جهماً ولا عبوساً . فإنه إن كان جهولاً أدخل على صاحبه الضرر من حيث يقدر المنفعة ، وإن كان عيباً لم يؤد إلى صاحبه ولم يؤد عنه ، وإن كان غيباً جهل مكان الشريف فأحله غير منزلته ، وحطه عن مرتبته ، وقدم الوضيع عليه ، وجهل ما عليه وماله . وإن كان ذهولاً متشاغلاً أحل بما يحتاج إليه صاحبه في وقته ، وأضاع حقوق الغائبين لبابه ، واستدعى الدم من الناس له ، وأذن عليه لمن لا يحتاج إلى لقائه ولا ينتفع بمكانه . وإذا كان خاملاً محتقراً أحل الناس صاحبه في محله وقضوا عليه به . وإذا كان جهماً عبوساً تلقى كل طبقة

من الناس بالمكروه ، فترك أهل النصائح نصائحهم . وأخل بذوي الحاجات في حوائجهم ، وقلت الغاشية لباب صاحبه ، فراراً من لقائه .

الهيثم بن عدي عن مجالد عن الشعبي ، أن عبد الملك بن مروان قال لأخيه عبد العزيز بن مروان ، حين ولأه مصر :

إن الناس قد أكثروا عليك ، ولعلك لا تحفظ ، فاحفظ عني ثلاثاً .

قال : قل يا أمير المؤمنين .

قال : انظر من تجمل حاجتك ، ولا تجعله إلا عاقلاً فهماً مفهوماً ، صدوقاً لا يُورد عليك كذباً ، يُحسن الأداة إليك والأداء عنك . ومرة ألا يقف ببابك أحد من الأحرار إلا أخبرك ، حتى تكون أنت الأذن له أو المانع ؛ فإنه إن لم يفعل كان هو الأمير وأنت الحاجب . وإذا خرجت إلى أصحابك فسلم عليهم بأنسوا بك . وإذا هممت بعقوبة فتان فيها ؛ فإنك على استدراكها قبل فوتها أقدر منك على انتزاعها بعد فوتها .

وقال سهل بن هارون للفُضَّل بن سهل بن زياد

إن الحاجب أحد وجهي الملك ، يُعتبر عليه برافته ، ويلحقه ما كان في غلظته وفظاظته . فاتخذ حاجبك سهل الطبيعة ، معروفاً بالرافة ، مألوفاً منه البر والرحمة . وليكن جميل الهيئة حسن البسطة ، ذا قصد في نيته وصالح أفعاله . ومرة فليضع الناس على مراتبهم ، وليأذن لهم في تفاضل منازلهم ، وليعط كلاً بقسطه من وجهه ، ويستعطف قلوب الجميع إليه ، حتى لا يغشى الباب أحد وهو يخاف أن يقصر به عن مرتبته ، ولا أن يمنح في مدخل أو مجلس أو موضع إذن شيئاً يستحقه ، ولا أن يمنح أحداً مرتبته . وليضع كلاً عندك على منزلته . وتعهده فإن قصر مقصر قام بحسن خلافته وتزيين أمره .

وقال كسرى أنوشروان في كتابه المسمى « شاهيني » :

ينبغي أن يكون صاحب إذن الخاصة رجلاً شريفاً البيت ، بعيد الهمة ،

بارغ الكرم ، متواضعاً طلقاً ، معتدلاً الجسم بهي المنظر ، لين الجانب ، ليس  
بيذخ ولا بطر ولا مريح ، لين الكلام ، طالباً للذكر الحسن ، مشتاقاً إلى محادثة  
العلماء ومجالسة الصلحاء ، محباً لكل ما زين عمله ، معانداً للسُّعاة ، مجانباً  
للكذابين ، صدوقاً إذا حَدث ، وفيأ إذا وعده ، متفهماً إذا خوطب ، مجيباً  
بالصواب إذا رُوجع ، منصفاً إذا عامل ، آنساً مؤنساً ، محباً للأخيار ، شديد  
الحنو على المملكة ، أديباً له لطافة في الخدمة ، وذكاء في الفهم ، وبسطة في  
المنطق ، ورفق في المحاوره ، وعلم بأقدار الرجال وأخطارها .

وقال في حاجب العامة :

ينبغي أن يكون حاجب العامة رجلاً عبداً مطاعة ، دائم الحراسة  
للملك ، مخوف اليد ، خشن الكلام مروعاً ، غير باطش إلا بالحق ، ولا  
أنيساً ولا مانوساً ، دائم العُبوس ، شديداً على المريب ، غير مستخف بخاصة  
الملك ومن يهوى ويقر ، من بطانته .

قال عبد الملك لأخيه عبد العزيز ، حين وجهه إلى مصر :

اعرف حاجبك ، وجليستك ، وكاتبك . فإن الغائب يجبره عنك كاتبك ،  
والمتوسم يعرفك بحاجبك ، والخارج من عندك يعرفك بجليستك .

وقال يزيد بن المهلب لابنه مخلد حين ولّاه جرجان : استطرف كاتبك ،  
واستعقل حاجبك .

وقال الحجاج : حاجب الرجل وجهه ، وكاتبه كله .

وقال ابن أبي زُرعة : [ قال ] رجلٌ من أهل الشام ، لأبي  
الخطاب الحسن بن محمد الطائي يعاتبه [ في حجاب ] :

هذا أبو الخطاب بدر طالغ من دون مَطْلعه حجابٌ مظلمٌ  
ويقال وجه المرء حاجبه كما بلسان كاتبه الفنى يتكلم  
أدبيت من قبل اللقاء ، وبعده أفضيت ، هل يرضى هذا من يفهم

وإذا رأيت من الكريم فظافةً فالإيه من أخلاقه أتظلم  
وقال الفضل بن يحيى : إن حاجب الرجل عامله على عرضه ، وإنه لا  
عوض لحر من نفسه ، ولا قيمة عنده لحرية وقدره .

وأشده ابن أبي كامل في هذا المعنى :

واعلمن إن كنت تجهله أن عرض المرء حاجبه  
فيه تبدو محاسنه وبه تبدو معايبه

[ ٥ - أخبار وأشعار عتاب وهجاء ومدح في الحجاب ]

إسحاق الموصلي عن ابن كنانة قال :

خبرت أن هانيء بن قبيصة وفد على يزيد بن معاوية ، فاحتجب عنه  
أياماً ، ثم إن يزيد ركب يوماً بتصيد فتلقاه هانيء فقال : يا يزيد ، إن الخليفة  
ليس بالمحتجب المتخفي ، ولا المتطرف المتنجي ، ولا الذي ينزل على الغدران  
والفلوات ، ويخلو للذات والشهوات . وقد وليت أمرنا فأقم بين أظهرنا ،  
وسهل إذننا ، واعمل بكتاب الله فينا . فإن كنت قد عجزت عما هنا فاردد  
علينا بيعتنا نبيع من يعمل بذلك فينا ، ويقيمه لنا . ثم عليك بخلواتك  
وصيدك وكلابك .

قال : فغضب يزيد وقال : والله لولا أن أسن بالشام سنة العراق  
لاقت أودك .

ثم انصرف وما هاجه بشيء ، وأذن له ، ولم تتغير منزلته عنده ، وترك  
كثيراً مما كان عليه .

الموصلي قال : كان سعيد بن سلم والياً على أرمينية ، فورد عليه أبو  
دُهْمَان الغلابي ، فلم يصل إليه إلا بعد حين ، فلما وصل قال - وقد مثل بين  
السماطين - :

والله إنِّي لأعرف أقواماً لو علموا أن سَفَّ التُّراب يُقيم من أود أصلابهم  
لجعلوه مُسكَةً لأرماقيهم ، إشاراً للتنزُّه عن العيش الرقيق الحواشي . والله إنِّي  
لبعيدُ الوَثْبَةِ ، بطي ، العَطْفَةِ إنَّه والله ما يثني عليك إلَّا مثلُ ما يَصرفني  
عنك ، ولأن اكون مملقاً مقرباً أحبُّ إليَّ من أن أكون مكشراً مبعداً .  
والله ما نسأل عملاً لا نضبطه ولا مالاً إلَّا ونحن أكثر منه ، وإن الذي صار في  
يدك قد كان في يد غيرك ، فأمسوا والله حديثاً ، إن خيراً فخييراً ، وإن شراً  
فشراً . فتحبُّب إلى عبادِ الله بحُسن البشر ، ولين الحجاب ؛ فإنَّ حبَّ عبادِ  
الله موصولٌ بحبِّ الله ، وهم شهداءُ اللّهِ على خلقه ، وأمانؤه على من اعوجَّ  
عن سبيله .

إسحاق بن إبراهيم الموصلي قال :

استبطاني جعفر بن يحيى ، وشكنا ذلك إلى أبي ، فدخلت عليه - وكان  
شديد الحجاب - فاعتذرت إليه وأعلمته أنّي أتيت مراراً للسلام فحجبتني نافذُ  
غلامه . فقال لي وهو مازح : متى حجبتك فنكته . فأتيت بعد ذلك للسلام  
فحجبتني ، فكتبتُ إليه رقعةً فيها :

جُعِلَتْ فِدَاؤُكَ مِنْ كُلِّ سُوءٍ إِلَى حُسْنِ رَأْيِكَ أَشْكُو أَنَا  
بِحَوْلُونِ بَيْنِي وَبَيْنَ السَّلَامِ فَمَا إِنْ أَسَلِمُ إِلَّا اخْتِلاَسَا  
وَأَنْفَذْتَ رَأْيَكَ فِي نَافِذٍ فَمَا زَادَهُ ذَلِكَ إِلَّا شِمَاسَا

وسألتُ نافذاً أن يوصلها ففعل ، فلما قرأها ضحك حتى فحصر برجليه  
وقال : لا تحجبه أيُّ وقتٍ جاء . فصرتُ لا أحجب .

وحجَّب أحمد بن أبي طاهر بباب بعض الكتاب فكتب إليه :

ليس لحرٍّ من نفسه عَوْضٌ ، ولا من قدره خطر ، ولا لبذل حُرَيْتِهِ  
ثمن . وكلُّ ممنوعٍ فمستغنى عنه بغيره ، وكلُّ مانعٍ ما عنده ففي الأرض  
عَوْضٌ منه ، ومندوحةٌ عنه . وقد قيل : أرخصُ ما يكون الشيءُ عند غلاته .

وقال بشار :

### والدُّرُّ يُتْرَكُ من غلاته

ونحن نعوذ بالله من المطامع الدنيئة ، والهمة القصيرة ، ومن ابتذال  
الحرية ، فإن نفسي واللّه آيئة ، ما سقطت وراء همة ، ولا خذلها ناصرٌ عند  
نازلة ، ولا استرقفها طمع ، ولا طُبعت على طبع . وقد رأيتك ولّيتَ عرضك  
من لا يَصُونُه ، ووكلتَ ببابك من يَشِينُه ، وجعلتَ ترْجَمَانَكْرَمك من يُكْثِرُ من  
أعدائك ، وينقص من أوليائك ، وسيء العبارة عن معروفك ، ويوجّه وفود  
الذّم إليك ، ويضعن قلوب إخوانك عليه ؛ إذ كان لا يعرف لشريفٍ قدراً ،  
ولا لصديقٍ منزلة ، ويزيل المراتب عن جهاتها ودرجاتها ، فيحطُّ العليّ إلى  
مرتبة الوضيع ، ويرفع الدنيّ إلى مرتبة الرفيع ، ويقبل الرُشّي ، ويقدم على  
المؤوى . وذلك إليك منسوبٌ ، وبرأسك معسوبٌ ، يلزمك ذنبه ، ويحلُّ  
عليك تقصيره .



وقد أنشدني أبو عليّ البصير :

كم من فتى عمداً أخلاقه ~~وتسكن الأحرار في ذمته~~  
قد كثر الحاجب أعداءه وأحقد الناس على نعمته  
وأنتيت لبعضهم :

يدلّ على سرّ الفتى واحتماله إذا كان سهلاً دونه إذن حاجبه  
وقد قيل ما البواب إلا كربه إذا كان سهلاً كان سهلاً كصاحبه

وقال الطائي :

حشم الصديق عيونهم بحاشة لصديقه عن صدقه ونفاقه  
فلينظرن المرة من غلماناه فهم خلائفه على أخلاقه

وقال آخر :

اعرف مكانك من أخيك لك ومن صديقك بالحشم

وقال ابن أبي عيينة :

إنَّ وجداً الغلام يجبر عمًا  
فإذا ما جهلت ودُّ صديقي

في ضمير المولى من الكتمان  
فامتحن ما أردت بالغلماين

ردل آخر :

ومحنة نزلين بيئنة ' تُعرف قبل اللقاء بالحشم

وأنشد عبد الله بن أحمد المَهْزَمِيّ في عليّ بن الجهم :

أعليّ دونك يا عليّ حجابُ  
هذا بإذنك أم برأيك أم رأى  
يُدن البعيد وتحجب الأصحابُ  
هذا عليك العبدُ والبوابُ  
إن الشريف إذا أمر عبيده  
غلبت عليه فأمره مُرتابُ

وأخذه من قول الطائي :

أبا جعفر وأصول الفتي  
ليس عجيباً بأنَّ امرأ  
تدُلُّ عليه بأغصانه  
رجاك لحادثِ أزمائه  
فتماسر أنت بإعطائه  
ولست أحبُّ الشريف الظريف  
ويأمر فتُح بحرمانه  
يكون غلاماً لسفلمانه

وحُجب ابن أبي طاهر بباب بعض الكتاب ، فكتب إليه :

« إنه من لم يرفعه الإذن لم يضعه الحجاب ، وأنا أرفعك عن هذه  
المنزلة ، وأربأ بعدوك عن هذه الخليفة ، وما أحد أقام في منزله - عظم أو  
صغر قدره - إلا ولو حاول حجاب الخليفة عنه لأمكنه . فتأمل هذه الحال  
وانظر إليها بعين النصفة ، ترها في أقبح صورة ، وأدنى منزلة . وقد قلت :

إذا كنت تأتي المرة تُعظم حقّه  
ففي الناس أبدال وفي العزّ راحة  
ويجهل منك الحقّ فاهجر أوسع  
وإن امرأ يرضى أخوان لنفسه  
وفي اليأس عمّن لا يواتيك مقنّع  
فدع عنك أفعالاً يشينك فعلها  
حبريّ بجذع الأنف والجذع أشنع  
وسهل حجاباً إذنه ليس ينفع

وحدّثني عبد الله بن أبي مروان الفارسيّ قال :

ركبت مع ثمامة بن أشرس إلى أبي عباد الكاتب ، في حوائج كتب إليّ فيها أهل إرمينية من المعتزلة والشيعة ، فاتيناه فأعظم ثمامة واقعه في صدر المجلس وجلس قبأته ، وعنده جماعة من الوجوه ، فتحدّثنا ساعة ثم كلمه ثمامة في حاجتي ، وأخرجت كتب القوم فقرأها ، وقد كانوا كتبوا إلى أبي عباد كتباً ، وكانوا أصدقاءه أيام كونه بإرمينية ، فقال لي : بكر إليّ غداً حتى أكتب جواباتها إن شاء الله . فقلت : جعلني الله فداك ، تأمر الحاجب إذا جئت أن يأذن لي . فغضب من قولي واستشاط وقال : ومي حُجبت أنا ، أو لي حاجب ، أو لأحد عليّ حجاب ! .

قال عبد الله : وقد كنت أتيتُه فحجبتني بعض غلمانيه ، فحلّف بالأيمان المغلظة أن يقلع عينيّ من حجبتني ، ثم قال : يا غلام ، لا يبق في الدار غلام ولا منقطع إلينا إلا أحضرتموني الساعة ! قال : فأق بغلمانيه وهم نحو من ثلثمائة ، فقال : أشير إلى من شئت فيهم فغمزني ثمامة فقلت : جعلت فداك لا أعرف الغلام بعينه ، فقال : ما كان لي حاجب قط ، ولا احتجبت ، وذلك لأنه سبق مني قول ، لأنّي كنت وأنا بالرّي وقد مات أبي وحلّف لي بها ضياعاً فاحتجب إلى ملاقاته الرجال والسُلطان فيما كان لنا ، فكنت أنظر إلى الناس يدخلون ويصلون وأحجب أنا وأقصي ، فتنقاصر إليّ نفسي ، ويضيق صدري ، فأليت على نفسي إن صرت إلى أمر من السُلطان ألا احتجب أبداً .

وحدّثني الزبير بن بكار قال :

استأذن نافع بن جبير بن مطعم على معاوية ، فمنعه الحاجب فدقّ أنفه ، فغضب معاوية وكان جبير عنده ، فقال معاوية : يا نافع ، أتفعل هذا بحاجبي ؟ قال : وما ينعني منه وقد أساء أدبه وأسأت اختياره ؟ ! ثم أنا بالمكان الذي أنا به منك . فقال جبير : فُضّ الله فاك ، الا تقول : وأنا بالمكان الذي أنا به من عبد مناف ؟ ! قال : فتبسم معاوية وأعرض عنه .

قال : وقد رجل من الأكاصرة على بعض ملوكهم ، فأقام ببابه حولاً لا يصل إليه ، فكلم الحاجب فأوصل له رقعة فيها أربعة أسطر :

السطر الأول فيه : الأمل والضرورة أقدماني إليك .

وفي الثاني : ليس على العديم صبرٌ على المطالبة .

وفي الثالث : الرجوع بلا فائدة شماتة العدو والقريب .

وفي الرابع : إما « نَعَمْ » مُثمرة ، وإما « لا » مؤيسة ، ولا معنى

للحجاب بينها .

فوقع تحت كل سطرٍ منها : « زه » .

وأنشد الوليد بن عُبيد البحرني في ابن المدبر يهجو غلامه بشراً :

وكم جئت مشتاقاً على بُعد غايةٍ إلى غير مشتاقٍ وكسم ردي بشرُ

وما بأله يأتى دخولي وقد رأى خروجي من أبوابه ويدي صفرُ

وأنشدت لبعضهم :

لعمري لئن حجبتني العبيدُ ببابك ما ينجبوا القافية

سأرمي بها من وراء الحجابِ جزاءً فروض لكم وافية

تُصمُّ السَّميعَ وتُعمي البصيرَ ويُسال من أجلها العافية

وأنشدني أحمد بن أبي فتن ، في محمد بن حمدون بن إسماعيل :

ولقد رأيتُ بباب دارك جفوةً فيها لحسن صنيعية تكديرُ

ما بال دارك حين تدخل جنةً وبباب دارك منكبر وتكبيرُ

وأنشدني أبو علي الدرهمي اليمامي في أبي الحسن علي بن يحيى :

لا يُشبه الرجل الكريم نجاره ذا اللب غيرُ بشاشة الخجَابِ

وبباب دارك من إذا حبيته جعل التبرُّمَ والعُبوسَ ثوابي

أوصيته بالإذن لي فكأنما أوصيته متعمداً لحجابي

وأنشدني أبو علي البصير في أبي الحسن علي بن يحيى :

في كل يوم لي ببابك وقفه      اطوى إليها سائر الأبواب  
فإذا حضرت وغبتُ عنك فإنه      ذنب عقوبته على البواب

وأنشدني أبو علي اليمامي ، وعاتب بعض أهل العسكر في حاجبه ، فلم  
يأذن له الحاجب بعد ذلك ، فكتب إليه :

صار العتابُ يزيدني بُعداً      ويزيد من عاتبته صداً  
وإذا شكوت إليه حاجبه      أغراه ذاك فزادني رداً

وأنشدني العجيني في بعض أهل العسكر ، يعاتبه في حجابهِ ويهجو  
حاجبه :

لما يحسن المديح إذا ما      أنشد المادح الفتى الممدوحا  
وأراني بباب دارك عمرت      ت طويلاً مقصي مهاناً طريحا  
إن بالجاب حاجباً لك أمسي      مُنكرٌ عنده ظريفاً مليحاً  
ما سألناه عنك قطُ وإلا      رداً من يفضه مرذاً قبيحاً

وأنشدت لبعضهم في هجاء حاجب

سأترك باباً أنت تملك إذنه      ولو كنت أعمى عن جميع المسالك  
فلو كنت بواب الجنان تركتها      وحولت رجلي مسرعاً نحو مالك

وكتب بعض الكتاب إلى الحسن بن وهب ، في بوابه :

قد كنت أحسب أن طرفك ملني      ورُميت منك بجفوة وعذاب  
فإذا هواك على الذي قد كان لي      وإذا بلتُنا من البواب  
فإعلم - جعلتُ فداك - غير معلم      أن الأديب مؤدبُ الحجاب

وقال رزيب القروصي لجعفر بن محمد بن الأشعث :

إن كنت تحجيني للذنب مزدهياً      فقد لعمرى أبوكم كلّم الذيبنا  
فكيف لو كلّم الليث المصوّر إذا      تركتم الناس مأمولاً ومشروبنا

هذا السنيدي ما ساوى إتاوته      يكلم الفيل نصعيداً وتصويباً  
اذقبت إليك فما آسى عليك وما      القى بسابك طلباً ومطلوباً

المدائني قال : كان يزيد بن عمر الأسدي على شرطة البصرة ، فأتاه  
الفرزدق في جماعة فوقف ببابه ، فأبطأ عليه إذنه ، فقال - وكان [ ابن ] عمر  
يلقب الوقاح - :

ألم يك من نكس الزمان على استه      وقوفي على باب الوقاح أسائله  
فإن تك شرطياً فإني لغالب      إذا نزلت أركاناً فح منازله

وقال أبو علي البصير ، وحجبه محمد بن غسان ، بعد أنس كان بينهما :

قد أتينا للوعد صدر النهار      فدقنا من دون باب الدار  
وسمعنا ، من غير قصد لأن نس      مع ، صوت الغناء والأوتار  
فأحطنا بكل ما غاب من شأ      نك عنا خيراً بلا استخبار  
فإذا أنت قد وصلت صرحاً      بتبوق ودجلة باهتكار  
وإذا نحن لا تحاطبنا الغيل      حان إلا بالجد والإنكار  
فانصرفنا وطالما قد تلقوا      نأ بأنس منهم وباستبشار  
ذاك إذ كان مرة لك فينا      وطر فانفضى من الأوطار  
حين كنا المقدمين على النا      من وكنا الشعار دون الدثار  
كم تأتيت وانتظرت فأفني      ت تأتي كبله وانتظاري  
فعليك السلام كنا من الأه      ل فصرنا كسائر الزوار

وله إليه أيضاً :

قد أطلنا بالباب أمس القمودا      وجفينا به جفاء شديدا  
وذفنا العبيد حتى إذا نح      ن بلونا الموتى صدرنا العبيدا  
وعلى موهب أتمناك معلو      م وأمر مؤكد تأكيدا  
فأقمنا لا الإذن جاء ولا جا      ة رسول قال انصرف مطرودا

ظَهَرَ بِرَدُونَ بَعْضِهِمْ مَرْدُودًا  
مَنْ فِي ذَاكَ يَمْنَحُونَا صَدُودًا  
أُحْرَجُوا جَرَّدُوا لَنَا تَهْرِيدًا  
لَحْمَ فِيهَا نِيًّا كُفَيْتَ الْوَقُودَا  
بِأَعْظِيهَا وَكُنْتَ فَظًّا حَقُودَا  
فَوْقَ هَذَا لَمَّا وَجَدْتَ مَزِيدًا  
تُكُّ مِنْ كُلِّ مَا ظَنَنْتُ بَعِيدًا  
يَضْمَنُ الدَّهْرَ بَعْدَهَا أَنْ يَعُودَا

وَصَبَرْنَا حَتَّى رَأَيْنَا قُبَيْلَ الْ  
وَأَسْتَقَرُّ الْمَكَانُ بِالْقَوْمِ وَالغَدَا  
وَيُثْبِتُونَ بِالْمَضْيِ فَلَمَّا  
فَانصَرَفْنَا فِي سَاعَةٍ لَوْ طَرَحْتَ الْ  
فَلَعَمْرِي لَوْ كُنْتَ تَعْتَدُ لِي ذَا  
وَطَلَبْتَ الْمَزِيدَ لِي فِي عَذَابِ  
كَانَ ظَنِّي بِكَ الْجَمِيلَ فَأَلْفِي  
فَعَلَيْكَ السَّلَامُ تَسْلِيمَ مَنْ لَا

وله في أحمد بن داود السبيي وقصد إليه بكتاب إسحاق بن سعيد

الكاتب :

زَمَ إِلَّا مِنْ نَالِهِ الْإِعْذَارُ  
فَتَهُ مَشْحُودَةٌ عَلَيْهِ الشُّفَارُ  
بِهَا مَفْرُ مَا دَامَ يُنْجِي الْفِرَارُ  
مَاعِلٍ مِثْلَهُ لَدَيْهِ اصْطِبَارُ  
رُوحَةٌ مَا أُغْبِيهَا وَابْتِكَارُ  
نَ عَلَيْهِ وَيَدْخُلُ الزُّوَارُ  
سَ فِيهَا ذُلٌّ لَهُ وَصَفَارُ  
لِكَ حَظُّ يَنَالِهِ مَخْتَارُ  
هُ أُنَاءٌ طَوِيلَةٌ وَأَنْتِظَارُ

يا ابن سعيد إن العقوبة لا تد  
وابن داود مستخف وقد وا  
فأهدى لقي يكون له من  
سامني أحمد بن داود أمرا  
لي إليه في كل يوم جديد  
ووقوف ببابه. أمتع الإذ  
خطة من يقيم عليها من النا  
لويقال الغنى لما كان في ذ  
عزب الرأي في عنه وعزب

وحجب بباب بعض الكتاب فكتب إليه :

يُسلُون لِي قَوْلَهُ الْحَاجِبُ  
وَرَبَّنَا قَالَ لِي : رَاكِبُ  
وَتَحْلِيظُهُ أَنَّهُ كَاذِبُ  
بِي إِسْضَاءَهُ رَأْيِي الشَّاقِبُ

أقمت ببابك في جفوة  
فيطمعني تارة في الوصول  
فأعلم عند اختلاف الكلام  
وأعزم عزمًا فيأبى عند

وَإِنِّي أَرَأَيْتَ حَتَّى يَثُورَ      بَلِّ لِحَرٍّ مِنْ رَأْيِهِ ثَائِبٌ  
فَإِنْ تَسَعْتَدَرْتُ تُلْفِي عَاذِرًا      صَفْوَاحًا وَذَاكَ هُوَ الْوَاجِبُ  
وَإِلَّا فَلَيْتَ إِذَا مَا الْحَبَا      لُ رَأَيْتَ قُؤَاهَا ، هَا قَاضِبٌ

وقال لعلِّي بن يعقوب الكاتب وحجبه بياحه :

قَدْ أَتَيْتُكَ لِلسَّلَامِ فَصَادَفَ      نَا عَلَى غَيْرِ مَا عَهَدْنَا الْغَلَامَا  
وَسَأَلْنَاكَ عَنْكَ فَاعْتَلَّ بِالنُّو      مِ وَمَا كَانَ مُنْكَرًا أَنْ تَنَامَا  
غَيْرَ أَنَّ الْجَوَابَ كَانَ جَوَابًا      سَيِّئًا يُعَقِّبُ الصُّدِيقَ احْتِشَامَا  
فَانصَرَفْنَا نَوَجُّهُ الْعُذْرَ إِلَّا      أَنْ فِي مَضْمَرِ الْقُلُوبِ اضْطِرَامَا  
يَا ابْنَ يَعْقُوبِ لَا يَلُومُنْ إِلَّا      نَفْسَهُ بَعْدَ هَذِهِ مَنْ الْإِمَامَا

وقال لعلِّي بن يحيى المنجم ، وحجبه غلامه :

لَيْسَ يَرْضَى الْحُرُّ الْكَرِيمَ وَلَوْ أَق      طَعَمْتَهُ الْأَرْضَ أَنْ يَذُلَّ لِعَبِيدِ  
فَعَلَيْكَ السَّلَامُ إِلَّا عَلَى الطَّرِ      قِي وَحُبِّي كَمَا عَلِمْتَ وَوَدِّي

وقال أبو هيفان لعلِّي بن يحيى ، يعاتبه في حجابيه :

أَبَا حَسَنِ وَقُنَّا حَقِيئًا      بِحَقِّ مَكَارِمِكَ الْوَافِيَةِ  
أَحْجَبَ دُونَكَ شَرُّ الْحَجَابِ      وَيَدْخُلُ دُونَ بَنِي الْعَافِيَةِ  
أَعْوَدُ بِفَضْلِكَ مِنْ أَنْ أَسَاءَ      وَأَسْأَلُ رَبِّي لَكَ الْعَافِيَةَ  
فَلَيْتَ أَمْرًا تُشْفِيَنِي الْمَلُوكُ      وَتَدْخُلُ فِي خَلْقِي الْبُضَافِيَةِ  
كَتَبْتَ عَلَى نَفْسٍ مِنْ رَأْيِي      بِبَعْضِ الْأَذَى لِلرَّدَى صَافِيَةِ

وأنشئت لبرقوق الأخطل وحجبه بياح بعض الكتاب :

قَدْ حُجِبْنَا وَكَانَ خَطْبًا جَلِيلًا      وَقَلِيلُ الْجَفَاءِ لَيْسَ قَلِيلًا  
لَمْ أَكُنْ قَبْلَهَا ثَقِيلًا وَهَلْ يَثُ      تَقُلُّ مِنْ خَافٍ أَنْ يَكُونَ ثَقِيلًا  
غَيْرَ أَنِّي أَظُنُّ لَا زَالَ ذَاكَ ال      ظُنُّ يَنْقَادُ أَنْ يَكُونَ مَلُولًا

وأخذه من قول الآخر :

لما محاجبت وقد خفت أن أقلت إيمانكم إنه قدنوا من وذلك بالقبيل من خاف أن يُنقل لم يشغل

وأنشدني أبو عبد الرحمن العَطَوِيُّ :

لأبي بكر خيلي يا أبا بكر سقاك الله لن تراني بعدها من إن ينبت نخطب ففي الرشد  
حسن رأيي في الحجاب به من صوب السحاب بعدها قارع بساب بل بلاغ والكتاب

ولخالد الكاتب في جعفر بن محمود :

احتجب الكاتب في دهرنا القوم يخلون الحجابهم وكان لا يجتنب الكاتب فبئس المحجوب والمحجب

ولأبي سَعْدِ المَخْزُومِيِّ في الحسن بن سهل :

ترهب بعدك الحسن بن سهل فأغلق بابَه دون المديح كذبت له ولم أكذب عليه كما كذب النصارى للمسيح

وأنشدني البلاذري في بعض كتاب أهل العسكر :

أبججني من ليس من دون عرسه ججاب ولا من دون وجعائه يتر عليه لاضحى قد تضمينه قبر ومن لو أمات الله أهون خلقه

وأنشدني حبيب بن أوس ، في موسى بن إبراهيم ، أبي المغيث :

أموس لا يُغني اعتذارك طالبا هب من له شيء يريد حجابَه ما إن سمعت ولا أراني سامعا من كان مفقود الحياء فوجهه  
وذي فما بعد الهجاء عتاب ما سأل لا شيء عليه حجاب يوماً بصحراء عليها باب من غير بواب له بواب

ولآخر :

بَخِلَ الأَمِيرُ بإِذْنِهِ فَجَلَسْتُ فِي بَيْتِي أَمِيرًا  
وَتَرَكْتُ امْرَأَتَهُ لَهُ وَاللَّهُ عَمُودٌ كَثِيرًا

وَأَنشَدَنِي الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ لِبَعْضِ الشُّعْرَاءِ :

سَأَتْرُكُ هَذَا الْبَابَ مَا دَامَ إِذْنُهُ عَلَى مَا أَرَى حَقًّا يَلِينُ قَلِيلًا  
إِذَا لَمْ نَجِدْ لِلْإِذْنِ عِنْدَكَ سُلْمًا وَجَدْنَا إِلَى تَرْكِ الْمَجِيءِ سَبِيلًا

الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ قَالَ : وَقَدْ ابْنُ عَمٍّ لِدَاوُدَ بْنِ يَزِيدَ الْمُهَلَّبِيِّ عَلَيْهِ فَحِجْبُهُ ،  
وَجَعَلَ يَمْطُلُهُ بِحَاجَتِهِ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ :

أَبَا سَلِيمَانَ وَعَدَا غَيْرَ مَكْدُوبٍ الْيَأْسَ أَرْوَحُ مِنْ آمَالِ عُرْقُوبٍ  
أَرَى حَمَامَةً مَطْلًا غَيْرَ طَائِرَةٍ حَقًّا تُنْقَبُ عَنِ بَعْضِ الْأَعَاجِيبِ  
لَا تَرْكِبُنْ بِشِعْرِي غَيْرَ مَرْكَبِهِ فَيَرْكَبُ الشُّعْرَ ظَهْرًا غَيْرَ مَرْكُوبٍ  
لَنْ تُحِجِبْتُ فَلِمَ تَأْذُنُ عَلَيَّ فَمَا شِعْرِي إِذَا سَارَ عَنْ أُذُنٍ بِمَحْجُوبٍ  
إِنْ ضَاقَ بِأَبْكَ عَنْ إِذْنٍ شَدَدَتْ غَدَا رَحَلِي إِلَى الْمَطْرَبِيِّنَ الْمُنَاجِيبِ  
قَوْمٌ إِذَا سَلُّوا رَقَّتْ وَجُوهَهُمْ لَا يَسْتَقِيدُونَ إِلَّا لِلْمَوَاهِبِ

وَلِلْأَحْوَصِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْأَنْصَارِيِّ فِي أَبِي بَكْرٍ بْنِ حَزْمٍ :

أَعْجَبْتُ أَنْ رَكِبَ ابْنُ حَزْمٍ بَغْلَةً فَرَكَوْبُهُ فَوْقَ الْمُنَابِرِ أَعْجَبُ  
وَعَجَبْتُ أَنْ جَعَلَ ابْنُ حَزْمٍ حَاجِبًا سَبْحَانَ مَنْ جَعَلَ ابْنَ حَزْمٍ يُحْجَبُ

وَأَنشَدْتُ لِابْنِ حَزْمٍ يِعَاتِبُ رَجُلًا فِي حِجَابِهِ :

صَحْبَتُكَ إِذْ أَنْتَ لَا تُصْحَبُ وَإِذْ أَنْتَ لَا غَيْرَكَ الْمَوْكَبُ  
وَإِذْ أَنْتَ تَفْرَحُ بِالزَّائِرِينَ وَنَفْسُكَ نَفْسُكَ تَسْتَحْجَبُ  
وَإِذْ أَنْتَ تُكْثِرُ ذَمَّ الزَّمَانِ وَمِثْلِيكَ أَضْعَافُ مَا تَرْكَبُ  
فَقُلْتُ : كَرِيمٌ لَهُ هِمَّةٌ نُنَالُ فَأَدْرِكُ مَا أَطْلُبُ  
فَلَيْتَ فَأَقْصِيئَنِي عَامِدًا كَأَنِّي ذُو عُرَّةٍ أَجْرُبُ  
وَاصْبَحْتُ عَنْكَ إِذَا مَا أَتَيْتُ تُوْنَ الْوَرَى كُلَّهُمْ أَحْجَبُ

وأنشدني أبو تمام الطائي :

ومحجَّب حاولته فوجدته      نجياً عن الركب العفاة شوعاً  
لما عدمت نواله أعدمته      شكري فرحنا معدمين جميعاً

ووقف العتيبي بباب إسماعيل بن جعفر يطلب إذنه ، فأعلمه الحاجب أنه  
في الحمام ، فقال :

وأمر إذا أردنا طعاماً      قال حجابُه أتى الحماما  
فيكون الجواب مني للحا      جب ما إن أردت إلا السُلاما  
لست أتیکم من الذهر إلا      كل يوم نويت فيه الصياما  
إنني قد جعلت كل طعام      كان جلاً لكم علي جراما

وأنشدني إسحاق بن خلف البصري له :

أيمجِبني أبو الحسن وهذا      ليس بالحسن  
وليس حجابُه إلا عن      الزيتون والجُبُن

وأنشدني بعضهم :

لا تتخذ باباً ولا حاجباً      عليك من وجهك بوابُ  
أنت ولو كنت بذوئيه      عليك أبوابٌ وحجابُ

ولعلي بن جبلة في الحسن بن سهل :

السياس عز والذلة الطمع      يضيق أمر يوماً ويتسع  
لا تستريثن إذن محتجب      إن لم تكن بالدخول تنتفع  
أحق شيء بطول مهجرة      من ليس فيه ري ولا شبع  
قل لابن سهل فلإني رجل      إن لم تدعني فلإني أدع  
السياس مالي وجنتي كرم      والصبر والي علي لا الجزع

ولأبي تمام الطائي في أبي المغيث :

لا تَكُلْفُنْ وأَرْضْ وجهك وجهه  
لا تَمْتَهِنِي بالحجاب فإنني

ولبعض الشعراء في العباس بن خالد ، وخبرته أنه لابن الأعمش :

أَتَجُوبِي فليس لديك نَيْلٌ وقد ضَمَيْتَ مَكْرَمَةً ومَجْدًا  
وفي الأفاق أبدالٌ ورزقٌ وفي الدُنْسِيما مَرَاخٌ لي وَمَغْدِي

وأنشدني أبو الخطاب ، لدعبل ، في غَسَّانَ بن عباد :

لَقَطْعُ الرَمَالِ وَنَقْلُ الجِبَالِ وشرب البحار التي تصطبغُ  
وَكَشْفُ الغِطَاءِ عن الجِنِّ أو صُمُودُ الشَّهَاءِ لمن يرتقب  
وإحصاء نُومٍ سعيدٍ لنا أو الشُّكْلُ في ولدٍ مُنتَجِبٍ  
أخفُّ على المرء من حاجةٍ تكلفُ غشيانها مرتقبُ  
له حاجبٌ دونه حاجبٌ وحاجب حاجبه محتجبُ

ولمرداس، بن حزام الأسدي ، في بَيْتِيرِ بن جرير بن عبد الله :

أَتَيْتُ بِشِيرًا زَائِرًا فوجدته أحمًا كبرياءٍ عالماً بالمعافر  
فَصَدُّ وأبدي غِلْظَةً ونَجْهًا وأغلق باب العُرف عن كل زائرٍ  
حجاباً لحرٍّ لا جواداً بماله ولا صابراً عند اختلاف البواتر

وحجب أبو العتاهية بياب أحمد بن يوسف الكاتب ، فكتب إليه :

ألم تر أن الفَقْرَ يُرْجَى له الغنى وأن الغنى يُخْشَى عليه من الفقرِ  
فإن نلتَ تيهًا بالذي نلتَ من غنى فإن غنيتي بالذي نلتَ من فقرِ

وله أيضاً فيه :

إني أتيتك لئلا م نكلنا مني ومهما  
فصددت عني نخوة ونجبراً ونوتت شذفا  
فلو أن رزقي في يدي لك لما طلبت الدهر رزقا

ولأحمد بن أبي طاهر :

ليس العجيب بأن أرى لك حاجباً      ولأنت عندي من حجابك أعجب  
فلئن حُجبتُ لقد حجبتُ معاشراً      ما كان مثلهم يبايك يُحجِب

وله في بعض الكتاب :

ردني بالذلِّ صاحبُه      إذا رأى أيُّ اطمالِبه  
ليس كشخانا فاشتُمه      إنما الكشخانُ صاحبُه

وله أيضاً في علي بن يحيى يعاتبه في بعض قصائده :

أصواباً تراه أصلحك الله فما إن رأيتُه بصوابٍ  
صرتُ أدعوك من وراء حجابٍ      ولقد كنتُ حاجبَ الحجابِ

أن أبو العتاهية باب أحمد بن يوسف الكاتب في حاجة فلم يؤذن له ،

فقال :

لئن عدتُ بعد اليَومِ إنِّي لظالمٌ      سأصرف وجهي حيث تُبغى المكارمُ  
متى يُنجح الفادي إليك بحاجةٍ      ونصفك محسوبٌ ونصفك نائم

ولآخر :

رأيتُك تطردنا بناحجا      ب عنك برفقك طرداً جميلاً  
ولكن في طمع الطامعي      من والحر من ذا يفك العقولا  
فهل لك في الإذن لي بالرحي      بل فقد آت النفس إلا الرحيلاً

وحدثني أبو علي البصير قال : حدثني محمد بن غسان بن عباد قال : كنتُ  
بالرقة ، وكان بها موسوسٌ يقول الشعر المحال والمنكر ، فغذيتُه يوماً معي احتساباً  
للشواب ، فأتاني من غدٍ وعندني جماعةٌ من العمال ، فحجبه الغلام ، فلما كان  
من غدٍ وقف على الباب وصاح :

عليك إذن فإننا قد تغدينا      لسنا نمود لاكلٍ قد تغدينا

يا أكلة ملفت أبقت حرارتها داء بقلبك ما صمنا وصلينا

قال : وما علمته قال شعراً على استواء غيره ، ولكنني وعظت به فوق

مكروهي على لساني .

وأُنشدت لخمادٍ عجردٍ يعاتب بعض الملوك :

بِ دُونَ اللَّمَامِ تَرَكْتُ اللَّمَامَا	إِذَا كُنْتُ مَكْتَفِيًا بِالسُّكْتَا
كُ بِوَابِكُمْ بِي وَأَوْصِرِ الْغَلَامَا	وَالْأَفَاوِصِرِ هَذَاكَ الْمَلِي
نَ ، إِمَّا قَمُودًا وَإِمَّا قِيَامَا	فَإِنْ كُنْتُ أُدْخِلُكَ فِي الزَّائِرِي
فَلَا لَوْمْ لَسْتُ أَحِبُّ الْمَلَامَا	وَإِنْ لَمْ أَكُنْ مِنْكَ أَهْلًا لِذَاكَ
مَ أَخْزَاهُمْ اللَّهُ رَبِّي أَنَامَا	فَلْيَبِيْ أَدْمُ إِلَيْكَ الْأَنَا
يُمَيِّتُونَ مَجْدًا وَيُحْيُونَ ذَامَا	فَلْيَبِيْ وَجَدْتَهُمْ كُلَّهُمْ

ولابي الأسد الشيباني ، يعاتب أبا دلف في حجابيه :

لَيْتَ شَعْرِي أَضَاقَتِ الْأَرْضُ عَنِّي	أَمْ نَفْسِيْ مِنْ السَّبْلَادِ طَرِيدُ
أَمْ قُدَارُ أَمْ الْحَبَابَةُ أَمْ أَحَدُ	مَرُّ لَاقَتِ بِهِ السَّبْلَاءُ ثَمُودُ
أَمْ أَنَا قَانَعٌ بِأَدْنَى مَعْيَاشٍ	هَمَّتِي الْقَوْتُ وَالْقَلِيلُ الزَّهِيدُ
مِقْوَلِي قَاطِعٌ وَسَيْفِي حَسَامُ	وَيْدِي حُرَّةٌ وَقَلْبِي شَدِيدُ
رُبُّ بَابٍ أَعَزَّ مِنْ بَابِكَ الْيَسُو	مَ عَلَيْهِ عَسَاكِرُ وَجَنُودُ
قَدْ وَجَّهْنَا دَاخِلِينَ غَدُوًّا	وَرَوَّاحًا وَأَنْتَ عَنْهُ مَذُودُ
فَاكْفِفِ الْيَوْمَ مِنْ حَجَابِكَ إِذْ لَبَّ	تَ أَمِيرًا ، وَلَا خَمِيْسًا تَقُودُ
لَنْ يَقِيمَ الْعَزِيْزُ فِي الْبَلَدِ الْهُو	نَ وَلَا يَكْسَدُ الْأَدِيْبُ الْجَلِيدُ
كُلُّ مَنْ فَسَدَ مِنْ هَوَانٍ فَإِنَّ الدَّ	رُحْبَ يَلْقَاهُ وَالْفَضَاءَ الْعَنِيْدُ

ولعلي بن جبلة في بعض الملوك :

حَجَابِكَ ضَيِّقٌ وَنَدَاكَ نَزْرُ	وَإِذْنِكَ قَدْ يُرَادُ عَلَيْهِ أَجْرُ
وَذَلُّ أَنْ يَقُومَ إِلَيْكَ حُرُّ	وَطُلَّابُ الشَّوَابِ لَدَيْكَ نَقْرُ

وأنشدني اليمامي في أبي الصقر إسماعيل بن بلبل ، يعاتبه في حجابيه :

لكل مؤمل جدوى كريم  
وأنت الحر ما خانتك نفس  
وشكري ظاهراً ورجائي جزل  
وحقني أن تكافئني مزيداً  
عل تامله يوماً ثواب  
ولا أصل إذا وقع انتساب  
فقيم جزائي من ذل حجاب  
بشكري إذ به نزل الكتاب

وأنشئت لأبي مالك الأبرج :

علقت عمي بباب السدار منتظراً  
لما رأيت رسولي لا سبيل له  
صانعت فيك بمثلي ما أوئله  
منك الرسول فخلضها من الباب  
إلى لقائك من دفع وحجاب  
فيك لديك وهذا سعي خياب

ولبشار بن برد ، في عبيد الله بن قزعة :

إذا سئل المعروف أغلق بابه  
فلم تلقه إلا وأنت كمين  
كان عبيد الله لم ير ماجداً  
ولم يدرك أن المكرمات تكون  
فقل لأبي يحيى متى تدرك العلاء  
وفي كل معروف عليك يمين

وأنشد لأبي زُرعة - رجل من أهل الشام - في أبي الجهم بن سيف :

ولكن أبو الجهم إن جنته  
وليس بلدي موعدي صادق  
لهيفاً حُجبت عن الحاجب  
وبخل بالموعد الكاذب

وحجب - سعيد بن حميد بباب الحسن بن مخلد ، فكتب إليه :

رب بشر بصير الحر عبداً  
وفتق ذي خلائق معجبات  
وكريم قد قصرت بأيادي  
لا أرى للكريم أن يشتري السذ  
إن تركت العبيد والحكم فينا  
للك غالتة جفوة في الحجاب  
أفسدتها خلائق البواب  
به عبيد نسيء للآداب  
بها جميعاً بوقفة بالباب  
صار فصل الرعوس للإذئاب

فأحلُّوا أشكاهم رُتِبَ الفَضُّ لِر ، وَحَفْطُ الأحرارِ غَفَرِ التُّرابِ

وَأُنشِدْتُ لعبد الله بن العباس :

أنا بالباب واقفٌ منذ أصبحُ تٌ على الشُّرجِ ممسكٌ بعناني  
وبعين البواب كلُّ الذي بي ويراني كأنه لا يراني

وَأُنشِدْتُ لأبي عيينة المُهَلَّبِيِّ - واسمه عبد الله بن محمد - يعاتب رجلاً من

قومه :

أنتُك زائراً لفضاء حَقِّ فحال السُّسْرُ دونك والحجابِ  
ولستُ بساقطٍ في قدر قومٍ وإن كرهوا كما يقع الذبابُ  
ورائي مذهبٌ عن كلِّ ناءٍ إجانِبِه إذا عزُّ الذهبُ

وَأُنشِدُنِي ابنُ أبي فتنن :

ما ضاقت الأرضُ على راغِبٍ يَطْلُبُ الرزقَ ولا ذاهِبٍ بل ضاقت الأرضُ على صابرٍ  
مَنْ شَتَمَ الحاجِبَ في ذنْبِه فأما يَقْصِدُ للضاحِبِ فارغِبْ إلى الله وإحسانه  
لا تطلبِ الرزقَ من الطالبِ

قال المدائني : أن عُوَيْفُ القوافي بابَ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ،

فَحَجِبَ آيَماً ، ثم استأذَنَ له حُبَيْشُ صاحبُ إذنِ عمر ، فلما قام بين يديه قال :

أجني أبا حفص ، لقيتُ مُحَمَّدًا على حَوْضِه مستبشراً بِدُعَاكا

فقال عمر : أقول لبيك وسعديك ! فقال :

وأنت امرؤٌ كلتا يديك طليقةٌ شمالك خيرٌ من يمينِ سواكا  
علامَ حجابي ، زادك اللهُ رِفْعَةً وفضلاً ، وماذا للحجابِ دعاكا

فقال : ليس ذاك إلا بخير ! وأمر له بصيلة .

المدائني قال : أقام عبد العزيز بن زُرارة الكلابي ، بباب معاوية حيناً لا

يُؤذَن له ، ثم دخل فقال :  
دخلتُ على معاويةَ بنِ حربٍ  
رأيتُ الحظَّ يسترُ عيبَ قومٍ

قيل لحنى المدينة : ما الجرحُ الذي لا يندمل ؟ قالت : حاجةُ الكريمِ إلى  
اللئيمِ ثم لا يُجدي عليه . قيل لها : فما الذلُّ ؟ قالت : وقوفُ الشريفِ ببابِ  
الدينِ ثم لا يُؤذَن له . قيل لها : فما الشرفُ ؟ قالت : اعتقادُ المنِّ في أعناقِ  
الرجالِ ، تبقي للأعقابِ في الأعقابِ .

وقيل لعروة بن عدي بن حاتم وهو صبي ، في وليمة كانت لهم : وقف  
بالباب فاحجب من لا تعرف واثذن لمن تعرف . فقال : لا يكون - والله - أولُ  
شيءٍ استكفيتَه منعُ الناسِ من الطعامِ .

وأنشدتُ لأبي عيينة المهلبِ :

بُلقنةٌ محجبةٌ الفقى عن دُناةٍ  
هو خيرٌ من الرُكوبِ إلى بنا  
وعتابٌ يخافُ أو لا يخافُ  
بِحجابِ عنوانه الانتصاراتُ  
بش للدولة التي تُرفعُ السُف  
لَهُ فيها وتسقطُ الأشرافُ

وأنشدت لموسى بن جابر الحنفي :

لا أشتهي يا قوم إلا مكرها  
ومن الرُجالِ أمةٌ مذروبةٌ  
بسببِ الأميرِ ولا دفاعُ المحتاجِ  
متهم أسودٌ لا تُسرامُ ، ومنهمُ  
ومزنونٌ شهودهم كالخنايبِ  
مما قمشيتُ وضمَّ حبلُ الخياطِ

وأنشدني بعضُ أصحابنا :

إني امرؤ لا أرى بالبابِ أقرعهُ  
ولا اليومِ امرأ في ودِّ ذي شرفٍ

وأنشدني ابنُ أبي قنن :

الموت أهونُ من طول الوقوف على      باب ، علي لبوابٍ عليه يدُ  
مالي أقيم على ذلّ الحجابِ كأنُ      قد مآني وطنٌ أو ضائق بي بلدُ

وأنشدني الزبير بن بكار لجعفر بن الزبير :

إنّ وقوفي من وراء الباب      يعدلُ عندي قلعَ بعض أنيابِ  
وأنشد لمحمود الوراق :

شاد الملوكُ حصونهم وتمحصنوا      من كل طالب حاجةٍ أو راغبِ  
عالموا بأبواب الحديد لعزها      وتنوّقوا في قبّح وجه الحاجبِ  
فإذا تَلَطَّفَ للدخول إليهم      راجٍ ، تَلَقَّوه بوعيدٍ كاذبِ  
فاضرعْ إلى ملكِ الملوك ولا تكنْ      بايدي الضراعة طالباً من طالبِ

وأنشدني أبو موسى المكفوف :

لن تراني لك العيونُ بباب      ليس مثلي يُطيق ذلّ الحجابِ  
يا أميراً على جريب من الأرب      من له تسعةٌ من الحجابِ  
قاعداً في الحرب تُحجَّبُ عينا      ما منكم معنا إمارةً في خرابِ

وأنشدني أبو قنبر الكوفي :

ولستُ بمتخذٍ صاحباً      يُقيم على بابه حاجباً  
إذا جثته قيل لي نائمٌ      وإن غبتُ ألفيته عاتباً  
ويُلزم إخوانه حقه      وليس يرى حقهم واجباً  
لستُ بإلاقيه حتى المماتِ      إذا أنا لم ألقه راكباً

وأنشدني أبو بكر محمد بن أحمد ، من أهل رأس العين - لنفسه في بعض بني  
عمران بن محمد الموصلي :

ياأبا الفوارس أنت أنت فقئ الندي      شهدتُ بذاك ولم تنزل قحطانُ  
فلاي شيء دون بابك حاجبُ      من بغضه يتخبَّط الشيطانُ

فإذا رأني من خوفه سَرطَانُ      فإذا رأني مالٌ عني مُعرضاً

قال الأشهب بن رُميلة :

وأَنْ البَيْمِثُ من بني عمِّ سالمٍ      أبلغ أبا داود أني ابنُ عمِّه  
وريشُ الدُّنْسابِ تابعٌ للقوامِ      أتولج بابَ الملكِ من ليس أهله

وقال عاصمُ الزُّمانيُّ، من بني زُمان :

وفي العتَابِ حياةٌ بين أقوامِ      أبلغ أبا مسمعٍ عني مغلغلةٌ  
في الحقِّ أن يُلجِوا (الأوابُ قُدامي)      أدخلت قبلي رجلاً لم يكن لهم  
ببابِ دارك أدلُّها بأقوامِ      فقد جعلتُ إذا ما حاجةٌ عرضتُ

وقال هشامُ بن أبيضٍ ، من بني عبد شمس :

وليس بزيدي حَسبي هواناً      عليُّ ولا تراني مستكيناً  
فإن قدمتُ قبلي رجلاً      أراني فوقهم حسباً وديناً  
السنا عائدين إذا رجعتنا      إلى ما كان قدَّم أولونا  
فارجع في أرومة عبثي      ترى لي المجد والحسب السميناً

وقال دينار بن نعيم الكلبِي :

أبلغ أميرَ المؤمنين ودونه      فراسخُ تطوي الطرف وهو حديدُ  
بأني لدى عبد العزيز مدفعُ      يقدم قبلي راسبٌ وسعيدُ  
وإني لأدنى في القرابة منها      وأشرفُ إن كنتَ الشريفُ تُريدُ

المدائني قال : أتى ابن فضالة بن عبد الله الغنويُّ باب قتيبة بن مسلم ،

فأساء إذنه فقال :

كيف المقامُ أبا حفصٍ بساحتكم      وأنت تكرمُ أصحابي وتجفوني  
أراهم حين أغشى بابَ حجرتكم      تُدعوهم النُّقريُّ دوني ويقصوني  
كم من أميرٍ كفاني الله سخطه      منذُ ذاك أوليته ما كان يوليني

إني أرى أن أرضي بمنقصة عم كريم وخال غير مأفون  
خالي كريم وعمي غير مؤتشب ضخم الحمالة آباء على المون

المدائني قال : كان مسلمة بن عبد الملك تزوج ابنة زفر بن الحارث  
الكلابي، وكان بيابه عاصم بن يزيد الهلالي، والهديل وكوثر ابنا زفر، فكان  
يأذن لها قبل عاصم، فقال :

أمنسّم قد منيتني ووعدتني مواعد صدق إن رجعت مؤمرا  
أيدعي هذيل ثم أدعي وراءه فيا لك مدعي ما اذل وأحقرا  
وكيف ولم يشفع لي الليل كله شفيع وقد ألقى قناعاً ومثزرا  
فلست براض عنك حتى تحبني كحبك صهريك الهذيل وكوثر

وقال الأصم، أحد بني سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة،  
يذكر خالد بن عبد الله القسري، وأبان بن الوليد البجلي، وحجبه خالد :

ومنزلة ليست بدار تشية أطال بها حبي أبان وخالده  
فإن أنا لم أنزل بلاداً هما بها فلا ساغ لي من أعذب الماء بارده  
إذا ما أتيت الباب صادفت عتده بجيلة، أمثال الكلاب، تُراصده  
عليهم ثياب الخرز تبكي كما بكت كراسيه، من لومه، ووسائده  
ويدعون قدامي ويجعل دوننا من الساج مسموراً تنط حدائده

المدائني قال : كان نعيم بن راشد مولى باهلة، حاجباً لقتيبة بن مسلم  
بخراسان، فكان يأذن لسويد بن هوبر النهشلي، ومجفر بن جزى الكلابي، قبل  
الحصين بن المنذر الرقاشي، فقال الحصين :

إني لألقى من نعيم وبابه عناة ويدعو مجفراً وابن هوبرا  
نزيعين من حين شتى كأنما يرى بهما البواب كسرى وقيصرا

وقال عبيد الله بن الحر الفاتك، لعبد الله بن الزبير، وشكا إليه مصعباً  
وحجابه :

أبلغ أمير المؤمنين نصيحتي      فليست على رأي قبيح أواريه  
 أفي الحق أن أجفَى ويجعل مصعب      وزيريه من قد كنت فيه أحاربه  
 وما لامرئ إلا الذي الله سائق      إليه وما قد خط في الزبير كاتبه  
 إذا ما أتيت البلب يدخل مسلم      ويعني أن أدخل الباب حاجبه  
 لقد رابني من مصعب أن مصعباً      لدى كل ذي غش لنا هو صاحبه

وقال ابن نوفل لخالد بن عبد الله القسري ، وحجبه :

فلو كنت غوثياً لأدريت مجلي      إليك ، أخا قسر . ولكني فعل  
 رأيتك تُدني ناشئاً ذا عجيزة      بمحجر عينيه وحاجبه كحل  
 فوالله ما أدري إذا ما خلوتما      وأزحيت الأمتار أيكما الفحل

وقال عمرو بن الوليد ، في عقية بن أبي معيط :

أفي الحق أن تُدني إذا ما فرغتم      ونقصي إذا ما تأمنون ونحجب  
 ويجعل فوق من يسود لو أنكم      شهاب بكفي قاس يتلهب  
 فها أنتم داويتم الكلم ظاهراً      فمن لكوم في الصدور تحوب  
 فقلت وقد أغضبتوني بفعلكم      وكنت امرأ ذا مرة حين أغضب  
 أمالي في أعداد قومي راحة      ولا عند قومي إن تعبت متعب

المدائني قال : كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج أن يستعمل يسمع  
 ابن مالك على سجستان ، فولاه إياها ، فاتاه الضحاك بن هشام فلم يئله خيراً  
 وأقصاه ، فقال :

وما كنت أخشى يا ابن كبشة أن أرى      لبابك بواباً وإلا سيك منبراً  
 وما شجر الوادي دعوت ولا الحصى      ولكن دَعَوَات الحُرقتين وجحدرا  
 أخذنا بآفاق السماء فلم ندع      لعينك في آفاقها الحضر منظرأ

قال أيمن بن خريم في بشر بن مروان :

ولو شاء بشرٌ كان من دون بابهِ  
ولكن بشرأ أسهل الباب للتي  
بعيدُ مراد الطرف ما رُدَّ طرفه  
وله أيضاً في عبد العزيز :

لعبيد العزيز على قومه  
فبابك ألين أبوابهم  
وكلبك أراف بالمعتفين  
وكفك حين ترى السائل  
فمنك العطاء ومننا الشناء  
ولاخر أيضاً :

مالي أرى أبوابهم مهجورة  
وكان بابك مجمع الأسواق  
إني رأيتك للمكارم عاشقاً  
والمكرّمات قليلة العُشاق  
وللتيمّي :

يزدحم الناس على بابهِ  
والمنهل العذب كثير الزحام  
ولاشجع بن عمرو السلمي :

على باب ابن منصور  
جماعات وحسبُ الباء  
علامات من البذل  
بِ جوداً كثرة الأهل  
وأنشدت لعمارة بن عقيل ، في خالد بن يزيد :

تأني خلائق خالد وفعاله  
وإذا حضرنا الباب عند غدائه  
الأ تجنّب كل أمرٍ عائب  
أذن الغدّاء برغم أنف الحاجب  
وأنشدت لبعضهم :

أبلغ بين حاجبيه نوره  
إذا تغذّى رفعت سُتوره

ولثابت قَطَنَةٌ ، في يزيد بن المهلب :

أبا خالدٍ زدت الحياةَ محبَّةً      إلى الناس أن كنت الأميرَ المتوجهاً  
وَحُقُّ لهم أن يرغبوا في حياتهم      ويأبئك مفتوحاً لمن يخاف أو رجاً  
تزيد الذي يرجو نذاك تفضلاً      وتؤمن ذا الإجمام إن كان مُحرجاً

المدائني قال : حضر أبو سفيان بن حربٍ بابَ عثمان بن عفان رضي الله  
عنه ، فحجَّب عنه ، فقال له رجلٌ يُغريه به : حجبتك أمير المؤمنين يا أبا  
سفيان ؟ فقال : لا عَلِمْتُ من قومي مَنْ إذا شاء أن يحجبني حجبتني .

وأنشدني الطائي في إسحاق بن إبراهيم الموصلي :

يا أيها المأمول نائله      وجوده لمراععي جوده كئيبُ  
ليس الحجابُ بمقصّرٍ عنك لي أملاً      إن السماء تُرجى حين محتجبُ



وله أيضاً في مالك بن طوق :

قل لابن طوق رحي سعيد، إذا خبعت      حوادث الدهر اعلاها وأسفلها  
أصبحت حاتمها جوداً، وأخفها      حلماً، وكيسها علماً ودغفلها  
مالي أرى الحجرَ الفيحاء مقلَّةً      عني وقد طال ما استفتح مقلها  
كانها جنَّة الفردوس مُعرضةً      وليس لي عملٌ زاكٍ فادخلها

ولأبي عبد الرحمن العَطوي في ابن المدبِّر :

إذا أنت لم ترسل وجئت فلم أصل      ملأت بعلمٍ منك سمعٍ لبيبٍ  
قصدتُك مشتاقاً فلم أر حاجباً      ولا ناظراً إلا بعين غضوبٍ  
كأنني غريمٌ مفتضٍ أو كئيبٌ      طُلوع رقيبٍ أو نهوضٍ حبيبٍ  
عليّ له الإخلاصُ ما ردغ الهوى      أصالة رأيٍ أو وقارٍ مشيبٍ

وأنشدني الخثعمي :

كيفما شئت فاحتجب يا أبا الليث      سِ ومن شئت فأنجذب بوابي

أنت لو كنت دون أعراضٍ قحطاً      نَ وأسبَلتَ دونها الأحسابا  
لرأيتُكَ في مرآيا أيادي      كَ يقيناً ولو أطلتَ الحجابا

وأنشدني البلاذري في عبيد الله بن يحيى بن خاقان :

قالوا اصطبارك للحجابِ وذُلُّه      صارَ عليك يدَ الزُمانِ وعابُ  
فأجبتهم ولكلِّ قولٍ صادقٍ      أو كاذبٍ عندَ الكريمِ جوابُ  
إني لأغترفُ الحجابَ لماجد      ليستَ له مِنَّنُ عليَّ رِغابُ  
قد يرفعُ المرءُ اللثيمُ حجابَه      ضِعَّةً ، ودونَ العُرفِ منه حجابُ  
والحرُّ مبتذلُ النُوالِ وإن بدا      من دونه بيترُ وأغلقَ بابُ

\*\*\*

تم كتاب الحجاب ، والله الحمد والمنة ، وبيده الحول والقوة ، والله سبحانه الموفق للصواب برحمته .

يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب «مفاخرة الفلماني والجزائري» من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ أيضاً ، والله المستعان وعليه التكلان ، إنه سميع مجيب الدعاء .

والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلامه ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

## هامش كتاب الحجاب

(١) معنى « الحكيم من أحكامه التجارب » ، من الخير مقارنته بما ورد عند الفلاسفة ، امثال ارسطو والكندي والفارابي وابن رشد . الحكيم عند ارسطو هو من يعرف كل شيء على قدر الامكان ، والحكمة علم يبحث في بعض العلل وبعض المبادئ . والحكيم بنظر الكندي هو الذي يعلم الاشياء بحقائقها . والحكيم برأي الفارابي هو الفيلسوف ويعني من يجب الحكمة . اما ابن رشد فيعرف الحكيم بانه الناظر في الموجودات واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع .  
- ود تصفية العقل من القذى « تعني نقي الاوهام عنه .  
- العبد يقرع بالعصا والحز تكفيه الملامة .

هذا البيت نسبة الجاحظ في البيان والتبيين ( ج ٣ ص ٣٦ ) الى الشاعر يزيد بن مفرغ .

وان قراب البطن يكفيك ملؤه وكفيك سؤات الامور اجتنابها

وهذا البيت الذي اورد الجاحظ صدره في كتاب الحيوان ( ج ١ ص ٢٨٣ ) ، نسب الى الشاعر هلال بن خثعم ! وهلال بن خثعم كما في عيون الاخبار .

(٢) « أقسام كتاب الله في القريب والبعيد » يعني طبق الاحكام الواردة في القرآن على الناس جميعاً دون التفات الى القرابة .

- « وشاور القرآن فانه إمامك » يعني طبق احكام القرآن فهو مرجعك وهاديك الى طريق الصواب ، ومنهاجك . ( الامام : المنهاج ) .

- نلاحظ من اقوال الرسول وعمر بن الخطاب التركيز على ثلاثة أمور تشكل أسس السياسة هي : العدل ، وعدم الاحتجاب عن الرعية ، والمساواة بين الناس .

(٣) « انك عمي التي انظر بها وجته التي استنيم اليها وقد وليت بك باي . . . » . يعني أن الحاجب بمثابة عين الحاكم التي يرى فيها الأمور ، وهو يشبه الدرع التي تقي الحاكم . وتولييه الباب تعني توليه الحجابة .  
يعني بد الخي الرثاءة « الفقير البالي الثياب .

- ابن المدبر هو ابراهيم بن محمد بن عبيد الله . كان شاعراً وكتاباً كبيراً ووزر للمعتمد على الله والمعتضد وتوفي سنة ٢٧٩ هـ . ويريد الشاعر ان يقول في الابيات الثلاثة التي يهجو فيها ابن المدبر ان سبب احتجابه هو الخوف من انكشاف عيوبه او عيه او بخله .

(٤) لاحظ تمييز العقل والفهم .

(٥) الموصلي هو اسحق بن ابراهيم الموصلي راوية الشعر والახباري المشهور توفي سنة ٢٣٥ هـ .

- سعيد بن سلم بن قتيبة الباهلي عالم بالحديث واللغة ، اخذ عنه ابن الاعرابي ، عاش في العصر العباسي الاول .

- ابو دهمان شاعر بصري عاش بين دولتي بني امية وبني العباس واشتهر بظرفه .  
وغلا عليك طلابه والنذر يترك من غلاته

نسب هذا البيت الى بشار بن برد الشاعر العباسي الذي اشتهر بهجائه ومدحيه وقتل متهاً بالزندقة .

- ابو عبد الرحمن المعطوي نسبة الى عطية ، شاعر ومتكلم معتزلي عاصر الجاحظ واتصل بابن ابي دؤاد . وقال مثل الحسين النجار بخلق الافعال .

- حبيب بن اوس الطائي هو الشاعر العباسي الكبير ابو تمام الذي اكثر من مدح المعتصم وبائيته في فتح عمورية آية في هذا الفن . وقد عرف الجاحظ وروى له .

- مرداس بن حازم الاسدي شاعر اسلامي كوفي اشتهر بخبثه وفحشه في الهجاء .

- ابو الاسد الشيباني هو الشاعر نباتة بن عبد الله الحماني ، عرف بنوادره وملحه وهجائه الخبيث ، وبالطبيعة في الشعر . وقد عاش في عهد دولة بني العباس .

- ابو مالك الاعرج هو النضر بن ابي النضر التميمي ، مدح الرشيد ونال عطاءه .

- عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع بن يونس بن ابي فروة . اشتهر بشعره المطبوع وغنائه الحسن . ادرك الخليفة المنتصر العباسي .

- موسى بن جابر الحنفي الملقب بازيرق اليمامة والمكفي بابن الفريرة شاعر جاهلي غزير الشعر .

- أمّ بن خرم بن الأكرم من شعراء الدولة الأموية .
- ثابت قطنة فارس وشاعر عاش في الدولة الأموية وكان يغطي عينه المصابة بقطنة فلقب بذلك اللقب .



مركز تحقيقات كالمبيوتر علوم إسلامي







[ ١ - المقدمة ]

حفظك الله وأبقاك وامتنع بك .

قد قرأت كتابك ومدحتك أخلاق الكتاب وأفعالهم ، ووصفك فضائلهم  
وآياتهم ، وفهمته .

ومتى وَقَعَ الوصفُ من القائلِ تَقْصِيْباً ، والنُّعْمُ من الواصفِ تَأْلُفاً ، قُلُّ  
شُهْدَاؤُهُ وَكَثْرُ خُصْمَاؤُهُ ، وَخَفْتُ الْكُؤُونَةَ عَلَى مَجَاهِدِيهِ فِي دَعْوَاهُ ، وَسَهَلْتُ مُنَاسِبَةَ  
الْأَذْنِيَاءِ لَهُ فِي مَعْنَاهُ . لِأَنَّ أَغْلَظَ الْمَخْنِ مَا عُرِضَ عَلَى الْمَشْهُودِ فَأَزَالَهُ ، وَتَصَفَّحَهُ  
الْمَعْقُولُ فَأَحَالَهُ .

مركز تحقيقات كميوتير علوم اسلامی

وأضعفُ العللُ ما التمسَ بعدَ المعلولِ ، ونصبتُ له علماً على الموجودِ بعدَ  
الوجودِ . وإذا تقدَّم المعلولُ علتهُ والمخبرُ عنه خبره ، استغني عن الحاكمِ ، وظهر  
عُورُ الشَّاهدِ .

فقد رأيتك أظنبتَ بإحمادِ هذا الصُّنْفِ من الناسِ ، وحكمتَ بفضيلةِ هذه  
الطَّبِيقَةِ من الخَلْقِ ، فعلمتُ أنَّ فرطَ الإعجابِ عن القائلِ متى وافقَ صناعةَ المباحِ  
رسخَ في التركيبِ هواه ، ورسبتُ في القلوبِ أوتانه ، واشتدُّ على المناظرِ إلهامه ،  
وعلى المخاصمِ بالحقِّ توقيفه ، وكان حكمه في صعوبةِ فسْخِهِ وتعمُّرِ دَفْعِهِ حَكْمَ  
الإجماعِ إذا لاقى حَكْمَ التنزيلِ .

ولستُ أدعُ مع ذلكِ توقيفك على موضعِ زَلْلكِ في الاحتجاجِ ، وتنبهتُ  
على النكتهِ من غَلْطِكِ في الاعتلالِ ، بما لا يمكنُ السامعِ إنكاره ولا ينسأغُ له

إبطاله . وأبين مع ذلك رداة مذاهب الكتاب وأفعالهم ، ولؤم طبائعهم وأخلاقهم بما تعلم أنت والناظر في كتابي هذا: أني لم أقل إلا بعد الحجة ، ولم أحتج إلا مع ظهور العلة ، ثم أستشهد مع ذلك الأضداد تبياناً ، وأجمع عليه الأعداء إنصافاً ، إذ كان في ذلك من التبيان ما يبهرهم ، ومن القول ما يسكتهم .

### [ ٢ - نماذج سيئة من الكتاب ]

ثم أقول : ما ظنك بقوم منهم أول مرتد كان في الإسلام ، كتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فخالف في كتابه إملأه ، فأنزل الله فيه آيات من القرآن نهي فيه عن اتخاذ كاتباً ، فهرب حتى مات بجزيرة العرب كافراً ، وهو عبد الله بن أبي سرح .

ثم استكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده معاوية بن أبي سفيان ، فكان أول من غدر في الإسلام بإمامه ، وحاول نقض عرى الإيمان بأثامه .

وكتب عثمان بن عفان لأبي بكر رضوان الله عليهما - مع طهارة أخلاقه وفضائل أيامه - فلم يمت حتى أذاه عرق الكتابة إلى ذم من ذمه من أوليائه .

ثم كتب لعمر بن الخطاب رضي الله عنه زياد بن أبيه ، فانعكس شر ناشيء في الإسلام ، نُقضت بدعوته السنة ، وظهرت في أيام ولايته بالعراق الجبرية .

ثم كتب لعثمان بن عفان رضي الله عنه مروان بن الحكم ، فخسأه في خاتمته ، وأشعل الرعية حرباً عليه في ملكه .

ثم أفضى الأمر إلى علي بن أبي طالب رضوان الله عنه ، فتبين من البصيرة في الكتاب ما لم ير التنويه بذكر كاتب حتى مات .

### [ ٣ - الرسول لم يعرف الكتابة ]

ولو كانت الكتابة شريفةً والحفظ فضيلةً كان أحق الخلق بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أولى الناس ببلوغ الغاية فيها ساداتهم وذوو القدر

والشرف فيهم . ولكن الله منع نبيه صلى الله عليه وسلم ذلك ، وجعل الخط فيه ذبيحة ، وصد العلم به عن النبوة . ثم صير الملك في ملكه ، والشريف في قومه يتبجح برداء الخط ، وينبل بشنج الكتاب . وإن بعضهم كان يقصد لتقيح خطه وإن كان حلوا ، ويرتفع عن الكتاب بيده - وإن كان ماهراً - وكان ذلك عليه سهلاً - فيكلفه تابعه ، ويحتشم من تقليده الخطير من جلسائه .

وكتب أحمد بن يوسف يوماً بين يدي المأمون خطاً أعجبه فقال : وددت والله أني كتبت مثله وأنى مغرم ألف ألف . فقال له أحمد بن يوسف : لا تأمن عليه يا أمير المؤمنين ، فإنه لو كان خطاً ما حرمه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

#### [ ٤ - الكتاب اتباع وخدم ]

ومع ذلك إن سبخ الكتابة بُني على أنه لا يتقلدها إلا تابع ، ولا يتولاها إلا من هو في معنى الخادم . ولم نر عظيماً قط تولى كفاية نفسه ، أو شارك كاتبه في عمله . وكل كاتب فمحكوم عليه بالوفاء ، ومطلوب منه الصبر على الأواء . وتلك شروط متنوعة عليه ، وبجنته مستكملة لديه .

وليس للكاتب اشتراط شيء من ذلك ، بل يناله الاستيطاء عند أول الرزلة وإن أكذى ، ويُدركه العذل بأول هفوة وإن لم يرض .

يجب للعبد استزادة السيد بالشكوى ، والاستبدال به إذا اشتهى . وليس للكاتب تقاضٍ فائته إذا أبطأ ، ولا التحول عن صاحبه إذا التوى . فأحكامه أحكام الأرقاء ، ومحلّه من الخدمة محل الأغبياء .

ثم هو مع ذلك في الذروة القصوى من الصلْف ، والسنام الأعلى من البذخ ، وفي البحر الطامي من التيه والسرف . يتوهم الواحد منهم إذا عرض جبهته وطول ذيله ، وعقص على خده صدغه ، وتحذف الشابورتين على وجهه ، أنه المتبوع ليس التابع ، والمليك فوق المالك .

[ ٥ - تكبير الكتاب وادعواهم العلم ]

ثم الناشيء فيهم إذا وطىء مقعد الرياسة ، وتورّك مشورة الخلافة ،  
وحُجِزَت السُّلَّةُ دونه ، وصارت الدواةُ أمامه ، وحَفِظَ من الكلام فتيقَه ، ومن  
العلم مُلِّحَه ، وروى لُبْرَجْمَهْرَ أمثاله ، ولأردشِيرَ عَهْدَه ، ولعبد الحميد  
رسائله ، ولابن المقفَعِ أدبه ، وصيّر كتابَ مَزْدَكِ مَعْدِنَ علمه ، ودفترَ كليلَةَ  
ودمنة كُنْزَ حِكْمَتِه - [ ظنُّ ] أنه الفاروق الأكبر في التدبير ، وابنُ عَبَّاسٍ في  
العلم بالتأويل ، ومُعَاذُ بنِ جَبَلٍ في العلم بالحلال والحرام ، وعليُّ ابنِ أبي  
طالب في الجراءة على القضاء والأحكام ، وأبو الهذيل العلاف في الجزء  
والطُّفْرَةَ ، وإبراهيم بن سيار النظام في المكامات والمجانسات ، وحسينُ  
التُّجَارِ في العبارات والقول بالإثبات ، والأصمعيُّ وأبو عبيدة في معرفة  
اللغات والعلم بالأنساب . فيكون أولُ بذوه الطعن على القرآن في تأليفه ،  
والقضاء عليه بتناقضه . ثم يُظهِرُ ظَرْفَه بتكذيب الأخبار ، وتهجين من نقل  
الأثار . فإن استرجح أحدُ عنده أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم قتلَ  
عند ذكْرهم شِدْقَه ، ولوى عِنْدَ مُحَابِسَتِهِمْ كَشْحَه . وإن ذُكِرَ عنده شُرَيْح  
جُرْحَه ، وإن نُعِتَ له الحَسَنُ استثقلَه ، وإن وُصِفَ له الشعبيُّ استحتمفه ،  
وإن قيل له ابنُ جُبَيْرِ استجهله ، وإن قُدِّمَ عنده النُخَعِيُّ استصغره .

ثم يقطع ذلك من مجلسه سياسةُ أردشِيرِ بابكان ، وتدبير أنوشروان ،  
واستقامة البلاد لآل ساسان .

فإن حذر العيون وتفقدت المسلمون ، رجع بذكر السنن إلى المعقول ،  
ومحكّم القرآن إلى المنسوخ ، ونفى ما لا يُدْرِكُ بالعبان ، وشبّه بالشاهد  
الغائب . لا يرتضي من الكتب إلا المنطق ، ولا يحمد إلا الواقف ، ولا  
يستجيد منها إلا السائر .

هذا هو المشهور من أفعالهم والموصوف من أخلاقهم .

[ ٦ - فنى الكتاب ]

ومن الدليل على ذلك ، أنه لم يُر كاتبٌ قطُّ جعل القرآن سميّره ، ولا علّمه تفسيره ، ولا التفقه في الدين شعاعه ، ولا الحفظ للسنن والآثار عماده ، فإن وُجد الواحدُ منهم ذاكراً شيئاً من ذلك لم يكن لدوران فكيه به طلاقة ، ولا لمجيئه منه حلاوة . وإن آثر الفردُ منهم السعي في طلب الحديث ، والتشاعُل بذكر كتب المتفقيين ، استقله أقرانه ، واستوخمه الأُفّه ، وقضوا عليه بالإدبار في معيشته ، والحِرفة في صناعته ، حين حاول ما ليس من طبّعه ، ورامَ ما ليس من شكله .

قال الزُّهريُّ لرجلٍ : أيعجبك الحديث ؟ قال : نعم . قال : أما إنّه لا يعجب إلاّ الفحولُ من الرجال ، ولا يُغضيه إلاّ إناثهم !

ولئن وافق هذا القولُ من الزُّهريِّ فيهم مذهباً ، إن ذلك لَبَيِّنٌ في شمائلهم ، مفهوم في إشاراتهم .

مركز بحوث ودراسات إسلامية

[ ٧ - المعتزلة يكرهون الكتاب ]

وسئل ثمامة بن أشرسَ يوماً ، وقد خرج من عند عمرو بن مسعدة ، فقيل له : يا أبا معن ، ما رأيتَ من معرفة هذا الرَّجُلِ وبلوتٍ من فهمه ؟ فقال : ما رأيتُ قوماً نفرتُ طبائعهم عن قبول العلوم ، وصغرت هممهم عن احتمال لطائف التمييز - فصار العلمُ سببَ جهلهم ، والبيانُ غلماً ضلالتهم ، والفحصُ والنظرُ قائدَ غيهم ، والحكمةُ مُعِينٌ شُبَّههم - [ أكثر ] من الكُتَّاب .

وذكر أبو بكرٍ الأصمُّ ابنُ المقفّع فقال : ما رأيتُ شيئاً إلاّ وقليله أخفُّ من كثيره إلاّ العلم ، فإنه كلما كثر خفَّ محمله . ولقد رأيتُ عبد الله ابن المقفّع هذا في غزارة علمه وكثرة روايته ، كما قال الله عزّ ذكره : ﴿ كَمَثَلِ الْجِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾ . قد أوهنه علمه ، وأذهله حلمه ، وأعمته حكمته ،

وَكُنَّا فِي مَجْلِسِ بَشْرِ بْنِ الْمُعْتَمِرِ يَوْمًا وَعِنْدَهُ الْمُزْدَارُ ، وَثَمَامَةُ ،  
وَالْعَلَّافُ ، فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَأَصْحَابِ الْكَلَامِ ، فَتَذَاكَرُوا الْعَوَامَّ  
وَاسْتَحْوَاذَ الْفِتْنَةَ عَلَيْهِمْ فِي التَّقْلِيدِ ، وَاسْتَفْلَقَ قُلُوبَهُمْ بِكَثِيرٍ مِمَّا لَيْسَ فِي  
طَبْعِهِمْ ، فَتَعَظَّمَهُمْ وَتَقَضَى لِكُلِّ مَنْ نُبِلَ مِنْهُمْ بِالصُّوَابِ فِي قَوْلِهِ وَإِنْ لَمْ  
يَعْلَمُوا . لَا يَدِينُونَ بِالْحَقِيقَةِ ، وَلَا يَحْمَدُونَ إِلَّا ظَاهِرَ الْحِلْيَةِ .

وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَى نَذَالَةِ طَبْعِهِمْ ، وَالْعِلْمِ بِفَسَالَةِ رَأْيِهِمْ ، تَقْدِيمُهُمْ  
بِالْفَضْلِ لِمَنْ لَا يَفْهَمُونَهُ ، وَقَضَاؤُهُمْ بِالْعِلْمِ لِمَنْ لَا يَعْرِفُونَهُ ، حَتَّى إِنْهُمْ  
يَضْرِبُونَ بِالْكَاتِبِ فِيمَا بَيْنَهُمُ الْمَثَلُ ، وَيَحْكُمُونَ لَهُ بِالْبَصِيرَةِ فِي الْأَدَبِ ،  
عَلَى غَيْرِ مُعَاشِرَةٍ جَرَتْ بَيْنَهُمْ ، وَلَا مَحَبَّةٍ ظَهَرَتْ لَهُ مِنْهُمْ . لَيْسَ إِلَّا أَنْ  
هَمَّهُمْ صَغُرَتْ عَنْهُمْ ، وَامْتَلَأَتْ قُلُوبُهُمْ مِنْهُمْ ، فَصَارَ الْمُحْفَظُونَ مِنْ  
أَقْوَالِهِمْ ، وَالَّذِي يَدِينُونَ بِهِ مِنْ مَذَاهِبِهِمْ : كَيْفَ لَا يَأْمَنُ فُلَانٌ الْخَطَأَ مَعَ  
جَلَالَتِهِ ، وَكَيْفَ يَسَاغُ لِأَحَدٍ تَجْهِيلُهُ مَعَ نُبْلِهِ . فَإِنْ وَقَفُوا عَلَى تَمْيِيزِهِ هَابُوهُ ،  
وَإِنْ دُعُوا إِلَى تَفْهِيمِهِ أَكْبَرُوهُ ، وَقَالُوا : لَمْ يُنْصَبْ هَذَا بِمَوْضِعِهِ إِلَّا لِمَخَاصِبِهِ  
فِيهِ وَإِنْ جَهَلْنَاهَا ، وَفَضِيلَتِهِ مَوْسُومَةٌ وَإِنْ قَصُرَ عِلْمُنَا عَنْهُمْ . وَلَعَلَّهُ عُمَرُ بْنُ  
فَرَجٍ فِي السُّفْهِ وَالْمِبَاهِتَةِ ، وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ الْعَبَّاسِ فِي الشُّرْهِ وَالرُّقَاعَةِ ،  
وَنَجَّاحُ بْنُ سَلْمَةَ فِي (السُّطَيْشِ) وَالسُّخَافَةِ ، وَأَحْمَدُ بْنُ الْخَصِيبِ فِي اللَّؤْمِ  
وَالجَهَّالَةِ ، وَأَلُّ وَهْبٍ فِي النَّهْمِ وَالنُّذَالَةِ ، وَيَحْيَى بْنُ خَاقَانَ فِي السُّدْلِ  
وَالفَاقَةِ ، وَمُوسَى بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي السُّوْخَمِ وَالْبِلَادَةِ ، وَابْنُ الْمَدْبُرِ فِي الْخَبِّ  
وَالْمَكَابِرَةِ ، وَالْفَضْلُ بْنُ مَرْوَانَ فِي الْفَدَامَةِ مَقْصُورَةٌ .

وَفِي عَمْرِ بْنِ فَرَجٍ يَقُولُ الشَّاعِرُ :

لَا تَطْلُبِ الْخَيْرَ مِنْ بَنِي فَرَجٍ	لَا بَارِكِ السُّلَّةُ فِي بَنِي فَرَجٍ
وَالعَمْرُ إِذَا مَا لَقَيْتَهُ عُمَرَاً	لَعْمَاً يَقِينَاً بِأَعْظَمِ الْهَجْرِ
فَلَعْنَةٌ إِنْ لَعْنَتْهَا عُمَرَاً	تَعْدِلُ مَقْبُولَةٌ مِنَ الْجَجَجِ
لَيْسَ عَلَى الْمُفْتَرِي عَلَى عُمَرَ	مَنْ ضَرَبَ حَدًّا يُخْشَى وَلَا حَرَجِ

وُخِبْتُ أَنْ أبا العتاهية أتى يحيى بن خاقان يوماً ليسلم عليه ، فلم يأذن له حاجبه فانصرف ، وأتاه يوماً آخر فصادفه حين نزل فسلم عليه ، ودخل يحيى إلى منزله ولم يأذن له ، فكتب إليه أبو العتاهية من ساعته رُقعةً فيها :

أراك تُراع حين تُرى خيالي      فما هذا يرُوعك من خيالي  
لعمرك خائف مني سؤالاً      الأ فلَكَ الأمانُ من السؤالِ  
كفيتك إن حالك لم تجل بي      لأطلبَ مثلها بدلاً بحالي  
وإن العُسرَ مثل اليُسرِ عندي      بأيهما مُنيتُ فما أبالي

فلما قرأ يحيى بن خاقان رُقعةً ووثق بأمانه من السؤال أذن له ، فخرج الحاجب فوجده قد انصرف ، ولم يعُد إليه ، ولا التقيا بعد ذلك .

وَجَلَسَ الجاحظ يوماً في بعض الدواوين ، فتأمل الكتاب فقال : خَلَقَ حُلوةً ، وشمائل معشوقة ، وتطرف أهل الفهم ، ووقار أهل العلم ، فإن ألقيت عليهم الإخلاص وجدتهم كالزبد يذهب جفاءً ، وكنية الربيع يحرقها الهيف من الرياح ؛ لا يستندون من العلم إلى وثيقة ، ولا يدينون بحقيقة ؛ أخفر الخلق لأماناتهم ؛ وأشراهم بالثمن الخسيس لعهودهم ؛ الويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون .

#### [ ٨ - قلة تعاطف الكتاب ]

ثم وَصَفَ أصحاب الصناعات ، وذكر تعاطف أهلها على نظرائهم ، وتعصب رجالها على غيرهم فقال :

لا أعلم أهل صناعة إلا وهم يَجْرُونَ في ذلك إلى غاية محمودة ، ويأتون منه آيةً مذكورة ، إلا الكُتَّاب ، فإن أحدهم يتحاذق عند نظرائه بالاستقصاء على مثله ، ويسترجع رأيه إذا بلغ في نكاية رجلٍ من أهل صناعته .

ثم ضرب لهم في ذلك مثلاً ، ثم قال : هم كالهزيمة من الكلاب في  
مرايضها ، يمرُّ بها أصناف الناس فلا تحركُ ، وإن مرَّ بها كلبٌ مثلها نهضتْ  
إليه بأجمعها حتى تقتله .

وحدّثني عمّار بن سيف ، أنه حضر مجلس أبي عباد ثابت بن يحيى  
يوماً في منزله ، وعنده جماعة من الكتاب فذكر ما هم عليه من ملائم الأخلاق  
ومدانس الأفعال ، قال : ووصف تقاطعهم عند الاحتياج ، [وعدم ]  
تعاطفهم عند الاختلال ، وزهدهم في المواصلة فقال :

معاشر الكتاب ، ما أعلم أهل صناعة أملاً لقلوب العامة منكم ، ولا  
النعم على قومٍ أظهر منها عليكم . ثم إنكم في غاية التقاطع عند  
الاحتياج ، وفي ذروة الزهد في التعاطف عند الاختلال . وإنه ليبلغني أن  
رجلاً من القصابين يكون في سوقه ، فيتلف ما في يديه ، فيخلى له  
القصابون سوقهم يوماً ، ويجعلون له أرباحهم ، فيكون يربحها منفرداً ،  
وبالبيع مُفرداً ، فيسدون بذلك خلتَه ، ويجبرون منه كسرَه . وإنكم لتناكرون  
عند الاجتماع والتعارف ، تناكرون الضباب والملاحف ، ثم مع استحواذكم  
على صناعتكم ، وقلة ملابسة أهل الصناعات لها معكم ، لم أر صناعة من  
الصناعات إلا وقد يجمع أهلها غيرها إليها فيعانونها جميعاً ، ويتزلون لضرب  
من التجارات معاً ، إلا صناعتكم هذه ؛ فإن المتعاطي لها منكم ؛  
والمتمسّي بها من نظرائكم ، لا يليق به ملابسة سواها ، ولا يساغ له  
التساغل غيرها . ثم كأنكم أولاد علاتٍ ، وضرائر أمهات ، في عداوة  
بعضكم بعضاً ، وحنقٍ بعضكم على بعض . أف لكم ولاخلاقكم !

إن للكتاب ضائع لثيمة ، ولولا ذلك لم يكن سائر أهل التجارات  
والمكاسب بنظرائهم بررةً ، ومن ورائهم لهم حفظةً ، وأنتم لاشكالكم  
مذبلون ، ولاهل صناعتكم قائلون . فبسخ الله الذي يقول قضيينا في الأمور  
بالأغلب

وعرفنا علل الناس في مكاسبهم وتعاملهم ، فمن كانت علته اكرم كان  
كرم فعاله اعم .

ولست اعلم جلة في مكتسب انبل عند الخاصة من مكسبكم .

### [ ٩ - شؤون الكتاب ]

ثم وصف من سلف من هذه الطبقة يوماً فقال : كتب سالم لهشام بن  
عبد الملك ، وكان اشد الناس غلظاً ، واضعفهم رأياً ، وكان هشام يحضره  
فيسمع من ضعفه ويستميحه الرأي ، يهزأ به .

ثم كتب لهم مسعدة وكان مؤدباً ، وكانت ضعفة المؤدبين فيه .

ثم كتب لهم عبد الحميد وكان معلماً ، وبتحامله على نصر بن سيار  
انتقضت خراسان ، وزال ملك بني مروان .

ثم كتب لبني العباس عبد الله بن المقفع ، فأغرى بهم عبد الله بن  
علي ، ففطن له وقتل وهدم البيت على صاحبه .

ثم كتب لهم يونس بن أبي فروة ، وكان زنديقاً ، فطلب فساختمى  
بالكوفة والنيل حتى هلك .

واستكتب الرشيد أزدانقادر على ديوان الخراج ، وكان ثويلاً .

ثم لم ينوهوا بذكر كاتب حتى ولي المأمون ، فقديم معه ابن أبي  
العباس الطوسي ، فيه انتشرت السعاية بالعراق .

واستكتب أبا عباد ، وكان بالرّي مؤدباً ، وكان سخيلاً حديداً ، ولم  
يزل بمكانه في ديوانه فيما لابن أبي خالد الاحول والاسم له .

ثم كتب له رجاء بن أبي الضحاك ، وكان أظلمهم وأغشمهم ،  
واستخلف حفصويه على ديوان الخراج ، وكان ركيكاً لسعائه .

ثم كتب لهم ابن يزداد ، وكان أشقاهم ، حتى هلك .  
وكتب لهم عمرو بن مسعدة ، وكان رسائلياً فقط .

واسترجح المأمون وهو بخراسان قبل مقدمه من كتاب العراق على غير  
بَلَوَى إبراهيم بن إسماعيل بن داود ، وأحمد بن يوسف ، فلما قديم امتحنهما  
فتعننا ، فاستنهضهما في الأعمال ففشلا ، فلم يعملوا على شيء حتى  
هلكا .

وكان إبراهيم شعوبياً ، وكان يتهم بالثنوية . فإن كان ذلك صحيحاً  
فقد كانت صيبته بها على جهة التقليد فيها ، لا على جهة التفيش  
والاحتجاج فيها . وهذه علة المرتد من سائر الكتاب .

وقد قال أهل الفطن : إن محض العمى التقليد في الزندقة ؛ لأنها إذا  
رسخت في قلب امرئ تقليداً أطالت جراته ، واستغلق على أهل الجدل  
إفهامه .

وكان أحمد بن يوسف مافونياً ، وهو أول من قُرف بالآفة المخالفة لطبع  
الكتاب .

واستقضى على ديوان الخراج والجنيد إبراهيم الحاسب ، والحسن بن  
أبي المشرف . فلقين إبراهيم من سائر الآداب والعلوم علم الحساب فقط ،  
ولم يُفزع إليه في قضية ولا رأي حتى هلك ، فكان الذي وضعه وادناه  
شره ، وهي علة قائمة في كتاب الجنيد خاصة .

واستضعف ولاية الدواوين الحسن بن أبي المشرف عند قول الفضل  
[ابن] مروان له وهو على الوزارة : «يا حسن ، احتجنا إلى رجلٍ جزلٍ في رأيه ،  
متوفر لأمانته ، متصرف في الأمور بتجربته ، مستقدر على الأعمال بعلمه ،  
تصيف لنا مكانه ، وتُشير علينا به ، فنقلده جسيماً من عملنا .» فأجابه سريعاً  
قال : وجدته لك - أصلحك الله - كذلك . قال : من هو؟ قال : أنا . والحُج

عليه في قوله ، فتبسم الفضل وقال : هذا من غيرك فيك أحسن منك  
بلسانك لك ، تعود وننظر إن شاء الله ا

[ ١٠ - حساسة ارزاق الكتاب ]

وحسبك بقوم أنبلهم أحسهم في الرزق مرتبة ، وأعظمهم غناء أقلهم عند  
السُلطان عقلاً . يُرزق صاحب ديوان الرسائل - ولسانه يخاطب الخلق - العشر  
من رزق صاحب الخراج . ويرزق المحرر - ويخطه يكون جمال كتب الخليفة -  
الجزء من رزق صاحب النسخ في ديوان الخراج . لا يحضر كاتب الرسائل  
لنائبية ، ولا يُفزع إليه في حادثة . فإذا أبرم الوزراء التدبير ووقفوا منها على  
التقدير ، طُرحت إليه رقعة بمعاني الأمر لينسق فيه القول ، فإذا قرغ من نظامه  
واستوى له كلامه ، أحضر له محرره فجلس في أقرب المواطن من الخليفة ، وأمنع  
المنازل من المختلفة ، فإذا تقضى ذلك فُهِموا والعوام سواء .

هذا وليست صناعتها بفاشية في الكتاب ، ولا بموجودة في العوام ؛  
فاغزروهم علماً أمهتهم ، وأقربهم من الخليفة أهونهم . فكيف بكاتب الخراج  
الذي علمه ليس بمحظور واشراك الناس فيه ليس بمنوع ، يصلح لموضعه كل  
من عمِل وعَمِل عليه ، أحمد أحواله عند نفسه التعقد على الخصوم ، وأسعد  
أموره التي يربو بها البلوغ الشره ومنع الحقوق . وأحذق ما يكون بصناعته عند  
نفسه حين يأخذ بإبطال السنن ، ويعمل بفلتات الدفع .

ولذلك ما ذكر أن بعض رجال الشعبي قال له : يا أبا عمرو ، الكتاب  
شرار خلق الله ا فقال : لا تفعل .

ولكن الشعبي كان لسلطانه مُدارياً .

ومن كتاب الجند : محمود بن عبد الكريم ، كان حميد بن عبد الحميد عند دخول المأمون مدينة السلام وبعد سكون الهيج وخمود النائرة ، رفع إلى المأمون يذكر أن في الجند دغلاً كثيراً ممن دخل فيهم بسبب تلك الحروب في أيام الأجناد - [ وهم ] قومٌ من غير أهل خراسان ممن تشبه بهم وأدعى إليهم من الأعراب والدُّعَار ، وممن لا يستحقُّ الديوان ، وقومٌ من أهل خراسان صارت لهم الخواصُّ السنيّة ، [ و ] لم يكن لهم من الغناء ما يستحقُّون به مثلها - وذكر أن بيت المال لا يحتمل ذلك ، وسأل المأمون أن يوليّه تصنيفَ الجند . ولم يكن مذهب حميد في ذلك التوفير على المأمون ، ولا الشفقة على بيت مال المسلمين ، ولكنه تعصب على أبناء أهل خراسان ، واضطغن عليهم محاربتهم إياه أيام الحسن بن سهل مع ولده محمد بن أبي خالد وغيرهم ، وما كانوا قد انتحوه به من تلك الوقائع والهزائم ، وما ذهب له من الأموال بذلك السبب .

فولاه المأمون التصنيف ، وأمر للجند برزق شهرين ، فولى حميدُ العطاء والتصنيف محمود بن عبد الكريم الكاتب ، وعرف محمود ما غزاه حميدٌ ، فتحامل على الناس واستعمل فيهم الأحقاد والدمن ، فخفض الأرزاق ، وأسقط الخواص ، وبعث في الكُور وأنحى على أهل الشرف والبيوتات ، حسداً لهم وإشفاءً لغيلل صاحبه منهم ، ففضد لهم بالمكروه والتعنّت ، فامتنت طائفة من الناس من التقدّم إلى العطاء وتركوا أسماءهم ، وطائفة انتدبوا مع طاهر بن الحسين بخراسان ، فسقط بذلك السبب بشرٌ كثير .

ثم إن المأمون أمر للناس بتمام عطاياهم ؛ واكتسب محمود بن عبد الكريم المذمة ، وصار ملعنةً في محال بغداد وفي مجالسها وطرقها .

ومنهم : زيد بن أيوب الكاتب ، عمل في ديوان الجند أربعين سنة ، ثم صار في آخر عمره قواداً ليحيى بن أكثم القاضي . وذلك أن المأمون أمر له بفرض ، فصبر يحيى بن أكثم أمر ذلك الفرض إلى زيد بن أيوب ، وأمره ألا يفرض إلا لأمرد بارع الجمال ، حسن القُدِّ والصورة . فكان أمر ذلك الفرض مشهوراً متعالماً . ففي ذلك يقول الحسن بن علي الجرمازي لزيد بن أيوب :

يا زيد يا كاتب فرض الفرائش      أكل هذا طلب للمعاش  
مالي أرى فرضك حملانهم      يثبث في القرنين قبل الكباش

وعلى ذلك فإنه لم يبلغني أنه كان في ولاية ديوان الجند ولا في كتابهم مثل المعلّى بن أيوب في نبه وارتفاع همته ، وكرم صحبته ، وعفافه ، وجميل مذهبه ، وشدة محاماته عن صحبه وتحرم به . فكان المأمون يعرف له ذلك ومن بعده من الخفاء ، فثبت وطاقته ، ودامت ولايته ، وحمد أثره .

مركز تحقيقات كويتية علوم إسلامية

قد أتينا على بعض ما أردنا فيما له قصدنا ، ولم نستعمل الانتزاعات فيما ذكرنا ، وأعرضنا عن التأويلات فيما وصفنا ، وقصدنا إلى المأثور فحكينا ، وإلى المذكور في الأزمنة فأجرينا ، لئلا يجذ الطاعن فيما وصفنا مقالا ، والمنكر لدم ما ذمنا مساعاً ، وعلمنا أن من عاند مع ذلك فقد دفع عياناً وانكر كائناً مذكوراً . وفي ذلك دليل باهر على اضمحلاله ، وشاهد عدل لأضداده .

ولو حكينا كل ما في هذا الجنس من الأقوال ، وما يدخله من المقاييس والأشكال ، لطال الكتاب ، ولمه الناظر المعجاب ، فاكتفينا بالجزء من الكتاب ، والبعض دون التمام ، وعلمنا أن الناظر فيه إن كان فطناً أقنعه القليل ففضى ، وإن كان بليداً جهولاً لم يزد الإكثار إلا عيباً ،

ومن العلم بما له قَصَدْنَا إِلَّا بَعْدَهُ . وبالله الكفاية والتوفيق .



تمّ كتاب « ذم أخلاق الكتاب » بعون الله ومنه ومشيته وتوفيقه ، والله تعالى الموفق للصواب . والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وأصحابه الطيبين الطاهرين وسلامه ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .



مركز تحقيقات كميپوتر علوم رسدي

## هامش كتاب ذم اخلاق الكتاب

(١) لاحظ غموض الفكرة في هذا المقطع . ويبدو ان الجاحظ يريد ان يقول ان الاسراف في الاستقصاء يعرض صاحبه للنقد من قبل الخصوم لأن الشيء المستقصى في الوصف يندرس سهل المتناول مكشوفاً للنقاد .

- الوجود لا يحتاج الى برهان ، وبهذا يسبق الجاحظ هيغل . واذا وجد الوجود لم نعد بحاجة الى البحث عن العلة ، لأن المعلول يخبر عن العلة .

- اذا اجتمع الاعجاب في الشيء مع المديح - اي مديح الشيء - غدا من المسير ازالة الاعجاب والتحول عنه . ويشبه اجتماع الاعجاب مع المديح اجتماع الاجماع مع محكم التنزيل .

- الاعتلال هو التفتيش عن العلة او السبب ، والاحتجاج هو التفتيش عن الحججة . والحجة تثبت صحة الشيء ، اما العلة فتثبت وجوده . راجع حول مفهوم العلة والحجة عند الجاحظ كتابنا المناهي الفلسفية عند الجاحظ .

(٢) هناك شك في رواية الجاحظ عن عبد الله بن ابي سرح . انظر الاستيعاب لابن عبد

البر ، طبعة حيدرآباد سنة ١٣٨٨ ص ١٥٥٣ . وهو يذهب الى انه لم يمت كافراً .

- ينتم الجاحظ معاوية بن ابي سفيان بالغدر بعلي بن ابي طالب امامه ، كما يرميه بالاثم ، وقد عدد آثامه في رسالة النابتة ضمن مجموعة رسائل الجاحظ الكلامية .

- زياد ابن ابيه عمل كاتباً لعمر بن الخطاب ثم والياً لعلي بن ابي طالب ثم لمعاوية ابن ابي سفيان وقد ادعى معاوية انه أخوه اخذاً بقول والده ابي سفيان ونقض

بإدعائه السنة او خالفها .

والجبرية فرقة كلامية ظهرت في العصر الأموي ذهبت الى ان الانسان ليس حراً في اعماله بل هو مجبر وافعاله من صنع الله . واشهر رؤسائهم الجهم بن صفوان الذي

قتل في آخر خلافة بني أمية .

- (٣) لاحظ تعليل الجاحظ للاعتباطي لجهل النبي الكتابة .  
 (٤) لاحظ خطأ الجاحظ في رأيه أن الكتاب كانوا جميعاً تابعين أو خدماً .  
 (٥) انظر وصف الجاحظ لباس الكاتب : الجبة العريضة الطويلة ، والشعر المعقوص على الصدغ الخ ...

- ثقافة الكاتب تناول حفظ الكلام الفصيح أو الفتيق ، وامثال بزرجمهر الحكيم الفارسي الذي وزر لكسرى ، ورسائل عبد الحميد الكاتب الذي كتب لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، وكتب ابن المقفع الذي كتب لاعمام المنصور وقتل بسبب كتاب العهد الذي خطه على المنصور أماناً لعمه عبد الله بن علي ؛ وقد ترجم كتاب كليله ودعنة عن الفارسية ، وكتب الأدب الكبير والأدب الصغير ، وكتاب مزدك .

- وهو يعني بالفاروق عمر بن الخطاب ويعني بالتدبير السياسة .  
 - ويعني بابن عباس عبد الله بن عباس الفقيه والخطيب وقد ولي لعلي بن أبي طالب واشتهر بالعلم والتأويل : والتأويل هو تفسير آيات القرآن .  
 - أبو الهذيل العلاف ( ٨٤٩ م ) أحد شيوخ المعتزلة الكبار ، قال إن الاجسام تتألف من أجزاء لا تتجزأ أو جواهر فردة أو ذرات ، وعارض النظام لقوله بالطرفة أي قطع المسافة من مكان إلى ثالث دون المرور بالمكان الثاني . وكان أبو الهذيل والنظام معاصرين للجاحظ وأكبر منه سناً . وكان النظام أستاذ الجاحظ قال بان الجسم يمكن تجزئته إلى غير نهاية كما قال بالكمون أي وجود شيء في شيء آخر يظهر متى ذهب المانع ، مثل كمون النار في الخطب . وقال أيضاً : بالمجانسات أي تقسيم الاشياء والحيوانات إلى أجناس يشترك كل جنس بخصائص معينة موجودة في جميع افراد الجنس .

- وحسين النجار صاحب فرقة النجارية بحث في العبادات وقال بالتعطيل كالمعتزلة .

- والاصمعي ، عبد الله بن قريب الباهلي ( ٢١٦ هـ ) كان اماماً في الاخبار والنوادر .

- وابو عبيدة معمر بن مثنى التيمي بالولاء ( ٢١٠ هـ ) كان راوية ولفظياً كبيراً كالاصمعي واخذ عنه الجاحظ الكثير .

- وشريح بن الحارث الكوفي القاضي جعله عمر بن الخطاب قاضياً على الكوفة واثبتته عثمان وعلي في عمله وولاه زياد ابن ابيه القضاء على البصرة وتوفي سنة ٧٢ هـ .

- ويعني بالحسن ( وان نعت له الحسن استقله ) الحسن البصري المتكلم والفقير  
والواعظ المشهور وقد عاش في العصر الأموي .
- ابن جبير هو سعيد بن جبير الاسدي الكوفي مروى بني أسد كان فقيهاً عابداً  
وكتب في الدواوين القضائية ، وقتل لدى خروجه مع ابن الأشعث سنة ٩٥ هـ .
- النخعي هو ابراهيم بن يزيد النخعي . كان فقيهاً وتوفي سنة ٩٦ هـ .
- (٦) عدم اهتمام الكتاب لعلوم التفسير والفقهاء والحديث يثير الدهشة .
- (٧) ثعامة بن اشروس ، احد ائمة المعتزلة توفي سنة ٨٢٨ م . وقد اكثر الجاحظ من ذكره  
في كتبه ويبدو انه كان مقرباً من الخلفاء .
- وعمرو بن مسعدة احد الكتاب في عصر المأمون ، توفي سنة ٢١٧ هـ .
- وابوبكر الاصم معاصر الجاحظ واحد شيوخ المعتزلة .
- بشر بن المعتز معاصر الجاحظ واحد شيوخ المعتزلة توفي سنة ٨٢٥ م .
- وابو موسى المرداد معاصر الجاحظ واحد ائمة المعتزلة توفي سنة ٨٤١ م .
- عمر بن سرح وابراهيم بن العباس ونجاح بن سلمة واحمد بن الخصب وآل  
وهب ويحيى بن خاقان ، وموسى بن عبد الملك ، وابن المدبر والفضل بن مروان  
من اعلام الكتاب في العصر العباسي .
- ابو العتاهية الشاعر العباسي المشهور بزهدياته ورقة شعره عاش في العصر العباسي  
الأول .
- « وجلس الجاحظ يوماً في بعض الدواوين » هذه الجملة دخيلة على الكتاب لأن  
الجاحظ لا يمكن ان يقول عن نفسه ذلك . ويمكنه ان يتحدث بضمير المتكلم  
فيقول جلست يوماً في بعض الدواوين فتأملت الكتاب وقلت . . .
- (٨) اولاد علات : من امهات مختلفات فرائر .
- وضرائر امهات : النساء اللواتي يكن لزوج واحد وفن اولاد .
- (٩) سالم الكاتب عمل في ديوان هشام بن الحكم والوليد بن يزيد .
- ويونس بن ابي فروة احد كتاب العباسيين .
- وابو عباد هو ثابت بن يحيى ، كان مقرباً من المأمون .
- رجاء بن ابي الضحاك هو والد الحسن بن رجاء . ولي على اخراج في عهد  
المعتصم ، وكان يقرض الشعر .
- ابن يزداد هو محمد بن يزداد بن سويد استعمله المأمون .
- (١٠) لتلاحظ ان معظم الكتاب كانوا من اصل فارسي ، وقد اهتم اكثرهم بالشموية  
والزندقة امثال ابن المقفع ، ويونس بن ابي فروة ، وازداد نقاذار وابراهيم بن

اسماعيل بن داود .

(١١) محمود بن الكريم احد الكتاب في عهد المأمون .

- وحميد بن عبد الحميد من كتاب الجند في عهد المأمون .

- يحيى بن اكنم بن صيفي ينتهي بنسبه الى اكنم بن صيفي الحكيم والخطيب

الجاهلي المشهور . اشتهر بفقهه وسعة علمه . ولاء المأمون القضاء وتدير السياسة .

وقد احله المتوكل مكان محمد بن احمد بن ابي دؤاد ، ثم عزله وتسوفي سنة

٢٤٦ هـ .



مركز تحقيقات كبيوتر علوم رسدي

## فهرس الاعلام (١)

- ١-  
 آدم ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٤٨٩ ، ٥٥٦ .  
 اباضية ١١١ .  
 ابراهيم ١١٠ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ .  
 خالد بن ابراهيم ٤٨٣ .  
 عبيد بن الأبرص ٥٣٤ .  
 ابرهة ٤١٢ .  
 الأبله ١١٢ .  
 أنباء ٥٠٠ .  
 هشام بن أبيض ٥٩٣ .  
 زياد ابن ابيه ١١٥ ، ٥٦٩ .  
 أحد : ١٤٥ ، ١٦٦ .  
 ابوبكر محمد بن أحمد ٥٩٢ .  
 الخليل بن أحمد ١١٦ .  
 خلف الأحمر ٥١٣ ، ٥٤٢ .  
 الاحنف ١١٦ .  
 الاحوص ٥٤٨ .
- شبيب بن نجار أخداي ٤٩٣ .  
 الاخطل ٤٣٨ ، ٥٣٦ .  
 برقوق الاخطل ٥٢٨ .  
 مرداس بن أدبة ٣١٧ .  
 حبيب بن الارث ١٢٩ ، ١٣٠ ،  
 ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٥ .  
 ابو ازهر ١٤٣ .  
 اسامة ١٦٨ ، ١٨١ ، ٢٢٩ ، ٢٤٤ ،  
 ٢٤٥ ، ٢٥٠ ، ٢٨١ .  
 ٣١٠ ، ٣٥٢ ، ٤٨٤ .  
 ابن اسحق ١٤٤ ، ٣٧١ ، ٣٧٣ ،  
 ٣٩٣ .  
 اسحق : ٤٧٧ ، ٤٨٩ ، ٥١٢ .  
 ابو سلمة بن عبد الأسد ١٤٢ .  
 اسماعيل ٤٧٧ ، ٤٨٨ ، ٥٠٢ .  
 هاشم بن اشتاحج ٤٨١ .  
 الاشر ٣٤٩ ، ٣٥٦ .

(١) لا يتناول هذا الفهرس رسالة فضل هاشم على عبد شمس .

٣٨٩ . ( كل رقم يدل على آية

قرآنية ) .

امية : ٤١١ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤١٩ .

انس ٢٢٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ .

كسرى او شروان ٥٧١ .

الاهواز ١١٢ ، ١١٥ ، ١٢٠ .

الاوزاعي ٣٨٢ .

حبيب بن اوس الطائي ( ابو تمام )

، ٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٥٨٣ ،

٥٨٥ ، ٥٩٧ .

ذئب اهبان بن اوس ٤٨٩ .

معاوية بن اوس ٥٣٥ .

الاورس ٤٧٩ .

مطيع بن اياس ٤٩٢ .

زيد بن ايوب ٦١٧

المعلل بن ايوب ٦١٧ .

١ - قسامة بن اشرس ٤٩٣ ، ٥٠٣ ،

٥٠٤ ، ٥١٨ ، ٥٧٧ ،

٦٠٩ ، ٦١٠ .

مريج الاشرم ٥٣٨ .

الاشعث : ٣٤٩ ، ٤٨٣ .

ابو موسى الاشعري : ٣٠١ ، ٣٥١ ،

٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٧١ -

٣٧٦ ، ٥١٨ ، ٥٦٧ .

الاصهبه ١١٥ .

الاصمعي ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٦٠٨

ابو بكر الاصم ٦٠٩

ابو مالك الاعرج ٥٨٩ .

الاعشى ٤٢٦ .

اعشى ( سليم ) ٤٢٦ .

الاعمش ٢٢٧

افلح ٥٩٨

يحيى بن اكثم ٦١٧

- ب -

الله : ٧٠ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٨ ، ٨٠ ،

١٠١ ، ١٠٥ ، ١١٣ ،

١١٤ ، ١١٦ ، ١٤٨ ،

١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٦ ،

١٦١ ، ١٧٠ ، ١٧٧ ،

١٧٩ ، ١٨٨ ، ١٩٥ ،

٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ،

٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ ،

٢٣٩ ، ٢٦٤ ، ٢٧٤ ،

٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٣٤٢ ،

ابو برزة ١٩٢

- ت -

	بشار ٤٩٢ ، ٥٧٥ ، ٥٨٩
تاهرت ١١١	البصرة ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ،
التبت ٤٨١	١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ،
تبوك ٢٣٤	١٢٢ ، ٤٨٠ ، ٥٥١ ،
السترك (الانراك) ٤٧٨ ، ٤٧٩ ،	ابو علي البصير ٥٧٥ ، ٥٧٨ ، ٥٨٠ ،
٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ،	٥٨٧ ، ٥٨٢
٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ،	بغداد : ١١٥ ، ١١٧ ، ١١٩ ،
٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥١٨ ،	١٢٠ ، ٤٨٦ ، ٦١٦ ،
التقية ٢٨٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣١٤ ،	ابوبكر : ١٠٦ ، ١٢٩ ، ٣٢٨ ،
٣١٥	١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ،
التمرية : ٣٦٨	١٥١ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ،
تميم : ٣٤٨ ، ٤٧٦ ،	١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٥ ،
النمر بن تولب ٥٤١	١٧٩ ، ٢٥٧ ، ٣٩٢ ،
عمرو بن بكر التيمي ٣٦٧	٢٩٣ ، ٣٢٣ ، ٣٤٤ ،
	٣٧٨ ، ٣٨٥ ، ٤٦٧٤ ،

زيد بن ثابت ١٤١ ، ١٤٢ ، ٢٢٨ ،	٤٦٩ ، ٦٠٦ ،
٣٥٢ ، ٣٤٥	البكرية : ٣٦٨ ، ٣٨٠ ،
ثقيف : ١٠٣	اسماء بنت ابي بكر ١٤٦ ، ١٥٩ ،
	١٨٥

- ج -

موسى بن جابر ٥٩١	عائشة بنت ابي بكر ١٣٤ ، ١٥٩ ،
جبريل ١٦٠ ، ٢٤٢ ،	١٦١ ، ١٨٥ ، ٢٠٣ ،
الجبرية ٣١٣ ، ٣٤٣ ،	عبد الرحمن بن ابي بكر ١٦٥
علي بن جبلة ٥٨٥	محمد بن ابي بكر ٣٥٦
سعيد بن جبير ١٤٥ ، ٥٣٠ ، ٦٠٨ ،	البلاذري ٥٥٩
جلة ٥٣٣	بلال ١٤٥ ، ١٤٦ ، ٢٥٣ ، ٥٣٠ ،
	كعب بن مرة البهزي ٢٤٨

حسان بن ثابت ١٧٣ ، ٢٠٢ ،  
٢١٤ ، ٢٤٠ ، ٣٤٣ ،  
٥٤٧ ، ٣٧٩

عبد الله بن حسن بن الحسن ٤٣٣

الحشوية ٢١٣

عينية بن حصن ٤٦٩

عباد بن الحصين ٤٩٦

عبدالله بن حفص ٣٩٣

محمد بن حفص ٣٩٣

حفصوية ٦١٣

عمران بن حطان ٣٩٤

مروان بن الحكم ٢١٤ ، ٤٢٣٢ ،

٦٠٦

الحجاف بن حكيم ٣٤٨ ، ٥٣٨

سعيد بن حميد ٥٨٩

حميد بن عبد الحميد ٤٩٣ ، ٥٠١ ،

٦١٦

الحارث بن حلزة ٥٤٧

سوداء بن هران ٣٥٦

هزة ١٣٣ ، ٤٢٢

همير ٤٧٦

عمرو بن الحمق ٣٥٦

محمد بن الحنفية ٤٥٠

سهل بن حنيف ٢٣٩ ، ٢٤٠

يوم حنين ١٦٨

حواء ٤٨٩

الحسن بن حي ٣١٧

عبد الله بن جدعان ١٠٤

ابو عبيدة بن الجراح ١٦٦ ، ١٧١ ،

٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤

جرير ٥٣٢ ، ٥٣٦

جليب ٥٣١

الجهل ١٣٣ ، ٢٨٤

ابو جهل ١٤٩ ، ١٩٦ ، ٢٠٥ ، ٤١٨

علي بن الجهم ٥٧٦

محمد بن الجهم ٤٩٢ ، ٥٠٣

الجهمية ٣٨٠

ابن جيفر ٥٣٧

- ح -

عبوة بن عدي بن حاتم ٥٩١

زفر بن الحارث ٣٤٨

زيد بن حارثة ١٢٩

ابراهيم الحاسب ٦١٤

الحبشة ١١١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٨ ، ٥٤٩

يونس بن حبيب ٣٩٣

يزيد بن حجة ٣٤٩ ، ٣٥٠

الحجاج ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٥٦٧ ، ٥٧٢

نبيه بن الحجاج ٤١٦

حجاز ١٠٠ ، ١١٣ ، ٤٧٦

الخدبية ١٧١ ، ١٧٦

حوران ١٠٥

حرورية ٤٨٠

مرداس بن حزام ٥٨٦

نوفل بن خويلد ١٤٤

الحيرة ١٠٥ ، ١٢٢

الحقطنان ٥٣ ، ٥٣٢

- د -

- خ -

ابراهيم بن اسماعيل بن داود ٦١٤

ابو علي الدرهمي ٥٧٨

ابو دجانة ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٦٦

دجلة ١١٢ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٨

دعبل ٥٨٦

الفضل بن دلم ٢٠٥

ابو دهيل ( الجمحي ) ٥٤٦

- ذ -

عبدالله بن خازم ٥٥٧

خاقان ٥١٣ ، ٥١٦ ، ٥١٧

الخثمي ٥٩٧

خراسان ١٠٨ ، ٤٧٩ ، ٥٠٦

خرشبة ١١٥

أيمن بن خريم ٥٩٥

خزاعة ١٠٣

الخزرج ٤٧٥

عمر بن الخطاب : ١٠٤ ، ١٣٠ ، النابغة الذبياني ٣١٧ ، ٤٢٦ ، ٤٩١

١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٦٧ ، ابو فر ١٤٥ ، ٢٢٣ ، ٢٥٦

١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١

١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٨ ، مركزية علوم إسلامية

١٧٩ ، ٢٥٦ ، ٢٦٨

عمر بن ابي ربيعة ٥٤٧

٢٩٣ ، ٣٣٩ ، ٣٤٤

ليبيد بن ربيعة ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣

٣٧٨ ، ٤٦٩ ، ٥٠٢

ربيعة ٣٤٨

٥٠٦ ، ٥١٣ ، ٥٦٦

الفضل بن العباس بن رزين ٥١٧

٦٠٨ ، ٥٦٧

رسول الله : ٦٨ ، ٨١ ، ١٣٦ ،

الخنلق ١٤٥

١٤٤ ، ١٥٣ ، ٦٠٦

الخصوارج : ١١١ ، ١١٥ ، ٣١٧

عبد بن رشيد ٥٣٦

٣٤٠ ، ٣٤٨ ، ٣٥٦

الحصين بن المنذر الرقاشي ٥٩٤

٣٦٨ ، ٣٧١ ، ٣٧٣

عبيدالله بن قيس الرقيات ٤٣٧

٣٧٧ ، ٣٨٠ ، ٤٤٤

ذو الرمة ٥٤٥

٤٨٠ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤

الاشهب بن رميلة ٥٩٣

٤٩٧ ، ٥٠٠

الرافضة (الروافض) ١٣٣ ، ١٣٩ ،	زبيرة ١٤٧
١٤٠ ، ١٥٣ ، ١٨٠ ،	الزهري ١٤٨ ، ٣٧١ ، ٣٧٣ ، ٣٩٣
١٨٢ ، ٢١٥ ، ٢٣١ ،	قيس بن زهير ٣١٧
٢٨٠ ، ٢٨٨ ، ٢٢٤ ،	وهب بن زهر ٤١٧
٢٢٤ ، ٣٤٠ ، ٣٦٨ ، ٣٨٠ ،	عبيد الله بن زياد ١٠٩
١١٠ ، ١١١ ، ١١٥ ، ١٦٨ ،	سعید بن زيد ١٦٧
٣٠١ ، ٤٨١ ، ٥٤٠ ،	زيد ٤٢٢ ، ٤٨٤
	الكمبیت بن زيد ٤٣٨
	الزيدية ٢٥٣ ، ٣١٧ ، ٣٢٤ ، ٤٦٠

- ز -

الزايغ ٤٨١ ، ٥٥٣ ، ٥٥٣

ابن الزبيري ٤١٠

- س -

الزبير ١٠٠ ، ١٣٤ ، ١٤٦ ، ٢٥٠ ،	سابور ١٠٦ ، ١١٢
١٥٧ ، ١٦٣ ، ٢٨٥ ،	ساسان ٥٠٨ ، ٥١٠ ، ٥١٦ ، ٥١٧
٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٣٢٣ ،	ساعدة ٢٥١
٣٧٩ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ،	سالم ٤٦٨ ، ٦١٤
٣٨٥ ، ٣٩٠ ، ٥٠٦ ،	ابو اسحق السبيعي ٢٠٧
زرادشت ٣٩١	عبدالله بن ابي سرح ٣٤٧ ، ٦٠٦
عمرو بن زرارة ٣٥٦	سعد : ١٤٣٦ ، ١٧٠
عبد العزيز بن زرارة ٣٥٦	عامر بن سعد ٢٣٩
ابن ابي زرعة ٥٧٢ ، ٥٨٩ ،	ابو سفيان ١٦٤ ، ١٧٢ ، ٢٥٢ ،
زغاوة ٥٤٩	٤١٨ ، ٤٢١ ، ٤٨٠
يحيى بن زكريا ١٣٢ ، ١٣٤ ،	السفيانية ٣٨٢
عاصم الزماني ٥٩٣	عبدالله بن سلمة ١٨٨
زمزم ١٠٥ ، ٣٨٨ ،	اشجع السلمي ٥٩٦
روح بن زنباع ١١٣	سليمان : ٢٤٧ ، ٢٧٠ ، ٢٥٠ ،
الزنج ٥٣٥ - ٥٥٦	٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨
الزندقة ١١٠	جعفر بن سليمان ١١٧ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧

البرك الصريمي ٣٦٧	بنو سليم ١٠٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥
عامر بن صعصعة ١٠٣	صهيب بن سنان ٢٥٠ ، ٢٨١ ، ٣٥٢
المهلب بن ابي صفرة ٤١٦	هرم بن سنان ٣١٧
الجهم بن صفوان ٥١٦	السند ٥٥٧
امية بن ابي الصلت ١٠٣ ، ١٠٤	ابراهيم بن السندي ٥١٣
دريد بن الصمة ١٠٤	السوس الاقصي ١٠٥
زيد بن صوحان ٣٠٦	القاسم بن سيار ٤٩٣ ، ٣٩٥
الصين ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٠	ابن سيرين ٢٥٠

- ش -

- ض -	سفيح بن رياح شار ٥٣٦ ، ٥٣٧
الشماخ بن ضرار ٥٤٧	عمرو بن شاس ٥٥٥

- ط -

الطائف ١٠٣ ، ٥٣٥	الشام ١٠٠ ، ١١٣ ، ١٢٠ ، ١٧١
ابو طالب ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٣ ، ١٩٦ ، ١٣٢	٣٤٧ ، ٣٧١ ، ٤٨٠ ، ٥٥١
علي بن ابي طالب : ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٩ ، ١٣٠ - ٣٢٨ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٤٤ ، ١٥١ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ٢٣١ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٢٣ ، ٣٤٠ ، ٤٠٠ ، ٥٦٦ ، ٦٠٦ ، ٦٠٨	قحطبة بن شبيب ( الطائي ) ٤٨٣ ، ٥٣٠ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠
	شداد ( الحارثي ) ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣٠
	عترة بن شداد ٥٣٧
	الشمبي ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ٢١٠ ، ٢٥٠ ، ٣٩٣ ، ٤٢٥ ، ٥٧١ ، ٦٠٨
	الشعوية ٥١٢
	شوكر ٣٩٤ ، ٦١٥
	الشيعة : ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٥٧ ، ١٨٠ ، ٢٢٣ ، ٣٥٦ ، ٣٧٣ ، ٣٧٧ ، ٤٧٥

- ص -

احمد بن ابي طاهر ٥٧٤ ، ٥٧٦ ، ٥٨٧	سليمان بن صرد ٣٨٧
عامر بن الطفيل ٤٢٥ ، ٥٤٧	

طلحة ١٣٤ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٥٧ ،	عبد شمس ٤٠٩ - ٤٥٩
١٦٦ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ،	عمر بن عبد العزيز ٤٣٤ ، ٤٣٥ ،
٣٨٢ ، ٣٧٩ ، ٣٢٣	عبد العزى ٤٠٩
طليحة ١٨٤ ، ٢٥٧	محمود بن عبد الكريم ٦١٦
ابن ابي العباس الطوسي ٦١٣	عبد المطلب ١٠٧ ، ١٤٢ ، ٤١١ ،
طية ١١٢	٤٧٨ ، ٤١٢
- ظ -	ابو العتاهية ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٦١١
الحارث بن ظالم ٣٠٧ ، ٣٨٣ ،	ابو حذيفة بن عتبة ١٦٤
٣٩٠ ، ٣٨٨	العتبي ٥٨٥
- ع -	عثمان بن عفان ١٣٠ ، ١٤٦ ،
الحكم بن ابي العاص ٤١٠ ، ٤١٧ ،	١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٧١ ،
عمرو بن العاص ١٣٥ ، ٢٩٤ ،	١٧٥ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ،
٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٥ ،	٢٥٧ ، ٢٦٨ ، ٢٨٤ ،
٣٧٠ ، ٣٧١ .	٢٨٧ ، ٣٠١ ، ٣٢٠ ،
ابو عباد ٦١٣	٣٢٤ ، ٣٤٤ ، ٣٧٨ ،
عبد الله بن عباس ١٤٥ ، ٢٠٥ ،	٣٧٩ ، ٣٨٥ ، ٤٦٩ ،
٣٧٨ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ،	٤٨٠ ، ٦٠٦
٥٤٨ ، ٥٩٠ ، ٦٠٨	العثمانية ١٢٩ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ،
العباسية ٢٥٨ ، ٢٥٩	١٧٥ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ ،
طرفة بن العبد ٤٢٦	٢١٣ ، ٢٢٣ ، ٢٣١ ،
ابو عبدة ١٠٧ ، ١١٧ ، ١٦٦ ،	٢٥٩ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ،
١٦٧ ، ٣٩٣ ، ٦٠٨	٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٣٢٥ ،
ابو عبد الرحمن ( العطوي ) ٥٩٣ ،	٣٤٨ ، ٣٦٩
٥٩٧	حاد عجرد ٥٨٨
الجنيد بن عبد الرحمن ٥١٣ ، ٥١٦ ،	المعجم : ١٠٧ ، ١١١ ، ٢٥٨ ،
عمرو بن عبيد ٣١٧	٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٣ ،
	٢٨٥ ، ٣٩٠ ، ٤٨٨

- عبد الحميد (الكاتب) ٦١٣ ، ٦٠٨ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٨٩ ، ٥٤٩  
عدنان ٥٤٩ ، ٤٨٩ ، ٤٧٧ ، ٤٧٦ ، ٥١٢ ، ٣٩٤ ، ٥١٢ ، ٤٦٧ ، ٥٧٠ ، ٥٧٦  
المهيشم بن عدي : ١١٠٠ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١٢٢ ، ٣٤٧ ، ٣٧١  
العراق ١١٠٠ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١٢٢ ، ٣٤٧ ، ٣٧١  
المغرب : ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٨٢ ، ٤٨٨ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥٣٢ ، ٥٤١ ، ٥٤٨  
رزين العروضي ٥٧٩  
العسكر ١٢٠  
عكاظ ١٠٤  
سعيد بن عقبة ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٤٢١  
عقيل ٤٢١  
عمارة بن عقيل ٤٢١  
الوليد بن عقبة ٣٧٩  
حكيم ( الحبشي ) ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٤٢٥  
علقمة بن علاثة ٤٢٥  
ابو الهذيل العلاف ٥٠٨ ، ٥١٠ ، ٥١  
عملس بن عقيل بن علف ٥١  
محمد بن علي ٤٨٠ ، ٤٨٤ ، ٤٥٠ ، ١٠٩  
الحسين بن علي ٤٥٠ ، ١٠٩  
العلوية ١٣٩ ، ٢٢٤ ، ٢٨٥ ، ٣٦٩  
عمان ١١١  
ابن عمر ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٥٢ ، ٣٨٥  
عبد الله بن عمر ١١٤ ، ٢٤٨  
سهيل بن عمر ١٧١ ، ١٧٦  
مريم بنت عمران ١١٤  
عمري ٢٢٤ ، ٢٨٦ ، ٣٦٩ ، ٤٤٥  
عبد الرحمن بن عوف ٢٦٨ ، ٢٩٤  
عيسى ١٣٢ ، ١٣٤ ، ٤٨٩  
ابن ابو عينة ٥٧٦  
ابوعيينة (المهلي) ٥٩٠  
- غ -  
الغار ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٦١  
الغالية ٣٤٠  
الغداد ٥٣٨  
الغزغر ١١٠  
غسان ١٠٦  
الخطاريف ١٤٣  
خطفان ١٠٤  
خمدان ٥٤٣  
خيلان الدمشقي ٣١٧  
الخيلاية ٣٨٢  
- ف -  
فارس ١١٠ ، ٥٤٩  
فاطمة بنت النبي ٤٦٧  
قطري بن الفجاءة ٤٤٤ ، ٤٤٥  
الفجار ١٠٣ ، ١٦٤ ، ٤١٦ ، ٤٤٥  
٤٤٦  
الفرات ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٨

قنبلة ٥٤٩	فروج ( الحجام ) ٥٣١
عويظ للقوافي ٥٩٠	الفرزدق ٤٢٦ ، ٥٣٦ ، ٥٥٠ ، ٥٨٠
قيس ( قبيلة ٣٤٨ ، ٤٧٦ )	فرعون ١١٣
الاخنف بن قيس ١٩٢	ابو فرعون ٥٣٢
الضحاك بن قيس ٣٩٤	فرغانة ٥٠٦
عامر بن عبد القيس ٣٤٠	يونس بن فروة ٦١٣
قيصر ١١١ ، ٥٣٣	فزان ٥٤٩
- ك -	الفضول ( حلف ) ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٦
سليمان بن كثير ٤٨٣	احمد بن فتن ٥٧٨ ، ٥٩٠
عبد الله بن كثير ٤٣٥	عامر بن فهيرة ١٤٧ ، ١٥٩
كردين ٣٩٣	- ق -
كسرى ٥٣٣	القادسية ٢٧٩ ، ٢٨٠
الحارث بن كعب ١٠٣	القطب ٥٥٣
موسى بن كعب ٤٨٣	هانء بن قبيصة ٥٧٣
الكعبة ١٠٣	فحطان ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٨٩ ، ٥١٢ ، ٥٤٩
الكلبي ٣٩٤	ابو قحافة ١٧٣
دنيار بن نعيم الكلبي ٥٩٣	قداحة حكيم المشرق ٥٤٢
الحارث بن كلدة ٣١٧	قريش ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١١٠ ، ١٣٢ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٨
ذات كهف ١٠٣	ايلاف قريش ٤١٣
الكوفة ١١٥ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ٢٢٥ ، ١٢٢	لاهر بن قريظ ٤٨٣
ابو قنبر الكوفي ٥٩٢	ثابت قطنة ٥٩٧
- ل -	خالد بن عبد الله القسري ٥٧٠
اللات ١٣٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧	ابن قنبر ٣٩٣
لبنان ٥٤٦	

عبد الملك بن مروان ٤١٠ ، ٤٣٥ ،	لحم ١٠٦
٥٧١ ، ٤٥٣	لقمان الحكيم ٥٣٠
آمنة بنت مزاحم ١١٤	لنجويه ٥٤٩
يزيد بن فريد ٥٠٣	ابو لهب ١٩٦
مسعدة ٥١٣	لوط ٢٧٦
عمرو بن مسعدة ٦١٤	-٢-
عبد الله بن مسعود ٢٨٦ ، ٢٩٤	ماجوح ٤٨١
عروة بن مسعود ١٦٧	المأمون ٥٠١ ، ٥٠٤ ، ٦٠٧
مسطح ١٦١ ، ٢٠٣	البراء بن مالك ١٥٥
قتيبة بن مسلم ٥٠٦	كعب بن مالك ٢٠٣
المسيح ٣٩١	الثلثمس ٥٦٥
مسيلمة ١٨٤ ، ٢٥٧ ، ٥٣١	ابو محجن ٢٠٢ ، ٢١٤
محمد بن مسيلمة ١٥٥ ، ١٧١ ،	ابو مخنف ٣٩٤
٣٥٢ ، ٣٥٠ ، ٢٤٩	المدائني ٣٩٤ ، ٥٦٩
الحسين بن ابي الشرف ٦١٤	ابن المدبر ٥٧٠
مصر ١٠٨ ، ١١١ ، ١١٣ ، ١١٤ ،	ابي بن مدليج ٤٠٩
٣٧٠ ، ٣٥٠ ، ١١٥	حمي المدينة ٥٩١
جبير بن مطعم ١٤٣	مذحج ٥١٢
يحيى بن معاذ ٤٩٣	المدينة ١٠٠ ، ١١٢ ، ١١٥ ، ١٤٥ ،
سعد بن معاذ ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ،	٢٦٦ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣
معاوية ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٥٧ ، ٣٤٠ -	المريد ١١٧
٤٠٠ ، ٤١٨ ، ٥٦٦ ،	مرجثة ١٨٠ ، ٢٣١ ، ٣٨٠
٦٠٦ ، ٥٧٧	مرحب ١٦٣
المعتزلة ٣١٧ ، ٣٤٣ ، ٣٦٩ ، ٣٨٠ ،	عباس بن مرداس ٢٦٤ ، ٥٣٧ ،
٦١٠ ، ٥٧٧ ، ٤٥٠	مرو ٥٤٩
المتصم ٤٨٩	الروانية ٣٨٢ ، ٤٨٠
بشر بن المعتمر ٦١٠	

(كل رقم يدل على حديث	المغلول ٥٣٨
شريف)	المقداد ٢٥٤ ، ٥٣١
المتجع بن نيهان ٥٤١	ابن المقفع ٦٠٨ ، ٦٠٩ ، ٦١٣
النجاشي ١١١ ، ٢٠٣ ، ٣٤٢ ،	المقنع ١١٥
٥٤٣ ، ٥٣٥	الموقس ١١١ ، ٥٣٣
حسين النجار ٦٠٨	مكة : ١٠٠ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٩ ،
خفاف بن ندبة ٥٣٧	١٣٢ ، ١٤٥ ، ٤٠٩ ،
النصاري ١١٠ ، ٢٦٨ ، ٣٠٣ ، ٣٩٠	٥٣٣ - ٥٣٨
ابو اسحق النظام ٣٥٢ ، ٣٥٣ ،	مكحول (الفقيه) ٥٣١
٦٠٨ ، ٣٥٤	ابو موسى المكفوف ٥٩٢
عمرو بن نفيل ١٦٧ ، ٢٢٥	عبد الرحمن بن ملجم ٣٦٧
التهدي ١٤٨	الملكانية ١١٩
النهروان ٣٦٠	منف ١١٣
النوبة ٥٤٩	المهدي ٥٧٠
نوح ٢٧٦	مهجع ٥٣٠
ابن نوفل ٥٩٥	يزيد بن المهلب ٣٤٠ ، ٥٧٢
النيل ١١٥ ، ١١٨ ، ١١٩	اسحق الموصلي ٥٧٣ ، ٥٤٥
	ابوعيينة (المهلي) ٥٧٠ ، ٥٩١

- ٨ -

سهل بن هارون ٥٧١	- ن -
موسى الهادي ٥٦٧	النايبة ٣٤٠ ، ٣٤٣
هاشم ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٠	النبي ٧٤ ، ٧٨ ، ١٠٤ ، ١١٢ ،
٤٠٩ ، ١٤٢ ، ١١٥	١١٤ ، ١٤٣ ، ١٥١ ،
٤٨١ ، ٤٧٨ ، ٤٥٩	١٨٤ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ،
شريح بن هانئ ٢١٣	٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ،
ابن هبيرة ٤٨٢	٢٣١ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ،
الحارث بن هشام ٢١٤	٢٩٤ ، ٣٣٩ ، ٤٢٥ ، ٥٦٦

عمرو بن الوليد ٥٩٥

عبد الله بن وهب ١٥٧

- ي -

يا جوج ٤٨١

عمار بن ياسر ١٤٥ ، ٢٥٥

يثرب ١٥٢

يزداد ٦١٤

ثور بن يزيد ٣٨٢

خلاد بن يزيد ٣٩٣

يحيى ( بن زكريا ) ٢٨٩

جعفر بن يحيى ٥٧٤

الفضل بن يحيى ٥٧٣

سليمان بن يسار ١٠٩

اليقوية ١١٩

ابويكسوم ١٠٦ ، ٥٣٣

اليمن ٤٧٦ ، ٥٣٥ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ،

٥٥١

اليونان ٥١٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٠

الضحك بن هشام ٥٩٥

ابوهفان ٥٨٢

سعيد بن عقبة ( الهنائي ) ٥٠٢

عبد الله بن هلال ٣٨٧

عاصم بن يزيد الهلالي ٥٩٤

الهند ٣٩١ ، ٥٤٩ ، ٥٥٦

مالك بن الهيثم ٤٨٣

- و -

الواقدي ١٤٤

محمود الوراق ٥٧٠ ، ٥٩٢

بديل بن ورقاء ١٦٧

وحشي ٥٣١

سعد بن ابي وقاص ١٦٧ ، ٢٤٨ ،

٣٢٤ ، ٣٥٢ ، ٣٨٨ ،

٣٩٠ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧

خالد بن الوليد ١٨٤ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ،

٣٠٥



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

## فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة عامة
٩	مقدمة رسالة المعاش والمعاد
١٣	مقدمة كتاب الاوطان والبلدان
٢١	مقدمة العثمانية
٢٩	مقدمة رسالة الحكيم
٣٧	مقدمة رسالة فضل هاشم والعباسية
٤٥	مقدمة مناقب الترك
٥١	مقدمة فخر السودان على البيضان
٥٥	مقدمة كتاب الحجاب
٥٩	مقدمة كتاب ذم اخلاق الكتاب

### محتويات المعاش والمعاد

(٦٣ - ٩٢)

٦٥	١ - تقریظ محمد بن ابي دؤاد
٦٩	٢ - موضوع الكتاب
٧٠	٣ - آداب الدين والدنيا واحدة
٧٢	٤ - طبع الناس على حب المنفعة ودفح الضرر
٧٣	٥ - الرغبة والرغبة اساس السياسة
٧٤	٦ - العدل اساس السياسة

الصفحة	الموضوع
٧٦	٧ - لائحة الاسباب والعواقب
٧٨	٨ - الجود والبخل
٧٩	٩ - الصمت والمنطق
٧٩	١٠ - الشجاعة
٨٠	١١ - معاملة العدو
٨١	١٢ - اجناس الناس
٨٢	١٣ - معرفة الأمور الغائبة
٨٤	١٤ - الصداقة
٨٥	١٥ - الخلال المذمومة
٨٨	١٦ - امتداح الذات
٩١	١٧ - سياسة السلطان
٩٣	هامش رسالة المعاش والمعاد

  
 محتويات رسالة الاوطان والبلدان  
 (٩٧ - ١٢٢)  
 مركز بحوث وتوثيق علوم إسلامي

٩٩	١ - موضوع الكتاب
١٠٠	٢ - حب الوطن طبع في الناس
١٠٢	٣ - خصال قريش
١٠٥	٤ - مكة
١٠٦	٥ - خصال هاشم
١١٠	٦ - عودة الى قريش
١١٢	٧ - المدينة
١١٣	٨ - مصر
١١٥	٩ - الكوفة والبصرة
١٢٢	١٠ - الحيرة
١٢٣	هامش الاوطان والبلدان

## محتويات رسالة العثمانية

( ١٢٧ - ٣٢٨ )

- ١ - مقدمة ..... ١٢٩
- ٢ - اسلام ابي بكر افضل من اسلام علي ..... ١٢٩
- ٣ - اسلام علي اقل عن تربية وتأديب ..... ١٣٠
- ٤ - حكم الطباع هو الصحيح ..... ١٣١
- ٥ - لو عرف علي هذا التمييز المبكر لاحتج هو بهذه الآية ولذكرها القرآن والاحبار ..... ١٣٢
- ٧ - أدلة الشيعة على قدم اسلام علي وفضله ورد العثمانية عليهم ..... ١٣٨
- ٨ - أسلم علي وهو يعلم ان له ظهراً يحميه ..... ١٤١
- ٩ - كان ابو بكر ذا ثراء وجاه فلم يخش عليهما، بينما لم يكن علي ذا مال فيخشى عليه ..... ١٤٢
- ١٠ - ابو بكر تحمل التنكيل في سبيل الاسلام بينما كان علي وادع البال ..... ١٤٤
- ١١ - ابو بكر يدعو الناس الى الاسلام فيستجاب له، ويعتق العبيد ..... ١٤٦
- ١٢ - ابو بكر انفق ماله في سبيل الاسلام، بينما لم يكن لعلي مال فينفقه ..... ١٤٨
- ١٣ - قتال علي في سبيل الاسلام لا يصارع احتمال ابي بكر ..... ١٥١
- ١٤ - صحبة ابي بكر في الغار ونوم علي في الفراش ..... ١٥٣
- ١٥ - فروسية علي ليست افضل من رباطة جأش ابي بكر وحزمه في مواجهة المعضلات ..... ١٥٥
- ١٦ - حكمة ابي بكر افضل من فقه علي ..... ١٧٤
- ١٧ - حكمة ابي بكر يوم صلح الحديبية ..... ١٧٦
- ١٨ - حكمة ابي بكر عند موت النبي ..... ١٧٨
- ١٩ - حكمة ابي بكر في الزكاة ..... ١٨٠
- ٢٠ - حكمة ابي بكر في انقاذ جيش أسامة ..... ١٨١
- ٢١ - حكمة ابي بكر في مكان قبر النبي ..... ١٨٢
- ٢٢ - شهادة علي في ابي بكر ..... ١٨٢
- ٢٣ - صدق ظن ابي بكر ..... ١٨٥
- ٢٤ - فقهاء الاسلام ، عودة الى فقه علي ..... ١٨٥
- ٢٥ - علي ليس افقه الناس ..... ١٨٩
- ٢٦ - قصور علي في التدبير والسياسة ..... ١٩٠

- ٢٧ - ابوبكر ازهد من علي ..... ١٩٢
- ٢٨ - علي مزواج علي خلاف ابي بكر ..... ١٩٣
- ٢٩ - تقاضي علي عمالته من الخزينة على عكس ابي بكر ..... ١٩٣
- ٣٠ - انزلت الآي في ابي بكر تكريماً له ..... ١٩٤
- ٣١ - آية الغار ..... ١٩٥
- ٣٢ - آية الصفع عن مسطح بسبب قرف عائشة ..... ٢٠٣
- ٣٣ - آيات أخرى في ابي بكر ..... ٢٠٤
- ٣٤ آية طاعة الرسول واولي الامر ليست في علي وحده ..... ٢٠٦
- ٣٥ - آية الدخول في السلم ليست في علي ..... ٢٠٧
- ٣٦ - تأويل آية يقيمون الصلاة ويأتون الزكاة وهم راكعون ..... ٢٠٨
- ٣٧ - تأويل آية وكفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب ..... ٢١٠
- ٣٨ - تسمية ابي بكر بالصديق دليل على فضله ..... ٢١١
- ٣٩ - تأمير ابي بكر الحج دون علي ..... ٢١٦
- ٤٠ - النبي يعهد الى ابي بكر بام الناس في الصلاة يوم شكاته ..... ٢١٧
- ٤١ - حجج الشيعة في تفضيل علي من الاحاديث ..... ٢٢٠
- ٤٢ - حجج العثمانية في تفضيل ابي بكر من الاحاديث ..... ٢٢١
- ٤٣ - موقف الجاحظ من التعضيل ..... ٢٢٢
- ٤٤ - تأويل العثمانية لحديث : «من كنت مولاه فعلي مولاه» ..... ٢٢٧
- ٤٥ - تأويل العثمانية لحديث «انت مني كهارون من موسى» ..... ٢٣٤
- ٤٦ - تأويل الشيعة لحديث إمرة ابي بكر في الصلاة ورد العثمانية ..... ٢٤١
- ٤٧ - الرد على احتجاج الشيعة بان الناس لم يجمعوا على امامة ابي بكر ..... ٢٤٧
- ٤٨ - تأويل قول ابي بكر : منا امير ومنكم امير ..... ٢٥٠
- ٤٩ - تأويل قول سلمان : كرداذ ونكرداذ ..... ٢٥١
- ٥٠ - موقف بلال من بيعة ابي بكر ..... ٢٥٣
- ٥١ - موقف المقداد من خلافة ابي بكر ..... ٢٥٤
- ٥٢ - موقف عمار بن ياسر من خلافة ابي بكر ..... ٢٥٥
- ٥٣ - موقف ابي فر من عمر ..... ٢٥٦
- ٥٤ - عودة الى اسلام سلمان ..... ٢٥٦

٢٦١	٥٥ - موقف خالد من بيعة ابي بكر
٢٦٤	٥٦ - يستحيل اجماع الناس على الخلافة ، وعلي كان اقل الخلفاء اجماعاً
٢٦٥	٥٧ - تأويل قول ابي بكر : كانت بيعتي فلتة
٢٧٢	٥٨ - الرياسة عند العثمانية لا تنال بالقرابة بل بالدين
٢٧٣	٥٩ - احتجاج العثمانية للتسوية بين الناس
٢٧٧	٦٠ - رد العثمانية على ادعاء الشيعة ان عمر لم يأخذ بالتسوية
٢٨٣	٦١ - الرد على ادعاء الشيعة ان علياً عمل بالتسوية دون عمر
٢٨٥	٦٢ - رد العثمانية على ادعاء الشيعة ان الزبير سل سيفه انتصاراً لعلي
٢٨٩	٦٣ - تأويل قول ابي بكر «وليتكم ولست خيراً منكم»
٢٩٢	٦٤ - تأويل قول ابي بكر : بايعوا ابي هذين شتم
٢٩٧	٦٥ - خلاصة آراء الشيعة والعثمانية
٣٠١	٦٧ - جدل الشيعة والعثمانية حول صحة اسلام ابي بكر
٣٠٧	٦٨ - العامة لا تصلح لاقامة الامام
٣١٤	٦٩ - تكليف الخاصة باقامة الامام
٣١٦	٧٠ - معرفة الامام
٣٢٠	٧١ - وجوه ثلاثة لاقامة الامام
٣٢١	٧٢ - رفض نظرية الشيعة في النص على الامام
٣٢٧	٧٣ - خاتمة
٣٢٩	هامش رسالة العثمانية

محتويات رسالة الحكمين وتصويب علي بن ابي طالب في فعله

( ٣٢٧ - ٣٩٩ )

٣٣٩	١ - موضوع الرسالة
٣٤١	٢ - لا وجه للمقارنة بين علي ومعاوية
٣٤٤	٣ - فضائل معاوية
٣٤٤	٤ - اسس استحقاق الامامة بنظر الجاحظ
٣٤٥	٥ - معاوية لا يستحق الامامة

- ٦ - معاوية يدعي استحقاق الامامة لانه يطالب عليا بدم عثمان ..... ٣٤٥
- ٧ - معاوية يستغل موقف سعد وابن عمر ويفيد من اختلاف جند علي واتفاق جنده ٣٤٦
- ٨ - معاوية يلجأ الى الترغيب بالمال والتولية على عكس علي ..... ٣٥٠
- ٩ - حيلة المصاحف تنطلي على الناس ..... ٣٥٠
- ١٠ - دعاء عمرو بن العاص وغباء ابي موسى الاشعري ..... ٣٥١
- ١١ - دوافع ابي موسى الى موقفه من التحكيم ..... ٣٥٣
- ١٢ - لماذا قبل علي بابي موسى حكماً ..... ٣٥٣
- ١٣ - اسباب ترك علي القتال ..... ٣٥٧
- ١٤ - العمل عند المعتزلة كالقول ..... ٣٦٣
- ١٥ - معاوية لم يمدح علياً بل كان هو المخدوع ..... ٣٦٤
- ١٦ - معاوية ليس ادهى من علي ولكنه كان يستعمل جميع المكاييد حلالها وحرامها  
بينما لم يستعمل علي الا ما وافق الكتاب والسنة ..... ٣٦٥
- ١٧ - كفر معاوية في ادعاء اخوة زياد ابن ابيه ..... ٣٦٨
- ١٨ - موقف الجاحظ الحيادي ..... ٣٦٩
- ١٩ - السفينانية لا تفضل معاوية لمبايعته يزيد ..... ٣٧٠
- ٢٠ - كتاب القضية مدخول لفظاً وشهوداً ومضموناً ..... ٣٧١
- ٢١ - عزل علي معاوية لضلاله فتمرد عليه ..... ٣٧٦
- ٢٢ - الشيعة والخوارج غافلون عن فهم علي ..... ٣٧٧
- ٢٣ - ضلال الخوارج في قضية التحكيم ..... ٣٧٧
- ٢٤ - موقف ابن عباس من عزل معاوية ..... ٣٧٨
- ٢٥ - العامة تستنكر مقتل عثمان فتميل الى معاوية ..... ٣٧٨
- ٢٦ - المعتزلة يتوسطون الفرق ..... ٣٨٠
- ٢٧ - موقف علي والناس من فضل عثمان ..... ٣٨٢
- ٢٨ - أنصار معاوية يحتجون له ..... ٣٨٢
- ٢٩ - موقف طلحة والزبير من علي ..... ٣٨٣
- ٣٠ - احتجاج السفينانية بان معاوية لم يكن قاسطاً ..... ٣٨٤
- ٣١ - احتجاج السفينانية بان عمر وعثمان وليا معاوية وان علياً لم ينل الخلافة  
بالتشاور والاجماع او النص ..... ٣٨٥

- ٣٢ - احتجاج السفينانية بان ولاية معاوية صارت له بوضع اليد ..... ٣٨٦
- ٣٣ - احتجاج السفينانية بان معاوية اولى الناس بمطالبة علي بدم عثمان ..... ٣٨٧
- ٣٤ - احتجاج السفينانية بان الخلافة شورى ، وان معاوية احق بها من بقية الشورى ..... ٣٨٧
- ٣٥ - احتجاج السفينانية بانه لا بد من الدين والسيف في الملك ..... ٣٩٠
- ٣٦ - اسباب صلاح معاوية للخلافة بنظر السفينانية ..... ٣٩١
- ٣٧ - رد الجاحظ على حجج السفينانية ..... ٣٩٢
- ٣٨ - معاوية لم يحتج بحجج السفينانية ..... ٣٩٢
- ٣٩ - اصحاب السير والانباء لم يذكروا حجج السفينانية ..... ٣٩٣
- ٤٠ - حجج السفينانية من عمل المتكلمين ..... ٣٩٤
- ٤١ - حجة السفينانية بعدم توافر الاجماع على علي لا تطعن في خلافته ..... ٣٩٥
- ٤٢ - حجة السفينانية بعدم عمل علي بالشورى لا تطعن في خلافته ..... ٣٩٦
- ٤٣ - علي اولى بالخلافة للقرابة والولاية وعدم الزهد ..... ٣٩٨
- ٤٤ - حق معاوية بالمطالبة بدم عثمان لا يمنحه الحق بالخلافة ..... ٣٩٨
- ٤٥ - علي لم يقتل عثمان ولم يعن عليه ..... ٣٩٩
- ٤٠١ - هامش رسالة الحكمين ..... ٤٠١

مركز بحوث ودراسات إسلامية

محتويات رسالة فضل هاشم علي عبد شمس

( ٤٠٧ - ٤٦٠ )

- ١ - خصال هاشم في الجاهلية ..... ٤٠٩
- ٢ - كرم هاشم ..... ٤١٠
- ٣ - مزايا عبد المطلب ..... ٤١١
- ٤ - نبوة محمد ..... ٤١٢
- ٥ - ايلاف قريش ..... ٤١٣
- ٦ - حلف الفضول ..... ٤١٤
- ٧ - حرب الفجار ..... ٤١٦
- ٨ - مخازي امية مقابل فضائل هاشم ..... ٤١٧
- ٩ - ملوك هاشم اعظم من ملوك امية ..... ٤١٩
- ١٠ - هاشم احق بالخلافة ..... ٤٢٠

الصفحة	الموضوع
٤٢١	١١ - جور أمية
٤٢٤	١٢ - هاشم تنتزع الملك من أمية
٤٢٥	١٣ - مفاخر هاشم بعد الاسلام : الفخر بكثرة الولد
٤٢٧	١٤ - الفخر بالحكمة
٤٢٨	١٥ - فخر هاشم بالبسالة
٤٣١	١٦ - فخر هاشم بالكرم
٤٣٦	١٧ - مفاخر امية بالدهاء والحروب والعلم والشعر
٤٣٩	١٨ - فخر عبد شمس بالخطابة
٤٤٠	١٩ - فخر عبد شمس بالورع والنسك
٤٤٣	٢٠ - فخر امية بالملك
٤٤٤	٢١ - فخر امية بالحسن
٤٤٥	٢٢ - مفاخر امية قبل الاسلام
٤٤٦	٢٣ - رد هاشم على ادعاءات امية الدهاء
٤٤٧	٢٤ - رد هاشم على ادعاء امية الجود
٤٤٧	٢٥ - رد هاشم على ادعاء امية الحلم
٤٤٨	٢٦ - رد هاشم على ادعاء امية الخطابة
٤٤٩	٢٧ - رد هاشم على ادعاء امية الورع
٤٤٩	٢٨ - رد هاشم على ادعاء امية الفقه
٤٥٠	٢٩ - رد هاشم على ادعاء امية البسالة
٤٥١	٣٠ - رد هاشم على ادعاء امية التواضع
٤٥١	٣١ - رد هاشم على ادعاء امية الحسن
٤٥٣	٣٢ - رد هاشم على مفاخرة امية بالنساء
٤٥٥	٣٣ - رد امية على هاشم والدعوة الى التسوية
٤٥٦	٣٤ - جواب هاشم الأخير : لا تسوية بيننا
٤٦١	هامش كتاب فضل هاشم على عبد شمس

### محتويات رسالة العباسية

( ٤٦٥ - ٤٧٠ )

## محتويات رسالة مناقب الترك

( ٤٧١ - ٥١٩ )

٤٧٣	١ - مقدمة .....
٣٧٣	٢ - اعداء السلطان .....
٤٧٥	٣ - اقسام جند الخلافة الخمسة .....
٤٧٦	٤ - لافرق بين الخراساني والتركي .....
٤٧٦	٥ - العرب امة واحدة .....
٤٧٧	٦ - البنوي خراساني .....
٤٧٩	٧ - مفاخر الخراسانيين .....
٤٨٢	٨ - مفاخر العرب .....
٤٨٣	٩ - مفاخر الموالي .....
٤٨٥	١٠ - مفاخر البنوي .....
٤٨٦	١١ - الغاية من وضع الكتاب .....
٤٩١	١٢ - موضوع الكتاب .....
٤٩٣	١٣ - مناسبة تأليف الكتاب .....
٤٩٣	١٤ - خصال الخوارج .....
٤٩٥	١٥ - خصال الاثراك .....
٥٠٨	١٦ - مقارنة الامم .....
٥٢١	هامش رسالة مناقب الترك وعامة جند الخلافة .....

## ١ محتويات رسالة فخر السودان على البيضان

( ٥٢٧ - ٥٥٧ )

٥٢٩	١ - مقدمة .....
٥٣٠	٢ - نجباء السودان .....
٥٣٩	٣ - خصال السودان .....
٥٤٤	٤ - مزايا اللون الاسود .....
٥٤٨	٥ - كثرة عدد السودان واتساع بلدانهم .....

٥٥٤	٦ - أثر البيئة في لون السودان والبيضان
٥٥٩	هامش رسالة فخر السودان على البيضان

## محتويات رسالة الحجاب

( ٥٦٣ - ٥٩٨ )

٥٦٥	١ - مقدمة
٥٦٦	٢ - النهي عن الحجاب
٥٧٠	٣ - شروط الحجاب
٥٧٣	٥ - اخبار واشعار عتاب وهجاء ومديح في الحجاب
٥٩٩	هامش رسالة الحجاب

## محتويات رسالة ذم اخلاق الكتاب

( ٦٠٣ - ٦١٨ )

٦٠٥	١ - المقدمة
٦٠٦	٢ - نماذج سيئة من الكتاب
٦٠٦	٣ - الرسول لم يعرف الكتابة
٦٠٧	٤ - الكتاب اتباع وخدم
٦٠٨	٥ - تكبير الكتاب وادعاؤهم العلم
٦٠٩	٦ - فسق الكتاب
٦٠٩	٧ - المعتزلة يكرهون الكتاب
٦١١	٨ - قلة تعاطف الكتاب
٦١٣	٩ - شؤم الكتاب
٦١٥	١٠ - حساسة ارزاق الكتاب
٦١٦	١١ - بعض اخبار الكتاب
٦١٩	هامش رسالة ذم اخلاق الكتاب